

قراءة لبحوثه بمجمع القاهرة

الدكتور حسن بشير

الدار السودانية للكتب


عبد الله الطيب
قراءة لبحوثه بمجمع القاهرة



قراءة لبحوثه بمجمع القاهرة

الدكتور حسن بشير صديق

الدار السودانية للكتب - الخرطوم

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع : ٢٠٧٦٧ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي : ٧ - ٣٢٨ - ٣٣٦ - ٩٧٧

الدار السودانية للكتب

طباعة ونشر وتوزيع

Al Dar Al Soudania for Books

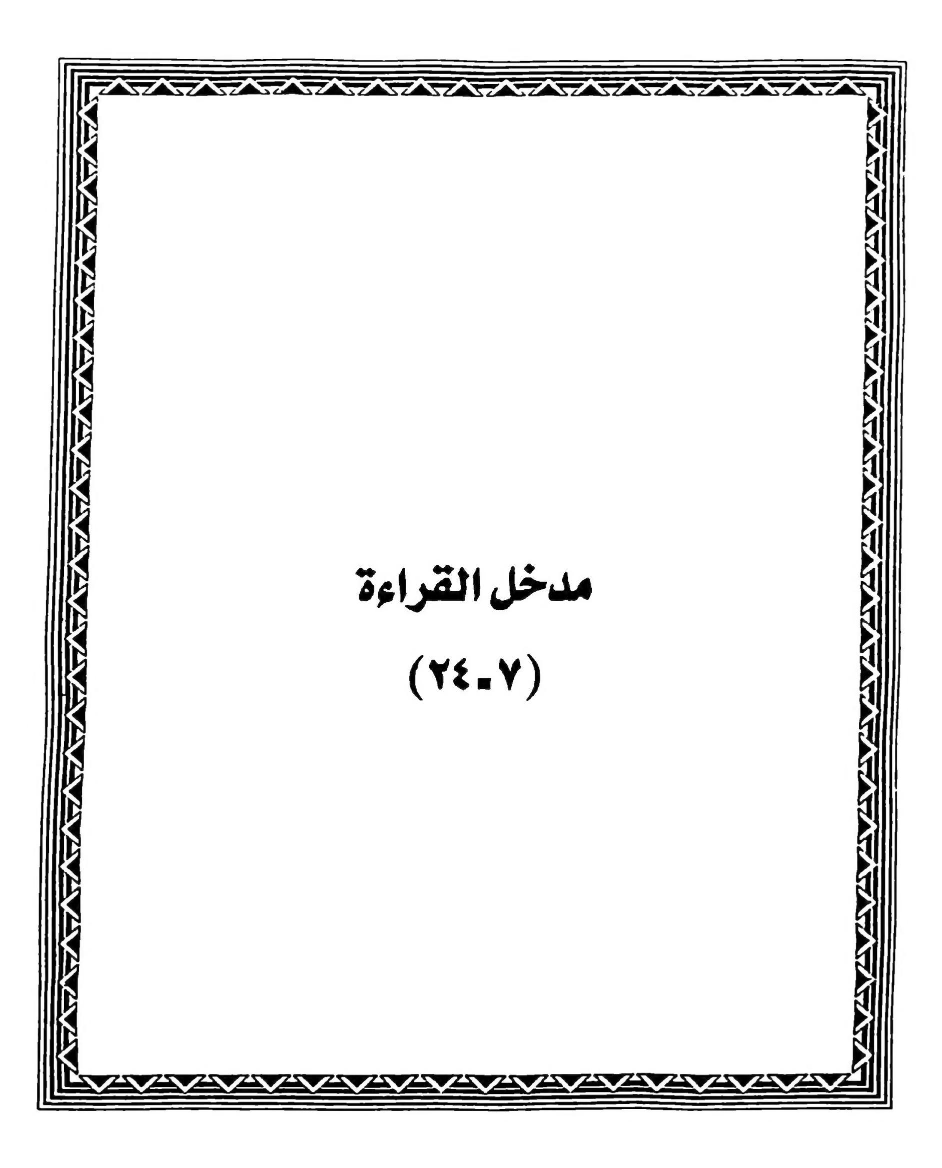
Printing, Publishing & Distribution

السودان - الخرطوم - ش البلدية ، ص.ب: ٢٤٧٣ ، ت: ٧٨٠٠٣١/٧٧٠٣٥٨ ، برقيا : توزيعدار

Sudan-Khartoum-Baladeya St. P.O.Box:2473, Tel:770358 Telg:"TOUZIDAR"

ثبت المحتويات

اهـ ثبت المحتويات



مدخل القراءة

(٧ ـ ٢٤)

مدخل القراءة

اختير الأستاذ الدّكتور عبد الله الطّيّب المجذوب لعضويّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ، ممثّلًا للسّودان ، فِي سنة ١٩٦١م ، ضمن كوكبة العلماء العرب الّتي أطلق عليها المجمعيّون ؛ العقد الذّهبيّ ، وضمّت مَعَ شيخنا موضوع البحث الأساتذة :

أحمد عقبات ـ اليمن ، وإسحاق الحسينيّ ـ فلسطين ، وأنيس المقدسيّ ـ لبنان ، وعبد الله كنون ـ المغرب ، وعلي الفقيه ـ ليبيا ، وعمر فرّوخ ـ لبنان ، وفدوى طوقان ـ الأردنّ ، ومحمّد البشير الإبراهيميّ ـ الجزائر ، ومحمّد بهجة الأثري ـ العراق ، ومحمّد فاضل بن عاشور ـ تونس[١] .

وقال الدّكتور إبراهيم مدكور ، الأمين العامّ لمجمع اللّغة العربيّة آنئذٍ :

زملاؤنا الجدد بين أديبٍ ، ولغويٍّ ، وفقيهٍ ، وقانونيٍّ ، وعالِمٍ مؤرّخ ، وصحفيٍّ ، وسياسيٍّ .. ؛ فالدّكتور عبد الله الطّيّب رمز الشّباب بين الخالدين . تخرّج فِي كليّة غردون ، وجامعة لندن ، ورأس شعبة اللّغة العربيّة بجامعة الخرطوم ، ودرّس فِي معهد الدّراسات الشّرقيّة بجامعة لندن ، وصار الآن[٢] عميدًا لكليّة الآداب بجامعة الخرطوم .

أوّل جلسةٍ حضرها شيخنا هي دورة مؤتمر مجمع اللّغة العربيّة رقم (٢٨) ، المنعقدة فِي ١٢ من مارس ١٩٦٢ م . وقد كانت الدّورة كلّها حفل استقبال لشيخنا وزملائه . وآخر جلسةٍ حضرها هي دورة مجمع اللّغة العربيّة رقم (٦٦) ، المنعقدة فِي ٥ من أبريل ٢٠٠٠م .

وبين رقمَيْ الابتداء والنّهاية تسعةٌ وثلاثون مؤتمرًا عامًّا لمجمع اللّغة العربيّة ، وقد كَانَ لشيخنا حضوره الكامل المميّز خلال الامتداد الزّمنيّ بين البداية والنّهاية ؛ كَانَ باحثًا ، وكان محاضرًا ، وكان مناقشًا ، وكان ساعيًا بالعربيّة تأصيلًا ، وتطويرًا ، ومواكبةً للعصر .

---

(١) قرار رئيس الجمهوريّة العربيّة المتّحدة ، رقم ٥٧ ، لسنة ١٩٦١م .

(٢) ١٢ من مارس ١٩٦٢ م .

فِي مارس الماضي ٢٠٠٧م ؛ حلّتْ بي الدّعوة الكريمة من أُستاذي الدّكتور كمال بشر ، نائب رئيس مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ؛ لحضور احتفالات المجمع بعيده الماسي[١]، وحضور المؤتمر العام للمجمع ، فِي دورته الثّانية والسّبعين[٢] . وقد عُقدتْ هَذِه الدّورة تحت شعار «مجامع اللّغة العربيّة ـ رؤية مستقبليّة» . وقد أفدت من هذا الحضور إفاداتٍ ضخمةً متنوّعةً ، ليس هنا مكان تفصيلها . وفيما أفدت اطّلاعي عَلى كوكبة البحوث رفيعة المستوى الّتي قدّمها شيخنا أثناء فترة عضويّته بالمجمع .

ستّةٌ وثلاثون بحثًا أصيلًا وجديدًا ، كلّ واحدٍ منها يؤصّل ، ويجدّد ، ويمتع بطريقةٍ غير مألوفةٍ ؛ وهذا هو لبّ منهج عبد الله الطّيّب . وقد لاحظ ذلك الدّكتور طه حسين ، فِي تقديمه لكتاب شيخنا ؛ «المرشد إِلى فهم أشعار العرب وصِناعتها» ؛ فقال : « هَذَا كتابٌ ممتعٌ إِلى أبعد غايات الإبداع ، ولا أعرف أنّه أتيح لنا مثله فِي العصر الحديث » .

ولمجرّد التّمثيل لمناقشته للقضايا غير المعروفة وغير المألوفة ، بحثه المعنون «مع ابن التّلاميد وصرف عمر» ؛ فإنّ علماء النّحو مجمعون عَلى أنّ الاسم «عمر» ممنوعٌ من الصّرف ، ولكنّ عبد الله الطّيّب يطرح رأي ابن التّلاميد الشّنقيطيّ ويناقشه . فإنّ العلّامة محمّد محمود ابن التّلاميد يقرّر أنّ «عمر» مصروفٌ ، وأنّ القول بمنعه من الصّرف مذهبٌ أعجميٌّ نسبه النّحاة إِلى الخليل خطأً :

مقالتهم بالمنع والعدل مفترى عَلَى عمرٍ ذي الصّرف رغمًا عَلى رغم[٣]

ومن ذلك أيضًا إثباته بأنّ بلاد الحبشة يُعنى بها فِي القديم بلدنا السّودان ، فهجرة المسلمين الأولى كانت إليه ، وكانت إِلى العاصمة آنذاك مروي البجراويّة ، بالقرب من بلدة كبوشيّة شماليّ شندي . ويؤصّل هَذَا الرّأي بأدلّةٍ عقليّةٍ غايةٍ فِي الشّفافيّة ، وبأدلّةٍ نقليّةٍ عن المسعودي ، وعن هيرودتس[٤] .

---

(١) كانتْ بالجامعة العربيّة بالقاهرة ، خلال يومَيْ ١٧ و ١٨ من مارس ٢٠٠٧ م .

(٢) كانت بمجمع اللّغة العربيّة بالزمالك ، (١٩/ ٣ – ٢/ ٤)/ ٢٠٠٧ م .

(٣) تفاصيل وافية في المحور الحادي عشر من هذا الكتاب ، وفي مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة جـ ٦٠، ص ٣١٧ .

(٤) المحور الثّالث عشر ، من هذا الكتاب . ومجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ، جـ ٨٠ ، ص ١٨١ .

هذه ستّةٌ وثلاثون بحثًا منسوبةٌ إلى مؤلّفها الأستاذ الدّكتور عبد الله الطّيّب المجذوب .

أمّا مجهودي فِي هَذَا الكتاب فمحصورٌ فِي الآتي :

أوّلًا - تأليف المقدّمة المدخليّة ، المسمّاة وَفق خطة الكتاب ؛ مدخل القراءة .

ثانيًا - عرض البحوث وفق محاورها الموضوعيّة ؛ وَفْق التّقسيم الّذي صمّمتُه لهذه المحاور .

ثالثًا - تأليف الخاتمة الّتي تلخّص أهمّ النّتائج لتلك البحوث ، وتبرز الجديد فيها ؛ وذلك وَفْق قراءاتي الخاصّة لها .

رابعًا - فِي مجهودي جمع تلك البحوث من مصادرها المختلفة ، وتصنيفها وفق المنهج الفنّي للبحث العلميّ المتقدّم .

خامسًا - فِي مجهودي نشر تلك البحوث فِي كتابٍ يكون متاحًا لطلّاب العربيّة وآدابها ، ويشكّل مرجعيّةً قويّةً لفكر أستاذي عبد الله الطّيّب المجذوب ، ومجهوداته المتميّزة فِي خدمة العربيّة وآدابها .

سادسًا - وفِي مجهودي إعداد الفهارس الفنّيّة ، وهي خمسةٌ ؛ تمكّن الباحث من الرّجوع إلى مستهدفه بصورةٍ دقيقةٍ : أوّلها - فهرس الكتب ، وثانيها - فهرس الشّعراء ، وثالثها - فهرس الأعلام غير الشّعراء ، ورابعها - فهرس الأماكن والبلاد والقبائل ، وخامسها - فهرس الهيئات والمؤسّسات .

سابعًا - وفِي مجهودي إعداد الملاحق ، وتصميمها ، وإخراجها . وفيها أربع جزئيّاتٍ : الأولى - فِي الخطاب الإنشائيّ لعبد الله الطّيّب ، والثّانية - عبد الله الطّيّب يتحدّث عن طَرَفٍ من سيرته ، والثّالثة - استقبال أحد عشر عضوًا عربيًّا [فيهم عبد الله الطّيّب] ، للدّكتور إبراهيم مدكور . والرّابعة - عبد الله الطّيّب فِي آراء المجمعيّين العرب والمستعربين .

وممّا يتّصل بي أنّ هناك أربعَ ملاحظاتٍ يهمّني أن يفهمها الباحثون وطلّاب الدّراسات العربيّة والقرّاء :

الأولى - تعليقات الأساتذة المجمعيّين عَلى محاضرات عبد الله الطّيّب .

إنّ بعض البحوث المستهدفة بالقراءة كَانَ شيخنا قد قدّم كلًّا منها محاضرةً ، وقد حفظت مضابط مجمع اللّغة العربيّة تعليقاتٍ ومناقشاتٍ وحواراتٍ لهذه البحوث غايةً فِي الأهميّة ؛

لأنّها أُجريت عَلى مستوى القمم فِي العلم العربيّ . ولكمال الفائدة أثبتُّ هَذِه التّعليقات ذيل المحاضرات الخاصّة بها .

الثّانية ـ هوامش البحوث :

الأصل فِي هوامش هَذِه البحوث وَفْق محاورها الموضوعيّة ؛ أنّها لصاحب البحوث عبد الله الطّيّب المجذوب . وإذا اقتضى أمر قراءاتي الخاصّة تصميم هامشٍ ما ؛ فإنّني سأميّزه بكلمة (حسن) بين قوسين ، عقب نهاية الهامش المعني مباشرةً .

الثّالثة ـ المصادر والمراجع :

آثرتُ ترك المصادر والمراجع وفق تصميم صاحب البحوث ، وهي عنده مذكورة فِي أمكنتها وفق سرده المنهجيّ للبحث المعيّن . وما فعلته بصدد ذلك أنّي فهرستُ هَذِه المصادر والمراجع ، ضمن الفهارس الفنّيّة ، بعنوان فهرس الكتب ؛ حتّى يسهل رجوع الباحث إليها فِي أمكنتها من تلك البحوث .

الرّابعة ـ الاختصارات :

أ ـ (حسن) ؛ أعني شخصي الأستاذ الدّكتور حسن بشير صديق .

بـ ـ المجمع ؛ أعني مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة .

جـ ـ المجلّة ؛ أعني مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة .

د ـ شيخنا ؛ أعني الأستاذ الدّكتور عبد الله الطّيّب المجذوب .

وقد أخّرتُ المختصر (شيخنا) ؛ لأنّه تتعلّق به كلمةٌ ، فقد تتلمذْتُ عَلى عبد الله الطّيّب تلمذةً حقيقيّةً ، فالتّعبير إذن من باب الحقيقة .

فقد درستُ عليه أمّهات كتب اللّغة والأدب دراسةً غايةً فِي الإفادة والإمتاع ؛ ضمن طلّاب صفّ الشّرف بجامعة الخرطوم ، وأعترف أنّ هَذِه الحلْقة العلميّة رفيعة المستوى فتّحت لِي أبواب البحث العلمي المتقدّم مشرعةً .

ثمّ أشرف عَلى رسالتي للماجستير ، وعنها تمخّض كتابي المعلّقات السّبع ؛ دراسةٌ للأساليب والصّور والأغراض . وفِي هَذِه الفترة كَانَ يستقبلني فِي بيته ببرّي قبل شروق شمس كلّ يوم إثنين . ثمّ سافر أُستاذي لجامعة سيدي محمّد بن عبد الله بفاس ، وسافرْتُ

للعمل محرّرًا بجريدة الاتّحاد الظّبيانيّة ؛ فإذا برسالته ؛ إذا أكملت بحثك عليك أن تحضر لفاس لعرضه عليّ ، وأخبرني برقم رحلتك وتاريخها لاستقبالك . لكنّي سافرتُ ونزلتُ فِي الفندق ثمّ هتفتُ لَهُ ليصف لِي البيت . فأصَرّ أن أنتظره بالفندق ، ثمّ أصرّ أن يأخذني للإقامة معه بمنزله العامر ، وقال لِي : عندي حجرةٌ خاصّةٌ بالطّلّاب ، وقبلك كانت فاطمة أمين بها .

انتهيتُ من عرض بحثي ، وكتب لِي بإذن الطّباعة ، وكتب لِي رسالةً إِلى الأستاذ الدّكتور صلاح الدّين المليك ؛ لمتابعة الطّباعة معي . ولمّا استأذنتُه عقب ذلك للسّفر كانتْ المفاجأة :

- تبقى معنا أسبوعًا واحدًا .
- لماذا يا أستاذي ؟
- لتقرأ لِي المعلّقات ، فمنذ أمدٍ لم أقرأها .
- أمْرُ هَذِه القراءة تابعٌ لرسالتي للماجستير ؟
- لا . لا علاقة لَهُ البتّة بذلك .

وكان أسبوعًا ممتعًا ، وله علاقةٌ وطيدةٌ بتطوير دراستي للأدب الجاهليّ .

وإذا كنتُ فِي بيت شيخنا فِي فاس فلابدّ من كلمة شكرٍ لأمّنا جوهرة ، زوجة شيخنا ورفيقة دربه وأمّ طلّابه ؛ فقد حبتني بإكرامٍ فائضٍ ؛ حتّى أنّها كانت تقدّم لنا الشّاي بالحليب مَعَ القهوة ، ضمن وجبة الإفطار ، والّذي من عادتها أن تقدّم القهوة وحدها مَعَ الإفطار .

قد أردت بهذه الكلمة عن شيخنا أن أقول : إنّ تميّز عبد الله الطّيّب لم يكن قاصرًا عَلى بناء شخصيّته العلميّة رفيعة السّمك ؛ ولكنّه متميّزٌ فِي رعاية طلّابه وتعليمهم وتدريبهم ودفعهم لميادين التّفوّق . فَمَنْ منّا الآن يستقبل طالبه فِي بيته بُعيد صلاة الفجر ؟ ومن منّا الآن يستضيف طالبه اللّيالي ذات العدد ببيته ؟ ومن منّا يكتب رسالةً ابتدائيّة لطالبٍ يُشْرف عليه، ليوجّهه إِلى المطلوب عمله بصدد بحثه ؟ ومَنْ منّا الآن يحرص عَلى تزويد طالبه بمعلوماتٍ مؤثّرةٍ عَلى مستقبله العلميّ من خارج خطّة البحث المقرّر ؟

ولمّا انتهيتُ من الماجستير طلب مني أنْ أسجّل معه الدّكتوراه فِي وصف الدّرع فِي الشّعر الجاهليّ ؛ فقلتُ لَهُ إنّني أرغب فِي دراسةِ النّصّ القرءانيّ . فقال : إذنْ نسجّلك مَعَ الحبر ؛ فالموضوع أدخل لتخصّصه ، وكنتُ محظوظًا أنْ أدرس الشّعر الجاهليّ عَلى عبد الله الطّيّب ، وأن أدرس القرءان عَلى الحبر يوسف ؛ وهي الدّراسة الّتي تمخّض عنها كتابي الّذي يُعدُّ الآن للطّبعة الثّالثة ؛ «التّفسير التّطبيقيّ ؛ منهجٌ علميٌّ لدراسة النّصّ القرءانيّ» .

فَمَنْ منّا الآن يحيل إشراف طالبٍ راغبٍ فِي الإشراف عليه لزميله الآخر ؛ لأنّ الموضوع أدخل إلى دائرة تخصّصه ؟

إلى هنا يحسن بي أن أتوقّف عن الجزء الأوّل من هَذَا المدخل ، لأعرض موجزًا للجزء الثّاني الخاصّ بإضاءةٍ تستكشف منهج قراءة تلك البحوث ؛ وهو قسمٌ يرتبط أصيلًا ببحوث شيخنا ، وفق تصميم المحاور الخاصّة بالكتاب .

ففِي عموميّات فنّ الأدب تدور البحوث حول : الشّوق والحنين ، واللّيل والنّجوم ، والأثافِي والرّماد والحمام . فالشّوق والحنين من أعمق المعاني الإنسانيّة ، ومن الرّموز الكبرى لهذه المعاني فِي أدبنا العربيّ . وكثيرًا ما يرمز أدبنا القديم لذلك بالمعاهد ، والدّيار ، والمنازل ، والبرق وتوابعه .

واللّيل والنّجوم من قديم ما لهج به الشّعراء . ولا غرو فاللّيل فيه المأوى والهدوء ، كما فيه الوحشة والرّعب والغوامض والمجهولات .

أمّا الأثافِي والرّماد والدّيار فبينها علاقاتٌ ووشائج ، وهذه العلاقات متّصلةُ الرّمزيّة بالحمام والنّار . ففِي بيت النّابغة :-

تجلو بقادمتَيْ حمامة أيكةٍ   بردًا أسفّ لثاته بالإثمد

تشبيه لشفتَيْ الحبيبة بقادمتَيْ الحمامة ، الأمر الّذي ينقلنا بهذا الرّمز إلى الحبيبة وجمالها الباهر .

وفِي فنّ الشّعر خاصّةً ، وهو الفنّ الّذي يسيطر عَلى بحوث شيخنا لا فِي هَذَا المحور ، بل فِي كلّ المحاور ، والأمر هنا أمر خصوصيّة التّحديد المنهجيّ ليس إلّا . والبحوث هنا تدور حوْل : مقدّمات القصيد ، وطبيعة الشّعر العربيّ ، والأوصاف والكنايات فِي الشّعر ، وفنّ

المديح النّبويّ ، وعمود الشّعر عند المرزوقيّ ، ففِي مقدّمات القصيد صفاتٌ اتّفقوا عليها ، بعضها متعلّقٌ بمعاني الجمال ، وبعضها متعلقٌ بمعاني الوصل واللّهو واللّذة . وإنّما لجؤوا إِلى هَذِه النّماذج أربًا فِي أنْ يتشابهوا فِي القول . بقول زهيرٌ .

ما ترانا نقول إلّا معادًا　　أومعادًا من قولنا مكرورًا

ويقول عنترة :

هل غادر الشّعراء من متردّم　　أم هل عرفتَ الدّار بعد توهّم

وعنترة هنا يمثّل ثورةً عارمةً عَلى النّماذج المتشابهة .

وللشّعر العربيّ طبيعةٌ خاصّةٌ فارقةٌ لَهُ من جميع أنماط الكلام ؛ وهي طبيعةٌ مؤسّسة عَلى النّغم الّذي أفرزه الذّوق العربيّ . وللنّغم أربعة عناصر ؛ الموازنة ، والسّجع ، والتّجنيس ، والقافية . وما لم تتوفّر فيه أربعة العناصر المعنيّة فليس بشعرٍ عَلى حدٍّ تعبير شيخنا ، ولو كَانَ من مثل قول القاضي الفاضل :

فهذه الكتب المهداة

والسّحب المنشاة

فروعها المصنّفة ستّة أصناف

وأصلها كتابه الكريم

وأجزاؤه المؤلّفة تسعة أصداف

وكلّها

درّة اليتيم[١] .

وفِي مجال الأوصاف يرى شيخنا أنّ النّقّاد العرب قد عدّوا إصابة الوصف من محاسن الشّعر ، وعلى ذلك عابوا أشعارًا لم تحسن الإصابة فِي الوصف ، ومدحوا أشعارًا أصابتْ فِي ذلك . وممّا مدحوا قول امرئ القيس :

وقد أغتدي والطّير فِي وكناتها　　بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل

وقول عنترة فِي فرسه الأدهم :

---

(١) محاضرته في المؤتمر العام للمجمع ، الدّورة ٢٩ .

لو كَانَ يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلّمي

وفِي محاضرته عن شعر المَديح النّبويّ[1] يقرّر أنّ مدح الرّسول ﷺ يمثّل ذروة فنون أشعار العربيّة ، فِي اللّغة الفصيحة ، واللّغة الدّارجة . والشّاعر عندنا فِي السّودان كَانَ يطلق عَلى مادح الرّسول ﷺ . أمّا المتغزّل ونحوه فمغنٍّ . وفِي بداية شعر المديح قصيدة كعبِ بن زهيرٍ :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّمٌ إثرها لم يفد مكبول

وقد بلغ فنّ المديح الذّروة فِي القرن السّابع ، عند البوصيري ، صاحب البردة والهمزيّة. وهو من فحول العربيّة عَلى الإطلاق ، ومكانه مَعَ أبي الطّيّب ، والبحتريّ ، وأبي تمّام . وفِي مناقشته لعمود الشّعر عند المزروقيّ يؤكّد أنّ عمود الشّعر قوامه ، وأنّ المرزوقيّ هو الّذي جعل لعمود الشّعر أبوابًا .

وفِي دراسة شيخنا للنّصوص الأدبيّة تناول فنونًا بعينها ، مثل : الدّرعيّات ، والقصيدة المادحة . وتناول عملًا أدبيًّا بعينه ، مثل : عينيّة سُوَيْد بن أبي كاهلٍ ، ووصف جزيرة توتي للتّجاني يوسف بشير .

فالدّرعيّات إحدى وثلاثون كلمةً شعريّةً أملاها أبو العلاء المعرّي فِي ختام ديوانه سقط الزّند ، وكلّها فِي وصف الدّرع . وأبو العلاء هو الّذي أسماها الدّرعيّات ، ونصّ عَلى أنّها ليستْ من متن سقط الزّند .

وفِي بحثه القصيدة المادحة قرّر أنّ المديح أصلٌ فِي الشّعر العربيّ ، والفخر والهجاء والرّثاء فروعٌ منه . وهو المرشد إِلى طريق المعالي ، كما يقول أبو تمّام :

ولولا خلالٌ سنّها الشّعر ما درى بغاة النّدى من أين تؤتى المكارم[2]

وفِي دراسته لعينيّة سُويْد بن أبي كاهلٍ تفاصيل دقيقةٌ عن القوافِي المطلقة ، والقوافِي المقيّدة. وعينيّة سويد من القوافِي المقيّدة ؛ فحرف الرّويّ فيها ساكنٌ :

---

(١) مؤتمر مجمع اللّغة العربيّة ، الدّورة ٤١ .

(٢) المؤتمر ، الدّورة ٣٨ .

بسطتْ رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتّسعْ[١]

وبصدد وصف جزيرة توتي ، للتّجاني يوسف بشير ؛ يذكر أنّ جزيرة توتي اسمٌ لجزيرة ملتقى النّيلين ؛ النّيل الأزرق والنّيل الأبيض ، وهما يلتقيان عند العاصمة السّودانيّة الخرطوم. ومبدع النّصّ من شعراء السّودان المحدثين الأفذاذ . وقد كَانَ شاعرًا محسنًا مبدعًا ، عَلى حدِّ عبارة شيخنا . والمراد بالقصيدة كلمته المبدوءة :

يا درّةً حفّها النّيل واحتواها البَرُّ

وله فِي مجال دراسة السّيرة الأدبيّة للأعلام بحثان قيّمان :

أوّلهما ـ حول أبي الطّيّب ، وثانيهما ـ العقّاد الشّاعر . فأبو الطّيّب شاعرٌ فذٌّ طموحٌ يحتلّ مكانةً متقدّمةً فِي شعر المدح ذي الطّابع السّياسيّ ؛ تأييدًا ومعارضةً . وليس لَهُ مثيلٌ من حيث التّهكم ، وصدق الوقائع ، وموسيقيّة الشّعر ، وأنغام القصيد . وقد جدّد فِي أساليب اللّغة العربيّة ، فتطوّرت لغة الشّعر بنتاجه :

فإن كَانَ يبغي قتلها يكُ قاتلًا بكفّيه ؛ فالقتل الشّريف شريف

وأبو الطّيّب يكسب الأسلوب الشّعريّ المضامين الفلسفيّة والحكميّة ؛ ففِي بيته : ـ

حُسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ وفِي البداوة حُسْنٌ غير مجلوب ـ

يكشف عن فهمٍ حقيقيٍّ للبداوة والحضارة ؛ وهوكشفٌ أشبه بالفلاسفة والحكماء .

ومن أبي الطّيّب فِي العصر العبّاسيّ ، إِلى العقّاد فِي العصر الحديث ؛ فعبّاس محمود العقّاد شاعرٌ لا يشقّ لَهُ غبارٌ ، وأكثر نثره مسوّداتٌ لقصائد ضخامٍ كانت تعتمل فِي نفسه ، عَلى حدّ تعبير شيخنا . وهو من هَذَا الباب يشبه أحمد شوقي . وهما معًا يمثّلان بقيّة الوثبة البيانيّة الّتي كَانَ قد وثبها الباروديّ . ولكنّ ديباجة العقّاد ـ عنده ـ دون ديباجة شوقي فِي الكثير الغالب . وقد تفرّد العقاد عن شوقي بحمل لواء التّجديد والتّوليد[٢] .

وفِي مجال النّقد الأدبيّ القديم قدّم شيخنا بحثَيْن اثنَيْن ، الأوّل منهما المعنون ؛ مَعَ أبي

---

(١) المؤتمر ، الدّورة ٣٩ .

(٢) المؤتمر ، الدّورة ٣١ .

تمّام النّاقد ، والثّاني ؛ نقد الشّعر عند صاحب المثل السّائر . فقد كَانَ أبو تمّام عالمًا بالشّعر نقّادةً لَهُ ، وقد كَانَ مشهورًا بذلك ، ومشهودًا لَهُ فيه بالتّمكّن ، وصحّة الذّوق . وهذا هو ما دفع الآمديّ المتحامل عليه ؛ أن يشهد لَهُ بالدّراية بالشّعر ونقده . ومن تعبير شيخنا : مثل الآمديّ مَعَ أبي تمّام كمثل ابن وكيع مَعَ أبي الطّيّب .

وفِي بحثه الثّاني الّذي قدّمه محاضرةً فِي المؤتمر العام لمجمع اللّغة العربيّة[1] أثار أهمّ قضيّتَيْن فِي نقد الشّعر عند ابن الأثير ؛ ضرورة معرفة النّحو والصّرف واللّغة ، ومسألة العمق الشّعريّ الّذي لا يتوصّل إليه بشرح المعاني ومعرفة وجوه الإعراب ؛ ولكن لابدّ مَعَ ذلك من التّغلغل إِلى ما اشتمل عليه الشّعر من أسرار الفصاحة والبلاغة . وقد فطن ابن الأثير إِلى أنّ ظاهر المعنى واللّفظ فِي الأشعار إنّما يمثّل جانبًا من كلّها ودلالتها . وأسرار الفصاحة والبلاغة هي الّتي يكمن فيها جوهر الدّلالة الشّعريّة .

وجوهر ما أثاره ابن الأثير أنّ اللّغة العربيّة وآدابها دائرةٌ واحدةٌ متكاملةٌ ، وخير من يمثّل هَذَا التّكامل شيخنا ، فكان يدرّس الأدب الجاهليّ ، كما يدرّس العباسيّ ، كما يدرّس الأندلسيّ. وكان يدرّس النّحو والصّرف واللّغة والعروض والقافية . وكان يقول لنا : إنّ العربيّة شجرةٌ واحدةٌ . وقال لي بعد نيل الدّكتوراه : إذا قيل لك يا حسنْ ؛ درّس أيّ فرع من فروع العربيّة حضّرْه ودرّسْه ؛ فالعربيّة شجرةٌ واحدةٌ .

فِي سنة ١٩٨٧م ، كنتُ مدرّسًا فِي قسم اللّغة العربيّة ، بكلّيّة الآداب بجامعة الإمارات العربيّة المتّحدة . وهناك فِي قاعة السّليمي بمدينة العين ، استمعتُ إِلى محاضرة شيخنا المعنونة ؛ حتّامَ نحن مَعَ الفتنة بإليوت ؟ ثمّ أثناء مشاركتي هذه السّنة ٢٠٠٧م في مؤتمر مجمع اللّغة العربيّة الدورة (٧٢) ، قرأتُ مقالًا بنفس عنوان المحاضرة منشورًا بمجلة المجمع[2] ، وأشهد أنّ المحاضرة الذّهنيّة غير المكتوبة كانت أكثر روعةً وإمتاعًا بالنّسبة لي . ولكن ما يعنيني هنا وفق الخطّة المنهجيّة للكتاب مقاله بالمجلّة ؛ حتّامَ نحن مع الفتنة بإليوت .

تي . إس . إليوت صاحب مكانةٍ مرموقةٍ عند الإنجليز ، يشبه فِي ذلك العقّاد وطه حسين عند العرب . والفتنة بإليوت عند أدباء العرب المعاصرين كثيرةٌ ، وغير مبرّرةٍ ؛ فهم ينسبون إليه تفوّقًا وإبداعًا وابتكارًا ليس لَهُ . وممّا ينسب إليه فِي باب الابتكار مذهبه فِي الإشارات والاقتباس.

---

(١) الدّورة ٤٨ .

(٢) مجلة مجمع اللّغة العربيّة ، جـ ٤٨ ، ص ٤٩ .

والحقيقة أنّ مذهب الإشارات والاقتباسات قديمٌ فِي اللّغة الإنجليزيّة ، وأقدم فِي اللّغة العربيّة . وقد افتنّ فِي مذهب الإشارات والاقتباسات من الجاهليّين ؛ زهيرٌ ، والنّابغة . ومن العصور التّالية للعصر الجاهليّ افتنّ فيه ؛ الفرزدق ، وجرير ، وذو الرّمّة ، وأبو نوّاس ، وأبو تمّام، وأبو العلاء ، والحريريّ . وفِي هَذَا المقال عالج شيخنا كيف عبرتْ أفكار امرؤ القيس ، والمثقّب العبديّ ، وصورهما الشّعريّة إِلى إليوت .

وفِي كوكبة بحوثه بمجمع القاهرة بحثٌ عن اللّغة العربيّة المعاصرة[1] ؛ لأنّ اللّغة العربيّة بكلّ فروعها ميدان بحثٍ متقنٍ عند عبد الله الطّيّب ؛ وعبارة العربيّة المعاصرة قويّة الدّلالة عَلى معنى الدّوران فِي الاستعمال والسّيرورة . والعبارة المقابلة فِي اللّغة الإنجليزيّة تشير إِلى التّطوّر اللّغويّ التّاريخيّ ، كما تشير إِلى التّغيير الجوهريّ . والأمر بهذه الدّلالات فِي الإنجليزيّة لا ينطبق عَلى اللّغة العربيّة ؛ لأنّ العربيّة لم يحدث فيها تغييرٌ جوهريٌّ منذ العصر الجاهليّ الّذي وصلتنا رواية أشعاره وخطبه وأمثاله ؛ فالعبارة غير دقيقةٍ إذا أردنا التّعبير بها عن الدّلالة عَلى معنى الصّلاحيّة للتّعبير عن الأفكار والمعارف العصريّة . ولا تصحّ بالنّسبة للّغة العربيّة قسمتها إِلى قديمةٍ ومتوسطةٍ وحديثةٍ . والصّواب قسمتها إِلى العربيّة الفصيحة ، والعربيّة الدّارجة .

وفِي ميدان الموازنات اللّغويّة بين العربيّة الفصيحة والعربيّة الدّارجة لشيخنا خمسة بحوثٍ؛ حول العاميّ والفصيح ، وبين الفصحى والعاميّة فِي وسائل الإعلام ، وبين الفصحى والدّارجة ، والعربيّة فِي السّودان ، ومن تجارب تعليم العربيّة فِي إفريقيّا .

ففِي بحثه «حول العاميّ والفصيح[2]» أنّ الفصاحة جمال اللّغة ، وقد تكون هَذِه الفصاحة فِي الحواضر ، وقد تكون فِي البوادي . فِي الحواضر يكون ذلك فِي دور العلم ، وفِي البادية يكون ذلك هو الوجه فِي كلّ ضروب التّكلّم والمخاطبة . واللّغة الفصيحة والعاميّة فِي أصلها شيءٌ واحدٌ . وكان يفرق بينهما من خلال طرائق نطق الكلام .

فالنّاس حين يتكلّمون تغلب عليهم أساليب من العجلة ، فربّما بتروا الكلمات أو

---

(١) المجلّة ، جـ ٦٦ ، ص ١٩٠ .

(٢) المجلّة ، جـ ٦٦ ، ص ١٩٠ .

أدخلوا بعضها عَلى بعضٍ . وروى ابن جنّي فِي المحتسب أنّه سمع امرأةً تلوم بناتها إذ رأتهنّ يتحدّثن إِلى رجلٍ أو رجالٍ غرباء ، فقالتْ : «أفِسَّوَتِنْتُنْ» ؟ أيْ أفِي السّوأة أنتنّ ؟ سهّلتْ ، ونقلتْ ، وأدخلتْ كلامًا فِي كلامٍ .

فِي بحثه المسمّى «بين الفصحى والعاميّة فِي وسائل الإعلام»[١] أنّ كثيرًا من العاميّة العربيّة لها أصولها وروابطها الفصيحة . وعاميّتنا فِي السّودان خير مثالٍ لذلك . فإذا قَالَ أحدهم : أتاني رجلٌ ؛ تقول : (مِنو) وتعني مَنْ هُوَ ؟ وللمرأة (مِني) ؟ وتعني مَنْ هِيَ ؟ وقد نشر الإعلام العربيّ الحديث مظاهر كثيرةً للكلام المُعْرَب أو المقارب للمعرب عَلى نطاقٍ واسعٍ . ولكنّ أسلوب الإعلام أشاع اللّين واللّكنة الأعجميّة فِي الأساليب العربيّة .

ومن الحكمة عدم محاربة العاميّة ؛ ولكن علينا أن ندرس الفصيحة لنفهم القرءان والحديث والفقه وأدب العرب . ويمكننا أن نستفيد من العاميّة لما ينبعث فِي بياننا من حينٍ إِلى حينٍ من بلاغةٍ وفصاحةٍ .

أمّا العربيّة فِي السّودان فقديمةٌ ، دخلته قبل الإسلام وبعده[٢] . وعاميّتنا السّودانيّة فصيحةٌ ، وذات ارتباطاتٍ واضحةٍ بالأصول اللّغويّة العربيّة . وهناك أعلامٌ درسوا وألّفوا فِي هَذَا الموضوع ، منهم : العلّامة محمّد نور الحسن ، والعلّامة عبد الله عبد الرّحمن الضّرير ، والأستاذ محمّد عبد الرّحيم ، والأستاذ مكّي شبيكة ، والأستاذ يوسف فضل ، والدّكتور الرّيّح العايد الرّوس ، والدّكتور محمّد عوض ، والدّكتور محمّد عبد العزيز والدّكتور عبد المجيد عابدين .

وللعربيّة تجاربها الكبيرة فِي قارة إفريقيّا ، نخصّ منها تجربة تعليم العربيّة لقومٍ ناطقين بغيرها . فلقد نفذ إِلى أعماق غابات جنوب السّودان نوعٌ من اللّغة العربيّة ذو عجمةٍ إفريقيّة المعدن فِي الألفاظ والتّراكيب ، وظهرت من جرّاء ذلك تيّاراتٌ لغويّةٌ ، من أشهرها (عربيّ جوبا) .

وفِي ظلال ذلك تقرّر فِي أوائل سنوات الخمسين فرض تعليم اللّغة العربيّة عَلى جميع

---

(١) المؤتمر ، دورة ٦٦ . والمجلّة ، جـ ٩١ ، ص ١١٥ .
(٢) المؤتمر ، دورة ٥٥. والمجلّة ، جـ ٨٩ ، ص ٥١.

مدارس الجنوب ، استجابةً للضّغط السّياسيّ القوميّ والوطنيّ . ولكن حالتْ عقباتٌ دون تنفيذ القرار . ولمّا كَانَ أستاذنا عبد الله الطّيّب مشرفًا عَلى كرسيّ اللّغة العربيّة بجامعة الخرطوم ١٩٥٦م ؛ أنشأ قسمًا خاصًّا بتعليم اللّغة العربيّة للجنوبيّين ؛ يمكّنهم من نيل الإجازة الجامعيّة وفق برامج خاصّةٍ بتعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها . وقد اتّسع القسم آنذاك ليشمل دوراتٍ للدّبلماسيّين العاملين بالخرطوم ، ودوراتٍ لرجال الحربيّة البريطانيّين، الّذين كَانَ يراد منهم أن يعملوا فِي الشرق الأوسط .

وفِي بحوث أُستاذنا المستهدفة بالقراءة بحثٌ يتيمٌ عن قضيّة التّعريب ، وعنوانه ؛ التّرجمة والتّعريب[1] . فللتّعريب مواقع كثيرةٌ من الأهمّيّة بمكانٍ ، ويتصدّر هَذِه المواقع الموقع القوميّ ؛ ذلك أنّ اللّغات عنوان الأمم والقوميّات ، ورموز الشّخصيّات الفرديّة والجماعيّة. ومن هَذِه المواقع المتصدّرة للتّعريب الموقع التّعليميّ ، وفيه باب التّعليم الأوّليّ الّذي نرشّح لَهُ حفظ القرءان .

ومن تلك المواقع المتقدّمة للتّعريب التّرجمة ؛ فإنّ نهضة المسلمين قامتْ عَلى شعابٍ تأخذ التّرجمة فيها موطنًا سابقًا .

وفِي تلك المواقع المتقدّمة للتّعريب الإعلام العربيّ ، وهذا خطيرٌ فِي جميع أبوابه ؛ فإنّه يؤثّر إيجابًا وسلبًا فِي صحّة العربيّة والمحافظة عليها . ولقد كَانَ للصّحافة فِي مصر حرصٌ شديدٌ عَلى الأسلوب النّقيّ السّليم ؛ لكن معظم الصّحف العربيّة الآن ساغ لها نوعٌ من ضروب الاستعمال الّتي لا تستحسنها العربيّة الصّحيحة .

وفِي كوكبة بحوثه بمجمع القاهرة بحثٌ يوضّح صلة الشّاعر بالقاموس ، وهي صلةٌ وثيقةٌ وشيجةٌ ؛ لأنّ الشّاعر العربيّ يحتاج إِلى المعجم من أجل التّأصيل اللّغويّ . كما يحتاج إِلى المعجم من أجل إيقاع نهايات الأبيات فِي القوافِي ، ونهايات التّصريع ، وأصناف التّقسيم والتّرصيع ؛ ليتمّ لَهُ ما يريد من ملاءمة رنّة القافية ، وقد لا يتأتّى الاستعمال اللّغويّ بلفظةٍ معيّنةٍ إذا كانت في غير مكان القافية ، ولننظر إِلى كلمتَيْ «جرّار» و «خجل» فِي بيتَيْ الخنساء وأبِي الطّيّب :

---

(١) المؤتمر ، دورة ٦٣ . والمجلّة ، جـ ٨٤ ، ص٩٤ .

حمّـال ألويـةٍ ، شـهّاد أنديـةٍ ، جـواب أوديـةٍ ، للجيش جـرّارُ

***

فـنحن فِي جـذلٍ والـرّوم فِي وجـلِ والـبرّ فِي شُـغُلٍ والبحـر فِي خجـل[1]

وفِي معالجة قضايا الأصوات والصّرف والنّحو قدّم شيخنا بحثَيْن ، أوّلهما المعنون ؛ إدغام الرّاء فِي اللّام بين القراء والنّحاة . وثانيهما بعنوان ؛ مَعَ ابن التّلاميد وصرف عمر .

يـرى النّحـاة أنّ الـرّاء لا تـدغم فِي الـلّام ، والنّصـوص الخاصّـة بالقضـيّة واضـحةٌ فِي الكتـاب والكشّـاف ، والمقتضـب . أمّـا القـرّاء ففصّـلوا واختلفـوا ؛ ففِـي الـنّشر أنّ الـرّاء السّاكنة تدغم فِي اللّام ، نحو : «واصطبرْ لعبادته» ، «يغفرْ لكم» ، و«اصطبرْ لحكـم ربّـك» ؛ فأدْغَمَ الرّاء فِي اللّام فِي ثلاثة المواطن المذكورة ونحوها أبـو عمـرو مـن روايـة السّـوسيّ . واختلف عنه من رواية الـدّوريّ . وفِي «سراج القـارئ» أنّ للـدّوريّ الإظهـار والإدغـام . وعدّ السّيوطيّ فِي «الإتقان» الرّاء السّاكنة من حـروف الإدغـام ، ومثّـل لهـا بنحـو : «يغفرْ لكم» ، «واصطبرْ لحكم ربّك» . أمّا الزّمخشريّ فيرى أنّ مُدْغم الرّاء فِي اللّام لاحـنٌ مخطئٌ خطأً فاحشًا ؛ كما نقل عنه أبو حيّان فِي «البحر المحيط»[2] .

أمّـا الاسـم « عمـر» ؛ فـإنّ جمهـور النّحـاة عَلى أنّـه ممنـوع مـن الصّـرف ، وخـالـف رأي الجمهور العلّامة محمّد محمود بن التّلاميد الشّنقيطيّ . فقال : إنّ اسم «عمـر» لـيس ممنوعًـا من الصّرف بـل هـو مصروفٌ ، نقـول فيـه : عمرٌ وعمرًا وعمرٍ . ويـرى ابـن التّلاميـد أنّ القول بمنعه من الصّرف مذهبٌ أعجميٌّ نسبه النّحاة إِلى الخليل خطأً[3] .

وفِي بحثه المعنون ؛ عدّة القوافِي بين الخليل والأخفش[4] توضيحٌ لاختلاف العلماء فِي أمر القافية عَلى نحو ما ذكر التّبريزيّ . فقال الخليل : القافية من آخر البيت إِلى أوّل ساكنٍ يليه ، مَعَ المتحرّك الّذي قبل السّاكن . ففِي بيت امرئ القيس :

---

(١) المجلة ، جـ ٧٦ ، ص ١٣٠ .

(٢) المؤتمر ، الدورة ٤٠ . وانظر محاضر جلسات الدّورة ٤٠ ، ص ٢٣٧ .

(٣) المجلة ، جـ ٦٠ ، ص ٣١٧ .

(٤) المؤتمر ، الدورة ٤٧ . والمجلّة ، جـ ٤٧ ، ص ١٣٧ .

مكــرٍّ مفــرٍّ مقبــلٍ مــدبرٍ معًــا   كجلمود صخرٍ حطّه السّيل من علِ

القافية عَلى حدّ الخليل (مِنْ عل ي) .

وقال الأخفش : هي آخر كلمةٍ فِي البيت أجمع ، فالقافية فِي البيت المذكور عند الأخفش (عل ي) .

وإنّما سُمّيتْ القافيةُ قافيةً ؛ لأنّها تقفو الكلام ؛ أي تجيء بعده فِي آخره . ومنهم من يسمّي البيت قافيةً ، ومنهم من يسمّي القصيدة قافيةً ، ومنهم من يجعل حرف الرّويّ هو القافية . والجيد المعروف من هَذِه الوجوه قول الخليل والأخفش .

والدّائرة العلميّة لشيخنا تتّسع ثقافيًا لتشمل موضوعاتٍ ليست من تخصّص اللّغة العربيّة وآدابها . فله محاضرةٌ بعنوان ؛ بعض الأعلام الجغرافيّة المشهورة[1] ؛ فبلاد الحبشة حارّةٌ يابسةٌ ، ومبدؤها من أرض الجنادل جنوب أسوان . وهذا الوصف يصدق عَلى بلدنا السّودان ، وأصل هَذَا الوصف للمسعوديّ فِي كتابه «مروج الذّهب» .

وفِي كتاب هيرودتس المترجم عنه إِلى الإنجليزيّة أنّ مبدأ إثيوبيا من عند جزيرة الفيل بأسوان ، وإنّ عاصمة إثيوبيا مروي . يعني هيرودتس بمرويّ البجراويّة ، بالقرب من بلدة كبوشيّة ، شمالّ مدينة شندي بالسّودان . وفِي مروي البجراويّة آثارٌ قديمةٌ من معابد ومصانع ، وبالقرب منها عدد كبيرٌ من الأهرام .

وله محاضرةٌ أخرى بعنوان ؛ خواطر عن أسماء بعض الأماكن فِي بلدنا . من هَذِه الأماكن بلدة حلفا ، ويقال لها وادي حلفا ، وهي البلدة فِي أقصى شمال السّودان ، واسمها عربيٌّ مأخوذٌ من الحلفاء أو الحلفا . ومنها ؛ دُنْقَلا أو دُمْقُلَهْ أو دُنْقُلَهْ . والمراد بها دنقلا القديمة ، ويقال لها العجوز . والميم والنّون حرفان متقاربان وكثيرًا ما يقع بينهما الإبدال .

ومثل هَـذَا التّحليل لحفا ودنقلا فِي محاضرة شيخنا جاء لُمْقُراتْ ، والنُّهود ، والحُصَيْحيصا ، والطّين ، وغيرها[2] .

وعبد الله الطّيّب شاعرٌ رصين الصّياغة اللّغويّة ، قويّ الأساليب ، صحيح الموسيقا فِي

---

(١) المجلّة ، جـ ٨٠ ، ص ١٨١ .

(٢) المجلّة ، جـ ٨٣ ، ص ٩ .

أعاريضه وقوافيه . وله فِي إبداع الشّعر المجمعيّ صولاتٌ وجوْلاتٌ . وقد اخترتُ من شعره المجمعيّ ؛ كلمته الخاصّة بتحيّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ، والتّهنئة بعيد المجمع الذّهبيّ . وكلمته فِي رثاء عضو المجمع الدّكتور طه حسين ، وطه حسين هو الّذي قدّم للقارئ كتاب عبد الله الطّيّب ؛ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها .

وكذلك اخترتُ كلمته فِي رثاء العلّامة محمود محمّد شاكر ، وكلمته فِي رثاء الدّكتور إبراهيم مدكور ، ومطلع الأولى الخاصّة بتحيّة المجمع وعيده الذّهبيّ :

مضى عَلى مجمع الضّا دِ نصف قرنٍ فحيّوا
خمسون عامًا تصرّمْ نَ وهو بعد صبيّ

وقد أفردت الفصل الآتي لعرض البحوث كلّها عرضًا موجزًا ، وموزّعًا عَلى أربعة عشْر المحاور الموضوعيّة وَفق خطّتي المنهجيّة لإخراج هَذَا الكتاب ؛ عبد الله الطّيّب ، قراءةٌ لبحوثه بمجمع القاهرة .

ومن الله التّوفيق والسّداد ،

حسن بشير

١٢ من ربيع الأوّل ١٤٢٩هـ



عرض البحوث وَفق محاورها الموضوعيّة

عرض البحوث وَفق محاورها الموضوعيّة

هذه البحوث المتنوّعة قدّمها شيخنا منفصلةً ، وفِي أزمانٍ مختلفةٍ ؛ بعضها فِي جلسةٍ خاصّةٍ لمكتب مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ، وبعضها قدّمه فِي دورةٍ من دورات المؤتمر ، وبعضها نشره فِي مجلّة مجمع اللّغة العربيّة .

والرّابط الكليّ بين هَذِه البحوث لَهُ وجهان . الأوّل ـ شخصيّة عبد الله الطّيّب فِي إرمازها إِلَى ثقافةٍ عريضةٍ وأصيلةٍ ومتطوّرةٍ . الثّاني أنّ كلّ البحوث تصبّ فِي المحور الموضوعيّ الكليّ الخاصّ بخدمة اللّغة العربيّة وآدابها ؛ تأصيلًا ، وتطويرًا ، ومواكبةً للعصر .

ولمّا فكّرتُ فِي جمع هَذِه البحوث فِي كتابٍ واحدٍ ؛ رأيت أن أوزّعها إِلَى محاور موضوعيّةٍ جزئيّةٍ ؛ لناحيةٍ منهجيّةٍ أرتضيها فِي مجال التّأليف ، وليسهل أمر رجوع الباحثين إليها . إذنْ فالتّوزيع لهذه البحوث إِلَى محاور جزئيّةٍ من اختياري المنهجيّ ؛ فقد ارتضيتُ توزيعها عَلَى أربعة عشر محورًا :

المحول الأوّل عنونتُه ؛ فنّ الأدب . وفيه أربعة بحوثٍ هي : رمزيّة الشّوق والحنين ، واللّون والجمال فِي الشّعر القديم ، واللّيل والنّجوم فِي الشّعر القديم ، والأثافِي والرّماد والحمام .

المحور الثّاني ؛ فنّ الشّعر . وفيه خمسة بحوثٍ هي : تأمّلاتٌ فِي مقدّمات القصيد ، وعن طبيعة الشّعر العربيّ ، والأوصاف والكنايات فِي الشّعر العربيّ ، وشعر المديح النّبويّ ، ومع المرزوقيّ فِي عمود الشّعر .

والمحور الثّالث ؛ دراسة النّصوص الأدبيّة ، ويضمّ خمسة بحوثٍ هي : شرح ديوان أراجيز رؤبة ، وبسطتْ رابعة الحبل لنا ، والقصيدة المادحة ، والدّرعيّات ، ووصف جزيرة توتي .

والمحور الرّابع ؛ وأسميته دراسة السّيرة الأدبيّة للأعلام ، وفيه بحثان : الأوّل ـ حول

أبي الطّيّب . والثّاني ـ العقّاد الشّاعر .

والمحور الخامس ؛ النّقد الأدبيّ القديم ، وفيه بحثان : الأوّل ـ مَعَ أبي تمّام الشّاعر . والثّاني ـ نقد الشّعر عند صاحب المثل السّائر .

والمحور السّادس ؛ النّقد الأدبيُّ الحديث ، وفِي هَذَا المحور بحثٌ واحدٌ معنونٌ ؛ حتّامَ نحن مَعَ الفتنة بإليو ؟

والمحور السّابع ؛ عنونته اللّغة العربيّة وتاريخها ، وفيه بحثٌ ممتعٌ عن اللّغة العربيّة المعاصرة . والبحث يصوّر وظيفة المجامع اللّغويّة ؛ إذ من أخصّ خصائصها رعاية اللّغة العربيّة المعاصرة ؛ تأصيلًا ، وتجديدًا ، ومواكبةً للعصر .

والمحور الثّامن ـ جعلتُه للموازنات اللّغويّة ، سواء أكانت هَـٰذِه الموازنات بين فصيح اللّغة ، أو بين اللّغة الفصيحة واللّغة الدّارجة . وفِي هَذَا المحور أربعة أبحاثٍ ، هي : حول العاميّ والفصيح ، وبين الفصحى والعامّيّة فِي وسائل الإعلام ، والعربيّة فِي السّودان ، ومن تجارب تعليم العربيّة فِي إفريقيًا .

والمحور التّاسع ؛ خاصٌ ببحثٍ يتيمٍ فِي فنّ التّعريب ، وقد أسمى شيخنا هَذَا البحث ؛ التّرجمة والتّعريب .

والمحور العاشر ؛ أسميتُه بين اللّغة والأدب ، ويضمّ بحثًا واحدًا عنوانه ؛ القاموس والشّاعر .

والمحور الحادي عشر ؛ التّحقيق الصّوتيّ والصّرفيّ والنّحويّ ، وفيه ثلاثة أبحاثٍ ، هي: إدغام الرّاء فِي اللّام بين القرّاء والنّحاة ، والتقاء السّاكنَيْن ، ومع ابن التّلاميد وصرف عمر .

والمحور الثّاني عشر ؛ موسيقا القوافِي ، وفيه بحثٌ فريدٌ فِي إمتاعه ، وهو الّذي عنونه شيخنا «عدّة القوافِي بين الخليل والأخفش » .

والمحور الثّالث عشر ؛ الثّقافة العامّة ، وفيه بحثان :

الأوّل ـ بعض الأعلام الجغرافيّة المشهورة . **والثّاني** ـ خواطر عن أسماء بعض الأماكن

فِي بلدنا .

والمحور الرّابع عشر ؛ إبداع الشّعر المجمعيّ ؛ فعبد الله الطّيّب الشّاعر غير خفيٍّ ، والأمر هنا مرتبطٌ بشعره فِي مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة . وقد اخترت منه لخاتمة المحاور أربع كلماتٍ ؛ الأولى - تحيّةٌ لمجمع اللّغة العربيّة ، وتهنئةٌ بعيده الذّهبيّ . والثّانية - رثاؤه لعضو المجمع الدّكتور طه حسين . والثّالثة - رثاؤه لعضو المجمع العلّامة محمود محمّد شاكر . والرّابعة - رثاؤه لعضو المجمع ورئيسه الأسبق الدّكتور إبراهيم مدكور .

وبعد أربعة عشر المحاور الخاتمةُ ؛ وفيها ملخّصٌ لأهم نتائج البحوث المعروضة وَفق محاورها الموضوعيّة ، وفيها إضاءةٌ عن الجديد فِي هَذِه البحوث ؛ الّذي اعتبره إضافةً ذات شأنٍ للفكر اللّغويّ العربيّ .

وبعد الخاتمة « مذكّرة الختام » ، وفيها ثلاث كلماتٍ ، هي :

ملاحق هذا الكتاب ، وثلاثة نماذج من آراء المجمعيّين العرب ، وشكر المساعدين.

وآخر الكتاب وختامه الفهارس الفنّيّة ؛ فقد خطّطتُ لها ونفّذتها وَفْق منهجيّةٍ خماسيّةٍ ؛ تشمل : فهرس الكتب ، وفهرس الشّعراء ، وفهرس الأعلام من غير الشّعراء ، وفهرس الأماكن والبلاد والقبائل ، وفهرس الهيئات والمؤسسات .

ومن الله التّوفيق والسّداد ،

حسن بشير

١٢ من ربيع الأوّل ١٤٢٩هـ

المحور الأوّل : فنّ الأدب

(٣٢ـ١٠٥)

أ ـ رمزيّة الشّوق والحنين .

ب ـ اللّون والجمال في الشّعر القديم .

جـ ـ اللّيل والنّجوم في الشّعر القديم .

د ـ الأثافي والرّماد والحمام .

أ ـــ رمزيّة الشّوق والحنين[1]

تمهيد :

الشّوق والحنين من أعمق المعاني الإنسانيّة وأشدها لصوقًا وعلوقًا بالنفس : وحياة البداوة مما يزيدهما ويقويهما ؛ لأنها أكثر ما تقوم عَلى الفصيلة والأسرة والدّار والوطن ، وحياة الصّحراء أشد إيغالًا فِي هَذَا المعنى من سائر أصناف الحياة البدوية لشسوعها وانجرادها وجدبها وقوة اتّصال الذّاكرة والوجد بمواضع الاستقرار فيها .ولا يزال أخو الصّحراء أبدًا يلتفت بقلبه إِلى مكان إقامة تركه وراءه ويتطلع إِلى آخر ينتظره من أمامه . وما الدنيا إلا معالم بين هذين الطرفين . قَالَ البحتري :

سِرْنـا وأنـتِ مقيمـة ولـربما ⁂ كـان المقـيمُ علاقـةَ للسَّـائر

وقال رحمه الله :

حنت قلوصي بالعراق وشاقها ⁂ فِي نـاجِر بـرد الشـآم وريفـه

ومدافِعُ السَّاجُور حيث تقابلت ⁂ فِي ضـفتيه تلاعـه وكهوفـه

وهو ههنا إنما نزع من ريف إِلى ريف ، فكيف به لو قد نزع من شِعْب إِلى شعب ، ومن مرتبع إِلى مرتبع كما كَانَ يفعل الجاهليّون . وقد كَانَ السّفر للغارة وللمرعى يهيىء للمرء لقاء الأحبة والعدا ، والخلس من متع العيش ، والألوان المختلفات من مادة الذكريات فيخزن ذلك كله فِي قلبه ويجعله ذخيرة للحياة وقيامًا . والتقاء الأحياء فِي المرابع كَانَ يتيح من الأنس والشّهوات واللّحظات والسّاعات والبَكَر والأصائل ، ثمَّ الافتراق بعد اللّقاء كَانَ يُودِع فِي السّرائر صبابات أصنافًا وأزوادًا ألفافًا من الذكرى والشّوق .

والمسافر يكون رفيقه الذميل والراحلة وصوى الطريق ومعالمه وامتداد القفر وما ينشأ فيه من جبال وسراب ووديان . وما يعنّ فيه من طير ووحش ، وفِي الليل يكون رفيقه

---

(١) المؤتمر ، الدورة ٣٢ ، الجلسة ٩ ، وانظر البحوث والمحاضرات ، ص ١٩٧ . (حسن) .

النّجم والظّلمة والقمر ، والهدوء الشّامل يتخلله عزيف الريح ، وما يتوهمه السّاري من أصوات الجِنّان وما يلوح لَهُ من نيران المضارب وما يشيمه من البروق .

وكل هَذِه الأشياء تخالط النّفس وتداخل أشواقها وحنينها . فرب حجر يمر به الرّاكب فيتذكر لمرآه معلمًا وثيق الصّلة بماضي تجاربه : ورب ظل يذكره ظلّا آخر أصاب عنده أنسًا أو لقاء . ورب نجم يطلع من تلقاء وطن خلفه الراكب وراءه أو يترقبه أمامه . وإن لشمول الصحراء واتساعها وتشابه مراميها لسحرًا أخّاذًا يحيط بأكناف النفس ويحدث فيها شجوًا عميقًا هو مزيج من وحشة الفرديّة الأصيلة فِي الذّات الإنسانيّة والنّزوع إِلى الأحبّة الشديد المخالطة لأغوارها .

من أجل هَذَا جميعه جعل الشّعراء العرب من الشّوق والحنين أصلًا من أصول التّعبير، لَهُ رموز تشير إليه ، وتنساق منه إِلى غيره مما يلابسه من المعاني كالهوى والغزل والنّفور والقلق وهلم جرا .

رمزيّة المعاهد والدّيار

وأول رموز الشّوق والحنين هو المأوى . والدّار والمنزل أوضح ما يدل عَلى المأوى ثمّ المرأة فرع من هَذَا المعنى ، إذ هي قد كانت المأوى الأول حين كانت أمًّا ، ثمَّ هي المأوى الثّاني حين تكون الخدن والزوجة والخلة والصاحبة . والعرب مما تكنى بالبيت عن المرأة ، وقد يذهب بعض الْمُفْتَنِّين إِلى أن هَذَا من باب المجاز اللّغوي عَلى تقدير حذف المضاف والمراد أهل البيت . وقد ذهب ابن حزم إِلى أن أهل البيت فِي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] إنما أريد به أزواج النّبي ليس إلّا . وتقول العرب : (بنى بفلانة) والبناء إنما يكون للبيت . ويقولون : (امرأة مُثَفَّاة) يشتقون ذلك من الأثفية ، إذا كَانَ لها ضرتان والأثافِي من متاع البيت الّذي لا يفتأ العرب يذكرونه.

وقد رمزت العرب فِي شعرها للمرأة بالطلول والرسوم والدّيار والمعالم والمواضع

رمزية لا يعسر دركها عَلى أدنى تأمل . قَالَ امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقال :

قفـا نبـك مـن ذكـرى وعرفـان

ومثل هاتين الوقفتين فيهما مَعَ الشّوق والحنين من معنى الوفاء والحب ما لا يخفى . قَالَ النّابغة :

يـا دار ميـة بالعليـاء فالسـند

ولو قَالَ : (يا مية) ما باعد عن هَذَا الّذي أصابه بذكر دارها وذكر العلياء والسند معها: إلّا أن ذكر الدّار والموضع كما ترى يشيع فِي التّعبير روح الحنين . ثمَّ للشّاعر بعد أغراض أخر مَعَ الحب والحنين ، سنعرض لها فيما بعد إن شاء الله . وقال الأحوص :

يـا دار عاتكـة الّتـي أتعـزل ... حَذَرَ العِدى وبها الفؤاد موكل

وقد كشف هَذَا المعنى جرير حيث قَالَ :

ألا حَـيِّ الـدّيار بسَـعْدَ إني ... أُحِـبّ لحـبّ فاطمـة الـدّيارا

ومن مليح الكناية بالدّيار عن المحبوبة قول الحارث بن خالد المخزومي يذكر عائشة بنت طلحة :

مـن كَـانَ يسأل عنا أيـن منزلنـا ... فالأقحوانـة منـا منـزل قمـن

إذ نجعل العيش صفوًا ما يكدره ... طـول الحياة ولا ينبـو بنـا الـزمن

وذكر البلاذري فِي أنساب الأشراف أن أحد المكيين حضر الغداء عند عائشة بنت طلحة ، فسألته : كيف تركت الأعرابيّ ؟ فقال : بخير . ثمّ علم من بعد إنّما عنيت الحارث ابن خالد فلما قدم مكة أخبره بسؤالها عنه . فقال البيتين اللّذين مرّا بك . وإنّما سقنا لك هَذَا الخبر لنؤكد عندك ما نراه فيه من الكناية . والأقحوانة موضع وهي أيضًا زهرة معروفة تشبه بها ثغور النساء . ومحل استشهادنا أن الحارث جعل الأقحوانة وهي رمز لعائشة منزلًا لَهُ ، فكأنه جعل عائشة نفسها منزلًا لَهُ ، وإنّما أراد أنّها مأوى فؤاده المأمول

عَلى بعد الدار وشحط المزار .

هذا ومن رموز الشّوق والحنين ما يدخل فِي معنى الدّار من معاني الخليط والجار والعهد وهلمّ جرا . قَالَ الشنفرى :

فيا جارتا وأَنْتِ غير مُليمَةٍ إذا ذكرت ولا بذات تَقَلّت

ونأمل أن نعرض بعد لتفصيل هَذَا الرمز فِي تائية الشنفرى فيما يلي إن شاء الله . ورمزية الدّيار والمعاهد واسعة المدى والأطراف ، فالّذي نذكره منها ههنا عَلى سبيل التّمثيل المجمل الموجز سيكون لَهُ تفصيل من بَعْدُ أو سيغني عنه وعمّا لم نذكره أو سنذكر ولا نفصّل فيه ما هو منه بمنزلة الشبيه والنّظير . وقال زهير :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزوّدوك اشْتياقا أَيّةٌ سلكوا

ويعجبني هَذَا البيت أيّما عجب لأنّ الشّاعر مزج فيه معنى الحنين الأصلي بمعنى الغزل الفرعي مزجًا محكمًا كأسمى ما يكون التّعبير عن الوجد ، فقد ذكر الخليط وفقدان المأوى ، واشتعال الشّوق كما ترى . ثمّ إنّ هَذَا الخليط مما يكون كناية عن المحبوبة ، كما يكون الإيواء كناية عن الوصل ، وتزويد الشّوق كناية عن الحرمان .

وقال أيضًا :

إنّ الخليط أَجَدَّ البين فانفرقا وَعلّق القَلْبُ من أسماءَ ما علقا

ولزهير أنفاس حرار . ومن آيتها هَذِه المُلاحَقَة المذهلة بين الرمز والمرموز إليه فِي ذكره الخليط والبين أوّلًا ، ثمّ ذكرِه أسماء وما عُلِّقه من الشّغف بها والرغبة إليها ثانيًا .

البرق وتوابعه :

هذا ، ومن رموز الشّوق الكبرى البرق . وقد قدّمنا لك طرفًا من الحديث عنه . قَالَ امرؤ القيس :

أعني عَلى برق أراه وميض يضيء حَبِيًّا فِي شمازخ بيض

وهو رمز بعيد الغور ، شديد العمق .وذلك أنّ فيه معنى النّار يرمز إِلى خصوبة الأنثى، كما أنّ فيه معنى السّحابة والسقيا . قَالَ عبيد بن الأبرص :

فيهن هند وقد هام الفؤاد بها ... بيضاء آنسة بالحسن مَوْسُومه
فإنّها كمهاة الجو ناعمةٌ ... تُدْنِي النَّصيفَ بكف غير موشومه
يا من لبرق أبيت اللّيل أرقبه ... فِي مكفهرٍّ وفِي سوداءَ مركومه
فبرقُها حَرِقٌ وماؤها دَفِقٌ ... وتحتها رَيِّقٌ وفوقها ديمه
فذلك الماءُ لو أنِّي شربت به ... إذا شفى كبدًا شَكَّاء ملكومه

فالبرق هو هند كما ترى .

والشّعراء ممّا يتّخذون البرق وسيلة للاتحاد مَعَ الطّبيعة : وما إِلى نعت الطّبيعة يريدون، لكنّما يريدون الإفصاح عن اللّواعج الّتي فِي القلوب . قَالَ طرفة :

كما أحرزت أسماء قلب مرقش ... بحب كلمع البرق لاحت مخايله

وقال امرؤ القيس :

نَشِيم بروق المزن أين مصابـ ... ـه ولا شيءَ يَشْفِي منك يا بنة عقزرا

واجعل قوله فِي المعلّقة :

أَصاحِ تَرى بَرقاً أُريكَ وَميضَهُ ... كَلَمعِ اليَدَينِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضيءُ سَناهُ أَو مَصابيحَ راهِبٍ ... أَمالَ السَليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ
قَعَدتُ لَهُ وَصُحبَتي بَينَ ضارِجٍ ... وَبَينَ العُذَيبِ بُعدَ ما مُتَأَمَّلِ
عَلى قَطَنٍ بِالشَّيمِ أَيمَنُ صَوبِهِ ... وَأَيسَرُهُ عَلى السِّتارِ فَيَذبُلِ
فَأَضحى يَسُحُّ الماءَ حَوْل كتيفَةٍ ... يَكُبُّ عَلى الأَذقانِ دَوحَ الكَنَهبَلِ
وَتَيماءَ لَم يَترُك لها جِذعَ نَخلَةٍ ... وَلا أُطُماً إِلّا مَشيداً بِجَندَلِ
كَأَنَّ ثبيرًا فِي عرانين وَبْلِهِ ... كَبيرُ أُناسٍ فِي بِجادٍ مُزَمَّلِ
كَأَنَّ ذُرا رَأسِ المُجَيمِرِ غُدوَةً ... مِنَ السَّيلِ وَالغُثّاءِ فَلكَةُ مِغزَلِ
كَأَنَّ مكاكِيَّ الجواء غُدَيَّةً ... صُبِحن سلافًا مِن رَحيقٍ مفلفل
كَأَنَّ السِّباع فيهِ غَرقى عشَيَّةً ... بِأَرجائِهِ القُصوى أَنابيشُ عَنصُلِ

من قبيل التّفريع والتّفصيل للمعنى الموجز الواضع الّذي فِي قوله (نشيم بروق المزن

أين مصابه) ذلك أن امرأ القيس فِي مستهل أبياته هَذِه إنّما يصف برقًا بعيدًا جدًّا ، كبعد النّار الّتي تنورها من أذرعات وهو بيثرب ، ثمّ إنّ هَذَا البرق جعل يدنو من عدوته المقاربة للوهم بين ضارج والعذيب حتى صار إِلى الستار ويذبل فرأى الشّاعر صوبه وارتاح إليه وجعل ينعته النّعت الدّقيق .. وكأن امرأ القيس قد احتال عَلى شوقه وهيامه وحنينه ولاعج آماله المرموز إليه بالبرق البعيد حتّى صيّر كل ذلك غيثًا قريبًا ، وهذا الاحتيال مكّنه من أن يلتمس العزاء من تأمّل الغيث والفناء فِي ذلك التأمل . وقد يخيل إليك أوّل الأمر أنّ أبيات امرئ القيس هَذِه إنّما هي مجرّد تصوير ونعت ليس إلّا ؛ ولكن فيها كما ترى مَعَ ذلك روحًا قويًّا أخّاذًا . وإذا التمست أن تؤول هَذَا الروح القوي الأخّاذ بأنه من براعة الصّورة أو جودة التّشبيه ، فاعلم أنّ التّماسك هَذَا غير بالغ بك إلّا إِلى فهم جانبي مقارب للسطحيّة ، إذ منشأ هَذَا الروح القوي الأخّاذ هو من المعاني الكامنة تحت رمزيّة البرق . تلك المعاني الّتي تمت إِلى الشّوق والحنين وحب الأنثى واستحسّان الجمال مَعَ اليأس من أخذه كاملًا واستصفائه . وقد حولها الشّاعر كلّها من مسلكها ثمّ سما بها من مجاريها فِي أعماق النّفس إِلى تأمل الغيث والطبيعة وروْم الاتحاد معهما . وقد وصف لبيد بن ربيعة البرق فِي قصيدته اللّاميّة فقال :

أَصاحِ تَرى بَريقاً هَبَّ وَهناً ... كَمِصباحِ الشَّعيلَةِ فِي الذُّبالِ
أَرِقتُ لَهُ وَأَنجَدَ بَعدَ هَدءٍ ... وَأَصحابي عَلى شُعَبِ الرِّحالِ
يُضيءُ رَبابُهُ فِي المُزنِ حُبشاً ... قِياماً بِالحِرابِ وَبِالإِلالِ
كَأَنَّ مُصَفَّحاتٍ فِي ذُراهُ ... وَأَنواحاً عَلَيهِنَّ المَآلي

ثمّ وصف المطر ؛ ثمّ وصف السّيل . ثمّ ختم جميع ذلك بقوله :

سَقى قَومي بَني مَجدٍ وَأَسقى ... نُمَيراً وَالقَبائِلَ مِن هِلالِ
رَعَوهُ مَربَعاً وَتَصَيَّفوهُ ... بِلا وَباءٍ سُمَى وَلا وَبالِ

فأشعرك بهذا أنّه لم يرد من نعت البرق والغيث إلّا إبلاغك جانبًا من حب قومه والأماني لهم مَعَ أشواق أخرى كثيرة ، لعل هَذَا الحب لقومه لم يك إلّا طرفًا منها ورمزًا

إليها . وممّا يقوي ما نذهب إليه مَعَ هَذَا المعنى قول لبيد فِي أخريات هَذِه القصيدة :

همُو قومي وقد أنكرت منهم ... شمائل بدلوها من شمال

هذا وقد كشف جرير بعض ما يكمن من المعاني تحت ذكر البرق فِي قوله :

وهاج البرق ليلة أذرعات ... هوى ما نستطيع له طلابا

وقوله :

سَمَت لي نَظرَةٌ فَرَأَيتُ بَرقاً ... تِهامِيّاً فَراجَعَني اِدِّكاري

يَقولُ النّاظِرونَ إِلى سَناهُ ... نَرى بُلقاً شَمَسنَ عَلى مِهارِ

لَقَد كَذَبَت عِداتُكَ أُمُّ بِشرٍ ... وَقَد طالَت أَناتي وَاِنتِظاري

وقد أكثر الشّعراء بعد جرير من ذكر البرق أيّما إكثار ، واتّخذه المتأخّرون من شعراء المديح النّبويّ رمزًا خالصًا لمعاني الوجد القدسي . قَالَ أحدهم :

إِنَّ لَمعَ البَرقِ مِن خَيفِ مِنى ... جَدَّدَ الوَجدَ وَهاجَ الحَزَنا

كُلَّما طَرَّزَ أَثوابَ الدُّجى ... لَمعُهُ أحرَمَ عَيني الوَسَنا

وإلى الكامن من معاني الصبابة والهوى والشّوق والحنين تحت البروق أشار المعرّي فِي قوله فِي اللّزوميّات :

وما هاج ذكري بارق نحو بارق ... وما هزّني شوق لجارة هزّان

وقوله :

ويُطْرِبني بعد النّهي قول قائلٍ ... سقى بارقا من جانب الغور بارق

وممّا يقوي عندك ما نزعمه من ارتباط معنى البرق بالوجد والحنين أسطورة عمرو بن يربوع والسّعلاة ؛ إذ زعموا أنّ عمرًا هَذَا أخذ السعلاة وأراد أن يجعلها امرأة لَهُ ، فقيل إنك ستجدها امرأة صدة ولكن اجعل عَلى وجهها شملة إذا رأيت البرق ، لكيلا تراه فإنها إن رأته حنت إِلى أهلها وتركتك . فيقال إنه وجدها كما قالوا ، وكان لَهُ منها بنون وبنات وكان يستر وجهها كلما أحس البرق فغفل عن ذلك مرة . ورأت هي البرق فنازعها الحنين إِلى أهلها فقالت لَهُ :

أمسك بنيك عمرًا إنّي آبق ... برق عَلى أرض السعالى آلق

ونفرت نفرة واحدة فكان ذلك آخر العهد بها . وإلى هَـذَا المعنى أشار المعرّي فِي قوله من اللّاميّة يصف إبله ونزاعه إلى الشام :

إذا لاح إيماض سترت وجوهها كـأنّي عمـرو والمطـى سـعالي

وهذا ومن الرموز المتفرعة عن البرق ومعاني السقيا أصناف ما يذكرونه من الرياح والنّسائم والخزامى والحنوة وهلم جرّا ، وكل هَذِه شديدة العلاقة بالدّيار والمواضع ، كما أنّها شديدة العلاقة بالحب والعشق وذكريات الجمال . ومن خير ما يستشهد به فِي هَذَا الباب كلمة عبد الله بن الصمّة :

تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجدٍ وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحي نجدا وأنت عَلى زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولاسرار

وقول جرير :

يا حَبَّذا جَبَلُ الرَّيَّانِ مِن جَبَلٍ وَحَبَّذا ساكِنُ الرَّيَّانِ مَن كانا
وَحَبَّذا نَفَحاتٌ مِن يَمانِيَةٍ تَأتيكَ مِن قِبَلِ الرَّيَّانِ أَحيانا
هَبَّت شَمالاً فَذِكرى ما ذَكَرتُكُمُ عِندَ الصَّفاةِ الَّتي شَرقِيَّ حَورانا

ويعجبني من أقوال المتأخّرين فِي هَذَا الباب قول مهيار :

يا نسيم الصبح من كاظمةٍ شدّ ما هِجت الجوى والبُرَحا
الصَّبا إن كَانَ لابدّ الصَّبا إنها كانت لِقلبي أرْوَحا
يا نداماي بسلْعٍ هل أرى ذلك المَغْبَقَ والمصطَبَحا
أُذكرونا ذكرَنا عهدَكُمُو ربَّ ذكرى قرّبتْ مَن نَزَحا
واذكروا صبًّا إذا غنّى بكم شِربَ الدّمعَ وعاف القَدَحا
قد عرفتُ الهمَّ من بعدكُمُو فكأنّي ما عرفتُ الفرحا

وروى اليافعي فِي روض الرياحين عَلى لسان امرأة صالحة :

كتمت الوشاة غرامي بكم ... وحبّكم في حشى أضلعي

وموّهت عنكم بوادي النقا ... وسكان رامة والأجرع

ولولاكمو ما ذكرت الهوى ... ولا حنّ قلبي إلى لعلع

ونحو هَذَا كثير . ولابد من التنبيه بعد عَلى مكان البرق والمطر من مطالع القصائد ، وهذا باب يطول فنجتزئ منه بيسير . وقد مر بك قول امرئ القيس :

أعني عَلى برق أراه وميض ... يضيء حبيا في شمازح بيض

وله أيضًا :

أصاح ترى بريقًا شبا وهنا ... كنار مجوس تستعر استعارا

فجمع بين البرق والنّار كما ترى .

وقال يستهل بذكر المطر :

ديمة هطلاء فيها وطف ... طبق الأرض تحرى وتدر

والسقيا لاحقة بهذا الباب وتدخل فيها التّحيّة كقولهم (يا اسلمى) من ذلك قول المرقش :

ألا يا سلمى لا صرم لي اليوم فاطما ... ولا أبدًا ما دام وصلك دائما

وممّا يدلّك على أنّ هذا لاحقٌ بالسّقيا قوله في هذه الكلمة نفسها :

ألا يا اسلمى بالكوكب الطلق فاطما ... وإن لم يكن صرف النّوى متلائما

وقال جرير فِي تفصيل هَذَا المعنى :

ألا حي أهل الجوف قبل العوائق ... ومن قبل روعات الحبيب المفارق

سقى الحاجز المحلال والباطن الّذي ... يشن عَلى القبرين صوب الغوادق

وقد مرّ بك قوله فِي البرق . وله من الاستهلال بصريح السقيا قوله :

سقيا لنهي حمامة وحفير ... بسجال مرتكز الرباب مطير

وقوله :

متى كَانَ الخيام بذى طلوع ... سقيت الغيث أيتها الخيام

وله من نحو هَذَا كثير :

وللمولدين فِي البرق والمطر والسقيا والتّحيّة مطالع كثيرة وممّا يؤثرونها أي إيثار ،

وأحسب أبا تمّام ممّن عبدوا هَذَا الطّريق ، وله فِي السقيا نحو :

أسـقي طلـولهم أجـش هـزيم وغـدت علـيهم نضرة ونعـيم

وفِي البرق :

يـا بـرق طلـع منـزلًا بـالأبرق واحـد السّحاب لَـهُ حـداء الأينـق

وكأنّه قد كَانَ لَهُ فِي الاستهلال بذكر المطر ولع خاص ، وفِي ما رأيت شاهد ، وأوضح وأدل قوله :

سـقى عهـد الحمـى سبل العهـاد وروض حـاضر منـه وبـادي

وقوله :

ديمـة سـمحة القيـاد سـكوب مسـتغيث بهـا الثـرى المكـروب

لـو سـعت بقعـة لإعظـام نُعْمَـى لسـعى نحوهـا المكـان الجـديب

ولاحق بهذا الباب قوله فِي الربيع :

رقـت حـواشي الـدّهر فهـي تمرمـر وغـدا الثـرى فِي حليـة يـتكسر

وشبيه بهذا قول المتنبّي :

مغـاني الشـعب طيبـا فِي المغـاني بمنزلـة الرّبيـع مـن الزّمـان

هذا والنار مما يلحق بالبرق فِي باب الشّوق ، كما قد رأيت البرق يلحق بها فِي رمزيّة العبادة الغامضة ، من ذلك قول النّابغة :

ألمحـة مـن سـنا بـرق رأى بصري أو وجـه نعـم بـدا لي سـنا نـار

وقد مرّ بك قول امرئ القيس (كنار مجوس تستعر استعارا) وقول عديّ بن زيد :

يـا لبينـي أوقـدي النّـار إن مـن تهـوين قـد حـارا

وقال جرير :

أهـوى أراك بـرامتين وقـودا أم بـالجزيرة مـن مـدافع أودا

وقال الفرزدق فِي مطلع نقيضته :

رَأى عَبـدُ قَـيسٍ خَفقَـةً شَـوَّرَت بِهـا ... يَـدا قـابِسٍ أَلـوى بِهـا ثُـمَّ أَخمَـدا

أَعِـد نَظَـراً يـا عَبـدَ قَـيسٍ فَـرُبَّما ... أَضـاءَت لَـكَ النـارُ الحِمارَ المُقَيَّـدا

وإنّما قَالَ الفرزدق هَذَا ليهزأ بنسيب جرير حيث قَالَ :

أَقـولُ لَـهُ يـا عَبـدَ قَـيسٍ صَـبابَةً ... بِـأَيِّ تَـرى مُسـتَوقِدَ النـارِ أَوقَـدا

فَقـالَ أَرى نـاراً يُشَـبُّ وَقودُهـا ... بِحَيثُ اِستَفاضَ الجِزعُ شيحاً وَغَرقَـدا

أُحِـبُّ ثَـرى نَجـدٍ وَبِـالغَورِ حاجَـةٌ ... فَغـارَ الهَـوى يـا عَبـدَ قَـيسٍ وَأَنجَـدا

وقد رأيت من مذهب المولدين فِي النّار قول المعرّي ، وليس ذلك بكثير ، ومنه أيضًا قول السهروردي :

لمعت نـارهم وقـد عسعس اللّيـل ... ومـل الحـادي وحـار الـدّليل

وجريان كل هَذَا عَلى معنى الصّبابة لا يخفى ، والحديث فِي ذلك ما يستفيض . والله أعلم .

ب ـ اللّون والجمال فِي الشّعر القديم (١)

قال امرؤ القيس :

ومِثلك بيضاءِ العوارض (البيت)

فِي بعض الشّروح :

العوارض : صَفْحتا الخد . هَذَا خطأ .

قال عنترة :

وكأنّ فأْرةَ تاجرٍ بقَسيمةٍ سَبَقَتْ عَوارِضَها إليكَ من الْفَمِ

أي أسْنانَها وبريقهن وحُسْنَهن ـ تَرى ذلك وتَشم طيبَه . وقال كعب بن زهير :

تَجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت كأنّه مُنهل بالراح مَعْلولُ

وذكر الجوهري بيتَ جرير :

أتذْكرُ يوم تَصقُلُ عارِضَيْها بفَرْعِ بشامةٍ سُقِيَ البشام

ورواية الديوان :

أتنْسَى إذ تُودّعنا سُلَيْمَى بفَرْعِ بَشامةٍ سُقِيَ البشام

وهذا أحبُّ إليَّ ، عَلى أنّني أَحْسَبُ أنّ البَيْتَين بروايتهما : كلاتَيْنِكَ بلا ريب .

قول جرير : وفِي صِحَاح الجوهري : قَالَ أبو نَصر : يعني به الأسْنان ما بَعْدَ الثّنايا والثّنايا ليست من العارض (هكذا ـ وفِي الهامش ص ١٠٨٦ طبع مصر ـ نقلًا عن اللسان ، العوارض) ، وعلى هَذَا فالفتاة كانت تستاك بفَرْعِ بشامةٍ مُجِدَّةً فِي ذلك ، ثمّ فَطِنَتْ للوداع فأشارتْ بفرع البشام ـ شَرح أبي نصر للرواية الّتي رَوى يوضح هَذَا المعنى . والعارِضُ قد يُطْلَق عَلى الثّنايا وجميع الأسْنان .

(١) ألقي هذا البحث في الجلسة الخامسة للمؤتمر المنعقدة بتاريخ ٢٧ من رجب سنة ١٤١٢هـ الموافق الأوّل من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢م . وانظر « مجلّة اللّغة العربيّة » ، جـ ٧٤ ، ص ١٩ . (حسن) .

والعرب لا تصف الخُدود بالبياض ولكن نقُول كما قَالَ غيلان :

تُرِيك سُنَّةَ وجْهٍ غَيْرَ مِقْرفَةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بها خَالٌ ولا ندبُ

واستحْسَن المتأخّرون الخالَ لمقابلته بياضُ البَشَرَة ومنه قول أبي الطّيّب :

عواذِلُ ذات الخال فيَّ حواسد

وكما قَالَ ابن ميَّادة (رَجَع الحديث إِلى قَوْلِ غيلان وصفِه الخدود بالصَّقلِ والبريق) .

تَقُول خَوْدٌ ذات خدٍ براق

وقال غَيْلان :

برّاقَةُ الجيدِ واللّبّاتُ واضِحةٌ

وربما شبّهوا بالدُّرة ؛ يريدون صفاء البشرة ورقّتها ـ وذلك قول زهير :

فَأَمّا ما فُوَيقَ العِقدِ مِنها فَمِن أَدماءَ مَرتَعُها الخَلاءُ

وَأَمّا المُقلَتانِ فَمِن مَهاةٍ وَلِلدُّرِّ المَلاحَةُ وَالصَّفاءُ

الأدماء : الظبية ولَوْنُ الظباء السمرة والأُدْمة السّمرة . والظبية الأدماء والأُدْمَانَةُ هي البيضاءُ فيها جُدَد ولونها لون جبلها ـ تأمّل قولهم ، فهذا وَصْفٌ بالسمرة أظهر وعليها أدل .

وقال امرؤ القيس :

كَبِكرِ المُقاناةِ البَياضِ بِصُفرَةٍ غَذاها نَميرُ الماءِ غَيرُ المُحَلَّلِ

وفِي بعض الشّروح أنّه أراد البرديّة ، ويقوّيه قوله : «غذاها نَميرُ الماء» فهو لا يصلح أن يُرَدَّ عَلى بِكْرِ بيض النّعام ، ولكن ربّما صلح أن يردّ عَلى المشبهة ببكْر البيض . قَالَ تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات : ٤٦] وقيل : أراد الدرة . والعرب تقول النَّمير للماء العذب والماء الملح . والدُّرة منشأها فِي البحر الملح ولكن قوله : «المقاناة البياض بصفرة» ؛ أي الّتي تخالط بياضَها صُفرةٌ ، فيه بُعْدٌ مَعَ الدّرة . والمرأة مِمّا تُشَبّه بالبرديّة . قَالَ الأعشي :

كَبَرْدِيَّةِ الغيلِ وَسطَ الغَرِيفِ إِذا خالَطَ الماءُ مِنها السُّرورا

الغِيل : الشجر الملتفُ والغِريفُ الأجَمَة أي الغابة والسُّرورُ بَطْنُ البردية ، وإذا خالط الماء بَطْنَ البرديّة كَانَ ذلك لها سبب اكتنازٍ وجَوْدَةٍ ـ أي إذا ارتوت من الماء .

ومن شواهد الجوهري في الصّحاح :

جَدِيــدَةُ سِربَــالِ الشَّـبَابِ كَأَنَّهَــا سَـــقِيَّةُ بَـــرْدِيٍّ نَمَتهَـــا غيُوُلهَـــا

وفي معلقة امرئ القيس :

وســاقٍ كــأنبوب السِــقيِّ المُــذلّل

وفسروا أنبوب السقيِّ بالبرديّ تنبت قصبته مَعَ النّخل ، وهو السقيّ أيّ المسقِىّ .

وقال قيس بن الخطيم :

مــا تَمنَعــي يَقظــى فَقَــد تُؤتينَــهُ فِي النَّــومِ غَــيرَ مُصَرَّدٍ مَحسُــوبِ

كــانَ المُنــى بِلِقائِهــا فَلَقيتُهــا فَلَهَـوتُ مِـن لَهـوِ اِمـرِئٍ مَكـذوبِ

أي يالك من لهو امرئ مكذوب ، إذ كَانَ لهوا من طيفٍ لا حقيقة لَهُ .

فَرَأَيتُ مِثلَ الشَّمسِ عِندَ طُلوعِها فِي الحُسْــنِ أَو كَــدُنُوِّها لِغُــروبِ

صَــفراءُ أَعجَلَهــا الشَّــبابُ لِـداتِها مَوســومَةٌ بِالحُســنِ غَــيرُ قَطــوبِ

تَخطــو عَــلى بَــردِيَّتَينِ غَــذاهُما غَــدِقٌ بِســاحَةِ حــائِرٍ يَعبــوبِ

قوله غذاهما غدق .. الخ ، كقول امرئ القيس : «غذاها نمير الماء» وأحسبك فطنت إلى تكرار الغين في «غذاهما غدق» .

قوله بساحة حائر أي بمكان انساح فيه سيل يعبوب أو ماء مطر ، وسحاب يَعْبُوب أي كثير غزير . وأصل اشتقاق اليعبوب من عُبابِ البحر أي ارتفاع موجه . وأكثر ما يستعمل اليعبوب في وصفه الفرس الكريم . قَالَ سلامة بن جندل :

مـن كـلّ حَـتٍّ إذا مـا ابتـل ملبـده صَـافِي الأديـم أسـيل الخـدّ يَعْبُـوب

ومـا تقدم مـن شرح أبي محمّـد رحمه الله . والحـائر مـا اجتمـع مـن مـاء المطر كقولنـا :

«المَيْعَة»[١] .

ونظر المخبل السّعدي إلى كلمة قيس بن الخطيم وذلك قوله :

بُردِيَّةٌ سَبَقَ النَّعيمُ بِها أقرانَها وَغَلا بِها عظمُ

وَتُريكَ وَجهاً كَالصَحيفَةِ لا ظَمآنُ مُختَلِجٌ وَلا جَهمُ

فالمختلج الّذي ليس بمستو ولا أملس وكأنّه يابسٌ قليل اللّحم ، والجَهُمُ غير المليح أو كثير اللّحم كثرة ممجة .

وقول ابن الخطيم «صفراء» عَلى مذهب العرب فِي استحسّان لون الصُّفرة فِي بَشَرتِ النّساء . قَالَ النّابغة فِي متجردته :

صفراء كالسِّيراء أُكْمِلَ خَلْقُها كالغُصْن فِي غُلوائه المتأوِّد

وقد يوصف بالغصن وبالبانة وكل ذلك فِي مجرى البرديّةِ . إلّا أنّ البرديّة أدلُّ عَلى الساق الخَدْل وعلى القامة المُسبكِرَّة .

وتشبيه الأنصاري محبوبته بالشمس حين طلوعها مُنْبِئٌ بالرَّوْعة والإشراق الباهر ، وقد افتنّ فِي هَذَا المعنى حيث قَالَ :

تبدّت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنّت بحاجب

وتشبيهه لها بالشمس حين دنوها لغروب ، فيه معنى هُدوءِ الضوء ووداعَتِه كما فيه معنى صُفْرةِ اللّون الحَسنة .

وقال الأعْشَي :

بيضاءُ ضَحْوتها وصَفْراءُ العشِيَّة كالعرارة

والعَرارُ نوَّار نَجْد ـ وقوله صُفراء العشيّة .. الخ كأنّه عين مقاله حيث قَالَ يصف هريرة :

ما رَوضَةٌ مِن رِياضِ الحَزنِ مُعشَبَةٌ خَضراءُ جادَ عَلَيها مُسبِلٌ هَطِلُ

---

(١) وأصل هذه الكلمة صحيح فصيح ، قولهم : «مَيْعَةُ الشّباب» أي ماؤه المترقرق وعنفوانه .

يُضاحِكُ الشَّمسَ مِنها كَوكَبٌ شَرِقٌ مُـؤَزَّرٌ بِعَمـيمِ النَّبـتِ مُكتَهِـلُ

يَومـاً بِأَطيَـبَ مِنهـا نَشرَ رائِحَـةٍ وَلا بِأَحسَـنَ مِنهـا إِذ دَنـا الأُصُـلُ

فقوله : «إذ دنا الأصل» فيه لون الصفرة . وهل كانت هريرة نفسها خضراء اللّون كالروضة ، وبالإشراق كالشمس ، وبعلوق أصناف الطّيب بهما صفراء العشيّة كالعرارة؟» وهل نظر أبو تمّام إلى هَذِه الخضرة المُضَاحِكَةِ لضوْء الشّمس ثمَّ يكون لونها من أجل اكتهال النَّبت والعُشْب والنوّار كأنّه لَوْنُ الأصيلِ ذي الصُّفْرَة البهيجِ الوديعِ ، فقال :

تَرَيَـا نهـارًا مُشْمِسًـا قـد شـابه زَهْـرُ الرُّبـا فكـأنَّما هـو مقمـر ؟

وقال تعالى في قصّة بقرة بني إسرائيل : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٩] ـ فوصف جلّ شأنه اللّون الأصفر الفاقِع ذا البهاءِ بالحُسْنِ وأنّه يسر النّاظرين .

هذا اللّون الجميل في البقرة العزيزة جميلٌ أيضًا في العقيلة من الكرائم . والعَربُ تُشَبِّه النّساء بالبقرة الوحشيّة . قَالَ أبو الطّيّب يتبدَّى وهو بمصْرَ أقدمِ بلادِ الله في الحضارة وأعرقِهنَّ فيها :

لا تَجـزِني بِضَـنًى بَعـدَها بَقَـرٌ تَجزي دُموعِيَ مَسكوبًا بِمَسكوبِ

وقد احترس أبو تمّام حين ذكر بني الأصفر أي الروم فزعم أنّ صفرتها صُفرةُ مرضٍ غير ذي إشراق ، وذلك في قوله :

أَبقَت بَني الأَصفَرِ المِمراضِ كَاسِمِهِمُ صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أَوجُهَ العَرَبِ

بالّذي أصابوه من النّصر .

وقيل إنّما قيل للروم بنو الأصفر لأنّ أُمَّهم ولدَتْهم لزَنْجي فخالط لَوْنَ بياضها لَوْنُ سواده فصار ذلك في نسلها صُفْرةً . ولعلهم إنّما قيل لهم بنو الأصفر لما كَانَ يُخالط سِبالَهم ولِمَّاتِهم من صُهْبَةٍ وتَذْهيب . قَالَ عبد الله بن سَبْرَة يَصف مُنَازلَة الرُّوميَّ ـ أطربوت ـ والأبيات الّتي منها هَذَا البيت في الجزء الأوّل من أمالي أبي علي القالي :

كــأنّ لِـــمّتَهُ هُــدّابُ مُحملـــة أحــمُّ أزرقُ لم يَشــمط وقــد صَـلِعا

فقوله : «هدّاب مُخْمَلة» ، فيه دلالة عَلى شَعر أصهب أو ذهبيّ . وقولـه : «أحـمُّ أزرق» فذلك لون عينيه . ولم يُشمِط أي شابٌّ ولم يخالط شباب شعره شَيبٌ .

والعرب تَصف العجمَ ولاسيما رُومهم وصقالبهم ومن إلى ذلك بزرقة العين وتعدُّه شؤما ، وقال الشمّاخ في رثائه أمير المؤمنين عُمَر رضي الله عنه :

وَمـا كُنـتُ أَخشـى أَن تَكـونَ وَفاتُـهُ بِكَفَّـي سَـبَنتى أَزرَقِ العَـينِ مُطـرِقِ

كأنّه ثعبان ، ودافَع ابن حزم عن زُرْقَة العيون في طوق الحمامة «وفي طـوق الحمامة» قولان .

وقال عوف بن محلم :

فَفَـــرِّ بَـــانِي بـــأَبي أنـــتما مـن وطنـي قبـل اصـفرارِ البنـان

فهذه صفرة الموت وليست بذات بهاء .

وفي القرءان : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : ٣٢-٣٣] [١] قالوا في تفسيره أي سُود . قَالَ ابن جرير رحمه الله : وإنّما قيل لها صُفْرٌ وهي سودٌ لأنّ ألوانَ الإبل سُودٌ تضرِب إلى الصّفرة ولذلك قيل لها : صُفْر ، كما سُمّيت الظّباء أُدْمًا لِمَا يَعْلو بياضَها من الظّلمة .

واعلم أنّ العربَ قد تقول للشيءِ أخْضَر وليس بأخضر ولكن تُقرّبه بذلك (وربّما كَانَ أسمرَ أو نحوًا منه) إلى الخضرة ، كقول حسّان :

أو مـن بَنِـي جُمَـحَ الخُضْرِ الجلاعيـد

وكقول اللَّهبي من بني هاشم يصف نفسه ويفتخر :

أَخضَرُ الجِلْـدة مـن لـون العـرب

(١) هذه رواية حفص عن عاصم ورواية الدّوري عن أبي عمرو : جمالات وكلاهما جمع للجمع أو جمالة جمع جمل كذكارة جمع ذكر وجمالات جمع الجمع .

وربّما سمَّت الشَّيءَ بلون يُدَانِيه لا يَبْلغُه كقول الأعشى :

إذا تقوم يضوع المسكُ أصْوَرةً والزّنْبق الورد من أردانها خضل

أي المُشرَب بالحمرة . وقالوا : الأسد الورد وليس بورد ولكن تُخالِطه سُمرة فيها ضرب احمرار . وقال الحسحاسي :

فلو كنتُ وَرْدًا فِي الرجال عَشِقْتني ولكنَّ ربّي شانني بسواديا

أي من هَذِه الألوان الرّوميّة الّتي جعلت تستحسنها العرب الآن ، ولكنّي يا للأسف إذ أنا من اللّون الّذي جعلت العرب تفرّ منه ، تَسْخَرُ النساء وتتهكم ، وقد زعم من قبل أنهن تجمّعن إليه حتّى اكتملن ثمانيا وما بَنى يائيَّته إلّا عَلى عشقهنَّ لَهُ الأسودَ العبْدَ فِي نظرهنَّ .

والعربُ ربّما قالت الأحمر تعني مداناة البياض من السمرة . وربّما لقبوا أحدهم بذلك كالّذي فِي السيرة من خبر «أحمر بأسًا» أنّه كَانَ إذا بُيِّتَ الحريُّ صرخوا به : يا أحمر ، جعلوا ذلك لقبًا وما أحسبه كَانَ أحمر كحمرة الروم والله تعالى أعلم .

وقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] يدل عَلى أنّه فِي اللّون الواحد درجات يطلق اسمه عليها جميعًا وعلى هَذَا المعنى تفسير ابن جرير لله درّه.

وفِي الحديث : «بُعثتُ إِلى الأحمر والأسود» ؛ فالأحمر العجم والأسود العرب وقال ابن الأثير فِي النّهاية (١ : ٢٥٧) : «لأنّ الغالب عَلى ألوان العجم الحمرة والبياض ، وعلى ألوان العرب الأُدْمة والسّمرة » .

قال أبو تمّام يذكر رماح أبي دُلف فِي مدحه لَهُ :

مُثَقَّفاتٍ سَلَبنَ الرّومَ زُرقَتَها وَالعُربَ سُمرَتَها وَالعاشِقَ القَضَفا

تأمّل حِذق أبي تمّام حيث قَالَ : «زرقتها» هنا ولم يقل صفرتها ؛ إذ الصّفرة مطلقًا حسن

ولـون العـرب المحبّـب المفضّـل مدحـه القـرءان ومـدحوه قصـيدًا ورجـزًا[١] . والقضَـفُ النّحافة . فللرماح المثقفات من الرّوم زرقـة نصـالها ، ومـن العـرب سـمرة القنـاة نفسـها ، وهذا يقويّ عندك ما ذكرناه من قبل فِي البرديّةِ ومن العاشق النّحافة والدّقة واللّطافة وهي لفظ التبريزي فِي شرحه .

وقال ابن الأثير فِي تفسير الأحمر والأسود : «وقيـل الجـن والإنـس» فـالعجم كـما تـرى يشبهون الجن والحمرة لون النّار . «وقيـل أراد بـالأحمر الأبيض مطلقًـا فـإنّ العـرب تقـول امرأة حمراء أي بيضاء» ـ قلتُ : والبياض هنا نسبيّ لا يُرادُ به كبياض الرّوم ، وعليه تسمية أُمّنا عائشة رضي الله عنها حُميْراء . فيما يُذكر من خبر كلاب الحَوْأب وهـو منـزل بـين مكّـة والبصرة .

وقال ابن الأثير أيضًـا : «وسُـئل ثعْلـبٌ لِـمَ خُـصَّ الأحمـر دون الأبـيض (أي أنّـه أشـبه بالمقابلة أن يجعل الأبيض فِي مقابلة الأسود ، لا الأحمر فِي مقابلته هَذَا عَلى ظاهر الأمـر مـن وجوه البلاغة والبديع) ، فقال ـ أي فقال ثعلب ـ : «لأنّ العربَ لا تقول رجـل أبـيض مـن بياض اللّون ، إنّما الأبيض عندهم الطّاهر النّقي من العيوب فإذا أرادوا الأبيض من اللّون قالوا الأحمر» .

ثمّ قَالَ ابن الأثير : «وفِي هَذَا القول نظر ، فإنّهم قد استعملوا الأبيض فِي ألـوان النّـاس وغيرهم» .

---

(١) كقول أحد بني جذيمة :

قـــد علمـــت صـــفراء بيضـــاء الإطـــل ... لأغنـــين اليـــوم مـــا أغنـــى رجـــل

والإطل هو الجنب ، وقال آخر :

قـــد علمـــت صـــفراء تلهـــي العرســـا ... لأضربـــن اليـــوم ضربـــاً وعســـاً

فهذا رجز وله نظائر .

قلت : ما ذكره ابن الأثير هَذَا صحيح ، إلّا أنّه لا ينقض ما تقدم من قول ثعلب فقد كَانَ رحمه الله بكلام العرب عالمًا حافظًا لضروبه متقنًا . وما ذكره ابن الأثير يحسن أن يردّ إِلى مواضعه فقد لا يزيد مدلوله عَلى معانٍ نسبيّة أو خاصة . مثلَ قول رؤبة :

لَقَد أَتى فِي رَمَضانَ الماضِي جارِيَةٌ فِي دَرْعِها الفَضْفاضِ

أَبيَضُ مِنْ أُخْتِ بَنِي إِباضِ

فهذا بياض نسبيّ كما تدل المفاضلة ولعلّها هي وأخت بني إباض لم تكن الأسمراوني بالقياس إِلى بياض العجم الّذي هو من أشد الحمرة .

وقال الأعشي :

ومن كل بيضاء رُعبوبةٍ لها بَشَرٌ ناصعٌ كاللّبن

والسِّياق مشعر بأنّ هَذِه ليست من العرب ولكن من بغايا العجم كَكأس عمرو الّتي شرب ببعلبكّ وقرى الشّام الّتي كانت آنئذ من بلاد الرّوم .

وَكَأسٍ قَد شَرِبتُ بِبَعلَبَكٍّ وَأُخرى فِي دِمَشقَ وَقاصِرينا

قال امرؤ القيس وهو في طريق رحلته إِلى القسطنطينيّة :

لَقَد أَنكَرَتني بَعلَبَكُّ وَأَهلُها وَلَابنُ جُرَيجٍ فِي قُرى حِمصَ أَنكَرا

فجعل يشيم البرق أين مَصابُه يشتاق إِلى ديار العرب وهو فِي ديار الرّوم .

وممّا يجري مجرى ما ذهب إليه ثَعْلب النّعت بالبياض للدّلالة عَلى النّور والإشراق ، وجليٌّ أنّ معنى الطاهرة من بَيْضاء الأعشي الّتي كاللّبن بعيد .

وقال قيس بن الخطيم :

بيضاءُ فرعاءُ يُسْتَضَاء بها كأنّها خُوطُ بأنةٍ قَصِفُ

تَغْترق الطَّرفَ وهي لاهية كأنّما شفّ وجهها نُزُف

أي رقّ وجهها كأنّما نزفت فتوهج واحمرّ . والموصوفة هنا عَمْرَةُ بنت رواحة وفيها يقول :

وَعَمْرَةُ مِنْ سَرَواتِ النِّسا ... ءِ تَنفَحُ بِالمِسْكِ أَردانُها

وقبله :

فَما رَوضَةٌ مِن رِياضِ القَطا ... كَأَنَّ المَصابيحَ حَوذانُها

بِأَحسَنَ مِنها وَلا مُزنَةٌ ... دَلوحٌ تَكَشَّفُ أَدجانُها

فهذا إشراق جمال لا بياض بشرة . وعمرة كانت من الخزرج ولم يكونوا بِيضًا بل السّواد عليهم أغلب وربّما داني الخضرة قول حسّان فِي بني جُمح :

أو من بني جمح الخضر الجلاعيد

وقد يكون قوله «الخضر» نعتًا لما ذكر من قبائل قريش حيث قَالَ :

لو كنت من بني هاشم أو من بني أسد

إلّا أنّه هنا عَلَى بني جمح رهط صفوان بن أميّة (وقد أسلم بعد الفتح) وأبويه أميّة وأُبيّ ابن خلف أدلّ والله تعالى أعلم .

وقيل إنّ كعب بن زهير عرَّض بالأنصار حيث قَالَ :

يَمشون مَشيَ الجِمالِ الزُّهرِ يَعصِمُهُم ... ضَربٌ إِذا عَرَّدَ السودُ التَنابيلُ

قال السّهيليّ فِي الروض الأُنف : «وجعلهم سودًا لما خالط أهلَ اليمن من السّودان عند غلبة الحبشة عَلَى بلادهم . ولذلك قَالَ حسّان فِي آل جفنة :

أَولادُ جَفنَةَ حَولَ قَبرِ أَبيهِمِ ... بيضُ الوُجوهِ مِنَ الطِرازِ الأَوَّلِ

يعني بقوله من الطّراز الأوّل أنّ آل جفنة كانوا من اليمن ثمّ استوطنوا الشّام بعد سيل العرم فلم يخالطهم السّودان كما خالطوا من كَانَ من اليمن ، من الطّراز الأوّل الّذي كانوا عليه فِي ألوانهم وأخلاقهم[1] . وهذا من السهيلي رحمه الله وَهْمٌ فإن هجرة أولاد جفنة

(١) الروض الأُنف تحقيق الأستاذ عبد الرحمن الوكيل ، جـ٧ ، ص ٣٠١/ ٣٠٢ ورواية الديوان والمشهور من أمر قصيدة حسّان «قبر أبيهم» «بعدَه قبر ابن مارية الكريم المفضل» ، «ثمّ بيض الوجوه» كريمة أحسابهم شمّ الأنوف إلى آخر البيت » .

وفي هامش الشرح ص ٣٠٤ عن لاميّة كعب قال : وقد أورد ابن إسحاق القصيدة دون إسناد ، =

وابْنَيْ قيلة جميعًا كانت فِي زمان واحد .وما أرى إلّا أنّ الأنصار نفروا من قوله : التنابيل فهو أدل عَلى ما كَانَ من قصر قاماتهم بالنّسبة إِلى المهاجرين وما كَانَ الأنصار بأشد سوادًا من كثير من قريش ، فقد وُصفوا ـ عدد منهم وقبائل منهم ـ بالأدمة وبالخضرة كالّذي مرّ من قول حسّان وكقول الفضل بن العباس بن أبي لهب :

وَأَنـــا الأَخضَرُ مَـــن يَعرِفُنـــي أَخضَرُ الجِلـدَةِ مِـن لَـوْنِ العَـرَبْ
مَـــن يُســـاجِلني يُســـاجِل ماجِـداً يَمـــلأُ الـــدَلوَ إِلى عَقـــدِ الكَـــرَبْ

وكأنّهم إذ كانوا أهل فلاحة وعمل كَرِهُوا ما يدل عليه القِصرُ مَعَ سَوادِ الأعقاب من ضرورة وشقاء . قَالَ النّابغة :

لَيسَت مِنَ السودِ أَعقاباً إِذا اِنصَرَفَت وَلا تَبيـعُ بِجَنبَـي نَخلَـةَ البُرَمـا

وقال الفرزدق :

إِذا القُنبُضاتِ السودِ طَوَّفنَ بِالضُحى رَقَـدنَ عَلَـيهِنَّ الحِجـالُ المُسَـجَّفُ

هذا وقريب ممّا ذهب إليه ابن الخطيم ما قاله جميل يشبه ضياء الجمال وإشراقه بفاثور الفِضَّة :

سَـبَتني بِعَيـنَـي جُـؤذُرٍ وَسطَ رَبرَبِ وَصَـدْرٍ كَفـاثورِ اللُجَـينِ وَجِيـدُ

فجعل الصّدر والثّدي كلّ ذلك إشراقًا واحدًا .

وممّا يدل عَلى صحّة ما ذكره ثعلب رحمه الله قول ابن أبي ربيعة :

أَبرَزوهـا مِثـلَ المَهـاةِ تَهـادى بَـينَ خَمـسٍ كَواعِـبٍ أَتـرابِ
وَهـيَ مَكنونَـةٌ تَحَـيَّرَ مِنها فِي أَديـمِ الخَـدَّينِ مـاءُ الشَّـبابِ

= قلت : وابن إسحاق معاصر مالك ووثّقه البخاري ومسلم كلاهما ولم يكن دأب العلماء بسط الإسناد كل حين وكانوا في غير الحديث يختصرونه والسير والأشعار والنّحو وكثير من التّفسير أجروه هذا المجرى . وهذا باب يطول تفصيله ولا ريب في صحة ما روي من أمر لاميّة كعب لاشتهار ذلك وإشارة الشعراء القدماء وغيرهم إليه والله تعالى أعلم .

أخذه من قول ابن الخطيم «كأنّما شَفَّ وجهها نُزُف» يريد رقّتها ولُطْفَ شبابها وقد أحكم المخزومي المعنى وأتمّه :

دُميَــةٌ عِنــدَ راهِــبٍ ذي اِجتِهــادٍ ... صَــوَّروها فِي جانِــبِ المِحــرابِ

وَتَكَنَّفنَهَــا كَواعِــبُ بِــيضٌ ... واضِــحاتُ الخُــدودِ وَالأَقــرابِ

ثُــمَّ قــالوا تُحِبُّهــا قُلــتُ بَهــراً ... عَــدَدَ الــنَّجمِ وَالحَصى وَالــتُّرابِ

حــينَ شَــبَّ القَتــولَ وَالجيــدَ مِنهــا ... حُســنُ لَــونٍ يَــرِفُّ كَالزِّريــابِ

أَذكَرَتنــي مِــن بَهجَــةِ الشَّــمسِ لَمّــا ... طَلَعَــت مِــن دُجُنَّــةٍ وَسَــحابِ

فالزرياب ـ كلمة معربة ـ هو الذّهب أو ماء الذّهب . فهذا لون الصّفرة الّتي تسرّ النّاظرين . وقوله فِي صاحباتها وهي تِرْبهُن ومنهن أنهنّ بيض واضحات الخدود والأقراب لا ريب عَلى مذهب ثعلب . هُنَّ دون لونها لونهنّ ، أشدُّ منها أُدمةً ووضوح خدودهن لبريقهن وتَحَيّرُ ماء الشباب فيهن . والأقراب الخصور ووضوحهن وضوح ضمورهن مَعَ اسبكرارِ القامة . وبيضٌ أي حسانٌ حرائر كرائم . وقوله أذكرتني من بهجة الشّمس ، من مقال قيس بن الخطيم «بدا حاجب منها وضنّت بحاجب» ، وقوله : «حين شبَّ القتول» عنى به سحر العينين .

وقال أبو الطّيّب :

ألا خــــدد الله ورد الخــــدود ... وقــد قــدود الحسّــان القــدود

وقال :

نَسيتُ وَمـا أَنسى عِتاباً عَلى الصِـدِّ ... وَلا خَفَـراً زادَت بِـهِ حُمرَةُ الخَـدِّ

وقال :

حَيـثُ اِلتَقـى خَـدُّها وَتُفّـاحَ لُـ ... ـبنانَ وَثَغـري عَـلى حُمَيّاهـا

كَحـلاءُ فِي بَـرَجٍ صَـفراءُ فِي نَعَـجٍ ... كَأَنَّهـا فِضَّـةٌ قَـد مَسَّـها ذهَـبُ

أي صفراء لون البشرة الحسنِ النّاعجِ ـ أي الخالص بياض ما كانت تعدُّه العرب أبيض من النّعاج أي بقر الوحش ومن الإبل . وكل ذلك من درجات لون الرمل ولون

السُّمرة كما لا يخفى .

وما كانت العرب فِي قديم أشعارها تمدح الخدود الحمر . فصارت بعد الحضارة لا ترى الجمال إلا الأحمر ، كما قَالَ أبو عبادة البحتريّ :

ويَشُوقُني وَردُ الخدُود الأحمر

وقال أبو تمّام :

وأجْرَى لها الإشْفاقُ دَمْعاً مُوَرَّداً مِن الدَّمِ يجْرِي فوقَ خَدٍ مُوَرَّدِ

وقال الحكمي :

يا قمراً أبصرت فِي مأتمٍ يندب شجواً بين أتراب
يبكي فيذري الدر من نرجس ويلْطُم الورد بعنّاب

فأين هَذَا من حزينة عمر الّتي قَالَ فيها :

فَقامَت كَئيباً لَيسَ فِي وَجهِها دَمٌ مِنَ الحُزنِ تُذري عَبرَةً تَتَحَدَّرُ

فهذه لم تكن حمراء ولكن عربية سمراء غام وجهُها للهمّ والحزن بعد بَهْجَةٍ وبريقٍ وإشراق .

وما أحسب إلّا أنّ العرب أرادت حاقَّ خضرة اللّون أو كخضرته فيما نعتت من جمال تشبهه بخضرة الرّوضة وإشراق البرق فِي مُدجنات السحائب . وقال ذو الرّمة :

أَسيلَةِ مُستَنِّ الوِشاحَينِ قانِئٌ بِأَطرافِها الحِنّاءُ فِي سَبطٍ طَفلِ

أي كف سبط الأصابع ناعم .

مِنَ الأَشرَفاتِ البيضِ فِي غَيرِ مُرهَةٍ ذَواتِ الشِّفاهِ الحُوِّ وَالأَعيُنِ الكُحلِ

وفِي الأساس «الشّفاه اللُّعْس» وفِي الدّيوان «من الأشرفات» وأراه تحريفًا والصّواب من الأساس وهذه سَمْراءُ لحوّةِ الشفاة ، وكذلك فتاةُ طرفة :

وفِي الحَيِّ أَحْوَى يَنفُضُ المَرْدَ شادنٌ مُظاهِرُ سِمطَيْ لُؤلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ
وَوَجهٌ كَأَنَّ الشَّمسَ حَلَّتْ رِدَاءَها عَلَيْهِ، نَقيُّ اللَّونِ لَمْ يَتَخَدَّدِ

فلم يذكر هنا للخد حُمْرةً إلّا تلميحًا لبعض ما يكون فِي التّفاح من توريد . وكأنّه نظر فِي هَذَا إِلى قول الرَّمّاح بن ميادة :

فـيهنّ صَـفراءُ المَعاصِـمِ طَفلَـةٌ ... بَيضـاءُ مِثـلُ غَريضَـةِ التُفّـاحِ

وذكر التّفاح فِي شعر العرب قليل . وذكره حسّان لمّا كَانَ لَهُ من علاقة ومعرفة بالشّام وقرابة نسب من بني جَفْنة ملوكِ غسّان . عَلى أنّه لم يذكر حُمْرَة خدٍّ ولكن أشار إِلى الطعم وضمَّن ذلك معنى الرائحة الزّكيّة الطيّبة .

كـأنَّ سَـبيئَةً مِـنْ بَيْـتِ رَأسٍ ... يكـون مِزَاجَهَـا عَسَـلٌ وَمَـاءٌ

عَـلى أَنيابِهـا أَو طَعـمُ غَـضٍّ ... مِـنَ التُفّـاحِ هَصَّرَهُ اِجتِنـاءُ

عـلَى فِيها إذَا مـا اللّيـل قَلَّـت ... كواكبُـه ومـال بـه الغطـاء

إذا مـا الأشربـات ذُكِـرْنَ يومـا ... فهـن لطِيّـبِ الـرّاح الفـداء

وأعرض أبو الطّيّب فلم يلتفت إِلى ذكر وردِ الخدود فِي غزله بالبدويات :

مـن الجَـآذِرُ فِي زِيِّ الأَعاريـبِ ... حُمـرَ الحُلى وَالمَطايـا وَالجَلابيـبِ

فجعل الحُمرة كما ترى لما عليهن من الحلية والثياب ولإبلهن ولم يَنْسُب إليهن الحمرة ؛ إذ الحمرة كما تقدّم ذكر ذلك للعجم .

وكتب زياد إِلى معاوية أيّام عمله لعليّ وإخلاصه لَهُ (وذلك قبل أن يستلحقه مُعَاوية ويصير هو ساعده الأيمن) يصف نفسه أحْمَر ضرَّابا بالسيف ، أي أعجميًّا لا يعرف لنفسه فِي العرب نسبًا وإنّما نسبه إِلى أمّه ولم تكن من الحرائر ، فتلك لها عُجْمةٌ مَعَ أنّ اسمها سميّة.

وقال ذو الرّمّة يهجو بَطْنًا من بني سعد يقال لهم بنو امرئ القيس :

تُسَمّى اِمرُؤُ القَيسِ اِبنَ سَعدٍ إِذا اِعتَزَت ... وَتأبى السِبالُ الصُهبُ وَالآنُفُ الحُمرُ

وَلَكِنَّما أَصلُ اِمرِئِ القَيسِ مَعشَرٌ ... يَحِلُّ لَهُم لَحمُ الخَنازِيرِ وَالخَمرُ

فجعلهم لحمرتهم عَجمًا رومًا أو إِلى الروم أقرب وهو القائل فِي ميّة :

لمياءُ فِي شـفتيها حُـوَّة لعـس ... وفِي اللّثـاتِ وفِي أنيابهـا شـنب

قوله : أحوى يجوز أن يكون أراد به فم الفتاة كالّذي قَالَ ذو الرّمّة من بعد «الشفاه الحُوّ» ويجوز أن يكون أراد صفة الشادن من الظباء وشبَّه المحبوبة به فِي أُدمة لونها وجمالها ، وأظهر من هَذَا وأشبه بالسياق أن يقال إنسان أحوى ، أي ضارب إِلى السّواد أي أخضر اللّون أو آدمه شديد الأدمة . وقالوا فِي «لم يتخدَّد» لم يتشنّج ولم يتغضّن ، قَالَ الشّيخ السقا رحمه الله : «غير متشنج ولا متغضن لأنها فِي ريعان الشباب وربيع الحياة» .

وأشبه بظاهر سياق المعنى وأقرب إِلى نمط بلاغة هَذَا الشّاعر الفحل المقدم عَلى غيره فِي هَذِه القصيدة خاصّة أن يكون أراد بقوله لم يتخدد أي لم تُصنع فيه أخاديد . أي خطوط عَلى خدّه . وهي الّتي نقول لها فِي عاميّتنا الشلُّوخ إذا كانت طوالًا والرشوم إذا كانت صغارًا . قَالَ الشّيخ عبد الله عبد الرحمن رحمه الله :

الخـدُّ لم تَجْـرِ مُوسَـى فِي جوانبـه   والجيـدُ فِي حُسْـنِه عـن حليـة غـان

وفِي صحاح الجوهري قَالَ :

لَقًـى حملتـه أُمّـه وهـي ضـيفَةٌ   فجـاءَتْ بِيَـتْنٍ للضّـيَافَةِ أرْشَـمَا

اليَتْن : الّذي تخرج رجله فِي الولادة قبل رأسه وذكر الجوهري عجز البيت فِي مادة «اليتن» وقال : «والأرشم أيضًا الّذي به وشم وخطوط» .

والبيت للبعيث يهجو جريرًا (النقائض طبع بريل بليدن ١٩٠٧ م ، ص ٤٤) :

لَقًـى حملتـه أُمّـه وهـي ضـيفَةٌ   فجـاءَتْ بتـزٍّ للنزالـة أرْشَـمَا

قال أبو عبيدة فِي الشرح بعد تمهيد ذكره : «أرشم أَصْحم الوجه إِلى السواد ، ويقال الأرشم الّذي به وسمٌ وحطوطٌ ويقال الّذي يشتمل عَلى الطّعام[1] . ويحرص عليه ويروي «من نزالة أرشما» ـ قلت : وهذا أشبه ؛ إذْ لم يوصف جرير بأنّ عَلى وجهه وشما ، كما لم يوصف بصُحْمة ظاهرة . وُصِفَ بنحو من ذلك غيلان فقيل إن ميّة فزعت من سواده . والّذي فِي كتاب أبي علي أنّه كَانَ حلو العينين خفيف العارضين برّاق الثّنايا

(١) الحق أنّ الأرشم بمعنى الشره من باب إبدال النّون ميمًا . والراشن «هو الّذي يأتي الوليمة ولم يدع إليها» كما ذكر الجوهري رحمه الله .

واضح الجبين حسن الحديث» وأنّ ميَّة وصفها عصمة راوية غيلان فقال : «كانت ميّ صفراء أملودا واردة الشّعر حلوة ظريفة وأنّ فِي النّساء الّتي معها لأحسن منها وكانت عليها ثوب أصفر ونطاق أخضر» قلت : فهذا نحو ممّا يلبس أهل بلادنا والنّطاق الإزار .

وبيت البعيث كأنّ الوجه الصّائب فيه رواية من روي «من نُزَالةَ أرْشَما» ، أي من نطفة أرشم أي ذي خطوط ـ كما هجا جرير البعيث بالحمرة هجاه البعيث أنّه لغير رشدة من ذي رشوم لعله أسود عبد .

قول ذي الرّمّة «فِي غير مُزْهة» قالوا أي فِي غير تَرْكٍ للكحل . وعندي أنّ هَذَا فيه بعد ، إذ ما يمنعها من الكحل ، وقد وصفها بأنّها «كحلاء فِي بَرَحٍ» ؟ وليس النّفِي ههنا يقوي الإشعار بالمدح .

وفِي قولنا لمن ليس فِي وجهه «شلوخ» أو «رشوم» فِي لساننا العاميّ «أَمْره ومرهاء» ما عسى أن يستعان به فِي هَذَا الباب ، إذ أصل الأَمْره الّذي لا يخالط بياضه شيء . فيكون الّذي ليس به وشم أَمْره ، ولا يَنْفِي أن ميّة كَانَ بها وَشْمٌ أو رَشْمٌ سكوت عصمة عن ذلك، والله تعالى أعلم .

وفِي العرب منذ الجاهلية فزعٌ من السواد ، ربّما كَانَ من حاقَ أسبابه قوة صلتهم بأهله الغرابيب ، وأنّ السمرة والصفرة من السواد فِي اللّون قريب . وقولهم أخضر يعنون أسود البشرة كأنّه من لون السَّوادِ فرار .

وقال الآخر :

أنسُب العبد إلى آبائه أسودَ الجلدةِ من قوم عُبُد

وفِي الفيروزابادي : «أسود ولد غلاما سيّدا أو غلاما أسْوَد ، ضدّ» فكأنّ الأسود عنده عب ضربة لازب وفِي الصّحاح بلا تعليق وذلك أصح وأجود .

وقول علقمة :

يَحمِلنَ أُترُجَّةً نَضخُ العَبيرِ بِها كَأَنَّ تَطيابَها فِي الأَنفِ مَشمومُ

فيه إلماع إلى لونها خضراء أو صفراء كما يكون الأترج . وزعم بعض الشرّاح أنه «كأنّها أُتْرُجَّةٌ من طيب رائحتها» ، فحصر المعنى فِي أمر واحد وبعد هَذَا البيت :

كَـأَنَّ فـارَةَ مِسـكٍ فِي مَفارِقِهـا ... لِلباسِـطِ المُتَعـاطي وَهـوَ مَزكـومُ

فهذا بيانَ لقوله «نضخ العبير بها» وبَقِيَتْ فِي الأترجة بقيات دلالةٍ من لون وجمال .

وإن تكن الفَرَسُ السلهبة الّتي فِي آخر القصيدة كنايةً عن سلماه فقد شبهها ، بالسُّلاءَةِ ، أي شوكة النحل وهي خضراء ، ولا يقدح فِي هَذَا أنّ السُّلاءة فِي شعر امرئ القيس ، ولعلّه عَلَى تقدمه اتّبع علقمة ، فقد كانا فِي زمان واحد ، وبينهما فِي قول الشّعر تنافس .

والفحل الأكلف الّذي فِي آخر القصيدة كأنّه جعله رمزًا لنفسه ، والأكلف الّذي في سواده حمرة ؛ حمرة ألوان الإبل ولا تكون قانية وقد مرّ بك أنّ الإبل السّود يقال لها صفر فتأمّل .

وقال طفيل الغنوي ، فذكر الوردة فِي ألوان الخيل وهي كما تقدّم لم يذكرها القدماء فِي ألوان النّساء ، وكانوا ممّا يشبهون النّساء الحسّان بالخيل وبالقلاص من الإبل تصريحًا وتلميحًا .

قال الأعشي :

عَهـدي بِهـا فِي الحَـيِّ إذ أبـرزت ... هَيفـاءَ مِثـلَ المُهـرَةِ الضـامِرِ

وقال القطاميّ يصف الإبل :

يَمشـينَ هَوْنًـا فـلا الأعجـازُ خاذلـةٌ ... ولا الخُصـورعلى الاعجـازِ تَتَّكِـلُ

وقال الأخطل وكان القطامي معاصرًا لَهُ وهو أي الأخطل ، أسن :

وقـد عَهـدت بهـا بيضًـا منعمّـة ... لا يرتـدين عَـلى عَيْـبٍ ولا وصـب

يَمشـينَ مَشيَ الهِجـانِ الأُدمِ يوعِثُهـا ... أَعـرافُ دَكداكَـةٍ مُنهالَـةِ الكُثُـبِ

مِـن كُـلِّ بَيضـاءَ مِعطـالٍ بَرَهرَهَـةٍ ... زانَـت مَعاطِلَهـا بِالـدُّرِّ وَالـذَّهَبِ

حَـوراءُ عَجـزاءُ لَم تُقـذَف بِفاحِشَـةٍ ... هَيفـاءُ رُعبوبَـةٌ مَمكـورَةُ القَصَـبِ

وهو كقوله :

كانَـت مَنـازِلَ أَقـوامٍ فَسَـيَّرَها ... مَـرُّ اللَّيـالي وَنَضـخُ العـارِضِ الهَـزِمِ

وَقَـد تَكـونُ بِهـا هيـفٌ مُنَعَّمَـةٌ لا يَلـتَفِعنَ عَـلى سـوءٍ وَلا سَـقَمِ
يَمشـينَ مَشيَ الهِجـانِ الأُدمِ روَّحَهـا عِندَ الأَصيلِ هَديرُ المُصعَبِ القَطِمِ

أي الفحل الهائج . وهنا نفس من أواخر ميميّة علقمة . وقد مرت أبيات طفيل ومنها ممّا أشرنا إليه الآن :

وِراداً وَحُـوًّا مُشرِفـاً حَجَباتُهـا بَنـاتِ حِصـانٍ قَـد تُعـولِمَ مُنجِـبِ

وقول يزيد بن الخذّاق :

أَلا هَـل أَتاهـا أَنَّ شِـكَّةَ حـازِمٍ لَـدَيَّ وَأَنّي قَـد صَـنَعتُ الشَّموسـا
وَداوَيتُهـا حَتّـى شَـتَت حَبَشِـيَّةً كَـأَنَّ عَلَيهـا سُندُسـاً وَسُدوسـا

فيه تشبيه المهرة بالفتاة وهي هنا حبشيّة جميلة تلبس الخُضْرة (السُّدوس) وقد يكون سُندسها أصْفَر كما ذكر عِصْمة من نعت ميّة . وخُزَامي الخَرْجِ في ميميّة ذي الرّمّة كالكناية عنها والمزنة الفارق والظلماء علجوم .

تِلكَ الَّتي أَشبَهَت خَرقاءَ جَلوَتُها يَـومَ النَقـا بَهجَـةٌ مِنهـا وَتَطهـيمُ

ومعنى من جمال الحبشيات في قول أبي ذؤيب :

تَـرَوَّت بِـماءِ البَحـرِ ثُـمَّ تَنَصَّبَت عَـلى حَبَشِـيّاتٍ لَهُـنَّ نَئـيجُ

ويروى (رواه الأصمعي رحمه الله) :

شَرِبْـن بـماء البحـر ثـمَّ ترفّعـت متـى حبشـيّات لهـنّ نئـيج

ورواية النّحويّين وأحسبها ممّا روى الأصمعي[1] .

متـى لُجَـجٍ خُضْرٍ لهـنّ نئـيج

فهنا إيثار لجمال البحر الملح ، وأمواجه الخضر عَلى خضرة الحبشيّات وصفرتهن . وقد صار الحبشيّ من بعد في مادة تشبيهات أخر ، العبد ذو الفرو الطّويل الأصلم قد صرّح حبشيًا في قول غيلان :

---

(١) شرح أشعار الهذليّين ، دار العروبة ، مصر ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .

كَأَنَّــهُ حَــبَشِيٌّ يَبتَغــي أَثَــراً أَو مِــن مَعــاشِرَ فِي آذانِهــا الخُــرَبُ

وقول لبيد :

يُضيءُ رَبابُــهُ فِي المُــزنِ حُبشــاً قِيامــاً بِــالحِرابِ وَبِــالإِلالِ

كَــأَنَّ مُصَــفَّحاتٍ فِي ذُراهُ وَأَنواحــاً عَلَــيهِنَّ المَــآلي

تصوير جمالي لا عنصريّة فيه . ونفسٌ من عنصريّة في قول الأخطل :

أَنــاخوا فــأَدنوا شاصِــياتٍ كَأَنَّهــا رِجــالٌ مِــنَ السّــودانِ لَم يَتَسَربَلــوا

وهو مأخوذ من قول الأعشى :

تَحسِــبُ الــزِقَّ لَــدَيها مُســنَداً حَبَشِــيّاً نــامَ عَمــداً فَــانبَطَح

وقد رأى الأعشى بلد الحبش . ولعل الأخطل إنّما عَنَى سودان جيش يزيد بن معاوية . وذكر الجاحظ أنّه كانت لهم أفاعيل في يوم الحرّة . وفي الجاحظ عثمانيّة وميل إلى أميّة ذو أصل قديم والله تعالى أعلم .

وقال العجّاج وعنصر الاحتقار لا يخفى :

كــالحبشيّ التــفّ أو تســبّجا

وقال رؤبة يذكر الغربان الحُجَّل أي الّتي تحجل (وهي مشية الغراب) وهي تَنْتَاش ما طرحته الرواحل من حَمْلها فصار للنّسر والضّبع :

وحُجَّــل كــدردق الأزنــاج

أي كصغار أولاد الزنج . وقد صار أمر الحبش والزّنج والنّوبة وسائر السّودان في نظر العنصريّة الّتي نشأت من بَعْد من إيثار الحمرة عَلى سائر الألوان ، أمرًا واحدًا يُزْدرَى .

حتّى لقمان العبد الصّالح أو النّبيّ قيل «كان عبدًا مجدَّعا ذا مشفر» «وقصيرًا أفطس الأنف من النّوبة» «ومن سودان مِصْر ذا مشافر» وما أشبه ممّا ليس فيه توقير لابس عدم التوقير هَذَا المنبعث من العنصريّة المنافية حقًّا لروح الإسلام ولماضي ما كَانَ عليه العرب سذَاجَةُ القصص القديم ، وما لا شك فيه ، إنْ صحت روايته عن السّلف أنّه كَانَ مرادًا

للعظة والتّنبيه عَلى سِعةِ رحمة الله إذ يجتبي من يشاء ويؤتي الحكمةَ من يشاء ويضع التّقوى فِي القلوبِ فلا يشغلنَّ أولي الألباب مظهر لون الجسد وهيئته .

وممّا شاع عند المتأخّرين حين يتغزلون بسوداء أن ينسوا كل محاسنها بل أن يعتبروا سواد لونها شَيْنًا ويحتفظوا لها بَعْدُ بفضيلة جنسيّة شَهْويّة هي وحدها عندهم كل ما لدَيْها من حُسْنٍ يُعْتَذَرُ به عن لونها المرغوب عنه .

تُخْتَارُ لابن الرّومي أبيات قافية فِي هَذَا المعنى منها قوله :

يزداد ضيقاً عَلى المراس كما تزداد ضيقاً أنشوطة الوَهق

فِي أبيات هي عَلى نهجه من تشقيق المعاني عَلى مذهب صناعة جدل البديع . «ولصاحب الطّراز المنقوش فِي محاسن الحبوش» تفريع بارد فِي هَذَا الباب .

وفِي أنساب الأشراف أبيات ليزيدَ بن معاوية يُفَضِّلُ فيها جاريةً لَهُ سوداء عَلى ابْنَةِ عَمِّه أمّ ابنه خالد من أجل فضيلةٍ جسديّةٍ من هَذَا الضّرْب .

وهي فضيلةٌ فِي الظّاهر وفِي باطنها ذَمٌّ مردّه إلى دَعْوَى التّفوق العنصريّ الشّديد . والحقّ أنّ التّعصّب والعنصريّة مفسدان للذّوق وللرأيّ .

وقد عاب الكاتب الإنجليزي «شارلس لام» عَلى قومه تمثيلهم رواية «توثيلو» لشكسبير إذ زعم أنّه لا يصلح تمثيل منظر عِشْقٍ بين أسود وبيضاء وأنه سَمِجٌ . ولم يأْخذ عَلى شكسبير قِصّته لحبه شعره وقال إنّما صيغت لتقرأ لا لتمثل وتُرَى أشخاصًا .

ومع هَذَا التّعصّب العنصريّ الّذي حجب عنه ما قد يتأَتّي فِي «أوثيلو» من جوْدَةِ التّمثيل تنبه شارلس لام ونبّه عَلى أن المغاربة قومٌ بيض بياضَ قومه وأنّ قَوْمَه يعرفون ذلك وقد رأوا منهم سفراء .

خَفَى عن شارلس لام أمر تعصّب آخر هو عداوة الصّليبيّة الّتي كَانَ عليها قومه للإسلام والمسلمين . المسلمون لأنّهم أعداءٌ ، سودٌ . وانطبع سوادُهم فِي قلوبِ الصّليبيّة انطباعًا منذ أيّام يُوسف بن تاشفين حيث انتصر فِي الزّلّاقة ومعه مجاهدون من المسلمين السّودان عَلى الجمال بأيديهم المزاريق .

والمغاربة المسلمون وأن يكونوا بيضًا بياض الإفرنج والصقالب ، فهم سودٌ عند نصارى الإفرنج لأنهم مسلمون ، لأنّهم أعداء . سواد «أوثيلو» إسلامه المستتر ، أنطقه مَعَ هَذَا شكسبير بها ينطق به الكفرة فِي قوله :

.... Set you down this ;
And say, besides, that in Allefo once,
Where a malignant and a turban'd turk
Beat avenectian and traduc'd the state,
H took by the throat the circumcised dog, and smote him –
[١]thus

ويقابل سوادَ البيض من المسلمين ، سوادَ العداوة واختلاف الدّين ، بياضُ السُّود من نصارى السّودان الحَبش .. حلم تخدير الأفيون ، رأى صمويل تيلور كلردج الحبشيّة جميلة رائعة :

A damsel with a dulcimer
In a vision once I saw :
It was an Abyssinian maid, And on her dulcimer she played,
Singing of Mount Abora.[٢],

وأنْكر التّعصُّبُ العنصريّ أن يكون من بَيْن السّود نَبِيٌّ مرسل فزعم زاعمون أنّ الرقّ

---

(١) اكتبوا هذا :
ثم أضيفوا أنه مرة حلب ،
حيث خبيث من التّرك معمّم
ضرب رجلًا من أهل البندقيّة وأهان الدّولة ،
أخذت بحلقومه ذلك الكلب المختون
وصفعته هكذا .

(٢) فتاة ذات أوتار قانون // رأيتها طيفًا في حلم // كانت جارية حبشيّة // وكانت تضرب أوتار قانونها // تتغنّى عن جبل أبورا .

قلت : هل عني بأبورا «أبرهة» أو «أتبرا» أو «عتباي» ـ كان كلردج واسع الاطّلاع ولعله يشير إلى أغنية (سوناتة) شكسبير (١٢٨) ذات المغنية الّتي بعض وصفها كأنّه محذو على مغنّية أبي تمّام الّتي تكسب يداها من الوجد ما لا تكسب الخدود . والله أعلم .

منع لقمان النّبوةَ ، وقد شُري يوسف عليه السّلام بثمن بخس دراهم معدودة فلم يمنع ذلك نبوّته ولا مُنِعَها هارون عليه السّلام وكان بنو إسرائيل جميعًا ممن عبَّدهم فرعون .

وقال المعرّي :

وما قامَ في عُلْيا زُغاوَة مُنْذِرٌ فما بالُ سُحْمٍ يَنْتَجينَ إلى بُقْع

وفي تفسير الطّبريّ لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨] أنّ الّذين لم يقصّ قصصهم علينا أنبياء السّودان . قَالَ يسنده إلى عليّ كرّم الله وجهه : «بعث الله عبدًا حبشيًّا نبيًّا فهو الّذي لَم نقْصُص عليك» ـ فالحبشيُّ كما ترى لا يكون إلّا عبدًا ، وصناعة القصص لا تخفِي هنا إذ آخر سياق الخبر عَلى خلاف ما نصّت عليه الآية : ﴿ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾.

هذا وأحسبه غير خافٍ عنك قول الفقهاء بكراهة التّجارة إلى بلد السّودان كراهة تحريم[1] . وفي ترتيب المدارك للقاضي عياض رحمه الله : «وكان مالك يعجبه الموز ويقول : لم يمسّه ذباب ولا يد أسْود وليس شيء أشبه بثمر الجنّة منه ، لا تطلبه في شتاء ولا صيف إلّا وجدته ، قَالَ تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد : ٣٥] »[2] .

وما أرى إلّا أنّ مالكًا رحمه الله قد أراد بالأسود هنا الشّخص لا أمرأ من السّودان أسودَ اللّون . ويقال للأشخاص أَسْودة لأنّ كل شخص يرى أسود من بعيد . وجعلوها جمعًا لسواد . ويقال أساود أيضًا فهي جَمْعٌ لأسود بمعنى شخص . وأكثر السّودان عَلى مذهب مالك رضي الله عنه .

---

(١) انظر حاشية العدوي على شرح الرّسالة ، جـ ٢ ، ص ٤٤٩ ـ قال الشّارح : «إلى بلد السّودان منهم للصلة المتقدّمة وهي قوله : لأن في ذلك تغريرَ الإنسان بنفسه وماله وإذلالًا للدّين » . قال العدوي في الحاشية : قوله : الكفّار منهم فهو من عطف الخاص على العام ونكتة ذلك أنّ الكفّار السّودان ليسوا مثل غيرهم من الكفّار في شدة الحميّة فربما يتوهم جواز السّفر» لهم ثم قال من بعد «واستظهر الشيخ أحمد زرّوق أن المراد بلاد السّودان لما فيها من المخاطرة بالنّفس والمال » . ا . هـ .

(٢) ترتيب المدارك ، طبع المغرب ، جـ١ ، ص ١٢٥ .

وقال نُصَيْب يعتذر عن سواد لونه ، وكان عبدًا فَعَتق :

سَـودتُ ولم أملـك سـوادي وتحتـه — قمـيصٌ القـوهيِّ بـيضٌ بنائِقُـهْ
ولا خَـيْرَ فِي ودِّ امـرِئٍ متكـارِهٍ — عليـك ولا فِي صـاحبٍ لا توافقـه
فَـإن شِئتَ فَارفُضـهُ فَـلا خَـير عِنـدَهُ — وَإِن شِـئتَ فَاجعَلـهُ خَـليلا تصـادِقه

ونسبها فِي بعض أبواب اللّسان إِلى عنترة . وإِلى عنترة منسوب قوله :

لَـئِن يَعيبـوا سَـوادي فَهـوَ لي نَسَـبٌ — يَـومَ النِّـزالِ إِذا مـا فـاتَني النَّسَـبُ

وهذا كأنّه من صناعة القصّاص .

وقد كَانَ امرؤ القيس من كِنْدَةَ وأصلها من اليمن وفِي اليمن أُدْمَةٌ وسواد ، فهل كَانَ لَهُ من ذلك نصيب ، فهذا إنكار بعلبك وابن جريج لَهُ حيث قَالَ :

لَقَـد أَنكَرَتنـي بَعلَبَـكُّ وَأَهلُهـا — وَلَابـنُ جُـرَيجٍ فِي قُـرى حِمصَ أَنكَـرا

وأنفاس من إنكار ابن جريج عَلى امرئ القيس لونه ـ إن كَانَ أنكره ـ نحسها فِي قول المعري ، يُنْكِرْ عَلى الصّحابيّ المجاهد الجليل خُفَاف بن نُدْبة السُّلمي ، وكان سيدُ سُلَيْم وحاملَ لوائها يوم حنين ، سواد لونه :

مِثْـلَ خُفـافٍ سـادَ فِي قوْمِـهِ — عـلى اجْتِيـابِ الحَسَـبِ المُظْلِـم

وقد كَانَ خفاف فِي الجاهلية سيدًا فزاده الإسلام شرفًا ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقد أحسن ابن الرّوميّ بعد أن سما عن وَهْدةِ أنشوطة الوهق إِلى أوج الإنسانيّة الرفيع فقال فِي رثائه ليحيى العلويّ :

وعيَّرتمـوهم بالسَّـواد ولم يـزل — مـن العَرَب الأمحاض أخضرُ أدعجُ

ومرثيته أهل البصرة أظهر فيها روح الفاجعة والمأساة من سوى ذلك ـ وفِي قوله : «دخلوها كأنهم قطع الليل» من السواد نفور عظيم .

وهذا بعد أصلحنا الله وإيّاك أيّها السّامع الفاضل والقارئ الكريم بابٌ واسع يوشك أن يخرج بنا من رياض علوم الأدب إِلى صحارٍ أُخر ليس لها من نهاية .

والله المستعان وبه التّوفيق .

جـــ اللّيل والنّجوم (١)

اللّيل والنّجوم من قديم ما لهج به الشّعراء . ولا غرو ، فالليل فيه المأوى والهدوء ، كما فيه الوحشة والرعب والغوامض المجهولات ، من جن وسعالى وغيلان .

قال ذو الرّمّة يصف سرى اللّيل :

بَينَ الرَّجا وَالرَّجا مِن جَنبِ واصِيَةٍ ... يَهماءَ خابِطُها بِالخَوفِ مَكعومُ

لِلجِنِّ بِاللَّيلِ فِي حافاتِها زَجَلٌ ... كَما تَجاوَبَ يَومَ الرّيحِ عَيشومُ

والعيشوم ضرب من الثّمام .

هَنّا وَهِنّا وَمِن هُنا لَهُنَّ بِها ... ذاتَ الشَّمائِلِ وَالأَيمانِ هَينومُ

دَوِّيَّةٌ وَدُجى لَيلٍ كَأَنَّهُما ... يَمٌّ تَراطَنَ فِي حافاتِهِ الرّومُ

وقال أيضًا :

قَد عَجِبَت أُختُ بَني لَبيدِ ... وَهَزِئَت مِنّي وَمِن مَسعودِ

رَأَت غُلامَي سَفَرٍ بَعيدِ ... يَدَّرِعانِ اللَّيلَ ذا السُّدودِ

وفي اللّيل أيضًا الأنس والخلوة ولقاء الأحبّة . قَالَ أبوالطّيّب :

وَكَم لِظَلامِ اللَّيلِ عِندَكَ مِن يَدٍ ... تُخَبِّرُ أَنَّ المانَوِيَّةَ تَكذِبُ

وَقاكَ رَدى الأَعداءِ تَسري إِلَيهِمُ ... وَزارَكَ فيهِ ذو الدَّلالِ المُحَجَّبُ

وقال أيضًا وقد مر الاستشهاد بثلاثة أبيات منه :

قِف عَلى الدِّمنَتَينِ بِالدَوِّ مِن رَ ... يّا كَخالٍ فِي وَجنَةٍ جَنبَ خالِ

بِطُلولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجومٌ ... فِي عِراصٍ كَأَنَّهُنَّ لَيالي

وَنُؤِيٍّ كَأَنَّهُنَّ عَلَيهِن ... خِدامٌ خُرسٌ بِسوقٍ خِدالِ

---

(١) المجلّة ، جـ ١٩ ، ص ١٩ . (حسن) .

لا تَلُمنـي فـإنّني أعشَـقُ العُشّـ ـاقَ فيهـا يـا أعـذَلَ العُـذّالِ

ولا يخفى ما في كلام أبي الطّيّب من الإشارة إلى ليالي الأنس ونجوم الحسّان ذوات الخلاخيل الخرس والسّوق الخدال . وظاهر التّشبيه فيه ما ذكرنا آنفًا وفيه أيضًا الإلماع إلى أنّ الرّبوع والعراص مبهمات إبهام اللّيالي حتّى يهتدي إلى معرفتهن الواقف بآثار الرّسوم والطلول اللّاتي هنّ منهن بمنزلة المعالم ، كما يهتدي ساري اللّيل بالنّجوم .

والّذي جاء في مدح اللّيل كثير - وأكثره يقع في باب المبدأ والنّسيب ، ودلالته عَلى الحنين لا تخفى . وقد يقع بعد الخروج في باب الأغراض بمعرض الفخر وما إليه ، كقول طرفة ، وذكر النّجوم إذ قد كَانَ أنسه ليلًا :

نَـداماي بِـيضٌ كـالنُّجومِ وَقَيْنَـةٌ تَـروحُ عَلَينـا بَـينَ بُـردٍ وَمُجسَـدِ

وسنعرض لهذا من مذهبهم فيما بعد إن شاء الله .

وكثيرًا ما يذكرون ليلة بعينها ثمَّ يصفون ما كَانَ فيها كالّذي فعل عمر في الرائيّة :

وَلَيلَـةَ ذي دَورانَ جَشَّـمتِني السُّرى وَقَـد يَجشَـمُ الهَـولَ المُحِـبُّ المُغَـرَّرُ

ثمّ قَالَ :

فيالـكَ مـن ليـلٍ تقـاصرَ طولـهُ ومـا كـانَ لـيلي قبـلَ ذلـكَ يـقصرُ

وقد سلك عمر سبيل جماعة قبله ، وقلّده جماعة كثيرون بعده - منهم جران العود حيث قَالَ في الفائيّة الّتي مطلعها :

ذَكَرتَ الصِّبا فَانهَلَّتِ العَينُ تَذرِفُ وَراجَعَكَ الشَوقُ الَّذي كُنتَ تَعرِفُ

قال :

فَلَـمّا عَلانـا اللَيـلُ أَقبَلـتُ خُفيَـةً لِمَوعِـدِها أَعلـو الإِكـامَ وَأَظلِـفُ

وأكثر من ذكر ليلة بعينها أن يعمّموا فيقولوا ليالي كذا وكذا - قَالَ عبد بني الحسحاس :

لَيـالي تَصـطادُ الرِجـالَ بِفـاحِمٍ تَـرَاه أثيثًـا نـاعم النّبـت عافيـا

وقال امرؤ القيس :

لَيـاليَ سَـلمَى إذ تُريـكَ مُنَصَّـباً وجِيداً كجِيدِ الرِّئْمِ ليس بِمِعْطال

وقال ذو الرّمّة :

لَيَالِيَ اللَّهْوُ يَطبينِي فَأَتْبَعُهُ ... كَأَنَّني ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَعِبُ

وقال امرؤ القيس :

دِيَارٌ لِهِنْدٍ وَالرَّبَابِ وَفَرْتَنَى ... لَيالِيَنا بِالنَّعفِ مِنْ بَدَلانِ

لَيَالِيَ يَدعونِي الهَوَى فَأُجِيبُهُ ... وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوانِي

وقال علقمة بن عبدة :

لَيَالِيَ لا تَبلى نَصِيحَةُ بَيْنِنَا ... لَيَالِيَ حَلّوا بِالسِّتارِ فَغُرَّبِ

وقال طرفة :

لَيَالِيَ أَقْتادُ الصِبا وَيَقُودُنِي ... يَجُولُ بِنَا رَيعانُهُ وَيُحاوِلُه

واللّيالي وذكر اللّهو وما إليه فِي كل هَذَا إنّما هو كناية عن الشّباب ، وما ضاع من فرص الحياة ، ونوع من البكاء والحسرات عَلى اقتراب الموت وذهاب هَذَا العيش اللّذيذ .

واللّيل من حيث هَذَا المعنى لاحق برموز الخصوبة والرّيّ والسّقيا ـ وقول عبد بني الحسحاس :

لَيَالِي تَصطادُ القُلُوبَ بِفَاحِمٍ ... تَرَاهُ أَثِيثًا نَاعِمَ النَبتِ عَافِيَا

أي كثيرًا ـ شاهد فِي هَذَا إذ هو لم يرد سواد اللّون فِي الشّعر وحده كما ترى ، وإنّما أراد خصبه وريّه وشبابه .

واختلاط معنى السّواد والخضرة كثير عند العرب حتّى إنهم ليقولون ليل أخضر وقالوا سواد العراق يريدون خضرته . وقال تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٤] يصف جنّتين شديدتي الخضرة ـ وكل هَذَا فيه معنى الخصب كما ترى .

وقال امرؤ القيس يصف الشّعر :

وَفَرعٍ يَغشى المتنَ أَسود فاحم ... أثيثٍ كقنو النّخلة المتعثكل

وقال المرقش الأصغر :

ألا حبذا وجه ترينا بياضه ... ومنسدلات كالمثاني فواحما

والأشعار بمعنى اللّيل فِي كلا هذين الكلامين لا يخفى والفعل يغشى وهو ههنا مضعف مما يكثر ورود ذكره مَعَ اللّيل ، قَالَ تعالى :﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ [الليل : ١].

وقد صار تشبيه الشّعر باللّيل من «كليشهات» المتأخّرين الدّائرة أيّما دوران .

قال أبو الطّيّب :

كَشَفَت ثَلاثَ ذَوائِبٍ مِن شَعرِها ... فِي لَيلَةٍ فَأَرَت لَيالِيَ أَربَعا

وَاِستَقبَلَت قَمَرَ السَماءِ بِوَجهِها ... فَأَرَتنِيَ القَمَرَينِ فِي وَقتٍ مَعا

وهذا باب يطول فيه الحديث :

ومن أجمل ما جاء فِي ليالي الأنس واللّهو وأعجبه إلى قول العبد :

تَعاوَرنَ مِسواكي وأَبقَينَ مُذهَباً ... مِنَ الصَّوغِ فِي صُغرى بَنانِ شِمالِيا

وقُلنَ أَلا يا العَبنَ ما لَم يَرُدَّنا ... نُعاسٌ فإِنّا قَد أَطَلنا التَنائيا

لَعِبنَ بِدَكداكٍ خَصيبٍ جَنابُهُ ... وأَلقَينَ عَن أَعطافِهِنَّ المَراديا

وَما رِمنَ حَتّى أَرسَلَ الحَيُّ داعِيا ... وَحَتّى بَدا الصُبحُ الَّذي كانَ تالِيا

وَحَتّى استَبانَ الفَجرُ أَشقَرَ ساطِعاً ... كَأَنَّ عَلى أَعلاهُ سِبّاً يَمانِيا

فأَدبَرنَ يَخفِضنَ الشُخوصَ كأَنَّما ... قَتَلنَ قَتيلاً أَو أَصَبنَ الدَّواهِيا

وأَصبَحنَ صَرعَى فِي البُيُوتِ كأَنَّما ... شَرِبنَ مُداماً ما يُجِبنَ المُنادِيا

فَعَزَّيتُ نَفسي واجتَنَبتُ غَوايَتي ... وقَرَّبتُ حُرجوجَ العَشيَّةِ ناجِيا

ومن ههنا تبدأ الحسرة وادّعاء التّسلّي ولا سلوان . وحق هَذَا أن يستشهد به فِي الفصل التّالي ، وهو فصل الغزل والنّعت ، ولكن كل هَذِه المعاني ممّا تتداخل كما قدّمنا .

وقال أحد المتأخّرين من متكلفِي البديع فِي مدح اللّيل :

يَا ليل طُل ، يا نوْم زل ... يا صبح قف لا تطلع

وهذا مأخوذ كما ترى من معنى القصر وسرعة الذّهاب فِي ليالي الأنس وأيّام الدّعة .

قَالَ عمر كما تعلم :

فيالكَ من ليلٍ تقاصرَ طولُهُ ... وما كانَ ليلي قبلَ ذلكَ يقصرُ

وقال سحيم :

تــأَوَّبُني ذاتَ العِشــاءِ هُمــومُ عَوامِــدُ مِنهــا طــارِفٌ وقَــديمُ
وَمــا لَيلَــةٌ تــأتي عَــليَّ طَويلَــةٌ بــأقصَرَ مِــن حَـولٍ طَبـاهُ نَعـيمُ

فمن ههنا ترى أنّ صاحب «يا ليل طل» وإن أصاب سطحيّ البديع ، قد أساء من حيث حاقّ المعنى ، إذ طول اللّيل معناه الهمّ ، فكأنّه - أعانه الله - تمنّى طول اللّيل والسّهر وألّا يطلع الصّبح وذلك هو الشّقاء ، إذ كل وقت مَعَ السّعادة لا يقال لَهُ طويل وإن كَانَ مقياس مداه غير قليل .

وقد ذمّ اللّيل بالفزع والهمّ والوحشة وما يجري هَذَا المجرى . من ذلك ما قدّمناه لك من أبيات ذي الرّمّة .

وأكثر ما يقع الهمّ والفزع والوحشة فِي باب الخروج ، فيقرّون الهمّ ظهور الإبل ، وينسبون المفزع والوحشة إِلى ليل السّرى . وأكثرها يجيء هَذَا فِي نعت البقرة الوحشيّة والثّور الوحشيّ ، قَالَ لبيد :

باتَـت وَأَسبَلَ واكِـفٌ مِـن ديمَـةٍ يُـروي الخَمائِـلَ دائِـماً تَسـجامُها
يَعلــو طَريقَــةَ مَتنِهــا مُتَــواتِرٌ فِي لَيلَــةٍ كَفَـرَ النُّجـومَ غَمامُهـا

وقال ذو الرّمّة :

ضَـمَّ الظَـلامُ عَـلى الـوَحشِيِّ شَـملَتَهُ وَرائِحٌ مِـن نَشاصِ الـدَّلوِ مُنسَكِبُ

وظلام ليلته كما رأيت كأشد ما يكون الظّلام لما يخالطها من تراكم السّحب وقال ذو الرّمّة :

أَغبــاشَ لَيــلٍ تِمــامٍ كــانَ طارَقَــهُ تَطَخطُخُ الغَيمِ حَتّى ما لَـهُ جُوَبُ

أي حتّى ليس بين سحابة من فرجات .

وباب الخروج سيجيء من بعد إن شاء الله .

وقد يقع الهمّ والفزع فِي باب الأغراض وذلك أيضًا ممّا يلي إن شاء الله . وقد يقعان هما وما يجري مجراهما فِي باب النّسيب وربّما استهلّ الشّاعر بذكر اللّيل أو النّجوم فِي هَذَا

المعنى ، كما يستهل بذكر الدّار وبالمرأة ـ إذ كل أولئك مشعر بمعنى الحنين والتّعلّق بالدّنيا الزّائلة .

قال امرؤ القيس :

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ … عَلَيَّ بِأَنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي
فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ … وَأَردَفَ أَعجازاً وَناءَ بِكَلكَلِ
أَلا أَيُّها اللَّيلُ الطَويلُ أَلا انجَلي … بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ
فَيا لَكَ مِن لَيلٍ كَأَنَّ نُجومَهُ … بِكُلِّ مُغارِ الفَتلِ شُدَّت بِيَذبُلِ
كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَت فِي مَصامِها … بِأَمراسِ كِتّانٍ إِلى صُمِّ جَندَلِ

وقال المرقش الأصغر :

أَرَّقَنِي اللَّيْلَ بَرْقٌ ناصِبٌ … ولَمْ يُعِنِّي عَلى ذاكَ حَمِيمْ
مِنْ لِخَيالٍ تَسَدَّى مَوْهِناً … أَشْعَرَنِي الهَمَّ فالقَلْبُ سَقِيمْ
ولَيْلَةٍ بِتُّها مُسْهِرَةٍ … قَد كَرَّرَتْها عَلى عَيْني الهُمُومْ
لم أَغْتَمِض طُولَها حَتَّى انْقَضَتْ … أكلؤُها بَعْدَما نامَ السَّلِيمْ

وأصل هَذَا المعنى كلّه من معنى المأوى والدّار والألفة ، فإنّه متى فقد المرء إلفه حن إليه وكان اللّيل أدعى لذلك وقد كشف هَذَا المعنى قيس بن ذريح حيث قَالَ :

أقضّى نهاري بالحديث وبالمنى … ويجمعني بالليل والهمّ جامع
نهاري نهار الناس حتى إذا دجا … لي اللّيل هزّتني إليك المضاجع

وقد أكثر الشّعراء في طول اللّيل ، من ذلك الكلمة المشهورة :

فِي لَيْلِ صُولٍ تَنَاهَى العَرْضُ والطُّولُ … كـأنّما ليلُـهُ باللّيْـلِ مَوْصُولُ

وهي ممّا استهلّ به صاحبه :

وممّا استهلّ به أيضًا كلمة الرّاعي اللّاميّة وذكر الهمّ واللّيل :

مـا بـالُ دفّـكِ بـالفراشِ مـذيلا … أقـذًى بعينـكَ أمْ أردتَ رحـيلا
لمـا رأتْ أرقـي وطـولَ تقلّبـي … ذاتَ العشـاءِ ولـيليَ الموصـولا

قالـتْ خليـدةُ مـا عـراكَ ولم تكـنْ　　بعـد الرُّقـادِ عَـلى الشُّـؤونِ سـؤولا
أخُليـدَ إنَّ أبـاكِ ضـافَ وسـادهُ　　همَّـانِ باتـا جنبـةً ودخـيلا

وقد جارى الرّاعي فِي مطلعه هَذَا كلمة الأسود بن يعفر :

نـامَ الخـليُّ ومـا أُحـسّ رُقـادي　　والهـمُّ مُحـتَضرٌ لَـدَي وِبـادي

ويعجبني فِي هَذَا المجرى ما رواه المبرد فِي كامله لأحد الأعراب :

مـا لعينـي كحلـت بالسـهاد　　ولجنبـي نابيـاً عـن وسـادي
لا أذوق النـوم إلّا غـراراً　　مثـل حسـو الطـير مـاء الـثماد
أبتغـي إصـلاح سـعدى بجهـدي　　وهـي تسـعى جهـدها فِي فسـادي
فتاركنـا عَـلى غـير شيءٍ　　ربـما أفسـد طـول الـتمادي

وهذا لاحق بباب العذل وهو من الغزل وسنلم به إن شاء الله .

قال الأعشي مستهلًا بالأرق والسهاد :

أَرِقـتُ وَمـا هَـذا السُّـهادُ المُـؤَرِّقُ　　وَمـا بِيَ مِـن سُـقمٍ وَمـا بِيَ مَعشَـقُ
وَلَكِـن أَراني لا أَزالُ بِحـادِثٍ　　أُغـادى بِـما لَم يُمـسِ عِنـدي وَأُطـرَقُ

وقد عدد أسباب الأرق كما ترى وذكر أنّ الّذي أرّقه هو توالي النّكبات من غير سابق توقع .

وقال الفرزدق وعلل طول ليل الهموم :

يَقولـونَ طـالَ اللَّيـلُ وَاللَّيـلُ لَم يَطُـل　　ولكـن مَـن يَشـكُو مِـن الحُـب يسـهر

وأوفى هَذِه المعاني جميعًا قول امرئ القيس لما ساوى فيه بين اللّيل والنّهار عند انقطاع الرّجاء أو تضعضعه .

وذكر النّجوم كثير مَعَ ذكر ليل الهمّ فِي باب النّسيب وذلك أنّ المهموم يرعاهن . قَالَ النّابغة :

كِلينـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيمَـةَ ناصِـبِ　　وَلَيـلٍ أُقاسـيهِ بَطـيءِ الكَواكِـبِ
تَطـاوَلَ حَتّـى قُلـتُ لَـيسَ بِمُـنقَضٍ　　وَلَـيسَ الَّـذي يَرعـى النُّجـومَ بِآيِـبِ

وَصَــدرٍ أَراحَ اللَيــلُ عــازِبُ هَمِّــهِ تَضـاعَفَ فيـهِ الحُـزنُ مِـن كُـلِّ جانِـبِ

وهذا من أشرف ما قيل فِي بابه . وقريه مختلف عن قريّ امريء القيس لأنّ كلام امريء القيس كلام متأمّل فِي أحوال الدّهر بلا شباب غض انحسرت آماله . أمّا كلام النّابغة فكلام سريّ لم تشرده الأقدار وأحوال الزّمان ولكنهنّ أشعرنه الهُموم الحرار الدخائل ، مما يحفز صاحبه عَلى العمل والأمل وإن عز المطلب . قَالَ :

كَتَمتُــكَ لَــيلاً بِــالجَمومَينِ ســاهِرا وَهَمَّــينِ هَمّــا مُســتَكِنّاً وَظــاهِرا

أَحاديــثَ نَفــسٍ تَشــتَكي مــا يَريبُهــا وَوِردَ هُمــومٍ لَم يَجِــدنَ مَصــادِرا

تُكَلِّفُنــي أَن يَفعَــلَ الــدَّهرُ هَمَّهــا وَهَــل وَجَــدَت قَــبلي عَــلى الدَّهرِ قــادِرا

وكل هَذَا مِمّا استهلّ به النّابغة عند أوّل مبدأ القصيدة كما ترى . وأحسبُ أن استشعار النّابغة لمثل هَذَا الضرب من الهُموم هو الّذي ألهمه تشبيهه الرّائع :

فَإِنَّــكَ كَاللَّيــلِ الَّــذي هُــوَ مُــدرِكي وَإِن خِلــتُ أَنَّ المُنتَــأى عَنــكَ واسِــعُ

ومما استهل فيه الشّعراء بليل الهمّ وذكروا النّجوم كلمة المهلهل حيث يقول :

أَلَيلَتَنــا بِــذي حُسُــمٍ أَنــيري إِذا أَنــتِ اِنقَضَــيتِ فَــلا تَحــوري

فَــإِن يَــكُ بِالــذَّنائِبِ طــالَ لَــيلي فَقَــد أَبكــي مِــنَ اللَّيــلِ القَصــيرِ

ثمّ أخذ فِي نعت النّجوم فقال :

كَــأَنَّ كَواكِــبَ الجَــوزاءِ عُــودٌ مُعَطَّفَــةٌ عَــلى رَبــعٍ كَســيرِ

وهذا التّشبيه فيه نفس من الهديليّة كما ترى :

كــأن الجــدى فِي مثنــاة ربــقٍ أســيرٌ أو بمنزلــة الأســير

كــأنّ الــنَّجم إذ ولّى ســحيراً فصــالٌ خلــن فِي يــومٍ مطــير

النجم: الثُّريَّا، وبذلك فسّر قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم : ١] فِي بعض ما ذكره الطّبريّ وغيره من أقوال المفسّرين .

كواكبهــا زواحــف لا غبــاتٌ كــأنّ ســماءها بيــدي مــدير

وكل هَذَا النّعت مراد به الإشعار بطول اللّيلة وأرق الشّاعر ومراعاته لصور الكواكب

الّتي لا تكاد تتحرّك ولا يكاد يفنى جهد ما هي فيه من دأب .

وقد وصف النّابغة كواكبه بالسوام الّتي ضل راعبها ولن يؤوب فهي حائرة ضالة . ووصفها المهلهل بأنّها لواغب وأنّها زواحف . ووصف الجدي بأنّه فِي مثناة ربق . وقال امرؤ القيس :

فيالــك مــن ليــل كأنــه نجومــه بكــل مغــار الفتــل شــدت بيــذبل

كــأن الثريــا علقــت فِي مصــامها بــأمراس كتــان إِلى صــم جنــدل

وجعل سويد بن أبي كاهل النّجوم ظلعًا فِي قوله :

يَســحَبُ اللَيــلُ نُجومــاً ظُلَّعــا فَتَواليهــا بَطيئــاتُ التَبَــع

وقال أبو الطّيّب ونظر إِلى قول النّابغة :

مــا بــالُ هَــذي النُجــومِ حــائِرَةً كَأَنَّهــا العُمــيُ مــا لَهــا قائِــد

هذا وكل هَذِه الصور والنّعوت فيها تشبيه بحيوان البادية وما كانت تسمّيه العرب من أنعام .

وقد كانت العرب تؤلّه النّجوم والشّمس والقمر وتجعل لهنّ رموزًا من الأناسيّ والحيوان والأصنام ، وتصفهنّ بالخلود ـ قَالَ لبيد :

بَلينــا وَمــا تَــبلى النُجــومُ الطَوالِــعُ وَتَبقــى الجِبــالُ بَعــدَنا وَالمَصــانِعُ

وقال أيضًا :

وَهَــلْ حَــدثْتُ عــن أخــوين دامــا عَــلَى الأيــام إلا ابنــي شــمامِ

وإلاّ الفرقــديْن وآل نعــشٍ خوالــدَ مــا تحــدث بانهــدامِ

ومن شواهد النّحويّين :

وَكــل أخٍ مُفارِقُــه أخــوهُ لعمــرُ أبيــك إلا الفرقــدانِ

وممّا هو نص فِي عبادة الشّمس والقمر آية النّمل فِي بلقيس وقومها . قَالَ تعالى يذكر مقال الهدهد لسيدنا سليمان : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٤] وقال تعالى فِي سورة النّحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ

مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢] فههنا إشعار بأنّ الله مسخرها هو الّذي ينبغي أن يعبد ، لا هي أو كما قَالَ تعال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] ، وقال الزمخشريّ فِي تفسير قوله تعالى من آية النّحل : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ١٢] فجمع الآية وذكر العقل لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة عَلى القدرة البّاهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة[١] . ا.هـ ـ وأحسب الزمخشريّ لم يخل من نظر فِي قوله هَذَا إِلى ما كَانَ يزعمه الفلاسفة من ارتباط العقل بالأجرام السماويّة ـ وتلك بقيّة من عبادة النّجوم .

وقد نهى الحديث عن قول العرب : «مطرنا بنوء المجدح» إذ كانوا ينسبون المطر والسقيا إِلى الأنواء وإنّما السّاقي الله . وزعموا أنّ الأصمعيّ كَانَ يتحرّج أو يمتنع من تفسير ما جاء فيه ذكر الأنواء من كلام القدماء تدينًا وورعًا . ولعمري ما كَانَ أكثر ما امتنع من شرحه عَلى هَذَا القول . ولقد غير الناس بعد التوحيد ينسبون الأمطار إِلى أنواء النّجوم عَلى سبيل التّوقيت ، وأمثال الفلاحين العاميّة عندنا وعند سائر الأمم النّاطقة بالعربيّة كثير مثل قولهم «مطرًا بعد العصى قسى»[٢] ـ وقد جمع قطرب فِي كتاب الأزمنة قطعة صالحة من سجعات العرب القدماء فِي هَذَا الباب وقال ذو الرّمّة :

ضَمَّ الظَّلامُ عَلى الوَحشِيِّ شَملَتَهُ ... وَرائحٌ مِن نَشاصِ الدَّلوِ مُنسَكِبُ

وقال جرير :

هَل بِالنَقيعَةِ ذاتِ السِّدرِ مِن أَحَدِ ... أَو مَنبِتِ الشّيحِ مِن رَوضاتِ أَعيارِ

سُقيتِ مِن سَبَلِ الجَوزاءِ غادِيَةً ... وَكُلَّ واكِفَهِ السَّعدَينِ مِدرارِ

والسعدان من النّجوم ، سعد السّعود وسعد الأخبية .

هذا وتأليه النّجوم وما حولهن من معاني السقيا والنّور يجعلهن كأنّهنّ باب مفرد

(١) الكشاف ، المكتبة التّجاريّة ، مصر ، ١٣٥٤هـ ، جـ ٢/ ٣٢٤ .

(٢) العصي الجوزاء أي متى طلعت الجوزاء فلا مطر .

وحده. بغض النّظر من صلتهنّ باللّيل . والشمس وهي كبراهن إنّما تظهر بالنّهار ـ قَالَ جرير فِي عمر بن عبد العزيز :

فالشمسُ طالعة ليستْ بكاسفةٍ تبكي عليكَ نجومُ الليل والقَمرا

وقد كانوا فِي الكسوف مما يرون النّجوم نهارًا ، ويرون منهنّ خلاف ما يرى فِي اللّيل . وزعموا أنّ يوم حليمة بدت كواكبه نهارًا لما غطا الغبار عَلى الكون ومنه المثل «ما يوم حليمة بسر» . وقال طرفة بن العبد يصف امرأة :

إنْ تنو لهُ فقد تمنعهُ وتريه النجم يجري بالظّهرْ

ظَلَّ فِي عَسكَرَةٍ مِن حُبِّها وَنَأَت شَحطَ مَزارِ المُدَّكِرِ

وسكن الحاء من شحط وهي فعل ماض جيء به عَلى سبيل التّعجب ، أو هي مصدر منادى محذوف أداة النّداء للتّعجب .

والشّمس كما قدّمنا كانت من الآلهة عهد الخصوبة الأولى وفِي الساميّين الأوّلين . وقال ابن منظور فِي اللّسان (مادة أله) :

«وقد سمّت العرب الشّمس لما عبدوها آلهةً والآلهة الشّمس الحارة ، حكي عن ثعلب والأليهة والألاهة والاهة كله الشّمس ، اسم لها ، الضمّ فِي أوّلها عن ابن الأعرابيّ . قالت ميّة بنت أمّ عتبة بن الحرث كما قَالَ ابن بري :

تروّحنا من اللعباء عصرًا وأعجلنا الإلهة أن تؤوبا

عَلى مثلِ اِبن ميّة فَانعياه تشقّ نَواعمُ البشر الجُيوبا

قال ابن بري وقيل هو لبنت الحرث اليربوعي الخ . ما قاله . ا .هـ .

وشعر العرب فِي تشبيه المرأة بالشّمس كثير ، منه قول المرار :

صُورَةُ الشَّمسِ عَلى صُورَتِها كُلَّما تشرق شَمْسٌ أَو تَذُرّ

وقال النّابغة :

قامت تَراءَى بينَ سِجْفَيْ كِلَّةٍ كالشمسِ يومَ طُلوعِها بالأَسْعدِ

وقال طرفة :

وَوَجـهٍ كـأنّ الشـمسَ ألْقـت رِداءَهـا عليـهِ نَقـيّ اللّـونِ لم يَتَخَـدَّدِ

وقال الإيادي :

ويصُـنَّ الوُجُـوهَ فِي المَيَسْـنانِـيّ كَـمَا صـانَ قـرنَ شـمسٍ غَـمَامُ

وقال سُويد :

تمنـحُ المِـرآةَ وَجْهـاً صَـافِيًا مثـلَ قَـرْنِ الشـمسِ فِي الصَّـحْوِ ارْتَفَـعْ

وقال ابن الخطيم :

تَـراءَت لنَـا كالشَّـمْسِ خلـفَ غَمامـةٍ بَـدَا حاجـبٌ منهـا وضـنَّتْ بحَاجِـبِ

وقال المتنبّي ينظر إلى أصل التّشبيه بالشمس :

أمِـنَ ازدِيـارَكِ فِي الـدُّجى الرُقَبـاءُ إذ حَيـثُ أَنـتِ مِـنَ الظَـلامِ ضِـياءُ

قَلَـقُ المَليحَـةِ وَهـيَ مِسـكٌ هَتكُهـا وَمَسـيرُها فِي اللَيـلِ وَهـيَ ذُكـاءُ

وقال ذو الرّمّة وذكر النّجم ولمح إلى تشبيه حبيبته بالشّمس :

سَرينـا ونجـمٌ قـد أضَـاء فمـذ بَـدا محيـاكِ أخفـى ضـوؤه كُـل شـارق

ويجوز أن يكون قد أراد التّشبيه بالقمر ولكن إخفاء الشّمس للكواكب أشدّ وأعمّ وأتمّ، وذكر العرب القمر في معرض تشبيه المرأة قليل كما سنذكر وقال أبو تمّام :

لَحِقنـا بِـأُخراهُم وَقَـد حَـوَّمَ الهَـوى قُلوبـاً عَهِـدنا طَيرَهـا وَهـيَ وُقَّـعُ

فَـرُدَّت عَلَينـا الشَّـمسُ وَاللَّيـلُ راغِـمٌ بِشَـمسٍ لَهُـم مِن جانِـبِ الخِـدرِ تَطلُعُ

نَضـا ضَـوءُها صِبغَ الدُجُنَّـةِ فَـانطَوى لِبَهجَتِهـا ثَـوبُ الظَّـلامِ المُجَـزَّعُ

فَـوَاللهَ مـا أَدري أَأَحـلامُ نـائِمٍ أَلَمَّـت بِنـا أَم كـانَ فِي الرَّكـبِ يوشَـعُ

وَعَهـدي بِهـا تُحيـي الهَـوى وَتُميتُـهُ وَتَشـعَبُ أَعشـارَ الفُـؤادِ وَتَصـدَعُ

وهذا باب واسع .

وقد شبّه الرّجال بالشّمس في باب البراعة والجلال ولكنّ هَذَا ممّا يدخل في باب الأغراض كالمديح وما إليه ـ من ذلك قول النّابغة :

فَإنَّـكَ شَـمسٌ وَالمُلـوكُ كَواكِـبٌ إذا طَلَعَـت لَم يَبـدُ مِـنهُنَّ كَوكَـبُ

وهذا القرى كثير وليس من هَذَا الباب وإن كَانَ قد يداخله . ومثله قول الأعشى فِي نفسه لما حكم بين عامر وعلقم :

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر

وتشبيه الوجوه الجميلة بالقمر سبيل سابلة قَالَ الأعشى كما رأيت :

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر

وقال :

أَرْيَحِيٌّ صَلْتٌ يَظَلُّ لَهُ القَوْ مُ رُكوداً قِيامَهُمْ للهلالِ

وقال الفرزدق ونظر إِلى هَذَا :

قِياماً يَنظُرونَ إِلى سَعيدٍ كَأَنَّهُمُ يَرَونَ بِهِ هِلالا

وصفة القمر فِي اللّغة التّذكير . وكان الغالب عَلى القدماء أن يشبّهوا به الرّجل .

وقالوا للسيد من القوم بدر وسمُّوا بذلك بدرًا أبا حذيفة ابن بدر سيد بني فزارة ، وقال ابن أحمر :

وَقَد نَضرِبُ البَدرَ اللَّجوجَ بِكَفِّهِ عَلَيهِ وَنُعطي رَغبَةَ المُتَوَدِّدِ

وقالوا سمّى بدر السّماء بدرًا لأنّه يبادر الشّمس أن تغيب وفِي هَذَا معنى القرآن كما ترى[1] . وقرانات القمر معروفة . ولا ريب أنّ القمر قد كَانَ عندهم من الآلهة المذكرة وأحسبه كَانَ زوج الشّمس ، فلذلك غلبوه عليها فقالوا : «القمران» وكان ممّا يعتقدونه فِي القمر ، عَلى وجه تأليهه وتذكيره ، أنّه قد يقلص القلفة ، فكانوا إذا هجوا أقلف قالوا هو أقلف إلّا ما نقص منه القمر[2] . وأحسب أنّه من أجل هَذَا التّذكير قد قل شعر جاهليّ تجد فيه المرأة مشبّهة بالقمر ، وإنّما كانوا يشبهونها بالشّمس كما مرّ بك .

ومن تشبيه المرأة بالقمر الّذي يجيء نادرًا ، من باب حمل الضّدّ عَلى ضدّه ، ما روي من قولهم «بيضاء بهترة ، حالية عطرة ، حييّة خفرة ، كأنّها ليلة قمرة» ـ ومعنى اللّيلة وهي

---

(١) راجع مادة (بدر) اللّسان .

(٢) راجع مادة (قمر) اللّسان .

مؤنّثة أوضح ههنا - وربّما كَانَ هَذَا الكلام إسلاميًّا أو مصنوعًا .

وقول عمرو بن معد يكرب :

وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّها بَدرُ السَّماءِ إذا تَبَدى

كأنّه مصنوع وقد اضطرب فيه الشّرّاح . وقول النّابغة : «أقمر مشرقا» ليس من هَذَا الباب .

وقال جميل :

هِيَ البَدرُ حُسناً وَالنِساءُ كَواكِبٌ وَشَتّانَ ما بَينَ الكَواكِبِ وَالبَدرِ

لَقَد فضّلَت حُسناً عَلى الناسِ مِثلَما عَلى أَلفِ شَهرٍ فُضِّلَت لَيلَةُ القَدرِ

وأثر الإسلام هنا ظاهر . وقد باعد الإسلام بين العرب وبقايا عبادة الخصوبة الجاهليّة أيّما مباعدة ، عَلى أنّها لم تختف من الشّعر كل الاختفاء .

وقال آخر :

فَتاتانِ أَمّا مِنهُما فَشَبيهَةٌ هِلالًا وَأخرى مِنهُما تُشبِهُ البَدرا

وأحسب أنّ القمر جعل يغلب الشّمس في معرض وصف الجمال عند الإسلاميّين لجامع الشّبه بين سمو الأنظار إلى الحسناء ، وخاصّة عند المفاجأة ، إذ قد أخذ الحجاب يتلثب أمره ، وكان غض البصر ممّا يأمر به الشّرع ، وسمّوها عند مشاهدة الأهلة الّتي هي مواقيت للنّاس والحج .

وقال عمر بن أبي ربيعة :

وَجَلَت أَسيلاً يَومَ ذي خُشُبٍ رَيّانَ مِثلَ فُجاءَةِ البَدرِ

ولا ريب أنها كانت مختمرة .

وقال أيضًا :

رَخصَةٍ حَوراءَ ناعِمَةٍ طَفلَةٍ كَأَنَّها قَمَرُ

وفي هَذَا تعمّد لئلّا يشبهها بالشّمس ، كأنّه يزعم أنّ ضوء القمر اللّين أشبه بها . ولا جرم أنّ رقة العيش الّتي أحدثها الإسلام في حياة أهل الأمصار ، قد جعلت تميل بهم إلى

بعض اللّين فِي الأخيلة والتعابير . وقد فطن ابن سلام فِي طبقاته إلى لين أشعار أهل الأمصار فِي الجاهلية ، فكيف بذلك منها بعد الّذي كَانَ من الرفه أيّام عمر وعثمان وعلي ومعاوية .

ومّما هو من سنخ رمزيّة الجاهليّة من كلام عمر قوله :

بَينَما يَذكُرنَني أَبصَرنَني دونَ قَيدِ المَيلِ يَعدو بِي الأَغَر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

وأوضح من هَذَا مّما هو مشعر بتذكير القمر ، ما استشعره فيه من معنى الرّقيب الّذي يغار من مكانه ، ويحذر لقاؤه ، وينتظر غيابه ، حيث قَالَ :

وَغابَ قُمَيرٌ كُنتُ أَرجو غُيوبَهُ وَرَوَّحَ رُعيانٌ وَنَوَّمَ سُمَّرُ

والنّموذج الّذي احتذاه عمر فِي هَذِه القصيدة جاهلي كالّذي عند امريء القيس . ونأمل أن نتعرض لهذا من بعد إن شاء الله .

وقال جران العود فِي نحو مذهب ابن أبي ربيعة وقد مرّ بك :

فَلَمّا عَلانا اللَّيلُ أَقبَلتُ خُفيَةً لِمَوعِدِها أَعلو الإِكامَ وَأَظلِفُ

ومن أخبث ما جاء فِي مراقبة القمر أن يغيب قول جرير يهجو :

ما بالُ بَرزَةَ فِي المَنحاةِ قد نَذَرَت صَومَ المُحَرَّمِ إِن لَم يَطلَعِ القَمَرُ

إِنَّ الَّذينَ أَضاؤوا النارَ قَد عَرَفوا آثارَ بَرزَةَ وَالآثارُ تُقتَفَرُ

وموضع الخبث ههنا مكان النّذر مَعَ المعصية ، إذ برزة فيما زعم جرير قد بلغ من ولعها بالفجور أنّها نذرت صوم المحرم إن غاب لها القمر حتّى تخرج إلى صاحبها فِي سواد .

هذا وقد تبع أوائل المولدين مذهب عمر ثمَّ شاع عندهم أيّما شيوع حتّى لقد ابتذل التّشبيه بالقمر من كثرته ، وكاد ينسى تشبيه المرأة بالشّمس إلّا ما يقع عند الحذاق كالّذي رأيت من قول أبي تمام ، وإليه نظر شوقي حيث قَالَ :

قِفِي يا أُختَ يوشَعَ خَبِّرينا أَحاديثَ القُرونِ الغابِرينا

وليس ههنا تشبيه .

كقول أبي الطّيّب :

بـأبي الشّموسُ الجانحـاتُ غواربـا اللاّبسـاتُ مـن الحريـر جلابـبـا

وأحسب أبا الطّيّب جعلهنّ غوارب ليدل عَلى الأصيل وهو أنعم ضوءًا من الضّحا وبشمس الضّحا كَانَ يصف الأوائل كثيرًا .

فهذا توسط كما ترى بين مذهب عمر ومذهب الجاهليين .

وقال أبو تمّام :

هِـيَ البَـدرُ يُغنيهـا تَـوَدُّدُ وَجهِهـا إِلى كُـلِّ مَـن لاقَـت وَإِن لَم تَـوَدَّدِ

فعلّل التّشبيه كما ترى ولم يخل من نظر إِلى عمر .

وقال أبو الطّيّب :

وَاسـتَقبَلَت قَمَـرَ السَـماءِ بِوَجهِهـا فَـأَرَتنِيَ القَمَـرَينِ فِي وَقـتٍ مَعـا

فجعلها شمسًا والله أعلم ، وهذا مذهب الأوائل .

وعسى أن كَانَ لمذهب الجواري فِي التّشبه بالغلمان كالّتي نعت أبو نوّاس فِي الهمزيّة ، ومذهب الغلمان فِي التّشبّه بالجواري ، كقوله فِي الجيميّة :

يُـديرُها خَنِـثٌ فِي لَهـوِهِ دَمِـثٌ مِـن نَسـلِ آذيـنَ ذو قِـرطٍ وَدُوّاجِ

(وإن لم يخل فِي هَذَا من نظر إِلى أوصاف الجاهليّة) .

أقول ، عسى أن كَانَ لكل ذلك جانب عظيم فِي تسيير تشبيه الوجه الحسن مذكرًا كَانَ أو مؤنّثًا بالقمر ، وتشهيره ، حتّى قد ابتذل كما قدّمنا .

قال الآخر :

يـا شـبيه البـدرِ في الحسـ ـنِ وفِي بُعـد المنـالِ

وقال مهيار يجمع بين البداوة واللّين :

ورب ركـب مُـدلج مـرّ عليـه مَوهنـا

يحمـــي البـــدورَ بالســتو ر والســـــتورَ بالقنـــا

وقال أحد شعراء اليتيمة :

يـــا شَـــبيهَ البَـــدْرِ حُسْـــناً وضـــــياءً ومِثـــــالا

أَنْـــتَ مِثْـــلُ الـــوَرْدِ لَوْنـــاً ونَســـــيماً ومَـــــلالا

زارَنـــا حَتَّـــى إذا مـــا سَرَّنـــا بِـــالقُرْبِ زالا

ولا يدري هَذَا أفِي جارية هو أم فِي غلام .

وقال أبو نوّاس :

لَـــوَ اِنَّ مُرَقِّشـــاً حَـــيٌّ تَعَلَّـــقَ قَلبُـــهُ ذَكَـــرا

كَـــأَنَّ ثِيابَـــهُ أَطلَـــع نَ مِـــن أَزرارِهِ قَمَـــرا

وهذا يمكن حمله عَلى أحد وجهين ـ إمّا أن يكون أراد المبالغة ، لأنّ مرقشًا ممّن أهلكه الحب . وإمّا أن يكون أراد نوعًا من الزراية بمرقش فِي قصّته المعروفة مَعَ فاطمة وابنة عجلان ، ومثل هَذَا لا يستبعد .

قال فِي جارية :

يـــا قمـــراً أبصرت فِي مـــأتم ينـــدب شـــجواً بـــين أتـــراب

يبكـــي فيـــذري الـــدمع مـــن نـــرجس ويلطـــم الـــورد بعنـــاب

وقد كَانَ أبو نوّاس فاجر اللّسان والله أعلم بحقيقة أمره . وقد اتهمه ابن رشيق فِي احتراس وتردّد . وبرأه ابن المعتز ممّا ينسب إليه فِي مذهب الغزل المنحرف وليس هَذَا بموضع الاستقصاء .

وقال الحسين بن الضّحّاك الخليع فِي غلام :

تتيـــه علينـــا أن رزقـــت ملاحـــةً فمهـــلاً علينـــا بعـــض تيهـــك يـــا بـــدر

وقال المعرّي :

وذَكّــرَني بَـدْرَ السّـماوَةِ بادِنـاً ... شَـفا لاحَ مِـن بَـدرِ السَّـماءةِ بـالي

فعاد التّشبيه إِلى قريب من عنصره القديم للّذي خلطه به من ذكر الهلال والشفا البالي .

وقد كانت العرب ممّا تذكر الهلال فِي النّحول وتشبه به الإبل المضناة ، تنظر فِي ذلك إِلى ما يعروها من هزال وتقوس «ولا يخلو هَذَا من صنيعهم من معنى الإعجاب بصبرها ودأبها والرّحمة لها . » قَالَ الفرزدق :

إذا مـا أُنيخَـتْ قَاتَلَـتْ عـن ظُهُورِهـا، ... حَـرَاجِيجُ أَمْثـالُ الأهِلّـةِ شُسَّـفُ

وموضع هَذَا ونحوه فِي باب الخروج إن شاء الله .

هذا والنّجوم منهن المذكرات والمؤنثات . وقد يحملن كثير عَلَى التذكر كما فِي قول طرفة يصف نداماه :

نَـداماي بِـيضٌ كَـالنُجومِ وَقَيـنَـةٌ ... تَـروحُ عَلَينـا بَـينَ بُـردٍ وَمُجَسَـدِ

وقال الآخر :

مرزئـون ثقـالٌ فِي مجالسـهم ... مثل النّجوم الّتي يسري بها السّاري

وقال أبو تمّام :

وَالجَعفَرِيّـونَ اِسـتَقَلَّت ظُعـنُهُم ... عَـن قَـومِهِم وَهُـمُ نُجـومُ كِـلابِ

وقال عمر :

أَيُّهـا المُـنكِحُ الثُرَيّـا سُـهَيلاً ... عَمْـرَكَ اللهَ كيـف يلتقيـان

يعرض لثريا بنت علي وسهيل بن عبد الرحمن فأنّث وذكر كما ترى .

وأنّث أبو حيّة النّجم فِي قوله :

فَأَصبَحتُ مِـن لَـيلى الغَـداةَ كَنـاظِرٍ ... مَـعَ الصُبحِ فِي أَعقـابِ نَجـمٍ مُغَـرِّبِ

وأحسبه عنى بالنّجم ههنا الثريا .

والثريا ممّا تذكر كثيرًا فِي نعوت النّساء . وجاء بها ابن عنقاء الفزاري فِي نعت الرّجال فقال :

كــأن الثريــا علقــت فِي جبينــه وفِي كفّـه الشّـعرى وفِي جيـده القمـر

فإمّا أن يكون حمل معنى الجبين عَلى الجبهة أو معنى الثريا عَلى النّجم وإنّما أراد تلألؤ الجبين أمّا الشّعرى فمن نجوم الأنواء ونسبها إِلى كفه يريد جوده وكانت الشّعرى ممّا ألّهه بعض العرب قَالَ تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ [النجم : ٤٩] وأمّا فِي جيده القمر فما أراه عنى به إِلّا وجهه .

والثريا فِي تشبيه النّساء أشبه .

قال ابن الخطيم :

كــأنَّ الثريـا فـوق ثغـرةِ نحرهـا توقــدُ فِي الظلــماءِ أيَّ توقــدِ

قال الفرزدق لّما بلغه أنّ هندًا الفزاريّة لم تجزع عَلى بشر بن مروان حين مات :

فـإن تـك لا هنـد بكتـه فقـد بكـت عليــه الثريـا فِي كواكبهـا الزهـر

وقال سحيم عبد بني الحسحاس :

كــأنَّ الثُّريَّـا علِّقــتْ فـوق نحرهـا وجمـرَ غضـاً هبَّـتْ لَـهُ الـريحُ ذاكِيـا

والنّظر إِلى ابن الخطيم وإِلى امريء القيس ههنا لا يخفى .

والثريّا كثيرًا ممّا تذكر فِي باب الورود بعد الرحلة ، ويقولون النّجم والنّظم يعنونها . وإنّما المراد بذكرها الإشعار بقرب طلوع الفجر لأنّها تسقط مَعَ الفجر . قَالَ تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم : ١] فأقسم بالفجر فِي تفسير من فسّر النّجم بالثريا وهو الراجح.

قال أبو ذؤيب الهذلي :

فَـوَرَدنَ وَالعَيّـوقُ مَقعَـدَ رابِـيءِ الـ ـضُرَبــاءِ فَــوقَ الــنَظمِ لا يَتَتَلَّــعُ

وباب الورد والخروج والنّسيب والأغراض كل أولئك ممّا يتداخلن عند جماعة من

الشّعراء . ومن أفعل النّاس لذلك امرؤ القيس فِي الجاهليّين وذو الرّمّة فِي الإسلاميّين . وله فِي الفجر :

فَغَلَّسَت وَعَمودُ الصُبحِ مُنصَدِعٌ عَنها وَسائِرُهُ بِاللَيلِ مُحتَجِبُ

وقال سحيم يذكر النّساء :

وَما رِمنَ حَتّى أَرسَلَ الحَيُّ داعِيا وَحَتّى بَدا الصُبحُ الَّذي كانَ تالِيا
وَحَتّى استَبانَ الفَجرُ أَشقَرَ ساطِعاً كَأَنَّ عَلى أَعلاهُ سِبّاً يَمانِيا

وشبّه ذو الرّمّة الفجر بالمرأة فقال :

كَأَنَّ عَمودَ الصُّبحِ جيدٌ وَلَبَّةٌ وَراءَ الدُجى مِن حُرَّةِ اللَّونِ حاسِرِ

فهاهنا تشبيه خفِي للمرأة بالشّمس أو بالثريل . وهذا جيد فِي بابه .

وما أكثر ما يذكر الفجر مَعَ الخمر وقد تعرض لشيء من هَذَا عند ذكر الخمر . وقد يذكر مَعَ الشّيب كما فِي قول الفرزدق :

والشّيبُ ينهض بالشبابِ كأنّهُ ليلٌ يصيحُ بجانبيهِ نهارُ

فشبهه بأول طلوع الفجر كما ترى . والشّيب باب شديد الدّخول فِي معنى الهمّ والشّوق سنعرض لبعضه فِي باب الغزل إن شاء الله .

وقال ذو الرّمّة فِي الفجر والورود والثريا :

وماء قديم العهد بالناس آجنٍ كأن الدبا ماء الغضا فيه يبصق

أي لخضرته وقدمه كأنّه صغار الجراد قد بصقن فيه عصارة ما أكلن من شجر الغضى .

وَرَدتُ اِعتِسافا وَالثُرَيّا كَأَنَّها عَلى قِمَّةِ الرَأسِ اِبنُ ماءٍ مُحَلِّقُ

وهذا كأنّه قبيل سطوع الفجر قيل ، وعند الفجر تميل النّجوم لتغرب .

يرف عَلى آثارها دبرانها فلا هي مسبوق ولا هو يلحق

ثمّ ساق قصّة الثريا والدبران ، وذلك أنّه ـ فيما زعموا ـ قد خطب الدبران الثريا فولّت منه فساق إليها مهرها وتبعها فلا هي تسبقه ولا هو يلحقها فينالها ، قَالَ فِي المهر فذكر أنّه عشرين نجمة من صغار النّجوم وشبهها بالقلانص يحدوها راكب متعمّم وهي قد كادت

تفرق عليه :

بِعِشريـنَ مِـن صُـغرى النُجـومِ كَأَنَّهـا ... وَإِيـاهُ فِي الخَضراءِ لَـو كـانَ يَنطِـقُ

قِـلاصٌ حَـداها راكِـبٌ مُـتَعَمِّمٌ ... هَجـائِنُ قَـد كـادَت عَلَيـهِ تَفَـرَّقُ

وهجائن أي بيض .

وللعرب أساطير كثيرة من هَذَا الضّرب ممّا يطول ذكرها وكلّها راجعة إلى معنى التأليه. وقد ذكر منها المعريّ قطعة صالحة فِي نونيّته «عللاني فإن بيض الأماني» - من ذلك قوله :

وسُـهَيْلٌ كوَجْنَـةِ الحِـبّ فِي اللّـوْ ... نِ وقَلْـبِ المُحِـبّ فِي الخَفَقَـانِ

مُسْـتَبِدّاً كأنّـه الفـارِسُ المُعْـ ... لَمُ يبْـدو مُعـارِضَ الفُرسـانِ

ضَرّجَتْـهُ دمـاً سـيوفُ الأعـادي ... فبكَـتْ رَحْمَـةً لَـهُ الشِّـعْرَيانِ

وها هنا إشارة لما تزعم العرب من أن سهيلًا فحل يعارض النّجوم ولا يباريها . ومن أنّه قتل وكانت معه أختاه الشّعريان . ففزعت الشّعرى العبور فاجتازت المجرّة هربًا فسميت العبور لذلك . وبقيت الغميصاء تبكي حتّى غمصت عينها فسمّيت الغمصاء لذلك . وقد ذكر المعري الورود فخلط بنعت الفجر بعض ما كَانَ يعتقده المسلمون عَلى مذهب التّشيّع - قَالَ :

وَبِـلادٍ وَرَدْتُهـا ذَنَـبَ السِّرْ ... حـانِ بـينَ المَهـاةِ والسِّرْحـانِ

وعـلى الكـون مِـن دمـاءِ الشّهيدَيْـ ... نِ عـلِيٍّ وَنَجْلِـه شـاهِدانِ

فهُـما فِي أواخـرِ اللّيْـلِ فَجْـرا ... نِ وفِي أُولَيـاتِـهِ شَـفَقَانِ

وقال جرير يذكر مميل النّجوم عند الفجر :

وَلَقَـد عَجِبـتُ مِـنَ الـدِّيارِ وَأَهلِهـا ... وَالـدَهرِ كَيـفَ يُبَـدِّلُ الأَبـدالا

وَرَأَيـتُ راحِلَـةَ الصِبا قَـد أَقصَرَت ... بَعـدَ الوَجيـفِ وَمَلَّـتِ الترحـالا

إِنَّ الظَعـائِنَ يَـومَ بُرقَـةِ عاقِـلٍ ... قَـد هِجـنَ ذا سَـقَمٍ فَـزِدنَ خِبـالا

طَـرِبَ الفُـؤادُ لِـذِكرِهِنَّ وَقَـد مَضَـت ... بِاللَّيـلِ أَجنِحَـةُ النُّجـومِ فَـمالا

وبيت جرير هَذَا فيه معنى الطّرب للنّجوم كما فيه الطّرب من أجل ذكرى الحسان ـ ولا تخلو النّجوم ها هنا من أن الشّاعر قد أشر بها معنى الشّوق والحنين الّذي يكون مَعَ ذكر البرق والدّيار والنّار وهلم جرا .

والنّجوم ممّا يتأملهنّ الشّعراء من أجل حسنهن واعتلائهنّ وفِي الّذي مر بك شواهد كثيرة من ذلك . وحتّى الّذين يرعون النّجوم من أجل الهمّ والسّهر لا يعزبون عن تأمّل جمالهنّ كالّذي رأيت فِي كلام النّابغة والمهلهل ـ إلّا أنّ تأمّلهم تشوبه ذاتية ما هم بصدده ، ولذلك ما زعمنا أنّ قرى امرىء القيس حيث ذكر اللّيل والنّجم مختلف عنهم ، لما فيه من معاني التّجرّد والتّأمّل المحض .

وأدخل فِي باب التّغنّي بالنّجوم وحسنهنّ قوله :

إِذا مــا الثُرَيّــا فِي السَــماءِ تَعَرَّضَــت ⁂ تَعَــرُّضَ أَثنــاءِ الوِشــاحِ المُفَصَّــلِ

ويمازج هَذَا نفس من غزل كما ترى .

وقول جرير الّذي مرّ ، وقوله من أخرى :

لَقَــد فاضَــت دُموعُــكَ يَــومَ قَــوٍّ ⁂ لِبَــينٍ كــانَ حاجَتُــهُ اِدِّكــارا

أَبيــتُ اللَّيــلَ أَرقُــبُ كُــلَّ نَجــمٍ ⁂ تَعَــرَّضَ حَيــثُ أَنجَــدَ ثُــمَّ غــارا

وقول النّابغة :

أَقــولُ وَالــنَّجمُ قَــد مالَــت أَواخِرُــهُ ⁂ إِلى المَغيــبِ تأمــل نَظــرَةً حــارِ

أَلَمحَــةٌ مِــن سَــنا بَــرقٍ رَأى بَصَري ⁂ أَم ضَــوءُ نُعــمٍ بَــدا لي أَم سَــنا نــارِ

وفِي هَذَا تشبيه خفِي لوجهها بالشّمس وضوء الفجر .

وقول امرىء القيس :

نَظَــرتُ إِلَيهــا وَالنُّجــومُ كَأَنَّهــا ⁂ مَصــابيحُ رُهبــانٍ تَشُــبُّ لِقَفّــالِ

كل ذلك لاحق بمعنى إجراء النّجوم مجرى البرق والنّار فِي معرض الترنّم بأشجان الحنين . ويوشك أن يلحق بهذا ما يظهره الشّعراء من تأمل النّجوم بعد طروق الطّيف وزواله وتأريقه لهم ـ وهذا باب سنلم به فيما يلي إن شاء الله .

هذا وللمتأخّرين من المولدين مذهب فِي تأمل الأجرام العلوية ينظرون فيه إِلى الفلسفة والتنجيم كما قد ينظرون إِلى طريقة القدماء فِي الحنين والسّهر والتّامل . إلّا أنّ أسلوب البديع والتظرف بمحسناته أغلب عَلى منهجهم . وهذا باب يحتاج إِلى أن يفرد لَهُ بحث قائم ، غير هَذَا الموضع . والقارئ أصلحه الله يعلم نحو قول ابن المعتز :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقول المعرّي :

ليلتي هَذِه عُروسٌ من الزّنْـ ـجِ عليها قلائِدٌ مِن جُمانِ

وقد جرى فِي هَذَا عَلى مذهب البديع ، وله بالنّجوم والنيرات ولع يكاد ينفرد به وقد عرضنا لشيء منه فِي فصلنا عن الدرعيّات .

وقول البحتري :

عَكَسَت حَظّهُ اللَّيالي وَباتَ الـ ـمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ

وهذا ينظر إِلى معتقدات المنجمين .

وقد كَانَ أبو الطّيّب فِي بعض طواله يقارب منهج القدماء ، كقوله :

حتام نحن نساري النّجم فِي الظلم وماسراه عَلى خف ولا قدم

وهذا من جياد مطالعه ، وقوله :

أُحادٌ أَم سُداسٌ فِي أُحادِ لُيَيلَتُنا المَنوطَةُ بِالتَنادِ

كَأَنَّ بَناتِ نَعشٍ فِي دُجاها خَرائِدُ سافِراتٌ فِي حِدادِ

وقد يلحق بهذا بعض مطالعه فِي الهم نحو :

أَفاضِلُ الناسِ أَغراضٌ لِذا الزَمَنِ يَخلو مِنَ الهَمِّ أَخلاهُم مِنَ الفِطَنِ

والشّيب نحو قوله :

ضيفٌ ألمّ برأسي غير محتشِم والسيف أحسنُ فِعلاً منه باللّمَمِ

وأبو الطّيّب سيد المحدثين غير مدافع . وهذا بعد باب يطول .

د ـــ الأثافِيّ والرّماد والحَمَام [(١)]

من حق الأثافِيّ والرماد أن يذكرن مَعَ الدّيار . ولكنهنّ متّصلات الرّمزيّة بـالحَمَام وبالنّار وبسائر ما تقدم فلذلك أرجأنا الحديث عنهن إِلى هَـذَا الموضـع . وأنـك قـد تعلـم أنّهـم مما يسـمون الحمامـة ورقـاء يعنـون لونهـا الرّمـاديّ ، وممّا يقولـون للرّمـاد أورق يعنـون لونـه الضّارب للسّواد كلون الحمامة . وقال المعرّيّ :

وشَـكْلَيْن مـا بَـيْنَ الأثـافِيّ واحِـدٌ ... وآخَـرُ مُـوفٍ مِـن أراكٍ عَـلى فَـرْعِ

أي رب شبيهين أحدهما بين الأثافِيّ ، والآخر عَلى فروع الأراك . فأمّا الّذي بين الأثافِيّ فالرّمـاد ، وأمّـا الّـذي عَـلى فـروع الأراك فـالحمام . ولا أرى أنّ المشـابهة الحسّـية فِي اللّـون وحدها هي السّبب فِي القرن بين معنى الرّماد ومعنى الحَمَام عَـلى هَـذَا النّحـو الّـذي ذكره المعرّي من مذهب العرب ، إذ أنت مثلًا لا تشبه نور القمر بالبَرَص لمجرّد وجـود البياض فِي كلٍّ . وعندي أنّ رمزيّة الحمام الّتي قدمنا ، وصلة الرّمـاد بالأثـافِيّ ، والأثـافِيّ بـالمرأة من حيث إن المرأة تعالج القدر ، قَالَ الآخر :

وَإِذا العَـــذارى بِالـــدُّخانِ تَلَفَّعَـــت ... وَاســتَعجَلَت هَــزمَ القُــدورِ فَمَلَّــتِ

ومن حيث إنّ الرّماد والأثافِي من معالم الدار ، والـدّار ممّـا يرمـز بـه لعهـد المـرأة ، ومن حيث إنّ الرّماد بقيّة النّار ، والنّـار مـن رمـوز المـرأة = كـل هَـذَا عنـدي هـو سر القـرن بين الرّماد والأثافِي والحمام فِي بيان الشّعر العربيّ وكناياته .

وفِي القـــرءان : ﴿ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [ص : ٢٣] وفسرت النعجة بالمرأة . وقال عنترة :

يـا شـاةَ مـا قَـنصٍ لِمَـن حَلَّـت لَـهُ ... حَرُمَـــت عَــــلَيَّ وَلَيتَهـــا لَم تَحـــرُمِ

---

(١) هذا البحث تابع لآخر قبله عن الحمام وممهد لآخر بعده .
وانظر « المؤتمر ، الدّورة ٢٩، الجلسة ٧ . والبحوث والمحاضرات ص ٢١١ . (حسن) .

وقد شبهت اليهود الجيد ببرج داود ، وما ذاك إلّا أنّهم استحسنوا براعة طوله وملاسة جانبه ، كما شبّهوا فروع النّساء بشعور المعزى . وغير هَـذَا كثير . فإن كَانَ نظراء العرب مقاربو الحضارة من الساميّين كاليهود قد أغربوا كل هَـذَا الأغراب ، فهل بدع أن يربي العرب عليهم أو يماثلوهم أو يسلكوا سبيلًا تشبه سبيلهم من البيان ، سبيلًا يكون فيها لتداعي المعاني بين أصناف ما يألفون من قليل المتاع أعظم نصيب . بحيث يدور اللّفظ الواحد ذو المدلول الواحد فِي ألوان التّشبيه والاستعارة ضروبًا كثيرة من الدّوران حتّى تعدد معانيه ومدلولاته آخر الأمر ، أمّا عَلى سبيل الاصطلاح اللّغويّ واضح وأمّا عَلى وجه الرمز والكناية الخفية ؟

وأحسبك تذكر أيّها القارئ الكريم ما كنّا قدّمناه من تشبيه النّابغة للشفتين بقادمتي الحمامة حيث قَالَ :

تجلُو بقادمتَي حَمامة أيكة ... بَرَدا أُسِفَّ لِثاتُهُ بالأثمِدِ

وقول الآخر :

كَنَواحِ ريشِ حَمامَةٍ نَجدِيَّةٍ ... وَمَسَحتُ بِاللَّثَتَينِ عَصفَ الأَثمَدِ

وكامن تحت كل هَذَا ما قدّمناه ، وما ليس بغائب عنك ، من رمزيّة الحمامة وخصوبة الأنثى . وعسى أن تذكر ما كنا قلناه من ناحية الشبه المحسوس فِي الشفة والحمامة[1] .

وعسى أن تذكر أيضًا ما بدأنا به من الحديث فِي رمزيّة الديار من قولنا إن العرب كانوا يصفون المرأة بصفة البيت ، ويقولون امرأة مثفاة يعنون أنّ لها ضرتين . فإذا ذكرت هَـذَا كله أفلا تظن معنا أن العرب ممّا كانوا يقرنون بين ما ألفوه من تشبيه المرأة بالحمامة ، ثمّ الحمامة بالرّماد ، ثمّ الرّماد بالأثفيّة من طريق تداعي المعاني ؟ أم بعيد أن يتمثلوا فِي الأثفيّة نفسها شبها من المرأة لكونها من الدّار ؟ أو شبهًا من الحمامة لأنّها ـ أي الأثفية ـ جارة لورقاء الرّماد ؟ أو شبهًا من الشّفة ، لأنّها تكتنف الرّماد هي وصاحبتها الأثفيّة الأخرى ،

(١) راجع قبله ، تشبيه الحمامة بالشّفة من حيث اللّون والهيئة .

كما تكتنف الشفتان لمى الفم وتحتويان عَلى موارده ، وكما يكتنف جناحا الحمامة الفرخ ويعطفان عليه ؟ والعرب ممّا تكثر من ذكر الأثفيتين دون الثلاث ، يستغنون بهما عن ذكر الثالثة فيما زعموا . قالوا[1] : ذلك أن العرب أكثر ما كانوا يعتمدون الإناخة إلى جانب الجبل ، فيجعلون صفا الجبل (أي حجارته واحدتها صفاة) هي الأثفية الثالثة ومن ذلك قولهم : رميناهم بثالثة الأثافِي ، يعنون الدّاهية ، إذ ثالثة الأثافِي منكّب الجبل وجانبه فِي هَذَا القول .

هذا وقال الشّماخ بن ضرار :

أَمِن دِمنَتَينِ عَرَّجَ الرَكبُ فيهما ... بِحَقلِ الرُّخامى قَد أَنى لِبِلاهُما

أَقامَت عَلى رَبعَيهِما جارَتا صَفاً ... كُمَيتا الأَعالي جَونَتا مُصطَلاهُما

وَإِرثِ رَمادٍ كَالحَمامَةِ ماثِلٍ ... وَنُؤيَينِ فِي مَظلومَتَينِ كُداهُما

أَقاما لِلَيلى وَالرَّبابِ وَزالَتا ... بِذاتِ السَّلامِ قَد عَفا طَلَلاهُما

والبيت الثّاني من شواهد النّحاة فِي باب الصفة المشبهة ، الثّالث فيه ذكر النؤى وهو حاجز الدار من الماء ، ونظر الشمّاخ فِي نعته هَذَا إلى النّابغة حيث يقول :

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

والمظلومة هي الأرض الصلبة الّتي يحفر فيها وليست بموضع حفر والكدى مَعَ كدية بضم الكاف وهي ما غلظ من الأرض . وقوله جارتا صفا أي جارتا جبل ، أراد به الأثفيتين اللّتين أقامتا فِي الدمنتين بعد أن فارقتهما ليلى والرّباب ، والصّفا ثالثتهما كما مر بك . وقد جعل أعالي الأثفيتين ذواتي لون كميت ، لأن القدر فوقهما تقيهما الدّخان وإحراق النّار ، فلا يصيبهما غير تسفيع ، فالكميتة دليل عَلى السّلامة من النّار شيئًا ما . وقد جعل أسافلهما جونا أي سودا ، لشدة ملازمتهما النّار واصطلائهما بها .

فإن صحّ ما افترضنا جوازه فيما مضى ، من أن الأثافية قد يكون فيها شبه الحمامة وشبه

---

(١) أمالي السيد المرتضى ـ راجع بعده .

المرأة وشبه الفم ، فهذا الّذي قاله الشمّاخ غير بعيد جدًّا من قول النّابغة فِي ثغر المتجردة :

كالأقحوان غداةَ غبّ سمائِهِ جفَّتْ أعاليه وأسفلُه نَدِي

والشاهد ههنا جفاف.. أعالي الأقحوان وندى أسافله . فاجعل الكميتة فِي أعالي الأثافِي بمنزلة هَذَا الري . ولا أخال وجه الشبه ، عَلى بعده ، يخفى عليك من بعد . ولعلك قائل فأين الماء من النّار وأين النّدى من سواد اللفح الّذي ينشأ من ملازمة النّار ؟ والجواب عن هَذَا أنّ الشيء ممّا يشبه بضدّه ولاسيما من حيث قوة تأثيرهما عَلى ما يؤثران فيه . هَذَا وطرفة بن العبد يقول فِي نعت الثغر :

وتبسم عن أَلْمى كأنَّ منوّراً تخلَّلَ حرَّ الرَّملِ دِعْصٌ لَهُ نَدِ

سَقَتهُ إِياةُ الشَمسِ إِلّا لِثاتِهِ أُسِفَّ وَلَم تَكدِم عَلَيهِ بِإِثمِدِ

وإياة الشّمس شعاعها . فجعل كما ترى ما عَلى الثّغر من بريقٍ ولألآءٍ كأنّما سقته به اياة الشّمس ، فجعل سواد الأثافِي سفيا وريا من هذا الضرب . عَلى أنه ممّا يحسن أن يقال ههنا أنّ النّار قد تكون رمزًا للشّمس كما قدّمنا ، فاجعل سقيها للأسافل من الأثافِي ، هَذَا الّذي نزعمه ، من باب الخصوبة ، كسقي الشّمس للثغر ومرادنا بعد واضح إن شاء الله .

هذا وقول الشّمّاخ « إرث رماد» فيه ما ترى من معنى البقيّة والتراث . وهذا يحابي ما قلنا به آنفا من أن الرّماد ، وبقية النّار ، والنّار نفسها كل ذلك رمز للمرأة وعلامة للشوق والهوى . فكأنّ الرّماد ههنا كناية عمّا يتركه الفراق من الغبن والحسرة والألم بعد فراق الأحباب ، وما يتركه لاعج الغرام من آسان رمقابين ليس إلى اروائهنّ سبيل .

هذا والأثافِي مما تشبه بالنياي ، لأنّهن فيما زعموا ، عمليا القدر . والقدر فيها معنى الحصب وهذا واضح . وعلاقة القدر بالدار والإقامة ، وعلاقة المرأة بالقدر والدار ما يجري هَذَا المجرى كل ذلك واضح لا يخفى . وقد مرّ بك قول الآخر :

وَإِذا العَذارى بِالدُّخانِ تَقَنَّعَت وَاستَعجَلَت نَصبَ القُدورِ فَمَلَّتِ

فجعل العذارى يلين أمر القدور زمان الشتاء ، وذلك يكون قبل زمان الربيع ، وفيه وبعده يكون الرحيل .

هذا والنياي توصف بالعطف والحنين . قَالَ متمّم بن نريره :

وما وجد أظآر ثلاث روائم رأين مجرّاً من حوار ومصرعا
يذكرن ذا البث الحزين ببثه إذا حنت الأولى سجعن لها معا
بأوجَدَ منِّي يومَ فارقتُ مالكاً وقَام بهِ النّاعي الرّفيعُ فأسمَعَا

ولّما جعل الشّعراء من الرّماد رمزًا للصبابة ، أو قل رسما ومعلما من معالم الصّبابة وآثارها ـ تأمّل قول الشّماخ :

وَإِرثِ رَمادٍ كَالحَمامَةِ ماثِلِ

وربعا من مرابع المعبر ماضي العلائي وما هو من هَذَا القبيل ، تأتوا فجعلوا من الأثافِي، وهن معالم الدّار ، والدّار من آثار الصّبابة كما رأيت ، نياقًا رائمات عَلى هَذَا الرّماد الرّمزي ، عاصفات عليه ، عامرات لَهُ . قَالَ عدي بن الرقاع يصفهن :

إلّا رواكد كلهنّ قد أصطلى حمراء أشعل أهلها إيقادها
كانت رواحلَ للقدور فعريتْ منهنّ واستلب الزّمان رمادها

وهذا موضع الشّاهد لقولنا إن الأثافِي بمنزلة المطايا من القدر . وقوله :« واستلب الزّمان رمادنا » فيه إشارة إِلى معنى الرّأم والظّأر ، لأن العرب ممّا تسمي النّاقة الفاقد سُلَيْباء وقد رأيت ومعه متمّم للسلْب من الابل فِي الأبيات الماضيات ، ولعلّك انتبهت إِلى ما فِي ذكر الأظآر الثلاث من شبه الأثافِي الثلاث . وقد أوغل عدي بن الرّقاع كما رأيت فِي تصوير معنى الحسرة وطول البين ، إذ زعم أنّ الزّمان قد استلب حتّى هَذَا الرّماد ، فلم يبن من معالم الصّبابة إِلّا الأثافِي سُلْبا من غير ما حواريرأمنه ويتعطفن عليه .

وفِي معنى الظّأر الّذي تظأره الأثافِي ، باكتنافها الرّماد ، واحتباسها لَهُ من أن تذروه الرّياح يقول المخبل السعدي فِي ميميّته المفضلية :

وَأَرى لَها داراً بِأَغدِرَةِ الـ ـسيدانِ لَم يَدرُس لَها رَسمُ
إِلّا رَماداً هامِداً دَفَعَت عَنهُ الرِّياحَ خَوالِدٌ سُحمُ

وهنّ الأثافِي . وللشريف المرتضى فِي أماليه مجلس صالح نفيس عقده للأثافِي والنّوى

وما بمجراهما من آثار الدّيار فنحيل القارئ الكريم إليه[1] وقد نقتبس منه ههنا لتوضيح ما عسى أن يحتاج إلى توضيح ممّا نحن بصدده من المعاني ، إذ لم نجد لغيره فيما اطلعنا عليه شيئًا مثله مجموعًا في موضع واحد .

فمن ذلك ما قاله الكميت بن زيد في معنى الظأر والعطف بمعرض الحديث عن الأثافي :

ولـــن تحييـــك اظْـــآر معطَّفـــةً بالقـــاع لا تَمَـــكٌ فيهـــا ولا مَيَـــلُ
ليســت بعُــوذ ولم تُعطَــف عَــلى رُبَــع ولا يهيـــب بهـــا ذو النيَّـــة الأَبِـــلُ

والعوذ الحديثة النتاج من الإبل . والرّبع ما ينتج منها في الربيع . وذو النيّة من ينوي النجعة وطلب المرعى . والأبل الّذي يحسن القيام عَلى الأبل بوزن فرح بكسر الباء بعد همزة مفتوحة . وقد صرح الكميت ههنا بتشبيه الأثافي بالنّوق الظؤار . ولذي الرّمّة في قريب من هَذَا المعنى :

فَلَــم يَبــقَ إلاّ أن نَــرى مِــن مَحَلِّــهِ رَمـاداً نَفَـت عَنـهُ الحُـولَ[2] جَنادِلُـه
كَـأَنَّ الحَـمامَ الـوُرقَ فِي الـدارِ وقعـت عَـلى خَـرقٍ بَـينَ الظّـؤار[3] جَوازِلُـه

وقد ذكر ذو الرّمّة ههنا الجنادل والحمام والظؤار جميعًا ، والحقّ أنّ الكميت وذا الرّمّة كليهما ممّن يكون شعرهما بمنزلة الشّرح والتّفصيل لكثير ممّا يقع مجملًا ، غامضًا أو كالغامض ، في تضاعيف الشّعر القديم . وليس ههنا موضع تفصيل الحديث عنهما . غير أني أنبه القارئ الكريم إلى اتباع الكميت طريق اللّغز في قوله :

ليســت بعُــوذ ولم تُعطَــف عَــلى رُبَــع

---

(١) أمالي الشريف المرتضى ، مصر ، الطّبعة الأولى ١٩٠٧ – ٣ – ١١٦ – ١٢٤ .

(٢) في ديوانه ص ٤٦٥ ـ من ـ السيول .

وفي الأمالي : نحت بدل نفت ، والخيول بدل السيول .

(٣) في ديوانه : جثمت بدل وقعت ، والأثافي بدل الظؤور أو الظؤار والقافية مرفوعة وفي الأمالي منصوبة خطأ .

كما أنبهه إلى موضع «خرق» من كلام ذي الرّمّة ، بفتح الخاء المعجمة وكسر الرّاء بوزن فعل الّذي للوصف ، فقد شبّه ذو الرّمّة الرّماد كما ترى بالحمام . ثمَّ عاد فشبّهه تشبيهًا آخر بالخرق وهو الجؤذر الّذي يخترق عينيه النّعاس خرقًا منه وثملًا برى الحياة . وقد ذكرنا لك آنفًا قول المرار :

وَالضُّحَى تَغْلِبُهَا وَقَدَتُها ... خَرَقَ الجُؤْذُرِ فِي اليَومِ الخَدِرْ

والظّبي والجؤذر من كنايات الحسان كما تعلم .

ثم إنّ ذا الرّمّة عاد مرّة أخرى فركب التّشبيه أيّما تركيب وذلك بذكره الجوازل في آخر البيت . ويكون إجمال المعنى عَلَى هَذَا : «كأنّ الحمام الورق وقعت عَلَى هَذَا الرّماد . وكأنّ هَذَا الرّماد جؤذر خرق . وكأنّ لَهُ جوازل أي فراخًا = والجوازل أفراخ الحمام ، قَالَ الآخر:

أريد أن أصطاد ضبًّا سحبلا ... وورلاً يرتاد رملاً أرملا

قالت سليمى لا أحب الجوز لا ... ولا أحب السمكات مأكلا

وهذه الجوازل الّتي هي جؤذر الرّماد أو هي لجؤذر الرّماد ، تحنو عليها أظآر عاطفات رائمات من جنادل الأثافي .

وقد جاء لفظ الحواضن ، وهي بمعنى الظؤار أو الأظآر ، جمع ظئر ، في كلمة الرّاعي :

وَأَورَقَ مُذ عَهدِ ابنِ عَفّانَ حَولَهُ ... حَواضِنُ أُلّافٌ عَلى غَيرِ مَشرَبِ

وِرادُ الأَعالي أَقبَلَت بِنُحورِها ... عَلى راشِحٍ ذي شامَةٍ مُتَقَوِّبِ

كَأَنَّ بَقايا لَونِهِ فِي مُتونِها ... بَقايا هَناءٍ فِي قَلائِصِ مُجرِبِ

وقد اختلطت أوصاف النّساء بأوصاف الحمام والإبل في كلمة الرّاعي هَذِه وقوله : «وأورق من عهد ابن عفّان » نعت للرّماد كما ترى . ولكنّ فيه كناية عميقة عن الصّبابة الغابرة ، وعسى الشّاعر أن يكون أراد الكناية عن نفسه الّتي صارت رمادًا أورق بعد عهد البين البعيد القصي ، البين الذي كَانَ من زمان ابن عفّان = وأنت تعلم ما كَانَ بعد مقتل عثمان رضي الله عنه من تقويض الدّيار ، ولحاق كل قوم بطائفة من طوائف القتال . وقد

كَانَ الرّاعي عثمانيًّا زبيريًّا فيما ذكر الرواة ، وهو القائل فِي لاميّته المجمهرة :

قَتَلوا ابنَ عَفّانَ الخَليفَةَ مُحرِماً وَدَعا فَلَم أَرَ مِثلَهُ مَخذولا

هذا ونعته للأثافِي بأنّهن وراد ، وهذا كقول الشّمّاخ «كميتا الأعالي» فيه كالنظر الشّديد إِلى ما جاء من نعت الظعائن فِي معلّقة زهير :

عَلَونَ بِأَنماطٍ عِتاقٍ وَكِلَّةٍ وِرادٍ حَواشيها مُشاكِهَةِ الدَّمِ

وقوله بنحورها فيه إشعار بنحور النّساء أو نحور الإبل ، وقد صرح بذكر الإبل وهي القلائص فِي بيته التّالي ، وشبه بقايا الدّخان والرّماد وأثرهما فيها بالهناء الّذي يوضع عَلى الجرب من القلائص . ولعلّ فِي هَذَا نظرًا ما إِلى قول امرئ القيس من اللّاميّة :

أَيَقتُلَني وَقَد شَغَفتُ فُؤادَها كَما شَغَفَ المَهنوءَةَ الرَجُلُ الطالي

وإن صحّ ما نزعه من أنّ الشّاعر كنى بالرّماد عن نفسه ، فالراجح أن يكون ذكره للأثافِي نوع من الرّمز إِلى ما يرجوه من تعطف حبائبه النائبات عليه ، أو ما هو بمجرى حبائبه من مواطن الأهواق ، كأزمان الشّباب مثلًا ، وضوائع الآمال ، إذ الأثافِي كما قَالَ حواضن . قَالَ الرّاعي أيضًا يذكر الرّماد ويصف الأثافِي :

أَذاعَ بِأَعلاهُ وَأَبقى شَريدَهُ ذَرى مُجْنَحاتٍ بَينَهُنَّ فُروجُ

كأنَّ بجزعِ الدارِ لما تحملوا سلائبَ ورقاً بينهنَّ خديجُ

والمجنحات الّتي بينها الفروج هي الأثافِي ، واجناحها ميلها ، وذراها بفتح الذال كجوانبها وكنفها . أي طارت أعالي الرّماد ولاذ منه لائذ ، كما يلوذ الشريد بكنف الأثافِي ، فآوته وتعطفت عليه . والسّلائب جمع سلوب وهي الّتي سلبها ولدها الموت أو شفرة الجزار ومن شأنها إذا رأت حوار غيرها أن تتعطف عليه تذكرًا لولدها وآسى عليه ، والخديج ما أسقط من جنين لغير تمامه ، وقد يخرج يشهق حينا ثمَّ يموت . والشّاعر كما ترى بعد أن شبه باقي الرّماد بالشريد حيث لاذ بكنف الأثافِي فتحدبت عليه ، عاد فشبه الأثافِي بالسّلائب الّتي تجد حوارًا خديجًا فتتحدّب عليه وترزم حوله ، فجعل الرّماد منهنّ بمنزلة الخديج من السّلائب كما ترى .

والصورة تنظر بلا ريب إلى نحو قول متمّم بن نويرة :

وما وَجدُ أظآرٍ ثلاث روائم ... أصبنَ مجرًا من حوار ومَصرعَا

يذكرن ذا البثّ الحزينَ ببثّه ... إذا حنّت الأولى سَجعنَ لها معا

إلى آخر ما قاله .

ثمّ هي بعد ذلك تنظر إلى الأصل الهديلي[1] ، ونعت الشّاعر لسلائبه بأنهن ورق ، وإن يك مراده الدّلالة به عَلى لونهن الرّمادي الأورق ، ممّا يشعرك بمعنى الحمائم ولا يخلو من نَفس تشبيه للإبل بهنّ .

وإذا جاز تشبيه الأثافي بالحمام مباشرة أو من طريق تشبيههن بالأظآر من الإبل كما ههنا ، جاز ، كما قدمنا تشبيههن بما تشبه به الحمائم كالمرأة والشفتين وهلم جرا .

قال البعيث :

ألا حييا الربع القواء وسلما ... ورسما كجثمان الحمامة أدهما

وإنّما أراد الأثافي والرّماد ، كقول الشّمّاخ :

وَإرثِ رَمادٍ كَالحَمامَةِ ماثِلٍ ... وَنُؤيَانِ في مَظلومَتَينِ كُداهُما

وقال زهير يشبه الأثافي بالحمام :

وَغَيرُ ثَلاثٍ كَالحَمامِ خَوالِدٍ ... وَهابٍ مُحيلٍ هامِدٍ مُتَلَبِّدِ

والهابي الهامد المتلبد أراد به الرّماد .

وقال جرير[2] :

أَمَنزِلَتي هِندٍ بِناظِرَةَ اسلَما ... وَما راجَعَ العِرفانَ إِلّا تَوَهُّما

كَأَنَّ رُسومَ الدارِ ريشُ حَمامَةٍ ... مَحاها البِلى فَاستَعجَمَت أَن تَكَلَّما

طَوى البَينُ أَسبابَ الوِصالِ وَحاوَلَت ... بِكِنهِلَ أَسبابُ الهَوى أَن تَجَذَّما

---

(١) راجع قبله .

(٢) ديوانه ، مصر ، طبع الصاوي ، ٥٤٢-٥٤٣ .

كَـأَنَّ جِمَـالَ الحَـيِّ سُربِلْـنَ يانِعـاً ... مِـنَ الـوارِدِ البَطحـاءَ مِـن نَخـلِ مَلهَـما

وإنّما سربلن الرّقم ومن في الرّقم من الحسان ، شبه جرير كل ذلك بنخل ملهم وتمره الوارد البطحاء في موسم الحج . ولم يخل ههنا من نظر إلى نعت امرئ القيس لنخيل ابن يامن المكرعات في رلئبته «سما لك شوق» . ونأمل أن نعرض لهذا المذهب بتفصيل في بعض ما يلي إن شاء الله . هَذَا وشاهدنا هنا تشبيه الرّسوم بريش الحمامة ، ذلك الّذي تُشَبَّهُ بِهِ ، الشفتان كما رأيت[1] ، وما عنى جرير بالرّسوم في قوله هَذَا إلا الأثافي والرّماد .

وقال الآخر :

أَثَـرُ الوَقـودِ عَـلى جَوانِبِهـا ... بِخُـدودِهِنَّ كَأَنَّـهُ لَطْـمُ

والمراد الأثافي ، وتشبيههن بالنائحات اللّواتي سفع خدودهن اللّطم واضح كما ترى . فهذا نص في تشبيه الأثفيّة بالمرأة تصريحًا من غير حاجة إلى تلميح يتأوّل .

وقال كثير عزّة :

أَمِـن آلِ قَيلَـةَ بِالـدَّخولِ رُسـومُ ... وَبِحَومَـلٍ طَلَـلٌ يَلـوحُ قَـديمُ

وليس كثير ممّن يقول الدخول وحومل من دون تعمّد إلى أن يذكرك ببيت امرئ القيس المشهور ، فقد كَانَ رحمه الله صناعًا بعيد الغارة عَلى أقوال من سبقوه ، كثير التوليد منها :

لَعِـبَ الرِيـاحُ بِرَسـمِهِ فَأَجَـدَّهُ ... جـونٌ عَواكِـفُ فِي الرَّمـادِ جُثـومُ

سُـفعُ الخُـدودِ كَـأَنَّهُنَّ وَقَـد مَضَـت ... حِجَـجٌ عَوائِـدُ بَيـنَهُنَّ سَـقيمُ

والجون والجثوم كلاهما من نعت القطا ، والقطا من الحمام . وقد جعل الأثافي سفع الخدود وهذا تأنيث لهن كما ترى . ثمّ احتال عَلى معنى الظؤار فجعلهن كالعوائد والرّماد بينهن كالسقيم . ولا يخلو قوله «عوائد بينهن سقيم» من التنبيه عَلى هَذِه الحالة من حالات النّساء بغض النّظر عمّا تضمّنه من التشبيه التقليدي . ولا يخلو من كناية للشّاعر عن نفسه

---

(١) قول النّابغة : «تجلو بقادمتي حمامة أيكة» والآخر ممّا استشهد به سيبويه «كنواح ريش حمامة الخ» .

بالسّقيم وعن من يحب بالعوائد ، أو هن الأثافِي وهو الرّماد . ولا أستبعد أن يكون كثير قد نظر فِي قوله هَذَا إِلى النّابغة حيث يقول :

نَظَـرَت إِلَيـكَ بِحاجَـةٍ لَمْ تَقضِـها نَظَـرَ السَّـقيمِ إِلى وُجـوهِ العُـوَّدِ

وليس انعكاس المعنى عند كثير بكبير شيء ، فالمدلول فِي الحالتين متقارب . وذكر العوائد والسّقيم فِي معرض الغزل كثير . والمراد منه كله التّعبير عن ضنى الشّوق فِي قلب المحب وفِي جمال المحبوب .

هذا ومراد كثير من قوله «فأجده» أن الأثافِي يَعْتَقَنَ مجرى الرّيح فإذا تراكم عَلى الرسم غبار من جنوب أو نكباء أزاله هبوب شمال أو نكباء أخرى فبدت معالم الرّسم بما تحتويه من نؤى وأحجار وشريد رماد لاثذبهن . وقد أبرز هَذَا المعنى ذو الرّمّة حيث يقول :

مِـن دِمنَـة نَسَـفَت عَنهـا الصَّـبا سُـفَعا كَـما تُـنَشَّرُ بَعـدَ الطَيَّـةِ الكُتُـبُ

هذا والسفعة ممّا يكثر ذكره فِي صفة الأثافِي كما رأيت . وممّا تنعت به خدود الكآبة والحزن أيضًا ، كالّذي مرّ بك وكما فِي قول متمّم :

فقلـتُ لهـا طـولُ الاسـى اذ سـألتني ولوعـةُ حـزنٍ تـتركُ الوجـهَ اسـفعا

ثمّ هي أيضًا ممّا توصف به خدود الظباء والبقر والوحشيّة ، قَالَ زهير :

كَخَنسـاءَ سَـفعاءِ المَلاطِـمِ حُـرَّةٍ مُسـافِرَةٍ مَـزؤودَةٍ أُمِّ فَرقَـدِ

والمزؤودة الخائفة ، والفرقد ولد البقرة .

والسّفعة أيضًا من أوصاف الصقور ـ قَالَ زهير في القطاة :

أَهـوى لَهـا أَسـفَعُ الخَـدَّينِ مُطَّـرِقٌ ريـشَ القَـوادِمِ لَم يُنصَـب لَـهُ الشَـبَكُ

فكل هَذِه المعاني ممّا يطيف بالأثافِي ويلون معناهن ومدلول رمزيتهنّ بحسب السياق الّذي يؤتى بهن فيه .

وقال جرير (ديوانه ٥٠٧) :

وَقَفـتُ عَـلى الـدِّيارِ وَمـا ذَكَرنـا كَـدارٍ بَـينَ تَلعَـةَ وَالنَّظـيمِ

عَرَفْتُ المُنتَأى وَعَرَفْتُ مِنها ... مَطايا القِدرِ كَالحِدَءِ الجُثُومِ

ومطايا القدر الأثافِي كما تقدّم . وشاهدنا هنا تشبيههن بالحدأ الجثوم والحدأ جمع حدأة وهي من الجوارح اللّاتي يصدن الحمام . فتأمّل . وأحسب أن ما دعا إِلى هَذَا التشبيه هو أنّ جريرًا مازج وقفته عَلى الطلل بغَضْبَةٍ عَلى صاحبته وذلك حيث قَالَ فِي البيت السّابق لما استشهدنا به :

أَهَذا الوُدُّ غَرَّكِ أَن تَخافِي ... تَشَمُّسَ ذي مُباعَدَةٍ عَذومِ

وذو المباعدة العذوم أراد الشّاعر به نفسه ، فلا يخلو ذكر الحدأ الجثوم من الماع إِلى هَذَا المعنى . والله أعلم .

وقال أبو تمّام فِي معنى الكآبة :

قِفا نُعطِ المَنازِلَ مِن عُيونٍ ... لَها فِي الشَوقِ أَحساءٌ غِزارُ

عَفَت آياتُهُنَّ وَأَيُّ رَبعٍ ... يَكونُ لَهُ عَلى الزَّمَنِ الخِيارُ

أَثافٍ كَالخُدودِ لُطِمنَ حُزناً ... وَنُؤيٍ مِثلَما اِنفَصَمَ السِوارُ

وها كشف جلي كما ترى لكثيرمن أصناف ما ذكرناه . وقد ترى فِي عجز البيت الثّالث كيف اختلط معنى الغزل المحض بمعنى الحزن الّذي فِي الصّدر ـ ولا يخلو قول أبي تمّام:

وَنُؤيٍ مِثلَما اِنفَصَمَ السِّوارُ

من إيهام ولو عَلى سبيل الافتنان والبراعة إِلى ذكرى عهد فتاة بعينها ، ومصدر مثل هَذَا الإيهام ما المعنى متضمن لَهُ من الإشارة إِلى تشبيه النؤى بالوقف وما جاء فِي الوقف من قرى قول سحيم :

وألقف رضا من وقوف تحطما

وقال الشّريف المرتضى فِي أماليه : «وقد عاب عليه قوله ـ لطمن حزنا ـ بعض من لا معرفة لَهُ ، وقال : ـ لا فائدة فِي قوله ـ حزنا ـ ولذلك فائدة ، وذلك أن لطم الحزن أوجع ، فتأثيره أبلغ وأظهر وأبين .

وقد يكون اللّطم لغير الحزن . فأمّا قوله : «ونؤى مثلما انفصم السوار » ـ فمأخوذ من

قول الشّاعر :

نــؤى كــما نقــص الهــلال محاقــة   أو مثــل مــا فصــم الســوار المعصــم

وقد شبه النّاس النؤى بالسوار والخلخال كثيرًا . ا.هـ. كلام السيد المرتضى . وأقول أنّ قوله «حزنا» فيه إشعار القصد إلى التّشبيه بالنوائح ، وليس أبو تمّام ممّن يخفى عليه مثل هَذَا من رموز الشّعراء . وقال حميد بن ثور الهلالي :

فَغـــادَرنَ مســـوّد الرمـــادِ كأنّـــهُ   حَصى إِثمَـدٍ بَـينَ الصَّـلاءِ سَـحيقُ

وَسُـفعا ثَـوين العـامَ والعـامَ قَبلَـهُ   عَـلى مَوقِـدٍ مـا بَيـنَهُنَّ دَقيـقُ

أي متقاربات مسافة ما بينهن ضيقة ـ وهنا كما ترى تشبيه الرّماد بالأثمد وهو لاحق بالشّفة وما يليها . وفيه نفسٌ من قول الشّمّاخ :

كُمَيتــا الأَعــالي جَونَتــا مُصــطَلاهُما

وممّا أغرب فيه أبو تمّام فِي نعت الطلول ، وما أغرابه إلّا أنّه ضمن نعت الأثافِي التشبيه بالتواكل فِي معرض النّعت ، ولمح إليهن تلميحًا من غير تصريح قوله :

قِفــوا جَــدِّدوا مِــن عَهــدِكُم بِالمَعاهِـدِ   وَإِن هِــيَ لَم تَســمَع لِنَشــدانِ ناشِــدِ

لَقَــد أَطـرَقَ الرَّبــعُ المُحيــلُ لِفَقـدِهِم   وَبَيــنِهِم إِطــراقَ ثَكــلانَ فاقِــدِ

وأطراق الربع بعيد فِي الاستعارة أن غفلنا عن معنى الأثافِي . وقال أيضًا ولمح إلى معاني الأثافِي والحمام من بعد بعيد :

سَــقى عَهــدَ الحِمــى سَــيْلُ العِهــادِ   وَرَوَّضَ حــاضِرٌ مِنــهُ وَبــادِ

نَزَحــتُ بِــهِ رَكِــيَّ العَــينِ لَمّــا   رَأَيــتُ الــدَّمعَ مِــن خَــيرِ العَتــادِ

فَيــا حُســنَ الرُّســومِ وَمــا تَمَشّــى   إِلَيهــا الــدَّهرُ فِي صُــوَرِ البعــادِ

وَإِذ طَــيرُ الحَــوادِثِ فِي رُباهــا   سَــواكِنُ وَهــيَ غَنّــاءُ المَــرادِ

مَــذاكي حَلبَــةٍ وَشُروبُ دَجــنٍ   وَســامِرُ فِتيَــةٍ وَقُــدورُ صــادِ

وَأَعــيُنُ رَبــرَبٍ كُحِلَــت بِسِــحرٍ   وَأَجســادٌ تُضَــمَّخُ بِالجَســادِ

بِزُهــرٍ وَالحُــذاقِ وَآلِ بُــردٍ   وَرَت فِي كُــلِّ صــالِحَةٍ زِنــادي

فَــإِن يَــكُ مِـــن بَنــي أُدَدٍ جَنــاحي ... فَـــإِنَّ أَثيـــثَ ريشي مِـــن إِيـــادِ
هُمُــو عُظـــم الأَثــافِي مِـــن نِــزارٍ ... وَأَهـــلُ الهَضـــبِ مِنهـــا وَالنِّجـــادِ

أي همو جبل نزار . وإنّما سوغ ذكر الرّيش والجناح والأثافي مَعَ القدور والربرب والمذاكي وطير الحوادث وهلم جرّا ، ما كَانَ يستشعره أبو تمّام من أنّه إذ يذكر سابقته مَعَ ابن أبي دؤاد . قد كَانَ كأنّما يقف ويستوقف عَلى ربع عفا ـ وكل هَذِه الاستعارات الّتي تبدو بعيدة تقرب جدًّا حين نردها إِلى ما يتداخل بعضه فِي بعض من معاني الربع والرّموز الّتي تطيف بشتّى صوره فِي بيان الشّعراء ، وبكلّ ذلك قد كَانَ أبو تمّام عالمًا حاذقًا . وقال فِي البائية المشهورة :

مــا رَبــعُ مَيَّــةَ مَعمــوراً يُطيــفُ بِــهِ ... غَـيلانُ أَبهـى رُبـىً مِـن رَبعِهـا الخَـرِبِ
وَلا الخُـدودُ وَقَـد أُدمِـينَ مِـن خَجَـلٍ ... أَشـهى إِلى نـاظِري مِـن خَـدِّها الـتَرِبِ

واستعارة الخد لعموريّة ههنا مصدره ممّا تقدّم ذكره من نحو قول القائل :

أَثَـــرُ الوَقـــودِ عَـــلى جَوانِبِهـــا ... بِخُـــدودِهِنَّ كَأَنَّـــــهُ لَطْـــــمُ

وقال فِي بائيّة عمرو بن طوق :

لَـــو أَنَّ دَهـــراً رَدَّ رَجـــعَ جَـــوابِ ... أَو كَـــفَّ مِـــن شَـــأنَيهِ طـــولُ عِتـــابِ
لَعَذَلتُـــــهُ فِي دِمنَتَـــــينِ بِرامَـــــةٍ ... مَمحُـــوَّتَينِ لِزَينَـــبٍ وَرَبـــابِ

وقوله تقادما رد فيه الفعل عَلى معنى الطّلل وإلّا لزمه تأنيثه :

ثِنتـــينِ كَـــالقَمَرَينِ حُـــفَّ سَـــناهُما ... بِكَواعِـــبٍ مِثـــلِ الـــدُّمى أَتـــرابِ

وشاهدنا هَذَا البيت ، إذ لـك أن تقـول أراد أن زينـب والرّبـاب حفّـت بمعناهمـا ، أي جمالهما وضوئهما ، كواعب أتراب . ولك أن تقول أراد أن الدميتين أي الاثفيتين ـ من باب إطلاق الكل عَلى الجزء أو الملابس عَلى ملابسه عَلى حدّ تعبير الشّمّاخ «جارتا صفا» ـ كانت تحف بسناهما ، أي النّار الّتي توقد عندهما ، كواعب أتراب . والراجح عندي أنّ أبا تمّام أراد المعنين معًا ومثل هَذَا المزج غير قليل عنده ـ والله تعالى أعلم .

وقال وهو ممّا استشهد ببعضه السيد المرتضى في أماليه :

وَأَبى المَنازِلِ إِنَّها لَشُجُونُ وَعَلى العُجُومَةِ إِنَّها لَتُبِينُ
فَاعقِل بِنِضوِ الدارِ نِضوَكَ يَقتَسِم فَرطَ الصَبابَةِ مُسعِدٌ وَحَزينُ

وههنا مَعَ الجناس إشارة لمعنى الفواقد والعوائد والسّقيم كما قدّمنا .

لا تَمنَعَنّي وَقفَةً أَشفي بِها داءَ الفِراقِ[1] فَإِنَّها ماعونُ

أي زكاة وأشار إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون : ٧] .

وَاسقِ الأَثافِيَّ مِن شُؤوني رِيَّها إِنَّ الضَنينَ بِدَمعِهِ لَضَنينُ

وقد سقى الأثافي بالدّمع ههنا وهو أخو المطر ، وإنّما سقياها لفح النّار وتلويحها وقد تقدّم ما قلناه في هَذَا الصدد .

وَالنُؤيُ أَهمِدَ شَطرُهُ فَكَأَنَّهُ تَحتَ الحَوادِثِ حاجِبٌ مَقرونُ

وهذا كقوله : «مثلما انفصم السوار» .

حُزنٌ غَداةَ الحَزنِ هاجَ غَليلَهُ في أَبرَقِ الحَنّانِ مِنكَ حَنينُ
سِمَةُ الصَبابَةِ زَفرَةٌ أَو عَبرَةٌ مُتَكَفِّلٌ بِهِما حَشاً وَشُئونُ
لَولا التَفَجُّعُ لَادَّعى هَضبُ الحِمى وَصَفا المُشَقَّرِ أَنَّهُ مَحزونُ

أي لولا أنّه لا يقدر أن يتفجع . وصفًا المشقر لاشك من الأثافِي . وقال أبو الطّيّب فأشار إلى ما جاء في نعت الدّمن وآثارها من أثفية ومنتأى وجمع في تشبيههن بين صور الطّبيعة وصور الأناسي ، وهو عَلى كل حال أوضح مذهبًا وأقرب مأتى من أبي تمّام كما تعلم :

قِف عَلى الدِمنَتَينِ بِالدَوِّ مِن رَيـ ـيا كَخالٍ في وَجنَةٍ جَنبَ خالِ
بِطُلولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجومٌ في عِراصٍ كَأَنَّهُنَّ لَيالي
وَنُؤِيٍّ كَأَنَّهُنَّ عَلَيهِـ ـنَّ خِدامٌ خُرسٌ بِسوقٍ خِدالِ

---

(١) في هامش الأمالي ٣/ ١٢٣ الفؤاد .

وقد جعل نفسه فِي أوّل القصيدة سقيمًا من الحبّ كأنّه هلال حيث قَالَ :

صِـلَةُ الهَجْـرِ لِي وَهَجْـرُ الوِصَـالِ   نَكَسَـانِي فِي السُّـقمِ نُكْـسَ الهِـلالِ

فَغَـدا الجِسْـمُ نَاقِصـاً وَالَّـذي يَنـ   ـقُصُ مِنـهُ يَزِيـدُ فِي بَلبـالِي

فالدمنتان نؤيهما كأنّهن عوائد لَهُ ، وما فِي الدمنتين من كناية لا يخفى .

هذا ورمزيّة الأثافِي باب واسع والحديث فيها مما يطول . وهي ممّا غبر دهرًا طويلًا فِي الشّعر العربيّ وافتن فيه القدماء والمولدون كما رأيت ، وقد خلص شيء كثير منها إِلى اللّغات العاميّة ، من ذلك قول المحلق صاحب تاجوج[١] :

هاديـك دارا[٢] وديـك لـداياها

وهـاداك الفـرع معـلاق رواياهـا

أكـان نسـلم مـن الغنيـا وسـواياها

يتْـونّسْ مَـعَ البضـون ثناياهـا

وبحسبنا هَذَا القدر عن الأثافِي والرّماد والحمام .

---

(١) قصّة المحلق وتاجوج معروفة بالسّودان وكلاهما من قبيلة الحمران من فروع الكواهلة فكانت تسكن منطقة نهر سيتيت . وقد فرقت بين المحلق وتاجوج صروف الدّهر في خبر طويل فظل يتغنّى بها .

(٢) وقوله : دارا ، أي دارها . ولداياها أي أثافيها المفرد لداية والجمع لدايات ولدايا وأصل من أداة صغرت تصغيرًا عاميًّا فقالوا داية ثم أدخلوا ال للتّعريف وأدغموا لمها في الهمزة ثم نسوا التّعريف فنكروا ما كانوا عرفوه . معلاق ما يعلق به . رواياها : قربها الّتي تحمل الماء .

سواياها : مساوئها . نتونس : نتأنس . البضون : الّتي يضئن ثناياها أي ذات الثنايا المضيئة وال موصولة .

المحور الثّاني : فنّ الشّعر

(١٠٨ـ٢٢١)

أ ـ تأمّلاتٌ في مقدّمات القصيد .

ب ـ بحثٌ عن طبيعة الشّعر العربيّ .

ج ـ الأوصاف والكنايات في الشّعر العربيّ.

د ـ شعر المديح النّبويّ .

هـ ـ مع المرزوقيّ في عمود الشّعر .

أ ــ تأمّلاتٌ فِي مقدّمات القصيد (١)

هذا وممّا كانوا يكنون به صفات ، يصفون بها المحبوبة وساعات اللّقاء وذكريات اللّهو وما يجري هَذَا المجرى . وهذا هو باب النّعت الّذي ذكرنا لك فِي أوّل كلامنا هَـذَا ، أنّه لا يمكن فصله عن الغزل إلّا عَلى قبح من التّكلف .

أمّا هَذِه الصّفات فهي نماذج اتفقوا عليها ، بعضها متعلّق بمعاني الشّوق وبعضها متعلّق بمعاني الجمال ، وبعضها متعلّق بمعاني الوصل واللّهو واللّذة . وسنعرض لبعضها بتفصيل إذ ليس إحصاؤها كلّها ممّا يمكن . وليكن ما نذكره منها بمنزلة التّمثيل والتّقريب .

ونرى ، أنّهم إنّما لجؤوا إِلى هَذِه النّماذج أوّل الأمر اربًا فِي أن يتشابهوا فِي القول . فمتى تشابهوا فِي القول ، أمنوا أن يظنوا بريبة فيه . وكيف يظن بريبة من يقول ما يقوله سائر النّاس .

قال حميد بن ثور :

وَهَل أَنا إِن عَللتُ نَفسي بِسَرحَةٍ ... مِنَ السَّرحِ مَسدودٌ عَلى طريقُ

وقال الآخر فبالغ فِي الفكاهة والسخرية :

علي هذايا البدن إن كانَ بعلها ... يرى لي ذنباً غير أني أزورها

وإنّي إذا ما زُرتُها قلتُ يا اسْلَمي ... وما كانَ قَولي اسْلمي ما يَضيرُها

وقال جرير :

أَمِن خَوفٍ تُراقِبُ مَن يَلينا ... كَأَنَّكَ ضامِنٌ بِدَمٍ طَريدُ

لَعَزَّ عَلَيَّ ما جَهِلوا وَقالوا ... أَفي تَسليمَةٍ وَجَبَ الوَعيدُ

---

(١) هذا الكلام تابع لكلام سابق .

المؤتمر ، الدّورة ٣٠ ، البحوث والمحاضرات ص ٢٨٧ . (حسن) .

وَلَمْ يَـكُ لَـو رَجَعـتَ لَنـا سَـلاماً مَقـالٌ فِي السَّـلامِ وَلا حُـدودُ

وقال امرؤ القيس ، وهو المقتدى به فِي هَذَا الباب :

وَمـاذا عَلَيـهِ إِن ذَكَـرتُ أَوانِسـاً كَغِـزلانِ رَمـلٍ فِي مَحاريـبِ أَقيـالِ

هذا ثمّ إنّهم لما اتلأب بهم التّشابه طَلَبًا للتَّقية ، جعلوه طريقة من طرائق الفن والتمسوا لَهُ التّجويد والإحكام . ثمّ إنّ طلب التّجويد والإحكام نَفْسَه دفعهم دفعًا إِلى التّمسك بهذه الطريقة والحرص عليها .

وينسب لزهير أنّه قَالَ :

مـا نرانـا نقـول إلا مُعـاراً أو مُعـاداً مـن قولنـا مَكْـرورا

ففِي هَذَا من الثّورة عَلى التّشابه ماترى .

وزعموا أن عنترة أوّل ما أرادوه ـ عَلى وجه التّحدي ـ أن يُجَلِّي عن نفسه فيقول شعرًا لِيُثْبِت أنّه فصيح كما هو فارس ، نظم المعلّقة ، ومطلعها :

هَـل غـادَرَ الشُّـعَراءُ مِـن مُـتَرَدَّمِ أَم هَـل عَرَفـتَ الـدارَ بَعـدَ تَـوَهُّمِ

وفِي هَذَا من الثّورة عَلى النّماذج ما فيه :

وقال الحماسي :

خيـالٌ لأم السلسـبيل، ودونهـا مسـيرة شـهرٍ للبريـد المـذبب

معـاذ الإلـه أن تكـون كظبيـةٍ ولا دميـةٍ ولا عقيلـة ربـرب

ولكنهـا زِيـدَت عَـلى الحُسْـن كلِّـه كـمالاً، ومـن طيـبٍ عَـلى كـل طيـب

فضاق هَذَا الحماسي ذرعًا كما ترى بتشبيه الدمية والظبية وعقيلة الربرب ، ومع هَذَا فإنّه لم يستطع كما لم يستطع عنترة ولا زهير قبله أن يخرج عن مذهب التّشابه .

ونحو هَذِه الثّورة فِي شعر الإسلاميّين والمولدين إِلى عصرنا هَذَا الحاضر كثير .

والحقّ أنّ تشابه النّماذج ممّا يُخْشَى معه ضياع الصّدْق والحرارة اللّذيْن يكونان فِي تجربة الشّاعر الفرديّة . ولكن الشّعر العربيّ لا يمكن أن يُؤْبَن فِي هَذَا الصّدد . ولذلك أسباب سيرى القارئ منها فِي التّفصيل . ونكتفِي ههنا أن نجملهن فِي اثنين عَلى وجه التّمهيد :

أوّلها أن التّشابه فِي نماذج القول العاطِفِي أبدًا يكون مُسْتَمَدًّا من التّشابه العاطِفِي بين النّاس ، ومرْمِيًّا فيه إلى تشخيص مثل أعلى تَضْمَحِل معه أوْجُه الخلاف بين التّجارب الفرديّة . والشّاعر وهو فرد ، يعمِدُ إلى أن تَتَّحد تجربته الخاصّة مَعَ المثل الأعلى النّموذجي. فعلى مقدار صدقه وحرارته ومقدرته عَلى البيان ، تكون معاني الصدق والحرارة والإبانة فِي النّموذج الّذي يعرضه .

وثانيهما : أنّ الشّعراء العرب اعتمدوا الإيحاء والإيماء ، فِي حيّز النّموذج المتشابه . وكلا هذين ممّا يَكُون أفعل من التّصريح . وأعْظِم بها من نَشْوة تلك الّتي يَجِدُها مُتلقّى القريض، حين يجد نفسه مستطيعًا ، من جَرَّاء الإيحاء والإيماء ، أن يُحِسَّ تباين الأفراد والتّجارب من خلال النّماذج المتشابهة حتّى إنّ كلا منا يصير عنده ، لِما يجده منه ، مُخْتلفًا عن الآخر كأشَدِّ ما يكون الاختلاف .

ومن عجب ما يصح ذكره فِي هَذَا الباب وفِي أبواب غيره ممّا يلي . وممّا تقدّم أنّك تقرأ المطلع من قصيدة ما فتجده كمطلع أُخْرى . ثمَّ إذا مضيت فيها وعدّت إلى المطلعين مَرّةً أُخرى وجدتها حق مُخْتلفين . خُذ عَلى سبيل المثال قول النّابغة :

يا دارَ مَيَّةَ بِالعَلياءِ فَالسَّنَدِ أَقوَت وَطالَ عَلَيها سالِفُ الأَبَدِ

فهذا كمطالع كثيرة أخريات :

يا دار مية بين الحَزْنِ فالجرد

يا دار عمره من مُحْتَلِّها الجرعا

يا دار عبلة بالجواء تكلمي

يا دار سَلْمى بعيدًا ما أكلفها

وهلم جرا .

ولكنك بعد أن تقرأ القصيدة كلها لا تملك أن تحِس فيه وفِي ما يليه من الصّفات استشعارًا المعانِي العتاب فيها بين النّابغة النّعمان بن المنذر . فلأمرٍ ما ـ مثلًا ـ اختار النّابغة اسمي العلياء والسند فِي مستهل المطلع . ثمّ زعم أنّ ذلك قد أقوى ومر عليه زمنٌ بعيد .

ولأمرٍ ما وقف هو عند الدّار أصيلًا لا بعد أن مضى الضّحا والظّهر والعصر جميعًا ثمّ لم يجد جوابًا ولم يلف فِي الدّار أحدًا . ولأمرٍ ما جعل الوليدة ترد أعالي النّؤي وتضربه حتّى لبّده ذلك . ثمّ شبّه النؤي «كالحوض بالمَظْلومة الجَلَد» وهل كَانَ النّابغة إلّا مظلومًا ذا جلد . ثمّ ختم وصف الربع الرمزي بقوله :

أَمسَت خَلاءً وَأَمسى أَهلُها اِحتَمَلوا ... أَخنى عَلَيها الَّذي أَخنى عَلى لُبَدِ

وكل ذلك ممّا يؤسف لَهُ ، كما يؤسف عَلى عهد العلاقة والمودة أزمان لم يُفَرِّق الوشاة بينه وبين النّعمان ، ولم يضطر هو إِلى أن يهاجره ، ويلتمس العطف عند أعدائه .

وخذ قول امرئ القيس :

ألا عم صباحا أيّها الطّلل البالي ... وهل يَعِمْنَ من كَانَ فِي العصر الخالي

فهذا كسائر ما يَسْتَهل به فِي ذكر الأطلال فيما يبدو ، إلا أن امرأ القيس لَهُ فضيلة السَّبْق. ولكنك إن مضيت فِي القصيدة ثمَّ عدت إِلى المطلَع وقَر عندك أن الشّاعر إنّما عني نفسه وما يتعلق بها من ذكريات الماضي فِي قوله «الطلل البالي» . ومن شواهد ذلك ما يروى لَهُ فِي هَذِه القصيدة من قوله :

ألا إنَّني بالٍ عَلى جملٍ بالٍ ... يسير بنا بالٍ ويتبعُنا بالِ

وقال فِي آخر القصيدة ، كأنّه يعتذر عمّا ألقى بنفسه فيه من عنت الغربة ، حتى تصرمت أيامه وهو بعيد عمّا يشتهي :

وَلَو أَنَّما أَسعى لِأَدنى مَعيشَةٍ ... كَفاني وَلَم أَطلُب قَليلٌ مِنَ المالِ

وَلَكِنَّما أَسعى لِمَجدٍ مُؤَثَّلٍ ... وَقَد يُدرِكُ المَجدَ المُؤَثَّلَ أَمثالي

ونحو هَذَا أعاليل بأضاليل ، وقريب من مأتاه قول أبي الطيّب :

وَمُرادُ النُفوسِ أَصغَرُ مِن أَن ... نَتَعادى فيهِ وَأَن نَتَفانى

غَيرَ أَنَّ الفَتى يُلاقي المَنايا ... كالِحاتٍ وَلا يُلاقي الهَوانا

وقال زهير بن أبي سلمى واستهل بمعنى التّحسّر عَلى الشباب :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعري أفراس الصبا ورواحله
وَأَقصَرتُ عَمّا تَعلَمينَ وَسُدِّدَت ... عَلَيَّ سِوى قَصدِ السَّبيلِ مَعادِلُه
وَقالَ العَذارى إِنَّما أَنتَ عَمُّنا ... وَكانَ الشَّبابُ كَالخَليطِ نُزايِلُه
وَأَصبَحتُ ما يَعرِفنَ إِلّا خَليقَتي ... وَإِلّا سَوادَ الرَأسِ وَالشَّيبُ شامِلُه
لِمَن طَلَلٌ كَالوَحيِ عافٍ مَنازِلُه ... عَفا الرَّسُّ مِنهُ فَالرُسَيسُ فَعاقِلُه

ومضى فِي نعت الطلل ، وغير خافٍ ههنا أن الطلل إنّما كنى به زهير عن نفسه بدليل موقعه بعد صفة نفسه بالتبدل عمّا كَانَ عليه عَصرَ الشباب . وقد ألمعنا إِلى هَذَا المعنى فِي ذيلنا عَلى كتابنا الحماسة الصغرى[1] وهذا الوجه يؤيد ما قدّمناه آنفًا عن طلل امرئ القيس ويُقوّيه .

ومما يحسن ذكره ههنا أن زهيرًا فِي قصيدته اللتين استهل فيهما بذكر الصحو ، هَذِه الّتي قدّمنا ، والأخرى الّتي مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

قد سلك مذهبًا من المدح الجادّ . والمطلع مشعر ببعض هَذَا ، لادعاء الشّاعر فيه أنّه قد غادر زمان اللّهو وراءه فلم يبق إلّا الجدّ واتّباع المآثر والدّفاع عنها .

وقال علقمة بن عبدة :

طَحا بِكَ قَلبٌ فِي الحِسانِ طَروبُ ... بُعَيدَ الشَبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ

وفِي هَذَا المطلع اختلاف عن مذهب زهير . وذلك أنّ علقمة لا يَدّعي لنفسه الحزم والإقلاع عن اللّهو كما أقلع زهير ، ولكني يذكر صبوة وروما لرداد النّساء بأصيل من الشباب . والنّساء لا يأبهن لنحو هَذَا إلّا مَعَ الغنى ، ومفهوم ضمنًا أنّه لم يكن ذا يسار . وقد لام علقمة نفسه عَلى ما كَانَ من صبوتها واستحثّها أن تستيقظ لطلب المكارم وقصد الكرام والاستجابة لدعوة من نوائب الحقّ قد أهابت به ، وذلك بالسعي فِي أمر أخيه

(١) تحت الطبع .

شأس واستنقاذه ممّا وقع فيه من ذل الأسر .

ولا تخلو مقدمة علقمة النسيبية من معاني الرمز بغناء الغزل إلى ما هو بصدده من استعطاف الملك واستدرار رحمته . ألا ترى أنّه كما لم يقدر عَلى التحبب والتّودد والتماس الوصل من حسنائه الربعية (وربيعة قد كانوا أعداء قومه تميم) بأكثر من أن يرقق لها في المقالة ويستجديها ويدعو لها بالسقيا أو كما قَالَ :

فَلا تَعدِلِي بَيني وَبَينَ مُغَمَّرٍ سَقَتكِ رَوايا المُزنِ حَيثُ تَصوبُ

سَقاكِ يَمانٍ ذو حَبِيٍّ وَعارِضٍ تَروحُ بِهِ جُنحَ العَشِيِّ جُنوبُ

كذلك لم يقدِرْ من المفاوضة مَعَ الحارث الغساني في أمر فداء أخيه بأكثر من الترقيق في القول والاستجداء والمدح الّذي يقوم مقام الدّعاء . ولقد كَانَ الحارث الغساني سيد قوم عدو لقومه بني تميم ومن كَانَ إليهم ضلعهم من ملوك الحيرة .

على أنّ بين المقامين فرقًا واحدًا ـ وهو أن استجداء الحسناء قد ييأس منه المستجدي بغير ذريعة من مال أو شباب ، ولذلك قَالَ علقمة :

فَدَعها وَسَلِّ الهَمَّ عَنكَ بِجَسرَةٍ كَهَمِّكَ فيها بِالرِدافِ خَبيبُ

ولكن استجداء السيد الملك ليس كذلك . ولاسيما أن كَانَ فحلًا جزلًا أريحيًّا :

مُظاهِرُ سِربالَي حَديدٍ عَلَيهِما عَقيلا سُيوفٍ مِخذَمٌ وَرَسوبُ

فمن عند مثله ينتظر العطاء والمن والحباء . وذلك قوله :

إِلى الحارِثِ الوَهّابِ أَعمَلتُ ناقَتي لِكَلكَلِها وَالقُصرَيَينَ وَجيبُ

وَأَنتَ اِمرُؤٌ أَفضَت إِلَيكَ أَمانَتي وَقَبلَكَ رَبَّتني فَضِعتُ رُبوبُ

وَفي كُلِّ حَيٍّ قَد خَبَطتَ بِنِعمَةٍ فَحُقَّ لِشَأسٍ مِن نَداكَ ذَنوبُ

فَلا تُحرِمَنّي نائِلاً عَن جَنابَةٍ فَإِنّي اِمرُؤٌ وَسطَ القِبابِ غَريبُ

فَلَستَ لِإِنسِيٍّ وَلَكِن لِمَلأَكٍ تَنَزَّلَ مِن جَوِّ السَماءِ يَصوبُ

ولا يخفى شبه ما بين كلام علقمة ههنا وكلامه إذ خاطب المحبوبة ، من حيث الرّقة والاستجداء والتّلطف في الدّعاء .

وألفتك بخاصة إِلى قوله فِي المحبوبة :

مُنَعَّمَـــــةٌ لا يُســــتَطاعُ كَلامُهـــا عَـــلى بابِهـــا مِـــن أَن تُـــزارَ رَقيـــبُ

فهذا سوى قوله (منعمة) عَلى غير ما توصف به نساء البادية . وفيه بعد معنى الملك بالَّذي ذكره من باب وحجاب مضروب . ولا إخال أنّك تباعد عند تذكير هَذِه الصّفة أن تصيب جانبًا من نعت الحارث نفسه إذ قد كَانَ ملكًا محجوبًا لا يستطاع كلامه .

وإذ ألفتك لهذا ، ألفتك أيضًا إِلى قوله (فلست لأنسى إلخ) ـ فهنا كما ترى نعت للحارث بصفة الملك ، وبأنّه مرتفع بسماويته فَوْقَ ما عليه أملاكُ الأرض من القسوة فِي الانتقام ، والتّشدّد فِي مال الفداء . وعلقمة آمِلٌ بعد ألّا يصيب المنّ عن أخيه فحسب ، ولكن يُصيب معه بسطًا من قبول وحباء جميل .

والشبه التلميحي بين صفتي الحارث والمحبوبة فِي البيتين لا أحسبه عنك بعد بغائب .

هذا ، وقال مزرد بن ضرار[1] :

صحا القلب عن سلمى وملّ العواذل وما كاد لأيا حب سلمى يزايل

ومثل هَذَا المطلع تتساءل عنده من لدى سماعه ، فلماذا ملّت العواذل إن صحا القلب حقًّا عن سلمى ؟

ولا يلبث الشّاعر أن يجيبك بما سمعته من عجز بيته (وما كاد لأْيًا حُبّ سلمى يزايل) .

وهذا الاضطراب منذ الهداية يحدث فِي نَفْسك تَوقّعًا لاضطراب عاطِفي من تجربة الشّاعر ، مشوبةٍ فيه ناحيةُ الجدّ والحزم من نفسه الّتي يُشْعِرُك بها قوله (صحا القلب عن سلمى) بنواحٍ أخريات يشعرك بهنّ سائر البيت . وما هو إلّا أن تمضي قليلًا فِي القصيدة حتّى تجد أنّ الشّاعر يذكر أنّه قد ردع غي الشّباب ، وأنّ الشّيب قد شمله . ثمَّ ما هو إلّا أن يعود إِلى ذكر الشّباب والتّحسّر عليه ، ووصف الحسان اللّواتي يزعم أنّه قد ظفر بلهوهنّ :

---

(١) المفضليات : ١٧ .

وبيضـــاء فيهـــا للمخـــالم صـــبوةٌ ولهــو لمــن رنــو إلى اللهــو شــاغل
ليــاليَ إذ تصــبي الحلــيم بــدلّها ومشي خزيــل الرجــع فيــه تفاتُــل
وأســحم ريّــان القــرون كَأنّــه أســاوِدُ رُمّــانَ السِّــباط الأطــاولُ

ثمّ ما هو بعد ذلك إلّا أن ينتقل إلى قَرِيٍّ من الجد، فيفتخر.

فمــن يــك معــزال البــدين مكانــه إذا كشرت عــن نابهــا الحــرب خامــل
فقــد علمــت فتيــان ذبيــان أنّنــي أنــا الفــارس الحــامي الــذمار المقاتــل

ثم يصف عدته للحرب، حصان طويل القرا، ويُطيل في نعته، وفَرَس سَلْهَبة ويطيل في نعتها، ودرع مسفوحة فضفاضة ويطيل في نعتها، وتسْبغه وتُرْس وسَيْف ورمح ويطيل في أوصافهن جميعًا - ثمَّ ينهى نفسه عن هَذَا الفخر ويقبل عَلى عُصْبة أعداء نالته منهم قوارص:

فــدع ذا ولكــن مــا تــرى رأي عصبة أتتنــي عــنهم منــديات عضــائل
يهــزّون عــرضي بالمغيــب ودونــه لقــرمهم مندوحــة ومآكــل
عــلى حــين أن جربــت وأشــتد جــانبي وأنــبح منــي رهبــة مــن أناضــل
وجــاوزت رأس الأربعــين فأصــبحت قنــاني لا يلقــي لهــا الــدهر عــادل

ثم يمضي في الوعيد ويتهدد أعداءه بالشّعر، حتّى إذا بلغ من ذلك مبلغًا، أضرب عنه وقال:

فعــدّ قــريض الشّــعر إن كنــت مغــزراً فــإن غزيــر الشّــعر مــا شــاء قائــل
لنعــت صــباحي طويــل شــقاؤه لَــهُ رقميــات وصــفراء ذابــل

وليس لعمري غَزِير الشّعر ما شاء بقائلٍ عَلى غير نهج وفِي غير وحدة من نظام. ولكنّ آخر هَذَا الكلام متّصل بأوله. إذ الشّاعر من ههنا يأخذ في نعت صورة من الصور التقليدية، هي صورة الصيّاد وامرأته الحمقاء الّتي لا تُعِدّ لَهُ طعامًا ولا تعينه وربّما تناولته بالقوارص ثمَّ هي من شر النساء، طوافة عَلى البيوت كأن ليس لها فيه ولا في أطفالها الشعث الفراث من أرب.

وهذه الصورة التقليدية دالة عندنا فِي باب الغزل كما سنذكر من بعد . ولا أرتاب أن الصائد ههنا هو الشّاعر نفسه . وقد استكْمَلَ بهذه الصورة من أداة الحرب ما غفل عنه آنفًا وذلك السهم والقوس ، ثمَّ إن شئت أضفت إِلى ذلك الكلاب .

وهذه الصورة تكشف لنا ما استشعرناه من غموض المطلع واضطرابه غير قليل ، إذ أقرب شيء أن تكون امرأة الصائد هي امرأة مزرد ، لا غيرها وأن تكون أيضًا هي سلمى وهي العواذل ، وهي ما دعاه لأن يقول ويجمجم ويغزر متردّدًا بين فنون ما تواضع عليه الشّعراء ، وإنّما مراده أن يشكو من سوء العشير ليس إلّا ، قَالَ واختتم القصيدة فِي نعت الصائد :

فطوف فِي أصحابه يستثيبهم ... فآب وقد أكدت عليه المسائل

إلى صبية مثل المغالي وخرملٍ ... رواذٍ ومن شر النساء الخرامل

فقال لها هل من طعام فإنني ... أذمُّ إليكِ الناس أمك هائل

ولكنها ليست ممّن يعين أو يغيث .

فقالت نعم هَذَا الطوّي وماؤه ... ومحترقٌ من حائل الجلد حائل

أي البئر وماؤها والدّلو ذو الجلد اليابس .

فلما تناهت نفسُهُ من طعامهم ... وأمسى طليحا ما يعانيه باطل

تغشى يُريد النوم فَضْلَ رِدائه ... وأعيا عَلى الْعَيْنِ الرد قاد البلابل

وهنا تقدر أن تنشد :

صحا القلب عن سلمى وملّ العواذل ... وما كاد لأيا حب سلمى يزايل

وعسى سلمى ألّا تكون امرأته ، ولكنّ امرأة أخرى لا سبيل إليها ، وإنّما السبيل إِلى ما هو فيه من ضنك العيش وقلق المصير .

وعسى ألّا تكون إلّا آماله المنحطمات .

وهذا باب واسع . وإنّما الشّعراء العرب فِي ارتضائهم مذهبًا واحدًا من تشابه القول ، لا فِي الغزل وحده كما قدّمنا ولكن فِي غيره أيضًا من أبواب الخروج والأغراض كأصدق

ما يكون ذوبيان فِي الإفصاح عمّا حولهم من تشابه الكون ثمَّ تباينه داخل هَذَا التّشابه أو قل من جرائه . أليست صحراؤهم شيئًا واحدًا ، متشابه المناظر من حرار وأعلام ووديان وسهوب متواصيات وأنواعٍ بأعيانهن من النبات والحيوان ؟ أليس النّهار حين يحتدم عليها أواره بملبسها ثوبًا تختلف به كُلّ الاختلاف عنها حين يغمرها اللّيل الدّامس بالسحب ، أو الزاهر بالنّجوم ، أو السّافر بالقمر ، أو الآلق بالبرق ؟ أليست الْوجوه المتباينات الّتي تعرضها عَلى تباين الفُصول واختلافِ العصور إنّما هُنّ فِي الحقيقة وَجْه واحد ؟ ثمَّ أليس هَذَا الوجه الواحد تختلف تقاطيعه وقسماته فِي نهار اليوم الواحد بله الفصول ؟

ولقد نظرت فِي مقدمات النّسيب فوجدت أصنافًا منها كأنّها تشير إِلى دوائر من المعاني لا يكاد يُقَدّم بهنّ فِي غيرها . وقد مرّ بك من هَذَا المعنى بيْتَا زهير . ورأيت كيف افتنَ مُزَوّد ، فحَوّر فِي المطلع الزهيري شيئًا ، ولاءم بين ذلك وبين الّذي شاء أن يقوله هو من معان تلائم هَذَا التّحيّر فِي اضطرابها وإيحائية غموضها .

وأحسب أنّ ذكر البين فِي مطالع الشّعر مما يجيء غالبًا معه المدح الصّريح الّذي تتحد فيه بطولة الشّاعر مَعَ بطولة الممدوح أو الفَخْر ذو التّحدّي والوعيد أو هما معًا ـ كقول زهير :

بَانَ الخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَن تَرَكُوا ... وَزَوَّدوكَ اِشتِياقاً أَيَّةَ سَلَكوا

فافتخر وأوعد .

وقال النّابغة :

بانَت سُعادُ وَأَمسى حَبلُها اِنجَذَما ... وَاِحتَلَّتِ الشَرعَ فَالأَجزاعَ مِن إِضَما

فافتخر وانتصف .

وبين المطلعين بعد فرق ، إذ أشعرك زهير بحاجة بائنة فهو يطلبها ، فلابد من ذكر شيء من معنى ذلك فِي القصيدة ـ وقد ذكره حيث قَالَ :

يا حارِ لا أُرْمَيَن منكُمْ بداهيةٍ ... لم يلْقَها سُوقةٌ قَبْلي ولا ملكُ

فـاردُد يَسـاراً وَلا تَعنُـف عَلَيـهِ وَلا   تَمعَـك بِعِرضِـكَ إِنَّ الغـادِرَ المَعِـكُ

وقد كَانَ الحارث الصيداوي وقَوْمَه احتبسوا غلامًا لزهير ، فهنا زهير يتوعدهم كَيْما يردوه إليه قبل أن يَفْسَد الأمر ويَضْطرّ هُو إِلى هجائهم والتّذمير عليهم ، وعسى أن كَانَ بنو الصيداء هؤلاء متسرعين إِلى الشر ، واحتباس ما يقع بأيديهم يعُدُّونه من باب النّهب ، فقد قَالَ فيهم زيد الخيل :

يـا بَنـي الصَّـيداءِ رُدُّوا فَـرَسي   إِنَّـما يُفعَـلُ هَـذَا بالـذَّليلْ

عَـوِّدوهُ مِـثلَما عَوَّدتُـهُ   دَلَـجَ اللّيْـلِ وإِيطـاءَ القتيـلِ

فاتهمهم بأنّهم لن يحسنوا القيام عليه كما يحسنه هو .

وأمّا النّابغة فقد زعم أنّ حبل سعاد قد انجذم ، فليست لَهُ من حاجة بائنة إلّا أن يكتفِي بنفسه ويتعزى بعزاء الكرام ـ قَالَ :

هَـلّا سَـأَلتِ بَنـي ذُبيـانَ مـا حَسَـبي   إِذا الـدُّخانُ تَغَشّـى الأَشـمَطَ البَرِمـا

يُنبِئـكِ ذو عِرضِـهِم عَنّـي وَعـالِمُهُم   وَلَـيسَ جاهِـلُ شَيءٍ مِثـلَ مَـن عَلِـما

إِنّي أُتَمِّـمُ أَيسـاري وَأَمـنَحُهُم   مَثنـى الأَيـادي وَأَكسـو الجَفنَـةَ الأُدُمـا

وَأَقطَـعُ الخَـرقَ بِالخَرقـاءِ قَـد جَعَلَـت   بَعـدَ الكَـلالِ تَشَـكّى الأَيـنَ وَالسَـأَما

وفِي المطْلع بعد ، فِي إلماعه بالعزاء ، وتضرم الحاج ، كالإيحاء بأن فِي أغوار النفس حاجة لم تنقضِ . وهذا المعنى من هَذِه الكلمة سنذكر لك عنه شيئًا من بعد ، عمّا قليل إن شاء الله.

وقال زهير :

إِنَّ الخَلـيطَ أَجَـدَّ البَـينَ فَانفَرَقـا   وَعُلِّـقَ القَلـبُ مِـن أَسـماءَ مـا عَلِقـا

وجاء من بعد وصف جيد للروضة ومدح رائع لهرم بن سنان ـ وفِي قوله : « وعلق القلب من أسماء ما عَلِقَا» رمز واف فِي تضمن معنى هَذَا . وقال ابنه كعب :

بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول   متـيم إثرهـا لم يفـد مكبـول

وبعد أن تقرأ القصيدة تجد لقوله : «لم يُفْدَ» ولقوله : «مكبول» تَضُمنًا لمعنى ما أخذ فيه

بَعْدُ من الاعتذار رجاءَ أن يَمُنَّ رسول الله ﷺ عليه بعد أن قد أحاط به إساره :

نبّئت أنّ رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

وقد أتيت رسول الله معتذرًا والعذر عند رسول الله مقبول

مهلاً هداك الّذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

لا تأخُذَني بأقوال الوشاة ولَم أُذْنِب وإن كَثُرت فيّ الأقاويل

وقال الحارث بن حلزة اليشكري :

آذَنَتنا بِبَينِها أَسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنهُ الثَواءُ

فجاء بكلام مشكل فِي عجز البيت الّذي استهل به ـ إذ ما معنى التحسر عَلى البين إذا كَانَ هو قد ملها ؟ أليس فيه إشعار «بأن قُرْبها ربما كَانَ مما يُرْغَب فيه ، وأن لا أسف إذا تَولّت ، إذ أَقَلُّ ما يخشى من مُكْثها الملال ، وقد عكس هَذَا المعنى كُثَيِّر عَلى عادته فِي السَّرق فقال :

نُريدُ الثَّوَاءَ عندها وأظنها إذا ما أَطَلْنَا عِنْدَها المُكْث مَلَّت

وكأنه أراد أن يظهرَ بِمظْهرٍ أَرَقَّ من الحارث إذ جَعل المحبَّ هو المملول لا المحبوب : ولا يعقل فِي مثله أنه لم يَفْطُن إِلى ما كَانَ يرمي إليه الحارث من حَاق الرمز ، اللهم إلّا إذا صح ما يزعمه الرواة من حماقته .

وقصيدَةُ الحارثِ كما يعلم القارئ أصلحه الله إنّما هي فِي باب الخصومة ، لا يُعْطِي الحارث أعداءه بني تغلب خطَّة من خُطَط اللّين ، ولا يعترف لهم بسابقة فضل أو عز أو سيادة . ويكاد يهجوهم مما يعدد من أيام قومه عليهم وأياديهم عَلى الملك . ويُضمن حجته أنهم مقبلون عَلى السلم الكريمة أن أقبلت بها عليهم تغلب . وإلا فإنهم كما قَالَ :

فَبقينَا عَلى الشَّناءَةِ تَنْوينَا حُصُونٌ وعِزَّةٌ قَعْساء

ولن يبالوا أن تستمر الخصومة وأن يبين عنهم التَّغْلَبيون كل البين «فرُبَّ ثاو يَمَلّ منه الثواء» .

وقال المثقب العبدي :

أَفَــاطِمُ قَبْــلَ بَيْنِــكِ مَتِّعينـــي وَمَنعُــكِ مــا سَــأَلْتُكِ أَن تَبيني

وجرى فِي قصيدته كلها عَلى طريق هَذَا المعنى كما سنذكر إن شاء الله ، حتى لم يكد يَخْلُص لَهُ من الخلان فيها إلا ناقته ، الَّتي كَانَ هو يسيء إليها وتحسن هي إليه :

فَــأَبقى بــاطِلي وَالجِــدُّ مِنها كَــدُكّانِ الدَّرابِنَــةِ المَطــينِ

ورحــت بهــا تعــارض مُسْــبَطِرًا عَــلَى صحصــاحه وعــلى المتــون

ثم يقول فِي خطابه لصاحبه عمرو :

فأمّــا إن تكُــون أخــي بحَــقّ فــأعرفَ منْــك غَثّــي مــن سـميني

وإلا فــــاطّرحني واتخـــذْني عَــدُواً أتّقيـــك وتتقينـــي

ومــا أدري إذا يَمَّمْــت أرضــا أُريــد الخَــيْر أيّهمـا يلينــي

ألخــير الَّـــذي أنــا أبتغيــه أم الشر الَّــذي هــو يبتغينــي

وهذا مقطع القصيدة ، وفيه روح مطلعها كما ترى .

وقال القطامي فِي معنى البين ، وحوره ليناسب غرضه :

مــا اعتــادَ حُــبُّ سُــليمى حــينَ مُعتــادِ ولا تــقضّى بــوادي دَينهــا الطَّــادي

وهذا عكس المعنى الَّذي استهل به كعب بن زهير ، إذ جعل كعب بن زهير نفسه رهينةً لم تُفْدَ بعد ، وزعم القطامي أنّه ، وإن يك طليقًا من الإسار ، لا زال يحمل إصرًا من بقيّة دَيْن واجب أداؤها - وما ذلك إلّا أن عُدُوَّه زفر القيسي قد كَانَ ظفر به ، فمنَّ عليه وأعطاه - فذلك دين لا ينقضي ، وذلك قوله فِي هَذِه القصيدة :

مَــن مُبلِــغٌ زُفَــرَ القَــيْسيّ مِدْحَتَــهُ عــن القطــاميِّ قَــولاً غَــيرَ أفنــادِ

إني وإن كــانَ قَــوْمي لَــيْس بيــنهم وبَــيْن قَوْمِــك إلا ضَرْبَــةُ الهــادي

مُــثنٍ عليــك بــما اســتَبْقَيْتَ مَعْرِفَتــي وقــد تعــرَّضَ منّــي مَقْتَــلٌ بــادِ

وفِي القصيدة بعد فخر وتحد للشعراء ولشاعر بعينه منهم :

إلا أُخَــيَّ بنــي الجَــوال يوعــدُني مــاذا يريــدُ ابــنُ جَــوّالٍ لإيعــادي

وفيها أيضًا مقدمة نسيبية رائعة فِي نعت الظعائن يتتبعهن الشّاعر بعين فؤاده حيث حللن وحيث ارتحلن حتى أقمن عند مقام اطمأن بهن . وهذا النموذج تجده عند زهير فِي المعلقة . وفِي كلتا القصيدتين تغنٍ بالسلم إما مصرحًا به أو مضنًا فِي تصوير ما تجيء به الحرب من شقاق وهلاك وبوار ، وفيهما مَعَ ذلك تمسك عزيز بقيم الحفاظ وإنكار الضيم. وسنفصل عن نموذج الظعائن فيهما عما قليل إن شاء الله .

وفِي تصوير الظعائن عند المثقب بعض التحوير إذ الشّاعر لا ينفك يراهن ويخاطبهن وهن لا يكدن يستقررن عند مقام يطمئن بهن ، وهذا يلائم ما أفصح به عند مخاطبة عمرو، من الملامة والدعوة إِلى أن يستقر أمرهما عند قرارٍ من المودة والخير والرفه ، وكل ذلك مرغوب فيه ، أو يصير إِلى العداوة الواضحة الَّتي لا يكون معها إلّا القتال والشر وذلك ما يخشاه ولا يجد عنه من فرار .

وقال الشنفرى :

أَلا أُمُّ عَمـــرو أَجمَعَـــت فَاســـتَقَلَّتِ وَمـــا وَدَّعَـــت جيرانَهـــا إِذ تَوَلَّـــتِ

ثم اختصر وصف الظعائن فِي بيتين وتحسر عَلى فراقها بعد ذلك أيّما حسرة ثمَّ أخذ يتغنّى بذكراها وافتخر بعد بالحرب والقتال ، وداخل فخره هَذَا بشعورٍ مر من كراهةِ ما هو فيه ، هَذَا الَّذي يفتخر به ، وفظاعته . ثمَّ اختتم بيأس تداخله ألوان من قلة المبالاة .

إِذا مـــا أَتَتنـــي مِيتَتـــي لَم أُبالِهـــا وَلَم تُـــذرِ خـــالاتي الـــدُّموعَ وَعَمَّتـــي

ولم يجد فِي كل هَذَا عزاء إلّا خويصة نفسه ، وما كانت تمسك به من مبادي :

وَإِنّي لَحَلـــوٌ إِن أُريـــدَت حَـــلاوَتي وَمُـــرٌّ إِذا نَفـــسُ العَـــزوفِ اســـتَمَرَّتِ

أَبِيٌّ لِمـــا آبي سَريـــعٌ مَبـــاءَتي إِلى كُـــلِّ نَفـــسٍ تَنتَحـــي فِي مَسَرَّتي

ولنا إِلى هَذِه الكلمة أيضًا عودة إن شاء الله .

والبيتان الأخيران هما مقطع القصيدة ، وفِي معناهما شبه بمعاني المثقب إذ أن ههنا وحشة أشد وكبرياء أعظم . وعسى القارئ أن يكون لمح بعد ، بين هَذَا جميعه وبين ما اختتم به زهير معلقته من الحكم وجوهًا من الشبه وتقارب المذهب عَلى ما كَانَ من

اختلاف فِي ظاهر الغرض :

وَمَـن لم يَـذُد عَـن حَوضِـهِ بِسِـلاحِهِ يُهَـدَّم وَمَـن لا يَظلِـمِ النـاسَ يُظلَـمِ

وَمَـن يَجعَـلِ المَعـروفَ مِـن دونِ عِرضِـهِ يَفِـرهُ وَمَـن لا يَتَّـقِ الشَّـتمَ يُشـتَمِ

وَمَـن يـوفِ لا يُـذمَم وَمَـن يُفـضِ قَلبُـهُ إِلى مُطمَـئِنِّ البِـرِّ لا يَـتَجَمجَمِ

وَمَهـما تَكُـن عِنـدَ اِمـرِئٍ مِـن خَليقَـةٍ وَإِن خالَهـا تَخفـى عَـلى النـاسِ تُعلَـمِ

وبعد فكل هَذِه الأمثلة الَّتي ضربناها إنّما قصدنا بها أن نوضح ما ذكرناه آنفًا من أن الشّعراء مما يتحدون بتجاربهم المختلفة مَعَ النّماذج المتشابهة ، ومما يضمنون هَذِه النّماذج ما يشعر باختلاف تجاربهم وينبيء عن طبائعها ، من طريق الإيحاء والإيماء ، الَّذي يكون تارة بما يوقعونه فِي النّماذج من تحوير لفظيّ دقيق المأتى رقيق المدخل ، وتارة بالاختصار فِي باب مما يطال فيه أو الإطالة فِي باب مما يُختَصر فيه وهلمّ جرًا .

ب ــ بحثٌ عن طبيعة الشّعر العربيّ[١]

(هَذَا فصل من بحث طويل . فالإشارات الَّتي فِي أوّله ، إِلى ما كَانَ قد سبق تفصيله) .

قلنا أنّ النّثر العربيّ لَهُ مذاهب فِي الإيقاع تشبه أشعار الإفرنج . وزعمنا أنّ الجاحظ والتوحيديّ والصّاحب وأضرابهم عمدوا إِلى أشكال فِي الصّياغة قريبة من أشكال الشّعر الأفرنجيّ . ونحسب أنّهم لو وقّعوا فِي لغة إفرنجيّة لعدوا بصنيعهم هَذَا من شعرائها[٢] عَلى أنّا نعلم أنّهم لم يوصفوا فِي اللّغة العربيّة بنعت الشّعراء ولو عَلى سبيل المجاز . ولم

---

(١) المؤتمر ، الدّورة ٢٩، الجلسة ٢ ، والبحوث والمحاضرات ص ٢٥. (حسن) .

(٢) مما سبق التّمثيل به في هذا المجرى قول القاضي الفاضل :

فهذه الكتب المهداة
والسحب المنشاة
فروعها المصنفة ستة أصناف
وأصلها
كتابه الكريم
وأجزاؤها المؤلفة تسعة أصداف
وكلها
درة اليتيم
تلك عشرة في المشايعة
أذعنت عونها
لفضيلة بكرها
كعشيرة الصحابة في المبايعة
أغضبت عيونها
لفضل أبي بكرها
فهل كانت عدة ، أتمها بعشر لإكمالها
أو حسنة ، جزاؤها بعشرة أمثالها

وفي آخره . (خريدة القصر ، وجريدة العصر ، للعماد الأصفهانيّ) قسم شعراء مصر ، مصر ١٩٥٦ – ١ – ٥٠ .

توصفُ أساليبهم . بأنّها من قريض الشّعر ولو عَلى سبيل التّوسع .

ذلك بأن الذّوق العربيّ لم يكن يرى إيقاع النّثر داخلًا فِي حيّز الوزن والعروض ، مهما يبلغ من درجات الإتقان والرّنين . ولقد نجسر فنبني عَلى هَذَا أنّ الذّوق العربيّ قد لا يرى أن كثيرًا من أشعار الإفرنج تدخل فِي حيّز الوزن والعروض عَلى ما يذكره لها نقادها من مصطلحات هذين فِي تصانيفهم . وآية ذلك أنّ الذّوق العربيّ قد اكتفى فِي تعريف الشّعر بأن قَالَ : « هو الكلام الموزون المقفّى » وعنده أن هَذَا التّعريف حد جامع مانع ، ولو قد كَانَ يعد شيئًا من إيقاع النّثر وسجعه ذا مشابه من الوزن والتقفية ، ما كَانَ ليكتفي بهذا التّعريف أو يقطع بأنّه حدّ جامع مانع . ولعلّك قائل فهذا مجرّد تحكّم من الذّوق العربيّ أن يعد أوزان الخليل دومًا إليها هي الأوزان ، ثمَّ يضرب عمّا عدًا ذلك . وهذا التّحكّم لا ينبغي أن يقيّدنا نحن الآن .

والحقّ أنّه ليس بتحكّم . ولكنّه مذهب وأسلوب تفرّد به ذوق العرب ، وقد استوحوه من بيئتهم وسجية لغتهم . ذلك بأنهم كانوا فِي أول أمرهم قومًا بدوا لا يحسنون من الصّناعات كبير شيء . وكانت لغتهم هي صناعتهم . فأقبلوا عليها كلّ الإقبال . وافتنوا فِي صوغها أشد افتنان . وجعلوا شعرها ذروة تجتمع عندها غايات ما يستطيعونه من الملكة والإتقان والإبداع .

وقد بنوا شعرهم حين أحكموه عَلى عناصر أربعة من النّغم . أولها الموازنة . وثانيها السّجع . وثالثها التّجنيس . ورابعها الوزن المقفّى . والعناصر الثّلاثة الأوّليّات قد سبق الحديث عنها . إذ هي مادة «ما قبل الشّعر» ، حين كَانَ شعرًا ، ومنها نشأ إيقاع النّثر الّذي ذكرناه آنفًا واستشهدنا به . كما قد حيزت بحذافيرها إِلى صناعة الشّعر من بعد فصارت من متمّمات جرسه ورنينه . وقد فصّلنا الحديث عنها بعض التّفصيل فِي الجزء الثّاني من كتابنا المرشد[1] .

---

(١) المرشد : ٢/ ٤٥ إلخ .

والعنصر الرّابع هو الفاصل بين الشّعر و « ما قبل الشّعر » وهو الّذي يجعلنا نقول عن الأمثال وعن الخطب وعن نثر الجاحظ وعن سجع البديع وعن زخارف القاضي الفاضل أنهن جميعًا لسن بشعر . وهو الّذي يجعلنا ننظر فِي كلّ ما انتظمه الوزن الخليليّ والقافية الخليليّة فنقول أنّه داخل فِي مدلول شكل الشّعر وإن كَانَ عسى أن يخرج بعضه من هَذَا المدلول حين يعرض عَلى مقاييس الجودة والتّأثير ، كأراجيز الفقه والعلوم مثلًا وكرموز الشاطبيّة ولاميّة الأفعال .

وحقيقة هَذَا العنصر ـ أي عنصر الوزن المقفّى ـ أنّه نسب موسيقيّة محضة ، تؤلف معًا ، ليكون منها قالب موسيقي محض . ومن هنا كانت طبيعة إيقاعه تختلف عن طبيعة الإيقاع الّذي فِي سائر أصناف « ما قبل الشّعر » . الإيقاع فِي هَذِه الأصناف يدور عَلى جرس اللّفظ، وألوان المخارج ، وموازنات العبارات . ولكن الإيقاع فِي القالب الموسيقي الّذي ينشأ عن الوزن المقفّى ، يدور عَلى تناسب ضربات ، لها أبعاد زمانيّة ، أشبه شيء بالضّربات الّتي تصحب التّأليف الموسيقي المعروف . ولقد يهم بعض من يتعرّض لدرس الأعاريض العربيّة ، فيحسب أنّها مجرّد مقاطع طوال وقصار وليس الأمر كذلك . نعم ـ قد نقول ـ فعولن مفاعيلن ، مقطع قصير فمقطعان طويلان ثمَّ مقطع قصير فثلاثة طوال . ولكن مثل هَذَا القول ليس فِي حقيقته إلا وصفًا تقريبيًّا يجاء به فِي معرض التّعليم ، من أجل التيسير والتبسيط . وليس المراد به حاقّ التحليل والاستقصاء .

وقد جريت فِي كتابي المرشد عَلى هَذَا المذهب لأنّي أردت أن أعين أصحاب الملكة ، ممن لم يهشوا إِلى درس العروض فِي متونه المعروفة ، عَلى أن يلموا بأطرافه فِي غير ما عناء كبير ، وعلى منهج ربّما كَانَ أقرب إِلى أذواق أصحاب الملكات . ولقد أخذ عَلى الأستاذ الكبير «بلاشير» فِي مقال جيد كتبه فِي مجلة «أرابيكا» [1] أني لم أعترف بسابقة بعض المستشرقين من أمثال قايل وهارتمان وجايار حين أقبلت عَلى شرح العروض بطريقة المقاطع القصيرة

(١) أرابيكا ، ليدن ١٩٥٩ ـ ص ٢٠٠ .

والطّويلة ، وهي طريقتهم ، دون الأسباب والأوتاد . والحق أني قد اعترفت لهم بهذه السابقة اعترافًا محضًا إذ قلت فِي مستهلّ تمهيدي عن بحث الأوزان (المرشد -١- ٧٤) ولا أريد أن أعني القارئ بالحديث عن التّفصيلات من حيث زحافاتها وعللها . فهذا أمر قد فرغ محدثوهم وقدماؤهم - من درسه . ومرادي أن أحاول بقدر المستطاع تبيين أنواع الشّعر الّتي تناسب البحور المختلفة . ولقد فطن الأستاذ «بلاشير» إِلى مرادي أيّما فطنة . فأعجب مَعَ هَذَا كيف فاته الّذي فاته من احتراس . ولو قد كنت أريد إِلى حاقّ العروض، لكان يلزمني ذكر أسماء الّذين ذكرهم وسواهم معهم ولكان يلزمني إقامة الدليل عَلى مكانهم من الصواب والخطأ . ولكني إنّما أردت ما قدّمت ، فهذا هَذَا .

وإنّي ، بعد ، أكرر ما قلته فِي (المرشد) من أنّي أعيب عَلى قدماء العروضيّين ما أسرفوا من المصطلحات ، وما جنحوا إليه من فساد القسمة فِي بعض الدّوائر . وأوثر عَلى مذهبهم فِي التّعليم ما أخذ به المستشرقون من استعمال علامات المقاطع القصار والطّوال فهي فِي جملتها أيسر منالًا من حفظ التّفصيلات وأجزائها وأسماء عللها وزحافاتها . عَلى أنّي لا أغفل فِي هَذَا الموضع عن تنبيه القارئ إِلى ما أراه من عجز هَذَا المذهب عن أحكام تقطيع الأبيات فِي العروض . إذ أكثر جهده منصب عَلى تحليل التفصيلات من حيث كمّها المقطعيّ . والبيت العربيّ يحتاج المرء فِي تقطيعه إِلى معرفة موضع الضّرب والعروض ونصف الضّرب ونصف العروض وكسورًا من ذلك أيضًا . فمن هنا لا يكاد دارس العروض يستغنى عن الاستعانة بالنّظام الخليليّ ، وأن ينظر فِي كثير من أصناف الزّحاف والعلل ، خشية ألّا يخفى أمرها عنه كلّ الخفاء .

ولقد حرصت فِي كتابي المرشد أن أستدرك هَذَا النّقص بالجمع بين المذهبين من طريق المزاوجة بين الأجزاء الثّمانية (فعولن - مفاعيلن - مفاعلتن - فاعلاتن - متفاعلن - مستفعلن - فاعلن - مفعولاتن) ورموزها المقطعيّة . وقد جرّبت هَذِه الطّريقة فِي التّعليم فوجدّتها مجدية . تقول مثلًا :

هذا الجزء هو مفاعيلن الّتي تقع فِي الطّويل أو مفاعلتن الّتي تقع فِي الوافر حين يدخلها

الزّحاف وفي الهزج وفي مجزوء الوافر الّذي هو ضرب من الهزج حين يدخله الزّحاف . فمتى وجدت هَذَا الجزء فِي أول البيت فهو إمّا هزج وإمّا وافر ، إلخ . ومتى وجدّته هكذا (٧-٧٧-) فهو وافر ليس غير . وأساليب المعلّمين بعد ، تتباين ، وليس ههنا موضع البسط والتّفصيل . هَذَا وهنا أمر فِي غاية الأهمّيّة فِي النّظام الخليليّ ينبغي التّنبيه عليه ، وهو أنّه يبرز جانب الموسيقا المحضة فِي أوزان الشّعر . وهذا مرادنا من قولنا أن مذهب المقاطع مقصر عن حقيقة إدراك النسب الزّمانيّة . ولقد نبّه الأستاذ «بلاشير» فِي مقاله القيّم إِلى هَذَا التّقصير من طرف خفِي ، ودعا إِلى استدراكه دعوة صريحة[1] . ولقد حرصنا فِي المرشد عَلى التنبيه إِلى جانب الموسيقا المحضة الكامنة فِي الأعاريض من طريق الأمثلة الّتي تقرب هَذَا المعنى كقولنا مثلًا فِي المديد (١-١٤٨) :

تن ترن مستفعلن تتتن فاعلن تن تن تتن تترى

وفِي السريع (١-١٥٥) :

يا صاحبي مستفعلن عندنا يا سيدي عن عندنا عندنان

وأمثال هَذَا كثير .

وقد كَانَ الخليل وأصحابه عَلى ما فِي نظامهم من عسر وتعقيد وهفوات يدركون حقًا طبيعة النّسب الموسيقيّة فِي أصل الأعاريض . وقد ذكر هَذَا المعنى صريحًا صاحب معجم الأدباء بمعرض حديثه عن الخليل إذ قَالَ أن معرفته بالإيقاع هي الّتي أعانته عَلى اختراع العروض[2] . وقد ذكر قصة طريفة فحواها أن ابنًا للخليل دخل عليه وهو يقطّع بيتًا من الشّعر ، فريع من منظره ، وظن أن أصابه مس من الجنّ ومضى ليخبر النّاس بذلك . وذكر القفطيّ فِي «إنباه الرواة»[3] أن الخليل اهتدي إِلى معرفة العروض من سماع النّقر بالنّحاس وأصوات الصفّارين .

---

(١) انظر قبله .

(٢) معجم الأدباء : ١١/ ٧٣ .

(٣) إنباه الرواة ، طبعة بولاق .

وفِي نظام الخليل الّذي تبعه ، غير هَذَا الّذي يروونه عنه ، ما يدلّ دلالة واضحة عَلى إدراكه لحقيقة النّسب الزّمانيّة والموسيقا الكامنة فِي الأعاريض . من ذلك مثلًا تقسيمه الطويل إِلى أربعة أقسام فِي كلّ قسم منها فعولن تقابلها فعولن من القسم التّالي ومفاعيلن تقابلها مفاعيلن . وفعل ذلك فِي المديد والبسيط وسائر البحور . وقد كَانَ يسعه مثلًا أن يجعل الوافر فعالن مفعلاتن فاعلونا أو فاعلاتن . ولكنّ تجربة النّسب الزّمنيّة ألجأه إِلى « مفاعلتن مفاعلتن فعولن » فِي الضّرب والعروض .

وأدلّ من هَذَا عَلى إدراك الخليل لموسيقا العروض توهمه أبحرًا مثاليّة . وقد أخطأ فِي هَذَا التّوهّم من حيث المنهج التّعليميّ . كما قد أخطأ من حيث حاق الاستقراء ـ إذ لا معنى للنص عَلى ما لا وجود لَهُ ـ ولكنه قد أصاب من حيث الإراغة إِلى تبيين « النّغميّة » المحضة فِي الأعاريض . إذ قد كانت الدّائرة فِي عرف ذلك الزّمان ، الإغريقيّ المنطقيّ ، رمزًا للكمال . وكان الخليل يعلم بذوقه وبإدراكه أن الأوزان ما هي إلا أشكال موسيقيّة ، فالتمس لها نموذج الكمال فِي الدّائرة ، وحين استعصى عليه أن يضع كلّ بحر موجود فِي دائرة ، توهّم أصلًا دائريًّا ينبع منه ذلك البحر فنسبه إليه وبنى أنظمة الزّحاف والعلل عَلى ما اقتضاه هَذَا التّوهم .

وأحسب أنّ الخليل ومن اتبعوه قد أتوا من حيث أنّهم كانوا نحاة . وقد جرت الخليل عادة النّحو إِلى أن يسلك بالعروض مذهبًا نحويًّا . وقد كَانَ رجلًا عظيم الذكاء دقيق المداخل إِلى العلل فِي أبواب النّحو . ذكر سيبويه مثلًا أنّه كَانَ يمتنع من حذف الأصلي من أمثال سفرجل ، ويرى أن تُصغّر عَلى سفيرجل لتكون بمنزلة دنينير كما ترى مَعَ علمه بأنه ليس سفيرجل فِي كلام العرب[1] فهذا بعينه هو الاتجاه الَّذي اتجهه فِي العروض إذ افتعل أوزانًا فِي ضوء الذّوق العربيّ ، ثمّ نفى وجودها .

ولقد اضطّر الخليل ، فِي حمله العروض عَلى طريقة النّحو ، إِلى أن يستكثر من

---

(١) الكتاب : ٢/ ١٠٧ .

الاصطلاحات الَّتي قدّمنا لك ما نراه من عيبها . وإنّما اضطرّه إِلى هَـذِه الاصطلاحات ما تعوده من اتباع القواعد الشّواذ فِي منهج النّحو . والعلل والزحاف كلها تنزل منزلة الشّواذ من قواعد البحور المثالية وغير المثاليّة . ولعمري ما أثرها من شواذ .

وكما أخطأ الخليل حيث حمل العروض عَلى مناهج النّحو ، أخطأ أكثر المحدثين حيث حملوا الأعاريض حملًا مطلقًا عَلى طريقة المقاطع اللّغويّة الَّتي إن صلحت مطلق الصّلاحيّة فِي توضيح الأوزان الإفرنجيّة ، فإنها لا تصلح إلّا عَلى وجه تقريبيّ فِي توضيح الأوزان العربيّة . خذ مثلًا قول دريد بن الصّمّة :

يــــاليتني فيهـــا جـــذع
أخـــب فيهـــا وأضـــع
أقـــود وطفـــاء الزّمـــع
كأنهـــا شـــاة صـــدع

طريقة التقطيع الحديثة تريك أن البيت الأول[1] «يا ليتني فيها جذع» مكون من هَـذِه المقاطع :

- - ٧ - ا - - ٧ - ا

وأن البيت الثّاني مكوّن من هَذِه المقاطع :

٧ - ٧ - ا - ٧٧ - ١

وكما ترى فإنّ « كم » المقاطع فِي البيّتين مختلف . ويكون الشّاعر عَلى هَـذَا قد تجوّز فِي تصنيفه . وطريقة التّقطيع القديمة تدلك عَلى أن الشّاعر زاحف فِي البيت الثّاني زحافًا محتملًا . وهي فِي هَذَا أدقّ وصفًا لحقيقة تصنيفه من الطّريقة الأولى . إلا أنّها كأنّها ترى فِي ما صنعه نوعًا من شذوذ .

والحقّ أن الشّاعر لم يشذ ولم يخطئ فِي نسبه الزّمانيّة بحيث يقال : أنّه زاحف ، وكأنّما

(١) شطر سطور الرجز بيت عند العروضيّين .

يؤبن بذلك . ذلك بأن كلّ عروض إنّما هو شكل موسيقيّ تامّ ذو أبعاد زمانيّة ثابتة النّسبة بعضها إلى بعض ، وليس بمجرّد مقاطع طوال وقصار تدلّ عَلى كمّ كلاميّ . وهذه الأبعاد الزّمانيّة بمنزلة القوالب من المقاطع اللّفظيّة طوالها وقصارها . ودريد حين قَالَ :

يـــــــاليتني فيهـــــا جـــــذع

أخـــــب فيهـــــا وأضـــــع

إنّما أراد وزنًا مداره عَلى ثلاثة أبعاد زمانيّة متساوية ثالثها مقسوم إلى بعدين متلاحقين وهو وزن الرّجز . وهو وزن الرّجز .

وصورة جزئه الحقيقية هكذا :

تـــم تـــم تـــم تـــم

الرّنتان الأولى والثانية لكلّ واحدة منهما حيّز زمني منفرد . والثّالثة والرّابعة فِي حيّز زمنيّ واحد معًا مساوٍ لكلّ واحد من الحيّزين قبله . وقصارى الشّاعر فِي محاكاة هَذِه الأبعاد ومحاولة إبرازها إِلى الأذن الموسيقيّة أن يجعل لكلّ واحد من البعدين الأوّلين مقطعًا منفردًا ، وما أحرى أن يكون طويلًا ، وللبعد الثّالث مقطعين معًا ، وما أحرى أن يكون أولهما قصير ليكون أدلّ عَلى التّلاحق .

وقد حاكى الخليل هَذَا الوجه المحتمل فِي طريقة الشّعراء فمثل لجزء الرّجز بقوله : «مستفعلن» ولكنّ هَـذَا التمثيل كما ترى وصف تقريبيّ وليس بحدّ كامل . لأنّ «مستفعلن» هَذِه فِي الأماكن تصورها «متفعلن» أو «مفتعلن» ، وذلك بأن يصب الشّاعر مقطعًا قصيرًا (كما يقول اللّغويون) فِي قالب الضرّبة الأولى التّامّة فيصير الوزن هكذا :

م تـــــف علـــــن

تـــم تـــم تـــم تـــم

فيكون الشّاعر كأنّه يستشعر سكتة بعد «م» هَذِه من غير محاولة منه لتقصير الضّربة . وننبهك ههنا ـ من قبيل الاستطراد ـ إِلى موضع (علن) فِي بياننا . وهي ما يسميه العروضيون «وتدا مجموعًا» . وعندي أنهم قد راموا بذكر الوتد المجموع (علن) والمفروق

(تفع) نوعًا من البيان النغمي ، ومن هنا أراهم أدق من الذين اكتفوا بالبيان المقطعي وحده . إذ (علن) و (تفع) فيهما معان نغمية أكثر من مجرد قولنا (٧-) أو (-٧) . وقس عَلى ذين قولهم (فاصلة كبرى) ، و(فاصلة صغرى) . وما أرى القوم إلا قد عجزوا عن الكتابة الموسيقية فالتمسوا الأسماء للنّغم ومع الَّذي قدمته من تأثرهم بنظام النّحو .

معنى الزّحاف :

هذا وقد يجيء الشّاعر فِي جزء الرّجز بمقطع قصير فِي مكان الضّربة الثّانية هكذا :

مـــــس ت علـــــن

تـــم تـــم تـــم تـــم

وقد يجمع بين النّوعين هكذا :

م ت علـــــــــــن

تـــم تـــم تـــم تـــم

وفِي كلّ ذلك تجده يقدر فِي نفسه سكنات بعد المقاطع . أو فجوات زمانية تحل المقاطع فِي جوفها من غير إخلال بالتّناسب . وهذا التّقدير للسكنات والفجوات من جانب الشّاعر هو الَّذي سماه الخليل وأصحابه بالزّحاف . وعندي أنّ هَـذِه حقيقة معناه . تأمّل مثلا الأبيات السّابقة من رجز دريد . فإنّك تجده قَالَ فِي الشّطر الثّاني :

أخـــب فيهـــا وأضـــع

وضربات هَذَا من حيث نسبها الزمنية هكذا :

أ خـــب بفـــى هـــا و أضـــع

تم تم تم تم   تم تم تم تم

والألف والواو كما ترى حولها فجوات زمانيّة ، أو بعدها سكنات ، أي التّعبيرين ساغ لك فذاك . وليس بعد أي اختلال فِي حقيقة الوزن . وليس ثمّ اختلاف بين أصول النّسب الزّمانيّة فِي هَذَا الشّطر وبينها فِي الشّطرين :

يـــاليتني فيهـــا جـــذع

أقـــــود وطفـــــــاء الزمـــــــع

ولا ريب أن التّقطيع العروضيّ بالمقاطع أو بـالأجزاء الخليليّة يظهر شيئًا كأنّه خلل وليس به .

وفي اصطلاح العروضيّين لفظ الزّحاف : ما يشعر بأنهم رأوه من قبل الخلل ؛ إذ أصل الزّحاف من زحف البعير إذ أعيا فجرّ فرسنه . فكأن الشّاعر عندهم أصابه أعياء فجر فرسن كلامه جرا ليكمل التفعيلة[1] . وأحسب أنّهم أرادوا هَذَا الاصطلاح أوّل الأمر لأمثال قول الأخطل :

مُفْـتَرِشٌ كَـافِتِراشِ اللَّيْـثِ كَلْكَلَـهُ   لِوَقعَـةٍ كـائِنٍ فيهـا لَـهُ جَـزَرُ

وقول امرئ القيس :

أَلا رُبَّ يَـومٍ لَـكَ مِـنهُنَّ صـالِحٌ   وَلا سِـيَّما يَـومٍ بِـدارَةِ جُلجُـلِ

ثم اضطّروا إلى إطلاقه عَلى غيره مما يشبه من مخالفة المقاطع للتفعيلات ، الَّذي لا يظهر أمره لأذن العروض ، كالَّذي يقع من الأغمار في الكامل ، وشاهد العروضيّين كما تعلم :

وإذا سـكرت فَـإِنَّني مُسـتَهلِكٌ   مـالي وَعِـرضي وافِـرٌ لَم يُكلَـمِ

وعندي أن نحو (مفترش) و(ألا ربّ يوم لك منهن) ليسا بأبعد من صحة النّسبة الزّمنيّة من (أخب فيها وأضع) . كلّ ما هناك أن السكتة بعد التاء من (مفترش) أدخل في حاق السكتة الموسيقيّة وأقعد في ذلك من أن يلوكها إخراج الكلام .

وقد كَانَ القدماء من الشّعراء يعرفون هَذَا ويدركون صحّته وتلذهم حلاوته إذ التّعبير الموسيقي قد كَانَ من ضمن تعبيرهم الشّعرى . أمّا المحدثون فقد بعدوا شيئًا من الفطرة العربيّة ، إذ صار أمر الصناعة الَّتي يدركها الحس اللّامس والنّاظر أسرع إلى إعجابهم . وكان الأحكام ، بملء كلّ فجوة في التّفاعيل ، مما يجري مجرى الصّناعة المرئيّة الملموسة

(١) على أن هذا الوصف نفسه لا يخلو من إدراك عميق لحقيقة الزحاف الموسيقية من جانبهم إذ كأنّهم فطنوا إلى أن النغمة في ذات نفسها تامّة وأن تلك المقاطع زاحفة .

فراموه . وبقي قليلون من أهلّ الذّوق الأصيل يطلبون السرّ الكمين فِي موسيقا التّفاعيل ، كطلبهم الكمال الإيقاع المقطعيّ . من هؤلاء أبو تمّام وأبو عبادة البحتريّ عَلى حذر منهم وتقية إزاء الذّوق الّذي كَانَ يعاصرهم وقد كَانَ أبو تمّام أحمد إِلى أن يزاحف وأجزاء فيما يجيء به . إلا أن البحتري كَانَ أخبر بحيث ينبغي أن يقع . وقد كَانَ المتنبي يعرض عن ظاهر الزّحاف إلّا الخرم ، وعسى أن يكون من أسباب ذلك أنّه كَانَ رجلا محاربًا تلتمس فِي أشعاره السقطات ، فكان لا يألوا تجويدًا عَلى أني أرجح : أنّه كَانَ أميل بطبعه إِلى الاندفاع والإقدام فهذا مما كَانَ يحول بينه وبين السكتات الطّوال ، وعسى أن يكون مذهبه فِي الخرم من دلائل إقدامه واندفاعه كقوله :

لا يُحزِنُ اللهُ الأَميرَ فَإِنَّني ... سَآخُذُ مِن حالاتِهِ بِنَصيبِ

ويبدو لي أيضًا أنّه قد استبدل ما يكون من سكتات الأوائل بالاختلاس وهذا قد كَانَ يقع فِي أشعارهم كالّذي رواه سيبويه من قولهم[1] :

له زجلٌ كأنّه صوتُ حادٍ ... إذا طلب الوسيقةَ أو زميرُ

ومن قولهم :

وأيقن أنّ الخيل إن تلتبس به ... يكن لفسيل النّخل بعده آبر

معنى الاختلاس :

والاختلاس كالزحاف سواء بسواء .

وأعجب للعروضيّين ، إذ لم يذكروه فِي باب الوزن ولعلهم اكتفوا بذكر النّحويّين لَهُ فِي باب إشباع الضمائر كالّذي مر بك من استشهاد سيبويه . ولا ريب أن الاختلاس مذهب موسيقي صادق التّعبير عن نفس المتنبي السّاخن الجارف . وإقدامه عليه ، وكان معاصروه أشد لَهُ عيبًا منها لكثير من أصناف الزّحاف مما يدلك عَلى أصالة الرّجل فِي موسيقا الشّعر العربيّ وصدق فطرته وفنه . تأمل مثلا قوله :

---

(١) الكتاب بولاق : ١/١١ .

طَوى الجَزيرَةَ حَتّى جاءَني خَبَرٌ فَزِعتُ فيهِ بِآمالي إِلى الكَذِبِ
تَعَثَّرَت بِهِ فِي الأَفواهِ أَلسُنُها وَالبُردُ فِي الطُرقِ وَالأَقلامُ فِي الكُتُبِ

وقد جمع فِي قوله (تعثّرت به) زحافًا خفيا مَعَ الاختلاس كما ترى . وهذا فِي قصيدة مما احتفل لَهُ وهو ناضج يعرف كيف يقول ، فلا يسبقن إليك أنّه قد زل[1] وقد روي أنّه كَانَ ربما أنشد (تعثرت بك) [2] فاحسبه إن فعل ذلك إنّما كَانَ يلتمس ، ألا يحرج بالسؤال من بعض من قد ينفس عليه وهذا من باب التقية اللازمة أحيانًا . وبين قوله (تعثّرت به) و(تعثّرت بك) بون بعيد ومكان الجودة من الأولى لا يخفى .

هذا! وتأمل اختلاسه فِي قوله :

ولا إلا بأن يصفى وأحكى فليته لا يتيمه هواكا

هذه هي الرواية الجيدة المشهورة . وروى (فليتك) وهي متهافته . وهذه القصيدة آخر ما نظمه المتنبّي وهي من عيون شعره .

---

(١) قد يكون الاختلاس أحيانًا من الزلل ضعف الملكة بلا ريب كالذي يقع كثيرًا في شعر الشريف محمود قباد والتونسي كقوله (ديوانه ، طبع تونس ، رقم ٤/ ٣١ بمكتبة العطارين بتونس ص١٧ س٥)

وَاهتزّ مِن أهرامِ مِصر قواعدٌ وَابتزّ من إيوان كسرى بهاءُ

والاختلاس في ألف كسرى . وكقوله (ص١٧س١٥) .

يُغنيهِ خوفه أن تسلّ سُيوفه لَكِنّها أغمادها الأحشاءُ

وقوله : (ص١٨)

ويكاد رأيه أن يباري رؤية فتلوح قبل وجودها الأشياءُ

وقوله (ص٢٠)

قد كان في حلم الأمير وصفحه ردع يظن لمثلكم إغراءُ

ورفع الهمزة هنا مشكل إلا أن يكون اتباعًا على الحكاية في ردع وهو بعيد . وقل أن يؤتى قبادو من جهة النحو . فيرجع إلى ديوانه ، فعسى أن يكون هذا البيت من همزية منصوبة إذ عسى أن تكون مقيدة . والله أعلم .

(٢) ديوان المتنبي تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام ، مصر ١٩٤٤ ص ٤٢٣ – هامش ٤ .

وحقيقة الاختلاس هي تحويل الضّربة التّامة إِلى ثنتين متلاحقتين ومن ههنا كَانَ كأنه عكس للزّحاف ، إذ هَذَا يعوض إيقاع المقطع بالسكوت . وأقول (كأنه) لأنّ هَذَا مجرّد تقريب وتمثيل . ولزيادة الإيضاح أضرب لك مثلًا ما رووه من قول المتنبي (فليتك لا) وهذا جار عَلى ترك الاختلاس وعلى جزء الوافر (مفاعلتن) وما هو مشهور من قوله (فليته لا) وهو جار عَلى الاختلاس وجار أيضًا عَلى جزء الوافر (مفاعلتن) . فالأوّل بيانه عندنا شيء من هَذَا القبيل :

مفـــــــــاع ل تـــــــــن

فليــــــــــــــت ك لا

تــم تــم تــم تــم تــم

والثّاني هكذا :

مفـــــــــاع ل تـــــــــن

فــــــــــلي تهـــــــــلا

تــم تــم (تــم) (تــم تــم) معــا

وهذا البيان تقريب وواضح منه ما نرمي إليه ، إذ قدرات الشّاعر فِي ضرباته الأوليات وجعل الأخيرة ثنتين متلاحقتين أو كالثنتين المتلاحقتين .

رأى المعريّ :

هذا الَّذي ذكرناه من أمر الزّحاف والاختلاس من أنهما من عنصر الموسيقا الشّعريّة نفسه وليسا بعيب يحسن تجنبه كما رأى أكثر المحدثين ، قد تنبه أبو العلاء المعريّ إِلى جانب كبير منه فِي وقفته مَعَ امرئ القيس فِي رسالة الغفران إذ قَالَ :

فيقول : لا برح منطيقا بالحكم . فأخبرني عن كلمتك الصّادية والضّادية والنّونية الَّتي أولها :

لِمَــن طَلَــلٌ أَبصَرتُــهُ فَشَــجاني كَخَــطِّ زَبــورٍ فِي عَســيبِ يَــمانِ

لقد جئتَ فيها بأشياء ينكرها السّمع كقولك :

فَـإِن أُمْـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ غـارَةٍ   شَـهِدتُ عَـلى أَقَـبَّ رَخـوِ اللَّبـانِ

وكذلك قولك في الكلمة الصّادية :

عَـلى نَقنَـقٍ هَيـقٍ لَـهُ وَلِعُرسِـهِ   بِمُنعَـرَجِ الوَعسـاءِ بَـيضٌ رَصـيصُ

وقولك :

فَأَسـقي بِـهِ أُختـي إِذ نَـأَت   وَإِذ بَعُـدَ المَـزارُ غَـيرَ القَـريضِ

في أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزّيادة ؟ أم كنتم مطبوعين عَلى إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه ؟ كما أنّه لا ريب أن زهيرًا كَانَ يعرف مكان الزّحاف في قوله :

يَطلُـبُ شَـأوَ اِمـرِأَينِ قَـدَّما حَسَـناً   نـالا المُلـوكَ وَبَـذّا هَـذِهِ السُّـوَقا

فإن الغرائز تحس بهذه المواضع فتبارك الله أحسن الخالقين .

فيقول امرؤ القيس : أدركنا الأوّلين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ولا أدري ما شجن عنه . فأمّا أنا وطبقتي فكنا نمر في البيت حتى نأتي إلى آخره . فإذا فني أو قارب تبيّن أمره للسّامع .

فيقول ثبت الله تعالى الإحسّان عليه ، أخبرني عن قولك :

أَلا رُبَّ يَـومٍ لَـكَ مِـنهُنَّ صـالِحٌ   وَلا سِـيَّما يَـومٍ بِـدارَةِ جُلجُـلِ

أتنشده (لك منهن صالح) فتزاحف الكفّ ؟ أم تنشده عَلى الرّواية الأخرى ؟ فأمّا يوم فيجوز فيه النّصب والخفض والرفع . فأمّا النصب فعلى ما يجب للمفعول من الظّروف والفاعل في الظرف ههنا فعل مضمر . وأمّا الرّفع فعلى أن تجعل (ما) كافة . وما الكافة عند بعض البصريّين نكرة . وإذا كَانَ الأمر كذلك (فهو) بعدها مضمرة ، وإذا خفض يوم فما من الزيادات ويشدد سي ويخفّف . فأمّا التّشديد فهو اللّغة العالية وبعض النّاس يخفّف ويقال أن الفرزدق مر وهو سكران عَلى كلاب مجتمعة فسلم عليها فلما لم يسمع الجواب أنشأ يقول :

فـما ردَّ السّـلام شـيوخ قـومٍ   مـررت بهـم عَـلى سـكك البريـد

ولا سـيَّما الَّـذي كانـت عليـه قطيفـه أرجـوانٍ فِي القعـود

فيقول امرؤ القيس: أمَّا أنا فما قلت فِي الجاهليّة إلاَّ بزحافٍ:(لك منهَّن صالحٍ). وأمَّا المعلِّمون فِي الإسلام فغيَّروه عَلى حسب ما يريدون، ولا بأس بالوجه الَّذي اختاروه. ا. هـ[١]

وجلي من هَذِه المقالة أن المعريّ كَانَ يرى نحوًا من هَذَا الَّذي نقول به من أن أوزان الشّعر إنّما هي نسب زمنية وضربات موسيقيّة . فمتى وقع عند الشّاعر أنّها استقامت لَهُ ، فلا بأس عليه أن يختم المقطع أو يريث به فِي داخل ما اختاره من قوالب الوزن والأبيات الَّتي ذكرها المعري من شعر امرئ القيس مما يوضح هَذَا أجمل توضيح ... خذ مثلًا قوله :

شَـهِدتُ عَـلى أَقَـبٍّ رَخـوِ اللَّبـانِ

فهنا فِي أجزائه الثلاثة الأول أمران من الزّحاف والخطف . إذ بعد (شهدت) سكتة يسيرة وفِي الهمزة من (أقب) سكتة تكاد تختفِي فِي المد والتسهيل . وفِي اللام الساكنة من (أقب إلخ) اختلاسه راقصة ، سببها إتمام الجزء الثّالث إتمامًا مقطعيًّا ، والَّذي يجري عليه الشّعراء مزاحفته بالقبض هكذا (رخو لبان) . ولابد ههنا من التنبيه عَلى أن قلقلة (اللّام) مما يفسد سياق الموسيقا فِي هَذَا البيت ، وكثيرًا ما يقلقها المعاصرون ، وهي حرف هين لين، والقلقلة تحدث فيه سكتة يزيد بها حجم النغم .

هذا وقول المعري فِي آخر حديثه : (فيقول امرؤ القيس : أمَّا فما قلت إلا بزحاف) هو النّص الَّذي أردنا إليه من سياق الحديث وفِي خزانة الأدب رأي عسى صاحبه أن يكون نظر فيه إلى مقالة المعري هذه[٢] .

ضربات الوزن :

لعله الآن قد وضح مرادنا من القول بأن الوزن يدور عَلى نسب وضربات لا عَلى مجرد تفعيلات مقطعيّة ، وما ذكرناه بمعرض التبيين عن ألوان الزّحاف الظاهر ، الَّتي حسبها

---

(١) رسالة الغفران للمعري ، تحقيق ابنة الشاطئ ، دار المعارف ، مصر – ١٩٥٠ ، ص٣٠٧–٣١٠ .

(٢) أحسبه في أوائل الجزء الأول وند عني موضعه .

المحدثون خللا وليست به ، مما يساعد عَلى إبراز هَذَا المعنى .

والآن نلفت القارئ إِلى ألوان الزّحاف الخفِيّ والعلل مما تقبله المحدثون ولم يعيبوه بأنّه تنبو عنه الآذان كالّذي تمثلنا به من قول دريد :

أخـــــبّ فيهــــا وأضــــع

وكالّذي فِي بيت عنترة :

فَــإِذا شَرِبـــتُ فَــإِنَّني مُســتَهلِكٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مــالي وَعِــرضي وافِــرٌ لَم يُكلَــمِ

فالّذي نراه أن هَذِه الزّحافات الخفيّة فِي (مستهلك إلخ) وفِي (أخب) لم تنشأ عن عجز الشاعرين أن يوردا المقاطع الّتي تطابق ضربات ما أخذا فيه من وزن اعتمادًا عَلى خفاء هَذَا العجز عن أذن السامع . كلّا . ولكنّا نرى أن طبيعة الصّياغة الشّعريّة عندهما هي الّتي اقتضتها أن يغفلا ما فعلاه . وكذلك يفعل كلّ شاعر . إذ لا تجد شاعرًا يجري ضربات وزنه مطابقة كلّ المطابقة لضربات التفعيلات النّموذجيّة . وإنّما يغيّر وينوّع ، فيطيل حينا ويقصر حينا . والعروض قد يعتذر لَهُ عن ذلك بأنّه غير ناب عن الأذن وإن يك زحافًا . والعروض يخطئ فِي هَذَا الاعتذار ، إذ قد غاب عنه أن الشّاعر إنّما أراد ليسرّ الأذن لا مجرّد ألا ينبوا وزنه عنها . لا بل إنّما أراد أن يستغلّ مادة الوزن النّغمية فِي البحر الّذي هو يصدده أتمّ استغلال ويستخرج خبئ أسرارها ليعبّر به عن جانب هامّ من معانيه ذلك بأنّ معاني الشّاعر لا تعتمل كلها فِي نفسه ليكون تعبيرها من طريق اللّفظ المبين ، ولكنّ جانبًا كبيرًا منها يروم أن يكون تعبيره من طريق النّغم والرّنين . والزّحاف من أكبر ما يستعين به الشّاعر فِي هَذَا الباب .

الحركات والسّكنات والحروف :

على أن سكنات الزّحاف وخلجات الاختلاس وضربات الوزن ، كلّ ذلك لا يتضح اتضاحًا موسيقيًّا حقًّا إلّا مَعَ الحركات والسّكنات وضروب اللّين والإشباع والمدّ والشدّ والإمالة والإشمام والمخارج الّتي تخرج بها الحروف . ولا يسبقن إِلى وهمك أن تربط هَذَا بكلمات الشّاعر من حيث هي أدوات للبيان المحض ، ونعني بالبيان المحض مدلول القول

الظّاهر . فإن لهذه جميعها قوة تعبير نغميّة ، أدخل فِي حلق الوزن منها فِي الصّياغة البيانيّة مَعَ أنّ الكلمات نفسها أدخل فِي حاق الصّياغة البيانيّة منها فِي الوزن . ولأمر ما اختلفت رنّات الشّعراء فِي البحر الواحد اختلافًا جسيمًا . هَذَا الفرزدق مثلا ، شاعر فحل مبين ، قدير عَلى ضبط الوزن وتنويع زحافه .

ولكنه مَعَ ذلك دون صاحبه جرير فِي قوّة الرّنين وإيحائيته . وكذلك تجد إذا وازنت ابن الرومي بالبحتري ، والشّريف الرّضي بأبي الطّيّب المتنبيّ .

وإذا تأمّلنا قول جرير مثلا :

دَعَوتُــكَ وَاليَمامَــةُ دونَ أَهــلي وَلَــولا البُعــدُ أَســمَعَكَ المُنــادي

عَــلى عَليــاءَ تَرفَــعُ خَــيرَ نــارٍ وَتَقــدَحُ بِــالوَرِيِّ مِــنَ الزِنــادِ

إِذا مــا خِفــتُ رَدَّ إِلَيَّ نَــفسي وَصــارَ إِلى مَســاكِنِهِ فُــؤادي

لم نجده زاد فِي التّنويع الزحافِي عَلى (مفاعيلن) فِي أول العروض أو الضّرب .

ومع ذلك نحس فِي أبياته هَذِه طربًا شديدًا ورنينًا عظيمًا ومع هَذَا الرنين إيحاء وجدانيًا يصل إِلى سويداء القلب ولا ريب أن هَذَا منشؤه من الصّياغة الموسيقيّة الّتي التزمها الشّاعر ، حيث أعطى كلّ ضربة من ضربات تفعيلاته ألوانا تناسب معاني نفسه من الحركة والسكون واللّين والمدّ والإشباع وأصوات الحروف . وإنّما تجيء أصوات الحروف بعد ما قدّمناه ، ومتى صار الشّاعر إليها فقد دنى من الكلمات والبيان اللفظيّ المحض .

ولا أكاد أرتاب أن الشّاعر ربما جاش المعنى فِي نفسه بشيء من هَذَا القرى أول الأمر :

تــــتم ت ت تــــم ت تــــا تتتــا تــــتم تــــم

ت تــو تــو تــو تتــت تــم تــــم تــــتم تــــم

دعوتــــك تــــا دعوتــــك تــــا دعــــــوتي

ولــــولا ذاك قــــد علــــم المنــــادي

دعوتــــك والفراشــــة فــــوق عينــــي

دعوتــك والتّهــائم فــوق عبينــي
دعوتــك والمفــاوز بــين قــومي
دعوتــك والمفــاوز دون أهــلي
دعوتــك واليمامــة دون أهــلي
م تــم تــم لأســمعك المنــادي
ولــولا البعــد أســمعك المنــادي

وهذا مجرد تمثيل كما ترى .

والحديث عن الحركات واللين والإشباع يؤدي بنا إِلى الحديث عن القافية لا محالة . ذلك بأنّ الحركات تنزل من ضربات الوزن منزلة الحدّة والارتفاع والانخفاض فِي الضّربة الموسيقيّة والمخرج ينزل منزل الصّوت الَّذي تؤدي به الضّربة . والقافية فِي الوزن العربيّ إنْ هي إلا رمز جامع بين عمل الحركة وعمل المخرج وضربة الوزن .

القافية :

الَّذي عندي ، أنّ الشّاعر العربيّ إنّما عمد إِلى القافية فقرنها بالوزن ليضفِي عليه صبغًا نغميًّا متى اصطبغ الوزن به صار أكثر تهيؤا لأداء ما يختلج فِي صدره من معانٍ . وإن جاز لنا أن نشبّه أبعاد الوزن ونسبه الزّمانيّة برنّات متناسبة ، فإنّ موقع القافية من هَـذِه الرّنات شبيه بموقع الكثافة من رنّات الموسيقا ، مثلا الشّدة الَّتي تشد عليها أوتار العود فِي قطعة ما ، وللزيادة فِي توضيح هَـذَا المعنى نضرب لك أمثالا أخرى ، خذ مثلًا دقّات الطّبل ودقّات القدم عَلى الأرض ، والنّقر عَلى النّحاس ، والنّقر عَلى قرع مكفأ عَلى وجه الماء ، والصّفير المتلاحق عَلى هيئة دقّات ، كلّ أولئك لهنّ طبائع صوتيّة متباينة . أو قل لهنّ كثافات صوتيّة متباينة . وإذا فرضنا الشّبه الزّمني الكامل فِي جميع هَذِه الدّقات فإنّ الوزن المجرّد المبنيّ عليه التّناسب الزّمنيّ فيهنّ جميعًا ، واحد وليس فيه أدنى تفاوت . وهذا التّناسب الزّمنيّ المجرّد أشبه شيء بأعاريض الشّعر الكامنة وراء إرزام الشّاعر .

والطّبائع الصّوتيّة المختلفة النّاشئة من دقّ القدم ، ودقّ الطّبل ، ونقر النّحاس ونقر

القرع وهلمّ جرّا ، أشبه شيء بالطّبائع النّغميّة الّتي تضفيها القوافِي عَلى الأوزان . ولقد ألمعنا إِلى شيء من هَذَا المعنى فِي مقدمة المرشد الأوّل إذ تحدثنا عن ألوان القوافِي وضربنا لها أمثالًا من ألوان الشّعر[١] . وقد أخطأ قدامة حيث زعم أنّ القافية شيء زائد عَلى الوزن لأنها كما قَالَ كلمة تزاد عند مقطع البيت ليست لها ذات قائمة بنفسها . وقد بيّنا هَذَا من خطئه فِي الجزء الثّاني من المرشد فليرجع إليه[٢] .

طور التنويع :

ولا أكاد أشكّ أن الشّاعر العربيّ كَانَ أول أمره ينوّع القوافِي . ولعل هَذَا أن يستفاد من مقال ابن سلام أن أوائل العرب كانت تصنع البيت والأبيات فيما يعن لها من حوادث[٣] . وأحسب أنا أن الشّاعر القديم ربما كَانَ ينشد بيتًا أو بيتين من روى واحد . ثمَّ يسكت وينشد آخرين من روى آخر .

وأحسب نحو قول القائل :

الشّـــيخ شـــيخ تكـــلان
والـــورد ورد عجـــلان
أنعـــي إليـــك مـــرة بـــن ســـفيان

ربما صحّ أن يستشهد به فِي هَذَا الموضع لاختلاف أعاريضه ، وإن يك كلّه من بحر الرّجز[٤] وقد عثرت عَلى أبيات أخرى تشبه هَذِه ندّ عنّي الآن موضعها ولعلها فِي سيرة ابن هشام . ومما يجري هَذَا المجرى من أراجيز السّيرة ما رواه ابن إسحق من ارتجاز نساء هوازن بعد حنين[٥] :

---

(١) راجع المرشد : ١ – ص٤٠- ٧٣ .
(٢) المرشد : ٢/ ٤٢-٤٣ .
(٣) طبقات فحول الشعراء : ص٢٣ ، دار المعارف ، تحقيق العلامة محمود محمد شاكر .
(٤) المرشد : ١-٩٦ .
(٥) السيرة : ٤-٧٩ .

قد غلبت خيل الله خيل اللات وخيله أحق بالثبات

وفِي السيرة بعد أشعار كثيرة مضطّربة الأوزان مما أرى أنّها كانت من قبيل الغناء الشّعبي . وابن هشام يعلق عَلى أكثرها بقوله وهذا سجع لا شعر . وربّما روى ما يستقيم به وزنها من بعد .

هذا وكثير مما بلغنا من الأراجيز الَّتي كَانَ يتناشدها الأبطال عند المناجزة (أو ينسب إليهم إنشادها فِي معرض القصص) مما يجوز به الاستشهاد ههنا إذ منهجها يقوي هَذَا الَّذي نذهب إليه من أن القوم كانوا ينوعون قوافيهم قبل أن يصلوا إِلى توحيدها . خذ مثلا قول ابنة عتبة يوم أحد :

إيهًا بني عبد الدار أيها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

نحن بنات طارق إن تقبلوا نعانق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

(وقد سبق منا الاستشهاد بهذه الأبيات فِي المرشد[1] ومما يجري مجراها ما كانت تتساب به الفتيات فِي ملاعبهن ، تلقى إحداهن رويا تمدح به أباها وتسب أبا قرينتها ، وتجيبها الأخرى بنحو من ذلك ، من ذلك ما رواه صاحب الحماسة من قول إحدى الجواري[2] :

سبي أبي سبك لن يضيره

إن معي قوافياً كثيره

ينفح منها المسك والذريرة

والذريرة : طيب يعمل من الصّندل المدقوق وهي معروفة عندنا فِي السّودان . وقول الأخرى :

يا رَبِّ مَنْ عَادَى أُبِي فَعَادِهِ

---

(١) المرشد : ١-١٠ .

(٢) الحماسة ، مصر ١٣٣٥هـ - ٢٠ - ٣٧٧ .

وَارْمِ بِسَهْمَيْنِ عَلى فُؤَادِهِ
واجعل حمام نفسه فِي زاده

وأذكر عَلى سبيل الاستطراد أن هَذَا اللون من تساب الفتيات معروف عندنا فِي قرى السّودان . منه مثلا قول إحداهن :

أبوي أنا
الرّاكب الحمرا
المحجلة
وأبوك أنت
الراكب الكديس
يمشي وينيص

والكديس هو القط فِي عاميتنا .

هذا ولا يبعد أن كانت العرب تذهب بأناشيد الأعراس إِلى شيء من التّنويع والتّسميط ، بدليل اعتمادها الأوزان القصار كالَّذي يروي عن الجرادتين :

أقفر من أهله مصيف	فبطن نخلة فالغريف
هل تبلغني ديار قومي	مهرية سيرها لفيف
يا أم نعمان نولينا	قد ينفع النّائل الطّفيف

وقد روى المعريّ فِي رسالة الغفران بيتين من قصير المتقارب ، ممّا كانت تتغنى به الجواري فِي الأعراس ، لا يكاد يشكّ النّاقد أنّهما بقية بقية من أسماك تشبهها ، وهما :

وأهدى لنا أكبشاً	تبحبح فِي المربد
وزوجك فِي النّادي	ويعلم ما فِي غد

ولا يخفى أن نحو هَذَا إنّما كَانَ يراد به محض التّرنم ، لتباعد أطراف معانيه ، وأحسب أنّ هذين البيتين خلصا إلينا لارتباطهما ببعض ما جاء فِي الحديث ، إذ هما مذكوران فِي

حديث الرّبيع بن معوذ ابن عفراء ، وفيه أن الجواري أنشدن (وفينا نبي يعلم ما فِي غد) فنهاهن ﷺ ، إذ لا يعلم الغيب إلّا الله . عَلى أنّه ﷺ لم ينههن عن الغناء نفسه . والله تعالى أعلم . وحديث الرّبيع مما رواه البخاريّ رضي الله عنه .

هذا وشواهد الإيطاء والإقواء وتقارب المخارج نحو :

بنـــي إنّ الـــبر شيء هـــين المنطـــق اللـــين والطعـــيم

كلّها مما يقوي حجّتنا فِي أن أمر القوافِي لم يبدأ محكما . ولعلّ أكثر الأنماط الشّعبية لم تكن تلتزم الإحكام أو تعمد إليه . وفِي فواصل القرءان ما ينبئنا أن تشابه الوزن والجرس وتقارب المخرج ربّما نزل منزلة الرّوي كالّذي فِي سورة الطّور مثلا : ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ [الطور : ١-٥] ، وكالّذي فِي سورة ق :﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٢٩ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ۝٣٠ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝٣٥ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق : ٢٧-٣٦]. وقبل هَذَا . ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ [ق : ٢٤-٢٦] ، وفِي سورة الإنسان تجد فواصل من أمثال : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ [الإنسان : ١٧]، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان : ٥]، ﴿ قَوَارِيرَاْ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ ﴾ [الإنسان : ١٥-١٦] ، ﴿ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩]، ﴿ وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴾ [الإنسان : ١٤] .

ثمّ إنّ الشّعراء أحكمت القوافِي كما أحكمت الوزن بعد طول تدرّج ، والتمست وحدة الرويّ فيها تحتفل لَهُ من كلام ، وهذا مدلول قول ابن سلام الّذي ذكرناه آنفًا حيث قَالَ :

إنّ القصيد إنّما قصد عَلى عهد هاشم وعبد المطلب بن هاشم .

الرّجز والهزج :

أحسب أنّ القصيد أطلق أوّل أمره عَلى ما يكون رويه واحدا دون ما تنوع فيه القوافِي وتكون الأوزان فيه أميل إِلى القصر والخفة كالرّجز والهزج . أمّا الرّجز فالراجح عندي أنّه كَانَ غناء تصحبه حركة ، يتناشده الجماعة والأفراد فِي أوقات الحماسة ، سواء أكان ذلك عند الطواف أو بإزاء القتال أوفى ملاعب الفتيات اللّواتي يتفاخرن . وما روى لنا من الأراجيز القديمة يقوى هَذَا الحدس من جانبنا ، كالّذي جاء فِي خبر غزوة الخندق من أنّ الصّحابة ارتجزوا برجل اسمه جعيل وحول النبي اسمه إِلى عمرو فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمراً وكان للبائس يوماً ظهرا

قالوا وكان النبيّ يشاركهم فإذا قالوا (عمرا) قَالَ عمرا (وإذا قالوا ظهرا) ، (قال ظهرا) وهذا نصّ فِي الحركة والإنشاد الجماعيّ[1] ومما هو أيضًا نصّ عَلى الإنشاد والحركة خبر الهذليّ ، إذ كَانَ يطوف بالكعبة وبعد أشواطه هكذا (الخزانة ٢/ ٢٥٦) :

لاهم هَذَا خامسٌ إن تما

أتمه الله وقد أتما

وقد ذكروا أن النبيّ ﷺ كَانَ يعجبه الرّجز[2] وقد تعلم فيما روى أصحاب السّير أنّ عمرو بن سالم الخزاعي أنشده ﷺ الرّجز وهو يستنصر به عَلى قريش إذ نقضوا صلح الحديبية :

إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

واشتقاق لفظ الرّجز نفسه يدل عَلى الحركة . إذ يقال ارتجز الرعد . وإنّما طول الرّجز وذهب به مذهب الرويّ الواحد بعد تمصير الكوفة والبصرة . وأحسب أنّ العرب اتخذته

(١) السيرة : ٣/ ٢٣٢ .

(٢) انظر النهاية لابن الأثير مادة رجز (بولاق) ٢-٦٧ .

ضربًا من الملهاة تتبدل به فِي حضارتها الجديدة . واحتاجت إِلى أن تعادله لأن ذلك أدخل فِي حاق التّسلية . وهذا باب سنعرض لَهُ إن شاء الله . ومما يدلك عَلى معنى مما نروم إليه فِي أمر الملهاة والتّسلية أخبار أبي النّجم العجلي مَعَ هشام بن عبد الملك[١] ، وخبر العجاج ودكين الرّاجز إذ كانا يجمعان الصّبيان ليسمعا تراجزهما . وزعم العجاج أنّ الصّبيان يغلبون ويبلغون[٢] وقصة أبي النّجم مَعَ العجاج من هَذَا القبيل ، إذ جاء عَلى جمل أجرب، فاهتاج جمله إِلى ناقة العجاج ، وجعل ينشد[٣] :

إنِّي وَكُلُّ شاعِرٍ مِنَ البَشَرْ شَيطانُهُ أُنثَى وَشَيطاني ذَكَرْ

والنّاس يضحكون من المنظر وعندهم أنّ أبا النّجم قد غلب وقد كانوا مما ينحون فِي ملهاة الرّجز وغيره منحى الفحش . والفحش قد يكون من فكاهات البداوة ، ما دام لا يشوبه قذع مريض . وأعني بالقذع المريض نحو هَذَا الَّذي نجده عند ابن حجاج وابن سكرة ممن نفقوا بأخرة عند الأذواق المتحضرة . وهذا باب نأمل أن نتناوله فِي موضعه[٤] ، ونتمثّل لَهُ بشيء يسير إذ أمثلته كثيرة لا يكاد يخلو منها مرجع قديم من كتب اللّغة والأدب ، واللّغة والأخبار هلمّ جرّا .

هذا ، وأمّا الهزج فيبدو أنّه لقب كَانَ يطلق عَلى أصناف من الغناء الخفيف ، وفِي اللسان (كأنّها جارية تهزج) (راجع المادة) ، والَّذي استشهدنا به آنفًا من كلام الوليد بن المغيرة ، حيث قسم الشّعر إِلى قريض وهزج ، ينبئك أنّهم كانوا يرون الهزج أمرًا غير القريض . ولعلّ أبيات جواري الرّبيع بنت صفراء ـ (وأهدى لنا أكبشًا إلخ) ـ وهن متقارب قصير ـ مما كَانَ يدخل فِي مدلول مسمّى الهزج ، لا أنّه كَانَ مقصورا عَلى ما كانت تفعيلاته هزجيّة لا غير ، نحو (عفا من آل ليلى الحزم) وهلمّ جرّا . ولعلّ أكثر قصار

---

(١) الأغاني .

(٢) ندعني موضع هذا الخبر .

(٣) الأغاني .

(٤) في معرض الحديث عن رفث القول في باب الغزل وغيره .

الأوزان تدخل هَذَا المدخل . ألم يقولوا عن بائية عبيد بن الأبرص أنّها من فرى الخطب؟[١] أم لم يذكروا عن الخليل أنّه لم يكن بعد الرّجز المشطور والمنهوك من الشّعر : وأحسبه أراد بالشّعر خاصة ههنا ـ وهذا قول العرب إذ كانوا يفرقون بين الشّاعر صاحب القصيد وبين الراجز صاحب المشطور[٢] ـ إلى هَذَا المعنى أشار المعريّ فِي رسالة الغفران ، إذ جعل الرّجاز فِي مرتبة دون الشّعراء ، وذلك قوله[٣] ـ ويمرّ بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنّة . فيسأل عنها ، فيقال ـ هَذِه جنّة الرّجز ، يكون فيها أغلب بني عجل والعجاج ورؤبة وأبو النّجم وحميد الأرقط ومذافر بن أوس وأبو نخيلة وكلّ من غفر لَهُ من الرّجاز، فيقول ـ تبارك العزيز الوهّاب ، لقد صدق الحديث المرويّ ، أن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ، وأنّ الرّجز من سفاف القريض ، قصرتم أيّها النّفر فقصربكم . ا . هـ (ومقالة المعريّ هَذِه تنبئ عن حقيقة رأي العرب فِي القصيد من أنّه قد كَانَ عندهم ذروة المنظوم ومعرض الجدّ فيه ، وما سواه من أصناف المشطور وقصار

---

(١) أحسب من قال ذلك قاله إذ وجد وزن البائيّة قصيرًا ثم لم يجدها من أصناف الغناء القصير الهيّن اليسير إذ هي طويلة ذات رويّ متلئب كالّذي يقع في قصائد الطويل والوافر والكامل ، على ما في وزنها من اضطّراب . وقد أنكر ابن سلام منها ومن سائر شعر عبيد ما سوى البيت الأول (انظر طبقات فحول الشّعراء ـ ١١٦. وعلق الشّارح المحقق الأستاذ محمود محمّد شاكر بقوله (هامش ٢) ، وقصيدته هذه من أجود الشعر (وهو مذهب ابن قتيبة) الشّعر والشّعراء ٢٢٥/ ٢٢٦ ووددت لو قد قَصّ شيئًا وبسط القول .

(٢) راجع اللسان (رجز) والنهاية ٢/ ٦٧ تجد مذهب الخليل فيما نسب إليه من إدخال الرجز في الشعر وإخراجه منه مبسوطًا . ولا يخلو جميع ذلك من التكلّف وشق الظّهر . ولا ريب أنّ الخليل قد كان متديّنًا إلا أني أستبعد أن يكون تدينه ألجأه إلى القول بأن مشطور الرجز إنما هو أنصاف أبيات وليس بشعر لأنه يجوز مجيء أنصاف الأبيات على لسان النبيّ ﷺ دون الأبيات الكوامل وقد روى في الأثر بيتان منهوك وآخران من المشطور على لسانه الشّريف . وهذا القول عندي أشبه بالأخفش وقد نسبه صادقًا إلى نفسه فيما أرى .

(٣) رسالة الغفران تحقيق ابنة الشاطئ .

الأسماء إنّما كانت تراد به ناحية التّرنم دون حاق التأليف البيانيّ النّغميّ الشّعري وقد قارب المرزوقيّ هَذَا المعنى فِي ذيل مقدمته الرّائعة لشرح الحماسة حيث قال[١] : (فلمّا اختلف المبنيان - يعني مبنى الشّعر ومبنى النّثر - كما بينا ، وكان المتولي لكلّ واحد منهما يختار أبعد الغايات لنفسه فيه ، واختلفت فيهما الإصابتان لتباين طرفيهما وتفاوت قطريهما. وبعد عَلى الفرائح الجمع بينهما ، يكشف ذلك أن الرّجز وإن خالف القصيد مخالفة قريبة ترجع إِلى تقطيع شأو اللّفظ فيه ، وتزاحم السّجع عليه ، قل عدد الجامعيّين بينهما ، لتّقاصر الطّباع عن الإحاطة بهما ... إلخ .

القصيد والقافية الواحدة :

هذا وأصل القصيد فيما أرى من التقصيد الَّذي هو التكسير[٢] .ألا تراهم يقولون : (قصد القنا) بكسر القاف وفتح الصاد ، جمع قصدة بكسرها وسكون الصّاد ، أي ما يكون من الرّماح المتكسرة بعد القتال . وما أحسبهم سموا القصيد قصيدًا إلا من أجل ما يقع فِي أوزانه من تقطيع الضربات الَّذي ينتهي عند معقد القافية ، وتتابع الأبيات الَّذي يمتد من المطلع إِلى المقطع وقول العروضيّين فِي حلقات الدّرس : قطع البيت الآتي : (مما يقوي هَذَا المعنى . وعندنا فِي عامية السّودان يقولون : (فلان بيقطع) أي يقول الشّعر . كأنّهم عنوا أنّه يقطعه قطعًا متساويات . وعسى أن يكونوا عنوا أنّه يقتطعه من نفسه بدليل قولهم: (فلان يقطع من رأسه) من تأليفه لا من حفظه[٣] .

وكأنّ القصيدة إنّما سميت قصيدة عَلى سبيل التشبيه بالقنا ذي الكعوب والأنابيب المتناسبات الأبعاد ، إذ القصيدة كالقناة وحدة من قطع الأبيات المتلاحقات تلاحق الأنابيب . والقافية تعقد آخر كلّ أنبوب بما يليه .

وقولهم القريض عندي من هَذَا الباب نفسه إذ أصله من القرض . وهو أحسبه أريد به

---

(١) رأيت بأخرة شرح المرزوقي ، دار الترجمة والتأليف والنشر ١٩٥١-١ .

(٢) رأيت بآخرة في كتاب الزينة تأويلا لمعنى القصيد غير هذا فليرجع إليه .

(٣) وقد يقال عندنا (يقطع من رأسه) أي يكذب .

وصف صياغة الشّعر ثمَّ أطلقه المجاز عَلى الشّعر نفسه . وكأن الشّاعر عندهم يقرض الكلمات قرضا ثمَّ ينظمها فِي نطاق الوزن .

هذا ولقد ترى ما فِي لفظي القصيد والقريض من الإراغة إِلى وصف المجهود الَّذي يكون من الشّاعر ، إذا قابلتهما بقولهم (هزج) أي غناء و (رجز) أي حركة . ومنشأ هَذَا المجهود بلا ريب هو ما يعانيه الشّاعر من كلفة التّأليف بين الوزن واللّفظ والقافية . أو قل ما يعانيه من كلفة إبراز الوحدة الكمينة فيهن إِلى حيّز العبارة النّاصعة والبيان الواضح .

هذا ولقد يعيب بعض المعاصرين عَلى الشّاعر العربيّ ما وقع فيه من هَـٰذِه الكلفة ولاسيما كلفة القافية الواحدة ، يزعمون أنّها تجحف بالمعاني من أجل تصيّد الشّاعر للألفاظ المتشابهة الرويّ ، وأنّها تجحف بالنّغم من أجل تكرر جرسها ورتابته . وقد ذكرنا فِي المرشد الأوّل أنّ الشّاعر العربيّ المسلم بمادة اللّغة لا يجد عسرا فِي القافية من حيث هي سجع وروى إذ اللّغة العربيّة غنية بالكلمات متشابهات الأواخر وطبيعية بنينها خصبة بالأسجاع[1] ونزيد ههنا أن دعوى الرّتابة باطلة ، تدلّ عَلى وهمٍ عظيم وفساد فِي الإدراك.

ذلك بأنّ جرس القافية ، كما قلنا من قبل ، ما هو إلا تكييف لرنّة الوزن المجرّد المبنيّ عليه عروض البيت . ومتى كَانَ هَذَا الجرس منبعثا من روى واحد فِي القصيدة الواحدة كَانَ ذلك أدعى إِلى إحكام موسيقاها وإتقانها . ولنرجع مرّة أخرى إِلى ما كنا تمثلنا به من دقات القدم عَلى الأرض وصوت القرع المكفأ وهلمّ جرا ، فنفرغ منه تمثيلا آخر نقرب به مرادنا من دعوى الإحكام والإتقان اللّذين ينشآن من توحيد الروي .

هب الوزن بمنزلة دقّات ما والقافية بمنزلة صوت يصحب هَذِه الدّقات كما قد ذكرنا من قبل ، فإنّ اتّحاد وزن العروض فِي البيت الَّذي تقع فيه ، مَعَ جرسها يجعلهما معًا بمنزلة آلة بعينها تحدث صوتًا بعينه عَلى نسق معلوم . ثمَّ إذا تكررت الأبيات آخذًا بعضها برقاب بعض ، وكل منها فيه ألوان من التّنويع الموسيقي الناشئ من السّكنات والزّحافات

---

(١) المرشد : ١-٢١ .

والحركات والسّكتات بحسب ما وضحناه لك حين تمثلنا بقول جرير :

دَعَوتُـــكَ وَاليَمامَـــةُ دونَ أَهـــلي وَلَــولا البُعــدُ أَســمَعَكَ المُنــادي

كان ذلك كله بمنزلة دفع من التّأليف الموسيقي يشرف عليهن صوت واحد متكرر يكون لهن بمنزلة الإطار ، ويربط بينهن بروابط الوحدة والانسجام ، ويصبغ أنغامهن المختلفة بلونه الواحد المنيف عليهن فإذا أضفت إِلى كلّ هَذَا ما تحدثه ألفاظ التّعبير نفسها من تلوين للحركات والسّكنات بأجراسها وإِيقاعها وأصباغها البيانية تبينت مقدار الرّبط والانسجام والوحدة الَّتي يحدثها اتحاد الوزن والقافية برنينه المتصل المنتظم لجمع ذلك .

ولئن شبهنا تأليف القصيدة كلّه بأوركسترا عامرة بأنواع الأنغام واللّحون ، فإنّ اتحاد الوزن والقافية فِي هَذِه الأوركسترا أشبه شيء بالفرع المملوء حبًّا ، يهزّ به عَلى وتيرة واحدة من لدن شروعها فِي العزف إِلى نهايته ، أو بالنّحاس الَّذي ينقر به كذلك ، أو بالدّفوف الَّتي تقرع عَلى هَذَا النّمط وهلمّ جرا ـ ولن تخلوا أنغام الأوركسترا فِي هَذِه الحال من أن تصحيح بصوت القرع الأجشّ أو النّحاس العنّان أو الدّفوف المتهزّمة ، وعسى ذلك وحده أن يفِي بعنصر الرّبط والوحدة فِي تأليفها كله . وهذا بعد مجرّد تمثيل وتقريب .

ولعمري أنّ من القوافِي لما يكون لَهُ صوت أجشّ كالقرع أو طنّان كالنّحاس أو حنّان كالدّفوف .

قرض الشّعر :

عسى هَذَا الَّذي قدمناه أن يكون قد أوقع فِي نفسك أيّها القارئ الكريم شيئًا مما نراه ، من أن القافية والوزن معًا هما مفتاح القصيدة ، بما يشيعان فِي موسيقاها من وحدة وارتباط .

وإِذ هما كذلك فإنهما وثيقا الصّلة بالمعاني الَّتي تدور فِي قلب الشّاعر وتنبعث من أعماق تجربته إِلى محض البيان . ولقد تذكر أنا أفردنا فِي كتابنا المرشد الأوّل بحثًا مستفيضًا عن طبائع الأوزان طوالها وقصارها وما يرتبط بهن من ألوان المعاني . فالّذي زعمناه هناك نريد أنّ نجعله ههنا أساسًا لزعم آخر قد كنا ألمعنا لك بطرف منه ، وهو أنّ اتّحاد القافية

مَعَ الوزن يحصر دائرة المعاني الَّتي يهم بها الشّاعر فِي نطاق أقل حيّز من نطاق الوزن المجرّد قبل أن تصحبه القافية . ثمّ ضروب التنويع الموسيقي من زحاف إِلى سكنات وحركات وهلمّ جرّا ، يزدن فِي هَذَا الحصر حتى لا تبقى أمام الشّاعر ألا وثبة البيان الَّتي تحيل مدلول موسيقا الوزن والقّافية والزّحاف والحركات والسّكنات والاختلاسات، كلّ ذلك إِلى تعبير ناطق .

وأقول : وثبة البيان ، لأنّ الوزن والقافية وما يتبعهنّ كلّ ذلك فِي الإمكان تصوّره مجردًا غير مصحوب بتجربة الشّاعر . ولنا أن نزعم أن محض القدرة عَلى تصنيع الإيقاع كفيل بأن يهيئ هيكلا ، ذا وزن وقافية وأصناف من الزّخارف النّغميّة ولكن هَذَا الهيكل يكون باردًا خاليًا من الروح هامدًا حتّى تصحبه وثبة البيان المنبعثة من حاق التّجربة والرّغبة فِي التّعبير عنها . ووثبة البيان هَذِه هي ما كَانَ يسمّيه القدماء (نفس الشّاعر) يعنون به الرّوح الَّذي ينتظم رنة نظمه من المطلع ويربط بين سائر أجزاء كلامه ويشيع فيها وحدة عميقة ذات جرس مبين ووحي نافذ .

وإذ بلغنا هَذَا المبلغ فإنّا نجسر فنقول إنّ القصيدة العربيّة شكل وهيكل ذو وحدة تامّة مصدرها إطار موسيقا السنح ونفس حار ينبعث منه هَذَا الإطار الموسيقى حتّى يكون مفتاح التعبير لَهُ ، ووسيلة تأتيه إِلى البيان .

ذلك بأن الشّاعر العربيّ يقبل عَلى القول إقبالا مباشرًا ولا يتكلف التماس الوسائط ، وأعني بهذا أنّه يروم إيصال تجربته إِلى السامع حتى يشاركه السامع فيها مشاركة تامة ، وحتى يصير كأنه هو نفسه قد اجتاز بمراحلها وأحس نشواتها وحرقانها . وهذا المرام من الشّاعر العربيّ يضطره إِلى الصّراحة الصّلتة وإلى أن يكافح نفس سامعه كفاحًا حتى يتّصل بها اتصالًا لا يشوبه شائبة من حجاب .

وإذا الصّراحة طريق عسر ، فإنّ الشّاعر العربيّ قد طلب لها التذليل بإيرادها فِي إطار من الوزن والقوافِي والزخرفة النغمية ممنوع من مادة الموسيقا والغناء . ذلك بأن الموسيقا والغناء مما يحركان النّفوس ويسموان بها ـ يسموان بنفس الشّاعر حتّى يملك الشّجاعة

الَّتي يقوى بها عَلى الصّراحة وعلى مكافحة نفوس السّامعين ، ويسموان بالسّامعين حتّى يتجردوا من حجب الذّاتية إِلى لقاء الشّاعر فِي تجاربه .

والشّاعر يرزم فِي أعماق فؤاده بالموسيقا والنّغم والحركات والسكنات قبل أن تسمع نفسه إِلى طريقة من الوزن والتّقفية . وهذا الأرزام يكون أول مراحل التّعبير وأوّل مراحل الوثبة البيانيّة . ومن طريقه ينتقل الشّاعر من أرض الحجاب الَّذي يكون بينه وبين السّامع المنتظر ، إِلى سموات من الأسفار ، وتصحبه فِي انتقاله هَـذَا نشوة نفسية تزداد عنفا كلّما قارب البيان والإفصاح ـ هَذِه النّشوة النّفسية إنّما هي ضرب من الجذب الروحيّ الَّذي يعتري الكهان والعرافين وأمثالهم من أهل الوجدان والتطلع إِلى الملأ الأعلى .

والشّاعر قد تعتريه هزة الجذب الروحي والنشوة الشّعرية قبل أن تتفتح نفسه إِلى موضوع بعينه . وقد تعتريه بعد أن يصدم نفسه حادث ما أو موضوع ما . فإذا اعترته قبل أن يكون قد استثاره موضوع يعرف أمره ، فإن حالته النفسية تكون فِي ظلام من الانقباض أشبه شيء باليأس الخانق عَلى أنّه وهو فِي هَـذِه الحال ، يدرك إنّما هي إرهاص بالتعبير الَّذي لابد أنّه تاليها . ثمَّ ينكشف عنه الظلام إما رويدًا رويدًا إِلى نور الإفصاح وإما بفجاءة بعد عسر طويل . والغالب عليه فِي هَـذِه الحالة أن يتخبط فِي التماس سبق البيان آخذا آنًا بهذا الوزن وتلك القافية ، وآنًا بهذاك الوزن وهاتيك القافية ، وربّما نظم قصيدة كاملة ثمَّ وجدها لا تحمل كبير معنى من نفسه فاطرحها ولا يزال فِي نحو من هَـذَا العناء حتى يفرج عنه .

والحقّ أن الشّاعر فِي هَذِه الحالة إنّما يكون قد ألمت به دوافع تجارب من الماضي طال اختباؤها حتى إذا حان أوان بروزها اجتذبته بعنفها فلم يجد بدًّا من الانقباض والضجر حتى يستذكرها إِلى أن تشرق عليه واضحة جهيرة . هَذَا وإذا اعترت الشّاعر حالة الجذب بعد حادث بعينه أو موضوع بعينه فالغالب أن يكون اعتراؤها إياه يسير المسّ أولّ الأمر ، ضعيف الإلمام وربما وجد نفسه ينطق برنة الوزن والقافية أو بيت كامل أو عدة أبيات .

وقل أن يتصل لَهُ الإسْماعُ بعد ذلك إِلى أن يستوفِي التّجربة حقّها ، فإذا أعرض بعد ما

تأتي لَهُ أوّلًا فإنّه لابد أن تعاوده دوافع هَذِه التّجربة ولو بعد أمدٍ طويلٍ وتصنع به نحوا مما قدمنا نعته من قبل . وإن لم يعرض ، وأقبل عَلى إيفاء التّجربة حقّها من التّعبير ، فإنّه لابد أن تلمّ به حالة الضّجر والقلق والظلام بعد انقطاع أوائل الأبيات أو أوائل التّعبير عنه . ولا تزال هَذِه الحال تشتد به وهو يلتمس السّبل إِلى البيان حتى يجد مسالكه إليه . ومن هنا تتشابه حالة الجذب فِي مظهريها ـ أي حين تعرو وبلا سابق حادث وحين تعرو بأثر صدمة حادث بعينه أو موضوع .

وعندي أن منشأ هَذَا التّشابه من أن الشّاعر فِي كلتا الحالتين يروم استخراج خبيء تجارب الماضي الَّتي توحي إليه بالبيان . ولعلّ صدمة الحادث المعين أو الموضوع المعيّن إن هي إلا مجرد سبب مباشر لإثارة التّجارب المودعات . وكثير من حالات الجذب تقع فِي طرائق وسط بين مجرد الانبعاث من دون سابق حادث أو مجرّد الاستجابة إِلى صدمة حادث أو موضوع ، من ذلك مثلا أن يتذكر الشّاعر حادثًا مضى ثمَّ يعتريه انقباض ما إِلى أن يقول فيه بيتا أو بيتين . ثمَّ يقطع به . ثمَّ يراجعه القول بعد ذلك .

هذا وإنّ من تجارب الشّاعر ما يندفع به إِلى البيان اندفاعًا . ومنها ما يستسر إِلى حين . ومنها ما يروم مخرجا من سبيل الجهد والإعمال المتواصل وأكثرها يختمر ويتعتّق ويمكث دهورا ثمَّ يحدث فِي نفس الشّاعر ما سبق لي نعته من انقباض وظلام ثمَّ وضوح وانبلاج وإفصاح .

وهذا الوصف كله تقريبيّ لا أزعم أنّه يصدق عَلى أحوال الشّعر جميعها وأراني غير واحد بدا من أن أستثني ضروب القول المتعمّد ، وهو الَّذي يصطلح لَهُ المعاصرون قولهم شعر المناسبات ، إذ الشّاعر لا يصدر فيه عن دافع منبعث من الأعماق ، ولكنما يستجيب إِلى دعوة من الخارج يسخر لها ملكته .

على أنّه حين يجمع أطراف ملكته ويتخير مفتاح التعبير فِي الوزن والقافية ، ويمد بنانات فكرة إِلى شتى قطوف المعاني ، لا يخلو فِي كلّ ذلك من رجعة إِلى ماضي تجاربه ، ومن وثبة إِلى قنن من الخيال . وحينئذ يبطل عامل المناسبة ، ويتلئب التعبير عَلى طريقة

مستقيمة من طرق البيان الأصيل . ومتى تأتي للشاعر ذلك أمكنه أن يصعد بالنّفس الخطابي ، وهو النّفس الغالب عَلى أصناف البيان المتعمد بمعرض المناسبات ، إلى مراقٍ من الإفصاح الرّحب المدى ، الَّذي ربّما استثارهم مبمرعة بأسرها . عَلى أنّه لابدّ من الاحتراس ههنا بأنّ النّظم فِي المناسبات مزلّة أقدام . وربّما وثق الشّاعر بملكيته ثقة أعمته عن حقائق عوامل الأصالة فِي نفسه .. فتكون هجيراه أن يترنم أنغامًا بما أوتيه من ملكة ودربة ، ويحكم نظامًا من المعاني ، ثمَّ لا يصاحب ذلك جميعه عنصر الجذب الرّوحي الَّذي لابد منه لحياة الإطار الموسيقي والعبارة البيانيّة .

وقد كَانَ أحمد شوقي رحمه الله كثيرًا ما يزل هَذَا الزلل ، وتشفع لَهُ مقدرته عَلى النظم والتّنغيم . ولقد سبق لي أن ضربت من ذلك فِي المرشد أمثالا ، ولا أهاب ههنا أن أصف سائر مراثيه بأنها من شعر المناسبات وأنّها خالية من الروح كلّ الخلو لا أكاد أستثني من ذلك شيئًا إلا بيته فِي سعد رحمه الله :

شَـيَّعوا الشَّمسَ وَمالوا بِضُحاها ... وَانحَنى الشَّرقُ عَلَيها فَبَكاها

والصناعة فِي الشّطر الأول لا تخفى إذ ضممه قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس : ١] عَلى أنّها صناعة خفية التكلف ورنّة النغم تشفع لها .

هذا ومما يقارب شعر المناسبات فِي خطورة المرقى ، ومقاربة الزّلل ، شعر المجاريات ، وأحسب أن المجاراة الجيدة لا يقدر عليها إلا ملهم موفق أو تجيء عَلى محض الاتفاق والمصادقة .

ذلك بأنّ الوزن والقافية كما قدمنا لك هما مفتاح للتعبير . فالَّذي يجاري شاعرًا آخر ، إمَّا أن يكون قد اتفق لَهُ ذلك اتفاقًا وإمّا أن يكون قد تعمده . فمن أمثلة الأوّل كلمة أبي الطّيّب :

يا أختَ خير أخٍ يا بنتَ خير أب

فهذه لا يعقل أن يكون هو قد تعمد بها مجاراة أبي تمام حيث قَالَ :

السيف أصدق أنباء من الكتب

ومن أمثلة الثّاني كلمة شوقي :

بسـيفك يعلـو الحـقّ والحـقّ أغلـب

فإنه جاري كلمة أبي الطّيّب :

أغالـب فيـك الشـوقَ والشـوقُ أغلـب

ومحل النظر هو هَذَا الضّرب الثّاني ، لأن الشّاعر الّذي يوافق آخر قبله فِي الوزن والقافية عَلى سبيل الاتفاق والمصادقة ، إنّما يشابهه فِي أمر واحد فقط وهو أنّ كلامه فِي جملته داخل فِي حيز المعاني العاطفية الّتي تشير إليها طبيعة الوزن والقافية كاستشعار البطولة مثلا ـ إذ غير خافٍ أنّ أبا الطّيّب أسبغ عَلى قوله ألوانا من البطولة استشعر ذلك منها وحسبك شاهدًا صريحا قوله :

فـما تقلـد باليـاقوت مشـبهها ومـا تقلـد بالهنديـة القضـب

ولا تصح المجاراة المتعمدة من الضرب الثّاني إلا إذا احتدم جانب العاطفة والروح وغلب عَلى الشّاعر غلبة جعلته يتّخذ من وزن الشّاعر الآخر الّذي هو يجاريه ومن قافيته نموذجها يحتذى ، ومجرى يرتاد فيه مالك تجربته وانفعاله ومقاصد تعبيره . ولا ريب أنّه تصاحب هَذَا النّوع من التّعمد حالة من حالات الجذب شبيهة بما يعانيه الشّاعر حين تظلم نفسه قبيل إشراق الشّعر عليه ، وذلك أنّه بالتماسه للنّموذج يكون كالمتحسس فِي الظلمة . فمتى وقع خاطره عَلى كلمة شاعر بعينها نزلت عنده بمنزلة المفتاح لما يعتلج فِي نفسه . ولا أكاد أمتري أنّ عبدة بن الطبيب قد لاقى عناء من هَذَا الضّرب فِي قصيدته الّتي أولها:

هَـل حَبـلُ خَولَـةَ بَعـدَ الهَجرِ موصـولُ أَم أَنـتَ عَنهـا بَعيـدُ الـدارِ مَشـغولُ

إذا قد نظر فيها إلى كلمة كعب بن زهير :

بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول

ولعلّنا لا نباعد إنّ عددنا هَذَا الفرى من قربان المجاراة أدخل فِي باب الاتفاق والمصادفة منه فِي باب التّعمد البحت الكالح ، الّذي استشهدنا لَهُ بكلمة شوقي فِي مجاراة

المتنبيّ .

ذلك بأنّ المتعمّد تعمدًا بحتًا إنّما يروم مباراة الوزن والقافية بالاجتهاد وقوى الملكة . ولا أشكّ أنّه يرتكب الكلفة والصناعة بادئ أمره . وربّما عمد إِلى ألوان من التدليس بما هو من بضاعة الشّعراء كالافتنان فِي التنغيم والمحسّنات البلاغيّة واصطياد المعاني الشاردة، كلّ ذلك يروم أن يضاهي به ما لابد للشّعر الصّالح منه ، من حرارة النّفس ، واندفاق الطّبع .

وقد يتأتّى للشّاعر المجيد بعد هَذَا التكلّف أن تنفسح بعض آفاق نفسه فيصدق فِي التّعبير ، عَلى أنّ هَذَا إنْ تأتّي إنّما يجيء كالفلتة وفِي الأبيات القلائل وأكثر مجاريات المرحوم أحمد شوقي من هَذَا الضّرب ، كهذه البائية الّتي استشهدنا بمطالعها فإنّها فِي جملتها ليست بشيء وكسينيته الّتي جارى بها البحتري وليته لم يفعل ؟ ومن أغرب ما قرأت من المجاريات كلمة للأديب الغزي أوردها صاحب الخريدة فِي اختياراته ، يجاري بها تائية أبي العلاء الّتي فِي سقط الزند :

هاتِ الحَديثَ عن الزّوْراءِ أوْ هِيتا ... ومَوْقِدِ النارِ لا تَكْرَى بتَكْريتا

وهي كلمته :

أمط عن الدرر الزّهر اليواقيتا ... واجعل لحج تلاقينا مواقيتا

ولا أدري لماذا يطلب المواقيت إذا تيسر التلاقي ، ولكنه أتى من طلب المؤخاة بين الحج والمواقيت فأفسد هَذَا المعنى كلّ الإفساد ، وخور الشّطر الأول لا يخفى عَلى القارئ

فثغرُك اللؤلؤ المبيضّ لا الحجر الـ ... مُسْودّ، لاثمه يطوي السّباريتا

واللثم يُجحف بالملثوم كرّته ... حاشا ثناياك من وَصْمٍ وَحُوشيتا

والمقابلة ههنا بين اللؤلؤ المبيض والحجر السود اجتهاد مرهق . ولعمري لو قد شبّه ثغرها بالحجر الأسود لكان أبلغ ، إذ يسبغ عليه قداسة ونورا ولكنه اندفع مَعَ الطباق ، ورام المقابلة بذكره أن لاثم الحجر الأسود يطوي السّاريت ، وهذا كما لا يخفى معنى

سرقه من أبي العلاء المعريّ ؛ إذ هو كثير الدوران في لزومياته . وما على من يريد لثما من ثغر محبوب أن يطوي إليه السباريت ؟

أَمسَت سُعادُ بِأَرضٍ لا يُبَلِّغُها إِلّا العِتاقُ النَّجيباتُ المَراسيلُ[1]

هذا ولقد جمع خيال الغزيّ رحمه الله ـ اللهم غفرًا ، بل إغرابه حتى أخذ ينعي على الحجر الأسود أنّ الشفاه أجحفت به وأثرت فيه وثغر المحبوب بزعمه يزداد حسنا عَلى اللثم فهو ههنا يربي عَلى الحجر الأسود ، فتأمل هَذَا العنت .

ولعمري أنّ قوله : (اللثم يجحف بالملثوم كرته) آبدة من الأوابد لقساوة عبارتها وخشونتها . وما للكرّ واللثم . ولا أحمد قناع (الملثوم) كما لا أحمد فتلع) يجحف . وأمّا (حاشا) و (وحوشيتا) وما إليها فتذكير لنا بأنه يجاري المعري . وويل للكوادن من مجاراة العراب . وإنما أراد إلى قول المعريّ :

ذَمَّ الوَليدُ ولم أذُمُّمْ جِوارَكُمُ فقال ما أنْصَفَتْ بَغدادُ حوشِيتا
فإنْ لَقِيتُ وَليداً والنَّوى قَذَفٌ يَوْمَ القِيامَةِ لم أُعْدِمْهُ تبْكِيتا

ثم قَالَ الأديب الغزيّ :

قابلت بالشّنب الأجفان مبتسمًا فطاح عن ناظريك السّحر منكوتًا
فكان فوك اليد البيضاء جاء بها موسى وجفناك هاروتا وماروتا
جمعت ضدين كَانَ الجمع بينهما لكل جمع من الألباب تشتيتا
جسماً من الماء مشروباً لأعيننا يضمّ قلباً من الأصلاد منحوتا

وإنما نظر في هَذِه الأبيات إلى قول أبي العلاء :

يا دُرّةَ الخِدْرِ فِي لُجّ السرابِ أرى مُقَلَّداً بعَقيقِ الدّمْعِ مَنْكوتا

إلى آخر ما قاله . ولقد بالغ في التكلف . وإنما سقنا هَذَا الّذي سقناه من تائيّته لنضرب مثلا عَلى المجاراة الّتي يراد بها إظهار الصّناعة فإنّها أكثر ما تؤول إلى نقيض ما يريده صاحبها .

هذا والنّقائض في الشّعر مما يدخل في باب المجاراة المتعمدة كالّذي تجده في مناقضات

---

(١) البيت المذكور من مشهورة كعب بن زهير في مدح الرّسول ﷺ ولم أر وجهًا للاستشهاد به في هذا الموطن . (حسن) .

جرير والفرزدق . غير أنّ هذين كانا يجريان كلامهما مجرى الخطّ وقد سبق لهما قبل المباراة أن حددا لأنفسهما مجال القول ، فإذا استهل أحدهما بوزن ما وقافية ما كَانَ ذلك كالمؤذن لصاحبه بأنّ مجال القول ههنا . فمتى جاراه صاحبه فِي وزنه وقافيته لم يكن بالمبعد كلّ الإبعاد عن طريقة الأسماع الَّتي تنشأ من الانفعال والنّفس العاطِفِيّ الحار . ولقد نرى عند جرير والفرزدق أنّه ربّما عمد أحدهما إِلى مخالفة صاحبه فِي القافية لا فِي الوزن ليجعل ذلك أقرب ما يهم هو بقوله ، من ذلك ما فعله جرير فِي مجاراة الفرزدق إذ يقول :

إِنَّ الَّـذي سَـمَكَ السَّـماءَ بَنـى لَنـا ... بَيتـاً دَعائِمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطـوَلُ

فإنه قد خفض الرويّ لينجو بالقول عن التفخيم إِلى ما هو من طريقه ومذهبه من الوثب والاندفاع . تأمل فِي التّدليل عَلى هَذَا الَّذي نذهب إليه قول الفرزدق :

إِنَّ الَّـذي سَـمَكَ السَّـماءَ بَنـى لَنـا ... بَيتـاً دَعائِمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطـوَلُ
بَيتـاً زُرارَةُ مُحتَـبٍ بِفِنائِـهِ ... وَمُجاشِـعٌ وَأَبـو الفَـوارِسِ نَهشَـلُ
أَحلامُنـا تَـزِنُ الجِبـالَ رَزانَـةً ... وَتَخالُنـا جِنّـاً إِذا مـا نَجهَـلُ

وتأمل بعده قول جرير :

أَخـزى الَّـذي سَـمَكَ السَـماءَ مُجاشِـعاً ... وَبَنـى بِنـاءَكَ فِي الحَضـيضِ الأَسـفَلِ
بَيتـاً يُحَمِّـمُ قَيـنُكُم بِفَنائِـهِ ... دَنِسـاً مَقاعِـدُهُ خَبيـثَ المَـدخَلِ
أَبلِـغ بَنـي وَقبـانَ أَنَّ حُلـومَهُم ... خَفَّـت فَـما يَزِنـونَ حَبَّـةَ خَـردَلِ

ولعمري إذ عمد الفرزدق إِلى التفخيم والرّفع ، فلا شيء أبلغ فِي نقض ذلك من التّحقير والخفض وهذا ما عمد إليه جرير فأجاد .

وقد تجد أحد هذين الشّاعرين ربّما عدل عن وزن صاحبه ورويّه متى بدا لَـهُ أن يغيّر مجال القول نفسه ، فإمّا تبعه صاحبه وإما خالفه . وجرير أبدًا يروم جذب الفرزدق إِلى الوافر والكامل والقوافِي الذلل المنطلقات . والفرزدق أبدًا يجنح إِلى الطّويل وإلى ما يكون جزنا من ضروب الرويّ .

شيطان الشّعر :

هذا ونعود بك أيّها القارئ الكريم إِلى ما كنا فيه من نعت حال الشّاعر حين يروم

القول ويلتمس أسبابه فِي أصناف النّغم الَّذي يصير من بعد مفتاحًا للتعبير وطريقة للبيان والإفصاح .

إن حال الجذب والانفعال الَّتي ترافق تطلع الشّاعر إِلى الإبداع فِي الوزن المناسب والقافية المؤاتية ، هي نفسها الَّتي تصبغ كلامه كلّه بصبغ واحد وتشيع فيه روحًا واحدًا وتجعله ذا نفس واحد متصل ، وهي فِي رأينا سر الوحدة عند الشّاعر العربيّ وجوهر الرّوح العاطفِيّ فِي كلامه ـ تفيض أول أمرها نغمًا صرفًا ثمَّ تتسرب بعد ذلك فِي مسارب القول الناصع .

وقد بينا لك آنفًا أنّ طريقة الشّاعر العربيّ فِي التعبير الجهير المباشر هي الَّتي ألجأته إِلى أن يصعد بنفسه إِلى قمم من الانفعال حتى يقدر عَلى التصريح غير هائب ـ لأنّ همّه الاعتراف ـ وحتى يتقبل السّامعون ذلك من صنيعه قبولا حسنا وهو إذ يصعد بنفسه إِلى علياء الانفعال ، ويهمهم فِي أعماقها بالنغم ملتمسا للتعبير ، يصير كما قدّمنا إِلى شيء من حالة الجذب والهيام ، يرتفع به عن مطلق الفرديّة البشريّة إِلى شيء من البطولة . ولذلك زعمت العرب أنّ الشّاعر يصاحبه شيطان يلقي إليه ، قَالَ سويد بن أبي كاهل :

وَأَتاني صاحِبٌ ذو غَيثٍ ... زَفيانٌ عِندَ إِنفادِ القُرَع

قالَ لَبَّيكَ وَما اِستَصرَختُهُ ... حاقِراً لِلنّاسِ قَوّالَ القَذَع

ذو عُبابٍ زَبَدٌ آذِيُّهُ ... خَمِطُ التَيّارِ يَرمي بِالقَلَع

زَغرَبِيٌّ مُستَعِزٌّ بَحرُهُ ... لَيسَ لِلماهِرِ فيهِ مُطَّلَع

هَل سُوَيدٌ غَيرُ لَيثٍ خادِرٍ ... ثَئِدَت أَرضٌ عَلَيهِ فَانتَجَع

وغير خافٍ ههنا أنّ شيطان سويد هو سويد نفسه بدليل البيت الأخير ، وهذا يقوي ما نزعمه من حالة الجذب ، وقضية شيطان الشّعر معروفة فلا تحتاج إِلى بسط ههنا . وبحسبك شاهدا عَلى إيمان العرب بها أنّ الدين ألمح إِلى مذهبهم هَذَا فِي قوله تعالى :﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء : ٢٢١-٢٢٧] والمنعوتون بالإفك والإثم والكذب ههنا هم الكهان ، ثمَّ أضيف الشّعراء إليهم بسبيل المشابهة والمضاهاة ومنهم من استثنته الآيات كما ترى . وفِي الأثر : أنّ حسّان ابن ثابت أُعين بروح القدس بعد أن أسلم ، وهذا أيضًا دليل عَلى إثبات الهاتف الَّذي يجذب الشّاعر ويجيش فِي صدره .

ويحسن بنا هنا أن نوازن بين مزاعم الفرنجة فِي نسبة الشّعر إِلى (الميرزات) أو (عرائس الشّعر) وبين مزاعم العرب فِي الشيطان والرئي . ألا ترى أن الَّذي تلهمه العرائس جدير أن يكون فِي بيانه ذا ريث وسهل وانفعال بنفسه شيئًا ما عن طبيعة التوضيح الَّذي بصدده، حتى يجيء كلامه نعتًا أو كالنعت لا اعترافًا ولا تصريحًا ، رومًا إِلى إيصال تجربة بعينها إيصالا مباشرًا إِلى نفس السّامع ، ذلك بأنّه من طبيعة المستلهم إِلى العرائس أن يتأملهن ويعجب بهن ويتأتى إليهن وفِي كلّ هَذَا شوق وطرب مَعَ تقية وانفصال .

أمَّا من كان قرينه شيطانًا فإنّه يخالطه مخالطةً لا يدع معه لَهُ انفرادا بنفسه أو انفصالا بذاتها . وعلى هَذَا فإنّ تعبيره يكون ضربة لا زب ألوانا من الاعتراف يتدافعن تدافعًا وينفجرن انفجارًا . فعسى هَذَا التّمثيل أن يعين شيئًا عَلى إدراك بعض حقيقة الفوارق بين مذاهب الشّعر الأفرنجيّ والشّعر العربيّ .

هذا وإذ نحن بصدد الحديث عن شيطان الشّعر ، فقد لا نبعد عن تثبيت معاني ما نحن بمعراضه ، إذا استطردنا بالقارئ شيئًا إِلى نعت بعض شعراء العرب المشاهير بنعوت شياطينهم أليس معلومًا أنّ كلّ شاعر قد كَانَ يدعي لنفسه شيطانًا ؟ أم لم يمر بك كلام سويد بن أبي كاهل من قبل ؟ أم لا تعلم قول حسّان :

وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَيْصَبانِ ... فَطَوراً أَقُولُ وَطَوراً هُوَه

وقول الأعشى :

دَعَوتُ خَليلي مِسحَلاً وَدَعوا لَهُ ... جَهَنّامَ جَدعاً لِلهَجينِ المُذَمَّمِ

فأبو العتاهية مثلا شيطانه من الحنّ بالحاء المهملة وهم أمّة حسيسة من الجنّ شديدة الخبث مَعَ ضعف وتخاذل ، ويخيل لي أن أكثر شياطين الشّعر المعاصر من هَذِه القبيلة . وآية الضّعف والتّخاذل فِي أبي العتاهية أنه تنكّب الجزالة فِي التّعبير بدعوى الزهد ، والنّاس يذكرون أنّه كَانَ زنديقًا وكان جشعًا أحد خلق الله حرصًا عَلى المال ، والَّذي فِي أسلوبه من الركاكة والهجنة لا يخفى . وأحسبه لو لم يتّخذ الزّهد طريقة ما كَانَ لينفق فِي زمان كَانَ يستمع إِلى أبي نواس وبشار ومروان بن أبي حفصة .

ودعبل شيطانه من الجنّ الآبدين سكان الفلوات والغفار الذين يلمون بالناس أحيانًا ليصرعوهم . وقد ذكر الرواة أنّه كَانَ يألف القفار وربّما صاحب جماعة الشّطار واللصوص وربّما قطع الطريق ، وهو في كلّ ذلك يلم بالحضر وما كَانَ يفعل ذلك إلا ليفتك بعظيم أو خليفة بهباء يصمه به آخر الدّهر . وديك الجنّ ، وهو من معاصري دعبل، وقد كَانَ شيطانه من العمار وهم الجنّ الذين يسكنون البيوت ، وقد كَانَ صاحب طريقة من النظم أحسبه سبق بها أبا تمّام لما كَانَ يستعمله من البديع والإغراب . وروى لَهُ ابن رشيق أنّه ألم به دعبل فأنشده قوله :

كأنّها ما كأنّـهُ خَلَـلَ الـخِـ ... ـلَـةِ وَقْـفُ الهَلُـوكِ إذْ بَغَـما

وإنما أراد أن يروعه بهذا ، فأنكره دعبل عليه وسخر منه .

وقد كَانَ ديك الجنّ قبيح المذهب فاجرًا . ويذكر عنه أنّه اتّخذ جارية وغلامًا للذاته ، ثمَّ لما أنست الجارية إِلى الغلام وزنها هو بريبة قتلهما وجعل يرثيهما ليكفر عن ذنبه . وذلك لا يكفره . ولعله نظم مرثيتهما وهما حيان ثمَّ قتلهما بعد ذلك . وحسبك هَذَا من شرّ .

والحسين بن الضّحاك الخليع من العمّار أيضًا إلا أن شيطانه أسكن حالًا وأنعم بالًا من شيطان ديك الجنّ وقد غبر زمانًا طويلا . وقد كَانَ مبتلى بالغلمان وله فيهم أشعار ذكرها صاحب الأغاني غاية فِي الرّفث والخبث . وأعجب كيف غفل النّقّاد المعاصرون عنه واتهموا أبا نواس .

ولك بعد أيّها القارئ الكريم أن تجمح بخيالك فتتمثل لأبي تمّام شيطانًا تظاهر بالإيمان

واتّخذ سمت القضاة ، وهذا ما نعته به ابن رشيق وتتمثل لبشّار شيطانًا من قبيل الغيلان وللبحتريّ عفريتًا سمع القرآن وآمن ، ولأبي الطّيّب آخر من المردة الغضاب يزعم أنّه قويّ أمين[1] ، ولأبي العلاء صاحبا كأبي هدرش إلا أنّه شهد الردّة وانحاز إلى الخوارج وهلمّ جرّا .

حالة الجذب :

لعل ما سبق يوضح مراد العرب من نسبة الشّعر قرناء من الجن يلقونه إلى الشّعراء ، ذلك بأنّهم رأوا ما ينتاب الشّعراء من انفعال ثـمَّ ما يصيرون إليه بعد هَذَا الانفعال من جسارة عَلى الاعتراف والصراحة لا يقدر عليها غيرهم ولا يرومها ولا يتقبل منه ذلك إن فعل ، فلم يجدوا وجهًا من وجوه الرأي يفسّرون به هَذِه الظّاهرة المخالفة لما عليه مألوف الطّبيعة غير أن ينسبوها إلى الجنّ .

وأريد أن أذكرك ههنا بخبر الفرزدق إذ تحداه غلام من الأنصار بقصيدة حسّان بن ثابت الميمية . وسياق الخبر كما ذكره صاحب الأغاني يرويه بسنده إلى إبراهيم بن محمّد بن سعد بن أبي وقاص أنّه قَالَ : (قدم الفرزدق المدينة فِي إمارة أبان بن عثمان . فأتى الفرزدق وكثير عزة . فبينما هما يتناشدان الأشعار إذ طلع عليهما غلام شحب رفيق الأدمة فِي ثوبين ممصرين فقصد نحونا فلم يسلم وقال : أيكم الفرزدق ؟ فقلت مخافة أن يكون من قريش : أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ؟ فقال : لو كَانَ كذلك لم أقل هَذَا . فقال لَهُ الفرزدق: من أنت لا أمّ لك . قَالَ رجل من الأنصار ، ثمَّ بني النّجار ، ثمَّ أنا ابن أبي بكر بن حزم ، بلغني أنّك تزعم أنّك أشعر العرب ، وتزعمه مضر . وقد قَالَ شاعرنا حسّان بن ثابت شعرًا . فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك سنة، فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب كما قيل ، وإلا فأنت منتحل كذّاب ، ثمَّ أنشده :

ألم تسـأل الربـع الجديـد التكلما

---

(١) راجع خبر سيدنا سليمان مع بلقيس ، وفي سورة النمل ، قال عفريت من الجنّ .. إلخ .

حتى بلغ إلى قوله :

وَأَبقى لَنا مَرُّ الحُروبِ وَرُزؤُها ... سُيوفاً وَأَدراعاً وَجَمعاً عَرَمرَما
لَنا حاضِرٌ فَعمٌ وَبادٍ كَأَنَّهُ ... شَماريخُ رَضوى عِزَّةً وَتَكَرُّما
مَتى ما تَرِدنا مِن مَعَدٍّ بِعُصبَةٍ ... وَغَسّانَ نَمنَع حَوضَنا أَن يُهَدَّما[١]
بِكُلِّ فَتىً عاري الأَشاجِعِ لاحَهُ ... قِراعُ الكُماةِ يَرشَحُ المِسكَ وَالدَّما
وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَابنَي مُحَرِّقٍ ... فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِذا اِبنَما
نُسَوِّدُ[٢] ذا المالِ القَليلِ إِذا بَدَت ... مُروءَتُهُ فينا وَإِن كانَ مُعدِما
وَإِنّا لَنَقري الضَيفَ إِن جاءَ طارِقاً ... مِنَ الشَحمِ ما أَمسى صَحيحاً مُسَلَّما
لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى ... وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

فأنشد القصيدة وهي نيف وثلاثون بيتًا وقال لَهُ قد أجلتك فِي جوابها حولا . فانصرف الفرزدق مغضبًا يسحب رداءه . وما يدري أنّه طرفه حتى خرج من المسجد . فأقبل عَلى كثير فقال لي : قاتل الله الأنصاري ما أفصح لهجته وأوضح حجته وأجود شعره فلم نزل فِي حديث الأنصاري والفرزدق بقية يومنا . حتى إذا كَانَ من الغد خرجت من منزلي إِلى المسجد الَّذي كنت فيه بالأمس فأتى كثير فجلس معي وإنّا لنتذاكر الفرزدق ونقول : ليت شعري ما صنع إذ طلع علينا فِي حلة أفواف قد أرخى غديرته حتى جلس فِي مجلسه بالأمس ثمَّ قَالَ : ما فعل الأنصاريّ . فنلنا منه وشتمناه فقال ، قاتله الله ، ما منيت بمثله ، ولا سمعت بمثل شعره . فارقته وأتيت منزلي فأقبلت أصعد وأصوب فِي كلّ فنّ من الشّعر ، فكأني مفحم لم أقل شعرًا قط . حتى إذا نادى المنادي بالفجر رحلت ناقتي وأخذت بزمامها حتى أتيت ريانا[٣] وهو جبل بالمدينة ثمَّ ناديت بأعلى صوتي (أخاكم أخاكم) يعني شيطانه فجاش صدري كما يجيش الم فعقلت رجل ناقتي وتوسدت ذراعها

(١) في الأغاني : ١٩/ ٣٨ – يسود ذا المال .
(٢) في الأغاني : ٨/ ١٨٩ تزرنا وفي ديوانه على اختلاف طبعاته : تَزُرْنا ـ بعصبة .
(٣) هكذا وما أكثر ما يصرف غير المصروف .

فما قلت حتّى قلت مائة بيت من الشّعر وثلاثة عشر بيتًا فبينا هو ينشد إذ طلع الأنصاريّ حتى إذا انتهى إلينا سلم علينا ... إلخ الخبر[١] .

فبينما هو ينشد إذ طلع الأنصاري حتى إذا انتهى إلينا سلم علينا ...إلخ الخبر[٢] .

وأذكر لك أيضًا خبرًا شبيهًا بهذا عن جرير ـ قَالَ صاحب الأغاني[٣] : أخبرني علي بن سليمان قَالَ : حدثنا أبو سعيد السكريّ عن الرّياشي عن الأصمعي قَالَ : وذكر المغيرة بن حبناء قَالَ : حدثني أبي عن أبيه قَالَ : كَانَ راعي الإبل يفضي للفرزدق عَلى جرير وبفضله وكان راعي الإبل قد ضخم أمره وكان من شعراء النّاس . فأمّا أكثر من ذلك خرج جرير إلى رجال من خزمة فقال : هلا تعجبون لهذا الرجل الّذي يقضي للفرزدق عَلَيّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم . قَالَ جرير : فضربت رأيي فيه . ثمّ خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته وقال : والله ما يسرني أن أعلم أحدًا . وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها . فخرجت أتعرض لَهُ لألقاه من حيال حيث كنت أراه يمر إذا انصرف من مجلسه . وما يسرني أن يعلم أحد . حتى إذا هو قد مرّ عَلى بغلة وابنه جندل يسير وراءه عَلى مهر لَهُ أحوى محذوف الذّنب وإنسان يمشي معه يسأله عن بعض السبب . فلما استقبلته قلت : مرحبًا بك يا أبا جندل . وضربت بشمالي عَلى معرفة بغلته . ثمّ قلت : يا أبا جندل : إن قولك يستمع ، وإنّك تفضل الفرزدق عَلَي تفضيلا قبيحًا وأنا أمدح قومك وهو يهجوهم ، وهو ابن عمي ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول : كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة . قَالَ : فبينا أنا وهو كذاك واقف عَلَيّ وما رد عليّ بذلك شيئًا حتى لحق ابنه جندل ، فرفع كرمانيّة معه فضرب بها عجز بغلته ، ثمّ قَالَ : لا أراك واقفا عَلى كلب من بني كليب كأنّك تخشى منه حرًا أو

---

(١) الأغاني : ١٩/ ٣٨-٣٩ وفيه : قاتل الله الأنصار ما أفصح لهجتهم .. ولا يستقيم المعنى بذلك ، إنما الصواب المفرد .

(٢) الأغاني : ١٩/ ٣٨-٣٩ وفيه : قاتل الله الأنصار ولا يستقيم المعنى بذلك . إنما الصواب المفرد .

(٣) نفسه : ٧/ ٤٦ .

ترجو منه خيرًا . وضرب البغلة ضربة فرمحتني رمحة وقعت منها قلنسوتي . فوالله لو يعرج عَلى الراعي لقلت سفيه غوى يعني : جندلا ابنه ولكنه والله ما عاج عَلى فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثمَّ أعدتها عَلى رأسي ثمَّ قلت :

أجنـــدَلُ مـــا تقـــولُ بنـــو نمـــيرٍ إذا مـــا الأيـــرُ فِي اســـتِ أبيـــكِ غابـــا

فسمعت الراعي قَالَ لابنه : أما والله لقد طرحت قلنسوته طرحة مشترمة قَالَ جرير ، لا والله ما القلنسوة بأغيظ أمره إِلى لو كَانَ عاج علي . فانصرف جرير غضبان . حتّى إذا صلى العشاء بمنزله فِي عليه لَهُ ، قَالَ : ارفعوا لي باطية من نبيذ وأسرجوا لي . فأسرجوا لَهُ وأتوه بباطية من نبيذ . فجعل يهمهم . فسمعت صوته عجوز فِي الدّار . فاطّلعت الدّرجة. حتّى نظرت إليه فإذا هو يحبو عَلى الفراش عريان[1] لما هو فيه . فانحدرت فقالت : ضيفكم مجنون ، رأيت منه كذا وكذا . فقالوا لها : اذهبي لطيتك نحن أعلم به وبما يمارس . فما زال كذلك حتى كَانَ السحر . ثمَّ إذا هو يكبر ، قد قالها ثمانين بيتًا فِي بني نمير . فلما ختمها بقوله:

فَغُـــضِّ الطَّـــرفَ إنَّـــكَ مِـــن نُمَـــيرٍ فَـــلا كَعبـــاً بَلَغـــتَ وَلا كِلابـــا

كبر ثمَّ قَالَ : أخزيته ورب الكعبة . ثمَّ أصبح حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا فِي مجالسهم بالمربد وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا بدهن فادهن إِلى آخر الخبر . والخبر الأول فيه مصداق بعض ما ذكرناه لك آنفًا من أن الشّاعر قد يعتمد إِلى القول فتضيق نفسه ويضطّرب فكره ويضجر وتأخذه السآمة ثمَّ يصير إِلى ضرب من الجنون العصبي ثمَّ يفتح عليه آخر الأمر . واستنجاد الفرزدق بشيطانه نص فِي هَذَا الباب . ثمَّ ما قد ذكرناه بادي بدئ من أنّه رام فنون الشّعر فأعيت عليه . ولعلّه إنّما حاول ألوانا من الأوزان ، حتى فتح عليه آخر الأمر بالطّويل وبالفاء المرفوعة المطلقة . والخبر الثّاني فيه مصداق أيضًا لبعض ما ذكرناه آنفًا . وذلك أنّ الشّاعر فتح عليه منذ البدء بمفتاح تعبيره وهو الوافر والباء المفتوحة المطلقة فِي قوله :

أجنـــدل مـــا تقـــول بنـــو نمـــيرٍ إذا مـــا الأيـــر فِي اســـت أبيـــك غابـــا

(١) يجوز أنه نعت مقطوعٌ ، وإلا فالوجه صرفه.

ثم كما ترى عاد إِلى منزله ، وجعل يهمهم ويزمزم واعترته حالة الجذب وضاقت نفسه حتى تعرى من ثيابه ثمَّ اتلأب به منهاج القول .

واتفق الشّاعران فِي كلتا الحالين فِي طلب الخلوة . والحقّ أنّ حال الجذب نفسها تضطّر الشّاعر إِلى الخلوة والتأبّد المطلق . ومن ههنا زعم النّاس لَهُ مصاحبة الرئي . وليس السرّ فِي لب الخلوة هو طلب التروي وحده فمن النّاس من يروض نفسه عَلى التروي بحضور غيره. من ذلك ما يفعله كثير من المؤلفين . ولا يخالجني أدنى شك فِي أنّ أبا العلاء المعرّي قد كَانَ يدير شعره فِي نفسه مرّات قبل أن يمليه . وقد كانت خلوات ذلك الرّجل الفذّ أكثر من لقائه النّاس ، كما أنّه قد كَانَ بينهم بمنزلة الملك إذا أراد أن ينصرف الناس عنه انصرفوا .

وإنّما السرّ فِي طلب الخلوة هو الحرص عَلى الشواغل والانصراف الكامل إِلى النفس واستخراج مخزونها المغيب الَّذي يضن به صاحبه عن كلّ مشاهد .

وأكاد أزعم أنّه ليس من عمل للإلهام فيه نصيب ، إلا وصاحبه يؤثر العزلة التّامة ، ومن أجل ذلك غرى الأنبياء بالخلاء قبيل دعواتهم . وللكاتب المؤرّخ الإنجليزي توينبي فصل جيد فِي كتابه (دراسة فِي التّاريخ) أفرده لأهمية العزلة بالنّسبة للإنتاج جميعه . هَذَا والشّاعر العربيّ ، لشدة ما يلم به من حالة الجذب ، من أشدّ الخلقِ حاجة إِلى العزلة وحاجته إليها أشدّ من حاجة النّاثر وما بمجراه ولا شكّ أن النّاثر ومن بمجراه قد يكفيهم أن يتيسر لهم جو الروية ولو فِي غير عزلة تامة . والَّذي يروى عن أحمد شوقي من أنّه كَانَ ينظم فِي كلّ مكان مما يقوي عندنا أنّه كَانَ يندفع إِلى الصناعة كثيرًا ، عَلى قوة ملكته وإجادته الَّتي لا تنكر وأحسب أيضًا أن كثيرًا مما نظمه صاحب اللزوميّات ليوفي به شروط ما التزم به أو يتم به بعض الأبواب ، لم يخل فيه إِلى نفسه كثيرًا ، كسائر ما فِي الطائيّات والشينيّات وهلمّ جرّا .

ويعجبني قول ابن قتيبة فِي الشّعر والشّعراء : وللشّعر أوقات يسرع فيها آتية ، ويسمح فيها أبيه . منها أول اللّيل قبل تغشي الكرى . ومنها صدر النّهار قبل الغداء . ومنها يوم شرب الدّواء . ومنها الخلوة فِي الحبس والمسير[1] . والَّذي يعجبني من قول ابن قتيبة هَذَا،

---

(١) الشّعر والشّعراء طبعة لندن ص ١٩ .

أنّه بفكره النّافذ الثّاقب قد تنبه إِلى أن قرض الشّعر لا يتأتّى إِلّا مَعَ العزلة ، ولما كَانَ هو فِي ذات نفسه ليس بشاعر ، فإنه افترض أن الشّاعر إنّما تتأتى لَهُ العزلة فِي الأوقات الَّتي تتأتى فيها لسائر النّاس من أهل زمانه ، كأوّل اللّيل ، وصدر النّهار إِلى آخر ما قاله . ولا يفوتنك ذكر الحبس ، فهو يدل عَلى أن الفضلاء كانوا أحسب عصرنا هَذَا أرحب صدرًا بالفضلاء أو أقلّ فجورًا عليهم ، وأفضل النّاس أغراض لذا الزمن ، كما قَالَ أبو الطيب[1] .

هذا وقد خفي عن ابن قتيبة أن الشّاعر لا ينتظر أن تتأتى لَهُ ظروف العزلة الَّتي تتأتى لغيره من سائر الناس ، ولكنه يصنع العزلة لنفسه صنعًا عندما يحس بدافع الشّعر . وذلك بأن ينفر من النّاس كما ينفر الوحش أو يختفِي كما يختفِي ذو الجريرة . ولقد يكره حينئذ مقدم الزور الكريم وإيناس الصّاحب الحميم . والشّاعر فِي هَذِه الحال أحوج ما يكون لمن يعطف عَلى حاله ، ويعينه بالتّخلية عَلى أن يعتزل كما يشاء ، ويهيئ لَهُ فِي عزلته ما عسى أن يرغب إليه من حاجة الطّعام والشّراب . وقصة جرير الَّتي مرت آنفًا نص فِي هَذَا الَّذي نراه ـ إذا قد أمر بنبيذ يعد لَهُ ، وسراج يوقد ، ثُمَّ اعتزل وتعرى وجعل يهمهم كمن أصابه مس من الجن ، حتى فزعت العجوز من أمره .

ولا ينبغي بعد أن يصرفنا درك هَذِه الحقيقة عن أن نعترف لابن قتيبة بما وفق إليه من دقة الحدس ونفاذ البصيرة . وإنّي لأعجب من بعض نقّاد العصر إذ يتهمون ذلك العالم النّاقد القدير بالسّطحيّة وما إليها . ولعمري لو فطنوا إِلى أن الرجل كَانَ رأس مدرسة وكان يقرن بالجاحظ فِي أهل عصره ، لتريّثوا شيئًا قبل أن ينبروا إِلى الحطّ من قدره . وأرى حقًّا عَلى أن أذكر فِي هَذَا الموضع أن مقدمته للشّعر والشّعراء من أجود ما كتب فِي النقد فِي العربيّة ، وما فتئنا ـ تلامذة الأدب ـ عالة عَلى كثير من فصولها المفعمة القصار . وهذا أوان نعود إِلى ما كنا فيه.

الخاتمة :

بقيت من هَذَا البحث فصول قد تخرج بنا إِلى الإطالة فِي مقام هَذِه الكلمة ، وقد تناولنا فيها منزلة الشّاعر ثُمَّ ختمناها بما نرى من مذهب الوحدة بين الوزن والقافية والرّوح والأغراض فِي القصيدة ونأمل أن نوافق بها فِي غير هَذَا المقام .

---

(١) راجع مقالة برتراند رسل في هذا الباب .

جـ ــ الأوصاف والكنايات فِي الشّعر العربيّ [1]

مرادي بالأوّصاف نحو قول امرئ القيس الكنديّ :

وقـد أغتـدي والطـيرُ فِي وكنَاتها بمنجـردٍ قيـدِ الأوابـدِ هيكـلِ

وقد تعلم أنّ النّقاد عدوا إصابة الوصف من محاسن الشّعر ، وقد عابوا قول أبِي ذؤيب يصف الفرس :

تَعدو بِـهِ خَوصـاءُ يَفصِـمُ جَريُها حَلَـقَ الرِّحالَـةِ فَهِـيَ رِخـوٌ تَمـزَعُ

قَصَرَ الصَّبوحَ لَهـا فَشَرَّجَ لَحمَها بِـالنَيِّ فَهِـيَ تَثـوخُ فيهـا الإِصبَعُ

وعابوا قول امرئ القيس : (فللسّاق ألهوب وللسّوط درة) فِي القصيدة الَّتي احتكم بها، يساجل علقمة ، إلى أم جندب ... وها باب فسيح والوصف أكثر ما يقع فِي الشّعر وسيلة يعبّر به عن ألوان من الانفعالات والعاطفة والوجدان ... فقول ابن الرّقاع مثلًا يصف ولد الظبية :

تَزجـي أغَـنَّ كَـأَنَّ إِبـرَةَ رَوقِـهِ قَلَـمٌ أصـابَ مِـنَ الـدَواةِ مَـدادَها

فيه تسجيل لإحساس أحسّه تجاه القلم إذ يغمس فِي الدّواة ... وقد كَانَ رحمه الله يكتب شعره ويراجعه وينقّحه ، ويدلّك عَلى ذلك قوله :

وقصـيدة قـد بـت أجمـع شـملها حتّـى أقـوّم ميلهـا وسـنادَها

نظـر المثقّـف فِي كعـوب قناتـه حتّـى يقـيم ثقافـه منآدهـا

وقول ثعلبة بن صعير فِي ناقته :

وتبيـتُ مـن بعـدِ الكـلال كأنّها فـدن ابـن حيّـة شـاده بـالآجر

فيه تسّجيل لإعجاب أعجبه بهذا الفدن الَّذي بناه ابن حيّة من الآجر ... وقول امرئ القيس :

---

(١) البحث بعنوانه عبارة عن محاضرةٍ ألقيت بلا كتابة ، بجامعة البصرة ، فِي الأربعاء ٢٢/ ١١/ ١٩٦٧م. وانظر ؛ المؤتمر ، الدّورة ٣٤، الجلسة ٧، والبحوث والمحاضرات ص ٢٨١. (حسن) .

كَأَنَّ عُيونَ الوَحشِ حَولَ خِبائِنا ... وَأَرجُلِنا الجَزعَ الَّذي لَم يُثَقَّبِ

كأنه يذكر به عهد فتاة بعينها بآية ما قَالَ فِي المعلّقة :

فأعرضنَ كالجزع المفصَّل بينَهُ ... بجيد مُعَمٍّ فِي العشيرةِ مُخوَل

وقد كَانَ أبو الطّيّب رحمه الله يصف فتحس فِي الَّذي يصفه اندفاعه هو وحيويّته هو ، كقوله :

وَتُضحي الحُصونُ المُشمَخِرّاتُ فِي الذُرى ... وَخَيلُكَ فِي أَعناقِهِنَّ قَلائِدُ

فحركة الخيل والنّظرة المتحركة إِلى الحصون الثّوابت هي الَّتي تحسها ههنا ... ونحو من ذلك قوله :

كُلَّما رَحَّبَت بِنا الرَّوضُ قُلنا ... حَلَبٌ قَصدُنا وَأَنتِ السَبيلُ

وقوله فِي نونيّة شعب بوان :

غَدَونا تَنفُضُ الأَغصانُ فيها ... عَلى أَعرافِها مِثلَ الجُمانِ

لَها ثَمَرٌ تُشيرُ إِلَيكَ مِنهُ ... بِأَشرِبَةٍ وَقَفنَ بِلا أَواني

وتكاد تحسّ حوافر الحصان وهو يناقل بأبي الطّيّب ههنا ..

والبحتريّ رحمه الله كَانَ يحسن تصوير الانفعالة الخافقة ... كقوله فِي الطّيف :

وافى فأسعف بالتّحيّة خلسةً ... والشّمس تلمع فِي جناحى طائر

وقوله يذكر الشأم :

حَنَّت قلوصي بِالعِراقِ وَشاقَها ... فِي ناجِرٍ بَردُ الشَآمِ وَريفُهُ

وَمَدافِعُ السّاجورِ حَيثُ تَقابَلَت ... فِي ضِفَّتَيهِ تِلاعُهُ وَكُهوفُهُ

والشد ههنا : الخفقة الَّتي فِي إحساس الشّاعر بلمع الضّوء عَلى جناح الطّائر وفِي إحساسه بروعة مدافع السّاجور حيث تقابلت قلاعه وكهوفه ... ونحو من هَذَا قوله :

حَتّى تَجَلّى الصُبحُ فِي جَنَباتِهِ ... كَالماءِ يَلمَعُ مِن وَراءِ الطُحلُبِ

وقوله فِي السّينيّة :

قَـــد سَـــقاني وَلَمْ يُصَرِّد أَبـــو الغَـــو ... ثِ عَـــلى العَســـكَرَينِ شَربَـــةَ خُلـــسِ

وَالمَنايـــا مَواثِـــلٌ وَأَنـــوشَر ... وانَ يُزجـى الصُـفوفَ تَحتَ الـدِّرَفسِ

وقد حاول ابن الروميّ إدراك غبار البحتريّ فلم يستطع ، والفنّ ملكات وإلى الله تصير الأمور .

هذا :

وقد كَانَ الشّعر ديوان العرب . وقد وصفت العرب بيئتها : ما كَانَ منها من سهل ورمل وقُفٍّ وجبال وأنهار ووديان ورياض وزروعٍ ، قَالَ الهذليّ يصف الجبل :

مـــن فوقـــه أنسرٌ بـــيضٌ وأغربـــةٌ ... وتحتـــه أعنُـــزٌ كلُـــفٌ وأتيـــاس

وقال لبيد يذكر السريّ والغابة :

فَتَوَسَّـطا عُـرضَ السَّرِيِّ وَصَـدَّعا ... مَســـجورَةً مُتَجـــاوِراً قُلّامُهـــا

وقال زهير يذكر الزروع والسّانية والنّاضح :

كَـــأَنَّ عَينَـــيَّ فِي غَـــربَيّ مُقَتَّلَـــةٍ ... مِـنَ النَّواضِـحِ تَسـقي جَنَّـةً سُـحُقا

تَمطـو الرِّشـاءَ فَتَجـري فِي ثِنايَتِهـا ... مِـنَ المَحالَـةِ ثَقبـاً رائِـداً قَلِقـا

الأبيات .

ووصفت صورًا حيّة من مشاهد حياتها كقول أوس بن حجر فِي البائسة :

وَذاتُ هِـــدمٍ عـــارٍ نَواشِرُهـــا ... تُصـمِتُ بِالمـاءِ تَولَبًـا جَـدِعا

أي سيئ الغذاء . والتّولب فِي الأصل : ولد الحمار وقد عابه عليه بعض المتأخّرين وليس بشيء .

وقول شبيب بن البرصاء يذكر صاحبته :

إذا المُرضِـعُ العَوجـاءُ بِاللَّيـلِ عَزَّهـا ... عَـلى ثَـديِها ذو وَدعَتَـينِ لَهـوجُ

ووصفت صورًا من مجتمعها أصنافًا ، كصورة النّائحة الّتي فِي شعر هذيل ينعي لها

واحدها فتهب إلى سبت تلطم به حرَّ وجهها . وإليها أشار كعب بن زهير إذ قَالَ :

كَأَنَّ أَوبَ ذِراعَيها وَقَد عَرِقَت وَقَد تَلَفَّعَ بِالقورِ العَساقيلُ

أي قد لبست الآكام السراب .

شَدَّ النهارُ ذِراعا عَيطَلٍ نَصَفٍ قامَت فَجاوَبَها نُكدٌ مَثاكيلُ

نَوّاحَةٌ رَخوَةُ الضَّبعَين لَيسَ لَها لَمّا نَعى بِكرَها النّاعونَ مَعقولُ

والصّفات الّتي ذكر العرب بعد كثيرات .. ولم تكن إذا وصفت شيئًا إلّا وهي تعمد إلى ضرب من الاتّحاد معه : فعل ذلك الشّماخ[1] إذ يقول في القوس :

نَمَت فِي مَكانٍ كَنَّها وَاِستَوَت بِهِ فَما دونَها مِن غيلِها مُتَلاحِزُ

فَما زالَ يَنجو كُلَّ رَطبٍ وَيابِسٍ وَيَنغَلُّ حَتّى نالَها وَهوَ بارِزُ

إلى أن أنطق القوس وأحياها في قوله :

إِذا أَنبَضَ الرّامونَ عَنها تَرَنَّمَت تَرَنُّمَ ثَكلى أَوجَعَتها الجَنائِزُ

وقد فاضت عينه لمّا وافى الموسم ففارقها .

هذا وفعل ذلك امرؤ القيس في المعلّقة إذ اغتدى والطّير في وكناتها بحصانه الّذي كالهيكل ثمَّ أراناه وهو يعدو :

مكرٍّ مفرٍّ مدبر مقبلٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ

ثمّ أراناه وهو قائم غير مرسل والشّاعر به معجب وعليه عاطف ونفسه به موصولة أو كما قَالَ :

متى ما ترقّ العين فيه تسهّل

وفعل ذلك طرفة ، فِي نَعْتِهِ نَاقَتَه الَّتي كأنها تزهو بزهوه هو وذلك حيث يقول :

---

(١) كان الشّمّاخ من المخضرمين شديد التّقليد للأوّلين وكان ابن أحمر وابن مقبل مثله وكأن مذاهبهم في النّظر إلى الأوائل قد كانت تمهيدًا للرّاعي وذي الرّمة من بعد ... وهم كانوا (أعني الشّمّاخ والمخضرمين) ساقة الجاهلين ، إلا أنّ زائيته وجيميته مما أجمع النّقاد على تقديمه .

وَإِنّي لَأَمضي الهَـمَّ عِنـدَ احتِضـارِهِ ... بِعَوجـاءَ مِرقـالٍ تَـروحُ وَتَغتَـدي

ثم بعد أن فصل نعتها قَالَ :

أَحَلـتُ عَلَيهـا بِـالقَطيعِ فَأَجـذَمَت ... وَقَـد خَـبَّ آلُ الأَمعَـزِ المُتَوَقِّـدِ

فَـذالَت كَـما ذالَـت وَليـدَةُ مَجلِسٍ ... تُـري رَبَّهـا أَذيـالَ سَـحلٍ مُمَـدَّدِ

وقد وصف امرؤ القيس الظّعائن فشبههن بالدّوم والنّخيل ... وفصّل صفة النّخيل ، ورجع فِي ذلك بذاكرته إِلى عهد بعيد ... عهد كَانَ بأرض بني دارم ينظر إِلى البسر الأحمر الَّذي مثّله بثديّ الكواعب :

فَشَـبَّهتَهُم فِي الآلِ لَـمّا تَكَمَّشـوا ... حَـدائِقَ دومٍ أَو سَـفيناً مُقَـيَّرا

أَوِ المُكرَعـاتِ مِـن نَخيـلِ اِبـنِ يـامِنٍ ... دُوَيـنَ الصَّـفا اللائـي يَلـينَ المُشَـقَّرا

سَـوامِقَ جَبّـارَ أَثيـثٍ فُروعُـهُ ... وَعـالَينَ قُنوانـاً مِـنَ الـبُسرِ أَحمَـرا

حَمَتـهُ بَنـو الرَّبـداءِ مِـن آلِ يـامِنٍ ... بِأَسـيافِهِم حَتّـى أَقَـرَّ وَأَوقَـرا

وَأَرضى بَنـي الرَّبـداءِ وَاعـتَمَّ زَهـوُهُ ... وَأَكمامُـهُ حَتّـى إِذا مـا تَهَصَّرا

أَطافَـت بِـهِ جَـيلانَ عِنـدَ قِطاعِـهِ ... تُـرَدِّدُ فيـهِ العَـينَ حَتّـى تَحَـيَّرا

ولا يخفى الاتصال الكامل بين الشّاعر والنّعت الَّذي ينعته فِي هَـٰذِه الأبيات . ثـمَّ قَـالَ فداخل بين صورة النّخل وصورة الظّعائن :

كَـأَنَّ دُمـى سَـقفٍ عَـلى ظَهـرِ مَرمَـرٍ ... كَسـا مُزبِـدَ السـاجومِ وَشـياً مُصَـوَّرا

غَرائِـرُ فِي كَـنٍّ وَصَـونٍ وَنِعمَـةٍ ... يُحَلَّـينَ ياقوتـاً وَشَـذراً مُفَقَّـرا

هذا ، وقد بلغ من إخلاص العرب للنّعت أنهم اتّخذوا من الكلمة مادة يصنعون منها صورًا وتماثيل ، كما أنّ غيرهم من الأمم السّالفات كانت تصنع صورًا وتماثيل من الخشب والحجر والألوان والأصباغ وقد يبدو أوّل الأمر أنّ قلة حظّ العرب من الصّنائع هو الَّذي حداهم إِلى ذلك . وإنّما كَانَ جهد ما يستطيعون من البناء لا يتعدى نصب الخيام وإقامة الأثافِي ... وعندي أنّ هَـٰذَا الظنّ خاطئ ، وذلك أنّ العرب لم يكونوا كلهم بدوًا ولكن كانوا أهل بوادٍ وقرى . وقال تعالى : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] ثمَّ إنهم

كانوا أهل حضارة قديمة أصيلة بعيدة الأغوار فِي الأزمنة المواضي . وقد قَالَ جلَّ وعزّ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ﴾ [الروم : ٩] .. أمثال عاد وثمود وقوم تبع . وكانت لليمن حضارة قديمة عاصرت أيّام بابل ومصر ولا يغلو الظنّ أن مال إِلى أنّها قد كانت ذا الأثر الأوّل العظيم الباقي فِي تكوين العرب ... وهذا باب لرجال التّأريخ فيه مجال إن شاء الله .

وقد كَانَ التّوحيد معروفًا عند العرب منذ دهور قديمة . وفِي القرءان أنّ نبي الله هودًا عليه السلام دعا قومه إِلى التّوحيد وهو أسبق من زمان إبراهيم .

وما أشبه أن يكون هَذَا التّوحيد القديم العميق الَّذي خلص فِي بقاياه إِلى من كانوا يسمون بالحنفاء قبيل الإسلام كَانَ يحارب الوثنيّة القديمة العميقة ، فأحدث ذلك فِي العرب انصرافًا عن صناعات الصّور . ولم يكن ذلك من ضعف منهم كَانَ فِي الصّناعة فقد بنوا المصانع والأفدان الباذخات فِي اليمن . وقد جاء فِي خبر سليمان أن صاحبة سبأ قد كَانَ لها عرش عظيم . وقد كَانَ زمان سليمان وملكة سبأ سابقًا لزمان كورش أوّل ملوك فارس الأوّلين بزمن طويل إذ أنّ هَذَا إنما ظهر أمره بعد خراب بابل الأخيرة .

ومما يقوي حدسنا هَذَا أنّ اليهود وهم أمّة توّحيد قد آثروا الكلمة عَلى الصّناعات وشواهد ذلك بينة فِي التّوراة حتى أنّ السّفر الَّذي عن سليمان يعيب عليه أنّه أخذ ببعض الوثنيّة . هَذَا وعسى مزيد من درس الحضارة اليمنيّة القديمة ومعرفة أوثانها أن يهدينا إِلى تفسير كثير من أسرار الشّعر القديم وصفه ونسيبه .

هذا ، ولا يخفى أنّه حين يتصل الشّاعر اتصالًا قويًّا بالنّعت الَّذي ينعته ، لا يخرج هَذَا النّعت فِي جملته عن معنى الرّمز والكناية ، ومن ههنا تكون قوة تأثيره ، ومن أجل هَذَا نزعم أنّ معرفة الأصل الوثنيّ القديم الَّذي بنى عليه ـ ولعلّنا بعد واجد وكثير من شواهده فيما استقصاه لنا علماء الفقه والحديث والتّفسير وشرّاح الشّعر الأوّلون ـ لابد معيننا عَلى فهم حقيقته ، وإدراك جوهر الوحدة الَّذي ينتظم ما يظهر منه للنّقد غير المتعمّق أنه غير متحد ولا مترابط ، والله تعالى أعلم .

وعسى أن نتساءل ههنا ماذا عسى أن يكون الإسلام وهو أقوى تعبير عن التّوحيد بأسره وأوضحه قد صَنَعَ برمزيّة الوصف الوثنيّ الجاهليّ[١] بعد أن طوح هو بأصلها كل التطويح . والجواب عن هَذَا لابد فيه من بحث وتنقيب وتدقيق . ونحن فِي هَذِه الكلمة لا نطمع أن نبلغ إلا يسيرًا مما يجري مجرى التّخمين والاقتراح .

وحسبنا هنا أن نجتزئ بالحديث عن سبعة أشياء مما كَانَ يصف الشّعراء الأقدمون يكنون بها عن أنفسهم وعمّا يحنون إليه من دار وحبيب أو ما يرمزون إليه بالدّار والحبيب من آراب . وهنَّ الثور والبقرة (واجعلهما كشيء واحد) والحمار الوحشي والظليم والنّاقة والحصان والحديقة والحبيبة ، والحبيبة فِي الحقيقة هي جماع هَذَا كله وغايته ، والشّاعر يجعلها جزءًا من نفسه وامتدادًا لها وكلام ابن قتيبة رحمه الله فِي مقدمته عن النّسيب (الشّعر والشّعراء) يدل عَلى هَذَا دلالة واضحة أو كأنّه نصٌّ صريح عليه ، والله تعالى أعلم .

أمَّا الثّور والبقرة والحمار الوحشي والظّليم فقد اختفت أو كادت من أكثر قصائد الإسلاميين الطّوال من أمثال جرير والفرزدق وكثير (فِي مدائحه) والأخطل والقطاميّ . وقد ألحَّ عليها غيلان والرّجّاز وأضرابهم من الألى كانوا يُسَمّوْنَ أو كانوا هم يُسَمُّونَ أنفسهم بالنحويّين . وليس إلحاح هؤلاء يناقض ما قدّمناه إذ كَانَ جهدهم فيه التّعمد إِلى التلذّذ بمذاهب الجاهليّة وفِي الأوصاف الَّتي يصفونها ما تجده كأنّه هو شرح وتفصيل وتفسير لما وقع فِي أوصاف القدماء ، وهذا المذهب شديد الظّهور فِي نعوت ذي الرّمّة للثّور والحمار والظّليم فِي بائيته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) مثلا قوله فِي الظّليم :

هَجَنَّعٌ راحَ فِي سَوداءَ مُخمَلَة ... مِنَ القَطائِفِ ...إلخ[٢]

ثم أتبع ذلك قوله : (كأنه حبشي يقتفِي أثرا إلخ) وهذا كما ترى كأنما هو تفسير وشرح لقوله آنفًا : (هجنح) ونحوًا من هَذَا فعل العجاج إذ يقول :

كَالحَبَشِيِّ اِلتَفَّ أَو تَسَبَّجا ... فِي شَملَةٍ أَو ذاتَ زِفٍّ عَوهَجا

---

(١) الإسلام أبدل رمزيّة الوصف الوثنيّ الجاهلي ، برمزيّة الأدب الإسلاميّ ، وفق تصوّرات الإسلام للإنسان والحياة والكون . (حسن) .

(٢) بائية ذي الرمة .

وإنما فسر بهذا قوله من قبل :

أَصَـــــــكَّ نَغضـــــــاً لاَيَنـــــــي مُســـــــتَهدَجا

وكأن أشعار ذي الرّمة وأضرابه (على إبداعه فِي ما كَانَ يبدع فيه) لم تكن إلا امتاحف لفظيّة عرضوا فيها ثيران القدماء وأبقارهم وظلمائهم وحمرهم الوحشيّة .

على أنّ رؤبة أجاد نعت الحمار وأشعره روحًا من نفسه . وما أحسبك تباعد إن تنسمت فِي القصيدة شكوى دخيلة فِي نعته للصّائد المكب عَلى تقويم فوق السّهام .

كسر من عينيه تقويم الفوق

ونعت امرأته ذات الشرّ والفقر والمنظر الكئيب :

لَمْ تَــرْجُ رِسْــلاً بَعْــد أَعْــوَام الفَتَــقْ

إِذَا احْتَسَــى مِــنْ لَوْمِهــا مُــرَّ اللَّعَــقْ

جَــدًّا وَجَــدَّت إِلقَــةٌ مِــنَ الإِلَــق

لَــوْ صَــخِبَتْ حَــوْلاً وَحَــوْلاً لَمْ تَفِــقْ

مَسْــمُوعَةٌ كَأَنَّهَــا إِحْــدَى السِّــلَقْ

ولأمر ما أهلك رؤبة حلائل الحمار الأربع ونجّاه وحده .

هذا والنّاقة والحصان لم يكف الشّعراء عن أوصافها إلا أنّهم باعدوهما عن أنفسهم فلا تجد فِي أوصافهم لهما ما فِي أوصاف الجاهليّن من حب واتحاد حتى يكون الفارس هو وحصانه كشيء واحد عَلى النّحو الّذي رأيت فِي شعر امرئ القيس ، وكما جاء فِي شعر عنترة :

لَــو كــانَ يَــدري مــا المُحــاوَرَةُ إِشــتَكى   وَلَكــانَ لَــو عَلِــمَ الكَــلامَ مُكَلِّمــي

وإنّما كَانَ حصان عنترة كرمز عن نفسه هو ولذلك جعله أدهم كما كَانَ هو أدهم ... وقال :

أشـــطان بئـــر فِي لبـــان الأدهـــم

وقال عن نفسه :

إذ يَتَّقــونَ بِيَ الأَسِــنَّةَ لَم أَخِــم عَنهــا وَلَكِنّــي تَضــايَقَ مُقــدَمي

وحتّى يكون صاحب النّاقة ذائبًا فيها عَلى النّحو الّذي صنع طرفة والمثقّب وسائر القدماء وحسبك قول امرئ القيس :

ألا إنَّنــي بــالٍ عَــلى جمــلٍ بــالِ يســير بنــا بــال ويتبعُنــا بــالِ

وقال في اللّيل :

فَقُلــتُ لَــهُ لَمّــا تَمَطّــى بِصُــلبِهِ وَأَردَفَ أَعجــازاً وَنــاءَ بِكَلكَــلِ

وإنّما كَانَ اللّيل همومه ، أو طرفًا من همومه ، شاهد ذلك قوله :

ومــا الإصــباح منــك بأمثــل

ومن آيات مباعدة الشّعراء الإسلاميّن للنّاقة عن أنفسهم أنّهم يصفونها كجزء من القافلة لا من أنفسهم هم . ناقة علقمة الّتي قصد بها الحرث كأنها كانت هي وهو معًا لا ثالث لهما . أمّا ناقة الفرزدق فلا تكاد تحسها وقد جمعها إلى نوق رفاقه وتحدث عنهن جميعًا:

إذا مــا أنخنــا قاتَلَــت عَــن ظُهورِهــا حَــراجيجُ أَمثــالُ الأَهِلَّــةِ شُسَّــفُ

إذا مــا أَريناهــا الأَزِمَّــةَ أَقبَلَــت إِلَينــا بِحُــرّاتِ الوُجــوهِ تَصَــدَّفُ

وقال يصف ناقته منفردة :

فقمــت إلى حَــرفٍ أَضَرَّ بَنِيَّهــا سُرى اللَّيـلِ وَاِستِعراضُـها البَلَـدَ القَفـرا

وهي هنا بائنة عنه ليست بذات اتّحاد معه ... ومهما يرق ويعطف عليها فإنما هي أداة سفر .

وقال جرير :

إذا بَلَغــوا المَنــازِلَ لَم تُقَيَّــد وَفي طــولِ الكَــلالِ لَهــا قُيــودُ

وقد سافر جرير من بلد علقمة إلى الشّام فما أنس ـ أو ما أخبرنا أنه أنس ـ إلى ناقته أنس علقمة . وتحسه هو وأساه وشوقه كقوله مثلًا :

أقــولُ لِلرَّكــبِ إذ جَــدَّ الرَحيــلُ بِنــا مــا بُعــدُ يَــبرينَ مِــن بــابِ الفَــراديسِ

عَـلَّ الهَـوى مِـن بَعيـدٍ أن يُقَرِّبَـهُ   أَمُّ النُّجـومِ وَمَـرُّ القَـومِ بِـالعيسِ

ولا تحس بعد للناقة وفي جميع هَذَا من نصيب :

تأمل قوله : (ومرّ القوم بالعيس) وقسه إلى قول علقمة :

هـداني إليـك الفرقـدان ولا حـب   إلـخ

وإنما كَانَ جرير كصاحبه الفرزدق شديد الشّعور بالرّفاق :

سـاروا عَـلى طُـرُقٍ تَهـدي مَناهِجُهـا   إلـخ

سـاروا مِـنَ الأَدَمـى وَالـدامِ مُنعَلَـةً   إلـخ

وسار المحدثون عَلى هَذَا المنهج : قَالَ البحتريّ :

وَرَمَـت بِنـا سَـمتَ العِـراقِ أَيـانِقٌ   سُـحمُ الخُـدودِ لُغـامُهُنَّ الطُحلُـبُ

وقال أبو تمّام : (وركب كأطراف الأسنّة عرسوا عَلى مثلها) البيت . وإلى هَذَا المعنى من انفصام بين النّاقة والشّاعر أشار أبو نوّاس بقوله :

إِلَيـكَ أَبـا العَبّـاسِ مِـن بـينِ مَشـى   عَلَيهـا امتَطَينـا الحَضرَمِـيَّ المُلَسَّـنا

وروح الفكاهة ههنا لا يخفى ـ وما انفصم الشّاعر عن الناقة لأن وسائل السّفر تغيرت، ولكن لأن وثنية النّاقة قد انمحت .

وكانفصاله عن النّاقة انفصل الشّاعر الفارس عن الحصان . حتى قصيدة جرير الدّالية الطويلة فِي الخيل لا تخرج عن هَذَا المعنى ، بل تؤكده . ولعلَّ عظم كتائب المسلمين وكثرة الخيل فيها معًا جعل النّظرة إِلى الخيل من حيث هي أداة قتل مجتمعة تترجح عَلى النّظرة العنتريّة الَّتي تجعل الفارس وحصانه أمرًا واحدًا .. تأمل قول جرير :

وَطَـوى الطِّـرادُ مَـعَ القِيـادِ بُطونَهـا   طَـيَّ التِّجـارِ بِحَضرَمَـوتِ بُـرودا

فهذه صورة خيل تعدو مجتمعة كما ترى . وقد كانت هَـذِه القصيدة وهـذا البيت منها بخاصة مما أعجب به الخوارج . ومنهم القائل وهو قطريّ بن الفجاءة :

غَـداةَ طَفَـت عَ المـاءِ بَكـرُ بـنُ وائِـلٍ   وَعُجنـا صُـدورَ الخَيـلِ نَحـوَ تَمـيمِ

وقد ذكر الجاهليّون الخيل مجتمعة فِي القتال ، ولكن اتّحادهم معها لابس كونها مجتمعة كما كَانَ يلابس كونها أفرادًا ... كقول الآخر مثلًا :

لدن غدوة حتى أتى اللّيل لا ترى ... من الخيل إلا خارجيًّا مسوما

وقد نعت المحدّثون الخيل فساروا عَلى نهج الإسلاميّن كقول أبي تمّام مثلًا :

وَلَيالِيَ الحَشّاكِ وَالثَّرثارِ قَد ... جَلَبوا الجِيادَ لَواحِقَ الأَقرابِ

وقد نعت الإسلاميّون أفراد الخيل بمعرض نعت السّباق والحلبة . وأكثر من ذلك أبو النّجم العجليّ وجماعة من الرّجّاز . والحصان فِي هَذَا أيضًا منفصل .. وحتّى حين يعطونه شخصيّة أسطوريّة فِي الَّذي يروونه من قصص السّباق تكون هَذِه الشّخصيّة منفصلة كالَّذي ذكر ابن الكلبيّ عن الحموم لما كاد يسبقها الأشقر اللّاحقي فارتجز صاحبه :

نحن صبحنا عامرًا فِي دارها

أشقر يأتي الخيل من أقطارها

قالوا : فكأن الحموم فهمت هَذَا الرّجز فصرت أذنيها وبذّت الأشقر . فالحموم كما ترى ههنا أشربت إنسانية أسطوريّة عَلى النّحو الَّذي يقع مثله فِي قصص الأطفال :

هذا وقد شذّ أبو الطّيّب فنعت النّاقة كنعت الجاهليّن أو قريبًا منه ، وحسبك قوله :

أَلا كُلُّ ماشِيَةِ الخَيزَلى ... فِدا كُلُّ ماشِيَةِ الهَيذَبى

وَكُلِّ نَجاةٍ بُجاوِيَّةٍ ... خَنوفٍ وَما بِيَ حُسنُ المِشى

الأبيات :

ونعت الحصان فمزج بينه وبين نفسه وحسبك شاهدًا قوله :

ويومٍ كليل العاشقين كمنته ... أراقب فيه الشّمس أيّان تغرب

وَعَيني إِلى أُذنَي أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... مِنَ اللَيلِ باقٍ بَينَ عَينَيهِ كَوكَبُ

وقد نعت جماعات الخيل فأدخل نفسه فيها وكان كأحدهما وإلى شيء من هَذَا المعنى أشار ابن الأثير فِي حديثه عنه . وقد قدمنا لك قوله : (وخيلك فِي أعناقهن قلائد) ونحو منه قوله :

تَــذري اللُّقــانُ غُبــاراً فِي مَناخِرِهــا وَفِي حَناجِرِهــا مِــن آلِــسٍ جُــرَعُ

على أن صورة أبي الطّيّب نفسه ههنا قوية بارزة ، كأنّه هو الخيل الّتي صارت قلائد فِي أعناق الحصون وكأنّه هو الّذي تلقى الغبار بمناخرهنّ وشرب الماء بحناجرهنّ .

هذا ، وصورة الحديقة الجاهليّة أيضًا مما اختفى أو كاد فِي شعر الإسلاميّن إذ لم يصفوا الحدائق المزروعة ذات الخصب وصفًا مفصلًا متحدًا فيها كوصف عبيد وامرئ القيس وعلقمة ابن عبدة والمتلمّس وزهير . وقد جاءوا بالروضة البريّة عَلى نحو تشبيهي كالّذي عند كثير :

ومــا روضــة بــالحزن باكرهــا الحيــا يمــج النــدى جثجاثهــا وعرارهــا

بأطيــب مــن أردان عــزة موهنًــا إذا أوقــدت بالمنــدل الرّطــب نارهــا

وقد جاء به القطاميّ فِي نعت الظعائن والأنهار .

مــن ذي غثــاء عَــلى الأعــراض أنضــاد

وقد جاء به ذو الرمة وكان عَلى طريقته فِي التّعليق عَلى أساليب الجاهليّن وتفسيرها وتفصيلها يقف ويفتتن إلا أنها لا تخرج فِي ذلك عن باب الاجتهاد الّذي يشوبه نوع من التكلّف نحو قوله :

حَــوّاءُ قَرحــاءُ أَشراطِيَّــةٌ وَكَفَــت فيهــا الــذِّهابُ وَحَفَّتهــا البَراعــيمُ

على أن قوله : (وحفتها البراعيم) فيه صورة حيّة ، إلا أنّها تنظر غير قليل إِلى ميمية علقمة وما ميمية عنترة عنها ببعيد .

وقد جاء ضرب كأنّه جديد من صفات الرّياض فِي شعر ابن أبي ربيعة حين قَالَ :

وَأَعجَبَهــا مِــن عَيشِــها ظِــلُّ غُرفَــةٍ وَرَيّــانُ مُلتَــفُّ الحَــدائِقِ أَخضَرُ

وهذا مأخوذ من القرءان مثلا﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر : ٢٠] .. إلا أنّ فيه أشعارًا بالنّفس الجاهليّ فِي قوله : (وريان ملتف الحدائق) لشعور التلذذ ذي الطّابع الخصوبيّ أو قل الجنسيّ الملابس لَهُ .

ونحو منه مقارب لَهُ قول جرير يذكر الهنيء الَّذي حفره هشام بن عبد الملك وما حفّ به من حدائق :

بِهـا الزَّيتـونُ فِي غَلَـلٍ وَمالَـت عَناقيـدُ الكُـرومِ فَهُـنَّ سـودُ

وههنا نفس من الخصوبة الجاهليّة وكأنّ جريرًا أحسّه ففر منه إلى التّصريح بأوصاف الجنّة الَّتي فِي القرءان ليخفيه أو يمحوه أي ذلك كَانَ ، والله أعلم ، وهو قوله :

فَتَمَّـت فِي الهَنـيءِ جِنـانُ دُنيـا فَقـالَ الحاسِـدونَ هِـيَ الخُلـودُ

يَعَضّـونَ الأَنامِـلَ إِن رَأَوهـا بَسـاتيناً يُؤازِرُهـا الحَصـيدُ

وَمِـن أَزواجِ فاكِهَـةٍ وَنَخـلٍ يَكـونُ بِحَملِـهِ طَلـعٌ نَضـيدُ

وهذا لا يخفى أنه قرءانيّ .

وقد صارت صفات الجنان من بعد وشيا وزخرفة حتى لم يكد الشّعراء فيها بعد يرون منها غير الأزهار . وكان قول ذي الرمة وهو الَّذي كَانَ يصطنع روح الأوائل (وحفتها البراعيم) يشعرنا ببعض هَذَا الَّذي نزعم من إيثار الأزهار . وقال أبو تمّام :

رَقَّـت حَـواشي الـدَّهرُ فَهـيَ تَمَرمَـرُ وَغَـدا الثَّـرى فِي حَليِـهِ يَـتَكَسَّرُ

فصرح أنّ الرّياض زخارف كما ترى ولم يكد يعدو الزّهر إلّا إلى العشب حيث قَالَ وأبدع :

تَرَيـا نَهـاراً مُشمِسـاً قَـد شـابَهُ زَهـرُ الرُّبـا فَكَـأَنَّما هُـوَ مُقمِـرُ

ولم يكن أبو تمّام بأعمى طرف العين أو طرف القلب عن جمال غير الزّهر ، وهو الَّذي وصف لنا صفات الشّتاء فِي بغداد أو سامراء وصفًا مطابقًا للواقع الجغرافيّ إذ يقول :

كَـم لَيلَـةٍ آسـى الـبِلادَ بِنَفسِـهِ فيهـا وَيَـومٍ وَبلُـهُ مُثعَنجِـرُ

مَطَـرٌ يَـذوبُ الصَّـحوُ مِنـهُ وَبَعـدَهُ صَـحوٌ يَكـادُ مِـنَ الغَضـارَةِ يُمطِـرُ

ولكن ما الواقع وحده مراده ، بل المقابلات الَّتي يتهيأ منها التّصنيع الجماليّ الصّادق الإفصاح عن روح التماس المثل الأعلى بحسب المقاييس الدّقيقة المجرّدة الَّتي ارتضاها المزاج الإسلاميّ عَلى عصره بعد أن قد آثر الأساليب الهندسيّة الزّخرف والبديع

(الأربسكيّ كما يقول الإفرنج) طريقة للتّعبير عن نفسه وآرابه وأمانيه .

هذا وقد افتن الأندلسيون فِي صناعة الحدائق فِي القصور والمنازل والتّأليف بين منظرها وثمارها وصوت خرير الماء وزركشة الدّيار . ولم يجد ابن خفاجة شاعرهم شيئًا يقوله فِي طبيعة بلاده السّاحرة غير بيتيه الضعيفين :

لله دَرُّكُــــــمُ يَأَهــــــلَ أَنــــــدَلُسٍ ... مــــاءٌ وَنَبْـــت وَأَشــــجارٌ وَأَنهــــارٌ

مــــا جَنَّـــــةُ الخُلـــدِ إِلّا فِي دِيـــارِكُمُ ... وَلَـــو تَخَـــيَّرتُ هَـــذي كُنـــتُ أَختـــارُ

والبحتريّ صاحب الإبداع فِي وصف الرّبيع لا تكاد تجده يفطن إلّا إِلى الزّهر والوشى المنمنم . وقد خفق قلبه شيئًا عند قوله :

وَقَـد نَبَّـهَ النَّـوروزُ فِي غَلَـسِ الـدُّجى ... أَوائِـــلَ وَردٍ كُـــنَّ بِـــالأَمسِ نُوَّمـــا

إلا أنه لم يتعد هَذَا المعنى إلا نحو الزّخرف . وقد أصار الدّنيا كلّها منديلا من حرير فِي قوله :

ورقّ نســـيم الجـــو حتّـــى حســـبته ... يجـــيء بأنفـــاس الأحبّـــة نعـــما

فأين هَذَا من أترجّة علقمة وتطيابها فِي كلمته :

هَـل مـا عَلِمـتَ وَمـا اِستودِعَت مَكتـومُ ... أَم صـــلبها إِذ نَأَتـــكَ اليَـــومَ مَصرومُ

ومن فارة عنترة وروضته الأنف ذات التّرانيم .

وقد وصف أبو الطّيّب شعب بوّان وصفًا رجع به رجعة مباشرة إِلى منهج الجاهليّين إلا أنه مَعَ الَّذي حاوله من إدخال مادة الخصب فيه ، ما اسطاع ، عَلى إبداعه ، أكثر من تصنيف مدينة رائعة الفتنة أسطوريّة الجمود الحيّ مثل إرم ذات العماد الَّتي كانت كلّها أشجارها وأبنيتها من الجواهر فيما ذكروا . تأمل قوله :

لَهـــا ثَمَـــرٌ تُشـــيرُ إِلَيـــكَ مِنـــهُ ... بِأَشرِبَـــــةٍ وَقَفـــــنَ بِـــــلا أَوانِي

والشّاهد الَّذي يوقف عنده قوله (وقفن) فقد أحسّ هو نفسه أنّه وحده كَانَ المتحرّك فِي ذلك الزّمان الرّقيق الإحساس الدّقيق الشّعر - العظيم أعباء الصّنعة والتّكلف .

هذا ، والتّأليف بين الحديقة والنّخلة والدّومة والسّفينة والمرأة كل ذلك قد اختفى وفِي

أبي الطّيّب نفس من استشعار الرّمزية الجاهليّة القديمة عند قوله :

وَلَـو كانَـت دِمَشـقَ ثَنـى عِنـاني لَبيـقُ الثُّـردِ صـينِيُّ الجِفـانِ

يَلَنجـوجِيُّ مـا رُفِعَـت لِضَـيفٍ بِـهِ النـيرانُ نَـدِّيُّ الـدُّخانِ

ثم أخذ بعد فِي صفة حصانه ومزعمنا أن ههنا رمزيّةً أو نفسًا من رمزيّة مردةّ إِلى أنّ أبا الطّيّب يذكر فِي قصيدته الهائيّة شاميّة ـ قَالَ :

شـاميّة طالمـا لهـوت بهـا تـبصر فِي نـاظري محياهـا

فعسى أن يكون فِي مقاله دمشق ههنا كالإشارة إليها والله تعالى أعلم . هَـذَا ، ونعت المرأة قد تطور وتغير أيما تغير بعد الإسلام .

ذلك بأنّ القدماء كانوا يفتنون فِي نعت المرأة . وصفوا العوان وذات الهدم كما رأيت . ووصفوا أصناف الجمال فِي الحبائب .. الهيفاء منهن والبادنة والهيكلة . وكأنهم كانوا ينظرون فِي جميع ذلك إِلى أمثلة من تماثيل يونان مما كانوا يرونه فِي الشام . وقد تعلم أنهم ذكروا عن عمرو بن لحيّ أنّه بعد أنْ غلب جرهما بخزاعة وبني إسماعيل وأجلاهم عن البيت جلب أصنامًا من أرض الشّام فوضعها فِي الحرم .

ومما يقوي الظن أن العرب كانت تنظر إِلى تماثيل الرّوم وتروم أن تضاهيها بتماثيل لفظيّة كمثلها جودة وإتقانًا ، أنها نصت عَلى ذكر التمثال والدمى فِي أشعارها . وقد عرضت لهذا الباب بتفصيل فِي السّفر الثّالث من كتابي المرشد إِلى فهم أشعار العرب وصناعتها وآمل أن يخرجه الطّبع للناس قريبًا إن شاء الله تعالى . فمن ذلك قول امرئ القيس الّذي مر بك آنفًا :

كَـأَنَّ دُمـى سَـقفٍ عَـلى ظَهـرِ مَرمَـرٍ كَسـا مُزبِـدَ السّـاجومِ وَشـياً مُصَـوَّرا

وقد يكون سقف ههنا اسم موضع . وقد يكون أراد سقف بيته . وهل فِي قوله (سقف) نفس من معنى الأسقف فيكون المراد (دمى راهب) ، كما قَالَ عمر بن أبي ربيعة من بعد ففسروا كأنه فسر هَذَا من مقال امرئ القيس بقوله هو :

دُمیَـةٌ عِنـدَ راهِـبِ ذي اِجتِهـادِ صَـوَّروها فِي جانِـبِ المِحـرابِ ؟

وقال امرؤ القيس أيضًا :

وَيا رُبَّ يَومٍ قَد لَهَوتُ وَلَيلَةٍ بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمثالِ

فنص عَلى التّشبيه بالتمثال الفينوسيّ كما ترى .

ومما يقوّي الظّنّ أنّ تماثيل أفروديت فِي لون من ألوانها قد بلغت العرب فراموا مضاهاتها ذكرهم التّمثال الّذي لَهُ قاعدة كما فِي قول النّابغة :

أَو دُميَةٍ مِن مَرمَرٍ مَرفوعَةٍ بُنِيَت بِآجُرٍّ تُشادُ وَقَرمَدِ

وذكرهم التّمثال الّذي يعالج ثوبًا :

سَقَطَ النَّصيفُ وَلَم تُرِد إِسقاطَهُ فَتَناوَلَتهُ وَاتَّقَتنا بِاليَدِ

فَجِئتُ وَقَد نَضَّت لِنَومٍ ثِيابَها لَدى السِترِ إِلّا لِبسَةَ المُتَفَضِّلِ

وذكرهم التّجردة ذات العقد . وقد كانت متجردة النّابغة لها عقد وقد جعلها كالشّمس شديدة الضّوء . وقرن إليها ألوانًا ذات سواد وذلك قوله مثلًا :

كالكرم مال عَلى الدّعام المسند

وقد جعل صورتها بدءًا :

كالشّمس يوم طلوعها بالأسعد

وصورة المتجرّدة ذات العقد والأضواء مما تكرر فِي الفن .. ولعل صورة مانيّة الحديثة (أولمبيا) ألا تخرج فِي أصلها من هَذَا الباب ، والله أعلم .

هذا وكيونان فِي دهرهم الأول وصف القدماء القوام النشط الرّياضي يعبرون به عن الحيويّة والشباب والفتاء . وفتاة معلقة امرئ القيس من هَذَا الضّرب وحسبك شاهدًا قوله:

مُهَفهَفَةٌ بَيضاءُ غَيرُ مُفاضَةٍ البيت

وقوله :

إِذا ما اِسبَكَرَّت بَينَ دِرعٍ وَمِجوَلِ

وفِي هَذَا نشاط وفتاء كما ترى . وقد جعلها كالنّخلة والنّخلة هيفاء فِي قوله : (تمايلت عليهضيم الكشح) إلخ .

وفتاة النّابغة من هَذَا القريّ أيضًا .

وقد عرفوا القوام البادن يعبرون به عن النّعمة واللّذة ومن ذلك قول امرئ القيس :

بَرَهرَهَــــــةٌ رَودَةٌ رَخصَـــــــةٌ كَخُرعوبَـــــةِ البانَـــــةِ المُنفَطِـــــر

فهذه ناعمة منعمة كما ترى

والأعشى آثر المبالغة فِي البدن عَلى النحو الَّذي صنعه (روبنز) من مصوري العصور الحديثة فِي متجرداته .

وقد بالغ متأخرو الرّوم - لا بل قد بالغ اليونان الأولون أنفسهم فِي أبعاد التّماثيل حين كانوا يرومون بها معنى من المبالغة فِي التّأليه .وقد أشرب عمرو بن كلثوم نعت صاحبته معاني من تأليه فِي المبالغة الَّتي بالغها إذ نعتها فقال :

تُريــــكَ إِذا دَخَلــتَ عَــلى خَـــلاءٍ وَقَــد أَمِنَــت عُيــونَ الكاشِــحينا

ذِراعَـــي عَيطَــلٍ أَدمــاءَ بِكــرٍ هِجــانِ اللَّــونِ لَم تَقــرَأ جَنينــا

وساريتي بلنط أو رخام إلخ .

ومأكمة يضيق الباب عنها .

وحسبك دليلًا يقوي هَذَا الَّذي نذهب إليه قوله :

إِذا بَلَــغَ الفِطــامَ لَنــا رضيــعٌ تَخِــرُّ لَــهُ الجَبــابِرُ ســاجِدينا

فينبغي أن تكون أمّ هَـذَا الرّضيع ذات ذراعين كذراعي البكر القلوص وساقين كساريتي بلوط أو رخام أو تمثال من هَـذِه التّماثيل الَّتي رأى عمرو بن كلثوم بعلبك أو ناحية أخرى من الشّام أليس يقول :

وَكَــأسٍ قَــد شَرِبــتُ بِبَعلَبَــكٍّ وَأُخــرى فِي دِمَشــقَ وَقاصِرينــا

وقد اختفى التّمثال بعد الإسلام فلم يكد يبقى منه شيء ... هَذَا التمثال الَّذي لا يكاد نسيب جاهلي يخلو منه . وقد يخطئ النّاقد المعاصر أن نسب الجاهليّين إِلى المادية والحسّيّة فِي الَّذي جاء من نسيبهم إذ يغفل بذلك عن الجانب الجمالي الوثني . السّنخ الكامن فِي هاته التّماثيل الكثيرة المتنوّعة الَّتي صوروها لنا .

هذا وقد حلَّ الحوار الحيّ محل الصورة المجسمة المتحركة أو الثابتة عند عمر بن أبي ربيعة وجميل وسائر الإسلاميّين .

قال ابن ميّادة :

تَقولُ خَودٌ ذاتُ طَرفٍ بَرّاق مَزّاحَةٌ تَقطَعُ هَمَّ المُشتاق

ذاتُ أَقاويلَ وَضَحكٍ تَشهاق هَلّا إشتَرَيتَ حِنطَةً بِالرُّستاق

سَمراءَ مِمّا دَرَسَ ابنُ مِخراق

وإن يك الغناء المحض أغلب عَلى مذهب جميل ، وكان الغناء عنده حوار من جانب واحد هو جانبه هو ، جعله مناغاة وصدحًا ... وفِي قصيدته الدالية :

أَلا لَيتَ شِعري هَل أَبيتَنَّ لَيلَةً

حوار غير جد نزر كقوله :

وقد قربت نضوى أمصر تريد

وقوله : يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وقد عمد المرار بن منقذ إِلى شيء من مذهب الجاهليّة فِي كلمته الَّتي اختّارها المفضّل الضبّيّ ومطلعها :

عَجَبٌ خَولَةُ إِذ تُنكِرُني أَم رَأَت خَولَةُ شَيخاً قَد كَبُرْ

وأحسب أنّ ابن قتيبة أو غيره من القدماء أشار إِليها وقال : إنها فِي وصف الخيل وقد حسب (شارلس ليال) فِي الَّذي كتبه عنها أنّها قصيدتان أضيفتا إحداهما إِلى الأخرى وما أراهما إلّا قصيدة واحدة كما لا أرى عينيّة ابن أبي كاهل إلا كلمة واحدة وهذا بحث ليس ههنا موضعه فأعتذر عن هَذَا الاستطراد . هَذَا وقد جمع المرار فِي فتاته بين بدن وهيف وبين ممكورة مجدولة وبرهرة رخصة وهذا مذهب كثير عند الإسلاميّين الذين تعمدوا تقليد الجاهليين مثل ذي الرّمة وابن الدّمنية .

وقد جعل المرار لفتاته عقدًا وجردها فاتبع النّابغة فِي متجرّدته وذلك قوله :

أَحسَنُ الخَلقِ إِذا جَرَّدتَها غَيرَ سِمطينِ عَلَيها وَسُؤُرْ

وقد أوشك أن يضارع الأعشى فِي هركولاته حيث قَالَ :

دفعــــت ربلتهــــا ربلتهــــا ..

والعمد والجهد ليس بمفارق طريقة المرار عَلى أية حال ، والقصيدة الَّتي اختارها لَهُ أبو تمام فِي الحماسة املأ بالعاطفة ولاسيما حيث يقول :

تمشي الهــوينى ولا يبــدو لهــا قــدم

وذو الرمة لتألهه كأنما قد أبه لنفور روح الإسلام عن صنم الغادة الجاهليّ فأشربه روحًا من التّجريد فِي النّحو الَّذي نحاه من مداخلة الطّبيعة فِي الصّور الَّتي يصورها للفتيات كقوله:

كــأن عمــود الفجــر جيــد ولبــة بعيــد الــدجى مــن حــرة الوجــه سـافر

وكقوله فِي الظّبي :

كأنــه دملــج مــن فضــة نبــه فِي ملعـب مـن عـذاري الحـيّ مفصُـوم

وكقوله : (كأنّها ظبية أفضى بها لبيب بين النهار وبين اللّيل) الأبيات .

وكتشبيهه الفتاة بالمزنة الفارق .

هذا وقد جعلت الأذواق الَّتي هذبتها حضارة الإسلام وتوحيده تشمئزّ وتنفر من نحو :

اسبكرت بين درع ومجول .

ونحو :

إذا ما الضّجيع ابتزها من ثيابها .

ويدفعها تساميها الروحيّ إِلى أن تطلب تعبيرًا يلائم هَذَا التّسامي .

وقد كَانَ بشار بن بردبحق أبا المحدثين . وقد سلك فِي الغزل مسالك ثلاثة أخفق منهما مسلكان وأنجح مسلك واحد فقط هو الَّذي كَانَ أشبههنّ بروح عصره ومذاهبه . وذلك أنه قلد طريقة ابن أبي ربيعة وداخل فِي ذلك ، بحذق التّقليد ، نفسًا من روح جميل ومن روح كثير ، وديوانه فيه أمثلة من هَذَا منهن كلمة جاري بها أبيات البدويّ :

ألا لا أرى وادي الميــاه يطيــب

فهذا كَانَ أحد مذاهبه الَّتي أخفقت .

والمذهب الثّاني هو الغزل المكشوف كأنه افترعه من عند نفسه ، ولعله ضاهى به ما كَانَ أخذ فيه المجان من عهد عمار ذي كناز وأبي كامل وأصحاب الوليد بن يزيد من السّفه وقد كَانَ عاصرهم :

ولا يخفى أن هَذَا المذهب الثّاني قد أخفق إلا عَلى سبيل أن يمزح به ويتفكه .

والمذهب الثّالث وهو الَّذي أخذ عنه وراج وبه عرف - وقد فطن إِلى ذلك هو نفسه - مذهب البديع ، وهو اجتناب تصوير النّساء صورًا حية والإعراض عن أن يحسّ تمثال لهنّ عَلى أي وجه ، واعتماد عَلى الإطراب والزّخرفة اللّفظيّة بالحديث عنهن دون أي شيء غيرها ، وقد كَانَ بحكم عماه لا يستطيع حقًّا سوى ذلك . ومن شواهد فطنة بشّار لنجاح هَذَا من مذهبه ما رووه من عيبه كثيرًا حيث قَالَ :

أَلا إِنَّما لَيلى عَصا خَيزُرانَةٍ إِذا غَمَزوها بِالأَكُفِّ تَلينُ

أحسبهم رووا أنه قَالَ : لو جعلها (أو شيئًا فِي هَذَا المعنى) عصا زبد لكانت بهذا النّعت قبيحة إلا قَالَ :

وَصَفراء المَعاصِمِ مِن مَعَدٍّ كَأَنَّ حَديثَها ثَمَرُ الجِنانِ
إِذا قامَت لِحاجَتِها تَثَنَّت كَأَنَّ عِظامَها مِن خَيزُرانِ

وهذا الوصف لا يبرز لك صور تمثال ثابت أو متحرّك وإنّما يعرض لك زخرفة ووشيًا يناسب الذوق الدمث المتنطس المتأفف الحضاري الَّذي ينفر من الرّفث ومن أمثال :

اسبكرت بين درع ومجول .

مما تحس فيه استدارة الجسم وحركته وعنف الشهوة الَّتي يثيرها ذلك منه .

ولقد ظلم بشّارٌ كثيرًا ولعله كَانَ يعلم ذلك لأنّ كثيرًا ما أراد إلّا صفة خلفها وعسرها وذلك أدخل فِي حاق الرّوحانية إلّا أنّ طريقة بشّار أدخل فِي حاق الحضارة والدّماثة . ولأمر ما قيض الله بشارًا وهو ضرير ليعلم الشّعراء المحدثين كيف يقولون ، لكيما يطربوا مجتمعًا مسلمًا يغض الطرف لم تعد به حاجة لأن يرى كما يرى امرؤ القيس ومعاصروه إِلى

أوائل العهد من مبدأ صدر الإسلام .

ولقد اتسعت سبل البيان وتفرعت بمعاصري بشار والذين تبعوهم . ولكنّ رجلًا واحدًا فطن إِلى السّر الَّذي برع به بشّار وقصد إِلى أن يؤكده ويجهر به ويحمل الشّعراء فِي عهده ومن بعده حملًا عليه وهو أبو تمّام . وقد عمد إِلى طريقة تبدو فِي ظاهرها كأنّها رجعة عن التّجديد الَّذي بدأ به بشّار والسّيد الحميريّ وافتن فيه أبو نوّاس وأبو العتاهية والعتابيّ وابن مناذر والخليع ولفّهم ، لما احتفل لَهُ من نعت الطلول واستهلالات النّسيب . ولكن تأمّلة دقيقة تريك أنه لم يكن إلا مستمرًا فِي الَّذي بدأه أولئك متممًا لَـهُ . أليس هو يجعل الطلل شخصًا يطرق ، وسؤرًا من الزمن الفاجع (وهذا معنى وضّحه الدكتور محمّد عبده عزام توضيحًا حسنًا فِي كلمته القصيرة عن أبي تمّام فِي أحد كتب الشّهر الَّتي كانت تنشرها دار المعارف) .

أم ليس يقول :

ازرين بِالمُردِ الغَطارِفِ بُدَّنا غيداً أَلِفنَهُمُ لِداناً غيدا
أَحلى الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ مَواقِعاً مَن كانَ أَشبَهَهُم بِهِنَّ خُدودا

فلا ندري أغزل بالغلمان أم بالنّساء هَذَا أم بالمعنى والألفاظ دونهم جميعًا .

أم ليس يقول :

وَفِي الكِلَّةِ الوَردِيَّةِ اللَّونِ جُؤذُرٌ مِنَ العين ورد اللّون ورد المَجاسِدِ
رمَاني بِخُلفٍ بَعدَ ما كَان حِقبَةً لَهُ رَسَفانٌ فِي قُيودِ المَواعِدِ

تأمل هَذَا الوشيّ من الكلّة الورديّة والمجاسد الورديّة واللّون الورديّ ثمَّ المقابلة بين الخلف والموعد والرّسفان المعنوي فِي القيود ... أين نحن الآن من تمثال امرئ القيس :

يطفن بجباء المرافق مكسال

ومن نحو قوله :

سِباطُ البَنانِ وَالعَرانينِ وَالقَنا لِطافُ الخُصورِ فِي تَمامٍ وَإِكمالِ

وقد مهد هَذَا من صنيع أبي تمّام لصناعة البحتريّ :

لي حَبيبٌ قَد لَجَّ فِي الهَجرِ جِدّا وَأَعادَ الصُدودَ مِنهُ وَأَبدى

باتَ نَديماً لِيَ حَتّى الصَّباح أَغيَدُ مَجدولُ مَكانِ الوِشاح

أي هو نفسه ليس بمجدول وإنما الوشاح المبسوط الَّذي هو أجمل منه لأنّه شيء زخرفيّ هو المجدول :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منظم أو برد أو أقاح

وهذا مهد لصناعة ابن الرّوميّ :

لابساتٍ من الشفوف لَبوسًا كالهواء الرّقيق أو كالشرابِ

ومن الجوهرِ المضيءِ سناهُ شُعلاً يلتهبنَ أيَّ الْتهابِ

وهن بعد لا شيء ، يا هَذَا

ومن بعد صناعة الصانعين كالقائل :

فَأَمطَرت لؤلؤاً مِن نرجس وَسقت وَرداً وَعضت عَلى العنّاب بِالبَرد

وكالقائل :

وأحوى حوى رقي برقة أسره وغادرني ألف الصدود بهجره

وقال الآخر ورأى فتاة صليبيّة ذات طرف أزرق :

ما أرق هَذَا الفتى وأنعم بال فؤاده وأشد حياءه من أن يصف وصفًا ذا صورة تلمح أو تتحرك أو تشعرك أنّ لها حيزًا وكيانًا ذا جسد .

ولعلّك بعد ترى قوّة الصّلة بين جميع هَذَا وبين الفنون المجرّدة المعتمدة عَلى التّقطيعات والهندسات الرياضيّة ... وقد تكون لهنّ أصول فِي جذور شتّى من الفنون . إلا أن روح التّوحيد المحاربة للأصنام ولسائر أصناف التّجسيد لابدّ هي كانت العنصر الأوّل من العناصر الَّتي أنشأت تلك الجذور .

ولقد شذ المتنبي من شعراء الإسلام والشّعراء المحدثين إذ صور أجسادًا فِي شعره الغزلي :

سقتني بها القطر بلى مليحة عَلَى كاذب من وعدها ضوء صادق

من أين جانس هَذَا الشّادن العربا .

يا طفلة الكفّ عبلة السّاعد .

أطالت يدي فِي جيدها صحبة العقد .

عـــد وأعـــدها فحبـــذا تلـــف ألصـــق ثـــديي بثـــديك النّاهـــد

على أن أبا الطّيّب فِي التجسيد الَّذي جسّده للفتاة وللخيل وللإبل والتّصوير الَّذي صوره للرّياض والحدائق ... فِي كلّ ذلك كَانَ هو العنصر ذا الحيويّة ، كَانَ هو العنصر الموجب . والعناصر الَّتي كَانَ هو يجاذبها جميعًا ، كن عليهن طابع قوي من السّلبيّة ، وهذه كانت مأساته رحمه الله حتى الفتاة الَّتي عشقها كانت حيويته هو فوق حيويّتها :

مـــا أســـارت فِي يـــدي غـــدائرها تركتـــــه فِي المـــــدام أفواهـــــا

ولا تكاد تحيا إلا فِي قوله :

حيـــث التقـــى خـــدّها وتفـــاح لبنـــان وثغـــري عَـــلى ضـــياها

ولكنها ليست بأشد حيوية من تفاح لبنان ههنا .

حتى أبو الطّيّب نفسه ، حقًّا والله لم يسلم من صولة الزّخرف الَّذي فرضه روح الحنيفيّة الإسلاميّة عَلى مذاهب الفنّ . ولعلّ ذلك قد كَانَ من فضيلته ومن أجله فتن به معاصروه ونفتن به نحن ولعله من باب التتمة أن ننبه إِلى أن لونًا جاهليًّا فِي الأوصاف ، كأنما هو ثورة عَلى الأساليب الزّخرفيّة الإسلاميّة قد جعل يدخل فِي أشعارنا الحديثة ـ أدخله أولًا البارودِيّ ، ثمَّ أحمد شوقي فِي نحو كلمته :

طال عليها القدم ... بين يد فِي يد أو قدم فِي قدم

والعينان اللتان فِي كلمة لأحد الشّعراء المعاصرين أظنّه نزارًا :

لا تســـــأليني هـــــل أحـــــبهما

ليستا بزخرفيتين كالعينين اللّتين فِي كلمة العبّاسيّ :

فـــــإنّ ســـــنان القنـــــا أزرق

هل هي نفحة الوثنية أم هي بوادر نهضة وانتفاضة ... الرّاجح إن شاء الله أن هَذِه بوادر نهضة وانتفاضة إذ أكثر ما تكون أوائل النّهضات من طريق الرّجعة إِلى القديم ووددت لو فصلت الحديث فِي هَذَا الباب شيئًا إلّا أن المجال لا يتّسع لَهُ . وبالله التّوفيق وصلى الله عَلى سيّدنا محمّد وعلى صحبه وسلم تسليمًا .

د ـ شعر المديح النّبويّ[1]

كان مديح الرّسول ﷺ إلى عهد قريب ذروة فنون أشعار العربيّة في الفصيحة والدّارجة معًا ، مثلًا عندنا في السّودان كَانَ اسم الشّاعر لا يطلق إلّا عَلى المادح ـ أعني مادح الرّسول ﷺ . أمَّا سائرُ مدّاح النّاس وأصحاب الغزل فكان يقال لأحدهم (الغنّاي) ـ أي المغنّي ـ وربّما ميزوه إن كَانَ يمدح ملكًا أو أميرًا فقالوا لَهُ (الإنقيب) ـ أي نقيب المغنّين ـ وقد أدرك الباروديّ وشوقيّ رحمهما الله أخريات زمان كَانَ شأن المديح النبويّ عظيمًا ولا تزال من تلك الأخريات بقايا صالحة في سائر بلاد العربيّة والإسلام ، ولاسيما بين أهل الطّرق الصّوفيّة . ولقد كَانَ العلماء ، لما ألفوا من تقديم المديح النبويّ عَلى غيره من فنون الشّعر ، ممَّا يعجبون أحيانًا من أمر أمثال أبي الطّيّب كيف فاتهم أن يكون لهم منه نصيب مَعَ الّذي أتوه من ملكة وإبداع ، فاعتذر لهم بعض الفضلاء أنّهم كانوا يعلمون أن سيعجزون عن الوفاء بحقّه عليه الصّلاة والسّلام . وأبي النّبهانيّ رحمه الله في مقدمة مجموعته هَذَا العذر واحتج بأنّ المديح النبويّ عبادة يوفق الله سبحانه وتعالى إليه من يراه لها أهلًا ، وهؤلاء وإن كانوا فحولًا فلتخلقهم بأخلاق الشّعراء من كذب ومبالغة وقذف للمحصنات ووقوع في المعاصي لم يكونوا لمديحه ﷺ أهلًا . ولعمري قد ظلم النّبهانيّ رحمه الله أبا الطّيّب وأصحابه إذ لم يكن فن المديح النبويّ عَلى زمانهم ميدان تسابق الشّعراء الأوّل كما قد صار من بعد ، وإنّما كَانَ طرفًا من الشّعر يطلبه بعض أهل الورع والزّهد والتّصوف كالحلاج وابن رشيد البغداديّ صاحب القصائد الوتريّة الّتي عَلى حروف الهجاء . وقد كانت هاشميات الكميت من المدائح إلّا أنّ سنخها سياسيّ . وزهديات أبي

---

(١) ألقي البحث على مؤتمر مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة (جلسة الخميس ٢٦ من صفر سنة ١٣٩٦هـ الموافق ٢٦ من فبراير [شباط] سنة ١٩٧٦م) . وانظر : المؤتمر ، الدّورة ٤١ ، الجلسة ٤ ، محاضر الجلسات ، ص ١٩٩ . (حسن) .

العتاهية مما يشربها لون الفلسفة وقد اتهم بالزّندقة كما اتهم كثير من جيله فالله أعلم أي ذلك كَانَ . وفطن النّبهانيّ رحمه الله إلى أن مديح حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضوان الله عنهم كَانَ من باب الجهاد وجروا فيه عَلى ما كَانَ غالبًا عَلى العرب من مذهب القصيد . ولا ريب أنّه قد أصاب إذ لم يرض دعوى من دافع عن غزل كعب بن زهير بأنّ سعاد الَّتي ذكر كانت زوجته . ومما عسى أن يصلح ذكره ههنا أن أعشى بكر مدح الرّسول ﷺ بكلمته :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيناكَ لَيلَةَ أَرمَدا وبِتَّ كما باتَ السَّليمُ مُسَهَّدا

ولم يكن فارق أمر الجاهليّة وقصته مَعَ قريش معروفة .

هذا وأعجب من عجب قدماء علمائنا من غفلة أبي الطّيّب وأصحابه عن باب المديح النبويّ واعتذارهم الَّذي ذكرنا وما أخذ عليهم فيه ، غفلة معاصري نقادنا ومؤرخي آدابنا ومدرسيها عن باب المديح النّبويّ أو الإضراب عنه كأنه لا يمت إِلى آداب العربيّة ومنهاج رصانتها وخيالها وبيانها وجزالتها بسبب ، أو كأنه شيء يغمض عنه الطّرف خجلًا أو بين جهل وتغابٍ . وقد يعقد للفترة من أواخر أيّام بني العبّاس إِلى دول الطوائف والمماليك الَّتي جاءت من بعد خراب بغداد عَلى أيدي التتار فصلٌ بأنّها بالنّسبة إِلى الثّقافة العربيّة شعرًا ونثرًا وأدبًا عصرُ انحطاط ، مَعَ أنّها فترة ابن حجر والسّيوطيّ وابن خلدون وكبار شعراء المديح النبويّ . وعندي أنّ سبب هَذِه الغفلة الَّتي قد استمر بنا أمرها حتى سببت بعد التّجاهل جهلًا هو أنّ الغالب عَلى تبويب تأريخ الأدب فِي أكثر كتبه الحديثة عندنا النّقل مما صنع المستشرقون فِي أخريات القرن الماضي وأوائل هَذَا القرن . وقد أقبل هؤلاء عَلى درس العربيّة عَلى حين لا زال التّعصب الدّينيّ عَلى الإسلام شديد ، فما كانوا ليعقدوا لمدح رسوله صلوات الله وسلامه عليه من فصل . ولولا هَذَا التعصب لقد فعلوا ذلك عَلى الأرجح لمكان فصول معقودة عن أشعار الدّين بخاصة فِي آدابهم ، مثلًا فِي اللّغة الإنجليزيّة لا يخلو مقرر تأريخ آدابها فِي المدرسة بحال من نصّ عَلى فترة الشّعر الدّينيّ فيما بين أواخر القرن السّادس عشر ومنتصف السّابع عشر الميلاديّ أو بعد ذلك بقليل . ومن

كبار شعراء تلك الفترة جون دون ، وريتشارد كراتشو ، وجورج هربرت ، واندرو مارفبل ، وجون ملتون صاحب الفردوس المفقود .

فترة كبار شعراء المديح النبوي فيما بين القرن الخامس إِلى قبيل عصرنا هَذَا . وبلغ الذّروة فِي القرن السّابع عَلى يدي الإمام شرف الدين البوصيري صاحب البردة والهمزيّة ، وهو من فحول العربيّة عَلى الإطلاق ، مكانه مَعَ المحدثين الكبار من طبقة أبي الطّيّب والبحتريّ وأبي تمّام .

هذا والحديث عن أوليات المديح النبوي وتطوره وأصناف أبوابه فِي ما بين الغزل الصلت الَّذي فِي لامية كعب بن زهير :

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُجزَ مَكبولُ

إلى المصنَّع المتصوف فيه مثل قول أحد صلحاء التّجانيّة :

دعانيَ من سَلْمى وليلى وقلِّلا تذكُّر ربات الغدائر مُسْجَلا

لذِكْر الَّذي من ذِكْره تيب قبله عَلَى آدم إذ كَانَ فرعًا مؤصَّلا

لذِكْر الَّذي لم يذكر الحقُّ غيره مدى الدّهر والأيّام خيرٍ من أرْسِلا

مما يطول . وأقل ما يغني فيه كتاب كامل يفرد لَهُ . وجليٌّ أن ذلك لا يتسع لَهُ هَذَا الموضع ولا نقوى عليه فيه . ولذلك فإنّ مرادنا مجرّد لفت النّظر إِلى أهمية هَذَا الجانب من أدبنا وفِي هَذِه الكلمة المختصرة سأكتفِي بالحديث عن الإمام البرعيّ وأتبع ذلك إن شاء الله فِي كلمات مختصرات تتلو أحاديث عن الإمام البوصيري ، والصرصريّ والشّهاب محمود وغيرهم من رجالات هَذَا الفنّ .

هذا ولم أعثر عَلى ترجمة وافية للإمام البرعيّ . وذكر النّبهانيّ أنه من رجال القرن الخامس وفِي تاج العروس فِي تعليقه عَلى بُرَع كزفر أنه جبل بتهامة (وقد نسب إليه من المتأخرين الشّاعر المفلق عبد الرحيم بن أحمد البرعيّ مادح المصطفى ﷺ والموجود فِي أيدي النّاس هو ديوانه الصّغير وله مقام عظيم ببلده وذرية صالحة) وقد سكت عن النّصّ عَلى تأريخ زمانه وفِي البدر الطّالع : أنه توفي رحمة الله سنة ٨٠٣ هـ فعلى هَذَا يكون من رجال القرن الثّامن لا الخامس كما ذكر النّبهانيّ وهو الصّواب إن شاء الله تعالى . والدّيوان المشار إليه مطبوع عدة طبعات وليست بسالمة من الأخطاء . وقد رأيت ببلدتنا نسخة خطية صحيحة ، وخبرت

عن أخرى أقدم منها بخط الفقيه المكيّ ابن حمد بن محمّد المجذوب توفيّ أوائل القرن الماضي وما رأيت من خطه أنيق متقن . وديوان البرعيّ معروف مشهور بين الصوفيّة فِي أكثر بلاد الإسلام وأذكر سماعي مرة تسجيلًا لكلمته الَّتي مطلعها :

أراني مـــا ذكـــرت لـــك الفراقـــا وَدمعـــك واقـــف الاهراقـــا

لبعض الشاذليّة بالملايا فوجدت نغمة ذا مشابة من أنغام الشاذليّة عندنا . وقد كَانَ رجال الصوفيّة يلتقون كما تعلم فِي مواسم الحج فيأخذ بعضهم عن بعض .

وفِي البرعيّ حرارة وجدان وأنفاس جزالة وديباجة ذات رونق فيها روح البحتريّ وقد تنظر إِلى أبي الطّيّب أحيانًا . وأكثر ما تحس روح البحتريّ فِي كامل البرعيّ مثل قوله :

ضَرَبوا الخيام عَلى الكَثيب الأخضر مـــا بـــين روضـــة حـــاجر وَمحجـــر
واخضر فَـــردوس الخَمائِـــل اذ غَـــدا وَسرى عليـــه حيـــا العَـــريض الممطـــر
وإن النفـــوس عَـــلى اخـــتلاف طباعهـــا طمعـــت مـــن الـــدنيا بـــما لم تظفـــر
وَعَـــلى الكَـــريم دلالَـــة عذريـــة بصرت بـــه فأرتـــه مـــا لَم ينظـــر
يـــا نـــازِلًا بربـــا الأراك عـــداك مـــا حملـــت مـــن وَلَهـــي وَطـــول تـــذكري
هَـــل جـــددوا عهـــدا بمعهـــد رامـــة أم طنبـــوا فِي الشّـــعب شـــعب العرعـــر

وازن بين قوله :

واخضر فَـــردوس الخَمائِـــل اذ غَـــدا وَسرى عليـــه حيـــا العَـــريض الممطـــر

وقول أبي عبادة :

وَاخضَرَّ مَـــوشِيُّ الـــبُرودِ وَقَـــد بَـــدا مِـــنهُنَّ ديبـــاجُ الخُـــدودِ المُـــذهَبُ

والشّاهد هنا رنة الموسيقا فِي (واخضرَّ موشيُّ البرود) ، (واخضرَّ فردوس الخمائل) فالصياغة متقاربة كما ترى ولذلك فالرّنين الَّذي يحدثه ائتلافها مَعَ الوزن متشابه . وتأمل قوله : (إذْ غدا) وقول البحتريّ (وقد بدا) كلاهما فِي آخر الصّدر ووزنهما واحد ثمَّ هما مَعَ إكمالهما رنَّةَ ما قبلهما للوقف الموسيقي المرتاح عندهما ، يوصّلانِ إِلى ما بعدهما من معنى ورنين من طريق (وسرى عليه) الَّتي عند البرعي و(مِنْهُنَّ) الَّتي عند البحتري ثمَّ قول البرعي من بعد (حيا العريض المُمْطر) موازن لقول البحتري (ديباجُ الخدودِ المذهب)

ولاسيما من العريض والخدود إلى آخر البيت ـ وأمثال الوحدة الموسيقيّة (ديباجُ الخدود المذهّب) في كامل البحتريّ كثير فمن هنا زعمنا تأثُّر البرعي بذلك ـ مثلًا :

لَيَشُوقُني سِحرُ العُيونِ المُجتَلى ... وَيَروقُني وَردُ الخُدودِ الأَحمَرُ

فَبَعَثنَ وَجدًا لِلخَليِّ وَزِدنَ في ... بُرَحاءَ وَجدِ العاشِقِ المُستَهتِرِ

ومن وحدات الرّنين في كامل البحتريّ جهارة استفهامه بهل عند أوائل الأبيات :

هَل تُبلِغَنَّهُمُ السَلامَ دُجُنَّةٌ ... وَطفاءُ سارِيَةٌ بِريحِ جَنوبِ

هَل رَكبُ مَكَّةَ حامِلونَ تَحِيَّةً ... تُهدى إِلَيها مِن مُعَنّىً مُغرَمِ

هَل دَينُ عَلوَةَ يُستَطاعُ فَيُقتَضى ... أَم ظُلمُ عَلوَةَ يَستَفيقُ فَيُقصِرُ

وليس الأرب تتبُّع هَذَا النّوع عند البحتريّ وإحصاءه وإنّما الإلماع إليه ونحوٌ منه قول البرعيّ من إحدى بائياته :

يا نازلين بذي الأراكة أو بذا ... تِ الجزع رسمَيْ عزّة ورباب

هل عندكم عِلْمٌ من العلمين أوْ ... عن معهدٍ في الرّقمتَيْن خراب

إنّي أحِنّ إلى العذيب وأهله ... وإلى مياهٍ بالعذيب عذاب

وكأنّ هذه البائيّة جارابها بائيّة أبي تمّام في مالك بن طوق . وفي إحدى والبّاته كانّه جارابها (اليوم عهدكم فأين الموعد) التي لأبي الطّيب ، وفي الدّلية المعنيّة :

يا نازلين عَلى العذيب وَثهمد ... بأبي وَبي كيف العذيب وَثهمد

وَهَل النَّسيم نسيمه بالروح وَالرّ ... يحان في غذباته مترددد

ومن أمثلة التّشابه في الصّياغة والرّنين الموسيقي في الرائيّة الّتي قدمنا قول البرعيّ :

وَعَلى الكَريم دلالَة عذريّة ... بصرت به فأرته ما لَم يبصر

فالصّدر كقول البحتريّ :

وَعَلى الأَميرِ أَبي الحُسَينِ سَكينَةٌ ... في الرَّوعِ يَسكُنُها الهِزَبرُ الأَغلَبُ

قول البرعيّ (دلالة) موازن لقول البحتريّ (سكينة) وكذلك قولهما (وعلى الكريم) و (على الأمير) عبارتان متوازنتان ، والعجز يشبه قول البحتريّ :

سُلِبوا وَأَشرَقَتِ الدِماءُ عَلَيهِمُ ... مُحمَرَّةً فَكَأَنَّهُم لَم يُسلَبوا

من حيث الصّياغة كما ترى :

ولا أرى إلّا أنك فطنت إلى مشابهة قول البرعي في الأبيات الرائية :

إنّ النّفوس عَلى اختلاف طباعها طمعت من الدّنيا بما لم تظفر

لقول البحتريّ :

وَطَلَبتُ مِنكِ مَوَدَّةً لَم أُعطَها إِنَّ المُعَنّى طالِبٌ لا يَظفَرُ

وكأنه صدى منه .

ومن أبيات البحتريّ المعروفة السّائرة :

فَسَقى الغَضا وَالنازِليهِ وَإِن هُمُ شَبّوهُ بَينَ جَوانِحِ وَقُلوبِ

يستشهد به عَلى الاستخدام في البديع كما تعلم ، وقول البرعيّ في ميميته (سجعت بأيمن ذي الأراك حمائمه) .

فَسَقى الحجاز حيا الغمامة كلها تَبكي سحائبه وَيَضحَك باسمه

على كثرة السّقيا في الشّعر ـ كأنه ينظر إليه من حيث طريقة مَأتَى الرّنين ، عَلى أن هاء الوصل بعد ميم الروى أحسبها منظورًا فيها إلى كلمة أبي الطّيّب (وفاؤكما كالرّبع أشجاه طاسمة) ، والله تعالى أعلم .

ومن نظر البرعي إلى نغم أبي الطّيّب في الطّويل قوله :

فؤادي بربع الظّاعنين أسير يقيم عَلى آثارهم وأَسير

وهي قصيدة طويلة جيدة . وهذا مطلعها وينظر إلى مطلع أبي الطّيّب في لاميته المعروفة :

لَياليَّ بَعدَ الظاعِنينَ شُكولُ طِوالٌ وَلَيلُ العاشِقينَ طَويلُ

على اختلاف الرويّ وذلك أنّ صياغة (بربع الظّاعنين أسير) مثل صياغة (بعد الظّاعنين شكول) وكذلك وزنها (وليالِيّ) قريبة من (فؤادي) ، وقس عَلى ذلك قوله (طِوَالٌ) ، (طَوِيلٌ) (يُقيم) ـ (يسيرُ) .

والمشابهة فِي الصّياغة والرّنين والرويّ واضحة جدًّا فِي قول البرعيّ :

أتـــأمرني بالصـــبر وَالطبـــع أغلـــب   وَتَعجَـب مـن حـالي وَحالـك أعجَـب

وهذا يجاري به كلمة أبي الطّيّب :

أُغالِـبُ فيـكَ الشَّـوقَ وَالشَّـوقُ أَغلَـبُ   وَأَعجَبُ مِن ذا الهَجرِ وَالوَصـلُ أَعجَبُ

وقد احترس بالتزام المقابلة المعنويّة فِي كلا القسيمين كما فعل أبو الطّيّب وهذا ما لم يصنعه شوقي رحمه الله فِي كلمته :

بِسَـيفِكَ يَعلـو الحَـقُّ وَالحَـقُّ أَغلَـبُ

فكرر ولم يقابل فجاءه الضّعف فِي المطلع من هَذِه الجهة .

وقد أعاد البرعيّ محاكاة مطلع أبي الطّيّب هَذَا فِي كلمته الجيميّة .

مَتـى يَسـتَقيم الظّـل وَالعـود أعـوج   وَهَـل ذهـبٌ صرف يسـاويه بهـرج

فضعف فِي القسيم الثّاني شيئًا إذ كرر فيه معنى الأوّل والتّوضيح فِي الشّعر ربّما جرّ زللًا.

وبيت الأعشى :

أَلَم تَغـتَمِض عَينـاكَ لَيلَـةَ أَرمَـدا   وبـتَّ كـما بـاتَ السَّـليمَ مُسَـهَّدا

فيه التّكرار من جهة المعنى إلّا أنّ فيه رنينًا زائدًا . والصّدر يقتري طريقة إيقاع بيت امرئ القيس :

سَـما لَـكَ شَـوقٌ بَعـدَما كـانَ أَقصَرا   وَحَلَّـت سُـلَيمى بَطـنَ قَـوٍّ فَعَرعَـرا

هذا ولأكثر مدائح البرعيّ مقدمات نسيب بحتريّة الرّوح من حيث جنوحها إِلى التّغني بالصّبابة والتّرنم بمعانيها . إلا أنّه مما تحس فِي أنفاس تغنيه حرارة وجدان جدّ عميق ، تأمّل قوله مثلًا :

هـم الأحبـة إن جـاروا وإن عـدلوا   فَلَـيسَ لي معـدل عـنهم وإن عـدلوا

وكـل شيء سـواهم لي بـه بـدل   مـنهم وَمـالي بهـم مـن غـيرهم بـدل

إنّي وإن فتنتوا في حبهم كبدي ... باق على ودهم راض بما فعلوا
شربت كأس الهوى العذريّ من ظمأ ... ولذلي في الغرام العلّ والنّهل
فليت شعري والدّنيا مفرّقة ... بين الرّفاق وأيّام الورى دول

تأمّل عمق هَذَا عَلى بساطة معناه ، ثمَّ توشك رنته أن تتجاوز كلا البحتريّ وأبي الطّيّب إلى حرارة أنفاس جرير وصفائه :

هَل ترجع الدّار بعد البعد آنسة ... وَهَل تعود لنا أيّامنا الأول
يا ظاعنين بِقَلبي أينما ظعنوا ... وَنازلين بِقَلبي أينَما نَزَلوا
ترفقوا بفؤادي في هوادجكم ... راحَت به يوم راحَت بالهَوى الإبل

وهذا البيت ينظر إلى إيقاع أبي الطّيّب وصياغته في قوله :

تَحَمَّلوا حَمَلَتكُم كُلُّ ناجِيَةٍ ... فَكُلُّ بَينٍ عَلَيَّ اليَومَ مُؤتَمَنُ
ما في هَوادِجِكُم مِن مُهجَتي عِوَضٌ ... إن مُتُّ شَوقاً وَلا فيها لَها ثَمَنُ

على تباين ما هناك من معنى ، إلّا أن تقول إن الَّذي ينعاه أبو الطّيّب تعلق القلب بفان وليست كذلك صبابة العارفين .

ومن أمثلة نسيبه الوجدانيّ الحسن قوله :

بالأبرق الفرد أطلالٌ قديهات ... لآلِ هند عفّتهُنَّ الغمامات
وَملعب لعبت هوج الرياح به ... كَأنّهم فيه ما ظلوا وَما باتوا
تنكر العلم الغربيّ من إضمٍ ... وأقفرتْ بعد بين الركْبُ رامات
تَشتهم جَمع الأحزان في كَبدي ... فالهم مجتمع وَالركب أشتات
فإن أنِستْ غيابات الفؤاد بهم ... فهم أحيابُ قَلبي يا غيابات
فَيا حَمامات وادى البان شجوك في ... ظل الأراك شجاني يا حَمامات
وَيا أثيلات نجد ما لعبت ضحى ... الا لعبت بِقَلبي يا أثيلات
تهيج لوعة قَلبي المستهام اذا ... هبّت بنشر الصّبا النّجديّ هبّات
فَكَيفَ حال بعيد الدّار مغترب ... لَهُ إلى الشّام حنّات وأنّات

والشّام بلد الرّسول عليه الصّلاة والسّلام؛ إذ مرادٌ به ههنا طيبة واستشعار الغربة والمرء فِي وطنه غاية الحنين ، والَّذي يدلك عَلى أنه قد كَانَ فِي وطنه قوله بعد هَذَا البيت :

يهـدي التحيـة مـن نيـابتي بـرعٍ ... إِلَى نبـي عطايـاه جـزيلات

وبنيَّابَتَيْ بُرَع إداره (وضبطها فِي المجموعة بفتح النون وليست فِي القاموس) وهكذا كانت حال صادقي الصّبابة من مداح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام .

هذا وفِي هَذِه الأبيات التّائيّة كمثل ما مرّ بك من اللّامية من بساطة التّكرار الطّرب والصّناعة العفويّة والحيويّة العذبة والشّاعر بعد يمزج ذلك بحب للطّبيعة ينفعل به انفعالًا سهلًا ميسورًا ، يخالطه أدنى تكلف قصد إِلى البراع فِي نعت ربيع أو غدير أو خميلة كالَّذي تجد عند كثير من الشّعراء ، حتى البحتريّ فِي قوله :

أَتـاكَ الرَّبيـعُ الطَّلـقُ يَختـالُ ضـاحِكاً ... مِـنَ الـبِشرِ حَتّـى كـادَ أَن يَـتَكَلَّما

على جودته فيه عمْدٌ إِلى الإتقان الفنيّ . وكذلك قوله :

أَلَم تَـرَ تَغلـيسَ الرَّبيـعِ المُبَكِّـرَ ... وَمـا حـاكَ مِـن وَشيِ الرِّيـاضِ المُنَشَّرِ

وفيه تخلّصه العجيب يذكر النّدى وضياء الشّمس عليه :

إِذا عَطَفَتـهُ الـريحُ قُلـتُ اِلتِفاتَـةٌ ... لِعَلـوَةَ فِي جادِيِّهـا المُتَعَصـفِرِ

بِـنَفسِيَ مـا أَبـدَت لَنـا حـينَ وَدَّعَـت ... وَمـا كَتَمَـت فِي الأَتحَمِـيِّ المُسَـيَّرِ

وفِي هَذَا عَلى زخرف صناعته شيء من كالوثبة الخاطفة الَّتي فِي قوله :

حَنَّـت قلـوصي بِـالعِراقِ وَشـاقَها ... فِي نـاجِرٍ بَـردُ الشَـآمِ وَريفُـهُ

وَمَـدافِعُ السـاجورِ حَيـثُ تَقابَلَـت ... بالضِّـفَتَينِ تِلاعُـهُ وَكُهوفُـهُ

وحتى هَذِه لا تخلو من نوع العمد إِلى الإتقان الفنيّ الَّذي قدمناه ذكره - تأمّل بساطة تغني البرعيّ رحمه الله بالحمامات والأثيلات فِي قوله :

فَيـا حَمامـات وادى البـان شـجوك فِي ... ظـلّ الأراك شـجاني يـا حَمامـات

وَيـا أثـيلات نجـد مـا لعبـت ضـحى ... إلا لعبـت بِقَلبـي يـا أثـيلات

تهيج لوعة قَلبي المستهام إذا هبت بنشر الصبا النهدي هبّات

وذكر الحمائم فِي شعر العرب قديم موغل فِي القدم إلّا أنّ ههنا تجاوبًا مَعَ هَذِه الحمائم وحُبًّا للطّبيعة العربيّة المحيطة بها وكأن غيابات فؤاده ، الَّتي يذكرها فِي قوله :

فإن أَنستَ غيابات الفؤاد بهم فهم أَحباب قَلبي يا غيابات

جزء متحد معها ـ وللبرعيّ فِي كلمته :

عاهدوا الرّبع ولوعًا وغرامًا

وكأنّها تجاري مهيارًا فِي كلمته :

أقبل العارِضُ تحدُوه النُّعامَى فسقاكِ الرِّيَّ يا دارَ أُماما

ما يشبه النّص عَلى هَذَا المعنى الَّذي قدمناه وذلك قوله :

أيّها اللّائم أذني لا تعي زخرف القول فدع عنك الملاما

ولع الحب بلحمي ودمي فعلام اللوم فِي الحب علاما

عربي الوجدِ بادِ طبعه يكره المِسْك ويرتاح الخزامي

ومما يدلّك عَلى مجاراة مهيار سوى الوزن والقافية قوله :

يا رفيقي بنواحي رامةٍ عننِّي بالأبرق الفرد وراما

والأثيلات المظلات بها أيها الأثل سقيتُنّ الغماما

كم بدُورٍ فِي خدور المنحنى يَستَعير البدر منهن التماما

ولمهيار كلمة مطلعها :

أين بدُور المُنْحَنَى سوالِفًا وأعيُنًا

هذا وذكر الحمائم عند البرعي كثير ، ولا غرو لما ذكر من حبُه البداوة والطبيعة العربيّة كما قدمنا ، كقوله :

إني إذا غرد القمريّ فِي سحر بذى الأراكة أسهاني وَألهاني

وَكلما لاح برق الغور مُبتَسِما فِي الغَور حرّك أَشجاني وَأشجاني

وكقوله :

سمعت سُوَيْجع الأثيلاث غَنَّى عَلى مَطْلُولَة العَذَبات غَنَّا

أَجابَتْهُ مغرِّدةٌ بنَجْد وَثنَّت بالإجابة حين ثَنَّى

وكقوله وكأنه قد تعمد فيه شيئًا عَلى غير مألوف مذهبه من إتقان نعت الطّبيعة ونظر نظرًا ما إِلى أبي تمّام :

سجعت بأيْمن ذي الأراك حَمائمه وَهمت عَلى عَذَب العُذَيْب غمائمه

وَسرى حِجازي النَّسيم يعانق المـ خضر من أثلاتِه وَيلاثمه

فأجبْتُ ساجع وُرْقه بِمَدامع ذَرَفَت عَلى طلل دَرَسْنَ مَعالمه

سَحَبت سحابُ الجوفيه ذُيُولها وَمحَاه من غدق الحيا متراكمه

وَتضاحكت أنوارُهُ وَتنوعت أَزهاره حين ابتسَمْن كَمائمه

وَتنكَّرت أعلامه وَربوعه وَتفرَّقتْ هِنْداته وَفَواطمه

وقوله (سَحَبتْ سحابُ الجوّ فيه ذيولها) من قول حبيب :

فَقَد سَحَبَت فيها السَحائِبُ ذَيلَها وَقَد أُخمِلَت بِالنَّورِ فيها الخَمائِلُ

والبيت (وتضاحكت أنواره) فيه مَعَ التقسيم بعض الضّعف من أجل مخالفته طريقة الإسماح السّلس الَّذي هو مذهبه . وكأن قوله (وتنكرت أعلامه) يحمل نوعًا من شرح وتفصيل لقول حبيب :

مُصفَرَّةٌ مُحمَرَّةٌ فَكَأَنَّها عُصَبٌ تَيَمَّنُ فِي الوَغا وَتَمَضَّرُ

فهذا كما ترى ضرب من تعريف وتنكير .

ومن أجود ما عبَّر فيه البُرعيّ عن حبّه للطّبيعة قوله فِي رائيّته (فؤادي بربع الظّاعنين أسير) :

فَيالَيت شعري عَن محاجر حاجرٍ وَعَن اثلاث روضهنَّ تضير

وَعن عذبات البان يلعبن بالضحى عليهن كاساتُ النَّسيم تدور

ومن لي بان أَرْوَي من الشّعب شَرْبةً وأنظُرَ تلك الأرضَ وَهي مطير

وأسـمع فِي ظـلّ اليشـامِ عَشِـيَّةً بكـاءَ حَمامـاتٍ لهـنَّ هـدير
فَيـا جـيرة الشّـعب اليَمانِي بحقّكـم صِـلُوا أو مُـروا طيـف الخيـال يَـزور
بعـد تُـم وَلَمَ يبعـد عَـن القَلـب حُـبُّكم وَبِنْـتم وَأنـتم فِي الفـؤاد حُضـور
أَحَيْبـاب قَلبـي هَـل سـواكم لعِلّتـي طَبيـبٌ بـداء العاشـقين خَبـير
فَجـودوا بوصْـلٍ فالزَّمـان مفـرِّق وأكثـرُ عُمْـر العاشـقين قَصـير

ألست ترى ههنا أن محاجر حاجر وأثلاته وروضه النّضير وعذبات بانه وسجعات حماماته كل ذلك متحد مَعَ وجدان الشّاعر وصباباته وأحيبابه كلّ الاتّحاد ؟ أم لست ترى أنّ صفات الطّبيعة ههنا إن هي إلا محض تغنّ بها ، لا يراد به إلى عمد من إظهار براعة فن وإتقان وصف ؟

وكما أحب البرعيّ الطّبيعة عربية ذات خزامى وأثل وأراك ، كذلك أحب رسول الله ﷺ عربيا سيّدًا يرتاح للنّدى ويسره جزل المديح . وعبر عن هَذَا الحبّ بحسن الثّناء الواضح الجهير الغناء يمازجه التّوسل الحار يرجوبه حسن الثّواب فِي الدّنيا والآخرة مثلا قوله فِي هَذِه الرائية :

وَقَـد أَثْقَلَـت ظهـري الـذّنوبُ وإنّـما رَجـائي بغفّـار الـذّنوب كَبـير
وَجـاه رَسـول اللهَ أَحْمَـد نُصْرتي إذا لَمْ يَكُـنْ لي فِي الخطـوب نَصـير
وَمَـدْحُ رَسـول اللهَ فـألُ سَـعادَتي أفـوز بـه يـوم السَّـماءُ تمـورُ
نَبِـيٌّ تَقـيٌّ أريحـيٌّ مهـذَّبٌ بَشـيرٌ لكـل العـالمين نـذير
إذا ذُكِـر ارْتاحَـت قلـوبٌ لـذكره وَطابَـت نفـوسٌ وانشرحْـن صـدور
حـرامٌ عَـلى الـدّنيا وجـود نظـيره لقـد قـل موجـودٌ وعـز نظـير
وكيـف يُسـامىَ خـير مـن وَطـئ الثَّـرَى وفِي كـلِّ بـاعٍ عـن عـلاه قُصـور
وكـلُّ شريـفٍ عنـده متواضـعٌ وكـل عظـيم القـريتين حقـير

ثم بعد هَذَا النّغم الجزل الرّصين يأذ فِي تعداد المعجزات الشّريفة وبعض أخبار السّيرة الطّاهرة ، مثلًا :

لئن كانَ فِي يمناه سبّحت الحَصَى ... لَقَد فاضَ ماءٌ للجيوش نمير
وَخاطَبه جِذْع وَضَبٌّ وَظَبْيَةٌ ... وَعُضْوٌ خَفيٌّ سُمُّهُ وَبَعير
ودرّ لَهُ الثَّدْيُ الأجَدُّ كَرامَةً ... كَما انشقَّ بدرٌ فِي السَّماء مُنير
وَباض حمام الأيك فِي إثْره كَما ... بَنَتْ عَنكَبوتٌ حين كانَ يَسير
وأن الغَمامَ الهاطِلاتِ تُظِلُّه ... بِرَوْح نَسيمٍ إن أَلَمَّ هَجير

وليس ههنا تكلّفٌ ولا أمْتٌ من تصنيع، وإنّما هو نفس سلس وتَغَنٍّ منساب:

وَمن عَزْمه تَخريب خَيْبر مثل ما ... قُرَيْظَة قَرْضٌ وَالنَضير نَظِير
وإنَّ رسول اللهَ من مكة سَرَى ... إلى القدس وَالرُّوح الأمين سمير
فَجازَ السَماء السبع فِي بعض لَيلَةٍ ... وَلكن بعد السبع أينَ يَصير
فَلاح لَهُ من رفرف النور لائح ... من النور للهادي البَشير بَشير
وَشاهد فوق العرش كلّ عَجيبة ... وما ثم إلا زائر وَمزور
حَبيب تَمَلَّى بالحَبيب فحصه ... وَشرفه بالقَرب وَهوَ جَدير
فَعاد قَرير العين فِي خِلَع الرِّضا ... وَقَد شَمِلْته بهجةٌ وَحُبُور

ثم يأخذ رضي الله عنه فِي بسط حاجته والتّوسل إلى ممدوحه ﷺ:

أمولايَ قم بي فِي الخطوب فإنّ لي ... تجارة مدح فيك ليس تبور
عَرائس لا تَرضى بغيرك صاحبا ... لهن عَزيزات المهور مهور
علت وَغلت إلا عليك فأرْخِصَت ... ليُرْخِص حورًا فِي القصور قُصُور
مؤلّفها عَبْدُ الرَّحيم كَأنَّها ... كَواكبُ فِي جوِّ السَّماء تُنير
لبسن مَعانيها بمدحك بهجةً ... فَلاح لَها نورٌ وَفاح عَبير
فقل أنتَ فِي الدّارين فِي حزبنا وَمَنْ ... يَليك صَغيرٌ سِنُّه وَكَبير
وَصلى عَلَيك اللهَ واختص واجتبى ... فأنتَ هُدًى للعالمين وَنور
وَعمَّ رضاه الآل وَالصحب إنهم ... لدينك يا شمس الزَّمان بدور

وأحسبه نظر فِي قوله (يا شَمْسَ الزّمان) ههنا إلى قول أبي الطّيّب:

أُحِبُّكَ يا شَمسَ الزَّمانِ وَبَدرَهُ وَإِن لامَني فيكَ السُّهى وَالفَراقِدُ

وكثيرًا ما يذكر البرعيّ رضي الله عنه اسمه فِي آخر مدحته وأحيانًا فِي أوائلها وهو مذهب كثيرٍ من المُدَّاح . مثلًا قوله :

يا سَيدي يا رَسول اللهَ يا أَملى يا راحَة الرّوح من ضيم واضناك

نـاداكَ من برع الغراء قائلها عَبد الرَّحيم المسيء الخائف الباكي

وقوله :

نـاداكَ من برع الغرّاء قائلها عَبد الرَّحيم المسيء الخائف الباكي

فاعطف عَلى عَبد الرَحيم برحمة واجبُر بفضلك ما الحوادث تَهْهض

وقوله :

إن قمت يا ابن الطّيبين مُشَفَّعًا فِي المُذْنبين وَمُشْفِقا مُتَرَحِّما

فاعطف عَلى عَبد الرَّحيم برحمة فَلَقَد طغَى وَبَغَى وَجارَ وأ جرْما

وقوله :

عَلَيك سَلام اللهَ عد بِكَرامة لمن لا يَرى غير الذنوب لَهُ كسبا

وَقل أَنتَ يا عَبد الرَحيم غدًا معي بحضرة قدس عند من يغفر الذَّنبا

وقوله :

نبيّ هاشميّ أَبطحي شَمائله السماحة وَالوفاء

وقل عَبد الرَّحيم ومن يَليه لهم فِي ريف رأفتنا جزاء

وقوله :

وإن مدحتك بالتَّقصير معترفا فمدحك الوحي وَالسّبع القرآت

قل لا يخف بعدَها عَبد الرَّحيم ومن يَليه أَهل وَصحب أَو قرابات

والأمثلة فِي هَذَا المعنى بعد كثيرة جدًّا . وأحسب أنّ من أسباب ذكر الاسم فِي قصيدة المدح النّبويّ طلب التّبرك بذلك . ولاسيما حين تنشد القصيدة فِي مقام العبادة ؛ إذ فِي

ذلك كالدّعاء والشّهادة لصاحبها .

هذا ومثال آخر من مدح البرعيّ ، فيه ما قدمنا من سلاسة الغناء وتعداد المآثر وحماسة التّوسل قوله من التّائيّة (بالأبرق الفرد) :

منـي السّـلام عَـلى القَـبر الّـذي اعكفت ... فيـه العـلى وانتَهَـت فيـه النّهايـات

وَجـاد طيبـة مـرفض يَلـوح بـه ... زهـر الريـاض وَتخضر البشـامات

لاحظ جانب الطبيعة ههنا :

أَرض سـمت بِرَسـول الله أشرف مـن ... تشرفـت فيـه آبـاء وامـات

مَتـى أَرى النّـور مـن أَرجـاء قبتـه ... مَتـى تبـاشرني منـه البشـارات

فـإن ولهـت إلى قـبر ابـن آمنـة ... فهـوَ الَّـذي حقـت فيـه الرّسـالات

ذاكَ الحَبيـب الَّـذي تَرجـو عواطفـه ... وَبـره الخلـق أَحيـاء وَأَمـوات

البـدر شـق لَـهُ وَالغـيم ظلّلـه ... مـن الهجـيرِ وَسـبحن الحصـيات

وَشـاة جـابر يـوم الجـيش معجـزة ... نعـم النَبـي وَنعـم الجـيش وَالشـاة

ثم يأخذ من بعد هَذَا فِي التوسل :

مَـولاي مَـولاي فـرج كـل معظمـة ... عنـي فَقَـد اثقلـت ظَهـري الخطيـآت

وَعـد عَـلى بـما عـودّتني كرمـا ... فكَـم حـرت لي بخـير منـك عـادات

وامنـع حمـاي وهـب لي منـك مكرمـة ... يـا مـن مواهبـه خـير وَخـيرات

واعطـف عَـلي وخـذ يـا سَـيدي بيـدي ... إذا دهتنـي الملـمات المهـمّات

فقـد وقفـت ببـاب الجـود معتـذرا ... وَالعَفـو متسـع وَالعـذر أَبيـات

وهو هنا يعتذر عن تفريطه فِي الزيارة وكأنه ينظر إِلى قول كعب :

أُنبِئْــتُ أَنَّ رَســولَ اللهَ أَوعَــدَني ... وَالعَفْــوُ عِنــدَ رَســولِ اللهَ مَــأمولُ

وقــد أتيــت رســول الله معتــذرًا ... والعُــذْرُ عنــد رســول الله مقبــول

وكثيرًا ما يلجأ البرعيّ إِلى رسول الله ﷺ فِي خويّصة أحوال نفسه وأصحابه وأهله وأرحامه ـ فمن ذلك يذكر صاحبًا لَهُ يحن إِلى زيارة القبر الشّريف :

حججت وَلَمْ أزرك فَلَيتَ شعري ... مَتى بمزارك الجافِي يُهَنَّأ
وَثم صويحب يَرجوك مِثلي ... بعادك عنه أمرضه وأضنى
يَكادَ يَذوب إن ذكروك شوقًا ... إليك فَهَل بجاهك منك يدنى
عَسى عطف عسى فرج قَريب ... فَقَد وصل الأحبة وانقطعنا

ومن أخرى يعرض فيها ببعض أذى أصابه ويسأل رسول الله ﷺ أن يمنعه :

يا سَيدي يا رَسول اللهَ يا أَمَلي ... يا موئلي يا مَلاذي يوم يَلقاني
هبنى بجاهك ما قدمت من زلل ... جودا وَرجح بفضل منك ميزاني
واسمع دُعائي واكشف ما يساورني ... من الخطوب وَنفس كلّ أَحزاني
فأَنتَ أَقرَب من تَرجى عواطفه ... عِندي وإن بعدت داري وَأَوطاني
نَوالك الجمّ يَطويني وَينشرني ... بالمكرمات وَعين اللّطف ترعاني
إني دَعَوتك مِن نيابَتي برع ... وَأَنتَ أَسمع من يَدعوه ذو شان
مستعدِيًا يا فردا الجلال عَلى ... دهر يُحاول بعد الرّبح خسراني
فاعطف حَنانا عَلى عَبد الرَّحيم ومن ... يَليه فِي النّاس من أهل وإخوان
وامنع حماى وأكرمني وَصل نسبي ... برحمة وَكَرامات وَغُفران
لا تعد عَيناك عَني بالرعاية فِي ... نفسي وَسربي ومن فِي اللهَ والاني
وَبعد صلى عَلَيك اللهَ ما اعتَنَقت ... ريح الصبا عذبات الأثل والبان

وقال يذكر ولده وقد مرض مرضًا شديدًا وسياق الأبيات يدل عَلى أنّ ذلك قد كَانَ بالمدينة فيكون رحمه الله قد زارها بعد الَّذي سبق لَهُ أن كرّر الاعتذار عنه من تقصيره إذا حج ولم يزر :

يا سَيدي يا رَسول اللهَ خُذ بيَدي ... فِي كل حادثة مالي بها قبل
قالوا نزيلك لا يؤذي وَها أنا ذا ... دَمي وَعرضي مباح وَالحمى همل
وَذا المسمّى بك اشتد البَلاء به ... فارْحَمْ مدامعه فِي الخدّ تنهمل
وَحل عقدة هم عنه ما برحت ... واشرح به صدر أم قَلبها وجل

وَصِل بمرحمة عَبد الرَّحيم ومن ... يَليه لا خاب فيك الظّن والأمل

وذكر الأم فِي هَذَا الموضع يشعرك بحنان شديد ـ وله يذكرها فِي موضع آخر من كلمة أخرى إلهية :

افتح لروحي الفردوس باب رضا ... يَهدي رياح رياض ظِلُّها ضال

لقوله تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة : ٢٨] .

والطف وَرائي بأطفال وأمهم ... إن كانَ خَلفِي أَو يلاد وأطفال

واللاميّة الَّتي قدمنا من جياد البرعي ومطلعها :

هم الأحبّة إن جاروا وإن عدلوا ... فَلَيسَ لي معدل عنهم وإن عدلوا

وقد استشهدنا من قبل بشيء من نسيبها ... ومن بارع مدحه قوله فيها :

لادر در المَطايا أَينَمَا ذهبت ... إن لم تنخ حيث لا تثنى لها العقل

حيث النّبوّة مضروب سرادقها ... وَطالع النّور فِي الآفاق يشتعل

وَحيث من شرف اللهَ الوجود به ... فاِستغرق الفضل فردا ماله مثل

محمّد سيد السّادات من مضر ... سرّ السُّرارة شمس ماله طفل

شوارد المجد فِي مَعناه عاكفة ... وَريف رأفته غصن الندى الخضل

وههنا كما ترى نظره إلى الطبيعة والخضرة .

ومن تضرعه الشّخصي الساخن قوله فِي أول بائيته :

أَرياح نجد يممي الهابا ... وَتقطعي طرق الحجاز ذهابا

يذكر حمى أصابته ويسأل رسول الله ﷺ أن يشفى بجاهه منها :

من عبده عبد الرَّحيم فإنه ... من أم ملدم قد أذيق عذابا

نفخت عليه بحر نار جهنم ... وأذابَت الجسم الضّعيف مذابا

حَتّى إذا لم تَبقَ من أعضائه ... إلا عظامًا قد وهت وإهابا

وحمى الورد مما تفعل ذلك :

نـــاداك مرتجيًـــا بجاهـــك عطفـــة يـــا خـــير مـــن سـمع النّـدا فأجابـــا
يـــا صـــاحب الجـــاه العَظـــيم لمثلهـــا أَحســـنت ظنّـــي فِي الزّمـــان فخابـــا
قـــم بي وَبـــالمرضى فجـــودك عـــارض مـــا زالَـــت المَـــرضى إليـــه عيابـــا
فَلَقَـــد جَعلتـــك فِي الخطـــوب وَسـيلَتي إن نـــابَني زمـــن قرعـــت البابـــا

وهذا التّضرع منه فِي كـل مـا ينوبـه لنفسـه وأهلـه وزوجتـه وأولاده ووالديـه وعشـيرته وأصحابه شاهد صدق ورقة ورأفة . ويلحق به تعريضه بمبغضيه وحاسديه والمتّربصين به لدلالته عَلى حدة انفعاله وذلك من سنخ الرّقة والرّأفة قريب كالّـذي مر من استشهادنا وكقوله :

فـاِعطف عَـلى عَبـد الـرَّحيم برحمـة واشـفع لَـهُ مـن هـول كـل عـذاب
وانهـــض بـــه وَبمـــن يَليـــه فإنـــه مســـتعتب فِي موضـــع الأعتـــاب
واقمـــع بحولـــك باغضـيه وكـــلّ مـــن يؤذيـــه مـــن متمـــرّد مرتـــاب
وَبجـــامع النّيـــابَتين صـــو يحـــب واهـــى القـــوى متقطـــع الأســـباب
إن قمـــت بي وبـــه بلغنـــا كـــل مـــا نَرجـــوه مـــن خـــير وحســـن مـــآب

وحلاوة العطف عَلى صاحبه الفقير اليأس ههنا تقابل ما تقدم من غضبه عَلى الحسَّاد والبغضاء وأهل التمرد .

هذا وحسبك بعد هَذَا كلّه شاهدًا عَلى صدق البرعيّ وصفاء روحه وشدة صبابته وجودة اعترافه بالذّنب إذا قصر عن الزيارة لما حج ـ وكأنّ هَذَا التّقصير نفسه قد كَانَ من أدلّة محبّته) وتكرار استشعار النّدم عَلى ذلك فِي غير ما موضع من مدائحه وقد مرّ عليك منه . ونذكّر فِي هَذَا الموضع مثالًا قوله من قافيته الَّتي أولها :

أراني مـــا ذكـــرت لـــك الفراقـــا وَدمعـــــك واقــــف إلاهراقـــا

وهي من جياده :

حججـــت وَلَمْ أزرك لســـوء حَظّـــي وَعبـــد الســـوء يَعتـــاد الإباقـــا
أتـــاكَ الزّائِـــرون مـــن النَّـــواحي يحثـــون السّـــوابق وَالنّياقـــا

وَعـــاقتني ذنـــوبي عنـــك فـــاعِلَم ... بـــأنّ الـــذّنب أوقفنـــي وَعاقـــا
فصِـلْ عَبـد الـرَّحيم بحبـل جـود ... تعـــمّ بـــه الاحبـــة وَالرّفاقـــا
أَتيتـــك سَـيدي بالعـــذر فـــاعطف ... عَـــليّ إذا الفَضـــاء عـــليّ ضـــاقا
قصرت خَطـــاي عنـــك مـــن الخَطايـــا ... وَذَنبـــي لَمْ أطـــق معـــه انطلاقـــا
فكـــن ظـــلي غَـــدا وَشَـــفيع ذَنبـــي ... وَحوضـــك فاســـقني منـــه دهاقـــا
وآنـــس بـــالقبول غَريـــب لَفظـــي ... وَنفـــس عَـــن مؤلفـــه الخناقـــا
فَقَـــد ملكتنـــي الأوزار عَبـــدًا ... وَلكنـــي رجـــوت بـــك العتاقـــا
وَكَيـــفَ يَخـــاف لفـــح النّـــار مِـــثلي ... وَجـــار حمـــاك لم يخـــف اِحتراقـــا
عَليـــك صَـــلاة ربّـــك مـــا تَبـــارَت ... ريـــاح الجـــوّ تَســـتَبِق اســـتباقا

ومن جيد مدحه فيها :

إمـــام المرســـلين وَمنتقـــاهم ... وأكـــرمهم وأطهـــرهم نطاقـــا
نبـــيّ أنـــزل الـــرّحمن فيـــه ... تَبـــارك وَالضّـــحى والانشـــقاقا
كِتابـــا ذا صراط مُســـتَقيم ... مبـــين لا إفـــتراء وَلا اختلاقـــا
فَـــلا بـــرح الغـــمام يجـــود أرضـــا ... نَـــرى لضـــياء قبتهـــا ائتلاقـــا
نبـــيّ لَمْ يَـــزَل يَســـمو علـــوّا ... إلى أن جـــاوزَ الســـبع الطّباقـــا
نضـــاه اللهَ للإســـلام سَـــيفا ... أَزال بـــه الضَّـــلالة وَالنِّفاقـــا

صلى الله عليه وسلم . وجزى الشّيخ الصّالح والإمام الشّاعر الفحل المفلق عبد الرّحيم البرعيّ عن المسلمين وعن العربيّة خيرًا كثيرًا . وبحسبنا هَذَا القدر المختصر اختصارًا فِي التّنبيه عَلى مكانه العظيم من تأريخ أدبنا الثّري العريض . ونأمل بعد أن نتابع الحديث فِي هَذَا الباب كما قد وعدنا بعون الله تعالى وتوفيقه إن شاء سبحانه وتعالى وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

التعقيبات

الدكتور حسني سبع : شكرًا للدكتور عبد الله الطّيّب عَلى هَذِه الكلمة الطيّبة الَّتي ألقاها .

الأستاذ زكي المهندس : الحق أن كلمة الدّكتور عبد الله الطّيّب جميلة ، وإني لشديد الإعجاب بها . ولقد أثارت فِي نفسي ، كما لابد أنها قد أثارت فِي نفوسكم ، عواطف دينيّة وأحاسيس روحيّة صافية عظيمة ، ولهذا فإنّي أقول لَهُ : إن كلمته هَذِه لابد أن تتبع بكلمات أخرى تلم بالموضوع كلّه من جميع نواحيه ، ذلك أنّ هَذَا البحث الَّذي استمعنا إليه قد حدثنا عن عبد الرّحيم البرعيّ وقدرته فِي مدح النّبي عليه الصّلاة والسّلام ، ولكن فيما يتعلّق بالشّعراء الذين تقدموه كَانَ الدّكتور الطّيّب يكتفِي فقط بأوائل القصائد وإنا لنعلم جيدًا أن أوائل القصائد حتى فِي المدح كانت دائمًا تبدأ بمقدمة غزليّة ، وبعد ذلك يطرق الشّاعر الموضوع ، ومن ثمَّ فالاكتفاء فقط بأوائل القصائد لم يوقفنا عَلى كيفية مدحهم للنبيّ عليه الصّلاة والسّلام ، مما يقتضي معه أن تتبع هَذِه الكلمة بكلمات أخرى تلم بالموضوع من أطرافه ، وليس ثمّة شك أنّ القصائد الأخيرة لعبدّ الرّحيم البرعيّ قد صورت لنا تلك الشّخصيّة العظيمة المؤمنة ، ولكنّ الشّعر الحديث حافل أيضًا بقصائد فِي مدح النّبيّ عليه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام . فلأحمد شوقي مثلًا إسلاميّاته الَّتي اشتهرت وذاع صيتها وجلها فِي مدح النبي مثل : ولد الهدى . سلوا قلبي ، نهج البردة ... إلخ .

ولأحمد محرم ، الشّاعر الدّمنهوري المعروف . ملحمة مشهورة فِي مدح النّبي أيضًا ، وله أيضًا شعر كثير يدور فِي هَذَا المدار ، فالحصاد الشّعريّ فِي مدح النّبيّ ، حصاد وفير ، وهذا يجعل الدّكتور عبد الله الطّيّب مطالبًا بأن يتبع بحثه الشّيق هَذَا ببحوث أخرى . إن شاء الله ، يحلل فيها شعر المديح النّبويّ فِي العصر الحديث ، كما حلل هَذَا الاتجاه فِي الشّعر القديم .

الدكتور حسين علي محفوظ : أود أن أشير تبركًا أن كلمة الأخ الزميل الفاضل الطّيّب شرفت أن تقال فِي سنة الاحتفال بذكرى مرور أربعة عشر قرنًا عَلى ميلاد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ وأريد أن أضيف أن المديح النّبويّ أغنى الآداب الشّرقيّة بهذا الباب من فنون الشّعر ، وإذا بدأ الشّعراء العرب قصائدهم بالنّسيب ، فإنّ شعراء الفّارسيّة والتّركيّة والأردية تعودوا أن يفتتحوا دواوينهم بما يسمونه (المناجاة) ، وهو افتتاح الدّيوان بحمد الله ـ عز وجل ـ ثمّ مديح الرّسول ﷺ وأصحابه الأربعة الخلفاء ـ رضي الله عنهم .

وقد ترجمت البردة ـ مثلًا ـ إِلى الفارسيّة شعرًا . وقد عثرت عَلى نسخة من إحدى ترجماتها الشّعريّة القديمة فِي مكتبة الكليّة الشّرقية بجامعة لينغراد .

هذا ـ وكنت أتمنّى أن يفصل الأخ الزّميل الكلام عَلى (شعر المديح النّبويّ) كما دل عليه عنوان دراسته . ولكنه خص (البرعيّ) . فلقد عنى الأدباء والشّعراء ، فِي كلّ البلاد العربيّة والإسلاميّة بالمديح النّبويّ وشرفوا بنظم القصائد بمدحه . واهتموا بالبردة الَّتي شغلت الناس شرحًا وتشطيرًا وتخميسًا وتسديسًا وتسبيعًا وتقليدًا ومعارضةً . ولقد نظم شيخنا المرحوم الشّيخ محمّد المساوي (المتوفي سنة ١٣٧١هـ) وهو من أعلام العلم وأئمة الأدب فِي العراق ـ روضة فِي مدح النّبيّ ـ ص٢٩ قصيدة عَلى ٢٩ قافية بحسب حروف المعجم وشجر أوائلها عَلى الحروف أيضًا وقد سمى ذلك (شجرة الرّياض فِي مدح النّبيّ الفيّاض) .

أمّا ذكر الشّاعر اسمه فِي آخر القصيدة ، فقد تعود الشّعراء غير العرب وبعض الشّعراء، العرب المتأخّرين أن يذكروا اسمهم فِي آخر القصيدة (فِي البيت الأخير أو ما قبله) ويسمون ذلك (التّخلّص) ، يسمون بذلك قصائدهم . ولكلّ شاعر تخلص يختاره ـ وقد يكون التّخلّص اسمه أو لقبه أو نسبه أو النّسبة إِلى ممدوحه أو ما يعتز بالاعتزاز إليه من شرف أو رمزيّة أو صنعة . وقد يلقب الشّاعر أحيانًا بتخلصه ولا يعرف إلّا به مثل (سعدي) و(حافظ) فقد عرفا بتخلصهما .

الدّكتور عبد الله الطّيّب : من أعماق القلب أشكركم جزيل الشّكر عَلى تقبّلكم الحميد

للبحث الَّذي ألقيته اليوم ، وأعدكم أنّي سأعمل عَلى الانتفاع ، ما أمكنني ذلك ، بملاحظتكم وتعقيباتكم الشّيّقة ، ولا يفوتني أن أنوّه بأنّي قد قلت فِي أوائل كلمتي إنّ شعر المديح النّبويّ لا يزال حتّى الآن يجد من يهتم به فِي سائر البلاد الإسلاميّة .

ولكنّ الَّذي يحز فِي نفسي ، وآخذه على المشتغلين فِي حقل التّعليم أنّ هَذَا اللّون من الشّعر يجد سوقًا كاسدةً فِي المدارس الَّتي تنتشر فِي أنحاء مدننا ، ويتلقى فيها أبناؤنا قسطهم من التّعليم ، فلينظر أيّ منّا مثلًا فِي كتاب من كتب تاريخ الأدب كالوجيز ، والوسيط وهلمّ جرّا ، فسيجد أنّها خالية من كل إشارة إِلى شعر المديح النّبويّ ، ولاشكّ أنّ من الأهمية بمكان أن يشب النّاشئة الذين يتلقون العلم فِي المدارس عَلى الاهتمام بهذا اللّون من ألوان الشّعر العربيّ ، فهم الذين سيقودون الحركة الثّقافيّة فِي بلادهم بعد بضع سنين ، ولا أقل من أن ينشئوا وهم يدركون مكانة هَذَا الفن فِي تراثنا . ولهذا ينبغي أن ننفض عنه غبار الإهمال ، وأن ندفعه فِي ساحة الأدب الواسعة بدلًا من أن نتركه مزويًا هكذا فِي مكان قصي من تاريخ أدبنا ، مكان لا يرتاده إلّا المتصوّفة والعباد فحسب . هَذَا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد عقدت العزم وإني لأرجو أن يوفقني الله إِلى ذلك ، أن أتابع الدّراسة فِي هَذَا الموضوع ، وأن أتناول بالتّحليل شعر المديح النّبويّ عند أعلامه الكبار ، من أمثال : البوصيريّ ، والصّرصريّ ، والشّهاب محمود . وقد أدرسه أيضًا عند لسان الدين الخطيب وآخرين . حتّى إذا ما فرغت من دراسة شعر المديح النّبويّ عند هؤلاء الأعلام فقد أعرج عَلى العصر الحديث ، وإنّي لأسأل الله العليّ القدير أن يعينني عَلى القيام بهذا العمل .

أمّا فيما يتعلق بذكر الاسم فِي آخر القصيدة فرأيي أنّ العجم قد أخذوه عن العرب ، وليس العكس فقد سمعنا كعب بن زهير يقول :

تسعى الوشاة جنابيها وقولهمو إنّك يابن أبي سلمى لمقتول

فقوله : إنك يابن أبي سلمى لمقتول - ورد فيه اسمه ، ولا يدفع هَذَا بأن يقال : ربما ذكر اسمه ولم يقصد إِلى ذلك قصدًا ، فهل حدث الشيء نفسه عندما قَالَ :

مـن مبلـغ زفـر القـيسي مدحتـه ‏ مـن القطـامي قـولًا غـير إفنـاد

والبيت من قصيدة من الشّعر الأمويّ المتقدّم مطلعها :

ـ ما اعتـاد حـبّ سـليمى حـين معتـاد ـ

وإذا نظر المرء فِي قصائد العرب القدامى فقد يجد بعضهم يوردون أسماءهم فِي القصيدة عَلى نحو ما فعل امرؤ القيس حينما قَالَ :

ـ بـان امـرأ القـيس بـن تملـك بيقـرا ـ

والرأي عندي أنّ هَذِه الخلّة ليست قاصرة عَلى أناس دون أنـاس ، وإنّـما هـي عـادة مـن عادات النّاس فِي كل زمان وفِي كل مكان ، فالمرء قد جبل عَلى حـبّ نفسـه ، ومـن ثـمَّ فهـو يحب أن يذكر اسمه وأن يسجّل ، وأن يحفظه التّاريخ عَلى مدى الأجيـال . ولعـلّ العـرب ، فِي هَذِه النّاحية ليسوا بأسبق إليها من غيرهم ، ولعـلّ غـيرهم ليسـوا بأسـبق إليهـا منهـم ، والله تعالى أعلم .

هـ ـــ مَعَ المرزوقيّ فِي عمود الشّعر (١)

وأمّا عمود الشّعر فمن العجب الزّعم الـدّائر الآن أنّ هَـذِه العبـارة كانـت اصـطلاحًا . ولو كانت اصطلاحًا لكان النّقّاد قد أفردوا لها بابًا أو فصلًا . ولا تجد شيئًا من عند أحد منهم وحسبك شاهدًا عمدة ابن رشيق وكتاب قدامة وأبي هلال والمثل السّائر وإنّما كَانَ قولهم عمود الشّعر كقولهم عمود كذا وكذا أي قوامه وما ينبغي أن يعمد إليه فيه وقولنا الصّلاة عماد الدّين ليس عماد الدّين فيه اصطلاحًا للصّلاة ولما ينبغي أن تكون عليه ولكنه وصف وتمثيل ، وكـذلك قولـك عمـود الشّـعر ، قَـالَ الجـاحظ فِي الحيـوان ج٦ ـ ٧٢-٧٣ (الطّبعة المصوّرة عن حيوان عبد السّلام هارون) فِي معرض الحديث عن الضب : (فأمّا ما ذكروا من أن للضّبّ كذا وكذا فهذا من العجب العجيب ولم نجدهم يشكون وقد يختلفون ثمَّ يرجعون إِلَى هَذَا العمود أ ـ هـ أي عامدين إِلَى هَذَا القـول المتقـدم . وفِي البيـان والتبيين ج١ ـ ص٣٤٠ (وكان خالد جميلًا ولم يكن بالطّويل فقالت لَهُ امرأته : إنّك لجميل يا أبا صفوان . قَالَ : وكيف تقولين هَذَا وما فِيّ عمود الجمال ولا رداؤه ولا برنسه فقيل لَهُ: ما عمود الجمال ؟ فقال : الطّول ولست بطويل ورداؤه البياض ولست بأبيض وبرنسه سواد الشّعر وأنا أشمط ، ولكنّ قولي أنّك مليح ظريف . ا.هـ . فالعمود والبرنس والرّداءُ مَعَ ما أضفن إليه ههنا لسن باصطلاحات .

ولكن هَذِه الطّريقة من التّعبير وعمود من أساليب البيان أي شيء يعمد إليه العامد من أساليب البيان .

قال الجاحظ فِي الجزء الرّابع من الحيوان ص ٧٧ بمعرض تفسير قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة : ٣] أنّ شحم الخنزير مراد أيضًا بالتّحريم (فلمّا كَانَ اللّحم هو العمود الَّذي يقصد إليه إلخ) وقالوا عمود الرّواية أي ما يُعْمدُ عليه منها ،

(١) مجلة مجمع اللّغة العربيّة ، ج٦٢ ، ص ١٨٢ . (حسن) .

وما يعمد إليه منها ، والأمثلة فِي هَذَا المجال كثيرة وعلى هَذَا قولهم : (عمود الشّعر) أي ما ينبغي أن يعمد إليه منه فهذا ليس باصطلاح فعسى أن يكف بعض القائلين من غربهم فِي هَذَا المجال وليس ما ذكره المرزوقيّ فِي مقدمته لشرح الحماسة بخارج فِي جملته عما ذكرنا ، ذلك بأنّ المرزوقيّ قد جعل لعموده أبوابًا فدلّ بذلك عَلى أنه وجه يعمد إليه ومقاصد يقصد نحوها إذ لا يحسن أن نزعم أن لَهُ أبوابًا إلّا عَلى هَذَا المعنى ومن قَالَ أنّ العمود يدلّ عَلى الخيمة والخيمة لها أبواب فقد تكلّفَ والمرزوقي رَحمه الله مِمَّن يتكلف غير أنّه لا يبلغ به ذلك هَذَا الحد . وقوله عمود الشّعر المعروف عند العرب أشبه بالمعنى الَّذي قدّمناه أي مقصد الشّعر المعروف عند العرب . وإليك بعد أهم ما قَالَ : (فالواجب أن يتبيّن ما هو عمود الشّعر المعروف[1] عند العرب ليتميز تليد الصّنعة من الطذريف وقديم نظام القريض من الحديث ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم أقدام المزيّفين عَلى ما زيفوه ويعلم أيضًا فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلة الأتى السمح عَلى الأبي الصّعب فنقول وبالله التوفيق :

(إنّهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللّفظ واستقامته والإصابة فِي الوصف ـ ومن اجتماع هَذِه الأسباب الثّلاثة كثرت سوائر الأمثال . وشوارد الأبيات ـ والمقاربة فِي التّشبيه والتحام أجزاءِ النّظم والتئامها عَلى تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار لَهُ ، ومشاكلة اللّفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتّى لا منافرة بينهما فهذه سبعة أبواب هي عمود الشّعر ، ولكل باب معيار . فمعيار المعنى أن يعرض عَلى العقل الصّحيح والفهم الثّاقب ، فإذا انعطفت عليه جنبتا القبول والاصطفاء مستأنسًا بقرائنه ، خرج وافيًا وإلّا انتقص بمقدار شوبه ووحشته . وعيار اللفظ الطّبع والرّواية والاستعمال ، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهوالمختار المستقيم . وهذا فِي مفرداته وجملته مراعى لأنّ اللّفظة تستكرم بانفرادها فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت

---

(١) أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقيّ المتوفى ٤٢١هـ ـ مقدمة شرح الحماسة الطّبعة الثّانية ـ القاهرة مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م ، ص٨-١١ القسم الأوّل .

الجملة هجينًا . وعيار الإصابة فِي الوصف ، الذّكاء وحسن التّمييز ، فما وجدناه صادقًا فِي العلوق مازجًا فِي اللّصوق يتعسّر الخروج عنه والتّبرؤ منه فذاك سيماءُ الإصابة فيه . ويروى عن عمر رضي الله عنه أنّه قَالَ : فِي زهير : (كان لا يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال) فتأمّل هَذَا فإن تفسيره ما ذكرناه . ومعيار المقاربة فِي التّشبيه الفطنة وحسن التّقدير فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس ، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكها فِي الصّفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة أن يكون المطلوب من التّشبيه أشهر صفات المشبّه به وأملكها لَهُ لأنه حينئذ يدل عَلَى نفسه ويحميه من الغموض والالتباس . وقد قيل : أقسام الشّعر ثلاثة : مثلٌ سائر ، وتشبيه نادر ، واستعارة قريبة وخيار التحام أجزاءِ النّظم والتئامه عَلَى تخير من لذيذ الوزن ، الطّبع واللّسان ، فما لم يتعثر الطّبع بأبنيته وعقوده ، ولم يتحبس اللّسان فِي فصوله ووصوله ، بل استمرا فيه واستسهلاه بلا مِلَال ولا كِلَال ، فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت والبيت كلمة تسالما لأجزائه وتقارنًا وإلّا يكون كما قيل فيه :

وَشِعرٍ كَبَعرِ الكَبشِ فَرَّقَ بَينَهُ ... لِسانُ دَعِيٍّ فِي القَريضِ بَخيلِ

وكما قَالَ خلف :

وبعض قريض القوم أولاد عِلَّةٍ ... يكد لسان النّاطق المتحفّظ

وكما قَالَ رؤبة لابنه عقبة وقد عرض عليه شيئًا مما قاله فقال :

قد قلت لو كَانَ لَهُ قران

وإنّما قلنا : (على تخير من لذيذ الوزن) (لأنّ لذيذه يطرب الطّبع لإيقاعه ويمازجه بصفائه ، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه واعتدال نظمه ولذلك قَالَ حسّان :

تَغَنَّ فِي كُلِّ شِعرٍ أَنتَ قائِلُهُ ... إِنَّ الغِناءَ لِهَذا الشِعرَ مِضمارُ

وعيار الاستعارة : الذّهن والفطنة ، وملاك الأمر : تقريب التّشبيه فِي الأصل حتّى يتناسب المشبّه والمشبّه به ، ثمّ يكتفى فيه بالاسم المستعار لأنّه المنقول عما كَانَ لَهُ فِي الوضع إِلَى المستعار لَهُ . وعيار مشاكلة اللّفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية طول الدّربة ودوام

المدارسة فإذا حكمنا بحسن التباس بعضها ببعض لا جفاء فِي خلالها ولا نبو لا زيادة ولا قصور ، وكان اللّفظ مقسومًا عَلى رتب المعاني قد جعل الأخص للأخص والأخسّ للأخسّ ، فهو البريء من العيب ، وأمّا القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر يتشوفها المعنى بحقه واللّفظ بقسطه وإلّا كانت قلقة فِي مقرها مجتلبة لمستغن عنها . فهذه الخصال عمود الشّعر عند العرب فمن لزمها بحقّها وبنى شعره ، عليها فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم ، ومن لم يجعلها فبقدر مهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان وهذا إجماع مأخوذ به ومتّبع نهجه حتّى الآن .

قد ترى أنّ المرزوقي ادعى الإجماع عَلى هَذَا الَّذي ذكر أنّه العمود المعروف عند العرب فأفاد بهذا أنّ العهود إليه هو جودة الشّعر وقد أشرك معه ما يقع من الأمثال نثرًا كما ترى . وهو بعد مما يشرك النّثر والخطب وضروب الكتابة فِي كلّ ما يعمد إليه من جودة التّجويد فِي الشّعر إلّا الوزن والتّقفية ، فلو كَانَ مراده . بعمود الشّعر اصطلاحًا دالًّا عَلى أمر معين متعلّق بالشّعر لكان اكتفى بالوزن والقافية ثمَّ جعل ما يلي ذلك وسائِطَ وأطرافًا وعناصر وائتلافات كما صنع قدامة . ثمَّ إنّ هَذَا الَّذي ادّعى لَهُ المرزوقيّ الإجماع ليس خاصًا بالعرب وحدهم إلا التّقفية ـ إذ هو يصدق مثلًا عَلى شعر كثير من غيرهم من الأمم . إذ هَذِه الأمُور الَّتي ذكرها إنّما هن أبواب الجودة والبلاغة ولا يعقل أن يكون قولهم عمود الشّعر اصطلاحًا ثمَّ يكون من بعد لا مدلول لَهُ إلّا البلاغة والجودة .

هذا ولو تأملت الأشياء السّبعة الَّتي ذكرها أبو عليّ المرزوقيّ رحمه الله وجدتها كلّها راجعة إلى ما ذكره الجاحظ وابن قتيبة وقدامة . الشّرف من ابن قتيبة وأسبق وكذلك أمر اللّفظ والمعنى منه ومن الجاحظ والالتحام والالتئام من نظم الجاحظ واقتضاءُ اللّفظ والمعنى بعد تشاكلهما للقافية من قدامة . وقد يعلم القارئ الكريم أنّ قدامة كره أن يستخرج ستّة ائتلافات من عناصره الرّبعة وزعم أنّ القافية داخلة فِي مدلول اللّفظ . ثمَّ كره أن يجعل ائتلافاته ثلاثة وهو يعلم أنّ ائتلافات العناصر الأربعة (الماء والهواء والنّار والتّراب) من أمزجة أربعة :

(البلغم والدم والسّوداء والصّفراء) فلعله - والله أعلم حرص عَلى أن تكون امتزاجات ائتلافاته أربعة فجعل للقافية ائتلافًا خاصًا مَعَ المعنى ومثل لما يعاب منه بقول أبي عدي القرشيّ :

ووقــاكَ الحُتــوفَ مــن وارِثٍ وا لِ وأبقــاكَ صــالِحاً ربُّ هُــودِ

ولعلّ المرزوقيّ رحمه الله جعل أبوابه سبعة (ومما يحمد لَهُ أنه لم يَدّعِ فِي ذكرها ولا معرفتها لنفسه سَبْقًا) للتبرّك بعدد السّبعة . إذ هي كما ذكرها أكثر من سبعة . ماذا كَانَ عليه لو جعلها اثني عشر بابًا كما وردت فِي سياقها فإن الاثنى عشر عدد فيه بركة كما فيه مراعاة لأهل الطّبيعة والفلك إذ البروج اثنا عشر :

١- شرف المعنى[1] .

٢- وصحته .

٣- وجزالة اللّفظ .

٤- واستقامته .

ولا يخفى أنّ الصّحةَ غير الشّرف وقد مزجها فِي معياره بالشّرف مزجًا متكلفًا والجزالة غير الاستقامة وليته فسر لنا الجزالة إذ مدلولها عند المتأخّرين أخفى مما كَانَ عند المتقدّمين.

وفِي زماننا هَذَا هو أشد خفاءً مما كَانَ عليه فِي المئة الخامسة .

أمَّا الاستقامة فمن ضمن صفة التّركيب النّحوي حسنًا وقبحًا وهذا أمر وفاه سيبويه حقه فِي مقدماته وفِي سائر الكتّاب من بعد . وزعم عبد القاهر أنّ سيبويه إنّما ألمّ بذلك إلمامًا وادّعى لنفسه فضيلة السّبق والاستيفاء ولعلّ نصيبه من ذلك للمتأمّل نسبيّ . ولله درّ ابن رشيق إذ جاءَ بالرّشيق ذي السّبق الدّقيق ولم يدع لنفسه من سبق أو ابتكار إلا الجمع والتأليف[2] .

---

(١) إن شئت رددت الشّرف إلى الكاتب المجهول (لونقينس) وربّ زاعم أنّه كان عربيًّا من أهل تدمر زمان ملكها فتأمّل .

(٢) وادّعى حازم سبقًا وأغار على موسيقا الفارابيّ في مواضع منها تعريفه للشّعر حيث قال (ص٨٩ من منهاج البلغاء ، طبع تونس ، بتحقيق الحبيب بن خوجة ١٩٦٦م الشّعر كلام مخيل موزون مختص في =

٥- والمقاربة فِي التّشبيه ـ وهذا مما لا ينفرد به طلب التّجويد فِي الشّعر دون النّثر .

٦- التحام إجزاء النّظم والتئامها .

٧- عَلى تخير من لذيذ .

٨- الوزن .

هؤُلاء الأبواب الثّلاثة من (٦ إلى ٨) جعلهنّ المرزوقيّ بابًا واحدًا وجليّ أنّ النّظم (ولا يراد به الوزن) باب كما الوزن باب كما اختيار الوزن باب ـ عَلى أنّ للمرزوقي وجهًا فِي هَذَا الّذي لجأ إليه من جعلهن بابًا واحدًا عَلى ما تكلفه من ذلك وسنذكر من ذلك بعد قليل إن شاء الله .

٩- مناسبة المستعار منه للمستعار لَهُ . وهذا كالتّكرار لما تقدم من المقاربة فِي التّشبيه غير أن لَهُ ما يبرر جعله بابًا مفردًا .

١٠- مشاكلة اللّفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية .

فهذه عشرة أبواب . وقد يقال : إنّ مشاكلة اللّفظ للمعنى ينبغي أن تعد بابًا هو وجه إلّا أن فِي ذلك كالتكرار للبابين أو الأربعة الأبواب الأُول .

وقد تصير الأبواب اثنى عشر بجعل هَذَا الباب ثلاثة أبواب كما جعله قدامة ؛ إذ هو من قدامة مأخوذ وذلك أن يقال :

١١- مشاكلة اللّفظ للوزن .

١٢- مشاكلة المعنى للوزن .

١٣- مشاكلة المعنى للقافية ولا يخفى تكلّف المرزوقيّ حيث ضمّ اللّفظ إلىٰ المعنى

= لسان العرب بزيادة التقفيّة إلى ذلك ويكثر حازم من استعمال «الأقاويل» وهي من ألفاظ الفارابيّ القرءانية كثيرة في موسيقاه الكبير وأهل العصر مولوعون بحازم والجرجاني الثّاني والمرزوقيّ ولا ننكر لهم فضلًا إلّا أن كون هذا الولع «موضة» لا يخفى وأحسن حازم في أمر الربط والوحدة حيث استشهد ببائية أبي الطّيب ، وفي أمر ألوان الأوزان وتوسّع فيه شيئًا بتنوع من الشّرح لما جاء عند ابن رشيق وهو قول الخليل وإضافته التّخييل على التّعريف عناء لأنّه رغم أنّه في اللّفظ والوزن والقائل والسّامع فلو لزم التّعريف المعروف لكان له أحزم ، والله أعلم .

وجعلهما معًا يقتضيان القافية اقتضاءً شديدًا، فزاد عَلى التكلّف الَّذي جاء به قدامة، تكلفًا آخر، وعبارة قدامة فِي مقدماته: (إلا أني نظرت فوجدتها - يعني قدامة القافية - من جهة ما أنها تدل عَلى معنى لذلك المعنى الَّذي تدل عليه ائتلاف مَعَ سائر البيت فأمَّا مَعَ غيره فلا لأنّ القافية إنّما هي لفظة مثل لفظ سائر البيت من الشّعر، ولها دلالة عَلى معنى لذلك اللّفظ أيضًا والوزن شيءٌ واقع عَلى جميع لفظ الشّعر الدّال عَلى المعنى، فإذا كَانَ ذلك كذلك فقد انتظم تأليف الثّلاثة الأمور الأُخر ائتلاف القافية أيضًا، إذ كانت لا تعدو أنّها لفظة كسائر لفظ الشّعر المؤتلف مَعَ المعنى فأمَّا من جهة ما هي قافية فليس ذلك ذاتًا يجب بها أن يكون لها به ائتلاف مَعَ شيءٍ آخر إذ كانت هَذِه اللّفظة إنما قيل إنّها قافية من أجل أنّها مقطع البيت وآخره وليس أنّها مقطع ذاتي لها وإنّما هو شيءٌ عرض لها بسبب أنّه لم يوجد بعدها لفظ فِي البيت غيرها وليس التّرتيب أن لا يوجد للشيء تال يتلوه ذاتًا قائمة فيه، فهذا هو السّبب فِي أنه لم يكن للقافية من جهة ما هي قافية تأليف مَعَ غيرها.

مما يبرر التّلاحم فِي النّظم واختيار الوزن لذيذًا ثمَّ الوزن نفسه كلّ أولئك الثّلاثة باب واحد أنّ المرزوقيّ فيما نرى أراد أن ينبه عَلى أنّ الكلام لَهُ نظم يلزمه عند من يريد تجويده أن يكون ملتحمًا ملتئمًا من حيث هو نظم أسلوبي صياغي. وما نرى إلّا أنّ الجاحظ لفق نظريته فِي النّظم من قصة الإعجاز الَّتي يقول بها كل معلم وقصة الخلق الَّتي هي مذهب عند المعتزلة. فابتعد عن مذهبهم ودنا مما كَانَ عليه أهل السنّة ومهد بذلك لابن الباقلاني وعبد القاهر وغيرهما تمهيدًا هَذَا ثمَّ كأنّ المرزوقيّ أراد أن ينبه أيضًا عَلى أنّ للنّظم بعد أن يلتحم ويلتئم فِي نفسه التحامًا والتئامًا آخر مَعَ الوزن لا من حيث إنّ الوزن إطار تنحصر فيه كلمات النّظم والقول بنحو من هَذَا من أغلاط النّقد البنيويّ الَّذي عنده أنّ النّص هو الجوهر وهو كلّ شيء وليس البيان إلّا إياه وهو مجرّدًا هكذا إن هو إلّا جنازة كائن البيان الحيّ ذي الرّوح والجسد معًا، ولكن من حيث أنّ الوزن إيقاع ذو تعبير من عند ذات طبيعته الإيقاعية فالتحام النّظم ينبغي أن يذوب فِي هَذَا التعبير الإيقاعيّ ويتحد معه ويكون جسدًا حيًّا مَعَ روح ذي قوة وإحساس حي ووجود.

فجعله هَذَا بابًا ثالثًا كما ترى . وأحسب أنّ المرزوقيّ رحمهُ الله لو كَانَ قَالَ عَلى تخير الوزن أن كَانَ من صفة الوزن وحده كَانَ الأمر بابين ولكنّه لابد فيه مراعاة مشاكلة اللّفظ والمعنى والتحام النّظم . فجعله هَذَا بابًا ثالثًا كما ترى . وأحسب أنّ المرزوقيّ رحمه الله لو كَانَ قَالَ عَلى تخيّر الوزن أو من الوزن كَانَ ذلك أجود ولكنه أتى من شدة اتباعه لقدامة حيث زعم أنّ الوزن السّهل العروض يستحسن الشّعر من أجله وإن خلا من أكثر نعوت الشّعر كقول حسّان :

ما هاج حسّان رسوم المقام ومظعن الحيّ ومبنى الخيام

وقال قدامة نحوًا من هَذَا فِي نعت اللّفظ الَّذي عليه رونق الفصاحة مَعَ الخلو من البشاعة مثل أشعار يؤخذ فيها ذلك وإن خلت من سائر نعوت الشّعر . وقد اتبع قدامة ابن قتيبة حيث ذكر ما جاءَ لفظه وحلا وما يختار لوزنه . وفِي الَّذي ذكره المرزوقيّ من التحام أجزاءَ النّظم عَلى تخير من لذيذ الوزن مشابه من حديث «كلردج» عن الإرادة والوجدان من طريق الوزن وتوازن أشكال التّعبير والمجاز .

هل اطلع «كلردج» عَلى مقدمة المرزوقيّ أو خلاصة منها (لا تستبعد ذلك لما سبق زمانه من ترجمة حماسة أبي تمام ومعرفة أهل الاستشراق بها والله تعالى أعلم . وفِي حديث المرزوقي عن المعايير كلفة وغموض وسائر كلامه كما قدمنا راجع إِلى الجاحظ وابن قتيبة وقدامة وهلمّ جرّا . والأبواب السّبعة أوضح من أن تذكر لها معايير تدل عليها وكلام النّقاد عنها مستفيض وأحسب أنّ المرزوقيّ أعجبه لفظ عيار الشّعر وقد استشهد بشيءٍ من كلام ابن طِباطبا فِي المقدمة وذكر مَعَ اسمه كنيته وكان به ذا إعجاب ، والله أعلم .

المحور الثّالث : دراسة النّصوص الأدبيّة

(٢٢٣ـ٢٧١)

أ- شرح ديوان أراجيز رؤبة .

ب- بسطتْ رابعة الحبل لنا .

ج- القصيدة المادحة .

د- الدّرعيّات .

هـ- وصف جزيرة توتي .

أ ــ شرح ديوان أراجيز رؤبة[١] [٢]

قال رؤبة فِي وصف المفازة والسّراب[٣] :

١ – وبلـد : ، أي : ربّ بلـدٍ . عاميّـة : ذات عمـى . أَعْـمَاؤه : أغفالـه . ، أي : ربّ بلـد أرجاؤه خافيات .

٢ – أَيْهَاتَ : هيهات . جَوْز : وسط . الفلاة : الصّحراء . ، أي : الماء بعيد من وسط صحرائه .

٤ – ، أي : فضاؤه يرد طرف العين حسيرا مُتْعَبًا . أخذه من قوله تعالى : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [تبارك : ٤] . حَسَرَ النَّظَرُ الْبَصَرَ (باب ضرب) وأحسره ، أي : أتعبه.

٥ – هابي الْعَشِيّ : ، أي : مغبّر فِي وقت العشيّ . دَيْسَق بفتح الدّال وسكون الياء وفتح السّين ، الدّيسق : الحوض الملآن والحليّ من الفضّة البيضاء والبياض . ديسق ضَحَاؤُه ، أي : شديد اللّمعان عند ارتفاع النّهار ، أو كثير السّراب عند ارتفاع النّهار . الضَّحَاء بفتح الضّاد والمد : ارتفاع النّهار . والصّحراءُ فِي هَذَا الوقت تكون مملوءَة بالسّراب وارتفاع اللّمعان متوقدة بضوء الشّمس .

٦ – إضاؤه بكسر الهمزة فِي أوله جمع أضاة بفتح الهمزة والأضاةُ ، الغدير ، أي : إذا بدا السّراب ، وكأنّه غدران تهب عليها الرّيح وتنتسج فوقها الأمواج .

٧ – مُجْنَ عنه ، بضمّ الميم وسكون الجيم ، أي : تحركن كالموج عنه والضمير يرجع إِلى قوله إضاؤه . عُرِّيت أعراؤه ، أي : ظهرت أعراؤه . أعراء جمع عَرَاء بفتح العين ، والعراء

---

(١) المؤتمر ، الدّورة ٣٩ ، الجلسة ٦ ، محاضر الجلسات ص ٢٩٣. (حسن) .

(٢) ألقي البحث في الجلسة السّادسة للمؤتمر (١٧-٢-١٩٧٣) . .

(٣) القصيدة الأولى من ديوان أراجيز رؤبة ص٣ فما بعدها والأرقام أرقام الأبيات المشروحة ههنا بحسب موقعها في الأصل (مجموع أشعار العرب طبع برلين ، تصوير مكتبة المثنى ببغداد) .

هو الفضاء ـ أي : إذا انتسجت غدران السّراب أو تحركت كالموج انحسر هو عن بعض جوانب الأرض العراء فبدين عاريات منه منكشفات .

٨- واجتاب ، أي : لبس حرّا ذا نار ملتهبة .

٩- يُحْمِي الحصى ، أي : يجعله حاميا لشدة حره . ياءُ يُحْمِي مضمومة .

١٠- الثّرى ، أي : التّراب النَّدِيّ أو النَّدَى . ، أي : ظباؤه تبحث عن التّراب النّدي المكتن ، أي : المكنون فِي جوف الأرض ، تحفر بأظلافها تبحث عنه من شدّة الحر .

١١- ، أي : فِي زمان ملتهب حره . الصِّلاء بالمد وكسر الصّاد ، أي : النّار ، وبفتح الصّاد والقصر (الصَّلى) أيضًا ، قَالَ الفرزدق :

وَقاتَلَ كَلبُ الحَيِّ عَن نارِ أَهلِهِ لِيَربِضَ[1] فيها وَالصَّلا مُتَكَنَّفُ

١٢- تقلّص : تتقلص وتنكمش (باب ضرب) . مكنس ، أي : كناس . والكنّاس : بيت الظبية والمكان الَّذي تستريح فيه عند المقيل . أَفْياؤه ، أي : ظلاله ، جمع فَيْء بفتح الفاءِ وسكون الياء بعدها همزة . ، أي : تتقلص ظلاله عن أماكن مكانس الظباء فيه .

١٣- اصطفقت : تحرّكت ، وأصله من اصطفاق الشّجرة إذا اهتزت أغصانها ، أفناؤه نواحيه ، أي : أظلال أفنانه ويدلك عَلى أنّ الأفناءَ هي النّواحي ، قول الحطيئة :

وتَعْذُلني أَفْنَاءُ سَعْدٍ عليهم وما قلت إلا بالَّذي عَلِمَتْ سعد

قالوا : مفرده فِنْو بكسر الفاء وسكون النون .

١٤- أرْطى جمع أرطاة وهو ضرب من الشّجر يكثر ذكره مَعَ ثيران الوحش ، قَالَ الأزهريّ (التهذيب ١٤ ص١٦) الأَرْطَاةُ : شجرة ورقها عَبْلٌ مفتول وجمعها الأراطَى مَنْبتُها الرمال لها عروق حمر ... إلخ ـ قوله : جمعها الأراطي لأن الأَرْطى اسم جنس جمعي . ألَاؤه : الأَلَاء ضرب من الشجر مفرده ألاءَة . قَالَ الحماسي يذكر مقتل بسطام بن قيس :

فَخَرَّ عَلى الأَلاءَةِ لَم يُوَسَّد كَأَنَّ جَبينَهُ سَيفٌ صَقيلُ

(١) باب ضرب ويجوز فيه نصر .

يقول رؤبة رحمه الله : من شدة الحرّ تنقبض الأفياء (وهي ظلال الظهر بعد زوال الشمس) فِي مكان الظّل حيث تهتز النّواحي المختلفة من ظلال أوراق الأرطى الّذي بالقرب منه شجر الألاء الخَضِل ، أي : الرّطب المرتوي . ، أي : فِي زمن حر لا يكون فيه أرْطى أخضر ولا ألاءٌ أَخضر تهتزّ ظلاله ، وتعم أفياؤه ، ويحْسُن المقيل فيه .

١٥ - زهاؤُه : ، أي : سَرابه الكثير الرّائع ـ قالوا زها السّراب الشيءَ يَزْهاه إذا رفعه . وقال امرؤ القيس يصف الجيش :

وَمُجْـرٍ كَغَـيلانِ الأُنَـيعَمِ بـالِغٍ ... دِيـارَ العَـدُوِّ ذي زَهـاءٍ وَأَركـانِ

فالزُّهاء هَهُنا : روعة وكثرة كما ترى . وقال الآخر :

تَقَلَّـدَت إبريقـاً وَعَلَّقَـت جعبَـةً ... لِتُهلِـكَ حَيّـاً ذا زُهـاءٍ وَجامِـلِ

أي تقلدت سيفًا وحملت كنانة أسهم لتقتل حيًّا هَذِه صفته ، وهذا البيت استشهد به المعريّ فِي أوليّات رسالة الغفران .

١٦ - أصواؤه جمع صُوَى بضمّ الصّاد وفتح الواو ، وهي جمع صُوَّة بضمّ الصّاد وفتح الواو مَعَ تشديدها ثمَّ هاء التّأنيث بوزن حجرة وغرفة ، وهي العلامة الّتي عَلى الطّريق وأصواء الطّريق : العلامات الّتي عليه من أكوام الحجارة ونحوها ، قَالَ علْقَمَة :

هَـداني إِلَيـكَ الفَرقَـدانِ وَلاحِـبٌ ... لَـهُ فَـوقَ أَصـواءِ المِتـانِ عُلـوبُ

أي طريق ، هَذَا معنى لاحب ؛ لَهُ آثار ، هَذَا معنى علوب ، فوق العلامات الّتي عليه من حجارة ونحوها . خشعت أصواؤه ، أي : تبدو حجارته وما أشبهها خاشعة من بعيد.

١٧ - ضبَحَتْ : قالتْ : أَحْ أَحْ ـ حكاية ارتفاع النّفس .. قَالَ تعالى : ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ [العاديات: ١] ، فسروه بالخيل تقول : أَحْ أَحْ فِي جريها ، أي : تجاوبت أصواته باللّيل .

٢٢ - العيس : الإبل . مُعْصَوْصِب ، مجتمع عصبا عصبا وجماعات جماعات ، حزَّاؤُه مِنْ حَزَى السّراب الشّخص يحْزُوه ويحْزيه إذا رفعه . وحزَّاء بكسر الحاءِ وتشديد الزّاي المفتوحة مصدر من مضعفه مثل كِذَّاب فِي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ : ٢٨] ، أي :

والعيس فِي مكان ارتفاعِ سرابه بالأشياء يلوح عصبا عصبا .

٢٣- خمسا بكسر الخاء ، والخمس ورود الإبل الماء فِي اليوم الخامس بعد أربعة أيام لا تشرب فيها من حين شربها الأوّل . نجاؤه : سيره الشّديد السّريع . يسرن إِلى هَذَا الورد سيرًا شديدًا متصلًا لا هوادة فيه .

٢٥- اليهماء : الصّحراء والمفازة . أي : تيماء صحراء ، مفازةٌ من النّوع الَّذي يسكنه الجنّ ويرتاحون إليه . والعرب تزعم أن أصوات الجنّ تُسْمع فِي الصّحراء باللّيل ، ومنهم من لاقى أصناف الجنّ وتَزوَّج منها . وزعمَ تأبّط شَرًّا أنّه قتل الغول وتزوج السّعلاة وللعرب فِي ذلك أخبار .

٢٦، ٢٧- احزوزي السّير احزيزاء وزوزىّ بالقوم زيزاء[1] ، أي : أسرع بهم وطردهم ـ ، أي : والسّير بنا ماض مهتز مستمر .

٢٨- قرى : ظهر . أعراؤه : نواحيه جمع عراء أو عِرْو بكسر العين وسكون الرّاء ، أي: ناحيته ، أي : سيرنا يغشى ظهر مكان منكشف النّواحي ، وانظر قوله آنفًا :

أو مُجْـنَ عنـه عرّيـت أعـراؤُه

ويجوز أن يكون رؤبة أراد بقوله هَذَا : ، أي : عريت مُعَرَيَاته ، فتعبيره مجازيّ ، شبه الأماكن الَّتي يكشفها السّراب بالأجزاءِ المعريات من الأجسام ، وقوله هنا :

يغشـى قـرى عاريـة أعـراؤُه

أي نواحيه . وعلى هَذَا لا تكون القافية قد تكررت . عَلى أنّه قد مضت أبيت عدة فلا بأس بالتّكرار . وإنّما يعاب إذ وقعت مكررة فيها دون سبعة من الأبيات ويسمى حينئذ إيطاء .

٢٩- أصلابه ، أي : ظهوره ، جمع صُلب بضمّ الصّاد ، وأمعاؤُه ما يشبه الأمعاءَ منه ، إذ تلوح حبال الرّمل كأنها خيوط ، وكأنها وهي تحبو فِي السّراب ، إذ ينحسر عنها نحو

---

(١) لابن جني في شرح آخر لهذا البيت ليس بعيدًا جدًّا منه فلينظر في الخصائص أو المحتسب وفي الشرح المنسوب إلى ابن حبيب أن زيزاء السير غلطه والذي رأينا أوضح ، والله أعلم .

التّلال والمرتفعات أمعاء تحبو إِلى ظهور ـ وهذا تجسيد وتشريح لنواحي الأرض كما ترى ، حين يمزقها امتزاج السّير وضوء النّهار فِي عين المسافر المجد .

٣٠- والرّمل فِي أماكن كثبانها مختلطات متموجات داخل بعضها فِي بعض ، قَالَ الزّمخشريّ فِي الأساس : اعتلج القوم اصطرعوا أو اقتتلوا ، ومن المستعار اعتلجت الأمواج . ا.هـ. قلت : جعل كثبان الرّمل كالأمواج .

٣١- أي : بطون هَذَا المكان وعرة ، السّير فيها صعب ، وجوانبه كذلك . أكفاؤه ، أكفاء جمع كِفْء بكسر الكاف وسكون الفاءِ بعدها همزة وهو بطن الوادي ، والوعث الطّريق العسير ويجوز أن يكون الشّاعر قد جعل الأكفاءَ بمنزلة الظّهور والأكفال لأنّه هنا إنّما يصف كثبانًا من الرّمل متّصلة ، وقد جعل للفلاة صورة مجسدة كما ترى .

٣٢- يُذْرِي ، أي : يسقط بضمّ الياءِ فيهما . أذراؤُه ما تذروه الرّيح منه ، جمع ذَرْو بفتح فسكون ، أي : غباره ، أي : يسقط الرّاكب حين يهيج غباره .

٣٣- سَعْمُ المهاري سيرها ، والمهاري الإبل المَهْرِيّة نسبة إِلى مهرة وهي من أجود الإبل ـ ، أي : دواءَ هَذَا المكان هو السير المنخرط عَلى الإبل الكريمات حتّى ينجو المرء من قفاره .

٣٧- أي : أرجاؤُه ترمي بالذين أنهكهم السّير . السّرى سير الليل . أنقاض جمع نِقْض بكسر النّون وسكون القاف وهو الّذي أنهكه السّير .

٣٨- هيهات إلخ ، أي : هَذَا المكان بعيد الأطراف منتشر النواحي . هيهاؤُه ، أي : هيهاته ، وهيها : لغة فِي هيهات ومدّها ههنا كما ترى ، أو هو اسم بمنزلة المصدر[1] . ومنخرق ، أي : مكان منخرق الجوانب متسعها .

٣٩- تيهاؤه ، أي : صحراؤه الَّتي يتيه فيها الرّكب ، أي : يضلون ويضيعون .

٤٠- مِيداؤه : ميم مكسورة بعدها ياء إشباع فدال فألف ممدودة ، أي : مداه وبعده .

٤٢- هاتكته ، اشتقاقه من الهُتْكَة بضمّ الهاء وسكون التّاء وهي ساعة من اللّيل ـ

(١) ذهب ابن جني في المحتسب إلى هذا الوجه فلينظر وقد جعل الهيهاء اسما كالزلزال بفتح الزاي الأولى.

هاتكته ، أي : سايرت ساعات ليله واخترقته ساريا ساعة من اللّيل بعد ساعة ـ حتّى مضت أكراؤه ، أي : حتّى ذهبت أوقات النّوم فيه ـ أكراء جمع كرى وهو النّوم ، والمعنى أوقات أكرائه عَلى تقدير مضاف محذوف يدل عليه السّياق[١] .

٤٤ – ولم تكاءَدْ ، أي : ولم تَتَكَاءَدْ ، أي : لم تشق عَلى رحلتي كأداؤه ، أي : شدّته .

٤٥ – قوله : هول ولا ليل ، تفسير لقوله كأداؤه ، أي : شدته ، أي : لم تشق عَلى كأداؤه من هول ومن ظلماء ليل .

٤٨ – ملموسة أحناؤه ، أي : ملموسة أضلاعه أظهرها الهزال والتّعب ، يعني بعيره .

٤٩ – ناضب : بعيد جدًّا . تقول خَرْق ناضب . الْوَأْي بفتحتين وألف لينة بعد الهمزة بوزن الحجر والبلح : حمار الوحش . مؤنثه وآة مثل كهاة ونجاة ووعاة . إنضاؤه بكسر الهمزة الأُولى : إتعابه . ، أي : إِلى مكان بعيد يتعب حمار الوحش المضروب به المثل فِي القوة .

٥٠ – للهَجْر : عني بالهجر الهاجرة وهي نصف النّهار . غَرّاؤه : شدّة حره ، أي : وإذا تغشت بلدًا غشاواته أَلْحَقْتُه ، أي : لَحِقْته ، أي : أدركته بالسّير حتّى بدا لي ، وتكشفت الغشاوات الّتي كانت تحجبه من بعد وغبار وهول وظلماء ليل ـ تكشّفت عني وعن بعيري الّذي أهزله السّير حتّى ظهرت ضولعه وعن طريق بعيد يتعب مسلكه حمار الوحش حين ينتحيه من الفجر إِلى الهاجرة إِلى أن تبرد شدّة حرّه ـ أو يجوز أن يكون المعنى ألحقته ، أي : أدركته إذا انتحى فِي البلد انتحائي لَهُ من حين انجلت ظلماؤُه إِلى الهاجرة إِلى أن يبرد الحرّ ، والله تعالى أعلم .

(٢) وقال أيضًا يمدح مسلمة بن عبد الملك بن مروان[٢]

قلت : هو أخو الخلفاء الوليد وسليمان ويزيد وهشام وما كَانَ دونهم نبلًا أو فصلًا فِي

---

(١) وفي الشّرح المنسوب إلى ابن حبيب أنّ معنى قوله أكراؤه أي أطرافه .

(٢) القصيدة الثانية وترتيب الشّرح بحسب الأبيات الّتي في الأصل فكلّما ورد رقمه فهو مشروح ههنا إن شاء الله تعالى ـ وأوّل القصيدة الثانية ص٥ .

نفسه ، وإنّما منعه من الخلافة أنّه كَانَ ابن جارية ، وكان بنو مروان فِي أوائل أمرهم لا يملكون أبناءَ الجواري . والملك لله يجعله حيث يشاء .

والأبيات من السّريع المشطور المكشوف ، وزنها التام حيث لا يقع الزحاف فِي حشوه : مستفعلن مستفعلن مفعولات بسكون التاء الأخيرة ، وهذا اسمه الكشف وهو علة تقع فِي الجزءِ مفعولات ـ التّاء مضمومة ـ فتذهب بالحركة من تاء الوتد المفروق (لَاتُ) فتصير (لاتْ) وقد يختلط أمر الكشف والتّذييل عند بعض من يتعاطى العروض والتّذييل زيادة، وهذا حذف فتأمّل . مثال التّذييل :

إنّا ذممنا علـى مـا خَيَّلَت   سعد بن زيد وعمرو من تميم

فلو قَالَ : من تَمِمْ بفتح فكسر فسكون كَانَ الوزن تامًّا ، فزيادة الياء بين الميمين نشأت عنها زيادة سكون فِي الآخر هي المسمّى تذييلًا فاعلم ، وفوق كل ذي علمٍ عليمُ .

١- أُمّ عتاب : كنية امرأة لعلها امرأته ، يدلّ عَلى ذلك السّياق .

٢- ثِلْبا : كبيرًا ، أي : هي كبيرة وأنا كبير ومع ذلك بكّرت تلومني ، والثّلب بكسر الثّاء واللّام ساكنة ، وقد يثقلونه فيفتحون الثّاءَ ويكسرون اللّام ، قَالَ سويد : وهو فِي المفضليّات:

فـارغُ السَّـوطِ فـما يَجْهَدُني   ثَلِبٌ عَـودٌ وَلا شَـخْتٌ ضَرَع

والثَّلِبُ البعير المسنّ ، والنّاب النّاقة المسنّة جمعها نيب .

٣، ٤ —أن نال ، أي : بيبب أن نال ، أو عَلى أن نال من حالته جِلْدِيَ الشّيخِ الآن الَّذي كَانَ يقويا من قبل أخذ اللّيالي منه ، ونحتها إياه كما يقش القاشر لحاءَ الشّجر . الْكِدْنَة بكسر الكافِ وسكون الدّال الشّحم واللّحم ، والجِلْحَاب الشّيخ . انتجب : قَشَر (باب ضرب ونصر) .

٦- الإِخْناب : الإحناء ، عنى به : تَحَنِّيَ الظّهر واحديدا به بسبب الشّيخوخة ، قَالَ الجوهريّ تخنَّب فلان ، أي : تقوّس وانحنى .

٧- الإضهاب : شيُّ اللّحم من غير إنضاجٍ ، قَالَ امرؤ القيس :

إذا نَحنُ قُمنا عَن شِواءٍ مُضَهَّبِ نَمُشُّ بِأعرافِ الجِيادِ أكُفَّنا

أي نأكل الشّواءَ الّذي لم يبالغ فِي إنضاجه إذا شُوِي شَيًا عَلى النّار أو الحجارة ثمَّ نمسح أكفنا عَلى أعراف الجياد . وأخذه عَبَدَةُ بن الطّبيب فقال :

ثُمَّتَ قُمنا إلى جُردٍ مُسَوَّمَةٍ أعرافُهُنَّ لِأَيدينا مَناديلُ

وقناةُ الإضهاب هي العود الّذي يوضع عليه اللّحم ثمَّ يُشْوى هَذَا اللّحم وهي السّفود ، أي : صرت دقيقًا مثل السّفود .

٨- يعْمِلها : يستخدمها . الضَّابِ ، أي : الرّماد ويجوز أن يكون الضّابي هو الطّاهي من ضبا يضبو ، ويُضْبي : يحرز ويمسك والفعل رباعي ذكره الجوهري عن الكسائيّ .أي حتّى صارت قامتي دقيقة كالسّفود الّذي لفحته النّار لأنّ الطّاهي يَعْمَلُ به والرّماد يحوزه.

٩- ظبظات : مرض ووجع .

١٠- الأوصاب ، الأمراض جمع الوصَب ـ ، أي : صرت مهزولًا كأنّ بي السّل ولا سل بي ولكنَّ الْبِلَى الّذي يكون من تقدم السن هو أنكر الأمراض .

١١ ،١٢- أي : كون المرء رهنا للأحداث ذات النّكبات هو فِي نفسه كفيل لَهُ برميات صائبات من الدّواهي .

١٣، ١٤- أي : إن تريني مُكِبًّا فِي البيت وذلك من ضعفِي بعد قوّتي وامتناعي ، فقد كنت كذا وكذا وكذا .. حذف هَذَا لدلالة السّياق عليه . وقوله : فإن تَرَىْ نسرًا ، جعل نفسه نسرًا مَعَ إكبابه ـ كأنّه يقول : فإن تريني قابعًا فِي البيت طويل القبوع فإنّي مَعَ هَذَا نسر وقد كنت كذا وكذا . والنّسر قد يجثم فوق المكان العالي زمانًا طويلًا إما ليتشرق من النّدى وإما كسلا كعادة السّباع وإما انتظارَ أنْ يفترس .

هذا وقوله : إِصْحَابٌ ، معناه عزة وانتصار وامتناع ، قَالَ تعالى :﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٣] قَالَ محمّد ابن جرير ما فحواه : أنّ معناه يجَارُون ويُنْصرون ، قَالَ : لأنّ العرب محكيّ عنها : أنَا لك جار من فلان وصاحب بمعنى أُجيرك وأمنعك ... إلخ .

١٥ - أي : كنت ذا قوة زمان لم أكن أنقطع عن الرّحلة وركوب الصّحراءِ ـ إذ ظرف متعلق بقوله : أصحاب آنفًا .

١٦ - مرتجعًا صفة بعد قوله : (نسرًا طويل الإكباب) ، أي : فإن ترى الآن نسرًا طويل القبوع فِي الدّار مرتجعًا مردودًا بعد سفره المتّصل وبعد أن كَانَ ذهّابًا ، أي : كثير الذّهاب فِي البلاد ـ جعل السّفار ذهّابًا لاتصاله وهذا من المبالغة .

١٧ - قوله : وقد أُرَى ... جعل قوله بعد السّفار الذّهاب كأنه متضمنًا تكملة فيها جواب الشّرط آنفًا ـ ، أي : فإن ترى حالي كذا فقد كنت شابًّا قويًا ذَهَّابًا فِي البلاد وقد كنت زيرًا للغواني الأتراب ـ والغواني النّساء ، والأتراب جمع تِرْب بكسر التّاءِ وسكون الرّاءِ وهن اللواتي عَلى سن واحدة ـ قَالَ تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ الآيات [النبأ: ٣١-٣٤] .

١٨ - العُرْب بضمّ العين وسكون الرّاءِ أصلها بضمّ العين والرّاءِ وخفف ههنا من أجل الوزن ـ عُرُب وعُرْب جمع عَرُوب بفتح العين وراءٌ مضمومة بعدها واو الإشباع ، والمرأة العَرُوب هي الحسنة المتحبّبة إِلى زوجها ، ورؤبة ينظر إِلى قوله تعالى : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٧] ؛ إعْراب إفصاح وجودة منطق وصحته ـ ، أي : بعد أن كنت زير النّساء الجميلات المتحبّبات الطيّبات الحديث .

١٩ - الإخلاب الإفتان واختلاس القلوب ، أي : هنّ ضعيفات الرّأي عظيمات الفتنة .

٢٠ - أي : من حيائهن لا ينادينا بأسمائنا ولكن بالألقاب الّتي تدلّ علينا من دون تصريح بأسمائنا ـ وهذه العادة لا تزال موجودة فِي بعض البلاد العربيّة[1] ، لا تصرح المرأة باسم زوجها ولكن تكنى عنه .

---

(١) هذه العادة موجودة عندنا في السّودان .

٢١، ٢٢ ، ٢٣- مستهل الإرضاب : مستهل المطر ، جمع رَضَب بالتّحريك وهي المطر المنهمر ـ رَضَب المطر ـ يرْضُبُ[1] ، أي : انهمر . قِلات بكسر القاف جمع قَلْت بفتح فسكون وهي النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء . الألْصَاب هي الممرّات الضّيقة في الجبال وهذه أبدًا لها ظلال والماء الّذي في قلاتها يكون صافيا باردًا[2] ، الأشناب : جمع شَنَب وهو جمال الفمّ، وعنى بصيغة الجمع ههنا جمال الثّنايا والأنياب ولا تكره قولنا : الأنياب فهو عربيّ جيّد .

لما ذكر خلابتهن وتلقيبهن إياه من دون تصريح باسمه أكمل الصّفة واستوفاها بنعت الشّفاه والأفواه والثّنايا الّتي يتحدثن ويُبْرقن بها ، فقال : كأنّ مطرًا ثرا ملأ نقرات صخور في ظلال ممرّات الجبل ، ثمَّ مازج ذلك العذب الصّافي البارد هَذِه الشفاه ذوات الثّنايا الجميلات ـ ولا يخفى أنّ الشّفاه خمر مزاجها ذلك الماء .

رشف من باب ضرب وسمع ونصر ، ويجيء رشف بمعنى أرشف كما ههنا كما ترى .

٢٤، ٢٥- فأيها : فيأَيها . بِرَاحِ الأغراب ، أي : بخمر الأغراب . الآلاب جمع إِلْب بكسر الهمزة وفتحها وسكون اللّام تقول هم أَلْب عليّ ، أي : متحالفون عليّ ظلمًا وعدوانًا . قوله بِراحِ الأغراب ، فالأغراب معناها الأقداح ومفردها غَرَب بالتّحريك وهو القدح من الفضّة قَالَ الأعشى :

إِذا اِنكَبَّ أَزهَرُ بَينَ السُّقاةِ ... تَرامَوا بِهِ غَرَباً أَو نُضارا

ويجوز أن يكون المراد لون ما فيه كالفضّة ، من خمرة بيضاء ، وكالنّضار من خمرة حمراء. وقالوا : الغرب بالتحريك : الخمر ، فقوله : براح الأغراب ، أي : براح الخمور ، وخص الغداة لأنهم كانوا يغدون عَلى الخمر يجعلونها صبوحًا ، قَالَ زهير :

وَقَد أَغدو عَلى ثُبَةٍ كِرامٍ ... نَشاوى واجِدينَ لِما نَشاءُ

---

(١) باب نصر .

(٢) واحدها لِصْب بكسر فسكون .

لَهُم راحٌ وَراوُوقٌ وَمِسكٌ تُعَلُّ بِهِ جُلودُهُمُ وَماءُ
يَجُرّونَ البُرودَ وَقَد تَمَشَّت حُمَيّا الكَأسِ فيهِم وَالغِناءُ

فالمعنى : يأيّها الغادي علي بخمرك ، والرّاوي لكلام الأعداء المتألبين علي ، أقصر فهذا الَّذي جئت به غير ذي جدوى .

وقوله : فأيّها الغادي براح الأغراب ، جعل كلامه وأحاديثه كأنّها خمر يغدو عليها ويصطبح بها ، والتّعبير مجازيّ لأنّ هَذَا واش والواشي كأنّه تسكره الوشاية وزخرفة الأقوال الفاسدة.

٢٦- بكُثَّاب بسهم لا نصل إليه بضمّ الكاف وتشديد الثّاء المثلّثة مفتوحة .

٢٧- مُعْذبات الإعذاب ، مانعات المنع . أعذبه عن الطّعام وعَذَبه (باب نصر وضرب) ، أي : منعه ، أي : تمنعك من الوقوع فِي واغتيابي آيات القرءان المانعة جدًّا من الغيبة وأن يأكل المرءُ لحم أخيه ميتا ـ قَالَ تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات: ١٢] . أو تمنعني من قبول أحاديثك ومشاركتك الآيات النّاهيات عن ذلك .

٣١- لِلْقُرُبِ : بضمتين ، أيْ : لِلْقُرْب بضمّ فسكون ، أي : لذي القُرْبِ الدَّاني ، ويجوز أن تكون الرّواية لِلقْرَب بكسر اللّام ففتح اللّام فسكون القاف ففتح الرّاء ، أي : للأقرب عَلى نقل حركة الهمزة وهي تناسب قوله الأدنى كما لا يخفى .

أي : اجتنب عَيْب النّاس والطّعن فيهم كاجتنابي للعيوب نفسها أن أتّصف بها .

٣٢- يُلْقَى بالبناء للمجهول إذا صحت ، فالمعنى : أنّ القول يلقى بعضه ، أي : يُطْرَحُ بعضه ، أي : بعض قائليه فِي مطارح الهلاك . والرّاجح عندي أن (يُلقي) بالبناء للمعلوم بضمّ الياء الأولى وكسر القاف بعدها ياء ، أي : أنّ بعض القول يُلْقِي أصحابَه فِي التّهلكة. الأتباب أصناف الهلاك جمع تَباب وتَبّ وهو الهلاك والخسران قَالَ جرير :

عوادَةُ من بقيةِ قَوْمِ لُوطٍ ألا تَبًّا لما عَلِمُوا تبابا

٣٣- ماضية : أي : نافذة أنفذ من النّشاب .

٣٥- الغِلّ بكسر الغين : الغيظ الَّذي فِي الصدر من حقد وحسد ونحوه ، أي : هَـذَا لا دواء له .

٣٦، ٤٢ - مَسَك ، بالتّحريك : جلد . أهداب جمع هَـدَب بالتّحريـك وهَـدَب الشّجر أغصانه (الأساس[١]) . بِنُشْرة : بضمّ النّون وسكون الشّين : بِرُقْيَةٍ . الأقـواب جمع قـوب وهي جمع قوبَة [٢] وهي قشرة تنشأ فِي الرّأس . مؤتـاب : مـن ائتـاب يأْتـاب إذا ورد باللّيـل والمعنى فِي جنح ليل ؛ لأنّ السّليم ، أي : الملدوغ كانوا يرقونه ولا يدعونه ينام فكأنّـه سـار باللّيل ساهر وكأَن ليله سهران ، كما يقال : لَيْلُه قَائِمٌ . وجنح بكسر الجيم وضمها . رقّاب بتشديد العين ، أي : راقٍ يَرْقِي من اللّدغ ونحوه . مالك بن ثَرّاب اسم راقٍ بعينه كما تـرى ويجوز مالك بألف بعد الميم وملك بدونها ، والله أعلم . يقـول : إنّ الغـلّ الَّـذي فِي الصّـدر لا يشفيه الطّب ولا يَرْقِي صاحبه شيء وإن جعلوا لَـهُ الرّقيـة فِي الجلـد وفِي جريـد النّخل ، وإن جاءوا براقٍ يضع الحصى فِي الأكـواب ليصنـع لَـهُ رقيـةً ذات أثـر ظـاهر كأنّـه القشر فِي الرّأس ، وإن رقوه فِي اللّيل الطّويل بأشدّ الرّقـى ، وإن رقـاه كـل مـن يعـرف رقيـة الحيّـات وفيهم أمثال مالك بن ثرّاب . فاحذر الغلَّ والحسد وتب واخش الله .

٤٣- قوله : فقلت مقوله فِي الشّطر ٥٢ : بل بلد ، أي : قلت لـك وهذا القـول لـيس مـن عندي ولكن ألقى عليّ ، ألقاه الملك الحفيظ الَّذي يكتب ما أقول ، وإنّما ألقاه عَـلَيّ لأنّـه قـد خطّ لي فِي اللّوح المحفوظ وأنا لست من القدريّين الَّذين ينكرون القدر والقضاء ، وهؤلاءِ فرقة ظهرت فِي عهد بني أُميّة وقالت بإنكار القضاء والقدر ، وسارت المعتزلة عَلَى قولهم .

٤٤- أي : القدريّون موضع ريبة ومطعون فيهم .

٤٥- أي : وهـم أنفسهم يجذبهم حبل القدر فكيف ينكرونه .

٤٨- أي : هم أنفسهم يجذبهم القدر كما يجذب المعلون الدّلاء ذات الأكراب . المعلون

---

(١) وفي المنسوب إلى ابن حبيب أنّهم كانوا ربّما رقوا في خمل الثوب وهو هدبه والجمع أهداب وهذا وجه جائز ، والله أعلم .

(٢) وهي هكذا في العاميّة وجاء في الفصيح قوبّة بفتح القاف والواو وقوباء بالمد وبفتح الواو والقاف ، وبضم القاف وإشباعها .

بفتح العين ، أي : الرّافعون ، اسم الفاعل من علّى مضعف علا . والأكراب جمع الكرب بفتحتين وهو من حبال الدّلو الّتي يشد بها ، فتعلية الدّلو أن يشد هَذَا الكرب ثـمَّ تشد به الدّلاء ثمَّ تجذب ليستقي بها . قَالَ الحطيئة : (شدّوا الفناج وشدوا فوقها الكربا) ويجوز أن تكون الرّواية بكسر العين ، والمعل هو الّذي يعل إبله ، أي : يسقيها مرّة ثانية بعد المرّة الأولى وهي النّهل . وليس ببعيد أن تكون المعلون بفتح العين جمع المعل ـ ، أي : المسقي مرة ثانية بعد الأُولى ـ بصيغة اسم المفعول من أعلّ ، والوجه الأول أقوى . والمعنى : أنّ القدر يجذبهم كما يجذب الواردون الدّلاءَ ، أي : جذبًا شديدًا .

٤٩- الميجاب : وقت إيجاب الحق وهو يوم الحساب .

٥٢- بل بلدٍ : ، أي : بل ربّ بلد ، أي : قلت وأنا مؤمن بالله متوكل عليه ولست ممن يقول بالقدر كأصناف الملاحدة : ربّ بلد هكذا صفته ذو ارتفاع وانخفاض ـ أَصباب جمع صبب ، وصعد بضمتين وبفتحتين فبالضّم جمع صعود وما بمعناها ، أي : الأماكن الصّاعدة وبالفتح ، كما فِي قوله تعالى : ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١٧] ، أي : يصعد فيه ذو مشقّة . قَالَ الطّبريّ : مشقّة من العذاب يصعد فيها ، وعن ابن عباس : جبل فِي جهنّم ولا يخفى أن الصّعد ضد الصَّبَب . قَالَ أبو تمّام وهذا تمثيل لا استشهاد :

أَبقَيتَ جَدَّ بَني الإِسلامِ فِي صَعَدٍ وَالمُشرِكينَ وَدارَ الشِركِ فِي صَبَبِ

٥٣- مَرادِيه : مهالكه ، ونهاره حار يذيب الأجساد .

٥٥- أي : لونه أشهب وكأنه عليه سرادق وجلباب من الغبار ، والسّرادق : ضرب من الخيام .

٥٦- يَشُلُّه : يطرده . شلَّ يَشُلُّ بضمّ الشين فِي المضارع . الخبَّاب : العدّاء ذو الجري والخَبَب ـ شبَّه جري السّراب عليه بجري الذئب ، وجعل السّراب ذئبًا لأنّه يغتال من يسلكه .

٥٧- الفيفا : المفازة . الأقراب : النّواحي جمع قُرْب بضمّ القاف ، وأصل القرب من الحيوان الخاصرة .

٥٨- الأشراب : جمع شِرْب بكسر الشّين وهو الحصة من الشّراب ، أي : هَذَا المكان بعيد من منابت النّخل ومسافات الورد فيه متباعدة .

٥٩- يقمس : باب نصر وضرب ، يغوص ـ ، أي : القفر يغوص فِي الغبار الهابي ويبدو ويرفعه السّراب وينكشف عنه .

٥٩- أي : أشعله حرّ الصّيف الشّديد . أجّجه : أوقده . شَهْبَهَ قيظ : لفحة حرٍّ . شهّاب: مغيّر ملوّح للوجوه ـ شَهَبَهُ الحَرُّ (باب منع) ، أي : غيّرَهُ وَلوّحه ـ غيره من التّغيير بالياء التّحتية المثنّاه .

٦٠- إذا حبا من سرابه ما يحبو نحو الرّمال .

٦١- خشن الأوساط محدودب النّواحي المنحدرة . أحْداب جمع حَدَب بالتّحريك .

٦٢- أخشاه ، أي : أشقّه وأخوفه ، ويجوز أن يكون المعنى : وأنا أخشاه . بعَسْف ، العسف : السّير عَلى غير هداية . جوّاب صيغة المبالغة من جاب يجوب ، أي : قطع الأرض يقطعها ، أي : قطعت أشقه باعتساف وسير شديد .

٦٣- بكل ناقة شديدة وبعير شديد ـ وجناء : ناقة شديدة ، وهرجاب : بعير شديدة وناقة شديدة أيضًا ـ قَالَ رؤبة فِي القافية يصف النّاقة :

مضبورة قرواء هرجاب فنق

فكأن هرجابًا هَذَا مصدر فلذلك جاز به نعت المذكّر والمؤنّث .

٦٤- ينعشها : يرفعها . مُق جمع أُمق وهو الطّويل . الأسهاب جمع سَهْب وهو الصّحراء ، أي : يسير بها سيرًا شديدًا فِي الصّحاري الطّوال الآفاق .

٦٥- طوال الأنصاب : طوال القامات المنصوبة .

٦٦- أجذال جمع جِذْل بكسر الجيم وسكون الذال ، وهو الأصل الباقي من النّبات . الشّعاف رؤُرس الجبال جمع شَعَفَة . النّضّاب جمع ناضب ، أي : الجذول اليابسة . ، أي : يستخرجن فِي جريهن أُصول نبات رؤُوس الجبال اليابسات .

٦٧- يراع قصب بدل من الشّعاف ـ كأنّه قَالَ : يجذبن أجذال الشّعاف يجذبن أجذال قصب الشّعاف ، وأُصول القصب يشتد التصاقها بالأرض ، فجذبها يَدل عَلى سُرْعَةِ السّير وأخذِ الخف مما يطؤه من الأمكنة . ، أي : هَذِه الأجذال كأنّها قصب لا ورق عليه ـ، أي : هي نفسها طائلة من فوق الأرض كأنّها قصب عاري[1] . أَسْلاب جمع سليب ، تقول : شجرة سليب ، أي : لا أغصان لها ولا ورق .

٦٨- تَنَزّى : تطاير وتواثب من نزا ينزو فِي الأصل . راتبات : واقفات .

الأرتاب : الأماكن العالية جمع رَتَب بالتّحريك وهو ما يبدو راتبًا من علم أو تل . وإنّما تتواثب أعلام الأرض أمامك فِي السّراب .

٦٩- طاوين : جاذبنه بالطيّ . الخروق : الفجاج والنّواحي جمع خَرْق بالفتح وهو القفر . الأجذاب : المجدبة جمع جدب ، أي : قطعن قفاره المجهولات وطوينها كما تطوى الثّياب . والقَسَامِيّ هو الّذي يطوي الثّياب أوّل شيء فتنقسم طياتها عَلى حسب ما يصنعه هو بها أول الأمر . والعصّاب هو تاجر العصب وهو ضرب من الثّياب .

٧١- أجواب واسعات : جمع جَوْب وهو الفضاء الأملس .

٧٢- من هول مكان مخشى المسالك خشن . صبصاب : خشن السّير فيه شديد . المهاوي . جمع مهواة . غَوْل : هول وما يغتال .

٧٣- الصُّرَى : الماء المتغيّر .. الأُجْباب : جمع جُبّ بضمّ الجيم وهي البئر ، أي : وربّ ورد من ماء متغير أصفر اللون فِي البئر .

٧٤- رب ماء هكذا صفته وردته قبل ورود القطا وهي ترد آخر اللّيل باكرة وسميت الصّادقات الأسراب ؛ لأنّها تقول فِي لغطها قطا قطا فهذا صدقها .

٧٥- أي : وردته بنوق سراع ضامرات البطون ، عُصُف جمع عصوف ، الأَقْصاب جمع قُصْب بضمّ القاف وهي البطون .

---

(١) أظهرنا الياء لدفع اللبس والوقف هكذا جائز وقرئ به في السبع .

٧٦- أي : كأنّ رحلي فوق حمار وحش . جأب : غليظ العنق ، أي : حمار غليظ منعوت بغلظ العنق بين الحير الغلاظ الأعناق . أجآب جمع جأب ، جعله اسما لحمار الوحش وهو كذلك وأصله ما ذكرناه .

٧٧- أي : فِي نحره جُروح وكدوم وآثار عض . أجلاب : جروح ناشفة المفرد جُلْبة مثل غُرْفة ، وهي القشرة فوق الجرح تقول : جَلَب الجرح (باب نصر وضرب) ويجوز أن يكون الجمع من جَلْب مصدر جَلَب (أو جَلْبٌ لفظ عَلى هَذَا المعنى لم يستعمل) أو جَمْع جلبة بحذف التاء ثمَّ جُمِعَ ذلك عَلى أَجْلاب . ، أي : جُلْبٌ المفرد والجمع أَجْلَاب .

٧٨- كَدْح : خدش ، أي : فِي نحره خدش ذو قشور وحلقات فِي نحره . مبين الأنداب: واضح الآثار جمع نَدَب وهو أثر الجراح .

٧٩- أي : فِي ثلاث أو أربع من الأتن ، معه ضوامر جيدات الأجسام جمع شَطْبة بفتح الشين وكسرها وسكون الطاء .

٨٠- شذب : أبعد وطرد . حَبْحاب : خفيف سريع قَالَ الهذلي :

وَبِجانِبَي نَعمانَ قُلْتُ أَلَن يُبَلِّغَني مَآرِب
دَلجى إِذا ما اللَّيلُ جَنَّ عَلى المُقَرَّنَةِ الحَباحِب

وقالوا : المقرنة جبال مقترنات صغار ، والحبحاب الصّغير والقصير ، والدّميم والسيئ الخلق ، وقالوا : المقربة بالباء الموحدة التَّحْتِيَّة ، أي : الإبل الكرائم السّريعات . ويجوز أن يكون المراد بحبحاب ههنا قصير شيء والأوّل أولى ، والله أعلم .

٨١- غيران : فاعل وليس بصفة للجحش كما فِي الطّبع ؛ إذ لا يستقيم به المعنى إلا مَعَ التكلّف ، وحمار الوحش يوصف بالغيرة وأنّه يطرد كلّ حمار آخر عن إناثه ، وإذا ولدن جحاشا طرد عنهنّ أولادهنّ غيرة منه عليهنّ . الإعتاب : المسامحة ، أي : هَذَا الحمار طرد عنها كل جحش خفيف لغيرته وشدّة غيظه ، وأنّه لا يسامح من يدنو من إناثه .

٨٣- صلب رهبي ومُعَيى الإضهاب : موضعان .

٨٤- جوازئا ، أي : مكتفيات بالرُّطب وهو العشب النّديّ عن شرب الماء ، هَذَا الجزْءُ

بفتح الجيم ، ولا أستبعد الضّمّ إذ فيه معنى الكفاية قالوا : ماله جُزْءٌ ، وما لَهُ أجزاء ، أي : لا كفاية لَهُ . عن عذق ، أي : هن جوازئ بسبب العذق ، أي : الماء الكثير والخِصْب .

٨٦- جُزْء الأعشاب بالضّمّ ، أي : نصيبهنَّ من الأعشاب أو اكتفاؤُهن بالأعشاب عن الماء . قلص ، أي : انكمش بسبب الحرّ وعدم المطر .

٨٧- التّاح : عطش . مُخْرَوِّطات مُشَمِّرات فِي السّير . أشزاب ضوامر : جمع شَزْبة بفتح فسكون ، كما جمع من قبل شَطْبة عَلى أشطاب .

٨٨- أمرن : فُتِلْنَ فَتْلًا شديدًا . الإشساب : اليابسات الشّديدات جمع شسْب بكسر فسكون ، والشّاسب والشِّسْب هو اليابس الضّامر الدّقيق جدًّا . يقول : حتّى إذا نَشَّت الغدران وجاءَ الصّيف وعطش ومضى فِي طلب الماء مشمرًا مُخْرَوِّطًا مَعَ صواحبه المشمّرات ، وكلها ضامرات كالحبال المتينات .

٨٩- كعصي السّيساب ، أي : السّيسبان : ضرب من الشّجر ، شبهها بعصيه فِي الشّدّة والضّمور .

٩٠- مُسْحَنْفِر الورد : سريع السّير إِلى الورد ـ استحنفر : مضى مسرعًا . الإقراب السّير نحو الماء ـ ، أي : يسوق اتنه إِلى الورد سوقًا عنيفًا .

٩١- زرّا : مضايقة وكدما وعضًّا[1] . قَطَوْطى : عنى الحمار شذّاب : مناع طراد كل شيء عنهنّ ، أي : يخفن عض هَذَا الحمار القطوطيّ ، أي : الطّويل الرّجلين المتقارب الخطوات، الَّذي يشذب عنهنّ كلّ شيء ويشذبهنّ عن كلّ شيء .

٩٢- مذئبات الإذئاب مسرعات الإسراع من خوفه .

٩٣- من نَزَقٍ بالتّحريك ، عني : من ذي نزق وهو الحمار وصفه بالمصدر . أو نزق بكسر الزاي . وظّاب مستمر مواظب . أي : يسرعن من خوف هَذَا الحمار النَّزِق الباقي القوّة عَلى الجري المواظب عَلى سوقهنّ ـ تقول : وَظَب عليه يَظِبّ ، أي : دوام من باب

---

(١) هذه الكلمة لا تزال مستعملة في السّودان ، والزرّ : المضايقة في السّؤال والتّحقيق والتّدقيق وأن تفاجئ امرأً يصنع خطأً ـ هذا في الاستعمال الدّارجيّ .

وزن . الجِرَاء : الجري .

٩٤- قيعان جمع قاع عني به ما هبط من الأرض . ذات الحِنْزاب : موضع . ، أي : يضرحن بحوافرهن الأرض فِي هَذَا الموضع .

٩٥- سوّار اليدين : من سار يسور ، أي : وثاب باليدين ومنه سورة الخمرة ، أي : حدتها ، ثلّاب ، طرّاد من ثلب يثلب (باب ضرب) .. ، أي : هن يضرحن التّراب فِي نحر هَذَا الحمار الشّديد الوثب بيديه الطّراد لهن أمامه بسوقه المنجرد .

٩٦، ١٠١- كأنّ لَحْيَيْه ، أي : كأن مجمع فكيه فوق أعجاب هَذِه الأتن ، أي : مواضع أذنابها نوط تدلّى . الأعجاب جمع عَجْب بفتح فسكون وهو العظم الَّذي عند الذّنب . والنَّوْط : قُفَّة صغيرة كَانَ يحمل فيها التّمر وتُعَلّق بأقتاب الرّحل . وهذا الحمار فاتح فمه لأنّه يسوق الأتن من وراء وَيَعضُّها وهي تضرح فِي نحره التّراب . فَفكُّه الأسفل كأنه قُفَّة صغيرة معلّقة فِي كُلَّاب وهو حديدة تكون فِي السّرج ، هَذَا الكُلَّاب قد جرّد وأخرج من جَدَيّات الأخراب ـ والجَدْيَةُ : شيء مَحْشُوٌّ يوضع فِي إكاف السّرج جمعه : جَدَيّات بالتّحريك ، والأخراب : فَتَحات السّرج من أمام ووراء والمفرد خُرْبة بضمّ فسكون ، والخُرْبة : كُلُّ فتحة مستديرة ، فهذا الكُلّاب حديدة بارزة إِلى جانبٍ من فتحة السّرج الخلفيّة ، فهذا يعطيك صورة لحيي الحمار بالنّسبة إِلى عجز كلّ أتان يعضها ، وهذا النَّوْط مشدود إِلى الحديدة ببعض أطراف الحزام الَّذي يربط السّرج بظهر الدّابة وبطنها ، والحِنَاك بكسر الحاء ، جمع حُنْكَة بضمّ فسكون وهي الجلد الَّذي يُشَد به السّرج إِلى الأضلاع ، والقتَّاب بتشديد التّاء : هو الَّذي يشد الأقتاب عَلى الرّاحلة . هَذَا النّوط يَعْدِل ، أي : يُمِيل (بضمّ الياء الأُولى) لِسانَ الحمار عن زَبَد فمه ولُعَابه ، ووصف فمه بأنّه أَشْغَى ، أي : مختلف أشكال الأسنان وأوضاعها ، وأنّه صِلْقاب ، أي : ذو صوتٍ لاصطكاك أسنانه بعضها ببعض وهذا كقوله فِي القافية :

شَاحِيَ لَحْيَيْ قعقعانِيِّ الصَّلَق   قَعْقَعَةَ المِحْوَرِ خُطّافَ العَلَق

وسيأتي شرحه إن شاءَ الله تعالى ، ثمَّ وصف الحمار بأنه مشفاء أحسبه يعني أنّه عضاض

بأسنان كأنّها الأشافِي ، والإشصاب ههنا الإيجاع ، إذ الشّصب والإشصاب هو إحداث المشقّة والعسر ، وفسّر البكري المشفاءَ بالمشرف من أشفى عَلى الشيء إذا أشرف ، والإشصاب بالعطش ، وهذا السّياق لا يستقيم ، والله أعلم . ولا يخفى موضع الشّينات المتتابعات وجرسه فهذا عسى أن ينبه عَلى بعض ما عند رؤبة من ذوق الصّناعة والله تعالى أعلم .

١٠٢ - كالورل : شبه لسان الحمار المعدول بجانب فمه بالورل بين الشّقوق وجعله مهزولًا ويقال : إن الورل شديد العجز يختبي فِي الجُحْر حتّى يموت هزالًا ، وفِي الأمثال[1] أنّ الصّبر قتل الورل فِي جحره ـ هَذَا فِي ذم الصّبر فيما زعموا وإنّما ذموا العجز ليس إلّا .

١٠٣، ١٠٤ - أي : إذا اشتد فِي الجري الَّذي ينهب الأرض نهبًا صددن من التّعب أو تتصبب عرقًا من مواظبة السّير ، والإهذابُ هو الجري السّريع .

١٠٥ - أي : أعرقها هَذَا الحمار المُجْلَوِّذ ، أي : السّريع الخفيف الآخذ بحافره من الأرض ـ القبض والقبص متقاربان وبالصّاد أخف من القبض بالضّاد .

وقيع : شديد . الإكناب : الغلظة ، عَنَى غلظة حافره وصلابته فِي خبطه الأرض وهذاكقوله فِي القافية :

يرمي الجلاميدَ بجلْمُود مِدَق

١٠٦ - أي : لَهُ حشرجة من جوفه كالزّمر بالقصب . القصّاب الزّامر بالقصب ، وهذا كقوله فِي القافية :

حَشْرَج فِي الجَوْفِ سَحيلًا وشهق حتّى يقال ناهقٌ وما نهق

١٠٧ - الهبهبة والهيدلة ضربان من غناء البدو ـ الهبهاب من لعب الصبيان ، شبه حشرجة الحمار ، أولًا بصوت القصب ثمَّ بصياح الغلام الّذي يلعب ويصيح مهيدلا

(١) في أمثال العامّة عندنا في غرب السّودان .

ومهبها ، أي : شيء ذلك كَانَ من صنيعهم .

١٠٩ – أو كأن حشرجته صخب راجز . ، أي : كأنّه مثلًا رؤبة وهو يرتجز فتأمل ، ولرؤبة بحمار الوحش إعجاب .

١١٠ – أو كأنه ضرب صاحب أصناج وطبل ، ودبداب كأنه حكاية صوت بالطّبل .

١١١ – أي : حتّى إذا جعلها تنحدر فِي المطمئنات من أرض الفلاة وذلك بالقرب من المورد . الأغياب جمع غَيْب وهو ما اطمأن من الأرض وانخفض .

١١٢ ، ١١٣ – والتجت : ودخلت فِي لجة الغابة ذات الشّجر ذي الأغصان ، الشّجراء موضع الشّجر . جاءت تسدّى ، أي : تتدرج شيئًا فشيئًا خوف الصّائد . حضب بفتح فسكون ، أي : ثعبان وشبه الصّائد بالنّسبة إليها بثعبان الثّعابين .

١١٤ – يمشي بصفراء ، أي : بقوس . وزرق أذراب ، أي : وسهام حداد . جعلها زرقًا للون حديدها وصفائه ، وزعم أبو حيان[1] أن الزُّرْقة لون الرّماد فِي تفسيره قوله تعالى : ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه : ١٠٢][2] ، وقالوا : أي : سود الوجوه زرق العيون تشويها لهم وهذا لعمر أبيك التكلّف والزّرقة لون لا ريب ، فَحشْرُهم عَلى صُورة هَذَا اللّون ، وهو ضرب من السّواد كما الخضرة ضرب من السّواد ، وقد اتفقوا عَلى أنّ الزّرقة فِي العين خضرة فيها ، وَزَعْمُ بعضهم أنَّ قولهم : أزرق يعنون به زرقة العين غَيْرُ قَوِيّ ؛ إذ الْعَرَبُ حين تذكر الزّرقة تذكر الْعَيْنَ فلو لم تكن بها إِلى العين حاجَةٌ ما ذَكَرتْها ، وحين الحذف يكون ذكْر العين قد مر . وكلا هذين البيتين يستشهد به ، قول الشمّاخ :

وَما كُنتُ أَخشى أَن تَكونَ وَفاتُهُ ... بِكَفَّي سَبَنْتى أَزرَقِ العَينِ مُطرِقِ

وقال الآخر أحسبه الفرزدق :

لقد زَرِقَتْ عيناك يابْنَ مُكَعْبر ... كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤم أزرق

١١٩ – بالبيباب ، أي : بالإعوال وهذه حكايته .

---

(١) هو صاحب البحر المحيط .

(٢) سورة طه .

١٢٠ - استنفض ما في الأزراب تأكد مما في الأزراب ونظر فوجدها خالية ، وفي القاموس : النَّفَضَة محركة : الجماعة يُبْعثون في الأرض لينظروا هل فيها عدو ، والأزراب جمع زرب وهو بيت الصّائد ، وخلوها أنّ الصّائدين المتربّعين بها غفلوا وناموا ـ عمرو وابن أم هراب : اسمان لصائدين حقيقيّين أو متوهّمين كما تقول : زيد وعمرو . وقال امرؤ القيس :

فأوردها ماءً قليلًا أنيسه يحاذِرْن عمْرًا صاحب القُتُرات[1]

والقترة بضمّ فسكون : بيت الصّائد كالزّرب ، فجعله عمرا كما ترى ، وقال ربيعة ابن مقروم :

وبالماءِ قيس أبو عامر يُؤَملها ساعة أن تصوما

فأبو عامر القانص وكذلك فسروه . وقال الشماخ :

وجلّأها دون الشريعة عامر أَخُو الخضر يرمى حيث تكوى النواحز

فجعله عامرًا ، وزعموا أنّ عامرًا هَذَا صحابي وروى الحديث ، قالوا : روى محمّد بن إسحق بن يسار عن أبي منظور عن عامر الرّام أخى الخصر[2] .

١٢٢ - ثنيا من خليج ، أي : طرفًا من خليج ماء منساب .

١٢٣ - الْوَلْق بسكون اللّام بعد واو مفتوحة : الإسراع ـ قَالَ رؤبة :

صوادق الْعَقْب مهاذيب الوَلَقْ

وهو بالتّحريك كالولق بالسّكون ، وأَنْكَرَ ابْن قتيبة الْفَتْحَ عَلى مذهب البصريّين وهو ضعيف كما ذكر ابن جني ، واستشهد ابن قتيبة بقول رؤبة :

تهوي إذا هن وَلَقْن ولقا

---

(١) ولك أن تقول القترات بضمّ ففتح بعده ألف وتاء .

(٢) هكذا في أنساب السعانيّ وحذف ياء المنقوص كأنّه اشتهر بذلك خفيفًا كقوله تعالى : ﴿ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر : ٩] .

وقالوا : الزّرقة هنا شُخوص العين فتأمّل[١] . ثمَّ ليس قوله : أزرق فِي آخر البيت يدل عَلَى زرقة العين ، فيكونُ المهجُو شاخص العين مُسَودَّ اللّون كما قالوا : أخضر فِي المسود اللّون وقال الفرزدق :

فلو كنت ضبياً عرفتَ قرابتي ولكنَّ زنجياً عظيم المشافر

والزّنج سود ، وكان السواد فِي بني ضبة فاشيًا ، قَالَ الراجز (التكملة) :

وضَبَّة الدُّغْمان فِي روس الأكم مُخْضَرَّة عيونها مثل الرخم

الدُّغْمان ، أي : السّودان ، وقوله : مخضرة صفة لهم ، أي : هم خضر ، أي : سود وعيونهم كعيون الرّخم شاخصات ، وهذا كالّذي مرّ فِي صفة ابن مكعبر ، ويجوز أن يكون المراد مثل الرّخم وعيونهم مخضرة وإن كَانَ هَذَا الوجه لا يخلو من بعد لأنّ وجه الشّبه بالرّخم عَلَى هَذَا لا يتضح . هَذَا وقد قالت العرب للأسود : أخضر ، وألوان الخضرة والسّواد والزّرقة قد تتقارب ، والله تعالى أعلم .

قوله : أذراب ، أي : حداد جمع ذرب بفتح فكسر ، وقد يقال ذَرْب بفتح فسكون .

١١٥ – إذا مطاها : إذا مدّها وشدّها يعني القوس . عند نزع الإنضاب ، أي : عند نزع الرّمي والإنضاب هو الإنْباض . قَالَ الشّمّاخ :

إِذا أَنبَضَ الرّامونَ عَنها تَرَنَّمَت تَرَنُّمَ ثَكلى أَوجَعَتها الجَنائِزُ

١١٦ – الأعقاب جمع عَقَب بفتحتين وهو عَصَبٌ تصنع منه الأوتار ، ويُسْتَخْرَجُ من عصب المتون ، والمتن : جانب الظّهر ، فيكون المعنى إذا مدّها الرّامي وشدّها مدّت لَهُ وترًا قويًّا من عصب المتون ، أو مدّت لَهُ ذا قُوّة من متون أوتارها .

١١٧ – مكآب : حزينة ، أي : هكذا صوت خروج السّهم .

١١٨ – عيلت بحب : رزئت بحِبٍّ . أصيبت بهلاك حبيب عزيز فَعَالها ، أي : فشَق عليها فأعولت ، أي : فبكت .

---

(١) وبهذا المعنى تتفق في اللّهجة العاسيّة أحيانًا ولفظ المزراق غير بعيد من هذا في أصل الاشتقاق .

وزعم المبرّد متبعًا سيبويه أنّ العرب لا تسكن مفتوح الوسط تخفيفًا ، وإنّما تفعل ذلك بمكسوره ومضمومه ويُسأل بعد عن (دأبا)[1] فِي سورة يوسف ، والرّهب فِي القصص والنّهر بالفتح والسّكون فِي أصناف كثيرات ، وسيبويه والمبرّد عَلى فضلهما ربّما حجرا الواسع أحيانًا ، والله أعلم ، أي : هن يمصعن بأذنابهن يتقين الذّباب الصّخاب السّريع اللذع وهذا كقوله فِي القافية :

يمصعن بالأذناب من لَوْحٍ وبق

أي من عطش وحشرات .

١٢٥ - فِي الأرجاب : الأمعاء وفِي أراجيز البكريّ فاتسعت بالعين المهملة (البيت ١٢٤) واتسقت أحبّ إليّ ، كأنهن وقفن معًا متّسقات يجرعن لما أمن من أجل نوم القانص .

قال الفيروزبادي : الأرجاب: الأمعاء لا واحد لها أو الواحد رجب محركة أو كقفل وهذا نحو قوله فِي السَّقْب : خاص بالذّكر ولا يقال لها سَقْبة أو يقال ، فسبحان الله ما أوسع ساحة هَذِه اللّغة .

١٢٦ - الرّاب : أي : الرّابي ، والربو ارتفاع النّفس ، والمطبوع تنفيس بضمّ السّين كأنها فاعل وصعَّد الزَّفْرةَ ، والوجه عندي نصب السّين وفاعل صعّد هو الحمار ، أي : لما ارتوت الأتن صعّد الزّفرة كما يصعدها ذو الرّبو ـ كأنّه لأَمْنِهِ وريِّه ورِيِّها تنفس الصّعداء .

١٢٧ - أي : حتّى إذا تم وردها وارتوت أصدرها وجعل يحفزها عَلى السّير وكأنّه من اجتماع جسده وشدته وتد . قِلْو ، أي : حمار وحش . قَالَ ابن جني : إنّه سمي بذلك (لخفته وسرعته) ، ولا أعلم المظراب ما هو ، وجعله البكريّ من الظِّراب ، أي : الحجارة ولم يبين كيف وجه ذلك أو توجيهه ، وعسى أن يكون المعنى كوتد المقيم بالظراب أو الَّذي يجيء بالحجارة الحداد ويجعلها أوتادًا فهو كوتد من حجر من قوته وهذا أشبه .

---

(١) أي بالتّحريك والسّكون .

والودّ بتشديد الدّال لغة فِي الْوتِد كأنّهم سكنوا التّاءَ المكسورة ثمَّ أدغموها .

١٢٩ – النِّقال : ضرب من الجري من قولهم : ناقل يناقل وهو فوق المشي شيئًا ، أي : هي تسرع وهو بمناقلته الَّتي تنقب الأرض يدنو منها .

١٣٠ – فِي ذي أخاديد ، أي : فِي درْبٍ ذي طرائق محفورة . فإما هي آثار الحمير نفسها وهذا بعيد ، وإما هي آثار من ساروا عليه من قبل من وحش وبشر (وهذا جائز للسياق بعده ولكن الغالب عَلى الحمر الوحشية اجتناب طريق الناس) ، وإما هي شقوق فِي الأرض من الطّبيعة أمطارها ورياحها وحرُورها ، وهذا عندي أرجح ، والله أعلم ـ مبين الأنداب : الآثار ، فهذا يبعد الوجه الأوّل ، أي : الطّريق ذو شقوق ثمَّ آثارها الصّلبة تبيّن فيه . أنداب جمع نَدب بالتّحريك .

١٣١ – عن مضرٍ : عن مكان قريب . لجّاب : صخّاب . ، أي : طريق هَذِه الحمر فيه ميل وانعدال عن مكان قريب فيه لجب النّاس وصخبهم ، وهذا كقوله فِي القافية :

زُورًا تجافى عن أشاءَات الْعُوَق

وقولنا : إنّ مُضِرًّا بمعنى قريب يسنده قول الحماسيّ يرثى بسطام بن قيس :

لِأُمِّ الأَرضِ وَيلٌ ما أَجَنَّت ... بحيث أَضَرَّ بِالحَسَنِ السَّبيلُ

أي بحيث دنا السّبيل ، أي : الطريق من الموضع المسمّى الحسن ، هكذا فسروه وقول امرئ القيس :

لَها عَجُزٌ كَصَفاةِ المَسيـ ... ـلِ أَبرَزَ عَنها جُحافٌ مُضِر

أي سيل مضر ، يحتمل الوجهين والمقاربة أحب إلي ، وفوق كل ذي علم عليم .

١٣٢ – العوصاء ، أي : الغابة العوصاء الَّتي لا طريق فيها . الأخشاب : جمع الخشب المعروف وما ذهب إليه البكريّ وهم ، والله أعلم .

١٣٣ – الأظراب : جمع ظَرِب بفتح فكسر وهو التّلّ الصّغير والرّابية ، وشبهوا ، به الثّقيل من النّاس : ومن سجعات الزّمخشري : الكرام طِرَاب وأنتم ظِراب . وكاد يكون بهذه السّجعة ظربًا حاشاه رحمه الله .

١٣٥ – رجع رؤْبة إِلى قوله الأول وانظر الشّطر (٢٤) إِلى الشّطر (٥٢) حيث افتخر بركوبة الأخطار ووفوده عَلى العظماء ـ رجع فقال لهذا الَّذي يلومه : بل أيّها الباغي يقول التكذاب .

تأمّل هَذَا وأساليب عبيدالإفرنج الذين يزعمون أشعارنا لا وحدة تربط بين أجزائها ـ ألا تبًّا لما عملوا تبابا .

١٣٧ – صيابة القوم وصميمهم : أشرافهم وخيارهم .

١٣٩ – لم نمذق : لم نخلط ، بتلك الأشواب : بتلك الأخلاط ، أي : لسنا أبناءَ إماء روميّات وهلمّ جرّا ، بل عرب أقحاح .

١٤٢ – قوله : خندف يعني ابن خندف وإنّما خندف امرأة ولدت كنانة وتميمًا من أولاد مضر فقيل : قيس وخندف ، فلمّا صارت خندف قبيلة جعلها بمنزلة الأب . وهكذا تصنع العرب بالقبائل فيقولون : هَذِه تميم ينوّنونها لأنّه أبوهم ، وإن شاءوا منعوها من الصّرف للعلميّة والتّأنيث عَلى معنى القبيلة ، وخندف اسمها ليلى وهي امرأة الياس بن مضر وتميم بنو أُد بن طابخة بن إلياس وكنانة بنو مدركة بن إلياس وهذيل أخوهم ، فإذا أرادوا القبيلة منعوا خندف من الصرف عَلى معناها مَعَ العلمية ، وإذا أرادوا جعلها بمنزلة الأب والجد منعوها من الصّرف لأنّها علم عَلى أنثى فلهذا قَالَ رؤبة : خندف .

بالمنع من الصّرف ثمَّ أتبعه قوله :

جـــد الخلفـــاء الأربـــاب[1]

١٤٤ – أي : رساب فِي العظام يبري العظم يقال للسّيف الَّذي يصنع هكذا رساب ورَسُوب .

١٤٥ – حبال مهواة : حبال مجرورة مضافة إِلى رساب أو منصوبة مفعولًا به لرساب .

أي قطّاع حبال المهواة الَّتي يهوي إليها وهي العنق ، وسمّي العنق مهواة ؛ لأنّ الشّعراءَ

(١) ولك أن تزعم حذف تاء التّأنيث هنا وهو عندي بعيد ، تقيسه على قول من قال : عد الأمر الذي وعدوا ـ مثلًا .

هكذا سمتها - قَالَ ذو الرّمة :

تَـرى قُرطَهـا فِي وَاضِـحِ اللّيـتِ مُشرِفـاً عَـــلى هَلَـــكٍ فِي نَفنَـــفٍ يَتَطَـــوَّحُ

وكان ذو الرّمة عَلى عصر رؤبة أو أسن منه .

وحبال العنق عروقها ، قَالَ تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] . والَّذي ذهب إليه لبكريّ من تفسيره حبال مهواة بقوله ، يريد هَذَا السّيف حبال المنيّة والمهوي حيث يهوي يجوز عَلى نصب وكَدّ ، والله أعلم .

قبَّاب ، قطّاع . ، أي : قومي يضربون النّاس بكلّ سيف ذي بريق يبري العظم ، ماضي الحد يقطع حبال الأعناق ويقطع قطعًا .

١٤٦- النُّكاب ، أي : النّاكبون عن الحق من الملاحدة والخوارج وأضرابهم .

١٤٧- مزعفات الإقشاب ، أي : السّموم القاتلات تقول : سم زعاف بضمّ الزاي وسم مُقْشَب ، أي : شديد بالغ .

١٤٨- الحنظل هو الشَّرْي والصّاب من الأشياء المرّة .

١٤٩- أي : إذا اشتدت .

١٥٠- القونس أعلى الخُوذَة الَّتي عَلى رأس الفارس ، أي : قصد كل ضراب أن يضرب أعلى الخوذات بسيفه ليشقها ويكسر رءُوس أصحابها .

١٥١- خطب الأخطاب ، أي : الخطب العظيم .

١٥٢- قوله : الدّواهي النواب ، أي : النائبات ، وأكثرما يستعمل الفُعّال بضمّ فتشديد فِي صفة المذكّر وقد جاءَ فِي المؤنث وسوّغ التّأْنيث ههنا أنه مجازيّ .

١٥٣- وعشرة إلخ معمولات الكافين .

١٥٤، ١٥٥- يَشْذِبُ ، أي : يبعد ويطرد ، فاعله حوانك ، أي : ناضجون غير ثلبين ، أي : غير فانين - تأمّل كيف نفى (الثّلْب) عن قومه فِي موضع الفخر وأثبتها لنفسه فِي النّسيب حيث قَالَ :

تَلُــوم ثِلْبًــا وهــي فِي ســنّ النّــاب

مصعبات الأصعاب ، أي : الفحول التّامات الفحولة يبعدها عنا المجربون النّاضجون من رجالنا هؤُلاء يصدُّون عنا ذوي الشّرّ من الّذين يرومونا بالعدوان من شياطين النّاس وذوي جبروتها .

١٥٦ - أي : الحوانك المجربون من صيدنا . وحوانك كما ترى من باب فواعل الّذي جاء للمذكر[1] وكقول الفرزدق :

وَإِذا الرِجالُ رَأَوا يَزيدَ رَأَيتَهُم   خُضُعَ الرِقابِ نَواكِسَ الأَبصارِ

وما أحرى أن تكون طريقة الفرزدق هي المذهب .

كل مجذ الأنياب بالذّال كل قطاع الأنياب كالأسد ، ويجوز بالدّال المهملة من جد إذا قطع (باب قدّ) .

١٥٧ - الدّأية الفقّارة الواحدة وعني بدأييه عظمي فقّاره ، أي : لم يضغط ظهره ممارسة السّروج وهي الأقتاب جمع قتب بالتّحريك .

١٥٨ ، ١٥٩ - أخذ من بعد يصف كل فحل من قومه فشبهه بالبعير الفحل ذي الرّقبة الغليظة والفم الواسع والأنياب . وأدخل فِي صفات هَذَا البعيرُ المصعب الفحل المزبد المخشي صفات الأسد الهموس الفّراس .

قوله : لشَجْرِهِ بفتح الشّين وسكون الجيم ، أي : لفمه والشّجر أعلى الفم . فِي قَصَرٍ بالتحريك ، أي : فِي عنق ، والقصر أصل العنق وهو جمع القصرة ، وأرقاب جمع رقبة ، أي: لأعلى فمه مجرى ابتلاع فِي رقبته العظيمة ، وهذا المجرى الابتلاعي (المُبْتلع أو الإيسوفاغوس كما يقول الأطبة) كأنه الحفرة والمهواة العظيمة بين شقوق الجبال . الشِّقْب هو الطريق فِي الجبل والدّحل بفتح فسكون الحفرة ، أي : لَهُ مبتلع عظيم ينفتح للالتقام .

١٦٠ ، ١٦١ - أشدق عظيم الشّدقين ذو أحناك هائلة وأنياب كأنّه فيل ، وله قبقبة تروع . قُبَابُ الإقباب ، أي : عظيم الهدير .

---

(١) لعلّه أن يقال سوّغه ههنا أن الحوانك في الأصل للإبل لا العاقلين .

١٦٢ - الصّواب عندي مُشرِّف بضمّ الميم وتشديد الرّاء مكسورة بمعنى مشترف ، أي: مشرف الأعلى ويجوز كسر الشين كقوله تعالى : ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس : ٤٩] فِي قراءَة عاصم وأجاز الزمخشريّ تفسير مُعَقِّبات فِي سورة الرّعد بمعتقبات ويقويّه الخبر : يتعاقبون فيكم إلخ .

خِدَب بكسر ففتح فتشديد ، أي : غليظ الغلظة شديد الشّدّة .

١٦٣ - كالنطع ، أي : البساط وهو بساط مستدير ذو جوانب كانوا يضربون عليه الأعناق وهو من الجلد ، وعندنا يصنع من السّعف وتستعمله النّساء للدّخان وهو من زينتهنّ ، انظر كتابنا بين النّير والنّور ٨٦-٨٩ ، فثم صفته) . الأطناب جمع طُنُب بضمتين وهي حبال تشدّ بها الخيام . وقوله فِي تشبيه الفحل بالنِّطَع الممدود بين الأطناب يدل عَلى أنه يصف بيتا من نطع مضروب كالخيمة مشدود بين أطناب وقد تصنع الخيمة من البسط ولم يفسر البكري هَذَا الحرف .

١٦٤ - الصَّلَخْدي : الفه للإلحاق عند الجوهريّ وتابعه عَلى ذلك الفيروزبادي ومؤنثه صلخداة ، وصناتيت صناديد ، والآب الَّذي يأبى هكذا فسره البكريّ ـ ، أي : هَذَا الفحل كالصنديد القويّ من أبطال الأعداء ويجوز هَذَا التّأويل وفِي النّفس منه شيءٌ ، ويجوز أن تكون صنادتيت ههنا بمعنى كتائب ، أي : كالبطل القويّ من كتائب العدوّ وهذا أشبه لقوله بعده : سامٍ ترى أقرانه فِي ذبذاب ، أي : فِي اضطّراب .

١٦٦ - هذًا : ضربًا بالسيف وقطعًا ـ بالخِناق المِسْآب ، أي : بالخناق الخنّاق ، أي : القتال ، أي : يضرب أقرانه ويخنقهم .

١٦٧ - ثمّ لما غلب الفحل أقرانه أقبل عَلى الإناث فهن يلقين فحلًا يعلوهن ويغصبهن يتعبهن ثمَّ يَنفضهنَّ ويجرهن ويقهرهن .

١٧٠ - مذل مطبوعة بالذّال المعجمة وأحسبها بالمهملة وكذلك فسرها البكريّ ، أي : يدل عليهن بتوثابه ، وإن صحّت رواية الذّال فالمعنى يذلهن وأَسْتَبْعِده .

١٧١ - ضباضِب ، أي : شديد لَهُ لبد وشعر ، أهْلاب جمع هُلْب بضمّ فسكون وهو

الشّعر الَّذي عَلى الجلد .

١٧٢ - أي : أحمرّ كأنه ظليم يرعى الخضر . والظّليم إذا رعى الخضرة أحْمَرَّ ظُنْبُوبَاهُ ، أي : ساقاه فيقال لَهُ : خاضِبٌ ، أي : كأنّه مختضب بالحِناءِ وأخضاب ، أي : رياض خُضْر جمع خَضْب بفتح فسكون وهو النّبات الأخضر الجديد ، والعرب تشبه فحل الإبل بالظّليم الخاضب .

١٧٣ - عُثنونه ، أي : شعر حنكه ، فِي شدق واسع قوي تقول : سرطم كجَعْفَر وزِنْرِج، أي : ضخم ذو ابتلاع . عبعاب ، أي : طويل ، أي : لحْيَته فِي وَجْهِ فَحْلٍ ضخم الخلق أكول طويل هائل .

١٧٤، ١٧٥ - أخناث شدقيه : ما انْخنث وانثنى من شدقيه جمع خَنِث بفتح فكسر خنث بضمّ فسكون قَالَ جرير :

أتوعدني وأنت مجاشعي تـرى فِي خُنْثِ لَحْيَيْهِ اضطرابا

أي فِي لينهما وفقدان رجولتهما . وغَرْب : بفتح فسكون والغرب الدّلو العظيمة وجعلها غَرْب الأغراب ليدلّ عَلى عظمها . يقول : انهدال مِشفريه كانهدال الدّلو العظيمة إذا زفى أيْ تابعَ (زَفَى يزْفِي) الزأر بهدرِه ، أي : الهدّار .

١٧٦ - قُصال زعم البكريّ أنّه النّاب فالمعنى وخافت النّوق عضًّا من ناب هَذَا العضّاض وهذا جائز وقُصال بهذا المعنى ليست فِي القاموس ولا الصحاح ، وفيها أنّ القصالة ما يرمى من نخالة القمح ، وفِي الصّحاح القصالة ما يعزل من البرّ إذا نُقِّيَ ثمّ يداس الثّانية ، وفِي أفعال ابن القوطية أقصل الزّرع حان أن يُفصلَ ، والسّياق يدل عَلى أنّ رؤبة يستعير صفاته ههنا من قصة الحصاد وقَصْل الزّرع :

وخفن خَلْبا من قُصالِ الخَلاب عَبْلِ المَدَاوِيسِ مُنِيفِ الشِنْخابْ

أي خفن قصًّا وحشًّا من معاودة هَذَا الفحل الخلّاب ، أي : الشّديد الفحولة لهنّ بمداويسه الضّخمة العبلة وشنخابه المنيف ، والمداويس عنى بها جسمه وأطرافه ، جمع مِدوَس بكسر الميم وهو ما يدوس به ، والشّنخاب الرّأس هنا ، قالوا : شُنْخوب الجبل

وشنخوبته رأسه ، والله أعلم .

١٧٨ - أحزم بالحاء المهملة والزاي ، أي : مرتفع ويجوز أن تكون بالخاء المعجمة ، والأخزم الحيّة الذّكر واسم فحل كريم ، أي : هو رهيب تخشاه القروم الفحول الضّخام. والقَهْب الضّخم قَالَ رؤبة :

لَيْثٌ يَدُقُّ الأَسَدَ الهَمُوسا وَالأَقْهَبَيْنِ الفِيلَ وَالجامُوسا

أي الكبيرين الفيل والجاموس ، وهما والأسد عظام الغابة .

١٧٩ - أي : يحركن أذنابهنّ خوفًا منه .

١٨٠ - الخشب : الجزل الغليظ ، والقماش الرذل وقماش النّاس رذالتهم : أي : الرّكين الشريف أبقى من الخسيس المرذول ، وقد جعل هَذَا الفحل كناية عن نفسه لأنّه إنّما شبه فحول قومه بفحول الإبل وذلك قوله :

حوانك الأسنانِ غير أثلاب

وارجع إِلى قوله آنفًا :

فأيُّها الغادِي براح الأغراب

إِليَّ والراوي كلام الآلاب

أقصر يا هَذَا فإني من الجزل وأنت من القُماش والحُثالة وأنت حسودٌ بك ضِغن كالسل.

والغِلُّ لا يشفيه طِبُّ الأطباب

واقرأ بعد :

والهمُّ لا يُقضَى كسل الأَوْصَاب

١٨١ - والأوصاب الأمراض جمع وَصَب بالتّحريك .

١٨٢ - بقروب جمع قُرب بضمّ فسكون ، أي : قرابة والأقراب جمع آخر ، أي : أرجو أن أنتسب إِلى أمير المؤمنين بقرابات القرابة والأرحام وذلك أنّ قريشًا وتميمًا يلتقيان في خندف وهي ليلى زوج إلياس بن مضر . وما أشبه أن تكون الرّواية بفتح القاف كقول

علقمة الفحل :

لِتُبلِغَنِي دارَ اِمرِئٍ كانَ نائِياً فَقَد قَرَّبَتني مِن نَداكَ قَروبُ

وهو تميمي مثلي ، أي : أرجو أن تصل بي ناقتي الَّتي تجتاز الأقراب جمع قَرَب بالتحريك وهو السّير ليلًا إِلى الورد ودار الخلافة أيّها ورد .

١٨٣ – الأعطاب جمع عَطَب وهو الهلاك ، أي : قبل اعتياق العوائق .

١٨٤ – قوله : (وَجْه أمير المؤمنين الأواب) يدلّ عَلى أنّ هَذِه القصيدة فِي هشام ابن عبد الملك لا فِي مَسَلمة إلا أن يكون جعل مسلمة شفيعًا إِلى لقاءِ أمير المؤمنين ، والَّذي قدّمنا أرجح لأنّه يذكره فِي آخر القصيدة ويذكر شقه نهرًا وهي الهنيء وقد شقّة هشام وشق آخر اسمه المريء أخذ اسميهما من قوله تعالى : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء : ٤] قَالَ جرير :

بَلَغتَ مِنَ الهَنيءِ فَقُلتَ شُكراً هُناكَ وَسُهِّلَ الجَبَلُ الصَّلودُ

بِها الزَّيتونُ فِي غَلَلٍ وَمالَت عَناقيدُ الكُرومِ فَهُنَّ سودُ

فَتَمَّت فِي الهَنيءِ جِنانُ دُنيا فَقالَ الحاسِدونَ هِيَ الخُلودُ

يَعَضّونَ الأَنامِلَ إِن رَأوها بَساتيناً يُؤازِرُها الحَصيدُ

قوله الأوّاب : ، أي : التّقيّ العابد التّواب ـ قَالَ تعالى : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٤٤] .

١٨٧ – الأحقاب ، الأزمان .

١٨٨ ، ١٩١ – فِي هَذِه الأبيات غموض سببه استعمال رؤبة جموعًا غير مألوفة وكأنّما اخترعها هو ـ يقول جئت أرجو الخير وأن أكون انتبت خير منتاب بقصدي أمير المؤمنين ، من أقاصي البلاد حيث يقطن قوم بعيدون جدًا ، أحراب ، أي : حريبون مسلوبو الأموال ممّا يقع عليهم من عدوان . المعادي جمع مَعْدَى بفتح فسكون مصدر ميمي من عدا قَالَ الشّاعر :

وَقَد عَلِمَت عَرسي مُلَيكَةُ أَنَّني أَنا اللَّيثُ مَعدُوّاً عَلَيَّ وَعادِيا

يقول : جئت من أقاصي قوم بعيدين سلبتهم الحروب والعدوان ، والسّنون الأجراب ،

أي : المجدبة كأنّ الأرض بهن جرباء ، وجئت عَلى بعد دار قومي وخراب ديارهم أرجو سيب أمير المؤمنين وفضله وأخراب جمع خراب كما قالوا : أعراء جمع عراء .

١٩٤ - تفرعوا تسنموا وارتقوا .

١٩٥ - أي : لَهُ الأولى والعاقبة .

١٩٦ - الحسود الحوّاب ، أي : الشديد الحُوب وهو الإثم ـ حاب ، أي : أثم ، فهذا صيغة المبالغة .

١٩٧ - أي : الحبال القويّات جمع سبب وهو الحبل .

١٩٨ - الأرساب جمع راسب ، أي : ثابت .

٢٠١ - الرّهوة الفتحة بين الرجلين والرّهوة المكان المرتفع ، ورهوة مكان بعينه ، قَالَ التبريزيّ : رهوة جبل ويقال أعلى الجبل ـ هَذَا فِي شرح بيت المعلّقة :

نَصَبنَا مِثلَ رَهوَةَ ذاتَ حَدٍّ مُحافَظَةً وَكُنّا السابِقينا

٢٠٣ - أجلى : جلا عن وكشف عن . دُلام ، الأدلم الأسود ودُلام مشتق منه وهو اسم جبَل ، ذكره فِي القاموس بالتّاء وحَذْفُها طريق مهيع . الأهضاب : الهضبات .

٢٠٤ - الشّناخيب : الأعالي والقمم . الأشقاب جمع شِقب بفتح الشّين وكسرها وهو المهواة والشّقّ فِي الجبل .

٢٠٥ - القُفَاص بضمّ القاف الوعل اشتقاقه من القفص وهو جمع الرّجلين مَعَ الوثوب .

٢٠٦ - صُقوب : جمع صَقْب بفتح فسكون وهو أعلى عمود فِي الخيمة ، والصقب بفتح فسكون الطّويل والأصقاب جمع صقب .

٢٠٧ - الألهاب جمع لهب بكسر فسكون وهو المكان القائم من الجبل كالجدار لا يستطاع صعوده .

١٩٧-٢٠٧ - يقول بكفيك الحبال الشّداد الَّتي تشد بها قبة الإسلام إِلى أوتادها الراسيات وهي الرّفيعة السمك ـ أبواب سرادقها العظيم منفتحة عن مثل (رهوة ذات حد) الَّتي وصفها عمرو بن كلثوم أصلها ثابت وفرعها عند النّجوم الَّتي إذا غاب عنها

نجم بدا نجم ، وما رامها أحد بكيد فِي ظلماء ليلٍ عماه إلا وجد نفسه كما قَالَ الأعشى :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوماً لِيوهنها فَلَم يَضِرها وَأَوهى قَرنَهُ الوَعِلُ

أو كالَّذي يرمي صخرة جبل وهو بالحضيض كما قَالَ سويد :

مُقعِياً يَردي صَفاةً لَم تُرَم فِي ذُرى أَعيَطَ وَعرِ المُطَّلَع

إذ هو فِي ظلمائه يكيد وينجلي اللّيل عنها وهي كالجبل ذي الهضاب أو قل كالجبل الأدلم الظّلال ذي الهضاب السّامي الشّناخيب ، أي : الأعالي ، المنيف المهاوي الرهيبات ، المائل بجانبه كبرًا وتعاليا عن أن يرقاه راق ، حتّى الوعل الوثّاب لا يستطيعه ، بل يدفعه دفعًا عن صخراته القائِمات كالعمد العاليات المشرفات فوق طود بعيد المهوي رهيب الصّخور.

٢٠٨ ،٢٠٩- لَهُ فِي موضع الخبر لقوله : ربّ هشام . وقوله : ولا تقدح ، التفات ، أي: وأنت يا هشام وارى الزناد لا تقدح بزند كاب .

٢١٠، ٢١١- لم يَعِش بالأخياب : هَذِه الجملة دعاءٌ ، معترضة بين اسم إن وخبرها وهو قوله : غياث السُّغَّاب جمع ساغب ، أي : جائعٍ ، أي : أن هشاما هو غيث الجائعين كما علموا ، فليعش منصورا غير خائب السعي .

٢١٤- هَذَا متصل بما قبله ، أي : هو نعم الغيث حين يغدو عَلى النّاس بصنائع إحسانه. صنعًا : أي : جيد الصنع .

٢١٥ ،٢١٨- فِي عرك إلخ ـ شبه الجملة متعلق بقوله : يشفِي فِي الشطر التالي . الدلماء : الحرب هنا ، إذ من معانيها الدّاهية والأعداء والجماعة ، وعركها ، بالتّحريك معتركها ، أي : ازدحامها واعتراكها ذو الغاب الملتج ، أي : الملتحم المتشابك عنى به الرّماح .

أي بأمير المؤمنين يشفى الداءُ فِي الحرب من أصناف السعال الْقَحّاب ، أي : السعال والغدد وداء الصّدر النّحّاب ، أي : الشّديد النّحيب ومن غش الأحقاد الَّتي فِي صدور أهل الحقود والمكر ـ أضباب جمع ضَبّ تقول خَبٌّ ضَبٌّ .

٢١٩-٢٢٤- الأكلاب ، أي : حالات الكَلَب بالتَّحريك والشّدّة . أهواب جمع هَوْب، أي : بعيدات المكان . أُوَّاب بضمّ فشدة وفتحة ، أي : آئبون تائبون . الألزاب : الجَدْبات ، أي : نحن ندعو لك عند الشّدّة بكلّ خير عَلى بعدنا وأنّا من شتّى أصناف

بعيدة الدّار ـ ندعو لك كدعاءِ الأصحاب الأخلاءِ وكدعاءِ الصّالحين الطّائفين بالبيت التائبين إِلى الله وكدعاءٍ من وجد الغيث بعد توالي سنوات المحل .

٢٢٦-٢٢٨-٢٢٩- وجدت فِي صورة الأصل المنسوخ من الشّرح المنسوب إِلى محمّد ابن حبيب (مكتبة المجمع ٢٠٦٣٧ ص٢٩٥) : هو أبو هزوان النّبط وفِي النّفس من هَذَا شيءٌ إذ لا يذكر عليه دليلًا ، ثمَّ السّياق لا يلائمه أعني قوله : (فِي بيت مضيءِ المحراب) إذ هَذَا ينبغي أن يكون من نعت هشام وأبو هزوان النبطيّ هَذَا إن صحّ لم يشق الهنيء والمريء فِي بيت وإنّما شقهما فِي الجبال ، وما أدنى أن يكون كل هَذَا تصحيفًا وصوابه أن تجعل مكان قوله ، أبو هزوان أبو مروان وهو من كنى بني مروان ، ومكان حسّان : هشام، لشبه الشّين والميم فِي الخطّ القديم بالسّين والنون ، حتّى قد يلتبسان بهما . هَذَا ونهر بالرّفع فِي المصورة والمطبوعة وهو خطأٌ صوابه نهرًا فتكون الأبيات :

شَـقّ أَبُـو مَـرْوانَ غَـيْرَ التكْـذابْ
هشـامٌ فِي بَيْـتٍ مُضِيءِ المِحْـرابْ
نَهْـرًا جَـرَى بَـيْنَ عُبَـابٍ ثَعَّـابْ

ونهرا كما لا يخفى مفعول به لقوله شق . وقوله : فِي بيت مضيء المحراب يدلّ عَلى أنّه يتحدث عن بيت الخلافة فشبه الجملة حال من نعت هشام كما قدمنا ، والله تعالى أعلم .

ويكون المعنى عَلى هَذَا : أنّ أبا مروان هشامًا ذا البيت الخليفي الرّفيع والمنبر المنير قد شقّ بالحقّ نهرًا جرى متدفق الماءِ ثعاب ، أي : متدفق ، كالنّيل حين يجري وكالزّاب وهو من أنهار العراق .

٢٣٠- يسقى به الله الجنان ذوات الأعناب ـ والنظر إِلى القرءان هنا لا يخفى .

٢٣١ ، ٢٣٢- أي : أعمل التّشذيب والحرق فِي القصب الثّابت بالخلاء حتّى سوّاها أرضًا مستوية وزرع بها النّخل مكان القصب الصحراويّ ـ أقصاب جمع قصب .

٢٣٣- أي : النّخل ساميات كأنهنّ الفحول من الإبل ـ وهذا من تشبيههم الإبل بالحدائق عكسه الشّاعر . قَالَ امرؤ القيس :

فَشَـبَّهتَهُم فِي الآلِ لَمّـا تحملـوا   حَـدائِقَ دومٍ أو سَـفيناً مُقَـيَّرا

قوله الهبّاب جمع هاب اسم الفاعل من هب .

٢٣٤- مسناها : سدودها جمع مسناة بضمّ ففتح فنون مشددة مفتوحة وهي السدّ فِي الوادي . ، أي : السّدود والمجاري قد طويت بالردم والآجر حتّى صرن للماء كالدروب الواضحات . ويجوز أن يكون أيضًا قد نظر إِلى ما كانوا يصنعونه من رصف بعض الطّرقات أحيانًا ، إلا أنّ المعنى البيّن هو القصد إِلى تشبيه المجاري الَّتي شقها الخليفة للماءِ بالدّروب الواضحات ، ويجوز أن يكون المراد بالدّروب هنا المنافذ فِي الجبال فقد كانت تشق شقًّا . ونهر الهنيء قد شق فِي الجبال شقًّا يدلك عَلى ذلك قول جرير :

شَقَقتَ مِنَ الفُراتِ مُبارَكاتٍ ... جَوارِيَ قَد بَلَغنَ كَما تُريدُ

وَسُخِّرَتِ الجِبالُ وَكُنَّ خُرساً ... يُقَطِّعُ فِي مَناكِبِها الحَديدُ

بَلَغتَ مِنَ الهَنيءِ فَقُلتَ شُكراً ... هُناكَ وَسُهِّلَ الجَبَلُ الصَّلودُ

٢٣٥- يسبيه السّاب : يحفره الحافر - أي : جرى الماءُ فمن شاءَ احتفر من جانبي المسناة فأسقى زرعه .

٢٣٦- بفياض ثاب ، أي : بفياض زائد مجتمع - وأحسب بغياض الَّتي فِي الديوان تصحيفًا وقد تشتبه الفاءُ والغين المعجمة فِي الخط . وثاب اسم منقوص (ثابي) ، أي : زائد أو مجتمع وأحسب أن معنى الثّواب من هَذَا الأصل إذ هو زيادة ومضاعفة ، والله أعلم .

٢٣٧- أي : هَذَا الخير يزيد ما يجلب إِلى دار الخلافة من الخراج بالحصاد المخصب الَّذي يُجْبَى منه .

٢٣٨- أوآب جمع وأب بفتح فسكون وهو الواسع ، أي : يزيد رفقًا فِي الخراج المجلوب من بلد واسع عَلى وسوق واسعات ضخام . قوله : رفقًا ، أي : نفعًا ، قَالَ الزمخشريّ فِي الأساس : ومن المجاز : هَذَا الأمر رافق بك وعليك ورفيق : نافع .

٢٤٠- ثمان الأرطاب ، أي : الأرطاب الجيّدة ، ويجوز أنّه تصحيف والصّواب ثمار الأرطاب جمع رطب بضمٍّ ففتح .

هذا وقد مرت بك آنفًا أبيات جرير فِي الهنيءِ ، فنظر رؤبة إليها لا يخفى ، والله أعلم .

ب ـ بَسَطَتْ رَابعَةُ الحَبْلَ لَنَا [١]

تعريف بالقصيدة :

هذه القصيدة الَّتي مطلعها :

بَسَطَتْ رَابعَةُ الحَبْلَ لَنَا   فَوَصَلْنَا الحَبْل منْها ما اتَّسَعْ

تُعرفُ بأنّها عينية سويد بن أبي كاهل . معنى عينيّة : أنّ قافيتها حرف العين . والقصائد العربيّة كثيرًا ما تعرف بحروف رويّها وهي القوافي . فيقال مثلًا : قصيدة بائيّة وميمية وعينية . والقوافي نوعان : مطلق ومقيد .

القوافي المطلقة هي الَّتي يكون الرويّ ، أي الحرف الأخير الَّذي يجري عليه التّرنم فيها متحركًا مثل قول الشّاعر :

ألا هُبِّي بِصَحْنِكِ فاصْبَحِينا

(النّون) حَرْفُ الرويّ وهي متحرّكة بالفتحة وبعدها ألف الإطلاق .

القوافي المقيدة هي الَّتي يكون حرف الروي فيها ساكنًا مثل هَذِه القصيدة :

فَوَصَلْنَا الحَبْل منْها ما اتَّسَعْ

والبحر الَّذي عَلى وزن هَذِه القصيدة اسمه الرَّمَل وهو أحد البحور الَّتي بين أمرها الخليل بن أحمد ـ رحمه الله ـ فِي علم العروض . ووزن البيت الأوّل :

فَعِلاتُنْ فعلاتن فَعِلُنْ   فَعِلاتُنْ فاعلاتُنْ فاعِلُنْ

وهذه القصيدة هي الأربعون فِي مجموعة المختارات الشّعرية المعروفة باسم المفضليّات، نسبة إِلى العالم الرّاوية الكبير المفضّل الضبيّ الَّذي كَانَ معلّمًا للمهديّ العبّاسيّ ابن الخليفة أبِي جعفر المنصور . وكان قد جمعها لَهُ واختارها من القصائد القديمة الطّوال الَّتي رواها هو عن أشياخه ، ورواها عنه العلماء ، وأقبلوا عَلى درسها وشرحها .

---

(١) مجلة مجمع اللّغة العربيّة ، جـ٨٦ ، ص٢١ . (حسن) .

عاش المفضل الضّبيّ فِي القرن الثّاني للهجرة ، ولا نعلم تاريخ ولادته ولا وفاته عَلى وجه التّحديد ، وكان حيًّا إِلى سنة ١٧٦هـ ، ومن كبار من أخذوا العلم عنه الكسائيّ والفرّاء ، وهما كبيرا شيوخ الكوفيّين فِي علوم النّحو واللّغة والقراءات والتّفسير والأدب .

وسويد بن أبي كاهل صاحب القصيدة شاعر مخضرم بفتح الرّاء وبكسرها . كلا الوجهين صحيح . والمخضرم هو الَّذي شهد الجاهليّة وعاش فيها ثمَّ أسلم وعاش فِي الإسلام . المخضرم بفتح الرّاء أي الَّذي خضرمه الإسلام عن حال الجاهليّة أي قطعه عن حال الجاهليّة . والمخضرم بكسر الرّاء أي الَّذي خضرم أي قطع آذان إبله ، يجعل ذلك علامة تدل عَلى أنّه ترك الجاهليّة ودخل فِي الإسلام .

وكان سويد بن أبي كاهل شاعرًا محترفًا للشّعر ، يمدح ويهجو ويفتخر بقبيلته بني يشكُر . وبنو يشكر من كبريات قبائل العرب ينتسبون إِلى بكر بن وائل ، ومنهم الحارث ابن حلّزة اليشكريّ صاحب المعلقة الَّتي مطلعها :

آذَنَتنا بِبَينِها أَسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنهُ الثَّواءُ

وعاش قبل زمان سويد بن أبي كاهل بنحو مِئة سنة ، أمَّا سويد بن أبي كاهل فقد بلغ أشده واستوى فِي الجاهليّة ، وأدرك الإسلام وهو عَلى الأرجح بين الثلاثين والأربعين ، أقرب إِلى الثّلاثين ، أو لعله دونها بشيء يسير . وقد عاش فِي الإسلام إِلى ٦٥هـ أو بعدها بيسير .

وهذا بعدُ حين نبدأ فِي شرح القصيدة ثمَّ نتبع ذلك بعض التّعليق عليها ، وقد اعتمدنا عَلى الشّرح الكبير للمفضليّات الَّذي ألفه أبو محمّد القاسم بن بشار الأنباريّ المتوفى سنة ٣٠٥هـ ، ويعرف بالأنباريّ الكبير ، وهو والد الأنباريّ الصّغير وهو أبو بكر بن الأنباريّ، شارح المعلّقات . وقد حقق هَذَا الشّرح الكبير .

قال سويد بن أبي كاهل اليشكريّ :

١- بَسَطَت رابِعَةُ الحَبلَ لَنا فَوَصَلنا الحَبلَ مِنها ما اتَّسَع

٢- حُرَّةٌ تَجلو شَتيتًا واضِحًا كَشُعاعِ الشَّمسِ فِي الغَيمِ سَطَع

٣- صَقَلَتْهُ بِقَضيبٍ ناضِرٍ ... مِن أَراكٍ طَيِّبٍ حَتّى نَصَع

٤- أَبيَضَ اللَّونِ لَذيذًا طَعمُهُ ... طَيِّبَ الرِّيقِ إِذا الرِّيقُ خَدَع

٥- تَمنَحُ المِرآةَ وَجهًا واضِحًا ... مِثلَ قَرنِ الشَّمسِ فِي الصَّحوِ ارتَفَع

٦- صافِيَ اللَّونِ وَطَرفًا ساجِيًا ... أَكحَلَ العَينَينِ ما فيهِ قَمَع

٧- وَقُرونًا سابِغًا أَطرافُها ... غَلَّلَتها ريحُ مِسكٍ ذي فَنَع

٨- هَيَّجَ الشَّوقَ خَيالٌ زائِرٌ ... مِن حَبيبٍ خَفِرٍ فيهِ قَدَع

٩- شاحِطٍ جازَ إِلى أَرحُلِنا ... عُصَبَ الغابِ طُروقًا لَم يُرَع

١٠- آنِسٍ كانَ إِذا ما اعتادَني ... حالَ دونَ النَّومِ مِنّي فَامتَنَع

١١- وَكَذاكَ الحُبُّ ما أَشجَعَه ... يَركَبُ الهَولَ وَيَعصي مَن وَزَع

١٢- فَأَبيتُ اللَّيلَ ما أَرقُدُهُ ... وَبِعَينَيَّ إِذا نَجمٌ طَلَع

١٣- وَإِذا ما قُلتُ لَيلٌ قَد مَضى ... عَطَفَ الأَوَّلُ مِنهُ فَرَجَع

١٤- يَسحَبُ اللَّيلُ نُجومًا ظُلَّعًا ... فَتَواليها بَطيئاتُ التَّبَع

١٥- وَيُزَجّيها عَلى إِبطائِها ... مُغرَبُ اللَّونِ إِذا اللَّونُ انقَشَع

١٦- فَدَعاني حُبُّ سَلمى بَعدَما ... ذَهَبَ الجِدَّةُ مِنّي وَالرَّيَع

١٧- خَبَّلَتني ثُمَّ لَمّا تُشفِني ... فَفُؤادي كُلَّ أَوبٍ ما اجتَمَع

١٨- وَدَعَتني بِرُقاها إِنَّها ... تُنزِلُ الأَعصَمَ مِن رَأسِ اليَفَع

١٩- تُسمِعُ الحُدّاثَ قَولًا حَسَنًا ... لَو أَرادوا غَيرَهُ لَم يُستَمَع

٢٠- كَم قَطَعنا دونَ سَلمى مَهمَهًا ... نازِحَ الغَورِ إِذا الآلُ لَمَع

٢١- فِي حَرورٍ يُنضِجُ اللَّحمُ بِها ... يَأخُذُ السّائِرَ فيها كَالصَّقَع

٢٢- وَتَخَطَّيتُ إِلَيها مِن عُدًى ... بِزِماعِ الأَمرِ وَالهَمِّ الكَنِع

٢٣- وَفَلاةٍ واضِحٍ أَقرابُها ... بالِياتٍ مِثلَ مُرفَتِّ القَزَع

٢٤- يَسبَحُ الآلُ عَلى أَعلامِها ... وَعَلى البيدِ إِذا اليَومُ مَتَع

٢٥- فَرَكِبناها عَلى مَجهولِها ... بِصِلابِ الأَرضِ فيهِنَّ شَجَع

٢٦- كَالمَغالي عارِفاتٍ لِلسُّرى   مُسْنَفاتٍ لَم توشَم بِالنَّسَع

٢٧- فَتَراها عُصُفًا مُنعَلَةً   بِنِعالِ القَينِ يَكفيها الوَقَع

٢٨- يَدَّرِعْنَ اللَّيلَ يَهْوِينَ بنا   كَهُوِيِّ الكُدْرِ صَبَّحْنَ الشَّرَعْ

٢٩- فَتناوَلنَ غِشاشًا مَنهَلًا   ثُمَّ وَجَّهنَ لأرضٍ تُنتَجَع

٣٠- مِن بَنِي بَكْرٍ بها مَمْلَكَةٌ   مَنْظَرٌ فِيهِمْ، وفِيهِمْ مُسْتَمَعْ

٣١- بُسُطُ الأَيدي إذا ما سُئِلوا   نُفُعُ النّائِلِ إن شَيءٌ نَفَع

٣٢- مِن أُناسٍ لَيْس مِن أَخْلاقِهِمْ   عاجِلُ الفُحْشِ ولا سُوءُ الجَزَعْ

٣٣- عُرُفٌ لِلحَقِّ ما نَعيا بِهِ   عِندَ مُرِّ الأَمرِ ما فينا خَرَع

٣٤- وَإِذا هَبَّت شِمالًا أَطعَموا   فِي قُدورٍ مُشبَعاتٍ لَم تُجَع

٣٥- وَجِفانٍ كالجَوابي مُلِئَت   مِن سَمِيناتِ الذُّرى فيها تَرَع

٣٦- لا يَخافُ الغَدرَ مَن جاوَرَهُم   أَبَدًا مِنهُم وَلا يَخشى الطَّبَع

٣٧- وَمَساميحُ بِما ضُنَّ بِهِ   حاسِرو الأَنفُسِ عَن سوءِ الطَّمَع

٣٨- حَسَنو الأَوجُهِ بِيضٌ سادةٌ   وَمَراجيحُ إِذا جَدَّ الفَزَع

٣٩- وُزُنُ الأَحْلامِ إِنْ هُمْ وازَنُوا   صادِقُو البَأسِ إِذا البَأسُ نَصَعْ

٤٠- وَلُيوثٌ تُتَّقى عُرَّتُها   ساكِنو الرِّيحِ إِذا طارَ القَزَع

٤١- فَبِهِم يُنكى عَدُوٌّ وَبِهِم   يُرأَبُ الشَّعبُ إِذا الشَّعبُ اِنصَدَع

٤٢- عادَةٌ كانَت لَهُم مَعلومَةٌ   فِي قَديمِ الدَّهرِ لَيسَت بِالبِدَع

٤٣- وإِذا ما حُمِّلوا لَمْ يَظْلَعُوا   وإِذا حَمَّلْتَ ذا الشَّفِّ ظَلَعْ

٤٤- صالِحو أَكفائُهُم خُلّانُهُم   وَسَراةُ الأَصلِ وَالنّاسُ شِيَع

٤٥- أَرَّقَ العَينَ خَيالٌ لَم يَدَع   مِن سُلَيمى فَفُؤادي مُنتَزَع

٤٦- حَلَّ أَهلي حَيثُ لا أَطلُبُها   جانِبَ الحِصنِ وَحَلَّت بِالفَرَع

٤٧- لا أُلاقيها وَقَلبي عِندَها   غَيرَ إِلمامٍ إِذا الطَّرفُ هَجَع

٤٨- كالتُّؤاميَّةِ إِن باشَرتَها   قَرَّتِ العَينُ وَطابَ المُضطَجَع

٤٩- بَكَــرَت مُزمِعَــةً نِيَّتَهــا وَحَـدا الحـادي بِهـا ثُـمَّ اِنـدَفَع

٥٠- وَكَــريمٌ عِنـدَها مُكتَبَــلٌ غَلِـقٌ إِثـرَ القَطـينِ المُتَّبَـع

٥١- فَكَـأَنّي إِذ جـرى الآلُ ضُـحىً فَـوقَ ذَيّـالٍ بِخَدَّيـهِ سَـفَع

٥٢- كَـفَّ خَـدّاهُ عَـلى ديباجَـةٍ وَعَـلى المَتنـينِ لَـونٌ قَـد سَـطَع

٥٣- يَبسُـطُ المَشيَ إِذا هَيَّجتَـهُ مِثـلَ مـا يَبسُـطُ فِي الخَطـوِ الـذَّرَع

٥٤- راعَـهُ مِـن طَـيءٍ ذو أَسـهُمٍ وَضِراءٌ كُـنَّ يُبلـينَ الشِّرَع

٥٥- فَـرَآهُنَّ وَلَمّـا يَسـتَبِن وَكِـلابُ الصَّـيدِ فـيهِنَّ جَشَـع

٥٦- ثُـمَّ وَلّى وَجنابـانِ لَـهُ مِـن غُضـارٍ أَكـدَرِيٍّ وَاتَّـدَع

٥٧- فَـتَراهُنَّ عَـلى مُهلَتِـهِ يَختَلـينَ الأَرضَ وَالشّـاةُ يَلَـع

٥٨- دانِيـاتٍ مـا تَلَبَّسـنَ بِـهِ واثِقـاتٍ بِـدِماءٍ إِن رَجَـع

٥٩- يُرهِـبُ الشَّـدَّ إِذا أَرهَقنَـهُ وَإِذا بَـرَّزَ مِـنهُنَّ رَبَـع

٦٠- سـاكِنُ القَفـرِ أَخـو دَوِّيَّـةٍ فَـإِذا مـا آنَـسَ الصَّـوتَ اِمَّصَـع

٦١- كَتَـبَ الـرَّحمنُ وَالحَمـدُ لَـهُ سَـعَةَ الأَخـلاقِ فينـا وَالضَّـلَع

٦٢- وَإِبـاءً لِلـدَّنِيّاتِ إِذا أُعطِـيَ المَكثـورُ ضَـيمًا فَكَنَـع

٦٣- وَبِنـاءً لِلمَعـالي إِنَّـما يَرفَـعُ اللهُ وَمَـن شـاءَ وَضَـع

٦٤- لا يُريـدُ الـدَّهرَ عَنهـا حِـوَلًا جُـرَعَ المَـوتِ وَلِلمَـوتِ جُـرَع

٦٥- نِعَـمٌ للهِ فينـا رَبُّهـا وَصَـنيعُ اللهِ وَاللهُ صَـنَع

٦٦- كَيـفَ بِاستِقرارِ حُـرٍّ شـاحِطٍ بِـبِلادٍ لَـيسَ فيهـا مُتَّسَـع

٦٧- رُبَّ مَـنْ أَنضَـجتُ غَيظًـا قَلبَـهُ قَـد تَمَنَّـى لِيَ مَوتًـا لَمْ يُطَـعْ

٦٨- وَيَـراني كالشَّـجا في حَلقِـهِ عَسِرًا مَخرَجُـهُ، مـا يُنتَـزَعْ

٦٩- مُزبِـدٌ يَخطِـرُ مـا لَمْ يَـرَني فـإِذا أَسـمَعتُهُ صَـوتي انقَمَـعْ

٧٠- قَـد كَفـانِي اللهُ مـا فِي نَفسِـهِ ومَتَـى مـا يَكـفِ شَـيئًا لَمْ يُضَـعْ

٧١- بِـئسَ مـا يَجمَـعُ أَن يَغتـابَني مَطعَـمٌ وَخـمٌ وَداءٌ يُـدَّرَع

٧٢- لَمْ يَضِرني غَيرَ أَن يَحسُدَني فَهوَ يَزقو مِثلَ ما يَزقو الضُّوَع

٧٣- ويُحَيِّيني إذا لاقَيْتَهُ وإذا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي وَقَعْ

٧٤- مُسْتَسِرُّ الشَّنْءِ لَو يَفقِدُني لَبَدا مِنهُ ذُبابٌ فَنَبَع

٧٥- ساءَ ما ظَنّوا وَقَد أَبلَيتُهُم عِندَ غاياتِ المَدى كَيفَ أَقَع

٧٦- صاحِبُ المِئرَةِ لا يَسأَمُها يوقِدُ النّارَ إذا الشَّرُّ سَطَع

٧٧- أَصقَعُ النّاسَ بِرَجمٍ صائِبٍ لَيسَ بِالطَّيشِ وَلا بِالمُرتَجَع

٧٨- فارِغُ السَّوطِ فَما يَجهَدُني ثَلِبٌ عَودٌ وَلا شَخْتٌ ضَرَع

٧٩- كَيفَ يَرجونَ سِقاطي بَعدَما لاحَ فِي الرَّأسِ بَياضٌ وَصَلَع

٨٠- وَرِثَ البغضةَ عن آبائِهِ حافِظُ العَقْلِ لِما كانَ اسْتَمَعْ

٨١- فسَعَى مَسْعاتَهُمْ فِي قَوْمِهِ ثُمَّ لمْ يَظْفَرْ ولا عَجْزًا وَدَعْ

٨٢- زَرَعَ الدّاءَ، ولَمْ يُدْرِكْ بِهِ تِرَةً فاتَتْ، ولا وَهْيًا رَقَعْ

٨٣- مُقْعِيًا يَرْدِي صَفاةً لَمْ تُرَمْ فِي ذُرَى أَعْيَطَ وَعْرِ المُطَّلَعْ

٨٤- مَعقِلٌ يَأمَنُ مَن كانَ بِهِ غَلَبَت مَن قَبلَهُ أَن تُقتَلَع

٨٥- غَلَبَت عادًا وَمَن بَعدَهُم فَأَبَت بَعدُ فَلَيسَت تُتَّضَع

٨٦- لا يَراها النّاسُ إلاّ فَوْقَهُمْ فَهْيَ تَأْتِي كَيْفَ شاءَتْ وتَدَعْ

٨٧- وَهوَ يَرميها وَلَن يَبلُغَها رِعَةَ الجاهِلِ يَرضى ما صَنَع

٨٨- كَمِهَت عَيناهُ حَتّى ابيَضَّتا فَهوَ يَلحى نَفسَهُ لَمّا نَزَع

٨٩- إذ رَأَى أَن لَم يَضِرها جَهدُهُ وَرَأى خَلقاءَ ما فيها طَمَع

٩٠- تَعضِبُ القَرنَ إذا ناطَحَها وَإذا صابَ بِها المَردى انجَزَع

٩١- وَإذا مارامَها أَعيا بِهِ قِلَّةُ العُدَّةِ قِدمًا وَالجَدَع

٩٢- وعَدُوٍّ جاهِدٍ ناضَلْتُهُ فِي تَراخِي النّاسِ عنّا والجُمَعْ

٩٣- فتَساقَيْنا بِمُرٍّ ناقِعٍ فِي مَقامٍ لَيْسَ يَثْنِيهِ الوَرَعْ

٩٤- وَارتَمَينا وَالأَعادي شُهَّدٌ بِنِبالٍ ذاتِ سُمٍّ قَد نَقَع

٩٥- بِنِبـالٍ كُلُّهـا مَذروبَـةٌ لَمْ يُطِقْ صَنعَتَها إلاّ صَنَع
٩٦- خَرَجَت عَن بِغضَةٍ بَيِّنَةٍ فِي شَبابِ الدَّهرِ وَالدَّهرُ جَذَع
٩٧- وَتَحارَضنا وَقالوا إِنَّما يَنصُرُ الأَقوامُ مَن كانَ ضَرَع
٩٨- ثُمَّ وَلّى وَهوَ لا يَحمي إِستَهُ طائِرُ الإِترافِ عَنهُ قَد وَقَع
٩٩- ساجِدَ المَنخِرِ لا يَرفَعُهُ خاشِعَ الطَّرفِ، أَصَمَّ المُستَمَعْ
١٠٠- فَرَّ منِّي هارِبًا شَيطانُهُ حيثُ لا يُعْطِي ولا شَيْئًا مَنَعْ
١٠٢- وَرَأى منِّي مَقامًا صادِقًا ثابِتَ المَوطِنِ كَتَّامَ الوَجَعْ
١٠٣- ولِسانًا صَيرَفِيًّا صارِمًا كحُسامِ السَّيفِ ما مَسَّ قَطَعْ
١٠٤- وَأَتاني صاحِبٌ ذو غَيثٍ زَفَيانٌ عِندَ إِنفادِ القُرَع
١٠٥- قالَ لَبَّيكَ وَما اِستَصرَختُهُ حاقِرًا لِلنّاسِ قَوّالَ القَذَع
١٠٦- ذو عُبابٍ زَبِدٌ آذِيُّهُ خَمِطُ التَيّارِ يَرمي بِالقَلَع
١٠٧- زَغرَبِيٌّ مُستَعِزٌّ بَحرُهُ لَيسَ لِلماهِرِ فيهِ مُطَّلَع
١٠٨- هَل سُوَيدٌ غَيرُ لَيثٍ خادِرٍ ثَئِدَت أَرضٌ عَلَيهِ فَانتَجَع

تمهيد للشّرح :

زعم المستشرق الكبير كارلوس يعقوب ليال[1] في مقدمة ترجمته لهذه القصيدة أنها قصيدتان معًا من وزن واحد وقافية واحدة ، الأُولى تبدأ من البيت الأوّل إلى البيت الرّابع والأربعين ، والثّانية تبدأ من البيت الخامس والأربعين إلى آخر القصيدة . وزعم أنّ القصيدة الأولى متماسكة وأن القصيدة الثّانية فيها اضطّراب وفجوات وتنتهي بوصف قوي للمساجلة الّتي كانت بين الشّاعر وخصمه .

وذكر الأستاذان عبد السلام محمّد هارون[2] والشّيخ أحمد محمّد شاكر - رحمهما الله - في

(١) كتب المستشرق الإنجليزي Charles games Lyall اسمه بالعربيّة هكذا:كارلوس يعقوب ليال . أمّا كارلوس فهي الصيغة الأسبانية لاسمه، ويعقوب صيغة أخرى لجيمز الإنجليزيّة. الفرنسيون يقولون لجيمز " جاك " وهي مختصرة من جاكوب أي يعقوب .

(٢) هرون تكتب بألف بعد الهاء وبدونها هكذا (هارون - هرون) وكان الشّيخ محمّد هارون والد الشّيخ =

شرحهما وحديثهما عن هَذِه القصيدة أنها من أغلى الشّعر وأنفسه ، قالا : (وقد فضلها الأصمعي وقال : كانت العرب تفضلها ـ تقدمها وتعدها من حكمها ، وكانت فِي الجاهلية تسميها اليتيمة لما اشتملت عَليه من الأمثال) .

ولقد نظرت فِي القصيدة وتأملت معانيها وعجبت أوّل الأمر للزعم الَّذي زعمه المستشرق كارلوس ليال ، إذ القصيدة بلا ريب كلّ واحد ، متماسكة جدًّا ، ليس فيها فجوات أو اضطّراب كما سنبين من بعد إن شاء الله تعالى .

كما قد عجبت لهذا الَّذي يروى عن الأصمعي ـ رحمه الله ـ حيث قَالَ إن العرب كانت فِي الجاهلية تُسميها اليتيمة ذلك بأنّ القصيدة إسلاميّة الأسلوب من مبدئها إِلى نهايتها ، لم يذكر فيها الشّاعر شيئًا من مآثر الجاهليّة الكبرى الَّتي حرّمها الإسلام كالخمر والميسر .

فإما أن تكون القصيدة كلّها نظمت فِي الفترة الَّتي كَانَ فيها سويد مسلمًا . وإما أن يكون قد سمع القرءان قبل إسلامه وتأثر ببيانه وهذا أمر يوجد فِي بعض أشعار الأعشى ولبيد قبل إسلامهما . وقد كانت قريش تحرض الشّعراء وتشجعهم أن يباروا القرءان استجابة للتحدي الَّذي تحداهم به ـ قَالَ الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ صدق الله العظيم [البقرة : ٢٣ ، ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

روحُ القصيدة وسياقها وكثير من ألفاظها وأساليب بيانها كلّ ذلك يشهد بتسبّعها بالمعاني الإسلاميّة ، ولذلك نرجح أنها نظمت فِي الإسلام وأن تسميتها باليتيمة كانت ـ

= الدكتور عبد السلام محمّد هرون ثاني من تولى منصب قاضي القضاة بالسّودان أيام الحكم الثّنائي وكان الشّيخ محمّد شاكر والد الأستاذ محمود محمّد شاكر وأخيه الشّيخ أحمد أول من تولى هَذَا المنصب .

والله تعالى أعلم - في الإسلام لا الجاهليّة .

تتكون القصيدة من اثنى عشر فصلًا .

الفصل الأوّل : من البيت (١) إلى البيت (٧) وهو الجزء الأول من المقدّمة النّسيبيّة . بدأ سويد قصيدته كعادة الشّعراء القدماء بالنّسيب يهيئ به الأذهان حتّى تستمع إليه . في هَذِه البداية النسيبيّة وصف لنا محبوبته فأعطانا صورة جميلة عنها .

الفصل الثّاني : من البيت (٨) إلى البيت (١٩) فيه الجزءُ الثّاني من المقدّمة النّسيبيّة ، ذَكَر الشّاعر فيه طَيْف الخيالِ وسَهَرَ العاشق يتذكّرُ أحِبّاءهُ ويُراقِبُ النّجوم ويتذكّرُ محَاسِنَ محبوبتهِ وطِيبَ حديثها . سمّاها الشّاعر هنا سَلْمَى وكان في البيت الأول سمّاها رَابِعَةَ ، والشّاعر قد يُسمي محبوبَتَهُ بأكثرَ من اسمٍ واحدٍ . ويجوزُ أنّ رابعةَ وصْفٌ لها ، أي هي رابعةٌ أي عاطفةٌ علينا وهذا يناسب قوله : «بسطت رابعةُ الحَبْلَ لنا» ربع عَلى كذا يربع : عطف .

الفصلُ الثّالث : فيه وَصْف للصّحراء وحرّها والسير فيها من البيت (٢٠) إلى (٢٩) . وقد وصفَ الشّاعر سَفَرًا عَلى ظُهورِ الخَيْلِ وجعلَ ذلك تمهيدًا للوصول إلى ديار قوْمِهِ بني بكر ومدحهم .

الفصل الرّابع : من البيت (٣٠) إلى البيت (٤٤) . وفيه مدح قبيلته الكبيرة بني بكر - ذكر حسن منظرهم وحسن حديثهم وسعة فضلهم وقديم مجدهم .

الفصل الخامس : من البيت (٤٥) إلى البيت (٥٠) . عاد إلى ذكر طيف الخيال والشّوق وذكرى المحبوبة ، يهيئ بهذا النّسيب المختصر سامعيه إلى دفعة[١] جديدة من القول الّذي سيبلغ به مراده فيما بعد . وختم هَذَا الفصل القصير بمعنى يدل عَلى شدّة الشّوق الّذي يحث صاحبه عَلى طلب اللّحاق بأحبابه .

الفصل السّادس : من البيت (٥١) إلى (٦٠) . ذكر فيه سفره ليلحق ، وجعل السّفر هَذِه المرة عَلى ناقة أو جمل ليدل عَلى بعد المسافة ، ونعت راحلته بالسّرعة والقوّة فزعم أنّه

---

(١) بضم الدّال وفتحها.

أحس وهو عليها كأنّه يمتطي ثورًا وحشيًّا تطارده كلاب الصّيد ومعهن صاحبهن الصّياد الَّذي يرمي بسهامه القاتلات . ومع ذلك نجا الثّور ، وهذا يدلنا عَلى أنّ الشّاعر يرمز بذلك إِلى نجاته هو وانتصاره . ذكر الجاحظ فِي كتاب الحيوان أن الشّعراء تقتل الثّور الوحشيّ والحمار الوحشيّ وما أشبهه فِي قصائد الرّثاء ، وتجعله ينجو للدّلالة عَلى معنى الانتصار وفِي مجال المدح والفخر .

الفصل السّابع : من البيت (٦١) إِلى البيت (٦٦) . افتخر الشّاعر بقبيلته ، وفِي استعماله ضمير المتكلّم للجمع (نا) دليل عَلى أنّه يخص قبيلته بنى يشكر ، فقد مدح القبيلة الكبرى بني بكر من قبل ، ثمَّ إنه جعل نهاية هَذَا الفصل تعجبًا من حال نفسه ، كيف يستطيع القرار فِي بلاد ليس فيها متسع ـ ويعجب المرء من هَذَا التبرّم ، لماذا جاء به الشّاعر بعد فخره بنعم الله عليه وعلى قومه . وإنّما جاء بهذا الاستفهام الإنكاري الدّال عَلى التّبرّم ليجعله تمهيدًا لذكر عدوه المنافق الحسود الَّذي تكاد تضيق الأرض به وبالنّاس لما انطوت عليه نفسه من الشّرّ والأحقاد .

الفصل الثّامن : من البيت (٦٧) إِلى (٧٩) . يصف فيه الشّاعر عدوه الحاسد الحاقد المنافق بمكره ومكايده وغيظ قلبه وصفًا دقيقًا حيًّا ويخلص إِلى أنّه لا يخشاه ولا يبالي ، ويجد من نفسه القوة عَلى أن يتغلب عَلى أمثاله .

الفصل التّاسع : يمثل الجزء الثّاني من صفة الشّاعر لعدوه الحاسد من البيت (٨٠) إِلى (٨١) . وشبه نفسه ومنزلته بالصّخرة العالية الملساء ، وهذا العدو لا يستطيع أن يزلزلها من مكانها ، وهي منيفة فوقه غائظة لَهُ كلّ الغيظ بارتفاعها وإشرافها عَليه .

الفصل العاشر : من البيت (٩٢) إِلى (١٠٠) . فيه الجزء الثّالث من وصف عدوه وقد ضمنه خبر المساجلة الَّتي دارت بينهما وكيف قهره بفصاحته ورصانة شعره حتّى انهزم هاربًا صاغرًا مغلوبًا .

والفصل الحادي عشر : من البيت (١٠١) إِلى (١٠٧) . وصف فيه انتصاره وقدرة شيطان شعره .

الفصل الثّاني عشر : بيت واحد جعله قمة تعبيره ونهايته وجاء به عَلى صيغة الاستفهام ليقرر بذلك المعنى ويؤكده لا بغرض التّساؤل .

شرح المفردات ومعاني الأبيات :

١ـ بسطت رابعة الحبل لنا : مدّت رابعة حبل المودة والوصال إلينا وعطفت علينا فلذلك قبلنا مودتها ووصلنا حبلها مدة استمرارها فِي العطف علينا ومواصلتنا .

بسطت : أي مدت (المضارع يبسط بضمّ السّين) . الحبل هنا معناها الوصل والمودة والعلاقة الطيّبة . ما اتسع : أي مدة اتساع ذلك ـ مدة استمرار ذلك فِي حال وصال متسع ومودة متسعة (ما) هنا يقال لها (مـا) المصدريّة الظرفيّة لأنّها تدل عَلى المدة والمصدر معًا : ما اتسع أي مدة اتساعه . رابعة اسم المحبوبة أو وصف لها بمعنى عاطفة وواصلة أو هي المولودة الرّابعة لأمها ، والوجه الأول هو الجيد ، لأنّ الشّاعر قد يستعمل أكثر من اسم واحد للمحبوبة فِي قصيدته ، وقد يتضمن الاسم معنى مناسبًا للسّياق الّذي يورده فيه . هي اسمها رابعة وهي أيضًا عاطفة لأنّها مدت حبل المودّة وبسطته لنا .

٢ـ حرة : أي أصيلة صافية اللّون تجلو فمًا حلو الحديث ، أسنانها المفلجة تبدو فيه كأنّها لؤلؤ شتيت منثور مشرق لَمّاع مثل شعاع الشّمس السّاطعة وسط الغيم .

هذا البيت فِي صفة المرأة الجميلة جيد شديد الحيويّة ؛ إذ وصف لنا أخلاقها وأصلها بأنّها حرّة ، ووصف لنا ثغرها بأنّه شتيت أي مفلج الأسنان كأنّها لؤلؤ براق ، وهذا يدل عَلى تبسمها وحسن حديثها ، وشبهه بالشّمس وسط الغيم لأنّ حوله لون الشفتين واللثات وهو ضارب إلى السّمرة .

٣ـ صقلته : أي نظفته بقضيب ، أي : بقطعة من غصن ناضر ، أي : ناعم من شجر الأراك الطّيّب الرائحة ، استاكت به حتّى نصع لون أسنانها ، أي : وضح وصفًا . صقل مضارعها يصقل بضمّ القاف . نصع مفتوحة الصاد فِي الماضي والمضارع .

٤ـ أبيض اللّون ، أي : هي حرة تجلو ثغرًا مفلجا أبيض لون الأسنان لذيذًا طعمه لمن يكون لَهُ حظ سعيد بتقبيله وحينئذ سيجد ريقه طيبًا لا يتغيّر إذا تغيّر ريق النّساء

الأخريات . وذلك أنّ الرّيق يتغير بعد النّوم . (إذا الرّيق خدع) ، أي : إذا الرّيق تغير ونقص وجف . خدع يخدع بفتح الدّال فِي الماضي والمضارع . والعرب تقول : أتيناهم بعدما خدعت العين وهدأت الرِّجْل ، أي : فِي متأخر من اللّيل بعدما نامت العين وهدأت الحركة .

٥- تمنح المرآة ، أي : تعطي مرآتها وجهًا جميلًا ، أي : حين تنظر فِي المرآة تعطي هي المرآة عطيّة حسنة هي وجهها الواضح الجميل الهيئة الصّافِي اللّون البراق المضيء كأنّه جانب الشّمس حين يرتفع فِي الصّحو ، أي : فِي سماء انقشع عنها السّحابُ ، فالشّمس فيها منيرة باهرة - الصّحو بصاد مهملة ، أي : غير منقوطة ، مفتوحة بعدها حاء مهملة ساكنة ثمَّ واو . منح بفتح النّون مضارعها مثلث النّون يمنَح يمنِح ، كلّها صحيحة وأجودها كسر النّون ، ولذلك أجود الوجوه أن تقرأ : تمنِح المرآة ...إلخ .

٦- صافِي اللّون ، صفة لقوله وجها واضحًا صافِي اللّون - وطرفًا ساجيًا : ، أي : تمنح المرآة وجهًا صافيًا فِي لونه وطرفًا كحيلًا ، أي : عينًا كحيلة ، أي : عليها زينة الكحل أو كأنّها بطبيعتها مكحولة من حسنها وجمال منظرها السّاحر .

ساجيًا : من سجا يسجو ، أي : هَدَأ وسكن . قَالَ تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى : ١-٢] ، أي : هدأ وسكن - والطرف الساجي ، أي : الهادئ الوديع . (ما فيه قمع) ، أي : خال من وجع أو ورم . ، أي : نشأت صحيحة العينين لم يصبها رمد يسبب لها القمع فِي جوانب جفنها وعينها القمع وجع وبثور وأورام تصيب جانب العين .
كلمة الطّرف تدل عَلى البصر والعين ولكنها لا تثني ولا تجمع ، وطُرِفت العين تطرف بكسر الرّاء فِي المضارع ، أي : نظرت ، وطُرِفت عينه بالبناء للمجهول ، أي : أصابها شيء.
قمعت عينه بكسر الميم تقمع بفتح الميم قمعًا بفتح القاف والميم ، أي : أصابها داء القمع الّذي تقدم شرحه .

٧- وتمنح المرآة أيضًا منظر شعرها الجميل . وقرونًا ، أي : خُصلا من الشّعر - قرونًا مفعول به ، لقوله تمنح الّذي تقدم . سابغًا أطرافها غزيرة كاسية . وقد أدخلت فيها المسك

الكثير والطّيب الزّاكي الرائحة . غللتها ، أي : أدخلت فيه . غَل فِي المكان يغُل ، أي : دخل وغللتُه أنا فِي المكان ، أي : أدخلته . غللتها ريحَ مسك ، أي : أدخلت فيها ريح مسك : ذي فنع : ، أي : ذي كثرة . الفنع بفتح الفاء والنّون ، أي : الكثرة . فنع فلان يفنع بكسر النّون فِي الماضي وفتح النّون فِي المضارع ، أي : كثر ماله وفنع مال فلان ، أي : كثر . قَالَ الشّاعر أبو محجن الثّقفِيّ:

وقــد أجــودُ ومــا مــالي بــذي فَنَــعٍ وقــد أكُــرُّ وراءَ المُجحَــرِ الــبَرِقِ

وفنعُ المسكِ كثرته وانتشار رائحته . ريحَ مسك ـ ريح منصوبة مفعول به لغلّلتها وأنشدها بعض الرّواة برفع ريح عَلى معنى تغللتها ريح مسك والرّواية الجيدة هي النّصب وفاعل غلّتها المحبوبةُ الّتي وصفها الشّاعر .

تعليق :

هذه الأبيات الّتي تقدم شرحها من (١) إلى (٨) هي الجزء الأوّل من النّسيب ، أي : القسم الخاص بذكرى المحبوبة ووصفها ، والشّاعر العربيّ يُضمِّن النّسيب إشارات إلى أغراضه الّتي يتناولها فِي القصيدة . المحبوبة هنا عاطفة والشّاعر عَلى صلة حسنة معها وسيدوم عَلى ذلك ما دامت هي عَلى ذلك .

وسنبين فيما بعد ـ إن شاء الله ـ أن هَـذِه المحبوبة كأنّها رمز لقبيلة الشّاعر ولنفسه ولانتصاره عَلى خصومه .

تهتم العرب فِي نسيبها بوصف الثّغر لأنّه يدل عَلى الابتسام وحسن الحديث ، وبوصف الطّرف لأنّه يعبر عن العواطف ويدل عَلى الشخصيّة .

لم تكن نساء العرب حُمر الألوان أو شقر الألوان . ولم تصف شعراء العرب فِي جاهليّتها وفِي أيّام الإسلام الأولى نساءها بتوريد الخدود[١] وإذا قالوا : امرأة بيضاء عنُوا بذلك أنها جميلة . وربما وصفوا اللّون نفسه فذكروا أن فيه صُفرة كبيض النّعم أو كالفضّة

(١) الأبيات التي فيها (سقت وردًا) المنسوبة إلى يزيد بن معاوية من الشّعر المنسوب إليه خطأ .

الَّتي مازجها ذهب أو الرّوضة الَّتي شعَّت عليها شمس الأصيل أو الأُترجَّة ، أي : البرتقالة الفواحة الطيّبة الرائحة .

الفصل الثّاني وهو الجزء الثّاني من النّسيب :

٨- هيج الشّوق خيال - أي : زارني طيف الخيال من المحبوبة وهيج شوقي إِلى لقائها . هَذَا الخيال زارني من عند محبوبتي ذات الحياء والتّحشم والوقار امرأة خفرة بفتح الخاء وكسر الفاء ، أي : تستحي وتتحشم . الخَفَر بفتح الخاء والفاء ، أي : الحياء . حبيب خفِر بكسر الفاء ، أي : حبيب حيي فيه قدع : ، أي : فيه وقار وانقباض عن الظّهور والجراءة . قدعت فلانًا عني أقدعه وأقدعت فلانًا أقدِعه ، أي : رددته عني وفلان يقدَع نفسه عن الدّنايا ، أي : يتعفف، وفيه قدع ، أي : فيه عِفة ووقار - ويقدع نفسه عن الأمور الَّتي يهابها . القدع بفتح القاف والدال ، أي : التّعفف والتّهيب والانقباض بسبب الحياء والعفة .

هيج شوقي خيالٌ زارني من حبيب كثير الحياء والهيبة للمخاطر لوقاره وعفته .

من عادة شعراء العرب إذا وصفت طيف الخيال وصفته بأنّه يركب الأهوال ويتخطاها مَعَ أنّ المحبوب نفسه شديد الهيبة والحياء .

٩- شاحط : بعيد : شحطت (بفتح الحاء وكسرها) الدّار ، أي : بعدت تشحَط ، أي: هَذَا الطّيف الَّذي زار فِي المنام قد جاء من حبيب بعيد جدًّا عني . وقد جاز هَذَا الخيال مسافة الصّحراء حتّى زارنا فِي أراحلنا ونحن مسافرون وبيننا وبين دياره غابات كثيرة فيها الشّوك والهوام والسّباع والأهوال ، مَعَ ذلك هَذَا الطّيف قد جاز - ، أي : قطع - عصب الغابات ، أي : مجموعات الغابات الَّتي بيننا وبينه - طُروقًا ، أي : ليلًا ولم يخفْ - لم يرعْ ، أي : لم يرعْه شيء ، أي : لم يخفه شيء . تقول راعه الأمر يروعه ، أي : أخافه يخيفه .

١٠- آنسٍ : صفة للحبيب الخفِر ولطيفه الزائر ، أي : مؤانس وملاطف . وهذا الطّيف كَانَ كلما اعتادني ، أي : كلما عاودني بزيارته أرقني وحال بيني وبين النّوم فامتنع النّوم عني .

تقول : عاده كذا واعتاده وعاوده ، كلّ معناها واحد ـ يقال تعتادني الحمّى كلّ ثلاثة أيام وتعودني وتعاودني . قَالَ الشّاعر ذو الرُّمة يذكر محبوبته :

تَعتَادُني زَفَراتٌ مِن تَذَكُّرِها   تَكادُ تَنفَضُّ مِنهُنَّ الحَيازيمُ

أي زفرات شديدة تؤثّر فِي الصدر هزتها حتّى توشك الضلوع أن تنكسر وتنفصل .

١١ - وَكَذاكَ الحُبُّ ما أَشجَعَه   يَركَبُ الهَولَ وَيَعصي مَن وَزَع

هذا البيت من أبيات الحكمة الرّائعة . لما ذكر الشّاعر طيف الخيال ونسبه إِلى محبوبته الحبيبة الهيوب تَعجب منه كيف استطاع أن يتجاوز الأهوال والغابات ويصل إِلى ؟ كيف جسر عَلى تخطي هَذِه الأهوال مَعَ أن صاحبته امرأة لا تقدر عَلى ملاقاة هَذِه الأهوال ؟ والحقّ أنّ الحبيبة الّتي زاره طيفها لم تزره هي نفسها ، ولا أرسلت طيفها إليه . ولكنّ الّذي صور لَهُ صورتها وجعل طيفها يزوره فِي المنام هو تفكيره هو نفسه فيها ، وعقله الباطن هو الّذي صورها لَهُ . وقد بين هَذَا المعنى لنا من بعد الشّاعر أبو تمّام حيث قَالَ :

زارَ الخَيالُ لَها لا بَل أَزارَكَهُ   فِكرٌ إِذا نامَ فِكرُ الخَلقِ لَم يَنَمِ

أي زارك خيالها لا بل جعله يزورك تفكيرك فيها ، وذلك أنّك بتفكيرك فيها الدّائم لا ينام عقلك حتّى حين ينام النّاس وتنصرف عنها وعن غيرها أفكارهم .

إذن فعقل الشّاعر وفكره هو الّذي اقتحم اللّيل ونسي أهوال الصّحراء وعُصب الغاب وتجاوز جميع ذلك إِلى الحبيب الحيي الهيوب الشّاحط الدّار ، أي : البعيد الدّار ، وإنّما فعل فكره ذلك بجراءة الحبّ وشجاعته :

وَكَذاكَ الحُبُّ ما أَشجَعَه   يَركَبُ الهَولَ وَيَعصي مَن وَزَع

ويعصي من نهاه . الوازع هو الّذي يُنَظّمُ أمْرَ النّاس ويمنَعَهم من الفَوْضَى . ولابد للنّاس من وَزَعة ، أي : النّاس يحتاجون إِلى وَزَعةٍ جمع وازع ، مثل كَتَبَة جمع كاتب وعَمَلة جمع عَامِل وقَرَأة جمع قارئ . وَزَعُ يزع فهو وَازِع وهم وَزَعَةٌ .

فِي الحديث : من يَزَع السلطانُ أكثر مِمَّن يَزَع القرءان ، أي : يكفّه خوفُ السّلطان من ارتكاب الخطأ أكثر ممن يَكفُّ القرءان بمواعظه وتذكيره . الفعل وَزَع مثل وَضَع ووَزَن

مضارعه بفتح الزّاي (يزع مثل يَضَفُ وبكسرها يَزِعُ مثل يَزِنُ) .

كما تجرَّأ هَذَا الطّيف فتخطّى الأهوال ، كذلك الحبُّ يركبُ الأهوال ويتحدّاها ويَعْصي من يريد نَهْيَهُ وكَفَّه عن اندفاعِه فِي سبيل الحبّ .

١٢ - ثمَّ بعد هَذِه الحكمةِ تحدَّث الشّاعر عن تأريق الحبِّ لَهُ حتّى سَهِرَ وجعل يراقب النّجوم وقال :

فَأَبِيتُ اللَّيلَ ما أَرقُدُهُ ... وَبِعَينَيَّ إِذا نَجمٌ طَلَع

أي أقضي اللّيل ساهرًا فأرى كلّ نجم أوانَ طلوعِهِ .

١٣ - وَإِذا ما قُلتُ لَيلٌ قَد مَضى ... عَطَفَ الأَوَّلُ مِنهُ فَرَجَع

والحقيقة أنّ أوّل اللّيل لا يعطف مرة أخرى وينثني راجعًا بعد ذهابه ، ولكنَّ من يسْهَرُ اللّيل ويأرق ويفكر تمضي السّاعات عليه بطيئة فيظن أن اللّيل قد كر راجعًا وقد زيد طوله.

قال الفرزدق :

يقولونَ طالَ اللَّيلُ واللَّيلُ لمْ يطلْ ... ولكنَّ مَنْ يشكُو منَ الحبِّ يسهرُ

وقال النّابغة الذبيانيّ ، وقد تأثر شاعِرُنا سويد بقوله إذْ كَانَ مشهورًا :

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ[1] ناصِبِ ... وَلَيلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ

تَطاوَلَ حتّى قُلتُ لَيسَ بِمُنقَضٍ ... وَلَيسَ الَّذي يَرعى النُّجومَ بِآيِبِ

توهم أنَّ النّجوم بهائم ترعى وهي بطيئة هائمة وقد ذهب راعيها ولن تعود - فهذا تمثيل مثله لبطئها ولمراعاته لها .

١٤ - هَذَا اللّيل يسحب نجومه ، يجرها جرًّا ، وهي من بطئها كأنّها حيوانات ظالعة أصابعها وجع أو جرح فِي الرّجل فهي تظلع من أجل ذلك . والنّجوم تتبع بعضها بعضًا ، والنّجوم المتأخرة بطيئة جدًّا فِي اتباعها للنّجوم المتقدّمة . ظلع بضمّ الظّاء وتشديد اللّام

---

(١) بنصب التّاء على توهم الاستمرار في لغة من ينتظر . هكذا في الأصل المنقول عنه مجلّة مجمع اللّغة العربيّة ، جـ ٨٦ ، ص٢١ . والمعروف أنّ لغة من ينتظر ومن لا ينتظر ، مصطلحان خاصّان بالتّرخيم، والتّرخيم يحذف التّاء ، فتكون الفتحة حينئذٍ على حرف الميم (يا أُميمَ) (حسن) .

المفتوحة جمع ظالع ، والجمع عَلى صيغة فُعَّل وفُعَّال مطَّرد فِي كلّ كلمة عَلى وزن فاعل أو فاعلة ، ولكن صيغة فُعَّال مثل كُتَّاب وعُمَّال وقُرَّاء أكثر ما تستعمل للمذكر ، وصيغة فُعَّل تستعمل للمذكر والمؤنث ، وقد تستعمل صيغة فُعَّال أحيانًا للمؤنث ، قَالَ القُطَامي يتحدث عن النّساء :

أبصارُهُنَّ إِلى الشُّبَّانِ مائلةٌ وقد اراهُنَّ عني غيرَ صُدّادِ

أي غير ذوات صدُود . تواليها جمع تالٍ ، أي : النّجوم الَّتي تتلو ما أمامها تتبعها بطيئات التَّبع ، أي : بطيئات الاتّباع ، تقول تبعت فلانًا أتبعه تبعًا واتَّبعتُه اتّباعًا وأتْبعته أتبعه إتباعًا ـ كلها متقاربات فِي المعنى .

١٥ - وَيُزَجِّيها عَلى إِبطائِها مُغْرَبُ اللّونِ إِذا اللّونُ اِنقَشَع

أي هَذِه النّجوم بطيئات يتبع بعضها بعضًا .

ويزجيها ، أي : يسوقها . تقول : أزجيت راحلتي وزجيتها ، أي : سقتها برفق مضارعه أزجى يُزجي ومضارع زَجَّى يُزجي . وبضاعة مُزجاة ، أي : قليلة .

يقول الشّاعر هَذِه النّجوم البطيئات وراءها سائق يسوقها برفق وبلا إسراع هَذَا السّائق مغرب اللّون ، أي : فيه بياض وحمرة يعني الفجر ، حين لون اللّيل الأسود ينقشع، أي : يأخذ فِي الزوال ثمَّ يزول . انقشع اللّيل ، أي : مضى وذهب .

أصل كلمة المُغرب فِي وصف الخيل للحصان الَّذي يكون فِي وجهه بياض وعند ملتقى أطرافه بجسمه حمرة ـ ، أي : هو غريب فِي لونه ، والشّاعر عني بالمغرب اللّون الصّبح ، لأنّ الفجر الكاذب يلوّح بحمرته عموديًّا كذنب منتفش ، ثمَّ يجيء الفجر الصّادق ، وهو بياض أفقي ثمَّ يجيء الشفق الأحمر وتنكشف الدّنيا وينقشع لون اللّيل بسواده .

١٦ - راقب الشّاعر النّجوم وتذكر أشواقه وحبه فقال :

فَدَعاني حُبُّ سَلمى بَعدَما ذَهَبَ[1] الجِدَّةُ مِنّي وَالرّيع

---

(١) ذهب الجدة : يجوز هنا تذكير الفعل وتأنيثه لأنّ الجدة ليست مؤنثًا حقيقًا. تقول ذهبت الجدّة وذهب =

سمّى محبوبته «سلمى» بعد أن كَانَ قد سمّاها رابعة ، الجدّة بكسر الجيم وتشديد الدّال المفتوحة ، أي : الشّباب الأوّل ، والرّيع بفتح الياء بعد الرّاء المشدّدة المفتوحة ، أي : ريعان الشّباب وشدته وعنفوانه .

بيّن لنا الشّاعر هنا أنّه قد تقدمت به السّن وأنّ حبه لرابعة وهي سلمى كَانَ فِي زمان الشّباب ، وحينئذ بسطت مودتها ووصلها لَهُ . وهو يتذكر جميع ذلك ولا ينساه ويشتاق إِلى زمانه .

١٧ – ولقد أحبها حبًّا شديدًا كأنه جنون وكأنّها خبلته ، أي : أصابت عقله بجنون من حبها .

يجوز أن تقول خبلتني بدون تشديد وخبَّلَتني بالتّشديد ، رُوي البيت بالوجهين . تقول: خبلُه الحب يخبلُه بضمّ الباءِ فِي المضارع خبلًا وخبّله الحب يخبّله تخبيلًا .

وروي البيت أيضًا هكذا : خبَّلتني ثمَّ لـمّا تُشفني بالحاء المهملة ، أي : صادتني بحبالها، أي : بشرك حبها . تقول حبلتُ الصّيد أحبُله بضمّ الباء فِي المضارع . شفاه يُشفيه وأشفاه يشفيه، ثلاثي ورباعي .

يقول الشّاعر : هَذِه المحبوبة شغفتني حبًّا ، جنّنتني أو صادتني بحبّها ولم تداوني من مرض الحبّ إِلى الآن ففؤادي ذاهب وراءها فِي كلّ جهة متفرّق بالشّوق إليها فِي كلّ أوب، أي : فِي كلّ وجه من الدّنيا وفِي كلّ مكان ـ «كلَّ أوب» ، أي : فِي كلّ مكان . كلّ منصوبة عَلى الظّرفيّة .

١٨ – ثمَّ ذكر الشّاعر أنّ من أسباب حبّه لها ، ومن الوسائل والحبائل الَّتي اصطادته بها، حديثها السّاحر من فمها الباسم الجميل الَّذي وصفه من قبلُ فقال :

= الجدّة، ولكن ذهبت لا تصلح هنا لأنّها تخل بوزن البيت . ويجوز تذكير الفعل مَعَ الجمع وإن كَانَ يدل عَلى مؤنث حقيقيّ.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠] .

حُـــرَّةٌ تَجلـــو شَـــتيتًا واضِـــحًا كَشُـــعاعِ الشَّـــمسِ فِي الغَـــيمِ سَـــطَع

ثم قَالَ :

أَبــــيَضَ اللَّـــونِ لَذيـــذًا طَعمُـــهُ طَيِّـــبَ الرِّيـــقِ إذا الرِّيـــقُ خَـــدَع

والعرب تزعم أنّ الوَعِل ، أي : الثّور الوحشيّ الأعصم الّذي فِي يديه بياض يكون فِي أعالي الجبال ، وهو سريع شديد الحذر عسير الصّيد ، فالصّيادون يحتالون لصيده ، وكذلك أُنثى الوعل ، ويقال لها الأُرْوِيَّة بضمّ الهمزة وسكون الرّاء بعدها واو مكسورة بعدها ياء مفتوحة مشددة وتاء التأنيث الجمع أراوى أخرها ألف لينة . قالوا : والأروية والوعل يطربان للصّوت الجميل ، فإذا أراد الصيّادون صيد الوعل أو أنثاه الأروية نصبوا الأشراك وتغنوا بأصوات جميلة فيجيء الوعل وتجيء الأروية وتستمع وتطرب فيقعان فِي الشرك .

الرُّقية وجمعها الرّقى هي ما يتداوى به الإنسان من السمّ والسّحر . أحيانًا تكون شيئًا يشرب أو نحو ذلك وأحيانًا تكون دعاء وكلمات كقراءة الفاتحة مثلًا للسّعة العقرب .

زعم الشّاعر أنّه كالوعل البريّ شراسة وقوة وامتناعًا ، ولكن سلمى دعته بحديثها العذب المؤثر كما تؤثر الرقية فِي الملسوع والملدوغ والمسحور . حديثها العذب المطّرب المؤثر الّذي يمكن أن يصطاد الوعل به فينزل لاستماعه من أعلى الجبل .

اليَفع ، أي : المكان المرتفع .

يقول الشّاعر إنّها أثرت فِي بحديثها الجميل المطّرب الّذي ينزل لَهُ من يكون صعب المنال مثلي ومثل الوعل الجبلي فيقع فِي الشّرك .

١٩ - استمر الشّاعر فِي وصف حديث سلمى العذب فقال : إنّها تسمع المتحدثين إليها حديثها الحسن ولو طلبوا غيره من غيرها من النّاس لم يجدوه . هي وحدها تملك هَذَا القول الرّائع المؤثر الّذي تصطاد به القلوب .

الحُدَّاث ، أي : الذين يحدثونها . تقول هو رجل حدث بضمّ الدّال وحدث بكسر الدّال ، أي : كثير الحديث وحدث بكسر الحاء وسكون الدّال وهم حُدَّاث .

تعليق :

إلى هنا انتهى الجزء الثّاني من الغزل ، ومن عادة الشّعراء إذا ذكروا المحبوبة وأشعروا أنّ أسباب حبهم ما زالت باقية زعموا أنّهم سيلحقون بالمحبوبة ، فيجعلون ذلك وسيلة إلى وصف الطّريق والرّاحلة والصّحراء وطبيعة البيئة الّتي يعيشون فيها .

ثم يكشفون المعاني الرّمزية الّتي يشيرون إليها بنسيبهم .

الشّاعر هنا سيقطع الصّحراء عَلى ظهر الخيل ، والعرب لا تقطع المسافات الصحراوية الشاسعة بالخيل ولكن بالإبل . ولكن الغرض الّذي يخبرنا الشّاعر بأنّه يريد الوصول إليه هو ديار قبيلته العظيمة بني بكر . وإذن ركوب الخيل يرمز به إلى الفروسيّة والقتال . وقد وضع قبيلته بني بكر موضع المحبوبة الّتي يشتاق الشّاعر إليها ويطلب اللّحاق بها .

وكما وصف الشّاعر سلمى أو رابعة بأنّها بسطت مودتها لَهُ ، وبأنّها جميلة المنظر حلوة الحديث ، كذلك وصف قومه بني بكر بالسّماحة وبسط اليد كرمًا كما وصفهم بحسن الخُلق والمنظر وجودة الحديث : «منظرٌ فيهم وفيهم مُسْتمع»[1] .

والآن ننتقل إلى شرح الفصل الثّالث وهو السير والصّحراء والخيل الّتي ركبها ، من البيت (٢٠) إلى (٢٩) .

٢٠- المَهمَه : الصّحراء ، الجمع مهامِه ممنوع من الصّرف ، لصيغة منتهى الجموع نازح بعيد . غور الصّحراء بُعدها واتساعها . نازح الغَور : بعيد المسافة . الآل هو سراب أوّل النّهار . يقول الشّاعر : كم وكم قطعنا من أجل الوصول إلى سلمى صحراء وصحراء كانت بيننا وبينها ، صحراء بعيدة المدى ، سافرنا فيها وسرابها يلمع وحرها شديد .

فِي ريح حارة - الحرور بفتح الحاء هي ريح النّهار الحارّة وتقابلها السَّموم بفتح السّين وهي ريح اللّيل الحارّة - سافرنا نهارًا والرّيح حارّة حرًّا تلتهب لَهُ الدّنيا ويمكن إنضاج اللّحم عَلى رمضائه ، والسّائر فيها تصيبه من الشّمس ضربة شديدة كأنّها صاعقة - الصّقع:

(١) «منظر فيهم وفيهم مستمع» - منظر مبتدأ مَعَ أنه نكرة لأنه كأنه موصوف ، أي منظر جميل فيهم وانظر رقم(٨) فيما بعد من الحواشي.

حرّ فِي الرّأس . وصقعت الشيء : ضربته ، أصقعه بفتح القاف صقعًا والصّقع بمعنى وجع الرّأس بفتحتين عَلى الصّاد فتحة وعلى القاف فتحه .

وتقول صعِق فلان ، بالمبنيّ للمعلوم ، يصعق وصُعق يُصعق بالمبني للمجهول ، أي : أصابته صاعقة ويقال أيضًا : صاعقة والفعل صقَع يصقَع .

نضِج الشّيء بكسر الضّاد ينضَج بفتحها فِي المضارع نُضجًا بضمّ النّون وفتحها ولا تقل «نضوجًا» فهي غير صحيحة ـ والشّيء ناضِج ونضِج وأنضجته أنا إنضاجًا .

٢١- وكم تخطيت من أجل اللّحاق بسلمى ولشوقي إليها ، كم تخطيت من ديار فيها أعدائي : تجاوزت هؤلاء الأعداء بشجاعتي وقوة عزمي وملازمتي للجدّ والعزيمة .

عُدي بكسر العين وبضمها ، أي : أعداء . بزماع الأمر : بالجدّ فِي الأمر . الزّماع بفتح الزّاي : مثل السّحاب فِي الوزن وبكسر الزّاي : مثل الكتاب فِي الوزن ، هو الجدّ فِي الأمور وقوّة العزيمة . كنع الأمر يكنُع كنُوعًا ، أي : قرب . أعوذ بالله من الخنوع والكُنوع والقُنوع ـ الخنوع طأطأة الرّأس مذلة وخضوعًا . الكنوع الدنوّ من النّاس لتملقهم وللتذلل لهم ، والقنوع سؤال النّاس . وكنع بكسر النّون يكنع ، أي : لزم الأمر . «الأمر الكنع» بكسر النّون ، أي : الملازم ، أي : سافرت بحزم وجد وعزيمة قوية ملازمة .

٢٢- وكم من فلاة ، أي : صحراء واضحة الجوانب ، أي : لامعة الجوانب بضوء الشّمس تبدو نواحيها وسط السّراب والغبرة . مثل قطع السّحاب المتفرقة[1] .

وفلاة : صحراء جمعها فلوات . أقراب جمع قُرْب بضمّ القاف ، أي : جنب وقُرْب الحيوان هو جنبه الّذي فيه كُليته . واضح أقرابها ، أي : واضحة أقرابها ، جر واضحة لأنّها

---

(١) أي تبدو أقرابها ، أي : جوانبها باليات أي مثل الأشياء البالية ، مثل قطع الثّياب البالية وكأنّها قطع متفرقة رقيقة من السّحاب .

باليات منصوبة بالكسرة نيابة عن الفتحة حال ؛ إذ المعنى وربّ فلاة واضحة أقرابها ، أي: نواحيها حال كونهن بالياتٍ مثل القطع المتفرقة من السّحاب . جَمَعَ (باليات) لأنّه يريد نواحي الفلاة ، أقراب الفلاة .

ثم الفلاة نفسها لاتساع نواحيها كأنها جمع فيجوز رد الحال إليها لأنها جمع فِي المعنى . والّذي ذكرناه أوّل الأمر واضح وقريب إن شاء الله تعالى .

نعت سببيّ لفلاةٍ وأقرابها فاعل وهو جمع تكسير ويجوز تذكير الفعل وتذكير النّعت السببيّ مَعَ جمع التّكسير ـ كأنّك قلت : وفلاة وضح أقرابه ، أي : وضحت أقرابها فهي واضحة ، أي : بيّنة ولامعة فِي ضوء الشّمس .

مُزُفَت ، أصل هَٰذِه الكلمة من الرفات ، أي : العظام البالية المتكسّرة ، والقَزَع جمع قَزعة وهي السّحابة المتفرقة ، وكذلك قطعة الشّعر الَّتي تبقى فِي رأس الصّبيّ . والعرب تقول لقطب السّحاب المتفرقة : قزع وقنازع وكذلك لبقايا الشّعر المتفرّق ، ويقولون : ما بقي فِي رأس فلان إلا قنازع ، أي : قطع متفرقات من بقايا الشّعر وارْفتَّ الشّيء ، أي : تفرق وتكسر . «مُرفت القزع» ، أي : قطع السّحاب المتفرقة .

٢٤- هَٰذِه الفلاة يسبح السّراب عَلى تلالها ومرتفعاتها وعلى جميع أرجائها وبيدائها حين يرتفع النّهار . السّراب الَّذي يرتفع قرب الزّوال عند أوّل ارتفاع النّهار هو الآل ، أعلام جمع عَلَم وهو التّل والجبل والمكان المرتفع الظّاهر . البيد جمع بيداء ، أي : مكان قفر، والبيد القفار الخالية ، ومَتَع اليوم يمتَع «بوزن منع يمنَع» ومتع النّهار ، أي : ارتفعت شمسه .

٢٥- فركبنا هَٰذِه الفلاة الواضحة الأقرب الَّتي تبدو نواحيها كالسّحاب المتفرّق المتشتّت ، كأنه ثياب قطعها بالية متفرقة ، ركبناها بالرغم من أنا لا ندري مجالها وأهوالها بخيل صلاب الأرض ـ ، أي : صليبات الحوافر ، فيها خفّة وإسراع ، شجع بالتّحريك ، أي : خفة وإسراع . الأرض هنا بها الحوافز وبقوله صلاب الأرض دل عَلى أنّها القوائم ولكنّه هنا عني الخيل .

وتقول العرب : صلب الشّيء فهو صلب بضمّ الصّاد وصليب وصلب بضمّتين وشدّة والجمع صلاب .

٢٦- وهذه الخيل كالمغالي ، أي : كالسّهام الواحد مغلى بكسر فسكون ، وهي عارفات بالسُّرى وهو سير اللّيل ومسنِفات بكسر النّون ، أي : متقدّمات مندفعات أو مسنَفات بفتح النّون ، أي : مقدّمات مدفوعات إِلى الأمام ، لم تجعل عليها سيور تترك عَلى جلودها

وشمًا ، أي : أثرًا كأنه الوشمة ، أي : النّقش عَلى الجلد ، المغلى ، أي : السّهم اشتقاقها عن غلا بالسّهم يغلو به ، أي : رمى رميًا شديدًا والمسافة الَّتي يقطعها السّهم فِي أشدّ الرّمي اسمها غلوة بفتح الغين والجمع غلاء .

والعرب تقول : جري المذكيّات غلاء ، أي : جري الخيل الجياد لا يحكم عليه مرّة واحدة ولكن بجريات متعدّدة .

والسِّناف بكسر السّين خيط يشد به حزام الإبل ، والإسناف فِي الحرب هو التّقدم ، وأسنفت النّاقة وأسنفت الفرس ، أي : تقدّمت ورواية البيت بكسر النّون من مسنفات وبفتحها ، وقال الشّاعر : لم توشم بالنّسع لكيلا يتبادر إِلى ذهنك من قوله مسنفات أنّها إبل فنفى أن تكون مشدودة الحزام بسير أو نسعة تؤثر عَلى جلدها . والنّسعة بكسر النّون السّير وجمعها نسع بكسر ثمَّ فتح .

٢٧- فترى هَذِه الخيل عصفًا «بضماين» ، أي : سريعات عاصفات مثل الرّيح ، ولحوافرها الشّديدات نعال حديد ممّا صنعه القين ، والقين هو صانع ، وأكثر ما تطلق عَلى الحدّاد والجمع قيون . والقينة الصانعة وأكثر ما تطلق عَلى المغنية هَذِه النّعال الحديدية تقيها الأذى من ضربها للحجارة ضربًا شديدًا وهي عَلى أرض فيها صلابة وحجارة . الوقع بفتحتين ، أي : الضّرر الَّذي يلحق بالحافر . تقول العرب وقع الحافر يوقع وقعًا بوزن وجع يوجع وجعًا والمعنى متقارب [1].

٢٨- هَذِه الخيل قد اندفعت فِي اللّيل وكستها ظلمته وسواده فكأنّه درع عليها وهذه الخيل يهوين بنا هويًا ، أي : يندفعن بنا مسرعات كأنّها القطا الكدر الألوان الَّتي جاءت مسرعة إِلى ورود الماء وجعلت تهوي إِلى الشّرع ، أي : إِلى المكان الَّذي ترد فيه الماء - العرب تقول لمورد الماء شريعة وشرع بالتّحريك ومشرعة . والقطا ترد الماء عند الفجر

---

(١) أيضًا يجوز لك أن تشرح البيت (٧) فتقول : فتراها مسرعة عاصفة فِي جريها منعلة بنعال الحداد الَّتي تقيها من الصخور ، الوَقَع بفتحتين أي الصخور جمع وقعة بفتح القاف والعين أي صخرة .

وأول الصّباح ، والقطا نوعان نوع فيه سواد وهو الجون والواحدة جونية .

٢٩- والقطا حين ترد تشرب بخفة ومن دون إسراف شرب الشّارب من الماء قليلًا قليلًا قيل شرب غشاشًا . وقال الشّاعر :

لا أذوقُ النّــومَ إلا غــــرارًا مثــلَ حســوِ الطّــيرِ مــاءَ الــثماد

أي أنا قليلًا قليلًا مثل حسو الطّير من ماء الثّماد جمع ثمد وهو الماء القليل عَلى وجه الأرض والكلمة معروفة فِي عاميتنا نقول : «تمد» .

قال سويد :

فَتنــاوَلنَ غِشاشًــا مَــنهَلًا ثُــمَّ وَجَّهــنَ لأرضٍ تُنتَجَــع

أي تناولن شرابًا قليلًا قليلًا ثمَّ توجهن إِلى أرض يردن انتجاعها ، أي : القصد إليها والإقامة بها . المنهل مكان الشّراب أو الشّراب نفسه . نَهَلَ يَنْهَلُ ، أي : شرب الشّربة الأولى . الشّراب الأوّل نَهَلٌ والثّاني عَلَلٌ [1] وجه بمعنى توجّه .

تعليق :

قوله : «ثمَّ وجّهن لأرض تنتجع» يعني أرض قومه بني بكر . ولقد قَالَ من قبل فِي البيت (٢٠) :

٢٠- كَـم قَطَعنـا دونَ سَـلمى مَهمَهًـا نــازِحَ الغَــورِ إِذا الآلُ لَمَــع

فزعم أنّه قطع المهمّه من أجل اللّحاق بسلمى ، وهنا قَالَ : إن خيله توجهت لأرض طيّبة ينتجعها النّاس ، يطلبون المرعى فيها ، النّجعة بضمّ النّون ، أي : طلب المرعى والكلأ «أي الحشيش الَّذي يرعى» وانتجع ، أي : طلب المرعى ، ومكان منتجع ، أي : طيب فيه مرعى وتحسن به الإقامة .

ولذلك زعمنا أن سلمى أو رابعة كما هي محبوبة توصف بحسن المنظر وحسن الحديث

---

(١) نهل بوزن فرح ينهل نهلًا أي شرب أول الشرب. وعل يعل ويعل بكسر العين وبضمها علا وعلالا أي شرب الشربة الثانية أو شربة بعد شربة تباعًا .

هي أيضًا رمز لديار الشّاعر ولقومه . وهذا الأسلوب كثير فِي الشّعر ، حتّى فِي شعرنا العامي موجود ، فقد قَالَ خليل فرح رحمه الله :

عــــــزّ فِي هـــــــواك   عــــــز نحـــــن الجبـــــال

يعني يا بلدنا العزيز نحن كالجبال الرّاسية فِي حبك والدفاع عنك .

٣٠- ثمَّ فسر الشّاعر هَذِه الأرض الَّتي تُنْتَجَعْ وبيَّن حقيقتها أنها ديار قومه بني بكر وهم فيها كالملوك وهي مملكتهم ، أي : الدّيار الَّتي يملكونها ويدافعون عنها ويقيمون فيها مآثرهم ومفاخرهم :

مِـــن بَنـــي بَكـــرٍ بِهـــا مَملَكَـــةٌ   مَنظَـــرٌ فـــيهِم وَفـــيهِم مُســـتَمَع

مستمع مصدر ميمي من استمع . ، أي : هَذِه الدّيار الَّتي فيها مملكتهم هم فيها أهل منظر جميل[1] وحديثهم يجذب الأسماع إليه . وهم فيهم منظر وفيهم مستمع ، أي : ما يستمع إليه .

تذكر أيّها القارئ قوله من قبل فِي رابعة بعد أن وصف ثغرها ووجهها وطرفها وشعرها وخُصلَةُ السّابغة :

تُســـمِعُ الحُـــدّاثَ قَـــولًا حَسَـــنًا   لَـــو أَرادوا غَـــيرَهُ لَم يُســـتَمَع

٣١- وتذكَّر أيّها القارئ الكريم أيضًا قوله فِي أوّل القصيدة عن رابعة فِي أوّل النّسيب الَّذي نسب فيه :

بَسَـــطَت رابِعَـــةُ الحَبـــلَ لَنـــا   فَوَصَـــلنا الحَبـــلَ مِنهـــا مـــا اِتَّسَـــع

وهنا فِي هَذَا البيت الحادي والثّلاثين يقول فِي مدح قومه والفخر بهم :

بُسُـــطُ الأَيـــدي إِذا مـــا سُـــئِلوا   نُفُـــعُ النائِـــلِ إِن شَيءٌ نَفَـــع

---

(١) قوله : « منظر فيهم » يشعر بعنصر مفاجأة . هَذِه المفاجأة تدلّ عَلى أنّ الشّاعر أراد أن ينبهنا عَلى هَذَا المنظر . لذلك قوله « منظر فيهم » معناه « منظر موصوف ، منظر عجيب منظر صفته موجودة فيهم». لذلك جاز ههنا أن تكون النّكرة مبتدأ بها .

استعمل فِي الدّلالة عَلى مروءتهم وكرمهم نفس اللّفظ الّذي استعلمه من قبل وهو البسط . وبسط الأيدي بالمعروف مدها بالمعروف .

وصف قومه بأنهم كرام يبسطون اليد بالكرم حين يُسألون وعطاؤهم سمح يعطونه بنفس سخيّة ولذلك يكون نافعًا . إن شيء نفع فعطاؤهم من الأشياء النّافعة حقًا وبعض عطاء النّاس لا يقع لأنهم لم يبذلوه بسماحة النّفس .

بُسُط جمع بسيط هو المسماح الكريم المتهلّل ويجوز أن نجعلها جمعًا للبّاسط يده بالمعروف ولكنّ صيغة فُعُل بضمتين الغالب فيها أن تكون فِي الجمع لفعول وفعيل[١] .

ونُفُع بضمّتين جمع نفوع ، أي : عظيم النّفع والفائدة مثل نفاع فِي المعنى والنّائل هو العطاء.

٣٢- قومي من أناس أهل فضل وخير وخلق حسن ، ليس فِي طبعهم الإسراع إِلى القول الفاحش ولا عدم الصّبر عند المصيبة . قوله لا يُسرعون إِلى الفحش ولا يعجلون إليه عنى به أنّهم لا يكون منهم فحش فِي القول أبدًا حتّى يعجلوا به كعجلة غيرهم . ولم يرد نفِي العجلة وحدها ولكن أراد نفِي الفحش كله عنهم . والجزع هو كما قدمنا القول ، عدم الصّبر عند المصيبة ، جَزِعَ يجزع جزعًا فهو جَزِعٌ وجزوع . قَالَ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١] صدق الله العظيم .

٣٣- وقومي أهل صدق وعدالة وجد يعرفون الحقّ حين يكون لهم أو عليهم ، وعندما يجيء أمر كريه مُرّ فهم ليسوا ضعفاء ولكن يواجهونه بقوة .

عي وعيي بالأمر ، أي : أعياه الأمر ولم يستطعه[٢] . خَرِعَ يخرَع خرَعا ، أي : ضعف

---

(١) صبور جمعها صُبُر ونجيب جمعها نُجُب ونفوع جمعها نُفُع وقضيب جمعها قُضُب . هَٰذِه أمثلة ومرت بُسُط بضمتين جمع بسيط .

(٢) عيّ هي عيي بوزن رضي وأدغمنا الياء فِي أختها فصارت عيّ وفِي القرآن فِي قراءة مشهورة : =

والخرع الضّعيف والخرع الضّعف ـ وخرع الرجل فِي أمره إذا لان فِي أمره وتساقط من العجز والضّعف .

٣٤- ثمَّ ذكر كرم قومه بالطعام فِي زمان الحاجة وأشد ما كَانَ النّاس يحتاجون إِلى زمان الشّتاء عندما تهب الرّياح من الشّمال ـ الشّمال بكسر الشّين الجهة والشّمال بفتح الشّين : الرّيح الّتي تجيء من الشّمال ويقال لها الشّمأل بالهمز .

قومي يطعمون الطّعام فِي زمن الحاجة وأشدّ ما كَانَ النّاس يحتاجون إِلى الطّعام زمان الشّتاء عندما تهبّ الرّيح شمالًا ويطعمونه كثيرًا طيبًا مطبوخًا فِي قدور ضخام ضامنات للشّبع ولا يضعون فيها شيئًا قليلًا . تقول العرب : أجاع فلان قدره ، أي : لم يجعل فيها لحمًا كثيرًا . فقوله هنا : «فِي قدور مشبعات لم تجع» ، أي : مملوءة فيها اللّحم الكثير .

٣٥- ويُنقل اللّحم من القدور إِلى جفان كبيرات كلّ جفنة كأنّها جابية من اتساعها . الجفنة وعاء كبير يوضع فيها الطّعام وقد تصنع من الخشب ومن النّحاس ومن غير ذلك . والجابية هي حفرة السّاقية الّتي فيها الماء . هَـٰذِه الجفان مملوءة بلحم من لحم الإبل السّمينات الأسنمة ـ التّرع بالتّحريك : الامتلاء . أترع إناءك ، أي : أملأه . الذّرى : ذروة كلّ شيء أعلاه وذرى الإبل : أسنمتها ولحم السّنام من أطيب اللّحم .

وقوله : «وجفان كالجوابي» أخذ من القرءان ، إذ ذكر الله سبحانه وتعالى الجن الذين كانوا يعملون لسيّدنا سليمان فقال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ صدق الله العظيم [سبأ : ١٣] .

٣٦- وقومي أوفياء لا يخاف من جاورهم أن يغدروا به أو أن يطعموا فِي ما عنده فيحسدوه ويتعدوا عليه . الطبع بالتّحريك : العيب وسوء الطّمع ـ قالوا : والطّبع صدأ

= ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ صدق الله العظيم [الأنفال : ٤٢] .

حيّ أي حيي وقرأ بعضهم بها . والعدوة بضم العين وبكسرها كلاهما قريء به .

ووسخ يركب القلب من شدّة الطّمع وفساد الخُلُق - قَالَ الشّاعر :

لا خَيرَ فِي طَمَعٍ يُدني أَو طَبَعٍ   وَغُفَّةٌ مِن قَوامِ العَيشِ تَكفيني

الغُفة من العيش ، أي : البلغة من العيش ، القليل الَّذي يقيم به المرء قوت يومه . وهذا البيت يدلّ عَلى أن الطّبع شر من الطّمع .

٣٧- وقومي كرماء مساميح أهل جود يجودون بالنّفيس الَّذي يبخل به النّاس ونفوسهم طيبة خالية من الطّمع السيء . حسر نفسه عن كذا ، أي : كفّها ومنعها من كذا ، المضارع يحسر بضمّ السّين فهم يمنعون أنفسهم من الطّمع السيئ .

ضنّ بالشيء يضَنّ به بالفتح ، ويضِنّ به بالكسر ، أي : يبخل وضنّ بالشّيء علق الشّيء علق مضنَّة وعلق مضنة بفتح الضّاد وكسرها ، أي : نفيس مما يبخل به .

٣٨- وقومي حسنو الوجوه مشرقوها لم يعن أنّهم بيض الألوان كالإفرنج ، فالعرب لم تكن تعرف فِي ألوان هَذَا اللّون . وقومي أهل شجاعة وشرف وليسوا جبناء ولا يخافون إذا جاء زمان الفزع ، أي : الخوف واستنجد بهم النّاس ليحموا ويدافعوا . مراجيح ، أي : ثابتون لا يخفون جزعًا . إذا جدّ الفزع إذ صار الاستنجاد من أجل الدّفاع والحماية أمر جد وحزم . والفزع بمعنى النّجدة وقت الخوف والتّعاون بين النّاس عَلى ذلك مستعملة فِي لغتنا العاميّة . وأصل معنى الفزع الاستغاثة والإغاثة عند الخوف . ويدلّ أيضًا عَلى الخوف . وأفزعت فلانًا أخفته . وفزع فلان إِلى فلان ، أي : استغاث به أو أغاثه ونصره . وكان أنصار الرّسول ﷺ ورضي تعالى عنهم يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطّمع وذلك لإخلاصهم وصدق إيمانهم .

٣٩- وُزُنُ الأحلام ، أي : راجحوا العقول ، تزيد أحلامهم ، أي : عقولهم عَلى غيرهم إذا وازنا بينهم وبين غيرهم ، وهم شجعان عند البأس ، أي : فِي الحرب حين تشتد ، هو ذو عقل زين ، أي : راجح ، وحلم فلان حلمًا فهو حليم ، أي : راجح العقل لَهُ أناة وروية وتفكير فِي عواقب الأمور وهم وزن الأحلام - وزن جمع وزين .

صادقو البأس ، أي : يصدقون القتال شجعانًا فِي الحروب . البأس الشّدّة والقتال

والحرب . «إذا البأس نصع» ، أي : اشتد ووضحت شدته ويروى :

رُجُـــحُ الأَحْـــلامِ إنْ وُزِنُـــوا صَـــادِقُو الْبَـــأس إذَا الْبَـــأسُ وقَـــعْ

أي عقولهم راجحة ، رجح : جمع رجيح وهم مراجيح مساميح ، ومراجيح لا مفرد بها فِي الاستعمال ، ومساميح مفردها : مسماح وهو مستعمل .

٤٠- وقومي فِي شجاعتهم مثل الأسود الَّتي تتقي ، أي : تخاف وصولها . والعرة : الأذى ، أي : يخاف النّاس الأذى الَّذي تسببه هجمتها الشّديدة . وهم حلماء ليسوا بخفيفين تطير أحلامهم مَعَ كلّ ريح . هم أهل هدو وأناة . عبر عن هَذَا بقوله : ساكنوا الريح ، أي : ريح أحلامهم ، أي : ريح عقولهم ساكنة لا تهيج كالإعصار ذي الغبار الَّذي يكدر الدّنيا ثمَّ يصير إِلى لا شيء . ريحهم ساكنة وهم هادئون حين يخف غيرهم من النّاس الذين يتطايرون كقطع السّحاب المتفرقة الَّتي تسوقها الرّيح لخفتها وخلوها من الفائدة إِلى جهات مختلفة .

وذم سيدنا علي بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ قومًا فقال : إنّهم يجتمعون «كما يجتمع قزع الخريف» يعني أنّهم يجتمعون متفرّقين ويتفرّقون من بعد .

٤١- لـمّا وصف قومه بالشّجاعة وأنّهم أسود تخاف صولتها ، قَالَ : فبهم تحدث النّكاية فِي العدو والانتقام منه . وبهم يضمّ الشّقّ إذا حدث شّقّ وانصداع فِي أمور النّاس . رأبت الشّيء أرأبه ، أي : أصلحته . والشّعب : الشّيء المتفرق انشعب الإناء ، أي : انشقّ . رأبت شعب الإناء ، أي : أصلحته . والشّعب أيضًا الشّيء الملتئم ، فالكلمة من الأضداد ، ومن قولنا هم شعب واحد . انصدع الشّعب ، أي : انشقّ الشّيء الملتئم ونكيت فِي العدو أنكى بكسر الكاف ، أي : صنعت به الضّرر والأذى . ونكأت القرحة أنكأها ، أي : قشّرتها . نكأ : انصدع ، أي : انشقّ . الصدع : الشّقّ .

٤٢- وقومي مجدهم قديم ، وعادة الشّرف فيهم قديمة ، وليس شرفهم بالشّيء الجديد الَّذي ليس لَهُ أصل راسخ .

٤٣- وقومي يحتلون ثقال الأمور الَّتي يكلفهم واجب المروءة إياها . لا يعجزون عنها

ويظلعون لثقلها كما يظلع البعير الَّذي يوضع فوقه أكثر مما يتحمل من الأحمال . والشِّف بكسر السّين الزّيادة . ، أي : هم يطيقون كلّ ما يكلفونه ولا يعجزون ولا يظلعون كما يظلع البعير ذو الشّفّ ، أي : الزّيادة من الأحمال الَّتي ثقلها يزيد عَلى طاقته .

والأحمال الَّتي يعنيها هنا مثل إخراج المال للضّيافة والمعاونة فِي دفع الدّيات من أجل الصّلح بين القبائل .

٤٤ - ولأن شرف قومنا معروف فإنّهم لا يؤاخون إلا من كَانَ مثلهم فِي شرف الأصل وصلاح الأخلاق . قَالَ الشّاعر :

عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وَسَل عَن قَرينِهُ فَكُلُّ قَرينٍ بِالمُقارِنِ يَقتَدي

فهم لا يؤاخون من كَانَ وضيع الأصل قليل الخير ولذلك فإخوانهم نظراؤهم الأخيار وسراة الأصل من النّاس ، أي : كرماء الأصول من النّاس . أكفاء من كفء ، والكفء : هو النّظير[(١)] . وسراة جمع سري والسّري : هو السّيد الشّريف من النّاس . قَالَ الشّاعر :

لا يَصلُحُ النّاسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا

أي إنّ قومي عَلى طريق بين من المروءة والصّلاح والمحافظة عَلى الشّرف ومن كَانَ عَلى هَذَا الوجه وعلى هَذَا الطّريق كَانَ من خلانهم . وقومي سراة الأصل يؤاخون سراة الأصل . بقية النّاس أصناف متفرقون ، شيع متفرقة كلّ طائفة يتشيعون ويتعصّبون لأنفسهم وكلمتهم كتفرقة . هَذَا معنى سويد : «والنّاس شيع» أخذه من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، أي : أنت بريء من تفرّقهم وضلال أمرهم .

---

(١) كفء وكفو ، أي : نظير وبهما قرأ القرّاء . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ . [الإخلاص : ٤] .

قرأ بعض القرّاء بضمّتين وواو بدون همزة وهي قراءة حفص عن عاصم ، وقرأ آخرون بضمّتين وهمزة وبعضهم بسكون الفاء ووجوه القراءة كثيرة فِي هَذَا الحرف ولكنّ الَّذي نقرأ به ما تقدم ذكره: كفوءًا ـ كفوًا أحد .

تعليق :

إلى هنا ينتهي القسم الَّذي ظنّه المستشرق «كارلوس ليال» قصيدة قائمة بنفسها . والحقّ كما قدّمنا أنّه عبارة عن أربعة فصول من هَـٰذِه القصيدة الاثني عشر ، جعلها كلّها تمهيدًا لما سيأخذ فيه من بعد من الفخر ببني يشكر ثمَّ من الخصومة بينه وبين عدوه الَّذي ناضله وانتصر هو عليه .

وقد ذكرنا أنّ المعاني الَّتي افتتح بها نسيبة من عطف المحبوبة ، وبسطها حبل المودّة ، وحسن حديثها ، وجمال منظرها ، وسحر كلامها ، وكمال خلقها هي نفسها المعاني الَّتي مدح بها قبيلته الكبرى بني بكر .

وبعد مدحه القبيلة الكبرى يندفع اندفاعه جديدة يجيء أولًا فيها بشيء من النّسيب يحرك به نفسه وسامعيه ، ثمَّ يصف رحلته ليلحق بالمحبوب ثمَّ يفتخر بقومه وقد جعل رحلته كما هي دالّة عَلى طلب اللّحاق بالمحبوب هي أيضًا رمز ليصل إِلى ذكرهم والافتخار بهم .

ومن بعد يأخذ فِي ذكر عدوه وما كَانَ بينهما من الخصومة والمساجلة ثمَّ كيف انتصر عليه بفصاحته وبيانه وثبات جنانه (أي قبله) .

٤٥ - أَرَّقَ العَينَ خَيالٌ لَمْ يَدَعْ مِنْ سُلَيمى فَفُؤادي مُنْتَزَعْ

فِي هَذَا البيت ما يسمى بالتصريع[1] .

---

(١) إذا جاء بيت الشّعر بقافية فِي عجزه سمي مصرّعًا وسمي هَذَا تصريعًا نحو :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وإنْ زِدْتَنا كَرْبا فإنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ للشَّمْسِ والغَرْبا

والمتأخرون من علماء العَروض استحدثوا اصطلاحًا سموه التّقفيه وفرقوا بينه وبين التّصريع وهذا تفصيل قصدوا به التّفرقة بين الأشعار الَّتي يكون فيها الصّدر والعجز دائما من وزن واحد مثل :

قِفَا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ

والَّتي يختلف وزن صدرها عن عجزها إلاّ فِي بيت التّصريع مثل « فديناك من ربعٍ وإن زدتنا كربا »

قَالَ الشّاعر فِي نفس القصيدة :

ومَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَويلًا تَنَكَّرَتْ عَلى عَيْنِهِ حتَّى يَرَى صِدْقَها كِذْبا =

وهو أن يكون البيت فِي أثناء القصيدة فيه قافية فِي صدره وفِي عجزه . والشّعراء يفعلون هَذَا عندما يبدأون فصلًا جديدًا فِي القصيدة أو يأخذون فِي بيان معنى جديد . مثلًا بدأ امرؤ القيس معلقته بقوله :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخولِ فَحَومَلِ

هذا مطلع القصيدة وهو مقفى فِي الصّدور والعجز وهذا تصريع وكثير من مطالع القصائد تكون مصرّعه . ثمّ قَالَ من بعد فِي صفة اللّيل والحديث عنه :

أَلا أيّها اللَّيلُ الطَّويلُ أَلا انجَلي   بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ

فهذا البيت مقفّى فِي صدره وفِي عجزه وهذا التّصريع . كذلك هنا فِي هَذِه القصيدة . وروي هَذَا البيت بكسر دال يدع ، أي : يتدع ويقر ويمكث . ولا بأس أن تفتح الدّال[1] وتقرأ :

أَرَّقَ العَينَ خَيالٌ لَم يَدَع

أي لم يدعني فأنام ، وعندي أنّ الرّواية بفتح الدّال لعلها صحيحة لأنّ وزن «يدَعْ» مناسب لوزنه «منتزَعْ» ويستحسن فِي القوافِي المقيّدة ، أي : ذات السّكون أن تكون حركة الحرف الَّذي قبلها متشابهة . والأنباريّ الكبير الَّذي نحن معتمدون عَلى شرحه وروايته لم ينص عَلى منع «يدع» المفتوحة الدّال ولكنه بين أن الرّواية «تدع بكسر الدّال» ولم يذكر أنّه رواها هكذا عن شيخه .

= عجز البيت هنا أطول من صدره . آخر الصدر وزنه (مفاعلن) وآخر العجز وزنه (مفاعيلن) هَذِه التفرقة الاصطلاحية ليست بذات أهمية بالغة ، فاعلم أصلحك الله .

(١) ذكر الأنباريّ فِي البيت (٤٦) :

حَلَّ أَهلِي حَيثُ لا أَطلُبُها   جَانِبَ الحِضنِ وَحَلَّتْ بِالفَرَعْ

أن أبا عكرمة الضبيّ رواه هكذا ثمّ قَالَ : والرّواية : جانب الحضر وهي مدينة الموصل . وقال فِي البيت (٤٥) : إنّ الرّواية يدع بكسر الدّال . فهذا لا يدلّ دلالة قاطعة عَلى أنّها رواية أبي عكرمة . لذلك قلنا بقولنا : لعلّه لا بأس أن تفتح الدّال ولعلّ بعضهم كَانَ يرويها هكذا ، والله تعالى أعلم .

وروي أن أبا عمرو قَالَ لم يدع من الدّعة والسكون ، أي : لم يتَّدِع ولم يتقارّ حين جاءنا ـ أيمضى بسرعة ولم يمكث . وأبو عمرو المذكور ههنا هو بندار الكرخيّ أحد شيوخ الأنباريّ الكبير . ومن تكرار الأنباريّ لشرح هَذِه الكلمة وسوقه الحجة عَلى ذلك يلوح لنا بأنّ آخرين ربّما كانوا يروون البيت بفتح الدّال من «لم يدع» ، والله تعالى أعلم .

يقول سويد ، عائدًا إِلى معنى الطّيف والذّكرى ليجدد نشاط نفسه إِلى الاندفاع إِلى البيان والتعبير :

إِني أرقت . أرّق عيني خيال زارني من الحبيب ولم يمكث طويلًا : ألمّ بزيارته فهيج شوقي وأرّق عيني . وهو طيف خيال زارني من سليمى . فكأنّما انتزع فؤادي انتزاعًا من شدّة الشّوق إليها .

تنبه أيّها القارئ الكريم إِلى أنّه صغّر اسم سلمى فجعله سليمى وهذا يناسب ما سيصير إليه من بعد من الحديث عن قبيلته الصّغرى بني يشكر ثمَّ عن نفسه . والتّصغير يستعمل للتّحبيب وللتّلميح .

والعرب كثيرًا ما تزعم فِي أشعارها أنّ المحبوبة من قبيلة أخرى ، هَذَا أسلوب لهم وإن كانت من نفس القبيلة .

٤٦ – يقول : هَذِه المحبوبة بعيدة الدّار من داري . حلت جانب الحصن وهو موضع بعينه . وقيل الرّواية الصّحيحة «حل قومي جانب الحضر» والحضر مدينة قديمة بالعراق وهي مدينة الموصل ، وبنو يشكر كانوا بدوًا وربّما طلبوا المرعى فأبعدوا النّجعة إليه . والفرع موضع بين الكوفة والبصرة فجعل محبوبته من القبائل الَّتي تسكن هناك ، ليعبر عن بعدها وشوقه إليها ، وصعوبة لقائها .

٤٧ – قَالَ : ولبعدها هَذَا فأنا لا أستطيع لقاءها مَعَ أنّي أحبّها وقلبي مشغول بها وهو أسير عندها . إنّما ألقاها إذا نامت عيني . يأتيني طيفها ويزول بسرعة . فلقائي لها إلمامة يسيرة بها فِي المنام حين يهجع الطّرف .

٤٨- ثمَّ وصف ما رآه من جمال بشرة طيفها فِي المنام . قَالَ هي كالتُّؤامية ، أي : بشرتها ناعمة صافية كالدّرة التُّؤامية ، أي : الَّتي يجيء بها الغواصون من الخليج فِي السّاحل الَّذي يقال لَهُ تؤام وهو ساحل عمان والبحرين حيث يغاص عَلَى اللؤلؤ .

هذه المرأة ناعمة البشرة إن ظفر المرء بها قرت عينه ، أي : سرَّ سرورًا عظيمًا وأعجبه مضجعه بقربها وسره اضطجاعه إِلى جانبها .

٤٩- ولكن لا سبيل إِلى ذلك لأنّها قد بكرت ، أي : هبت من أوّل الصّبح مُزمِعة عازمة عَلى نيّة السّفر ، وقد حدا الحادي بالرّحيل واندفعت جِمالها مبتعدة بها ، واندفع الحادي بالإبل فِي الصّحراء .

٥٠- وتركني هائمًا . وترك رجلًا كريمًا ، هو أنا ، مكبلًا فِي حبّها ، وقلبه ذاهب وراء الحيّ الَّذي ارتحل وارتحلت فيه محبوبته .

يقال : غلِق الرّهن ، أي : فاتت مدّة خلاصه ولم يستطع صاحبه أن يردّه والشّعراء تزعم أن قلبها مرهون عند المحبوبة وقد غلق الرّهن ، أي : فاتت مدته وعسر فكاكه ، والقطين الأهل السّاكنون معًا . ، أي : قلبه قد اتبع هؤلاء الرّاحلين هؤلاء القطين الذين كانوا معهم فِي الحيّ قد ساروا واتبعهم فؤادهم فهو بحبه لهم أسير مكبّل عندهم . هَذَا آخر الفصل الخامس .

تعليق :

لأنّ قلبه مرهون عند المحبوبة وأسير لقطينها الرّاحل ، فإنّ الشّاعر لا يستطيع إلا أنّ القطين الرّاحل ، الحي الَّذي رحل بمحبوبته . وقد فعل ذلك . ولأنّه هَذِه المرّة مضطّر إِلى قطع مسافات رمال الصّحراء البعيدة ، فقد ركب ناقة وأسرعت به وهي قويّة قادرة عَلى قطع المفازة العظيمة والشّاعر يشبهه بالثّور الوحشيّ ويصور شدّة نشاطها ويزعم أنّ هَذَا الثّور حفت به كلاب الصّيد ، وحاول رميه صاحبها ولكنّه نجا وانطلق فلا يجري شيء مثل جريه . ناقتي كهذا الثّور بنشاطه ونجاته هو أيضًا رمز لنفسه ولدفاعه عنها وانتصاره عَلى خصمه .

٥١- ومن هنا يبدأ الفصل السّادس وفيه وصف الرّاحلة عَلى النّاقة والثّور الوحشيّ .

يقول سويد : فكأنّي مندفعًا [1] فوق راحلتي وقد جرى السّراب فِي الضّحى عند بدء الحرّ فِي الاشتداد وارتفاع الشّمس وسطوعها ، كأنني عَلى ظهر ثور وحشي طويل الذيل (ذيال) وفِي خديه خطوط حمر ضاربة إِلى السّواد . الأسفع هو الَّذي كأنّه محروق بالنّار خالط حمرته لون سواد .

السّفع بالتّحريك والسّفعة : السّواد الضارب للحمرة . والثور الوحشي لونه أبيض إلا وجهه وقوائمه ، وجهه فيه سفع وكذلك قوائمه .

٥٢- كَـفَّ خَـدّاهُ عَـلى ديباجَـةٍ وَعَـلى المَتنـينِ لَـونٌ قَـد سَـطَع

الديباج نوع من الثياب فاخر يضرب إِلى السّواد والحمرة . خدًا هَـذَا الثّور كأنّما كُفّا ، أي : ضُمَّ عَلى ديباجة ، أي : كأنّهما قطعة من الدّيباج مضمومة ، لحمرتها الضّاربة إِلى السّواد أو سوادهما الضّارب إِلى الحمرة ، وعلى المتنين ، أي : عَلى جانبي الظّهر لون قد سطع ، أي : قد بدا باهرًا ساطعًا بياضه فِي ضوء الشّمس .

٥٣- يَبسُـطُ المَشيَ إِذا هَيَّجتَـهُ مِثـلَ مـا يَبسُـطُ فِي الخَطوِ الـذَّرَع

الذّرع : هو العجل الصّغير وهو نشيط يبسط خطوه مرحًا ولعبًا لصغره ومرحه . يقول هَذَا الثّور الوحشيّ يبسط المشي ، أي : يسرع فيه ويشتد إذا هيجته ويكون فِي وثبه ونشاطه واتّساع خطواته شبيهًا بالذَّرع وهو ولد البقرة الصّغير . وهذا الوصف بحركة النّشاط المرحة كما ينطبق عَلى الثّور الوحشيّ ينطبق عَلى راحلته المشَبّهة بالثّور الوحشيّ ، وينطبق عَلى الشّاعر نفسه لأنّ نشاط راحلته طرف من نشاطه هو .

ولا شكّ قد تنبهت لاستعمال الشّاعر للفظ «يبسط» وتكرار هَذَا اللّفظ فِي القصيدة . جعله أوّل الأمر لرابعة المحبوبة . ثمَّ لقومه بني بكر «بسط الأيدي» ثمَّ الآن للثّور الوحشيّ «يبسط المشي إذا هيجته» .

٥٤- هَذَا الثّور النّاشط فاجأه فراعه ، أي : أخافه صائد من بني طيىء ، وكانوا معروفين بجودة الرّمي ، من أسهم يرمي بها ومعه ضرّاء ، أي : كلاب ضارية متعودة عَلى الصّيد ، مدربة،

(١) مندفعًا : حال من الضمير اسم كأن .

واحدها ضرو للذّكر وضروة للأنثى وضريت الكلب تضرية دربته ليكون ضاريًا بالصّيد .

يقول هَذَا الصّياد معه قوسه وأسهمه ومع ذلك كلابه الدّوارب بالصّيد ، الضارية المعودة عليه ، الّتي تبرهن بقوة جريها عَلى مقدرتها الفائقة وتبلي أوتار الصّائد أحسن البلاء ، أي : تعطيه عن مقدرتها أجود دليل . تقول : اختبرت فلانًا فأبلى بلاء حسنا ، أي : فجاز الاختبار بتفوق .

الشّرع بكسر الشّين وفتح الرّاء : جمع شرعة وهي الوتر فِي القوس ومنه يكون الرّمي . وإذا أراد الصّائد إغراء كلابه بالثّور ، وشد الوتر ورمى فأرنّ كَانَ ذلك علامة يغري بها كلابه ، نهن ينطلقن وراء الثّور مَعَ انطلاق السّهم ويبلين بجريهن أحسن البلاء ، ويبرهن للأوتار الّتي ترسل السّهام أنهن سريعات كالسّهام ، أنهنّ أيضًا هن سهام يبارين السّهام نفسها فِي السّرعة وفِي صدقهن الاندفاع إِلى الصّيد .

تقول بلوته ، أي : اختبرته فأبلى أحسن بلاء . وبلا الصّائد كلابه يبلوهن ، أي : اختبرهن فأبلين أحسن البلاء . وبلت الشّرع الكلاب ، أي : اختبرتها حين أرسلت مرميّة عنها السّهام فأبلتها الكلاب وكن يبلينها بسرعة جريهن أي يعطينها نتائج نجاح باهر من السّرعة . وهذه مبالغة لأنّ الكلب لا تبلغ سرعته سرعة السّهم ، ومن قبل قد جعل سويد خيله كالسّهام الّتي يغلي بها في الرّمي ، فقال في البيت (٢٦) :

كالمغـــالي عارفـــاتٌ لـــلسّري مســـتّفاتٍ لم توشَـــم بالنّســـع

٥٥- فرأى الثّور الكلاب ولم يستبنهن إمّا بسبب الغبار الذي أثاره جريهنّ .

وإما لبعض الضّعف فِي بصره إذ جنس الظباء موصوف ببعض الضّعف فِي بصره .

و«كلاب الصّيد فيهن جشع» ، أي : حرص وإفراط فِي شهوة ما سيكون لهن طعامًا لأنّ الصّائد سيعطيهن لحم الثّور متى الصّيد عليه .

٥٦- لما تبينهنّ الثّور وأيقن أنهنّ يردن صيده ولى هاربًا وحوله جنابان من غبار أكدري اللّون ، أي : فيه كدره الغبار ثمَّ بعد اندفاعه الجري الأولى اتدع ، أي : سكن وهدأ شيئًا ولم يجتهد فِي العدو ، أي : الجريّ كاجتهاده الأوّل .

٥٧- ولأنّ الثّور عدا أوّل الأمر عدوًا سريعًا حين ولّى وحوله جنابان من الغبار فقد

تقدّم عَلى الكلاب وجعل يتمهّل شيئًا فِي جريه ، وانطلقت الكلاب وراءه بعدو شديد يختلين الأرض بأظافرهنّ ، أي : يتنزعن ما عليها من نبات الخَلَى وهو العشب الرّطب وهن مسرعات . اختلى يختلي ، أي : اقتطع الخَلَى يقتطعه وسبق تفسير الخلي بأنّه العشب ويقال لَهُ الرّطب بضمّ الرّاء ما دام رطبًا بفتحها والحشيش إذا كَانَ يابسًا والكلأ أعمّ ، «والشّاة يلع» ، أي : الثّور يعدو عدوًا جيدًا ولكن غير مفرط السّرعة تقول ولع الثّور يلع ولعًا . عَلى مهلته ، أي : عَلى تقدمه عليهم وسبقه لهن بجريه الأوّل .

٥٨- أي : هَذِه الكلاب دنت ولكن لم يلتبسن به ، أي : لم يخالطنه بعضهن لَهُ وقتالهن ، والكلاب واثقات أنّه إن كر عليهن راجعًا فيسقتل منهن ويجرح وهن سيعضضنه ويجرحنه وتسيل الدّماء منه ومنهنّ ، وكن خائفات من قرنه الَّذي سيهاجمهن به .

٥٩- يُرهِبُ الشّدّ إذا أرهقته ... وإذا برّز منهنّ رَبَعْ

٦٠- ساكِنُ القَفرِ أخو دَوِّيّةٍ ... فَإذا ما آنَسَ الصَوتَ اِمَّصَع

ويروى : يلهب الشّدّ ويهذب الشّدّ والشّدّ هو الجري الشّديد ، وإهذابه وإلهابه ، أي : الاشتداد فيه وكذلك يرهبه ، أي : ينقل شعوره بالرّهبة والخوف إِلى جري قوائمه ، فجريه جري خوف يريد به لنفسه النّجاة من الهلاك ، إذا أرهقته هَذِه الكلاب ، أي : اقتربت من إدراكه فإنّه يشتد فِي جريه اشتدادًا ، فإذا برز منهنّ وابتعد مسافة رَبَعَ ، أي : كفّ من اشتداد الجري ووقف ليستريح وليستعدّ لهن .

هو ثور مسكنه القفار ، أخو الدَّوية ، أي : الصّحراء الَّتي يُسمع فيها باللّيل دوُّ الجنّ لخلوّها من النّاس ولتهيج الرّياح فِي مداها الواسع . الثّور معتاد عَلى دويّ الصّحراء . وهو ذو سمع حاد .

فمتى أحس صوتًا يدلّ عَلى حركة إنسان كحركة كلاب الصّيد أو رنة الأوتار الَّتي ترمى عنها السّهام أو نحو ذلك فإنّه يمصع ، أي : يسرع الجري إسراعًا . امصع ، أي : انطلق مسرعًا أصله من مصع فصار انمصع ثمّ ادغمت النّون فِي الميم .

تعليق :

واضح أن الثور نجا بامصاعه فلم تدركه الكلاب الَّتي كانت واثقة أنّه متى عطف

نحوها فإنّه سيقتلها بقرنه الحاد ، ولم تصبه السّهام الَّتي كَانَ يرسلها الصّائد فتنطلق الكلاب مَعَ إرساله لها .

وكذلك امصعت ناقة الشّاعر فِي إسراعها لتدرك به سليمى الَّتي حل أهلها بعيدًا عن مكانه :

حَـلَّ أَهـلي حَيـثُ لا أَطلُبُهـا   جانِـبَ الحِصـنِ وَحَلَّـت بِـالفَزَع

أي حل أهلي فِي مكانٍ لا أستطيع أن أطلبها فيه لابد من السّير إِلى حيث حلت بالفزع .

وأشعرنا سويد أن ناقته قد بلغت به المكان الَّذي قصده بسيره السّريع وامصاع ناقته كما امصع الثّور حين أرهقته الكلاب .

وهكذا ينتهي الفصل السّادس وينتقل بعده الشّاعر إِلى الفخر ، إذ كما انتصر الثّور عَلى الكلاب انتصر هو أيضًا عَلى مشقّة الصّحراء وخلص إِلى مطلوبه ولحق محبوبه ، فحقّ لَهُ أن يفتخر بنفسه وبقومه .

٦١- من هَذَا البيت يبدأ الفصل السّابع من القصيدة وهو فخر مباشر بضمير المتكلّم الجمعي (نا) :

كَتَـبَ الـرَّحمنُ وَالحَمـدُ لَـهُ   سَـعَةَ الأَخـلاقِ فينـا وَالضَّـلَع

الضلع هو احتمال المسؤولية الاضطلاع ، أي : القيام التام بأمور النّاس وتقول هو مضطلع بحوائج النّاس إذا كَانَ قويًّا عَلى ذلك قادرًا عليه والضّلع يدل عَلى القوّة والشّدّة وأصله من الضّلاعة ، أي : شدة الاضلاع ـ ضلع الرّجل فهو ضليع .

والتعابير فِي هَذَا البيت إسلاميّة . وقوله سعة الأخلاق فيه لفظ السّعة وهو الَّذي استعمله فِي أوّل القصيدة .

حيث قَالَ :

فَوَصَـلنا الحَبـلَ مِنها مـا اتَّسَـع

٦٢- وكتب الله لنا أيضًا أهل إباء وعزة نأبى الدّنايا ولا نخضع مثلما يخضع الشّخص الَّذي يكثر عليه الأعداء ولا يجد نصيرًا . المكثور الَّذي كثر عليه أعداؤه وغلبوه ـ كنع

كنوعًا ، أي : ذل وخضع .

٦٣- وكتب الله لنا أنّنا نبني المعالي ، هَذَا عطاء الله ، أعطانا الله ، والله يرفع من يشاء ويضع من يشاء ، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء . ولا يخفى أنّ هَذَا الكلام إسلامي الرّوح ليس من كلام الجاهلية .

٦٤- والله جل جلاله لا يريد فِي إرادته العالية أن يحولنا عن هَذِه الحالة العالية أبد الدر، فأنتم يا حسادنا دونكم جُرع الموت المرّة فتجرعوها من غيظكم عَلى ما خصنا الله به من الفضيلة وللموت جرعات مرة : جِوَلًا : تحويلًا . جرع الموت منصوبة بفعل مقدر ، أي : اشربوا جرع الموت غيظًا . أو منصوبة عَلى أنّها صفة معنوية لقوله «وبناء للمعالي» بناء يجرعكم غيظًا ، يجرعكم جرع الموت . بناءً جرع الموت لكم ، أي : كجرع الموت لكم من شدة إغاظته لكم .

٦٥- إباء الدّنيات وبناء المعالي وسعة الأخلاق ، والضلع والقوّة عَلى احتمال شدائد الأمور والاضطلاع بالمسؤوليات العظام ، هَذِه نعم الله رباها فينا وخصنا بها وهذا صنيع الله الَّذي صنعه ومن يستطيع أن يصنع مثل صنع الله عز وجل . قَالَ تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ . صدق الله العظيم [النمل : ٨٨] .

ربَّ يربُّ ، أي : أصلح الشّيء وأتمّه .

٦٦- يقول الشّاعر بعد أن وصف قومه بسعة الأخلاق وأنّ ديارهم ديار العزّ : كيف أقدر عَلى الاستقرار بعيدًا عنهم وأنا رجل حر ذو عزّة وإباء فِي بلاد ليس فيها اتساع بلادي ، لا فِي حسن الأخلاق ولا فِي كرم المعيشة . شاحط : بعيد الدّار . متسع : اتساع ، مصدر ميمي من اتسع .

تعليق :

زعم أحد شيوخ أبي محمّد الأنباريّ وهو أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح أن أبا عكرمة شيخ الأنباريّ وصاحب رواية قصائد المفضليات الَّتي هي الآن بأيدينا قد أخطأ فِي ترتيب الأبيات الَّتي تقدمت . وأن ترتيبها الصّحيح هو هكذا :

كَتَـبَ الـرَّحمنُ وَالحَمـدُ لَـهُ سَـعَةَ الأَخـلاقِ فينـا وَالضَّـلَع

وَإِبـاءً للـدَّنيّاتِ إِذا أَعطَـيَ المَكثـورُ ضَـيمًا فَكَنَـع

وَبِنـاءً للمَعـالي إِنَّمـا يَرفَـعُ اللهُ وَمَـن شـاءَ وَضَـع

نِعَـمٌ للهِ فينـا رَبَّهـا وَصَـنيعُ اللهِ وَاللهُ صَـنَع

كَيـفَ بِاسـتِقرارِ حُـرٍّ شـاحِطٍ بِـبِلادٍ لَـيسَ فيهـا مُتَّسَـع

لا يُريـدُ الـدَّهرَ عَنهـا حِـوَلًا جُـرَعَ المَـوتِ وَللمَـوتِ جُـرَع

ومن أجل هَـذَا زعم المستشرق كارلوس ليال أنّ فِي الأبيات من القسم الثّاني من القصيدة (من البيت ٤٥ إِلى ١٠٨) فجوات .

وتابع الأستاذان عبد السّلام محمّد هرون والشّيخ أحمد محمّد شاكر رحمهما الله المستشرق ليال فرتبا القصيدة فِي تحقيقهما كما رتبها هو فِي ترجمته (ص١٩٧-١٩٨ من طبعة القاهرة الأخيرة) .

وقد احترس «ليال» فلم يرتب الأبيات فِي النّص العربيّ إلا بترتيب الرّواية الأصيل الَّذي أخذه أبو محمّد الأنباريّ عن أبي عكرمة الضّبيّ عن ابن الأعرابي عن المفضّل الضّبّيّ نفسه ـ رحمهم الله جميعًا .

على هَذَا النّحو لا يجوز تغيير التّرتيب الَّذي جاءت به الرّواية الصّحيحة من أجل النّقد الَّذي انتقد به أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح رواية عكرمة .

والمعنى واضح صالح مستقيم وجيد بحسب الرّواية الأصيلة . ويصير إِلى معنى آخر بحسب الترتيب المغيَّر :

كَيـفَ بِاسـتِقرارِ حُـرٍّ شـاحِطٍ بِـبِلادٍ لَـيسَ فيهـا مُتَّسَـع

لا يُريـدُ الـدَّهرَ عَنهـا حِـوَلًا جُـرَعَ المَـوتِ وَللمَـوتِ جُـرَع

إذ يصير الَّذي لا يريد التّحول هو الشّاعر الحر الشّاحط .

يبدو أوّل الأمر أنّ ظاهر هَذَا المعنى مستقيم ، ولكنّ المتأمّل لَهُ يرينا عدم استقامته .

قوله :

« كَيفَ بِاستِقرارِ حُرٌّ شاحِطٍ » يدلّ عَلى أنّه يريد التّحول عن هذه الدّيار الّتي هو فيها شاحط ، أي : بعيد وليس فيها متّسع . وقوله من بعد : « لا يُريدُ الدَّهرَ عَنها حِوَلًا » يناقض هَذَا المعنى . نعم يجوز أن تقول كيف يستقرّ ولا يطلب أن يتحوّل ، وهذا الأسلوب فيه تطويل وتكرار . والصّواب التزام الرّواية الّتي جاء بها الأنباريّ مسلسلة عن شيوخه ، والله تعالى أعلم .

لاحظ أنّ الشّاعر وصف نفسه بأنّه حر وشاحط وهي نفس الصّفة الّتي وصف بها حبيبته :

حُرَّةٌ تَجلو شَتيتًا واضِحًا (البيت ٢) .

شاحِطٍ جازَ إلى أَرحُلِنا (البيت ٩) .

ووصف الدّار الّتي يريد ألّا يستقر فيها بأنّها ليس فيها متّسع . وفي أوّل القصيدة :

فَوَصَلنا الحَبلَ مِنها ما اتَّسَع

ووصف قومه من بعد بسعة الأخلاق . والمحبوبة في الشّعر القديم كثيرًا ما تكون رمزًا يرمز به الشّاعر إلى نفسه وإلى قومه وإلى آماله ومطالبه وأمانيه .

٦٧- من هَذَا البيت يبدأ الفصل الثّامن من القصيدة وقد مهد لهذا الفصل الّذي جاء فيه بوصف عدوٍّ لَهُ جمع الحقد والنّفاق والمكر والحسد لقوله الّذي قاله من قبل في نعت قومه ونعم الله عليهم . والله لا يريد بمشيئته العالية سبحانه وتعالى تحويل شيء من ذلك عنهم وليذق عدوهم المرارة وجرع الموت ـ قَالَ سويد :

رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظًا قَلْبَهُ قَدْ تَمَنَّى لِيَ مَوْتًا لَمْ يُطَعْ

كما ترى هنا تحول الشّاعر من ضمير المتكلّم الجمع إلى ضمير المتكلّم المفرد وكشف لنا عن نفسه بوضوح وصراحة جهيرة ـ قَالَ :

٧١- هَذَا العدوّ الخبيث يغتابني والغيبة خلق ذميم وصفها الله في كتابه العزيز فقال :

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ .

[الحجرات : ١٢]

فإذا كانت غيبة المرء لأخيه مثل أن يأكل لحمه وهو ميت ، فهذا طعام وخيم ، وداء فظيع يدَّرعه ، أي : يلبسه ويكسو به نفسه .

مطعم وخم ، أي : خبيث غير سائغ . داء يدرع ، أي : يُلبس .

٧٢- هَذَا العدو لم يضرني - ضاره يضيره ضيرًا وضاره يضوره ضَوْرًا ، أي : ضرّه يضره ضررًا - ، أي : لم يضرّني بشيء غير حسده لي . وحسده يضره هو قبل أن يضرّني[1] ، وهو بحديث غيبته لي يصوت تصويتًا قبيحًا ، لا يزيد عَلى كونه صوتًا قبيحًا بأي شيء -فِي قبحه مثل صوت البومة باللّيل . صياح قبيح بغيض .

زقت البومة تزقو زُقاءً ، ونعب الغراب نعيبًا وزقًا الضَّوَع وهو ذكر البوم . والضّوع أيضًا طائر طائر ، ولكنه ذو صوتٍ عالٍ غير جميل ، وليس لهذا الطائر من قوة غير صياحه. فعلى هَذَا يكون المعنى هَذَا الشّخص يغتابني حسدًا لي ، وذلك لا يضرّني كلامه عني مجرّد صياح لا فائدة فيه ، كصياح هَذَا الطّائر .

٧٣- وهذا الشّخص منافق ، إذا لاقيته يبادرني بالتّحية ، وإذا غبت يغتابني - هَذَا معنى قوله :

وإذا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

أي إذا غبت فإنّه يجد نفسه كأنّه خالٍ ليس معه أحد ، ولحمي أمامه يأكله ويرتع فيه بغيبته .

٧٤- بغضه لي عميق فِي نفسه . كلّما أغيب فيفقدني ينبع أذاه وذباب شرّه مستسر ، أي : بغضه فِي داخل نفسه يسرّه لي إذا رآني حياني كاذبًا والشنء لي كامن فِي نفسه ، أي : الكراهية لي كامنة مستسرة فِي نفسه . الشنء والشنآن بسكون النّون والشنآن بفتح النّون : الكراهية والبغضاء .

افتن الشّاعر فِي بيان كراهية هَذَا الحاسد لَهُ وغيبته لَهُ . فمرة هي كصياح الطّائر الّذي لا فائدة وراءه . ومرة هي داء ملبوس ، وطعام وخيم . وذباب نابع من فمه بالأذى .

---

(١) الضر بضم الضاد اسم للضرر والضر بفتح الضاد مصدر ضر يضر ضرًا .

ووحشية ترتع فِي اللّحم .

٧٥- سـاءَ مـا ظَنّـوا وَقَـدْ أَبلَيـتُهُم   عِنـدَ غايـاتِ المَـدى كَيـفَ أَقَـع

أي ساء ظنّهم الفاسد حين ظنّوا أنّهم سيغلبونني . لقد أبليتهم ، أي : قد عرفوا بلائي ومقدرتي وقوتي عند غايات مدى النّضال والسّباق بيني وبينهم . قد عرفوا كيف أصنع وكيف أنتصر عليهم وعلى أمثالهم . (ما ظنوا) ... ، أي : ظنهم . كيف أقع : ، أي : كيف أصنع . كيف وقع نضالي ومسابقتي حين يسابقونني ويناضلونني .

٧٦- وهو صاحب مِئَرة ، أي : إحنة وحقّ لا يسأم هَذَا الحقد ولا يرجع عنه وإذا أخذ فِي طريق الشّرّ أوقد ناره حتّى تسطع واستمر يوقدها .

مئرة ، أي : حقّ وجمعها مِئَر . مثل إحنة وجمعها إحن .

٧٧- ولكنني أنا لا أبالي بعداوته وعندي القدرة عَلى ردعه . لأنّي شّاعر فصيح مجيد . إذا هاجمت عدوًا لي بالشّعر صقعته برجم يصيب مقاتله لا يخطئ ولا يرتد .

حين أرمي ليس رميي طائشًا لا يصيب ولا مرتجعًا يسقط قبل الوصول إِلى الهدف فأحتاج إِلى إعادته .

٧٨- فارغ السّوط ، أي : أنا فارغ البال عن أن أكون مشغولًا بأمثال هَذَا من أعدائي . ولكني عَلى أتمّ الاستعداد ، إذا ضربت أوجعت ولم أتعب ـ لا يتعبني الّذي هو مثل الكبير من الإبل . ولا الّذي هو مثل الدّقيق النّحيف منها .

استعار هنا ركوب الإبل وركوب الخيل للتّعبير عن مقدرته عَلى الصّراع لأعدائه ، والرّاكب يحرك حصانه وبعيره بالسّوط . فيقول راحلتي لا تحتاج إِلى ضرب فهي سريعة ماضية ، وسوطي فارغ ولكنّي إذا احتجت إِلى استعماله فلن يتعبني بعير أو فرس كبير ولا بعير أو فرس دقيق صغير .

الثّلِب الكبير من الإبل ، ومنها كلمتنا العامّيّة «تلِب» والشّخت النّحيف الضّعيف . والضّرع الضّعيف .

٧٩- هَذَا الشّخص وأمثاله من أعدائي ألا يعلمون أنني الآن شيخ مجرب ، قد يدل

عَلَى نضجي وتمام تجربتي شيب رأسي وطلعه ، فكيف ينتظرون مني أن أكون ذا سقطات وزلات يحسبونها علي ويعيبونني بها .

قالوا لما ثار أعداء الحجاج عليه وحاربوه وانتصر عليهم فِي يوم رستاق أباذ ، خطب وتمثل فِي خطبته بهذا البيت من شعر سويد بن أبي كاهل :

كَيفَ يَرجونَ سِقاطي بَعدَما ... لاحَ فِي الرَأسِ بَياضٌ وَصَلَع

أي كيف يرجون أن أتساقط وأضعف وأزل وقد أحكمتني التّجارب ونضج العمر ولاح الشّيب والصّلع فِي رأسي . هَذَا آخر الفصل الثّامن من القصيدة ويجيء بعده الفصل التّاسع . ويستمر الشّاعر فِي نعت هَذَا العدو ، ويصف الآن جهده الضّائع ، ويشبه نفسه وقومه وعزهم بالصّخرة الملساء الصّماء العالية المرتفعة الَّتي لا تنال .

٨٠- وَرِثَ البغضةَ عن آبائِهِ ... حافِظُ العَقْلِ لما كانَ اسْتَمَعْ

٨١- فَسَعَى مَسْعاتَهُمْ فِي قَوْمِهِ ... ثُمَّ لَمْ يَظْفَرْ ولا عَجْزًا وَدَعْ

٨٢- زَرَعَ الدَّاءَ، ولَمْ يُدْرِكْ بهِ ... تِرَةً فاتَتْ، ولا وَهْيًا رَقَعْ

جعل الشّاعر هَذِه الأبيات مقدّمة لوصفه المجهود الضّائع الَّذي يبذله عدوه فِي محاولته أن يضرّه .

قال إنه ورث العداوة والبغضاء عن آبائه . استمع منهم طعنهم فينا وغيبتهم لنا . حفظ عقله ما سمعه منهم . بئس ما سمع وبئس ما حفظ . وقد استمرّ فِي سعيه كمثل سعيهم من البقاء عَلَى العداوة ، والقول الكاذب الخبيث .

ولذلك لم يظفر بشيء ، ولم ينجح ولم يفلح . ومع هَذَا لم يفتر عن هَذَا الجهد الضّائع فيتركه .

ولا عجزًا ودع ، أي : لم يظفر بشيء ولم يترك المجهود العاجز الَّذي لم يجنه بأي نفع .

ودَعَ يدع ، أي : ترك يترك . يدع مستعملة ، وودع نادرة جاءت فِي هَذَا البيت وفِي

أشياء قليلة رويت ويعتبر هَذَا الفعل «ودع» مهجورًا[١] .

هذا الشّخص الخبيث باستمراره فِي العداوة والغيبة وإيقاد نار الشّرّ لم يصنع صنعًا مفيدًا . بل زرع فِي نفسه مرضًا ، وهذا المرض الَّذي زرعه لنفسه وفِي نفسه لم ينل به نجاحًا فِي ، أي : أمر ، لم يدرك به ثأرًا فاته فينتقم بذلك من عدوه ، ولا رقع به مكانًا واهيًا من أمور قومه .

تِرة بكسر التّاء وفتح الرّاء ، أي : ثأر .

وهيًا : مكانًا واهيًا يحتاج إِلى رقعة وإصلاح .

٨٣- أخذ بعد الأبيات المتقدمة يصف المجهود الضّائع الَّذي يقوم به عدوه :

مُقْعِيًا يَرْدِي صَفاةً لَمْ تُرَمْ فِي ذُرَى أَعْيَطَ وَعْرِ المُطَّلَعْ

الإقعاء فِي النّاس كهيئة قعود الكلب ، يقعد الإنسان عَلى استه ، أي : عَلى دبره وقدماه منتصبان . است همزتها وصل وتدل عَلى العجز من الإنسان والحيوان ، وعلى الدّبر وما حوله ونحن نبين معناها هنا لأنّها ستجيء من بعد فِي البيت ٩٨ .

يردي بالحجر والمِرداة والمِردي الحجر الَّذي يرمي به ، وأهل الجبال قد يتقاتلون بالحجارة وغيرهم قد يفعل ذلك وقد رمى سيّدنا داود عليه السّلام جالوت بحجر فقلته.

صفاة : صخرة . الجمع صفا . والصّفا من مشاعر الحج إذ السّعي بين الصّفا والمروة ركن من أركان الحجّ والعمرة . «لم تُرم» لم يرمها أحد لعظمها وعلوها ووعورة المسلك إليها . ذرى جمع ذروة ، وذروة الشّيء أعلاه ، أي : فِي أعلى جبل .

أعيط عال مرتفع . العيط بفتح العين والياء طول العنق وهو أعيط ، أي : رقبته طويلة وهي عيطاء والأعيط الأبي الممتنع . والجبل العالي الَّذي لَهُ قمة عالية أعيط . وجبل التّاكة وهو جبل كسلا أعيط ، إذ لَهُ جزء كأنه رقبة طويلة وهو صخرة عالية ممتنعة . وجبل حراء

---

(١) قَالَ سيبويه فِي أول كتابه : «يقولون يدع ولا يقولون ودع استغنوا عنها بترك » . وقال صاحب النهاية « ودع الشيء يدعه ودعا إذا تركة » فالمسألة فيها خلاف ، والصواب أن يقال « يدع كثيرة فِي الاستعمال وودع قليلة وجاءت فِي البيت (٨١) من هَذِه القصيدة .

وهو جبل الوحي وجبل النّور بمكة أعيط .

يقول هَذَا الشّخص بمجهوده التّافه كمثل من يكون مقعيًا فِي قعوده وبيده حجارة يريد أن يرمي بها صخرة فِي رأس جبل رفيع ممتنع وعر المسالك وعر المطلع ، أي : المكان المشرف العالي منه صعب المسالك لا يستطاع الوصول إليه لمن يريد أن يصعده ويطلع من هناك عَلى الدّنيا حوله . المطَّلع ، أي : مكان الاطّلاع ، اسم مكان .

٨٤- هَذِه الصّخرة وعنى بها نفسه وقومه معقل آمن ، أي : حصن حصين ، من أوى إليه وجد الأمن الكامل . وقد حاول زحزحتها الأعادي من قبله فلم يقدروا عَلى ذلك . لم يستطيعوا أن يقتلعوها من مكانها .

٨٥- هَذِه الصّخرة وعنى بها قومه وديارهم كما عنى نفسه وصلابة موقفه ورفعة قدره وشرفه - هَذِه الصّخرة غلبت الأمم مثل عاد ومن جاءوا بعدهم وقد أبت أن تخضع ولذلك لا يمكن إذلالها - ليست تُتضع ، أي : ليست توضع فِي مرتبة وضيعة .

وههنا جاء الشّاعر بمبالغة وغلو لأنّه قد كَانَ من بني يشكر ، وبنو يشكر من بني بكر ، وبنو بكر من القبيلة الكبرى الضّخمة ربيعة ، وربيعة كلهم من بني عدنان ، وعاد من العرب البائدة ، وكان زمان عادٍ قبل زمان سيّدنا إسماعيل الَّذي تنسب إليه قبائل عدنان كلها وقبل زمان سيّدنا إبراهيم الخليل .

وإنما أراد سويد أن يقول : مجدنا قديم وقد غلبنا الأمم القديمة .

٨٦- صخرتنا عالية لا يراها النّاس إلّا وهي فوقهم مشرفة عليهم .

ثم حول الشّاعر صخرته من طبيعة الحجر الجامد الرّاكد فِي مكانه إِلى صفة السيّد المتصرّف . أي : نحن سادة نأتي ما نشاء ونترك - ندع - ما نشاء ولا يرانا النّاس أمثال هَذَا العدو إلّا ونحن فوقهم متصرفون كما نشاء .

٨٧- هَذِه الصّخرة المنيفة ذات الحيويّة والتّصرّف والمجد مشرفة يراها هَذَا الجاهل الحاسد فوقه ومع هَذَا يستمر فِي رميها بحجارته ولن يبلغ من غرضه شيئًا ، شأنه فِي هَذَا شأن الغبي الَّذي يصنع الخطأ ويظن أنّه صواب ويصنع الصّنع الرّديء ويظن أنّه جيد .

الرّعة بكسر الرّاء : الشّأن والهيئة ونصبها ههنا لأنّها فِي معنى المفعول المطلق . يصنع هَذَا العدو هكذا صنيع الجاهل الَّذي يعجبه ما يصنعه وإن كَانَ قبيحًا .

٨٨- أي : استمر يرمي الصّخرة العالية بحجارته الَّتي لا تصنع بها شيئًا حتّى تعب من الرّمي ، وحتى كَمِهَتْ عيناه ، أي : عميتا ، والأكمه هو الَّذي يولد أعمى والكمه العمى الّذي يولد به الأكمه . أو العمي عامّة . وهذا الرّجل اشتد عمى عينيه وأظلمتا فكأنّه ولد أكمه ولم ير النّور قط ، وذلك من شدة شعوره بالغيظ والإخفاق . ولما عميت عيناه اضطره ذلك أن يكف عن الرّمي . فكف كارهًا وهو يلوم نفسه . لَحَى يلحى : لام يلوم . لحاه الله ، أي : لعنه الله . كف هَذَا الرّجل كارهًا وجعل يلوم نفسه حين اضطره عماه إِلى أن يكف عن الرّمي .

٨٩- وذلك حين رأى أنّه لم يضر الصّخرة . وقد بينا أنّ الفعل ضار يضير ضيرًا بمعنى ضر يضر ضرًّا وضررًا ومثل ضار يضور ، وهو غير كثير الاستعمال . هنا يضير أكثر فِي الاستعمال وقرئ به القرءان ، فِي سورة آل عمران الآية : ١٢٠ ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران : ١٢٠] وفِي قراءة أبي عمرو « لا يضِرْكُم » لام نفسه وكف حين رأى أن جهده لم يضر الصخرة ، ورأى أنّها خلفاء ، أي : ملساء لا مطمع فِي زحزحتها أو كسرها أو إيقاع ، أي : ضررٍ بها .

رأى الأولى والثّانية بمعنى أدرك وعلم وأيقن . أو رأى الأولى قلبية والثّانية بصريّة قبل أن يفقد بصره يأسًا وغيظًا .

أو قوله كمهت عيناه مبالغة ، أي : أظلمت الدّنيا فِي عينيه بسبب إخفاقه فكأنه ولد أعمى. جهد جيمها مفتوحة أو مضمومة كلاهما صحيح وجاءتا فِي كتاب الله تعالى . والجُهد هو الطّاقة . أخلق وخلفاء ، أي : أملس وملساء : ملاسة .

٩٠- هَذِه الصّخرة الخلقاء صلبة تكسر قرن من ينطحها ، وإذا رميت بمردي ـ المردي: الحجر الَّذي يرمي به . وقد مر شرحها فِي شرح البيت ٨٣ وإذا رميت هَذِه الصّخرة بحجر انشق ذلك الحجرة وتهشم . انجزع ، أي : انكسر وانقطع .

٩١ - هَـٰذِه الصّخرة إذا رام هَـٰذَا الشّخص ، إذا طلب هَـٰذَا الشّخص زحزحتها عن موضعها أو اقتلاعها أو كسرها أعياه ذلك ولم يستطعه ، وقصَّر به أن يبلغ مراده من زحزحتها وقلعها ضعفه وذلته - ليست لديه العُدة الَّتي يكسرها أو يقتلعها بها وهو هزيل ضعيف . الجدع : سوء الغذاء . جعل هَـٰذَا مثلًا لضعفه . ومن قبل قد قَالَ فِي البيت (٦٢):

وَإِبَـاءً للـدَّنِيّاتِ إِذا أُعطِـيَ المَكثـورُ ضَـيمًا فَكَنَـع

المكثور: القليل النّصير. كقوله هنا: أعيا به " قِلَّةُ العُدَّةِ قِدْمًا والجَدَعْ " - ، أي: قلّة الاستعداد القديمة فِي قومه وفِي أصله ، وسوء الغذاء والضّعف القديم فِي قومه وأهله ونفسه .جعله كأنّه لا عدة لَهُ ولا غذاء يتقوى به. لديه مبالغة فِي تصوير فشله وعجزه.

وهذا آخر الفصل التّاسع وجعله تمهيدًا للفصل العاشر الَّذي يصف فيه مباراة هَـٰذَا العدو لَهُ ، والصّراع البيانيّ والخصومة الَّتي كانت بينهما . ولقد كَانَ من عادة العرب المنافرة ، وذلك أن يختصم الرّجلان إِلى حكم معروف فيتكلم هَـٰذَا ثمَّ هَـٰذَا ويسمع الحكم كلامهما ثمَّ يصدر حكمه ، فمن حكم لَهُ كَانَ هو المنتصر . وكانت المنافرة شعرًا أو خطبة أو هما معًا - والوصف الَّذي ساقه سويد ههنا يدل عَلى أنها كانت شعرًا يذكر فيها فرار شيطان عدوه وانهزامه ، وكانت العرب تزعم أن الشّاعر لَهُ شيطان يعينه.

(٩٢) وعـدوٌّ جاهِـدٍ نَاضَـلْتُهُ فِي تَرَاخِـي الـدَّهْرِ عـنكم والجُمَـعْ

وهذه هي بداية الفصل العاشر . وهو هنا يخاطب قومه وينبههم إِلى أن هَـٰذَا الحاسد الَّذي يكيد لَهُ هو ، بلا شكّ هو أيضًا حاسد لهم وعدو لهم جاهد ، أي : باذل طاقة عظيمة فِي العداوة .

يقول لهم عندما أخذ الزّمان فِي التّراخي يا قوم ، وقلت الجمع ، أي : الجماعات الَّتي تنتصرون بها وتنصركم جاء هَـٰذَا العدو الجاهد فِي عداوته ليوقع بكم الأذى والضّرر فانبريت أنا لَهُ وناضلته فاعرفوا هَـٰذَا من أفعالي . قوله فِي تراخي الدّهر يدل عَلى أنّهم

ضعفوا لتراخي الدّهر عنهم وعدم إعانته لهم، ولتراخي جماعات النّاس عن نصرهم - أخرجهم من هَذَا الضّعف إِلى ما كتبه الله لهم من النّعم والكثرة وإباء الدّنيات ما بذله هو فِي الدّفاع عنهم ورد خصومهم .

(٩٣) فَتَسَاقَيْنَا بِمُرٍ نَاقِعٍ فِي مَقَامٍ لَيْسَ يَثْنِيهِ الْوَرَعْ

وصف الخصومة بينه وبين العدو ، فذكر أنهما تخاصما بوضوح وبكلام مرّ فِي مقام مشهود، لم تثنهما فيه هيبة أو تراجع عن أن يتبادلا من الكلام ما هو كالسّمِ النّاقع من شدّة مرارته .

(٩٤) وشبه تراميهما بمرّ الكلام بالمناضلة وهي المراماة بالسّهام .

وإنما هي سهام البيان والشّعر والخصومة .

قال: رماني هَذَا الخصم ورميته بنبال من القول ، ترامينا بسهام ذات سم قد نقع ، أي : ذات سم شديد من شدة مرارتها .

ترامينا وأعدائي حضور، يرون قوتي ومراماتي لخصمي الَّذي كَانَ يدافع عنهم كما أنا كنت أدافع عن قومي .

(٩٥) ترامينا بنبال مذروبة ، أي : حادّة من نوع لم يقدر عَلى صنعته إِلّا صانع لم يطق : لم يستطع . صنع : صانع ماهر ، تقول رجل صَنَعٌ وصَنَاعٌ وكذلك امرأة صَنَاعٌ وصَنَعٌ ، أي : حاذقة ماهرة فِي صناعتها .

(٩٦) هَذِه النّبال خرجت بسبب عداوةٍ بينة كانت بيننا منذ أيام الشباب ، إذ دهرنا جذع. والجذع هو الشّباب من الخيل ، وكانت قديمة بين قومنا فِي الزّمان الأوّل .

(٩٧) تحارضنا : تقاتلنا قتالًا مريرًا يصير به أحدنا حرضًا ، أي : هالكًا .

وقال بعض الشّراح : تحارضنا ، أي : حرض بعضنا بعضًا وهذا الشّرح غير جيد لأنّ معناه يناقض آخر البيت.

يقول: تقاتلنا قتالًا مريرًا حتّى الموت. وقال المشاهدون والحكام: إنّ الّذي يطلب المعونة هو المنهزم. والقوم الحاضرون إلّا من حكموا بأنّه ضرع ، أي : ضعيف ، إذْ قارب

صاحبه أن يقتله قالوا لَهُ : هَذَا يكفِي ، هو المنهزم وأنت المنتصر .

(٩٨) لما اشتد قتالنا ورأى أني سأهلكه ولَّى هاربًا لا يحمي استه [١] ، لا يحمي دبره ، أي : أعطاني ظهره هاربًا فلو شئت أصبته فِي ظهره ولكنه أعلن الهزيمة، ووقع عنه طائر الإتراف ، أي : البغي والعدوان والغرور وانكشف ضعفه وذله .

(٩٩) خرَّ من الهزيمة عَلى وجهه مكسور الأنف لا يستطيع أن يشمخ بأنفه كما كَانَ يفعل ، مكسور النّفس خاشع العين مذلّة لا يستطيع أن يرفع طرفه وصار بمنزلة الأصمّ الَّذي لا يسمع .

(١٠٠) فر مني ، وهرب شيطان غروره ، شيطان كبريائه شيطان فصاحته وشعره ، فر إِلى حيث لا يجد فائدة ولايستطيع أن يعطي شيئًا أو يمنع مني ما أريد أخذه - هنا آخر الفصل العاشر ويليه الحادي عشر من البيت (١٠١) إِلى (١٠٧) .

(١٠١) هنا يبدأ الفصل الحادي عشر ، فر مني والفرار الآن لا ينفعه ، لأنّ عبء الهزيمة ثقيل عَلى ظهره الَّتي يحملها وهو فار ، وسيضع نفسه فِي مكان مذلة حقير - متضعة، أي : الموضع الَّذي سيضع فِيه نفسه ، سيتضع فيه ، موضع مذلّة ، متضع مذلّة .

مُتَّضع اسم مكان من اتَّضع ، أي : صار وضيعًا أو وضع نفسه فِي موضع ما وهنا هو موضع ذل . أوقر يوقر إيقارًا : تقول أوقرت الدّابة ، أي : وضعت عليها الأوقار ، أي : الأحمال ، واحدها وِقر بكسر الواو وهو موقر الظّهر ، أي : عَلى ظهره أحمال ثقيلة من الهموم أو الهزيمة فِي هَذَا البيت .

(١٠٢) هَذَا العدو رأى مني مقامًا صادقًا ثابتًا صابرًا عَلى الشّدّة شجاعًا إذا أوجعني برميه لم أظهر جزعًا يدلّ عَلى أنّي متألم ، بل أكتم ذلك صبرًا وهو لم يستطع أن يصبر فغلبته .

(١٠٣) ورأى مني لسانًا فصيحًا حسن التّصرف قاطعًا مثل السّيف .

هذا البيت بديع فِي إيجازه وقوة تعبيره وقد تمثل به الدّكتور طه حسين فِي رثائه لسعد

---

(١) الأسماء الَّتي تبدأ بهمزة الوصل عشرة معدودة وهي : ابن وابنة وابنم (بمعنى ابن) واثنان واثنتان وامرأة واسم واست وايمن الله وايم الله .

زغلول باشا الزعيم المصري الكبير.

(١٠٤) يذكر سويد انثيال البيان عليه . فر شيطان خصمه منهزمًا ولكن شيطانه هو جاءه بمدد جديد عندما نفدت مادة خصمه وصار كراكب الحراء الَّذي ذهب جميع الماء الَّذي فِي قربه .

قال : جاءني صاحب ذو إجابة وإغاثة ، ذو غيث ، أي : ذو إجابة وهو زفيان ، أي : خفيف سريع فِي إجابته ، وجاءني عند إنفاد القرع عندما أنفد خصمي قُرعه ، والقرع جمع قُرعة وهي قربة الماء ، أنفدها ، أي : جعلها تنفد ـ نفد الشّيء بفتح النّون وكسر الفاء بعدها دال مهملة ، أي : انتهى وفني والمضارع ينفد بفتح الفاء بعدها دال مهملة . نفد الشّيء نفادًا وأنفده إنفادًا .

(١٠٥) أتاني هَذَا الصّاحب المساعف مندفعًا ناصرًا لي من تلقاء نفسه مَعَ العلم بأنني لم أناده ولم أنفده قرعي كما قد أنفد خصمي قرعه . جاءني صاحبي هَذَا وهو شيطان شعري وقال لي لبيك ، أي : إجابة لك بعد إجابة . وصاحبي هَذَا جريء لا يبالي ، يحتقر النّاس الذين حولي من الخصوم ومن والاهم ويقول القذع ماهرًا فيه ـ القذع: القول المر اللّاذع الموجع.

(١٠٦) صاحبي هَذَا ، عندما أنفد خصمي قرعه وصار مَعين بيانه يابسًا، صاحبي هَذَا جاءني ببحر زاخر من القول . صاحبي هَذَا ذو عباب ، أي : كبحر ذي موج . خمطٍ آذيُّه ، أي : تياره هادر جارف .

خَمِط الفحل فهو خَمِط ، أي : هدر فهو هدَّار وغضب وهاج وفحل خمط ، أي : هائج . وآذيٌّ خمط ، أي : تيار هائج .

الآذيُّ : التّيار . يرمي بالقَلَع ، أي : يرمي

السّفينة ذات الشّراع . القلع: الشّراع جمعه قلوع . والبحر الهائج يكب السّفينة العظيمة فتغرق فيه .

(١٠٧) زغربي ، أي : كثير الماء زاخر . مستعز بحره ، أي : بحره عظيم لا

يستطاع عبوره فهو ذو عزّة ونفور. لعظمه والتطام أمواجه. وليس للماهر فيه مطلع، أي: إشراف مصدر ميمي من اطلع، أي: أشرف، أي: لا يستطيع الماهر أن يرقي فوق أمواجه ويُشرف من فوقها مهما يكن سباحًا أو ملاحًا ماهرًا. هنا بلغ الشّاعر ذروة فخره.

بحره هو زاخر - وأعانه شيطانه ببحرٍ من البيان عظيم فانتصر الانتصار الباهر.

(١٠٨) وأخيرًا يجيء الفصل الأخير وهو بيت واحد، جعله الشّاعر مقطعًا لقصيدته، أي: ختامًا لها:

هَلْ سُوَيْدٌ غَيْرُ لَيْثٍ خَادِرٍ ثَئِدَتْ أَرْضٌ عليهِ فَانْتَجَعْ

هل أنا إلا مثل الأسد الهزبر الباسل الَّذي حين يجد الأرض قد نديت وفسد المكان الَّذي يقيم فيه، يتركه وينتجع غيره؟

تعليق:

١-أول القصيدة:

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ

يشتمل عَلى معنى من الملامة. لما بسطت الحبل وصلناه واستمررنا نواصله ما دام الوصل مستمرًا وما دامت العلاقة واسعة المجال.

هل حدث فِي الأمر تغيير يدعو لمراجعة النّظر - كما ذكرنا، النّسيب الَّذي يبدأ به الشّاعر يتضمن روح المعاني والأغراض الَّتي يريد أن يتناولها. لذلك قَالَ النّاقد ابن رشيق إن الشّاعر إذا انفتح لَهُ نسيب القصيدة «فقد ولج من الباب ووضع رجله فِي الرّكاب».

٢- بعد أن افتخر الشّاعر بقبيلته الكبرى بني بكر وقال عن ديارهم:

(٣٠) مِنْ بَنِي بَكْرٍ بِهَا مَمْلَكَةٌ مَنْظَرٌ فِيهِمْ وفِيهِمْ مُسْتَمَعْ

وبعد أن فخر بقومه الأقربين من بني يشكر وقال:

(٦١) كَتَبَ الرَّحْمنُ، والحَمْدُ لَهُ، سَعَةَ الأخلاقِ فينَا والضَّلَعْ

(٦٢) وإباءً لِلدَّنِيَّات إذَا أُعْطِيَ المُكْثُورُ ضَيمًا فكَنَعْ

بعد هَذَا الفخر نجده يقول :

وعــــدُوٍ جاهـــدٍ نَاضَلْتُــــهُ فِي تَرَاخِي الـدَّهْر عــنكم والجُمَـعْ

وتراخي الدّهر والجمع معناه : أن أحوالهم ساءت وهذا عكس الفخر الَّذي تقدم .
هنا عتاب لقومه أن يعرفوا لَهُ حق دفاعه عنهم وحمايته لهم حين كانوا فِي أشدّ الحاجة إِلى ذلك.

٣-يقول فِي البيت (٦٦) :

كَيْـفَ باسْــتِقْرَارِ حُــرٍ شَــاحِطٍ بِــبِلادٍ لــيسَ فيهــا مُتَّسَــعْ

هو الحرّ الشّاحط . فما هَذِه البلاد الَّتي ليس فيها متسع ؟

هنا الشّاعر يعاتب قومه ويريد أن يقول إن بلاد قومه قد ضاقت عليه لأنّهم لم يعرفوا فضله ولم يقدروه حق تقديره ويذكروا لَهُ دفاعه القويّ عنهم .إذن فليهاجر :

هَــلْ سُــوَيْدٌ غَــيْرُ لَيْــثٍ خَــادِرٍ ثَئِـدَتْ أرْضٌ عليــهِ فَــانْتَجَعْ

اللّيث الخادر هو الكاسر المرهوب الَّذي يربض فِي عرينه وهو خِدْره ، أي : أجمته. والأجمة هي الغابة . ويقال للأسد أيضًا مخدر ومخدر بكسر الدّال وبفتحها أخدر الأسد ، أي : لزم أجمته وهي خدره . وأخدر العرينُ الأسدَ ، أي : ستره فهو مُخْدَر .

تعليق ثان :

وصف سويد نفسه بأنّه هو الَّذي دافع عن قومه وأنّه ناضل عنهم ، والمناضلة هي المراماة بالسّهام . ووصف خصمه بأنّه يروم زحزحة صخرة ملساء عالية يرميها ،وظل يفعل ذلك حتّى تعب وكمهت عيناه .

مع أن الصّخرة الموصوفة جعلها الشّاعر رمزًا لشرف قومه وعزّتهم ورفعتهم ، هي أيضًا رمزًا لَهُ هو . إنه هو الصّخرة الرّفيعة الخلقاء .

الصّورة الَّتي صوّر بها الصّخرة رائعة ، ومما يزيدها روعة أنّه أعطى الصّخرة حيويّة . فهي ليست حجرًا جامدًا ، ولكنها حجر ذو حيويّة وتصرف كما قدمنا ذكر ذلك فِي الشّرح.

وقد تأثر سويد فِي نعته للصّخرة بشعراء كبار سبقوه . من أهمهم وأقدمهم شاعر بني

يشكر الحارث بن حلّزة [١] اليشكريّ صاحب المعلّقة الّتي أوّلها :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

وهي المعلّقة السّابعة فِي ترتيب المعلّقات .

ووصف فيها عزّ قومه وذكر خصومهم وتحدّاهم فقال :

فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَنْمِينَا حُصُونٌ وعِزَّةٌ قَعْسَاءُ

أي : بقينا عَلى عداوتنا لخصومنا ترفعنا حصوننا وعزّتنا العالية الرّفيعة الّتي تغيظهم .

قَبْلَ مَا اليَوْمِ بَيَّضَتْ بعُيُونِ النَّاسِ فيها تَغَيُّظٌ وإبَاءُ [٢]

أي من الدّهر القديم غاظت أعداءها .

صوَّرها هنا بصورة الصّخرة العالية.

قعساء معناها عالية وثابتة وهذه صفة الجبل وصفة صخوره . ثمَّ وصف أعداء قومه من النّاس أنّهم يرومون رمي هَذِه العزّة القعساء وهي ثابته كصخرة الجبل فلا يستطيعون، وقد بيضت بعيون النّاس ، أي : أعمتهم برفعتها وعجزهم عنها ـ وهذا نفس المعنى الّذي جاء فِي قول سويد :

كَمِهَتْ عَيْنَاهُ حتّى ابْيَضَّتَا

وقوله فيها تعيُّط ، أي : ارتفاع رأس وعنق وإباء ، أي : امتناع . ومن هنا أخذ سويد قوله :

(٨٣) مُقْعِيًا يَرْدِي صَفَاةً لم تُرَمْ فِي ذُرَى أعْيَطَ وَعْرِ المُطَّلَعْ

وقد جاء بكلمة الإباء فِي قوله :

---

(١) الحرث والحارث : وجهان فِي الكتابة كما مر فِي الحاشية رقم (٢) عن هارون وهرون ومثل ذلك إبرهيم وإبراهيم وإسمعيل وإسماعيل تكتب بالألف وبدونه وكذلك إسحق وإسحاق .

(٢) قبل ما اليوم : أي قبل اليوم . بيضت بعيون النّاس أي بيضتها وجعلتها عميًا كقولك ذهب به أي صيرة ذاهبًا أو أذهبه ، جعله يذهب . تعيط : ارتفاع ، وقد مر شرح البيت مختصرًا .

(٦٢) وإبـــــاءً لِلــــــدَّنِيَّات إذَا أُعْطِـــيَ الْمُكْثُـــورُ ضَـــيْمًا فكَنَـــعْ

ثم يقول الحارث (كلمة الحارث وهي عَلَم تكتب بوجهين بالألف بعد الحاء وبدونها والوجه الثّاني أكثر عند القدماء) ـ يقول :

وكـــأَنَّ المَنُـــونَ تَـــرْدي بِنَـــا أَرْ عَـــنَ جَوْنًـــا يَنْجـــابُ عَنْـــهُ العَـــماءُ [1]

مُكْفَهِـــرًّا عَـــلى الحَـــوَادِثِ مـــا تَـــأْ تُـــوه للـــدّهْرِ مُؤْيِـــدٌ صَـــمَّاءُ

يقول الحارث كأن الدّهر (المنون) يرمي بحجارته جبلًا أسود اللّون عظيمًا (أرعن) يتفرق السّحاب من حوله مكفهرًا ، شديد السّواد ، عند الحوادث ، يراه الأعداء مكفهرًا من الغضب والقوّة لا تؤثر فيه من حوادث الدّهر الدّاهية، المؤيد: الشّديد الصّماء.

شبه الحارث بن حلّزة قومه بالجبل العظيم ذي الصّخور العظام الشّامخ عَلى الدّهر الَّذي لا يزحزحه من يرميه وقد يئس الأعداء من التّغلب عليه فابيضت عيونهم من الإعياء والإخفاق .نفس الصّورة فصلها سويد ووضحها . صورة الحارث فخمة هائلة .

وصورة سويد كما قدّمناه ذات حركة وتحدٍ شديد ...

وقد نظر سويد أيضًا إلى صخرة الأعشى فِي معنى قريب من معناه حيث قَالَ :

كنـــاطحٍ صـــخرةً يومًـــا ليُوهِنَهـــا فلـــم يضِرْهـــا وأوهـــى قَرْنَـــهُ الْوَعِـــلُ

أي : كثور ينطح صخرة ليكسرها

ويضعفها فلم يضرها ولكنه ضر قرنه ـ قَالَ سويد :

(٩٠) تَعْضِـــبُ القَـــرْنَ إذَا نَاطَحَهَـــا وإذَا صـــابَ بهـــا المِـــرْدَى انْجَـــزَعْ

تعليق ثالث عن بعض محاسن هَذِه القصيدة :

١ -أولًا أبيات الحبّ :إنه يعطى القلوب شجاعة وهي العاشر والحادي عشر ، والبيت الحادي عشر من روائع الشّعر العربيّ ومن أبيات الحكمة :

---

(١) تردي : ترمي . ينجاب : ينكشف . العَماء : السّحاب .

هذا ومن الله التّوفيق وله الحمد أولًا وأخيرًا وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .

وكـذاكَ الحـبُّ مـا أشْجَعَـهُ يَرْكَـبُ الهَـوْلَ وَيَـعْصِي مَـنْ وَزَعْ

٢-ثانيًا وصف السّهر :

(١٢) فأبِيـتُ اللّيـلَ مـا أرْقُـدُهُ وبِعَيْنَـيَّ إذَا نَجْـمٌ طَلَـعْ

(١٣) وإذَا مـا قُلْـتُ لَيْـلٌ قـد مَضَى عَطَـفَ الأَوَّلُ مِنـهُ فَرَجَـعْ

٣- ثالثًا أبيات الحديث الجذّاب من محبوبته وتشبيهه لَهُ بالرّقى الَّتي يداوي بها الملدوغ والملسوع ، لما تحدثه فِي نفس العاشق المشتاق من الشّفاء ، وما تضمّنته من أخبار العرب وخرافاتها حيث زعموا أنّ الوعول تطرب للغناء ويصيدها الصّيّادون به فشبّه نفسه بالثّور الوحشي الَّذي اصطاده صوت محبوبته الرّخيم :

(١٨) ودَعَتْنِـي بِرُقَاهَـا إنَّهَـا تُنْـزِلُ الأعْصَـمَ مِـن رَأسِ الْيَفَـعْ

(١٩) تُسْـمِعُ الحُـدَّاثَ قَـوْلًا حَسَـنًا لـو أرادُوا غَـيْرَهُ لم يُسْـتَمَعْ

٤- رابعًا : الأبيات الَّتي مدح بها قومه بني بكر فِي جملتها فخر جيد ومن أجوده قوله :

(٣٠) مِـنْ بَنِـي بَكْـرٍ بِهـا مَمْلَكَـةٌ مَنْظَـرٌ فِـيهِمْ وفـيهِمْ مُسْـتَمَعْ

(٣١) بُسُـطُ الأيْـدِي إذَا مـا سُـئِلُوا نَفُـعُ النَّائِـلِ إنْ شَيءٌ نَفَـعْ

(٣٢) مِـنْ أُنـاسٍ لَـيْسَ مِـنْ أخْلاقِهِـمْ عَاجِـلُ الفُحْـشِ ولا سُـوءُ الجَـزَعْ

قوله من أناس فيه معنى يالهم من أناس ، ما أعظمهم من أناس .

٥- خامسًا : وصفه للعدو وتصويره لحسده وغيظه وأحقاده ونفاقه تصويرًا دقيقًا حيًّا معبرًا :

(٦٧) رُبَّ مَـن أنْضَـجْتُ غَيْظًـا قَلْبَـهُ قـد تَمَنَّـى لِيَ شَرًّا لم يُطَـعْ

(٦٨) ويَـرانِي كالشَّـجَا فِي حَلْقِـهِ عَسِرًا مَخْرَجُـهُ مـا يُنْتَـزَعْ

(٦٩) مُزْبِـدٌ يَخْطِـرُ مـالم يَـرَنِي فـإذَا أسْـمَعْتُهُ صَـوْتِي انْقَمَـعْ

٦- سادسًا : قوله وهو من أبيات الحكمة المأثورة :

(٧٩) كَيْـفَ يَرْجُـوَن سِـقَاطِي بَعْـدَما لاحَ فِي الـرَّأسِ بَـيَـضٌ وصَـلَعْ

٧- وسابعًا آخر القصيدة كله شديد الحيويّة قويّ العبارات بارع وذلك من البيت الثّاني والتّسعين إلى آخر القصيدة .

جـ ـ القصيدة المادحة [١]

المديح أصل فِي الشّعر العربيّ ، والحكمة قد تتخلّله وقد يختم بها حديثه ، والفخر والرّثاء والهجاء كل أولئك فروع منه أو تبع لَهُ أو منسوبات إليه ، والنّسيب تفتتح به القصائد ؛ ذلك بأنّ الشّعر هو ديوان العرب وسجّل مآثرها وأخبارها ، والشّعراء حكمتها والمتفنّنون بجمال ماضيها وحاضرها ، قَالَ الأعشى :

حَكَّمتُموه فَقَضى بَينكُم أَبلَجُ مِثلُ القَمَرِ الزَّاهِرِ
لا يَأخُذُ الرّشوَةَ فِي حُكمِهِ وَلا يُبالي غَبَنَ الخاسِرِ

وقال زهير يتوعد :

تَعَلَّمَنْ هَا لَعَمْرُ اللهِ ذا قَسَمًا فاقْصِدْ بِذَرْعِكَ وانْظرْ أَين تَنْسَلِكُ
لَئِنْ حَلَلْتَ بجَوٍّ فِي بَنِي أَسَدٍ فِي دِينِ عَمْرٍو، وحالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
لَيَأْتِيَنَّكَ مِني مَنْطِقٌ قَذَعٌ باقٍ، كما دَنَّسَ القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ

وقال أبو تمّام :

إنّ القوافِي والمساعي لم تزل مثل النّظام إذا أصاب فريدا
هي جوهر نثر فإن ألفته بالشّعر صار قلائدا وعقودا
فِي كل معترك وكل مقامة يأخذن منه ذمة وعهودا
فإذا القصائد لم تكن خفراءها لم ترض منها مشهدا مشهودا
من أجل ذلك كانت العرب الألى يدعون هَذَا سؤددا محدودا

---

(١) ألقي البحث في الجلسة الرّابعة للمؤتمر في (٩/ ٢/ ١٩٧٢) .
وانظر : المؤتمر ، الدّورة ٣٨ ، الجلسة ٤ ، البحوث والمحاضرات ، ص ٣٧ (حسن) .

وتنــد عنــدهم العـــلا إلا عُـــلا   جعلــت لهــا مــرر القصــيد قيــودا

وقال أيضًا :

وَلَــولا خِـلالٌ سَـنَّها الشِّـعرُ مـا دَرى   بُغـاةُ النَّـدى مِـن أَيـنَ تُـؤتى المَكـارِمُ

هـذا والمديح لما يحدثه من نشوة وارتياح ، من أجدى وسائل الدّعوة إلى الخير والفضائل ، والهجاء مما يثبط عن الرّذيلة ويكره فيها ، وربّما ذهب به مذهب التّعريض والتّلميح فكان ذلك أبلغ وأعمق أثرًا ، قَالَ زهير بن أبي سلمى فِي هرم بن سنان ، مثلًا :

إِن تَلـقَ يَومًـا عَـلى عِلّاتِـهِ هَرِمًـا   تَلـقَ السَّـماحَةَ مِنـهُ وَالنَّـدى خُلُقـا

لَيـثٌ بِعَثَّـرَ يَصـطادُ الرِّجـالَ إِذا   مـا كَـذَّبَ اللَّيـثُ عَـن أَقرانِـهِ صَـدَقا

يَطعَـنُهُم مـا اِرتَمَـوا حَتّـى إِذا اطَّعَنـوا   ضـارَبَ حَتّـى إِذا مـا ضـارَبوا اعتَنَقـا

هَــذا وَلَـيسَ كَمَـن يَعيـا بِخُطَّتِـهِ   وَسـطَ النَّـدِيِّ إِذا مـا نـاطِقٌ نَطَقـا

فهذا تعريض كما ترى :

وقال أبو الطّيّب ـ وأوشك أن يجاوز به التّعريض إلى نوع من التّصريح ، أم لعل قوّة انفعال عاطفته هو الَّذي يجعلنا نتوهم ذلك ؟

قـالوا هَجَـرتَ إِلَيـهِ الغَيـثَ قُلـتُ لَهُـم   إِلى غُيـوثِ يَدَيـهِ وَالشَّـآبيبِ

إِلى الَّـذي تَهَـبُ الـدَّولاتِ راحَتُـهُ   وَلا يَمُـنُّ عَـلى آثـارِ مَوهـوبِ

وَلا يَـروعُ بِمَغـدورٍ بِـهِ أَحَـدًا   وَلا يُفَـزِّعُ مَوفـورًا بِمَنكـوبِ

لكِـن يَـروعُ بِـذي جَـيشٍ يُجَدِّلُـهُ   ذا مِثلِـهِ فِي أَحَـمِّ النَّقـعِ غِربيـبِ

وَجَـدتُ أَنفَـعَ مـالٍ كُنـتُ أَذخَـرُهُ   مـا فِي السَـوابِقِ مِـن جَـريٍ وَتَقريـبِ

فُـتنَ المَهالِـكِ حَتّـى قـالَ قائِلُهـا   مـاذا لَقينـا مِـنَ الجُـردِ السَّراحيـبِ

وقد كانت العرب تؤثر صراحة القول فِي شعرها وتنفر من مصانعة السّامع بالاختباء عنه وراء افتعال من التّسلية والجدّ ، كالَّذي يقع فِي التّمثيليات والملاحم . وقد يبدو هَذَا

الأسلوب الثّاني أبرع صناعة وأشد افتتانا ، غير أنّ مذهب العرب فِي الصّراحة أسرع إِلَى نفس السّامع لما فيه من الصّدق والوضوح . وقد يؤخذ عَلَى العرب أن خيالهم بدويّ محدود وأن هَذِه البداوة المحدودة الخيال هي الَّتي فرضت عليهم التزام الصّراحة فِي المدح المباشر والذّمّ المباشر وهلم جرّا ، وعندي أنّ هَذَا الرّأي غير صائب ، هَذَا إذا أضربنا عما فيه من روح الشّعوبية والتّحامل عَلَى العرب ، وأصوب منه أن يقال : إنّ كون البدو كانوا جزءًا من العرب متمما لكيانهم غير منفصم منه بحال ، مما أعان عَلَى إيثارهم مذهب الصّراحة ، والتماسهم لها إطارًا بيانيًّا مقتبسًا من ظاهر حياة الأعراب حولهم ، لما كَانَ حضرهم يتوهمونه فيها من البساطة القريبة من الفطرة الأولى ، الَّتي هي البداوة الأولى ، الَّتي هي معدن الخير والفضائل .

وأحسب أنّ مذهب ابن قتيبة فِي مقدمة كتابه الشّعر والشّعراء قريب من هَذَا الَّذي نذهب إليه وذلك حيث يقول : « وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الدّيار والدِّمَن والآثار فبكى وشكا وخاطب الرّبع واستوقف الرّفيق ، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظّاعنين عنها ، إذ كَانَ نازلة العمد فِي الحلول والظعن عَلَى خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إِلَى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كَانَ ، ثمَّ وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة ، ليُميل إليه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأنّ التّشبيب قريب من النّفوس لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فِي تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النّساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلّقًا منه بسبب وضاربًا فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنّه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع لَـهُ ، عقب بإيجاب الحقوق فرحل فِي شعره وشكا النّصب والسّهر وسُري اللّيل وحر الهجير وإنضاء الرّاحلة والبعير ، فإذا علم أنّه قد أوجب عَلَى صاحبه حق الرّجاء وذمامة التّأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره فِي المسير . بدأ فِي المديح فبعثه عَلَى المكافأة ، وهزه للسّماح ، وفضله عَلَى الأشباه ،

وصَغَّر فِي قدره الجزيل ، فالشّاعر المجيد من سلك هَذِه الأساليب وعدل بين هَذِه الأقسام... » . ثمَّ يقول ابن قتيبة : « وليس لمتأخر الشّعراء أن يخرج عن مذهب المتقدّمين فِي هَذِه الأقسام فيقف عَلى منزل عامر ويبكي مشيد البنيان ، لأنّ المتقدّمين وقفوا عَلى المنزل الدّائر والرّسم العافِي ، أو يرحل عَلى حمار أو بغل أو يصفهما لأنّ المتقدّمين رحلوا عَلى النّاقة والبعير ، أو يرد المياه العذاب الجواري لأنّ المتقدمين وردوا عَلى الأواجن الطوامي ... إلخ ...» .

ذلك بأنّ العرب لم يكونوا كلّهم نازلة عمد ، بل كَانَ نازلة المدر منهم أقوى وأبعد أثرًا فِي أمور دنياهم ودينهم جميعًا ، وكان البدو عَلى الجملة مقهورين أو كالمقهورين لهم . وقد حاولت هوازن أن تظهر عَلى قريش فِي حرب الفجار فلم تستطع . وهذا الَّذي وصفه ابن قتيبة من مذهب القصيدة إنّما كَانَ أمرًا متعمدًا مقصودًا اختارته العرب اختيارًا لتتيح لشاعرها أن يواجه سامعيه بصراحته وصدقه من مكان رفيع ، ومظهر البداوة كأنّه نوع من الاعتذار أو الحماية لَهُ ، كأن بساطة مظهره بالبداوة الفكريّة الَّتي هي منهج القصيدة هي سبب صراحته وجسارته عَلى أن يقول ما قَالَ ، والحقيقة عَلى خلاف ذلك ، إذ أنّه قد بدأ من منطلق الصّراحة والصّدق ثمَّ جعل البداوة من بَعْدُ لذلك مظهرًا .

وقد زعموا أنّ التّكسب بالشّعر قد غَضَّ من منزلة الشّاعر ، وما أشبه أن يكون هَذَا من أوهام المتأخّرين . وحديث ابن رشيق فِي هَذَا الباب مضطّرب للغاية ، إذ قد أهمل أمر وفادة علقمة بن عبدة عَلى ملوك غسان ، وتهيَّب زهيرًا فذكر أنه تكسب يسيرًا بالشّعر ، والمرويّ خلاف ذلك . ويوشك المعريّ فِي رسالة الغفران أن يكون قد نبّه إِلى أنّ التّكسب ربّما عد فضيلة ، وذلك فِي الحديث الَّذي ساقه عَلى لسان الأعشى وهو يوبخ نابغة بني جعدة عَلى بعض ما ناله به .

وقد أجاز رسول الله ﷺ كعبًا عَلى اللّاميّة فكان ذلك لَهُ فخرًا ، كما كَانَ عطاؤه ﷺ لصفوان وعيينة ومالك بن عوف فخرًا وتشريفًا لهم ، إذ كانت العرب تفخر بعطاء السّادة والعلية والملوك .

وللشّاعر العربيّ حين ينشد قصيدة المدح موقف بطولة لا ينكر ، تجد هَـذَا الرّوح عند الأعشى حيث يمدح قيس بن معد يكرب فيقول :

وَنُبِّئتُ قَيسًا وَلَمَ أَبلُهُ كَمَا زَعَموا خَيرَ أَهلِ اليَمَن
رَفيعَ الوِسادِ طَويلَ النَّجا دِ ضَخمَ الدَّسيعَةِ رَحبَ العَطَن
فَجِئتُكَ مُرتادَ ما خَبَّروا وَلَولا الَّذي خَبَّروا لَم تَرَن
فَلا تَحرِمَنّي نَداكَ الجَزيلَ فَإِنّي امرُؤٌ قَبلَكُم لَم أُهَن

وقال فِي تفضيله عامرًا عَلى علقمة وقد استشهدنا به من قبل :

حَكَّمتُموه فَقَضى بَينَكُم أَبلَجُ مِثلُ القَمَرِ الزّاهِرِ
لا يَأخُذُ الرَّشوَةَ فِي حُكمِهِ وَلا يُبالي غَبَنَ الخاسِرِ

وتجد هَذَا الروح عند النابغة حتى حين يعتذر :

فَلا لَعَمرُ الَّذي مَسَّحتُ كَعبَتَهُ وَما هُريقَ عَلى الأَنصابِ مِن جَسَدِ
وَالمُؤمِنِ العائِذاتِ الطَّيرِ تَمسَحُها رُكبانُ مَكَّةَ بَينَ الغَيلِ وَالسَّعَدِ
ما قُلتُ مِن سَيِّئٍ مِمّا أَتَيتَ بِهِ إِذًا فَلا رَفَعَت سَوطي إِلَيَّ يَدي
إِذًا فَعاقَبَني رَبّي مُعاقَبَةً قَرَّت بِها عَينُ مَن يَأتيكَ بِالفَنَدِ

وقد زعم ابن رشيق أنّ النّابغة قد كَانَ قادرًا عَلى أن يمتنع عن النّعمان بقومه ولا يخشع لَهُ ، وليس هاهنا خشوع ولكن امتناع بأشرف مما كَانَ يستطيعه قومه ، وما غض ذلك من منزلته بدليل أنّه كَانَ تنصب لَهُ قبة الحكم بعكاظ فيما رووا ، وهو بعد القائل :

هَلّا سَأَلتِ بَني ذُبيانَ ما حَسَبي إِذا الدُّخانُ تَغَشّى الأَشمَطَ البَرِما
يُنبِئكِ ذو عِرضِهِم عَنّي وَعالِمُهُم وَلَيسَ جاهِلُ شَيءٍ مِثلَ مَن عَلِما
إِنّي أُتَمِّمُ أَيساري وَأَمنَحُهُم مَثنى الأَيادي وَأَكسو الجَفنَةَ الأُدُما
وَأَقطَعُ الخَرقَ بِالخَرقاءِ قَد جَعَلَت بَعدَ الكَلالِ تَشَكّى الأَينَ وَالسَّأما

ومدح زهير من يمدحه هو فِي ذات نفسه مشعر بأن قد حباه عطاء جسيمًا . وقد فطن إِلى هَذَا سيدنا عمر رضي الله عنه ونبّه عليه فِي بعض ما روي من خبر مَعَ آل هرم ابن سنان

حين وفدوا عليه ، وتأمل مثلًا قوله :

فَرِحتُ بِما خُبِّرتُ عَن سَيِّدَيكُمُ ... وَكانا اِمرَأَينِ كُلُّ أَمرِهِما يَعلو

رَأى اللهُ بِالإِحسانِ ما فَعَلا بِكُم ... فَأَبلاهُما خَيرَ البَلاءِ الَّذي يَبلو

تَدارَكتُما الأَحلافَ قَد ثُلَّ عَرشُها ... وَذُبيانَ قَد زَلَّت بِأَقدامِها النَّعلُ

فَأَصبَحتُما مِنها عَلى خَيرِ مَوطِنٍ ... سَبيلُكُما فيهِ وَإِن أَحزَنوا سَهلُ

ألا تحس هاهنا أنّه كمن يتحدّث من مكان عال بلسان ذي منزلة جليل مهيب قوله فصل ؟

وقد أحسّ كعب بن زهير ببطولة نفسه وهو ينشد اللّامية رسول الله ﷺ ، وأنّ المقام الّذي أقامه بها عظيم كريم . وتأمّل حيث يقول :

لَقَد أَقومُ مَقامًا لَو يَقومُ بِهِ ... أَرى وَأَسمَعُ ما لَو يَسمَعُ الفيلُ

لَظَلَّ يُرعَدُ إِلّا أَن يَكونَ لَهُ ... مِنَ الرَّسولِ بِإِذنِ اللهِ تَنويلُ

هذا ، وقد كَانَ لبيد بن ربيعة شديد الأسر فصيحًا فحلًا ، تشهد لَهُ بذلك المعلّقة واللّاميّة وغيرهما من الجياد ، فحين قذعه الإسلام أعرض عن قرض الشّعر لما فاتته بطولته ، وقد اعتذر إلى سيدنا عمر رضي الله عنه فقبل منه وأعطاه ولو اتهمه ما فعل ، ثمَّ إن لبيدًا رحمه الله ما كانت لتعجزه فصاحة البدو لو كَانَ ذلك هو المراد .

وقد ظن بعض الأوائل من الشّعراء أنّ تعمق المعاني البدويّة الّتي كَانَ عليها ترتيب القصيدة القديمة هو سر الفحولة . من هؤلاء مثلًا : ذو الرّمة ، وقد أخطأ خطأ اجتهادٍ والله أعلم ، ذلك بأنّ فحولة الشّعر سرها في روح بطولة الشّاعر لا تقمصه سمتا بدويّا وهي الّتي يصدر عنها البيان ذو الصّدق والتّأثير والوضوح ، وإنّما جاءه ومن أشبهه الخطأ فيما يبدو لي من جراء توهمهم أنّ البداوة نفسها هي مادة بطولة الشّعر ومراده وكانوا بها خبراء. وقد أصاب ذو الرّمة براعة في الوصف ، ودقة في التّأمل ، وغوصًا عَلى نوادر ، المعاني ، وتجويدًا بلاغيًّا ذا إبداع ، كقوله مثلًا :

وَتَيهاءَ تودي بَينَ أَرجائِها الصَّبا ... عَلَيها مِنَ الظَّلماءِ جُلٌّ وَخَندَقُ

غَلَلْتُ المَهارى بَيْنَها كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَبَيْنَ الدُّجى حَتّى أراها تَمَزَّقُ

إلا أنّ جهده رحمه الله كأنّه لم يخل من عناء باطل لانحصاره وضيق مداه وكثرة اعتماده عَلى الأخذ . ولا أحسب رؤبة وأباه أخطئا خطأ ذي الرّمة وأصحابه ، لأنّ هذين وجماعة الرّجّاز عامة إنّما راموا إبراز طبيعة جرس اللّغة العربيّة ونغمها الأوّل وطريقة تفكيرها المجرّدة قبل أن تلتوي بها أساليب التّصنيع ، مثلًا قول رؤبة :

وَقَائِمِ الأَعْمَاقِ خَاوِي المُخْتَرَقْ ... مُشْتَبِهِ الأَعْلامِ لَمَّاعِ الخَفَقْ

شَأْزٍ بِمَنْ عَوَّهَ جَدْبِ المُنْطَلَقْ ... نَاءٍ مِنَ التَصْبِيحِ نَائِي المُغْتَبَقْ

تَنَشَّطَتْهُ كُلُّ مِغْلاةِ الوَهَقْ ... مَضْبُورَةٍ قَرْواءَ هِرْجابٍ فُنُقْ

فقوله : المخترق ليس حقًا المراد منه اسم المكان أو المصدر الميمي من اخترق ؛ ولكن المراد به مجرّد المكان ، ولما كَانَ كل مكان من الصّحراء موضع انخراط واقتحام وانخراق سماه مخترقًا ، والمرّاد قاتم الأعماق خاوي المكان ليس إلّا . وقوله : جدب المنطلق لا يعني أن الانطلاق منه جدب أو مكان الانطلاق منه جدب ولكن يعني أنّه هو جدب . وكما يخترق المقبل عَلى الأعماق القائمة فالمعوّه ، أي : المقيم بالموضع الشأز ، أي : الخشن ينطلق متى احتاج إِلى التّصرف والكسب . وتأملك سائر ألفاظ الشّاعر هاهنا يريك أنّه يقصد إِلى مجرّد اقتراح رائحة المعنى أو ظله أو شبحه عليك لا يزيد عَلى ذلك ، مثل قوله : لماع الخفق أي لماع هَذَا الشّيء الَّذي يلتمع أو لماع الالتماع : ولا أستبعد أن يكون مراده لماع الَّذي خفق ، وهلمّ جرّا . وتأمّل قوله أيضًا :

وَبَلَدٍ عامِيَةٍ أَعْماؤُهُ ... كَأَنَّ لَوْن أَرْضِهِ سَماؤُهُ

أَيْهاتَ مِنْ جَوْزِ الفَلاةِ مَاؤُهُ ... يَحْسِرُ طَرْفَ عَيْنِهِ فَضَاؤُهُ

داعٍ دَعَا لَم أَدْرِ ما دُعَاؤُهُ ... أَطَرَبٌ أَمْ وَجْدُ حُزْنٍ داؤُهُ

فَقُلْتُ إِذ أَرَّقَنِي بُكاؤُهُ ... أَنَوْحُهُ رَاعَكَ أَمْ غِناؤُهُ

والعِيسُ فِي مُعْصَوْصِبٍ حِزّاؤُهُ ... يَطْلُبْنَ تَيْماءَ وَمَا تَيْماؤُهُ

يَهْماءَ يَدْعُو جِنَّها يَهْماؤُهُ ... وَالسَّيْرُ مُحْزَوْزِ بِنَا الحْزِيزاؤُهُ

فالمعاني هاهنا إشارات ووحي نحو : «عامية أعماؤه» ، «ما دعاؤه» ، «معصوصب حزاؤه» ، «ما تيماؤه» ، «محزوزا حزيزاؤه» واعتماد الشّاعر الأكبر عَلى صوت النّغم الأصيل.

وقد كَانَ رؤبة وأبوه وفحول الرّجّاز عَلى ثقة من أنفسهم حين لم يهابوا أن يصكّوا ممدوحيهم بصخر الجندل . وكأنّ أبا العلاء حين نعت أسلوبهم بهذا النّعت لم يخل من إعجاب بهم واستشعار بطولة فيهم ، مَعَ أنّه أحلهم منازل من جنته دون منازل الشّعراء ، لأنّهم عنده من أجل انصرافهم إِلى الرّجز ـ وهو دون الشّعر ، بل من سفسافه ـ قد قصروا فقصر بهم ، والله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها أو كما قَالَ .

ويقوي ما نزعمه من أنّ قصد الرّاجز الأوّل إنّما كَانَ إبراز طبيعة فصاحة اللّغة نفسها ما وصلنا من إعجاب الرّواة والعلماء الأوّلين بملكة رؤبة ، فهذا ابن سلام يذكر أنّ رؤبة وقف عَلى باب سليمان بن علي ليستأذن ؛ فقيل لَهُ إنّه قد أخذ الأذريطوس فقال :

يا منزل الوحي عَلى إدريس ... ومنزل اللعن عَلى إبليس
وخالق الاثنين والخميس ... بارك لَهُ فِي شرب إذريطوس

فعرب أذريطوس كما ترى . ونبّه ابن قتيبة فِي الشّعر والشّعراء عَلى أنّ رؤبة كَانَ يقدم عَلى اللّغة ؛ فربّما خالف ما وردت به الصّيغ المعروفة متى استقام لَهُ سياق القول ، قَالَ ابن قتيبة : وأخطأ فِي قوله فِي وصف الخمر :

وشفها اللوح بمأزول ضيّق

ففتح الياء والصّواب ضَيْق وضَيّق . قَالَ : وكذلك قوله :

صوادق العقب مهاذيب الوَلَق

ففتح اللّام ، وإنّما هو الوَلْق وهو سير سريع ، يقال : وَلِق يلق وَلْقا وقال آخر :

جاءت به عيس من الشام تلق

وقال رؤبة أيضًا :

تهوي إذا هن ولقن ولقا

قال : وقال يصف الرّامي :

لا يلتـــوي مـــن عـــاطس ولا نغـــق

إنما هو النّقيق والنَّقاق وجاء بشيء بينهما ... إلخ .

وننبه هاهنا عَلى قول ابن قتيبة : «وجاء بشيء بينهما» فهو فِي معنى ما كنا فيه من نعت طريقة رؤبة ، ثمَّ كأنه تلافى به قوله : «أخطأ» من قبل إذ كيف يقول فيه «أخطأ» وهو يستشهد بكلامه ورؤبة رحمه الله كَانَ ممن يحتج بهم لا عليهم ، وذكروا أنّ ثلاثة أخوة رجّاز من بني سعد ، نُذَير ومنذر أو منتذر ـ أو منيذر ـ لم يأتوا الأمصار فذهب رجزهم يقال : إنّ قافية رؤبة كانت لأحدهم وهو منتذر ، ولولا خوف الغلوّ لزعم الرّواة أنّ هؤلاء كانوا من الجنّ لا من بني سعد . وحسد رؤبة عَلى ملكته أو الإعجاب به فِي طي هَذَا الخبر غير خاف .

هذا وعندي أنّ غزل عمر بن أبي ربيعة ـ وجميل وأصحابهما ـ كَانَ إذا تأمّلته أقرب إِلى منهج الشّعر العربيّ الصّادق الأصيل من منهج ذي الرّمة ، وإنّما أخفى هَذَا منه ما كَانَ يخامر أصناف الغزل من ارتياح النّفوس إليها بطبيعة ما جبلت عليه . وفِي عمر بن أبي ربيعة ، عدا أشياء قليلة مختارة منه ، سطحية عبث لا تستحق الخلود ، وفِي جميل عَلى صدق صبابته الَّذي رووا فتور فِي التّعبير ولين عدا أشياء قليلة مختارة أيضًا ، وقد اجتهد كثيِّر وتعصب لَهُ أهل الحجاز وله شعر حسن ، إلّا أنّه لم يبلغ مستوى الفحول الأربعة المشهورين : جرير والفرزدق والرّاعي والأخطل . والغزل الإسلامي باب يفرد لَهُ الحديث ويطال فلا تكفِي فيه مثل هَذِه العجالة ، وإنّما أردنا إِلى مجرّد الإيماء ثمَّ نعود إِلى ما كنّا فيه من حديث القصيدة والمديح .

وعسى ألّا نخطيء إن قلنا : إن إمساك لبيد رحمه الله عن الشّعر يمثل نهاية طور فِي القصيدة هو الطور القديم ، وقصائد الشّماخ ومزرد وأشباههما إنّما كانت أطلالا من القصيدة القديمة دارسة كالرّسوم الَّتي تصف ، ومثلها يستشهد به ويوقف عنده كقول الشّماخ مثلًا :

وَسيطَةُ قَومٍ صالِحينَ يَكُنُّها مِنَ الحَرِّ في دارِ النَّوى ظِلُّ هَودَجِ
مُنَعَّمَةٌ لَم تَلقَ بُؤسَ مَعيشَةٍ وَلَم تَغتَزِل يَومًا عَلى عودِ عَوسَجِ
هَضيمُ الحَشا لا يَملأُ الكَفَّ خَصرُها وَيُملأُ مِنها كُلُّ حِجلٍ وَدُملَجِ
تَميحُ بِمِسواكِ الأَراكِ بَنانُها رُضابَ النَّدى عَن أُقحُوانٍ مُفَلَّجِ
وَإِن مَرَّ مَن تَخشى اِتَّقَتهُ بِمِعصَمٍ وَسِبٍّ بِنَضحِ الزَّعفَرانِ مُضَرَّجِ
وَتَرفَعُ جِلبابًا بِعَبلٍ مُوَشَّمٍ يَكُنُّ جَبينًا كانَ غَيرَ مُشَجَّجِ
تَخامَصُ عَن بَردِ الوِشاحِ إِذا مَشَت تَخامُصَ حافي الخَيلِ في الأَمعَزِ الوَجي

فهذا عَلى ما قاله من صقل الصناعة خشن .

هذا وقد كَانَ أوائل الأئمّة والهداة من رفعة المنزلة بحيث تهيبهم الشّعراء فضمروا إلّا هَذِه الأصوات البدويّة الّتي إنّما هي بقايا ماض رثة كما قدمنا . ثمَّ إنّ الحطيئة جسر عَلى هتك حجاب الهيبة بنجد حيث هجا الزبرقان ومدح بغيضًا . وفتن النّاس بها فتنهم فشكوه إِلى عمر فما لبث أن واجه عمر بصدق القول ليعتذر ويدافع عن نفسه ، وكان لَهُ فِي الَّذي صنع كعب بن زهير من قبل ، عندما كادت القصيدة القديمة تؤذن بسلام قدوة صالحة :

ماذا تَقولُ لِأَفراخٍ بِذي مَرَخٍ حُمرِ الحَواصِلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ
أَلقَيتَ كاسِبَهُم في قَعرِ مُظلِمَةٍ فَاغفِر عَلَيكَ سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ
أَنتَ الأَمينُ الَّذي مِن بَعدِ صاحِبِهِ أَلقَت إِلَيكَ مَقاليدَ النُّهى البَشَرُ
ما آثَروكَ بِها إِذ قَدَّموكَ لَها لَكِن لِأَنفُسِهِم كانَت بِكَ الأَثَرُ

وهذا كما ترى هو النّفس الفحل القديم . ثمَّ جاء الفرزدق وجرير والأخطل ففتحوا الباب عَلى مصراعيه وأحدثوا فِي قصيدة المدح طورها الثّاني الإسلاميّ . ومن عجائب الاتفاق أنّ الحطيئة المخضرم الَّذي راد هَذِه السّبيل كَانَ شاهدًا حين قدم الفرزدق عَلى سعيد بن العاص يستجير به من زياد ويمدحه وينتصف لنفسه :

إِلَيكَ فَرَرتُ مِنكَ وَمِن زِيادٍ وَلَم أَحسِبْ دَمِي لَكُما حَلالا

فَــإِنْ تَــكُ فِي الهِجــاءِ تُرِيــدُ قَــتْلِي فَلَــم تُــدْرِك لمنــتَصِرٍ تَبَــالا
وَإِنْ يَكُــنِ الهِجَــاءُ أَحَــلَّ قَــتْلِي فَقَــدْ قُلْنــا لِشَــاعِرِهِمْ وقَــالا
تَــرَى الغُــرَّ الجَحَــاجِحَ مِــن قُــرَيشٍ إِذا مَــا الأَمْــرُ فِي الحَــدَثانِ غَــالا
بَنِــي عَــمِّ النَّبِــي وَرَهْــطَ عَمْــرٍو وَعُــثْمانَ الَّــذِين عَلَــوْا فِعَــالا
قِيامًــا يَنْظُــرُونَ إِلى سَــعِيدٍ كَــأَنَّهُمُ يَــرَوْنَ بِــهِ الهِــلالا

فلم يملك الحطيئة أنّ أظهر استحسانه لهذا الكلام الرّائع .

وعسى أن يقال إنّ قصيدة المدح فِي طورها الإسلامي الجديد أقلّ صفاء من قصيدة المدح القديمة وليست بأقل صدقًا ؛ ولعلّها أعنف بطولة ، وإنّما اعتراها الكدر من اختلاف الظّروف ، فقد كانت قصيدة المدح الجاهليّ تبين وتسجل قيما من فضائل المجتمع مسلّما بها مجمعا عليها ، ولكن قصيدة المدح الإسلامية مشوبة القيم ، وربّما نظرت أحيانًا كثيرةً إلى فضائل جاهليّة ينفر منها الإسلام ، كدعوى العصبيّة مثلًا :

وَمِنّـا الَّـذي سَـلَّ السُّـيوفَ وَشـامَها عَشِــيَّةَ بــابِ الــقَصرِ مِنفَرَغــانِ
عَشِــيَّةَ لَم تَمنَــع بَنيهــا قَبيلَــةٌ بِعِــزٍّ عِراقِــيٍّ وَلا بِــيَمانِ
عَشِــيَّةَ مــا وَدَّ اِبــنُ غَــرّاءَ أَنَّــهُ لَــهُ مِــن سِــوانا إِذ دَعــا أَبَــوانِ
عَشِــيَّةَ وَدَّ النّــاسُ أَنَّهُــمُ لَنــا عَبيــدٌ إِذا الجَمعــانِ يَضــطَرِبانِ
سَــيَجزي وَكيعًــا بِالجَماعَــةِ إِذ دَعــا إِلَيهــا بِسَــيفٍ صــارِمٍ وَسِــنانِ
خَبــيرٌ بِــأَعمالِ الرِّجــالِ كَــما جَــزى بِبَــدرٍ وَبِــاليَرموكِ فَيءَ جَنــانِ

وكتزكية السياسة الصارمة الّتي تريق الدم ، قَالَ جرير :

مــن ســدّ مطّلــع النّفــاق علــيكم أم مــن يصــول كصــولة الحجّــاج
أم مــن يغــار عَــلى النّســاء عشــيّةً إذ لا يــثقن بغــيرة الأزواج
إِنَّ اِبــنَ يوسُــفَ فَــاِعلَموا وَتَيَقَّنــوا مــاضي البَصــيرَةِ واضِــحُ المِنهــاجِ
مــاضٍ عَــلى الغَمَــراتِ يُــمضي هَمَّــهُ وَاللَّيــلُ مُختَلِــفُ الطَّرائِــقِ داجــي

مَنَعَ الرُّشا وَأَراكُمُ سُبُلَ الهُدى وَاللِّصَّ نَكَّلَهُ عَنِ الإِدلاجِ
فَاستَوسِقوا وَتَبَيَّنوا سُبُلَ الهُدى وَدَعوا النَّجِيَّ فَلَيسَ حينَ تُناجي
يا رُبَّ ناكِثِ بَيعَتَينِ تَرَكتَهُ وَخِضابُ لِحيَتِهِ دَمُ الأَوداجِ
إِنَّ العَدُوَّ إِذا رَمَوكَ رَمَيتَهُم بِذُرى عَمايَةَ أَو بِهَضبِ سُواجِ
وَإِذا رَأَيتَ مُنافِقينَ تَخَيَّروا سُبُلَ الضَّجاجِ أَقَمتَ كُلَّ ضَجاجِ
داوَيتَهُم وَشَفَيتَهُم مِن فِتنَةٍ غَبراءَ ذاتِ دَواخِنٍ وَأُجاجِ
إِنّي لَمُرتَقِبٌ لِما خَوَّفتَني وَلَفَضلِ سَيبِكَ يا ابنَ يوسُفَ راجي
وَلَقَد كَسَرتَ سِنانَ كُلِّ مُنافِقٍ وَلَقَد مَنَعتَ حَقائِبَ الحُجّاجِ

على أنّ جريرًا يقارب روح الدّين هنا جهد المستطاع .

وقد ابتكر جرير وأصحابه النّقائض أو افتنوا فيها عَلى نحو لم يسبقوا إليه ، وأتاح لهم ذلك أن يجمعوا بين أصناف فنون الشّعر ولا سيما الفخر والهجاء مَعَ المدح ، وقد يطيلون الغزل هازلين كما فِي مقدمة الفائية :

عَزَفتَ بِأَعشاشٍ وَما كِدتَ تَعزِفُ وَأَنكَرتَ مِن حَدراءَ ما كُنتَ تَعرِفُ

أو بصبابة حرى كما فِي نسيب :

مَتى كانَ الخِيامُ بِذي طُلوحٍ سُقيتِ الغَيثَ أَيَّتُها الخِيامُ

وقد جاءوا فِي النّقائض بالمنديات الّتي ينفر منها الدّين كل النّفور ، وربّما نفرت عنها أذواقنا لعدم الإلف . ونحن نألف شرًّا منها فِي أساليب أخرى ، وليس ها هنا موضع البسط والتّفصيل .

هذا وانصراف أبي العتاهية إِلى الزّهد وبشار إِلى الزّندقة فيهما كالشّبه من انصراف لبيد عن القصيدة القديمة . ولقد بعدت الشّقّة بين الشّاعر والملوك عَلى زمانها أيّما بعد ، إذ كَانَ الملوك فِي الذّروة من السّيادة العربيّة وكان أكثر الشّعراء المولدين أدعياء فِي القبائل أو موالي مجاهيل ، فكان حجاب الهيبة بين الفريقين عظيما لا يستطاع خرقه إلا بثورة زندقة أو

إحجام زهد . وكلا هذين لم يصنع كبير شيء . ولقد حاول الشّعراء أن يرفعوا أصواتهم بالتّفاصح البدويّ الجهارة ، كقول بشّار مثلًا :

إذا نكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مَعَ البازي عليَّ سواد

أو كقوله :

إِذا المَلِكُ الجَبّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشَينا إِلَيهِ بِالسُّيوفِ نُخَاطِبه

ولكن هَذَا كَانَ شيئًا رثا باليًا بالنّسبة للأخطل وجرير وجيلهما ، هَذَا وقد قدموا بشارًا عَلى المحدّثين لافتنانه فِي ضروب الغزل والمدح والفخر والهزل والجد ، ولأنّه كَانَ مخضرمًا بين الدّولتين ومدح ملوكها ، وأحسب أنّ أبا نوّاس أولى بالتّقديم ، ويوشك الجاحظ فِي البيان والتبيين أن يقول بهذا وكأن قد فعل ، ولقد كَانَ مقام أبي نواس فِي ارتياد سبيل الطّور الثّالث من أطوار قصيدة المدح مماثلًا لمقام الحطيئة الَّذي أشرنا إليه من قبل .

ذلك بأنّه رام سد الشّقّة الأدبيّة الشّاسعة المدى بين نفسه وبين الملوك بما رامه أبو العتاهية وبشار من زهد ومجون وتزندق ، ثمَّ نفر من هَذَا إِلى شيء من الجهد الأصيل المبدع ، وذلك أنّه جعل شعره فِي أدب المنادمة فأتاح لَهُ هَذَا من روح البطولة الَّتي تقوى عَلى هتك حجاب الهيبة ما لم يتح لغيره ، وحسبك عَلى هَذَا شاهدًا رائيته الَّتي قالها فِي الخصيب وإنّما ارتحل لينادمه :

تَقُولُ الَّتي مِن بَيْتِها خَفَّ مَرْكَبِي أَقُربُكَ دان أَمْ نَوَاكَ بَعِيدُ

فقلتُ لها واستعجلتْها بوادرٌ جرتْ فجرى فِي جَريهن عَبيرُ

ذريني أكثر حاسديك برحلةٍ إِلَى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ

إذا لَمْ تَزُر أَرضَ الخَصيبِ رِكابُنا فَأَيَّ فَتىً بَعدَ الخَصيبِ تَزورُ

فَتىً يَشتَري حُسنَ الثَّناءِ بِمالِهِ وَيَعلَمُ أَنَّ الدّائِراتِ تَدورُ

فَمَن يَكُ أمسى جاهِلًا بِمَقالَتي فَإِنَّ أَميرَ المُؤمِنينَ خَبيرُ

وَما زِلتَ توليهِ النَّصيحَةَ يافِعًا إِلى أن بَدا فِي العارِضَينَ قَتيرُ

وهو بعد القائل :

وَدارِ نَــدامى عَطَّلوهــا وَأَدلَجــوا بِهــا أَثَــرٌ مِــنهُم جَديــدٌ وَدارِسُ

مَساحِبُ مِن جَرِّ الزِّقاقِ عَلى الثَّرى وَأَضــغاثُ رَيحــانٍ جَنِــيٌّ وَيــابِسُ

أَقَمنــا بِهــا يَومًــا وَيَومًــا وَثالِثًــا وَيَومًــا لَــهُ يَــومُ التَّرَحُّــلِ خــامِسُ

تُــدارُ عَلَينــا الــرّاحُ فِي عَســجَدِيَّةٍ حَبَتها بِــأَلوانِ التَّصــاويرِ فــارِسُ

فَلِلــراح مــازُرَّت عَلَيــهِ جُيوبُهــا وَلِلــماءِ مــادارَت عَلَيــهِ القَلانِــسُ

فليس صوت الشّاعر هاهنا بخفيض ، ولا مقامه بدون ، ولا مجلسه من أمير المؤمنين بقصيٍّ ، ويخطئ من التمس صفات الخمر في شعر أبي نوّاس يحسب أنّ لَهُ فيها الجديد المبتكر ، فإنّ علقمة في الميمية :

كَــأسُ عَزيــزٍ مِــنَ الأَعنــابِ عَتَّقَهــا لِــبَعضِ أَربابِهــا حانِيَّــةٌ حــومُ

ـ بله الأعشى ـ يوشك أن يكون سبقه إلى كلّ شيء من حيث حاق النّعت ، وإنّما المبتكر عند أبي نوّاس هو حديث المنادمة نفسه وأسلوبها وما ضمن ذلك من فضل وعلم غزير ، مثلًا :

لا تحظر العفو إن كنت أمرءًا ورعًا فــإنّ حظركــه بالــدّين إزراء

فَأَتــاكَ شَيءٌ لا تُلامِسُــهُ إِلّا بِحِــسِّ غَريــزَةِ العَقــلِ

ونحو هَذَا من لغة مثقفي ذلك العهد عنده كثير ، وهذا باب يوقف عنده طويلًا وليس هاهنا مجال ذلك ، ويعجبني قول أبي نواس في الفضل البرمكي :

إِلَيكَ أَبا العَبّاسِ مِن دونِ مَن مَشى عَلَيهــا امتَطَينــا الحَضرَمِــيَّ المُلَسَّــنا

أي ليس لنا عليك ، إن كَانَ ذلك لا يكون إلا بالسّهر والنّصب وإنضاء الرّاحلة ، من حق نوجبه ، ولكنّك جزل كريم من زارك حبوته :

قَلائِصُ لَم تُسقِط جَنينًا مِنَ الوَجى وَلَم تَــدرِ مــا قَــرعُ الفَنيــقِ وَلا الهَنــا

نَــزورُ عَلَيهــا مَــن حَــرامٌ مُحَــرَّمٌ عَلَيــهِ بِــأَن يَعــدو بِزائِــرِهِ الغِنــى

كَــأَنَّ لَدَيْــهِ جَنَّــةً بابِلِيَّــةً دَعــا يَنعُهــا الجُنّــاءَ مِنهــا إلى الجَنــى
أَغَــرُّ لَــهُ ديباجَــةٌ ســابِرِيَّةٌ تَــرى العِتــقَ فيهــا جارِيًــا مُتَبَيِّنــا

هذا وقد قرع أبو نواس باب التّجديد وفتحه أبو تمّام عَلى مصراعيه ببطولة شعريّة رائعة : وأحسب أنّه مما أعان أبا تمّام أنّ المعتصم كَانَ رجل جند وقتال ، وكان حظه من علوم القلم ضئيلا ، فوكل أمر ذلك جميعًا إِلى عارفيه من وزرائه ومستشاريه كابن الزّيّات وابن أبي دُوَاد ، ولم يكن مدى المنزلة بينه وبين هؤلاء شاسعًا كالّذي كَانَ بين بشّار وأمير المؤمنين المهديّ أو أبي جعفر مثلا ، بل لعلّ أبا تمّام لنسبه فِي طيـيء مَعَ الّذي كَانَ لَهُ من غزارة العلم وفرط الذّكاء يستشعر حقيقة علوٍّ عَلى كثير من رجال البلاط ، ومن عجائب مذهب أبي تمّام ، وليس هاهنا موضع بسطه وتحليله ، أنّه فطن إِلى ما رامه أوائل مقصّدي القصيد من التّبدّي طلبًا لمقاربة الفطرة الأولى ، فعمد إِلى ذلك فصنعه بزيّ حضاريّ ، مدار النّسيب وصفة الأطلال والرّحلة فيه كلّه عَلى إعمال الرّوية والفكر وزخرفة هندسة الألفاظ . ولا ريب أنّ النّاس كانوا يسافرون بالإبل ويقاسون المشاقّ ؛ لأنّ الطيّارات وما لدينا من وسائل الدّعة والسّرعة لم تخترع آنئذ ، ولكنّهم لم يكونوا يحسون من قوة العلاقة والألفة بينهم وبين الإبل ما كَانَ يحسه الجاهليّ ، كالّذي نجده مثلا عند علقمة حيث قَالَ :

هَــداني إِلَيــكَ الفَرقَــدانِ وَلاحِــبٌ لَــهُ فَــوقَ أَصــواءِ المِتــانِ عُلــوبُ
بِهــا جِيَــفُ الحَسرى فَأَمّــا عِظامُهــا فَبِــيضٌ وَأَمّــا جِلــدُها فَصَــليبُ
إِلى الحــارِثِ الوَهّــابِ أَعمَلــتُ نــاقَتي لِكَلكَلِهــا وَالقُصرَيَــينِ وَجيــبُ

ولقد ارتحل أبو تمّام إِلى عبد الله بن طاهر فقال :

وَرَكــبٍ كَــأَطرافِ الأَسِــنَّةِ عَرَّســوا عَــلى مِثلِهــا وَاللَّيــلُ تَســطو غَياهِبُــه
لِأَمــرٍ عَلَــيهِم أَن تَــتِمَّ صُــدورُهُ وَلَــيسَ عَلَــيهِم أَن تَــتِمَّ عَواقِبُــه

فأشعرنا منذ البدء أنّ أرب الرّحلة لا الرّحلة هو همه ، ثمّ حين وصف الرّحلة لم يلتفت منها إلّا إِلى خشونة الشّقّة فاحتال عليها بنوع حجاب من الزّخرفة .

عَــلى كُــلِّ مَــوّارِ المَــلاطِ تَهَــدَّمَت عَريكَتُــهُ العَليــاءُ وَانضَــمَّ حالِبُــه

رَعَتـهُ الفَيـافِي بَعـدَما كـانَ حِقبَـةً رَعاهـا وَمـاءُ الـرَّوضِ يَنهَـلُّ ساكِبُه
فَأَضحى الفَلا قَد جَدَّ فِي بَريِ نَحضِهِ وَكـانَ زَمانًـا قَبـلَ ذاكَ يُلاعِبُـه
فَكَم جِذعِ وادٍ جَبَّ ذِروَةَ غارِبٍ وَبِالأَمسِ كانَت أَتمَكَتـهُ مَذانِبُـه
إِلَيكَ جَزَعنا مَغرِبَ الشَّمسِ كُلَّما هَبَطنا مَلًا صَلَّت عَلَيكَ سَباسِبُه

وكأنّ ذا الرّمة رحمه الله ما اجتهد اجتهاده كلّه إلا لينهبه أبو تمّام ، وقد جعل أبو تمّام من نفسه ناطق الفكر المعبّر عن جلال بهاء الملك ، وحضارة دار الإسلام ، وعز دولة العرب ، وهذه كما لا يخفى درجة متّصلة بما مهده أبو نوّاس من معنى المنادمة ولكنّها أسمى منزلة وأرفع قدرًا :

وقد اتبع البحتري نهج أبي تمّام وكان للمتوكل نديمًا .

ثم جاء أبو الطّيّب فملأ الدّنيا وشغل النّاس وهو القائل .

أَنا السّابِقُ الهادي إِلى ما أَقولُهُ إِذِ القَولُ قَبلَ القائِلينَ مَقولُ
وَما لِكَلامِ النّاسِ فيما يُريبُني أُصولٌ وَلا لِلقائِليهِ أُصولُ
أُعادي عَلى ما يوجِبُ الحُبَّ لِلفَتى وَأَهدَأُ وَالأَفكارُ فِيَّ تَجولُ
سِوى وَجَعِ الحُسّادِ داوِ فَإِنَّهُ إِذا حَلَّ فِي قَلبٍ فَلَيسَ يَحولُ
وَلا تَطمَعَن مِن حاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ وَإِن كُنتَ تُبديها لَهُ وَتُنيلُ

وقد بلغ أبو الطّيّب بالقصيدة في طورها هَذَا الثّالث الذّروة الرّفيعة . وما أحسب أن ابن الأثير رحمه الله قد أخطأ التّقدير حين زعم أنّ أبا تمّام والبحتريّ وأبا الطّيّب هم لات الشّعر وعزاه ومناته الذين انتهت إليهم حسناته ومستحسناته ، وقد ذكر أنّ أبا تمّام ربّ معان وصيقل ألباب وأذهان ، وأنّ البحتريّ أجاد سبك اللّفظ عَلى المعنى وأراد أن يشعر فغني . وقال عن أبي الطّيّب إنه رام شأو أبي تمّام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشّعر من قيادة ما أعطاه . وما أظنّ إلا أنّ كراهة ما نسب إلى أبي الطّيّب من دعوى النّبوّة هي الّتي جرت عليه كراهة تقديمه ، إذ آخر كلامه كأنّه جزم بتقديمه ، إذ قد جعله خاتم الشّعراء وأنشد قوله :

لا تَطلُبَنَّ كَرِيمًا بَعدَ رُؤيَتِهِ … إنَّ الكِرامَ بِأَسخاهُم يَدًا خُتِموا
وَلا تُبالِ بِشِعرٍ بَعدَ شاعِرِهِ … قَد أُفسِدَ القَولُ حَتّى أُحمِدَ الصَّمَمُ

ولا يكون خاتم الشّعراء بعد الّذي عدد من مآثره إلا أجودهم . ولله درّ الذّهبيّ رحمه الله حيث لم يتردد وقال : ليس فِي العالم أحد أشعر منه ، أمّا مثله فقليل . هَذَا وقد نظم أبو العلاء شعرًا جيدًا فِي سقط الزّند ، ثـمَّ انصرف إِلى الزّهد والحكمة وألوان من الفلسفة ، ونصّ عَلى هَذَا الانصراف فِي مقدمته لكتابه لزوم ما لا يلزم ، ونبه عليه واعتذر بأنّ الشّعر باب من أبواب الباطل . ولا نباعد إن شبهنا انصرافة أبي العلاء هَذِه بانصرافتي أبي العتاهية ولبيد من قبل .

ولا أحسبنا نخطئ إن سميناها الانصرافة الثّالثة المنبهة عَلى نهاية الطّور الثّالث ، كما أنّ الانصرافتين اللّتين من قبلها نبهتا عَلى نهاية الطّور الأوّل ؛ طور القصيدة الجاهليّة ، والطّور الثّاني طور القصيدة الإسلامية .

على أنّ انصراف أبي العلاء كَانَ يحمل فِي داخله عناصر تمهيد وارتياد لآفاق جديدة . من ذلك مثلا أنّ ديوان لزوم ما لا يلزم فيه أبيات حسنة فِي مدح الرسول ﷺ ، وذلك حيث يقول :

دَعاكُم إِلى خَيرِ الأُمورِ مُحَمَّدٌ … وَلَيسَ العَوالي فِي القَنا كَالسَّوافِلِ
فَصَلّى عَلَيهِ اللهُ ما ذَرَّ شارِقٌ … وَما فَتَّ مِسكًا ذِكرُهُ فِي المَحافِلِ

وقد جاء بعد زمان أبي العلاء شعراء أو لو نفس من الفحولة مثل الطّغرائيّ والأبيورديّ . غير أنّ فحولة الشّعر الحقة ما لبثت أن انتقلت من قصائد الدّنيا إِلى قصائد الدّين ، وقد بلغ البوصيريّ رحمه الله فِي هَذَا مبلغًا عظيمًا وكان إذا نظم فِي شيء من أصناف الشّعر غير النبوي باخ نفسه ، فإذا أخذ فِي مديح الرّسول ﷺ انفعل بعاطفة دفوق وهو القائل :

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَونَينِ والثَّقَلَينِ … والفَرِيقَينِ مِنْ عُربٍ ومِنْ عَجَمِ
نَبِيُّنا الآمِرُ النّاهِي فَلا أَحَدٌ … أَبَرَّ فِي قَولِ لا مِنهُ وَلا نَعَمِ

دَعَــا إِلَى اللهِ فالْمُسْتَمْسِــكُونَ بِــهِ مُسْتَمْسِـكُونَ بِحَبْـلٍ غَـيرِ مُنْفَصِـمِ
دَعْ مَــا ادَّعَتْــهُ النَّصَــارَى فِي نَبِــيِّهِمِ وَاحْكُـمْ بِـما شِئْتَ مَدْحًا فيـهِ واحْتَكِمِ
فَــإِنَّ فَضْــلَ رَسُــولِ اللهِ لَــيسَ لَــهُ حَــدٌّ فَيُعْـرِبَ عنـه نَـاطِقٌ بِفَـمِ
لَــو نَاسَــبَتْ قَــدْرَهُ آيَاتُــهُ عِظَــمًا أَحْيا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ
لَمْ يَمْتَحِنَّــا بِــما تَعــي العُقُــولُ بِــهِ حِرْصًـا علينـا فلـمْ نرتـب ولَمْ نَهَـمِ
أَعْيَا الـوَرَى فَهْـمُ مَعْنَاهُ فلـيس يُـرَى فِي القُـرْبِ والبُعْـدِ فيـهِ غَـيرُ مُـنْفَحِمِ
كَالشَّمْسِ تَظْهَـرُ لِلْعَيْنَـينِ مِـنْ بُعُـدٍ صَـغِيرَةً وَتُكِـلُّ الطَّـرْفَ مِـنْ أَمَـمِ
فَمَبْلَــغُ العِلْــمِ فيــهِ أَنَّــهُ بَشَرٌ وأَنَّــهُ خَــيرُ خَلْــقِ اللهِ كُلِّهِــمِ

ومؤرخو الأدب يغفلون عن قصيدة المدح النّبويّ وينسبون إِلى الفترة الطّويلة الَّتي ازدهرت فيها جمودًا روحيًّا شعريًّا هي منه براء . وإِنّما غرتهم فِي هَذَا الباب ركاكة نماذج الشّعر غير الدّينيّ الجوهر ، إذ كانت أكثرها من قبيل نظم المناسبات الَّذي يراد به التّظرّف والمفاكهة ، كأن يهنأ به مثلا عند تزويج أو يؤرخ به مولد غلام ، ولا يجد فيه بعاطفة ذات صدق وانفعال ، وعسى من يجد ألّا يتجاوز طريقة مذهب العلماء مقتديًا بمقصورة ابن دريد أو لامية ابن الورديّ فِي الحكم ، وربّما توسط قوم بين صناعة البديع ومدح الشّفيع عليه الصلاة والسّلام ، كالَّذي صنع ابن حجة وابن جابر وكثير من أدباء المغرب . هَذَا وقد يتهم البّاروديّ بالتّقليد وربّما عيب عليه ما تكلف من ركوب الصّاد والطّاء وتشبيه نفسه بالقطامي فوق المرقب العالي ، ونحو ذلك من ضروب التّأبد الَّتي يوشك أن يشبه بها ذا الرّمة والشّماخ وأصحاب شدة الأسر من القدماء . والحقّ أنّ البّاروديّ رحمه الله قد أحدث فِي الشّعر العربيّ تجديدًا عظيما جدّا لعلّه أن يكون ممهدًا به لطور خامس من أطوار القصيدة إن شاء الله تعالى . وذلك أنّ قصيدة المدح النّبويّ وهي الطّور الرّابع من أطوارها قد عراها الضّعف بعد تضعضع أحوال التّدين الصّوفيّ الاجتماعي الَّتي كانت تستمد منها قوتها وحرارتها .

وقد دلنا هو فِي مقدمة ديوانه عَلَى أنّه قد اغترف من بحر طبعه ونطق بلسان حال نفسه

فِي قريضه الَّذي صنع . ويكون بهذا أوّل من جدّد فِي النّظم بعد زمان خلفاء أبي الطّيّب عَلى غير مذهب العلماء فِي التّصنيع وعلى غير مذهب مداح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فِي الوجدان . وهذا تجديد بلا ريب فلا تصرفنا عن درك حقيقته ظاهرة مشابهة القدم فِي جزالة أسلوبه وهذه واحدة . والثّانية ديباجته ذات الصّفاء المفاجئ النّادر فهذه قد جدد بها روح بلاغة اللّغة بلا ريب ، مثلا قوله يذكر ابنته وهي بالمنفيّ فِي سرنديب .

تَأَوَّبَ طَيْفٌ مِنْ سَمِيرَةَ زَائِرٌ ... وَمَا الطَّيْفُ إِلَّا مَا تُرِيهِ الْخَوَاطِرُ

تُمَثِّلُهَا الذِّكْرَى لِعَيْنِي كَأَنَّنِي ... إِلَيْهَا عَلى بُعْدٍ مِنَ الأَرْضِ نَاظِرُ

فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي ... وَيَا قُرْبَ مَا الْتَفَّتْ عَلَيهِ الضَّمَائِرُ

فَلا يَشْمَتِ الأَعْدَاءُ بِي فَلَرُبَّمَا ... وَصَلْتُ لِمَا أَرْجُوهُ مِمَّا أُحَاذِرُ

مَلَكْتُ عُقَابَ المُلْكِ وَهْيَ كَسِيرَةٌ ... وَغَادَرْتُهَا فِي وَكْرِهَا وَهْيَ طَائِرُ

وَلَوْ رُمْتُ مَا رَام امْرُؤٌ بِخِيَانَةٍ ... لَصَبَّحَنِي قِسْطٌ مِنَ الْمَالِ غَامِرُ

وَمَا هِيَ إِلَّا غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي ... غَيَابَتُهَا وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَاصِرُ

وقوله :

فَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لا سَهْمِي بِذِي صَرَدٍ ... إِذَا رَمَيْتُ وَلا سَيْفِي بِقَطَّاعِ

أَبِيتُ فِي قُنَّةٍ قَنْوَاءَ قَدْ بَلَغَتْ ... هَامَ السِّمَاكِ وَفَاتَتْهُ بِأَبْوَاعِ

يَسْتَقْبِلُ الْمُزْنُ لِيتَيْهَا بِوَابِلِهِ ... وَتَصْدِمُ الرِّيحُ جَنْبَيْهَا بِزَعْزَاعِ

يَظَلُّ شِمْرَاخُهَا يَبْسًا وَأَسْفَلُهَا ... مُكَلَّلًا بِالنَّدَى يَرْعَى بِهِ الرَّاعِي

تَكَادُ تَلْمِسُ مِنْهَا الشَّمْسَ دَانِيَةً ... وَتَحْبِسُ الْبَدْرَ عَنْ سَيْرٍ وَإِقْلاعِ

أَظَلُّ فِيهَا غَرِيبَ الدَّارِ مُبْتَئِسًا ... نَابِي الْمَضَاجِعِ مِنْ هَمٍّ وَأَوْجَاعِ

لا فِي سَرَنْدِيبَ خِلٌّ أَسْتَعِينُ بِهِ ... عَلَى الْهُمُومِ إِذَا هَاجَتْ وَلا رَاعِي

فهذا كما ترى نفس الفحول الّذي عند الأوائل .

وديباجة شوقي دون ديباجة البارودّي ، ولكن إحساسه بالفكر المعاصر كَانَ قويًّا جدًّا، فحمله هَذَا عَلى مجهود عظيم رام فِي بعضه سبيل الملحمة متأثرًا بمنهج البردة والهمزيّة

كالَّذي صنع فِي قصيدته : «همت الفك واحتواها الماء» وفِي قصيدته : «من أي عهد فِي القرى تتدفق» ، ورام فِي بعضه مذهبا إنشائيًّا منطقيًّا عَلى النّحو الَّذي يقع فِي كثير من ضروب تأليف الشّعر الإفرنجي مثال ذلك قصيدته :

أَبـا الهَـولِ طـالَ عَلَيـكَ العُصُر وَبُلِّغـتَ فِي الأَرضِ أَقصى العُمُـر

ويستوقفني فِي هَذِه الكلمة قوله :

عَجِبـتُ لِلُقمـانَ فِي حِرصِـهِ عَـلى لُبَـدٍ وَالنُّسـورِ الأُخَـر

وَشَـكوى لَبيـدٍ لِطـولِ الحَيـاةِ وَلَـو لَم تَطُـل لَتَشَـكّى القِصَر

فقد أوشكت هَذِه الطّفرة المفاجئة من القياس الفاسد أن توصد عليه باب ما أخذ فيه من التّأمل ، وقد تعثر نظمه بعد هَذَا البيت فلم ينقذه إلا حرف النّداء ، فاتلأب لَهُ القول ودل عَلى أنّ التّأمل قبله إنّما كَانَ مقحمًا ، ومرادنا بالقياس الفاسد فِي البيت :

وَشَـكوى لَبيـدٍ لِطـولِ الحَيـاةِ وَلَـو لَم تَطُـل لَتَشَـكّى القِصَر

لا يخفى ، إذ لو لم تطل لمات ولم يقدر عَلى أن يتشكى شيئًا ، وإن يكن عني بقوله : لتشكي القصر ، أي : مات لم يصنع كبير شيء . ولهذه فِي شعر شوقي مشابه سببها أحيانًا محاكاة المتنبّي فِي الحكمة وضرب المثل ، وأحيانًا مجرّد الاندفاع الخطابي ، فمن أمثلة الأول :

صُـوَرُ العَمـى شَـتّى وَأَقبَحُهـا إِذا نَظَـرَت بِغَـيرِ عُيـونِهِنَّ الهـامُ

أي إذا عميت ، فلم يصنع شيئًا كما ترى ، ولعلّ مراده أن تكون العيون مبصرة ، ولكن لا ترى الحقائق لعمى قلوبها ، وهذا المعنى لا يفيده لفظه ولا يشعر به . ومن أمثلة الثّاني :

نَـزَلَ الهِـلالُ عَـنِ السَّـماءِ فَلَيتَهـا طُوِيَـت وَعَـمَّ العـالَمينَ ظَـلامُ

أَزرى بِـهِ وَأَزالَـهُ عَـن أَوجِـهِ قَـدَرٌ يَحُـطُّ البَـدرَ وَهـوَ تَمـامُ

وقد أصعد بالسّامع فِي صدر البيت ولم يقدر عَلى أن يواصل ذلك فِي الفجر وإنّما مراده ما حاول به تفسير هَذَا القدر من بعد ، حيث ذكر ما كَانَ من تفريط المسلمين وضعفهم عن حقهم ، وقوله : قدر لا يزيده قوة أو اتساع معنى قوله : يحطّ البدر وهو تمّام ، وغنما

أوصد طريق التأمل الَّذي افتتحه كما ترى .

وأمثلة هَذَا فِي شعر شوقي كثير ليس هاهنا مجال بسطها .

هذا وقد رام شوقي أساليب المسرحيّة والقصص عَلى طريقة لا فونتين وابن الهباريّة .

ونتساءل بعد : هل نعد هَذَا الَّذي صنعه انصرافا عن منهج القصيدة بعد التمهيد لها الَّذي مهده البارودي ، أو هل هو تمهيد آخر شفع به ما صنع البارودي ليجعله أعرض قاعدة وأصلح لأن يبني عليه أساس المستقبل ، هَذَا وقد نعلم الأصناف الَّتي طرأت بعد شوقي فهل نقول : إن دهر القصيدة قد آذن بسلام ؟

وقد رأينا أنّ حياة الشّعر العربيّ طوال هَذِه العصور إنّما كانت مقرونة بحياة القصيدة المادحة عَلى وجه الخصوص ، فهل نقول : إن اتجاهات عصرنا الحديث قد آذنت بفنائه ؟ أو أن هَذَا نوع من القلق الَّذي يصاحب تردّد الأنفس قبل أن يحملها العزم الصّادق عَلى جدد الطّريق ؟

نسأل الله أن يكون هَذَا حدسا صائبا ، وبه التّوفيق وهو المستعان ، وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وسلّم تسليما كثيرا .

د ـ الدّرعيـــــات[1]

أملى أبو العلاء المعرّيّ فِي أخريات ديوانه سقط الزّند إحدى وثلاثين كلمة شعريّة منها عشر مقطعات وإحدى وعشرين بين طويلة وقصيرة كلّها فِي وصف الدّرع . وأسماها جميعًا الدّرعيّات ونصّ عَلى أنّها ليست من متن سقط الزّند مَعَ أنّه ألحقها به . ولا ندري عَلى وجه التّحقيق متى نظمت هَذِه القصائد . ويترجّح عندنا أنّها نظمت جميعًا فِي فترة عزلته بالمعرّة ، بعيد رجوعه من بغداد ، وقبيل بدئه فِي اللّزوميّات . والدّليل عَلى ذلك ما نجده من ذكر العزلة فيها . وأنّه فرغ من جمعها مَعَ الفروغ من جمع السّقط ونحن نعلم أنّه قد فرغ منه قبل اللّزوميّات . وبما أنّ أخريات القصائد الّتي فِي السّقط نظمت حوالي سنة ٤١٤[2] ـ وهو العام الّذي شبت فيه فتنة حسّان الطّائيّ وأصحابه من عامر وكلب ـ فإنّنا نوشك أن نجزم أنّ الدّرعيّات فرغ منها بعد هَذَا العام بزمان ربّما يكون عامًا أو عامين أو ثلاثة . وفِي اللزوميّات ما يفيد أن الشّاعر شرع فِي نظمها سنة ٤١٧[3] ـ فلنعتبر هذين التّاريخين معًا .

ومما يسترعي النّظر أنّ فِي الدّرعيّات نحوا من ثلاث عشرة كلمة مقدم لها بنحو : « وقال عَلى لسان رجل يصف درعين »[4] « وقال عَلى لسان درع تخاطب سيفًا »[5] وهكذا. فهل هَذِه المقدّمات من وضع الشّراح ؟ أستبعد ذلك ، إذ قد خلت منها القصائد الثماني عشرة الأخريات . ولنا أن نحدس فنزعم أن المعرّيّ أراد هَذِه التقدمات لتكون بمنزلة العناوين . ويكون بهذا ممن سبقوا إِلى «عنونة» القصائد من شعرائنا[6] . عَلى أن

---

(١) المؤتمر ، الدّورة ٢٨ ، الجلسة ٣ ، البحوث والمحاضرات ، ص ٨٢ . (حسن) .

(٢) راجع شروح سقط الزند دار الكتب سنة ١٩٤٨ القسم الرّابع والقسم الخامس .

(٣) اللّزوميّات ؛ عزيز زند ١-٣٠٢ .

(٤) الشّروح : ص ١٨١٥ .

(٥) نفسه : ص ١٧٦٠ .

(٦) ويحسن أيضًا أن نذكر في هذا الموضع أنّه أيضًا ممن سبقوا إلى تسمية دواوينهم بأسماء مميّزة لها سوى =

الرّاجح عندي أنّه اقتدى في هٰذه المقدّمات بأبي الطّيّب ، الّذي كَانَ كثيرًا ما يشرح الأغراض الّتي نظم من أجلها ويؤرخ القصائد ويذكر ممدوحيها .

وأسلوب الدّرعيّات مما يستحق الدّرس والعناية . وهو عندي تحفة من تحف النّظم العربيّ . وللنّاقد الأدبيّ في فنونه المختلفة متأمل أيّما متأمل . فهو يمثل من جهتي النّظم والأداء المعنوي فترة مهمة للغاية في تطور المعرّيّ الفنّيّ ، إذ هو بدون أدنى ريب ذو أسلوب وسط بين أسلوب السّقط واللّزوميّات . وهو أيضًا يمثل فترة هامة في تطوّر المعرّيّ الفلسفيّ الرّوحيّ ، إذ هو مفعم بروح اليأس المتمسّك بالدّنيا ، كما هو مفعم بروح الصّبر المتوطن عَلى قبول الوحشة والعزلة . ومن أجل هٰذَا فهو أملأ بالحرارة والانفعال العاطفي من اللّزوميّات ، الّذي خضعت فيه عواطف الشّاعر ، إلى حد ما ، للقيود الّتي فرضها عَلى نفسه . والدّرعيّات بعد كتاب فن مذهوب به مذهب العلم ، وعلم مذهوب به مذهب الفنّ . فكل هٰذَا يجعله من الآثار القيّمة الباعثة عَلى التّنقيب والدّرس .

والمتأمّل لطريقة الوزن والقوافي في الدّرعيّات يجد أن المعرّيّ ذهب فيه شوطًا بعيدًا نحو المسلك الّذي صيره مهيعا في اللّزوم . مثلا تجد أن المعرّيّ أكثر فيه من استعمال السّريع ، وتعاطي المنسرح وأطال ، وهما بحران يوشك أن يتحاماهما في سقط الزّند . وتجده قد استعمل الخفيف الخامس[١] وهو وزن شاق عسر لا يعرض لَهُ من لا يحمل نفسه عَلى الكلف . وأمَّا في القوافي فنجد أن المعرّيّ قد جرب أصنافًا من الصّعوبات . منها جيم الوافر الحسّانيّة[٢] وسين الطّويل المرقشية . والعين المتبعة هاء الخروج في الكامل . وهاء التّأنيث المقيدة مَعَ النون في الطّويل ، من كلمته[٣] :

= ما درجت عليه العادة من قولهم ديوان فلان وديوان فلان ـ وذلك لتسمية الدّيوان الأوّل «سقط الزّند» ، والثّاني «لزوم ما لا يلزم» وهلمّ جرّا ... وأحسب أنّه لم يسبقه إلى هذا الباب من الأطراف إلا أبو تمّام في تسميته للاختيارات التي جمعها «ديوان الحماسة» .

(١) نفسه : ص ١٨٨٢ .

(٢) نفسه : ص ١٧٦٠ .

(٣) نفسه : ص ١٩١١ .

نزَلنـا بهـا فِي القَـيْظِ وهْـي كرَوْضَـةٍ　　سَـقَتْها عِنـانَ الشِّـعْرَيَيْنِ عَنانَـهْ

فلـمّا رأتْ ضِـمْنَ الحَقيبَـةِ جَوْنَـةً　　أبَـرّتْ عَـلى طـولِ الكَمِـيّ بَنَانَـه

وفِي هَذَا القرى عسر لا يخفى . ولم يقف المعرّيّ عند هَذَا الحد ، ولكنّما تجاوزه إلى التزام الرّدف مَعَ القافية المطلقة فِي المتواتر ، والمقيدة فِي المترادف ، ثمّ التزام الهمزة الأصليّة الّتي تجهمها قدامة ، ثمّ التزام حرفين عَلى النحو الّذي فِي اللّزوم ـ فعل هَذَا فِي خمس قصائد ، ثنتان منهما ذواتا قيود آية فِي الإغراب وهما قوله[١] :

عليـكَ السّـابِغاتُ فإنّهُـنّـهْ　　يُـدافِعْنَ الصّـوارِمَ والأسِـنّهْ

وقوله[٢] :

غَـدا فَـؤادِيَ كـالفَوْدَينِ ثِقْـلا　　وأضْـحى الشّـيْبُ بيْـنَهما عِـلاوهْ

وكلا هاتين مما لم يرب المعرّيّ عليه فِي التزاماته المشهورة من بعد .

وقد وجد المعرّيّ فِي الدّرع مادة خصبة لإرضاء جانب اللّغويّ والأستاذ المعلم من نفسه. فضمن قصائده الدّرعيّات ثروة ضخمة من مجاز العرب القدماء وتشبيههم فِي هَذَا الباب . وتلطف فحبّك ذلك كله فِي وشي امتزج فيه خيال الفنّ بمنهج العالم . وما عليك إلا أن تتصفّح الدّرعيّات عن عرض لتجد فيه ما ذكره واصفو الدّروع من لدن أوس بن حجر إلى المتنبّيّ ، من وصف الدّرع بصلابة المعدن ولينه ، وسبوع النّسج وتمامه وأنّ حلقها كالقفعاء . ونطقها كنطق الغدير وهيئتها كقميص الحيّة ، وقتيرها كعيون الجراد ، وأنّها تصان فلا تبذل ، وأنّ الفارس يستتر فيها ، والقعب يحويها ، وأنّها تنظف بالكرّ والرّماد .

والمعريّ لا يسرد الأوصاف سردًا جافًّا عَلى طريقة التّعليميّين ولكنّه يضمنها النّادرة والبادرة ، خذ مثلا قوله :

كـبُرْدَةِ الأيـمِ العَـروسِ ابتَغَـى　　بهـا جِـلاءَ الحَيّـةِ الأيّـم[٣]

---

(١) نفسه : ص ٢٠٤١ .

(٢) نفسه : ص ١٩١٨ .

(٣) نفسه : ص ١٧٩٠ .

فهو يعرض لنا صورة ثعبان عروس تزوج ثعبانة أيمًا «أي لا زوج لها ، أي بكرًا» وقدم لها قميصًا فِي هدية الأملاك . والصّورة بلا ريب طريفة .

وتأمّل قوله :

وقــد أهْــوَتْ إلى دِرْعــي لِمَــيسٌ لــتَمْلأ مِــن جَوانِبِهــا الإداوَه[1]

فهنا إشارة إلى أنّ الدّرع تشبه بالنّهي والضّحضاح من الماء . وصورة طريفة للجارية تريد أن تملأ إداوة الوضوء فتلتمس الدّرع تظنها ماء . ولا يخفى عليك بعد أيّها القارئ بعد الإشارة فِي قوله لميس ، إذ أنت تعلم قصة ابن عباس وإنشاده بيت الرّاجز :

وهــن يمشــين بنــا هميســا

وهو يتوضأ .

ومن أظرف تشبيهاته للدّرع بالغدير والسّيل قوله :

يَحْسَــبُهَا الضَّــبُّ إذا أُلْقِيَــتْ فِي أرْضِــها الغَــبْرَاءِ عُثْنُــونَ سَــيْل
يَشْــتَدّ خَوْفًــا بَعْــدَ إخْبَــارِهِ حُسَــيْلَةَ عنهــا وأُمَّ الحُسَــيْل[2]

والعرب تزعم أن الضّبّ يفرق من الماء . وأنّ الحسل ولد الضّبّ . والمعرّيّ هنا يجعل للضّبّ زوجا ويكنيها بولدها الحسيل .

والمعري يحرص فِي نظمه وسرده عَلى أسلوب الجزالة العربيّة كأصفى ما يكون ويبالغ فِي ذلك أحيانًا فيعمد إلى الجموع الغرائب كما فِي قوله :

لهــا خَــدَمٌ وأقرِطَــةٌ ووُشْــحٌ وأسْــوِرَةٌ ثَقَائِــلُ إنْ وُزِنّــه

تأمّل قوله «ثقائل» والمشهور فيه الاستغناء بالمفرد المؤنّث .

ويعمد أحيانًا إلى ألفاظ مما كانت تستعمله العرب ، كهاء السّكت مَعَ فعل الأمر ، كما فِي قوله :

تغَنّــتْ مِــن غِنــى مــالٍ وصَــبْرٍ وأمّــا بــالقَريضِ فلــمْ تَغَنّــه

---

(١) نفسه : ص ١٩١٨ .

(٢) نفسه : ص ١٩٧١ .

وأحيانًا يتكلف الإيجاز عَلى الطّريقة الجاهليّة كما في قوله :

كلَمْحِ الشُّنوفِ العَسْجَدِيّاتِ أو كما   أشارَتْ بأَخْفَى سُورِهِنّ العَرائس

والشّاهد استعمال «كما» عَلى هَذِه الطّريقة .

وكقوله[1] :

قِصارُ الخُطى يَدرِمْنَ أو مِشيَةَ القَطا   فكيْفَ إذا ما سِرْنَ في الحَلَقِ الدُّرْم

والمراد أو يمشين مشية كمشية القطا . واختزال الأداء هكذا ، بالاكتفاء بالمفعول المطلق وحده مذهب من مذاهب الفصاحة العذبة .

هذا ويذكرك المعرّيّ بحضريته وعباسيّته وعلمه وأنّه من الخواص المتوفّرين عَلى الدّرس ، حين يطعم هَذِه الجزالة البدويّة المنحى ، القويّة المتّجه ، بعبارات العلماء المتّسطين. كأن يتقرى أو أبد التّراكيب النّحويّة أحيانًا ـ مثال ذلك قوله :

ألَمْ تَعْلَمي أنّي مُدامَةَ بابِلٍ   هَجَرْتُ ولم أقْبَلْ خَبيئَةَ عانَه[2]

وقوله :

وليس أبوها بالّذي أنا بائعٌ   ولو ساقَ فيها إبْلَهُ وحِصانَه[3]

والشّاهد هنا رفع الأب ، ويصح جعلها معمولا للبائع عَلى طريقة من أنشد :

وقالوا تَعَرَّفها المنازلَ من مِنًى   وما كلّ من وافى مِنىً أنا عارف

بنصب «كل» .

وكأنّ المعرّيّ اعتد باء الزّيادة حائلة دون عمل خبر الصّلة فيما قبله . وهذه النّكتة بخاصة مما يكون مثله موضع جدل عند النّحويّين . وفي الدّرعيّات بعد شواهد كثيرة مما قصد فيه أبو العلاء تعمد الشواذ وأشتاهها ، مثل قوله :

كذات العوير آمنت قصيرا

(١) نفسه : ص ٢٠٣٦ .

(٢) نفسه : ص ١٩١٤ .

(٣) نفسه : ص ١٩١٣ .

بسكون الميم ، وكقوله:

وأعصي الخـــادعي لـــك بالحـــال[١]

بحذف نون الجمع السّالم في غير إضافة عَلى سبيل التّخفيف .

رُبّ بَحْـرٍ للحَـرْبِ فِي ليـلِ هَيْجـا ءَ أَبَـى مُقْمِـراً فعُـدّ ثَمـيرا[٢]

وهنا إشارة إلى قولهم للقمر ابن ثمير . ولعل مما تفرد به المعرّيّ من الأغراب محاولة الشّرح في معراض النّظم والمعري مغرم بالشّرح لا يكاد يملك نفسه منه في نثير أو نظيم . خذ قوله :

وتلـكَ أَضـاةٌ صـانَها المَـرْءُ تُبَّـع وداودُ قَـيْنُ السّـابِغاتِ أذالَـها

ولم تَلْـقَ هُونـاً بالإذالـةِ إنّـما مُـرادِيَ وَفّى ذَيْلَهـا وأطالَـهَا

فالبيت الثّاني كما ترى فيه شرح لمعنى الإذالة الّذي في البيت الأوّل .

هذا والمعرّيّ يأبى إلّا أن يعقد هَذِه الجزالة المطعمة بالتنطّس العلميّ ، بإخضاعها لفنّ البديع الَّذي كَانَ عنوان البلاغة عند معاصريه . فتجده يكثر من الطّباق والتّجنيس والتّوشيع والتّرصيع ، كل ذلك رصانة وأحكام . ويضيف إلى هَذَا كله عنصر الإشارة وضرب المثل ، عَلى نحو ما كَانَ يفعله أبو تمّام .

فمن إشاراته الطّريفة في الدّرعيّات قوله[٣] :

مثـلُ وَشْيِ الوَليـدِ لانَـتْ وإنْ كـا نَـتْ مِـنَ الصُّـنْعِ مِثْـلَ وَشْيِ حَبيـب

وفي هَذَا إشارة لكلام النّقاد من نحو الآمديّ وأضرابه في الموازنة بين الطّائيين وانظر إلى قوله[٤] :

إنـما جارَتـايَ جارِيَتـا حَيـ ـيٍ وما زالـتِ النّسـاءُ كَثيـرًا

---

(١) نفسه : ص ١٨٧٢ .

(٢) نفسه : ص ١٩٦٧ .

(٣) نفسه : ص ١٩٢٣ .

(٤) نفسه : ص ١٨٣٣ .

والبراعة هنا أنّ قوله «ولا زالت النّساء كثيرًا» منساق مَعَ سائر البيت بحيث لا تشعر أنّ الشّاعر يشير به إِلى قصة الأفك ، وقول علي بن أبي طالب للنّبي ﷺ : النّساء كثير، ينصحه بذلك أن يطلق عائشة .

وقد يبلغ بالمعرّيّ حب الإشارة والتّضمين أحيانًا أن يتكلف ويتعمل ويأتي بنظم أشبه شيء بتلفيق الفقهاء ، كقوله[1] :

لم أقُلْ فيه مازِ رأسَكَ والسّيْـ ـفَ كما قالها المُريدُ بَحيرا

ويشير هنا إِلى ما حدث يوم المروت من أنّ قعنبا الرّياحي رأى بحيرًا مأسورًا وكان ذا ثأره ، فاستل سيفه وقال : « ماز رأسك والسّيف» يحذر الآسر من أن يصيبه السّيف . وماز مرخم مازن وجعله كاللّقب لزيد بن أزهر المازني الَّذي كَانَ بحير فِي أسره .

وقوله المريد بحير ـ يعني قعنبا ـ صفيق فِي تعمله وما كَانَ أغنى المعرّيّ عنه. ولهذا البيت فِي الدّرعيّات نظائر غير أنّها ليست كثيرة .

هذا ، ومما يحسن التّنبيه عليه أن للمعرّيّ كثيرًا من الإشارات فِي الدّرعيّات وفِي غيرها ، يشتم منها نفس التّشيّع . من ذلك بيت الإفك الَّذي ذكرناه آنفا .

وقوله[2] :

والوُدُّ غَرّارٌ ونَجْوى علِيّ ولدَيْهِ غيرُ نَجْوَى كُمَيْل

وهذا المعنى جاء نفسه مكررا عند المعرّيّ فِي الفصول والغايات حيث قَالَ : «وقرب عَلى كميلا» ويقول فِي لاميته الطّويلة[3] :

ولا تَدْفِنيها الجَهْرَ بل دَفْنَ فاطِمٍ ودَفْنَ ابنِ أرْوَى لم يُشَيّعْ بإعْوال

هذا ، ولعلّك بعد أيّها القارئ الكريم لا تعدو أن تعد الدّرعيّات ضربًا من الفسيفساء اللّفظيّة لا طائل وراءها . ولعمري لو لم يكن فيها إلا إتقان الصّناعة ، وهلهلة النّسج

---

(١) نفسه : ص ١٨٤٠ .

(٢) نفسه : ص ١٩٨٠ .

(٣) نفسه : ص ١٨٧٥ .

والافتنان فِي البديع عَلى نحو قلّ نظيره، لكفاها ذلك، ولكانت به وحده مثالًا بارعًا من أمثلة الجمال الأدبيّ المطلق المتأنّق فيه. عَلى أنّ الدّرعيّات أبعد غورًا من هَذَا. وفيها من المعرّيّ الشّاعر ذي العاطفة المنفعلة ما لا يمكن دفعه. وبعضها من روائع الشّعر العربيّ بلا جدال.

والقارئ كثيرًا ما يجد فِي الدّرعيّات أفكارًا تشبه ما عرف به المعرّيّ من بعد من تزهّد وتشاؤم، فِي ديوانه اللّزوميّات. والنّظرة السّطحيّة قد توحي أن هَذِه الآراء ما هي إلّا تكرار لما فِي اللّزوميّات عَلى عادة المعرّيّ فِي التّكرار. ولكن تدبّرا قليلًا يرينا أنّها تباينها من جهتين: أولا صياغتها أكثر أناقة وأدخل فِي البديع وأملأ بالحرارة وأحكم تخيرا للألفاظ الجزلة. وهذا يجعلها أقرب إِلى أسلوب السّقط منها إِلى أسلوب اللّزوم. ولهذا ألحقها المعرّيّ به، وإن كَانَ نصّ عَلى أنّها مستقلّة قائمة بنفسها. وثانيا روح الغضب والتّحسّر عَلى نجاح فات أوضح فيها منه فِي اللّزوم. وسر هَذَا عندنا أنّها نظمت قبل اللّزوم بزمان، والشّاعر لا يزال يذكر بغداد وآماله الّتي تحطمت هناك. خذ قوله[1]:

أسْتَغْفِرُ اللهَ ولا أنْدُبُ الـ	أطْلالَ قَذَّ الشَّخْصُ كالتّوْأم
هلْ سَمْسَمٌ فيما مَضَى عالِمٌ	بوَقْفَةِ العَجّاجِ فِي سَمْسَم
ولسْتُ بالنّاسِبِ غَيْثاً هَمَى	إِلَى السِّماكَيْنِ ولا المِرْزَم
ولَيسَ غِرْباني بمَزْجُورَة	ما أنا من ذي الخِفّةِ الأسْحَم
مِثْلَ خُفافٍ سادَ فِي قوْمِهِ	عَلَى اجْتِيابِ الحَسَبِ المُظْلِم
يا مُلْهِمَ السَّخْلِ ولا أتْبَعُ الـ	أظعانَ كالنّخْلِ عَلى مَلْهَم
ما ليَ حِلْسَ الرَّبْعِ كالمَيْتِ بَعْـ	دَ السَّبْعِ لم آسَفْ ولم أنْدَم
عَلى أُناسٍ مَنْ يُعاشِرْهُمُ	تُعْوِزْهُ فيهِمْ عِشْرَةُ المُكْرِم

ففِي هَذِه الأبيات كما ترى تهكم بالشّعراء ومذاهبهم فِي النسيب والوقوف عَلى

---

(١) نفسه: ص ١٨٠٦ - ١٨١١.

الأطلال وزجر الطّير ، كما فيها غضبة عَلى المجتمع واتهام لَهُ بالنّفاق واللّؤم . وهذا عين ما يجده القارئ فِي اللّزوم .

ولكن فيها أشياء تشعرنا باضطّراب نفس المعرّيّ ، وغلبة النّدم والشّعور بالحسرة والخيبة عليه . أوّل شيء ألفت نظرك إِلى هَذِه الإشارات الَّتي يذكرك فيها بالتّوأم صاحب امرئ القيس وبالعجاج وخفاف والمرقّش . ألا تراه هنا يتلذذ بذكر هؤلاء الشّعراء الذين يرينا التّهكم بهم والزّراية عليهم ؟

ثم انظر إِلى قوله : « وليس غرباني بمزجورة » وقوله « مثل خفاف » يعني خفاف بن ندبة السّلميّ ، ألا تحس هنا إشارة خفية إِلى قوله هو يودع بغداد :

نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبانِ لَيس عَلى شَرْعِ ... يُخَبّرُنا أنّ الشُّعوبَ إِلى الصَّدْعِ

وإِلى قوله يرثي الشّريف ويذكر الغراب :

لله دَرّكَ مِن خُفافٍ أسحمٍ ... كسُحيمِ الأسَديّ أو كخُفافِ

مِن شاعرٍ للبَينِ قَالَ قصيدةً ... يرثي الشّريف عَلى رَوِيّ القافِ

ألا تراه بقوله «وليس غرباني بمزجورة» كأنّما يعتب عَلى نفسه أن مدح ورثى ببغداد وأزجى الآمال إِلى قوم لئام ليس فيهم من يحسن العشرة الكريمة ثمَّ ألا تجد فِي قوله :

ما لِيَ حِلْسَ الرَّبْعِ كالمَيْتِ بَعْـ ... ـدَ السَّبْعِ لم آسَفْ ولم أنْدَم

عَلى أُناسٍ مَنْ يُعاشِرُهُمُ ... تُعْوِزُهُ فيهِمْ عِشْرَةُ المُكْرِم

لذعا محرقًا من الأسف والنّدم .

ويقول المعرّيّ من كلمة لاميّة طويلة :

وقد طالَ فوْق الأرضِ كوْني وشَبَّهَـ ... ـتْ ثَغامًا بجَوْني عاذلاتي وعُذّالي

وحَرّمْتُ شُرْبَ الرّاحِ لا خوفَ سائطٍ ... ولكنّها تَرْمي العُقولَ بعُقّال

أُبِلُّ من الأمراضِ والعِلمُ واقعٌ ... بعِلّةِ يوْمٍ جانَبَتْ كلَّ إبلال

ومَنْ سَرّهُ ثَوْبٌ يَعِزّ بلُبْسِهِ ... فلا تَجْرِ منه أمُّ دَفْرٍ عَلى بال

هَلُوكٌ تُهِينُ المُسْتَهامَ بحُبّها ... وتَلْقى الرّجالَ المُبْغِضينَ بإجلال

بَنو الوَقْتِ إن غَرّوكَ منهمْ بحِكْمَةٍ فما خَلفَها إلاّ غَرائِزُ جُهّالِ
لِذاكَ سجَنْتُ النَّفس حَتّى أرَحْتها مِنَ الأنْسِ مَا خِلاء رُبع باخْلال[1]

والأبيات الأخيرة هنا نصّ واضح التّعريض ببغداد، إذ منها خرج عازمًا عَلى الاعتزال والتّنسّك. ولا أرتاب أنّه يشير بقوله «بنو الوقت» إلى بغداد وأهلها، فهم الذين سمع منهم الحكمة، ففتنوه وكادوا يغرونه، حتى إذا فتش عن دخائلهم وجدهم أهل نفاق ومكر وجهل. وقد ذكر هَذَا المعنى صريحًا في رسالته إلى خاله أبي القاسم بن سبيكة.

وفي الدّرعيّات بعد أشياء كثيرة تدل دلالة واضحة عَلى حزن المعرّيّ وتأسّفه لفراق بغداد، منها، مما صرّح به ولم يلمح:

قَرَتْكَ أواذِيُّ الفُراتِ صَبابَةً وأبْلَسْتَ لَمّا أعرَضَتْ لكَ بالِس[2]

ومنها ما كنى فيه عن بغداد وعن آماله الضّائعة ببكاء الشّباب، وذكر الضّعف والهرم. وكثيرا ما نجد المعرّيّ يتحدث في درعيّاته بلسان شيخ طعن في السّنّ وعجز عن حمل الدّرع وازدرته النّساء. مثال هَذَا:

أراني وَضَعْتُ السَّرْدَ عنّي وعزّني جَوادي ولم يَنْهضْ إلى الغَزْوِ أمْثالي
وقَيّدَني العَوْدُ البَطيءُ وقيل لي وراءك إنّ الذّئبَ منكَ عَلى بالِ

وهذا في مطلع القصيدة الّتي اقتبسنا منها الأبيات السّالفة الذّكر.

ومثال آخر قوله في الدّرعيّة الأولى[3]:

رَأتْني بالمَطيرَةِ لا رَأتْني قَريبًا والمَخِيلَةُ قد نأتْني
وأخْلَقْتُ الشّبابَ وكان بُرْدي وفارَقْتُ الحُسامَ وكان جِنّي
أعاذِل طالَ ما أتلَفْتُ مالي ولكنّ الحَوادِثَ أتْلَفَتْني

وكثيرا ما يتحدث المعرّيّ بلسان أشخاص خياليين ثمّ يضمن أحاديثهم أشياء من

(١) نفسه: ص ١٨٧٨-١٨٨١.
(٢) نفسه: ص ٢٠١٠.
(٣) نفسه: ص ١٧٤٧.

خبايا ضميره ، ولا يملك القارئ حينئذ إلا أن يعد هؤلاء الأشخاص الخياليين رموزًا كنى بها الشّاعر عن نفسه ليس إلا من ذلك نونيته الّتي يذكر فيها امرأة سامة أبوها درعه ، وجاءت هي لتخادعه عنها ، فألقت إليه حَبْيَيْها أي قرطيها ، ثمَّ حاولت إغواءه بالكأس ، قال[1] :

رَمَتْني بِحَبْيَيْها وأخرَ صامِتٍ ... من النّضْرِ لا أعْني به ابنَ كِنانه

وليست وإنْ جاءتْ بحَلْيٍ وزِينَةٍ ... علَيّ كدِرْعي عِزّة وصِيانَه

وليس أبوها بالّذي أنا بائِعٌ ... ولو ساقَ فيها إبْلَهُ وحِصانَه

وما سامحَتْ نفْسي بها عند حادِثٍ ... فُلاناً فما بالي وبالُ فُلانَه

وجاءتْ بكأسٍ من سُلافٍ تُريغُني ... خِلاباً على قَضّاءَ ذاتِ رَصانَه

ألَمْ تَعْلَمي أنّي مُدامَةَ بابِلٍ ... هَجَرْتُ ولم أقْبَلْ خَبيئَةَ عانَهْ

وهذا البيت الأخير فيه تصريح واضح من المعرّيّ عن نفسه . ولا أدع هنا أن أنبّه القارئ إِلى مفاضلة المعرّيّ بين المرأة والدّرع ، وذكر أعراضه عن النّساء فِي قوله : «فما بالي وبال فلانة» ويجري هَذَا المجرى قوله فِي السينية[2] :

قَرَتْكَ أواذِيُّ الفُراتِ صَبابَةً ... وأبْلَسْتَ لَمّا أعرَضَتْ لكَ بالِس

تنكّرْتَ فاعْرِفْ للشّبيبةِ مَوْضِعًا ... بكُلّ ضَميرٍ مِنْ هَواهُ وَساوِس

تَمَنّاهُ إِنْسِيٌّ وأعْيَسَ بازِلٌ ... وأسْحَمُ طَيّارٌ وأعْفَرُ كانِس

أرى أُمّ دَفْرٍ أُخْتَ هَجْرٍ ولا أرى ... لها سالِياً ما غَيّبَتْهُ الرّوامِس

يَهيمُ بها الإنسانُ ثُمّ تُحِلّه ... ذَرَى الأرْضِ وَصْفاها زَرُودٌ وراكِس

وفِي هَذِه الأبيات كما ترى تحسر صريح ، وإقرار من المعرّيّ بأنّ نفسه تنزع إِلى الهوى وهو يصدها عنه ، وترغب فِي الدنيا وهو يزهدها فيها .

هذا ، وللمعرّيّ فِي الدّرعيّات مقدرة فائقة عَلى ازجاء القصص والحوار مَعَ التّصوير

---

(١) نفسه : ص ١٩١٢ – ١٩١٤ .

(٢) نفسه : ص ٢٠١٠ – ٢٠١١ .

الخيالي . تحسها من أثناء تأملاته واستطراداته ومزاعمه الَّتي يزعمها عَلى لسان بائع درع أو طالب شرائها أو آسف عَلى ضياعها . وقصيدته النّونيّة[1] :

عليـــك الســـابغات فانهنـــه

آية فريدة فِي هَذَا الباب . وفيها يذكر أمًّا تنصح ابنها ألّا يتزوج وتحسن لَهُ أن ينفق أمواله فِي الاستكثار من الدّروع والتّقوى بها عَلى نوائب الدّهر . وقد عرضنا لهذه القصيدة بنوع من التّحليل فِي كتاب المرشد[2] فليرجع إليه . وقد يقع فِي الوهم ، أنّ الشّيخة العجوز ، الَّتي تنهى ابنها عن الزّواج ، مخالفة فِي ذلك المألوف من طبائع الأمهات ، ما هي إلا بوق اتخذه المعرّيّ ، ليؤدي به أفكاره الشّاذّة وآراءه الغريبة . ولكنّ المعرّيّ ، ببراعته الفائقة ، حرصه عَلى تمثيل الواقع ، مَعَ حيوية وخصوبة فِي الخيال ، قد قدر أن يثبت لهذه العجوز شخصية أنثوية ـ لا مرية فيها ـ شخصية أنثوية تتنازعها عواطف الأمومة ، والغيرة عَلى الولد ، والرّغبة فِي الانفراد بحبّه ، والخوف من أن تنفرد بوده امرأة دونها ، والشّعور بكبر السّنّ ، الزّهو بماضي الشّباب ومنصرم الجمال ، كل ذلك مشوبا بعنصر من المكر والتّدلّه والحنان ، عَلى النّحو الَّذي تجده عند أكثر النّساء .

ولا يستطيع ناقد أن يصرف ذهنه بحال عن تردّد ذكر المرأة فِي الدّرعيّات فتارة هي مشبه وتارة هي مشبّه به . وآنًا تجدها مقحمة إقحامًا كما فِي قوله :

وقـــد أهْـــوَتْ إِلى دِرْعِـــي لِمَـــيسٌ ... لِـــتَمْلأَ مِـــن جَوانِبِهـــا الإداوَه

وهذا البيت لا يخلو من معنى الرّمز .

وفِي القصيدة الثّانية ، نرى المعرّيّ يذكر جارية عزه أبوها عَلى درعه الَّتي كَانَ استعارها منه . والرّمز هنا مقتبس من قصة قيس بن زهير . وفِي الثّالثة بعد العشرين ، يتحدّث الشّاعر بلسان رجل يشكو جشع صهره ، الَّذي لم يرض درعه وحدها مهرا لبنته . وفِي الثّانية بعد العشرين يتكلّم المعرّيّ عن امرأة جميلة تشبه حبيبة أبي النّجم فِي الحسن

---

(١) نفسه : ص ٢٠٤١ .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . مصر ١٩٥٥ الجزء الأول ـ ٦٦ ـ ٦٩ .

والصّدود والقسوة . وفِي الرّابعة بعد العشرين يذكر فارسًا دفع مهر عروسه درعا محكمة مخالفًا فِي ذلك ناصحيه وخلانه . وفِي الثّامنة بعد العشرين يصف نساءً أرامل اضطّرهن التّأيّم إِلى لبس الدّرع : وفِي هَذِه القصيدة يشير المعرّيّ فِي نوع من السّخريّة والزّراية إِلى حالة الشّأم المتّضعضعة وعجز ولاة الأمر فيها أن يحموا حدودها من غزاة الرّوم ، وذلك قوله[1] :

وأيْنَ رِجالٌ كانَ يَحْمي عليهِم حديدٌ فيَحْمونَ القَطينَ كما يَحْمي

والتّاسعة بعد العشرين هي النّونيّة القّصصيّة المشار إليها آنفًا ، وفيها يفتن الشّاعر فِي نعت العرائس وزينتهن .

ولنا هنا أن نتساءل : لماذا أكثر المعرّيّ من حديث النّساء وكرر ذلك وردده فِي درعياته؟ أتراه فعل ذلك عبثًا ، أم جريًا عَلى عادة الشّعراء فِي النّسيب ؟

استبعد هَذَا جدًّا . ويغلب عَلى الظّنّ ، أنّ المعرّيّ ما كَانَ ليردّد اسم المرأة كل هَذَا التّرديد لو لم يكن بأمرها حقّ مشغول .

وأذكر القارئ هنا أنّ شاعرنا نظم درعيّاته هَذِه وهو فِي أخريات الكهولة ، وأوائل الشّيخوخة . بعد أن وطن نفسه عَلى التّبتّل والعزلة والنّسك . ويبدو لي أنّه فِي هَذِه الفترة قد اقتنع كل الاقتناع ، من النّاحية المنطقية الفكريّة ، بضرورة العزوف عن الغزل ، وبأنّ النّسل ذريعة من ذرائع الشّر ، ينبغي الابتعاد عنها ما أمكن . عَلى أنّه لم يقتنع ، من النّاحية العاطفيّة ، بصدق هَذِه القضيّة الّتي دله عليها عقله وحزمه وتفكيره . فقد كَانَ يجد فِي نفسه دوافع الهوى والغرام . ويحس فِي قرارة ضميره خوفًا من إغراء المرأة وتطلّعًا إليه . ثمَّ لم يكن يخلو من جزع عَلى أن تفوته آخر فرص النّشوة واللّذة بعد أن نضا عنه حرارة الشّباب ودفء الكهولة وتوشك أن تغمره الشّيخوخة ببردها وهمودها وعبوسها الّذي تكشر منه أنياب الموت . ثمَّ إنّه قد بدأ يحس الشّغف ، والحاجة إِلى معين يرحم عماه ويتفقّد حاله ، ويبث إليه العطف ، ويشعره بالحنان كما كانت تفعل أمه فِي غابر الأيّام . وفِي كلّ

---

(١) الشّروح : ص ٢٠٣٩ .

هَٰذَا دافع قوي إِلى طلب النّساء والرّغبة فِي الزّواج .

ويضاف إِلى هَٰذَا جميعه أنّ المعرّيّ كَانَ رجلًا مفعم القلب بالعواطف ، مضطّرم النّفس بأسباب الغرام ، ولعلّه كَانَ يلدغ فؤاده ويقضّ مضجعه ويحزّ فِي كبده ، ألا يجد من يشاركه هَٰذِه العواطف ويبادله الهوى ويفيه الودّ .

فهل لنا إذن ، أن نزعم أنّ هَٰذِه الدّرع الَّتي يصفها المعرّيّ فِي قصائده هَٰذِه لم تكن إلّا رمزًا كنى به عن المرأة والمعاني الغامضة الَّتي كَانَ يثيرها فِي نفسه ذكر المرأة - كالرّغبة فِي المأوى والرّفق والطمأنينة والسّلام والمودّة وغير ذلك من معاني العيش الَّتي لا يجدها الرّجل إلا عند أنثاه ؟

أم ترى أن هَٰذِه الدّرع الَّتي أفاض المعرّيّ فِي وصفها إنّما كانت كناية عن هَٰذَا القانون الصّارم الَّذي فرضه عَلى نفسه ، غير أنّ قلبه لم يزل يحدثه بين حين وآخر ، بالخروج عنه إِلى فسحة الدّنيا الرّحيبة ، ليشم عطر الحياة قبل أن يتصوح زهره ، ويسحب عليه الموت أذيال العفاء ؟؟

أم هل ترى أنّه اتخذ من الدّرع كناية عن المرأة وعن القانون الصّارم الَّذي فرضه عَلى نفسه معًا ، ثمَّ جعل منها بعد ذلك محورًا ينسج من حوله تجاربه الواسعة الَّتي اكتسبها ممّا عاناه من آلام وآمال وتأمّل لعقليات الأفراد والجماعات ، وتوفر عَلى دراسة الكتب وأخبار الماضيين ، واستمتاع بما يمده معين العلم من فيض لا ينقطع وسلوى لا تنضب ؟

هــــ ـــــ وصف جزيرة توتي للتّيجانيّ يوسف بشير [١]

توتي : اسم جزيرة ملتقى النّيلين بالخرطوم . وإنّما سمى الخرطوم خرطومًا بالنّسبة إليها أوّل الأمر ، إذ كانوا يقولون : «خرطوم توتي» أي أنف اليابسة الّتي بين التقاء المائين عند المقرن حذاء جزيرة توتي ، ولم تكن الخرطوم حاضرة إلا منذ القرن الميلاديّ التّاسع عشر ، وأحسب أنّ الكلمة «توتي» غير عربيّة ، وربّ قائل إنّها عربيّة ، من «توتى أكلَها» بتخفيف الهمزة . ومما يقصّ أنّ ولي الله الصّالح الشّيخ خوجلي أبا الجاز .

« الجاز : اسم ابنته وهو اسم أخت أبي زيد الهلاليّ أصله من قولهم ظبية جازئة ، أي : مكتفية بالعشب عن الماء » وهو الجدّ الأكبر لأهل توتي القاطنين بها إِلى يومنا هَذَا ، أقبل بالجزيرة يجرها كما تجر السّفينة حتّى أرساها لدى صخرة من صخور النّيل حيث هي الآن ثمَّ دعا لها بالبركة ، فهي «توتى أكلها كل حين بإذن ربّها» ولعل لهذه القصّة أصلًا صحيحًا، ذلك بأنّ جزائر النّيل المتكونة من غرينه ومجاري تيّاره ربّما اختفت من هَذَا المكان فِي الفيضان وظهرت مشبهات لها فِي مكان آخر بعده .

والتّيجانيّ بن يوسف بن بشير أو كما نقول بلدنا : التّيجانيّ ود يوسف ود بشير ، رحمه الله ، من كبار شعرائنا ، ولد سنة ١٩١٠م من أسرة عرفت بالفضل والعلم من فرع الكتياب من قبيلة الجعليّين ، وحفظ القرءان فِي خلوة آبائه ، والخلوة عندنا اسم «المسيد» ، أي كتاب القرءان ، ثمَّ التحق بعد بجامع أمّ درمان حيث المعهد العلمّي الأزهريّ ، المنهج الأزهريّ ، سمت المشايخ ، وهو الّذي أصبح الآن جامعة أمّ درمان الإسلاميّة ، ثمَّ عمل فِي الصّحافة وأحسبه لم يكمل دراسته بالمعهد ، عَلى أنّه قد كَانَ آية فِي الذّكاء وسعة الاطلاع ، ملما مَعَ قراءة كتب الأدب واللّغة ودواوين الشّعر الفصيح بكثير من أدب العالم

---

(١) ألقي بالجلسة الثّانية لمؤتمر الدّورة الخمسين يوم الأحد (٢٤ من جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ ، الموافق ٢٦ من فبراير ١٩٨٤م .

وانظر : المجلّة ، جـ ٥٤ ، ص ٨٩ . (حسن) .

العربيّ المعاصر وصحافته ومترجماته من آداب الإفرنج .

كان رحمه الله شاعرًا محسنًا مبدعًا ومع ذلك كَانَ جيّد الأسلوب فِي النّثر . واحتضر رحمه الله ولم يتجاوز السّابعة أو الخامسة والعشرين ، إذ كانت وفاته سنة ١٩٣٧م . وكان سبب وفاته داء السّل من ضرب تمكن منه ولم يمهله . قَالَ فِي كلمة قافية من بحر الخفيف يخاطب بها صديقه الشّاعر الطّيّب الدّكتور محمود أنيس رحمه الله وكان هَذَا معجبًا به عطوفًا عليه ، غيرّ أنّ الأدوية الَّتي يعالج بها السّل الآن فتفيد فِي كثير من الأحيان - ولا يزال فِي هَذَا المرض استعصاء - لم تكن معروفة فِي سنوات الثّلاثين . «لكلّ أجل كتاب» .

قال رحمه الله :

أَيُّها الشّاعر المَجيد وَمَجد الشّـ عر بما تَدوّي بِهِ الآفاق

أَرَأَيت الصَّديق يَأكله الدّا ء وَيَشوي عِظامه المِحراق

مارد هذِهِ السِّقام وَلَكن صَبره الجَم لِلضَنى دَفاق

جَف مِن عوده النَّدى فَتَعرى وَتَنفت مِن حَولِهِ الأَوراق

وَذَوي قَلبه النَّضير وَقَد كا نَ لَهُ فِي زَمانِهِ تخفاق

رَحم اللهُ عَهدهُ فلَئن عا دَ فَعِندي لِدَهرِنا مِيثاق

وَأَنا اليَوم لا حِراكَ كَأَن قَد شَدَ فِي مَكمَن القِوى أَوثاق

بِتُ أَستَنشق الهَوى إِقتِسارا نَفس ضَيق وَصَدر طاق

وَحَنايا مَعروقة وَعُيون غائِرات وَرَجفة وَمَحاق

ما لَنا دُون ذا اِحتِيال فَإِن اللَـ ه فِي عِلمِهِ الشُّؤون الدّقاق

لِي رَجاء فِي رَحمة اللهَ لَما وَسعت فِي الحَياة ما لا يُطاق

فَالشِّفاء الشِّفاء يا رَب وَالعَفو وَزِدها قِوى أَذاها الوَثاق

كَيفَ أَجزيكَ يا أَنيس وَما لي مِن يَد بِالجَزاء مثلي تُساق

فَالقَريض الَّذي تَقدر لا أَع لَم أَن كانَ فِي الجَزا يُستَشاق

فَاِحتَفظها ذِكرى فَإِن مُت فَاِقرَأ بَينَها الحُبّ ما عَلَيهِ مَذاق

أو حَينـا فَسَـوف نقـرأ فيهـا فَـترى لا أَعادَهـا الخَـلّاق

وقال من كلمة أخرى غراميّة ، ومن حيث لم يشعر ضمنها صورًا من حال مرضه وما كَانَ يلقى فِي المستشفى من فحص دم وتسجيل درجات الحرارة من يوم إِلى يوم :

طَفَـرت مِـن صرح قَلبـي إِلى قَـرارة نَـفسي
وَكُنـتُ كَالـدَّم يَضـحي عَـلى دَوي وَيُـمسي
يَظـل يَرقـى وَيَهـوي مِـن حـادر فِي مجـس
مَـلأت روحـي وَصَـور ت فِي مَكـامن حِسي
وَزِنـت يَـومي وَعَلـق ت فِي صَـحيفة أَمسي

وبعد فهذا حين نبدأ فِي ذكر قصيدة الوصف الَّتي هي أرب هَذِه المقالة الموجزة عن هَذَا الشّاعر العظيم :

يـا دُرة حَفَهـا النُيـل وَإحتَواهـا الـبر

بحر القصيدة المجتث والقافية المتواتر الرويّ راء مرفوعة ربّما شددها فِي كثير من الأبيات وجاء بدير فِي إحدى القوافِي وليس بسناد لمكان الفتحة قبل الياء السّاكنة .

بنى الشّاعر تصميم القصيدة عَلى ضرب من تسلسل المعاني واضح بسيط . أولا هَذَا المطلع الَّذي أجمل فيه منظر توتي وموقعها وقيمة جمالها فِي نفسه . هي درة مكنونة يخفيها الماء . ثمَّ هي درة يغالى بها ، إذ أحرزها البرّ واحتواها . ثمَّ هَذَا الوصف «حفها النّيل واحتواها البرّ» مطابق لما كانت عليه حال توتي الجغرافيّة عَلى زمان الشّاعر ، إذ كانت يحيط بها نيل الفيضان كل الإحاطة ، ثمَّ ينحسر عن جانبها الشّرقيّ فِي أشهر نقصانه فتتصل رمال شاطئها الشّرقيّ برمال شاطئ النّيل الأزرق الأيمن وتكون حينئذ شبه جزيرة . الآن يحيط بها الماء طوال العام . وقد نشأتْ بجوارها إِلى جنوبها جزيرة صغيرة كأنها بنت لها شعثاء كثة بالرّمل ونبات الطّرفاء . الطّرفاء مما تأوي إليه التّماسيح . وكأنّ شواطئ توتي تتحدّى بيطبعة بداوتها ما يحاذيها من مباني الخرطوم المنيفة وأسمنتها المسلح

الجليب .

بعد هَذَا المطلع القوي ، أخذ الشّاعر يتتبع أوّل صحوة الحياة فِي توتي مَعَ أذان الفجر حتّى أشرقت الشّمس وظهرت ضروب الحركة والألوان ثمَّ يرتفع ضوء الصّباح وتهب رياحه عَلى رمال الشّاطيء وتختلف ضروب القوارب والزّوارق جيئة وذهوبا بين توتي والخرطوم وأمّ درمان ، ويختتم الشّاعر كلمته بوصف الزّراعة والمزارعين ، وينتهي عند نفس متفائل قد أفرحته الطّبيعة من مناظر توتي بجمالها وسذاجة صدق دلالتها عَلى حقيقة أصالة أهل البلاد .

صَحى الدُّجى وَتَغشا	ك فِي الأُسرة فَجر
وَصاحَ بَين الرُّبى الغ	ر عَبقري أَغَر
وَطافَ حَولَك رَكب	مَن الكَراكي أَغَر
وَراحَ يَنفض عَينيه	مِن بَني الأَيك حُر
فَماج بِالأَيك عِش	وَقامَ فِي العش دير
كَم ذا تَمازج فَن	عَلى يَديك وَسحر

هذا الفصل الأوّل ، وقوله كم ذا ... إلخ ، يمهد لما بعده ـ عَلى ما يبدو منه كأنّه خاتمة ـ وذلك أن ما مضت صفته يصح أن ينعت بأنه فن لغناء الطّير وسحر لما فِي ذلك من جمال ، فهذه خاتمة . ثمَّ قوله «فن» منبئ بعمل وصناعة وأنّ ذلك قد امتزج بالسّحر ، وهو ما تقدم ذكره من صفة الفجر والطّير ، فما هَذَا الفنّ الَّذي هو عمل وصناعة وإتقان ؟ ههنا موضع التمهيد .

قوله «صحا الدّجى» يشير به إِلى وقت الصّلاة ، بدليل قوله وتغشاك فِي الأسرة فجر ـ الصّلاة خير من النّوم ـ والعبقريّ الأغرّ الَّذي صاح بين الرّبى هو المؤذن ، وهو أيضًا طائر الفجر الَّذي يسبق الأذان بصياحه . وما أحسب أنّه كَانَ للمسجد مئذنة فِي ذلك الزّمان ، فكان المؤذن يصعد رباوة من الأرض . والدّيك يقصد كذلك رباوةً من الأرض فيصيح ، وجعل الرّبى غرا مدحًا لها ، ثمَّ هي لارتفاعها لا تخلو من لمع ضوء عليها حين ينفلق

الفجر، وجعل الصّائح عبقريًّا أغر مدحًا لَهُ، ثمَّ لا يخفى أنّ للديك عرفًا عبقريًّا، أي كأنّه من فيح عبقر وكأن لَهُ جبهة غراء. والمؤذن أغر بجبين سجادة الصّلاة. فالكلمات هنا سيقت لدلالة صحيحة لا لمجرد التّوسع اللّفظيّ.

وقوله: «وطاف حولك ركب من الكراكي غر» يشعر بوقت الإسفار. وسمى الكراكي ركبًا، لأنّهنّ من وافدات الطّير وجعلهن غرًّا لبياضهنّ وأنهن طير ماء، يلوح لمع الضيء عليهنّ ويبديهنّ الإسفار بأرجلهنّ الحمر الطّويلة وأعناقهن يرفعنها ويهبعن بها وأجنحتهن ينفضنها وهن يبحثن بمناقيرهن الطّوال عن صغار الحيتان. ومع الإسفار يعلو صوت «ساق حر» وهو الحمام البريّ، وراح ينفض عينيه من بني الأيك حر، أي كائن حر من بني الأيك، هَذَا ظاهر المعنى. ولا أشك أنّه عنى بحر، لا مجرد الصّفة ولكنّ الدّلالة عَلى نفس صوت ساق حر، وهو هكذا كما حاكته العرب بهذا الاسم: ساق حر بنغم من هديل ذي طرب عميق.

وقوله «ينفض عينيه» كأنّه صفة إنسان، فقال: «من بني الأيك» يحترس من ذلك فجاء به كالقرينة المانعة. ولا يخفى أن فِي نفض العينين كناية عن ترك النّوم وهبة الصّباح، تشخيصًا ها هنا.

وله فِي قصيدة يصف بها «حوار الخلوة» أي تلميذ كتاب القرءان، وإنما عنى بذلك بنفسه أيام كَانَ يؤخذ بحفظ القرءان هو وأقران لَهُ صغار.

هَبَّ مِن نَومِه يُدغدغ عَينيه مشيحًا بِوَجهِهِ فِي الصَّباح

وهذا مطلع القصيدة وهي جيّدة فِي بابها ويعجبني منها ـ ونستطرد بذلك هاهنا عَلى طريقة شرّاح الشّعر القدماء. ثمَّ بعض ذلك قد يكون مما يعين عَلى التّنبيه والتّنويه بقدر هَذَا الشّاعر المبدع ـ قوله يصف مشي «حوار الخلوة» كارهًا ودواة الحبر الأسود الَّتي ربّما يكون صنعه هو أو أحد أقرانه أو أقربائه من الصّمغ. وسكن الأواني، قد تلطخت منها ثيابه وشعر رأسه:

وَمَشى بارمًا يَدفَع رجليه وَيَبكي بِقَلبِهِ المِلتاح

ضَـــمخت ثوبـــه الـــدّواة وَرَوَت ... رَأسَـــهُ مِـــن عَبيرهـــا الفَيّـــاح

ثَـــورة صَـــورت خَـــوافِي مـــا بَـــين ... حَنايـــا صَـــبينا مِـــن رِيـــاح

وَرَمـــى نَظـــرة إِلى شَـــيخه الجَبّـــار ... مُســـتَبطِناً خَفِـــي المَنـــاحي

وقد ملّ الصّبية ضبط شيخهم الجبّار لهم وقد ارتفع الضّحى واشتاقت نفوسهم إِلى الخروج والحريّة واللّعب ، وانكفئوا كارهين عَلى ، الألواح فربما غلبهم النّعاس من حين إِلى حين وإذا بدوى كالرّعد وقصف كالزّوابع من زجرة الشّيخ الجبار .

زَهـــرات شَـــتى مُنوعـــة الأَلـــوان ... مِـــن سَوسَـــن الرُّبـــى وَالأَقـــاحي

مَتعـــت شَمسَـــها فَعاودهـــا إِلـــف ... هَـــوى يَســـتَقيدها للمـــراح

وَنُفـــوس سَـــجى الكَـــرى فِي حَواشـــيها ... وَدب الفَتـــــــــــور فِي الأَرواح

كُلَّـــما لَفَهـــا النُّعـــاس وَأَضـــفى ... فَوقَهـــا عالَمـــاً نَـــدي الجَنـــاح

قصـــف الرَّعـــد فِي المَكـــان وَدَوى ... مرزمـــاً صـــاخِباً قَـــوي الصِّـــياح

فَاِســـتَفاقَت وَهينَمَـــتْ بَعـــض أَشـــيا ... ء وَعـــادَت وَعـــادَ قَصـــف الرِّيـــاح

تأمل قوله «وَهَيْنَمَتْ بعض أشياء» وما فِي هَذِه الأبيات من فصاحة وثقل ومتانة .

هذا وإِنّما دعا إِلى هَذَا الاستطراد ما قدمنا ذكره من تشخيصه هبوب «ساق حر» ذي الهديل فِي قوله :

وَهـــبَّ يَـــنفض عَينيـــه ... مِـــن بَنـــي الأَيـــك حُـــر

ثم علت سقاسق صغار الطّير فهذا قوله :

فَـــماج بِالأَيـــك عِـــش ... وَقـــامَ فِي العـــش ديـــر

قوله ماج يلائم ما هو بصدده من نعت جزيرةٍ ونيلها ، وقوله «دير» كأنّه يشير به إِلى قول ابن المعتزّ فِي دير عبدون ورهبانه «النّعّارين بالسّحر» ، وقد أشار إِلى أبيات ابن المعتزّ هَذِه محمّد سعيد العبّاسيّ رحمه الله . حيث قَالَ يصف «مَليْط» فِي غرب السّودان فِي إقليم دارفور :

أَنْـتِ المطـيرة فِي ظـلّ وفِي شـجر فقـدت أصـوات رهبـان وعبـاد

والقصيدة الَّتي منها هَذَا البيت من مشهور شعره وكان حسن الإنشاد يتغنى به ، جهير الصّوت ، شجيه ، فصيح نبراته عذبها . وقد يكون التّيجانيّ رحمه الله أخذها منه ، وكان العبّاسيّ رحمه الله مما لا يفتأ ذا صلة بواعدي الأدباء والشّعراء وكان إذ التّيجانيّ شاب يعَد بنبوغه فِي العقد السّادس من عمره قد اقترب من السّتين . فإن صحّ ما نرجحه من أنّ التّيجانيّ لم يخل من صلة بالعبّاسيّ ، فمكان الإشارة من قوله : «وقام فِي العش دير» جليٌّ إن شاء الله .

ثم يجيء الفصل الثّاني بعد أن سبق التّمهيد الَّذي ذكرناه :

كَـم ذا تَمـازج فَـن عَـلى يَـديك وَسـحرُ

وهو قوله من بعد :

يَخـور ثـور وَتَثغـو شـاة وَتَنهـق حمـر

وَالـبهم تَمـرح وَالـزَّر ع مونـق مخضر

تَجـاوب اللَّحـن وَالطَّحـ ن وَالثّغـاء المسر

وَهـب صَـوت النَّواعـ يـر وَهُـوَ فِي الشَّـجو مـر

إِن الجِـوار وَقَـد ضـا ق بِالقَليـب المَسـدّ

تَـكسرت وَهِـي تَهـوي فَـما تَـلاءم كَسر

فَتِلـك مَعصـوبة الـرّا س كَـم تَنـي وَتخـر

وَتِلـكَ مَـرضى وَهاتيـ ك لِلخَـواطر قَـبر

من قوله : يخور ثور إلى قوله : الثّغاء المسر ينقل لنا التّيجانيّ حيويّة أواخر الإسفار وازدياد نشاط حركة القرية فيه . وقد جمع جمعًا ساحرًا بين ما رأت عينه من مرح البهم وخفق الزرع الناضر وسمعت أذنه من أصوات حيوان القرية . وقد هبت النساء فمنهن من تحلب . عنزًا ولسخالها من حولها ثغاء مسر يسترحم به خشية أن يفوته نصيبه من الضّرع ، ومنهنّ من انحنت عَلى المرحاكة وسحانها ولهوات عجينها وهي تتغنى . ولعل

التّيجانيّ لم يسمع من أصوات توتي فِي الصّباح إلا أنين النّواعير ، فأذكره ذلك مناظر حركة هبة الصّباح الَّتي رآها فِي تجربته المباشرة لبداوة قومه ، وكانت البداوة فِي زمانه غالبة حتّى عَلى من كَانَ يعيش بالمدينة من أبناء بلادنا ، فاستحضر ضروب أصواتها وحركاتها وما ينتظمهن من وئام روحيّ وانسجام ، حتّى صوت الحمار المنكر بنشازه جزء لا ينفصم من هَذَا الانسجام العجيب .

هذا ومما ينبغ أن صوت النّواعير هو الَّذي جعله يثب ببصيرة خياله فيستحضر كلّ هَذِه الصّور والأصوات ، أنّه بعد أن جعل الخوار والثّغاء والطّحن واللّحن كالتّفصيل لما كَانَ أجمله من قوله : «كم ذا تمازج فن ...» عاد بنا إِلى وقت سابق لجميع هَذَا الَّذي فصله ، وذلك قوله :

وَهـــب صَـــوت النَّواعـــيـــر وَهُـــوَ فِي الشَّـــجو مـــر

ذلك بأنّ النّواعير ينهض إليها قبيل الفجر وربّما سبق أنينها تنبيه المؤذن الَّذي يسبق به نداءه للصّلاة . وكلمة النّواعير غير مستعملة عندنا إذ نقول : السّواقي مفردها ساقية للدولاب الَّذي تديره البقر فِي شواطئ النّيل وبالقرب منها ، والسّوانيّ للآبار البعيدة الغور الضّاربة فِي الصّحراء واحدتها سانية ، ويسحب الماء منها بالسّقاء والبكرات والإبل. وما كَانَ وزن البيت ينكسر لو قَالَ التّيجانيّ :

وهب صوت السواقي وهو فِي الشجو مر

أو يشدّد ياء السّواقي . ولكنّه راعي جانب محاكاة صوت السّواقي ، وفِي قوله : «النّواعير» كالحكاية لبعضه ، ويدلك عَلى أنّه أراد هَذَا المحاكاة قوله من بعد : «وهو فِي الشّجو مرّ» . فهذا كما ترى تنبيه عَلى نوع أنينه ورنينه وتذكير به .

ثم قوله : «وهْوَ» هنا خير من «لهْو» ومن تشديد الياء . ثمَّ بعد هَذَا الإجمال الَّذي أجمله لنعت صوت النّواعير ، أخذ يصف منظرها ، وخلع عليه من الوصف ما يجعل مظهره كأنّه رمز لهذه المرارة والشّجى من مخبره :

إِنّ الجِـــوار وَقَـــد ضـــاق بِانقَليـــب المَســـد

تَـــكسّرت وَهِـــي تَهـــوي فَـــــما تَــــلاءم كَسر

كأنّ هَذَا الأنين بعض شكوى هَـذِه الجرار الَّتي لم يلتئم كسرها ، وفِي الشّاعر بعض حزن ورحمة ونوع من النّقد الاجتماعيّ ذي العطف عَلى هَذَا الفقر الَّذي لا يجد إلّا أن يضطّر إِلى استعمال هَذِه الجرار المكسورة ، العسير التئام كسرها ، ثـمَّ لا تخلو الصّور الَّتي صورها بها بعد من روح فكاهة ، كأنّ الشّاعر ينظر بها من بعد إِلى أمر هو من نفسه جد قريب ، إذ هَـذِه السّواقي فِي وسط بحبوحة العاصمة ذات الإفرنج والمتفرنجة إنّما هي صورة صادقة من حياة قومه فِي قراهم ذات البداوة وشدّة العيش مَعَ الأصالة والعرف الكريم .

فَتِلـــك مَعصـــوبة الـــرأ س كَـــم تَنـــي وَتخـــر

وكثيرًا ما تكون الحبال الَّتي تناط إليها الجرار الفخّارية السّود عَلى جوانبها من الطّين وخضرة طحالبه ألوان طويلة المدى لارتفاع الشّاطيء عن مستوى الماء ، خصوصًا فِي زمان انخفاض النّيل ، فتحفر القُلَب ليصلها ماء النّيل ، فربما انحسر النّيل فِي انخفاضه عنها وشرد ، فتحفر مرة أخرى عَلى عجل ، فربّما ضاقت عن الحبال الَّتي عليها قواديس الماء ، وتسمّى الجرة قادوسًا ، فترى بعض القواديس مكسورًا أعلاها ، وبعضها مشرومًا ، وبعضها ربّما طاح أكثر جانبه ، فلم تبق إلا قاعدته وحرف به قطرات سرعان ما يتناثرن عند ما يستدير بهن الحبل الَّذي نيطت به ويسمّى الأَلَس .

وقوله «معصوبة الرّأس» شبه به الجرة بالمرأة الَّتي تشكو وجع الرأس وتجعل عَلى رأسها عصابة وتتوجع بأكثر مما تتألم .

وَتِلـــكَ مَـــرضى وَهاتيـــك لِلخَـــواطر قَـــبر

فالمعصوبة الرّأس كالسليمة وأخرى تجيء بعدها مرضها بين والماء يثجّ ثجًا من شتّى جهاتها ، وثالثة إنّما تشغل من حبل «الأَلَس» مكانًا - وكأنّها شاهد عند أحد القبور - كأنّها ماتت ودفنت وصارت شاهدًا عَلى قبر هو قبرها هي نفسها . أو كأنّ الخواطر الَّتي عجزت أن تجد لها مشبها قد قبرت هناك وصارت هي شاهدًا عند رأسها ، وأكثر ما تكون

شواهد القبور عندنا الحافًا فيهن طول وفِي أطرافهن خشونة ولم يكن يكتب عليهنّ شيء ولكن كَانَ حراسو الجبّانة يعرفون أنّ هَذَا قبر فلان وهذا قبر فلانة . قوله «وهاتيك للخواطر قبر» كأنّما هو مقطع كلام وخاتمته .

وهومقطع بارع . وذلك أنّ الشّاعر انقطع خاطره الشّعريّ عند مرأى تلك الجرّة الَّتي إنّما هي شق من جرة . ثمَّ التفت فرأى قرن الشّمس قَدْ بَدَا . وقد كَانَ مشغولًا عن ذروره بالنّظر إِلى السّاقية وألسها وقواديسه فالآن قد انتبه إِلى ما كَانَ من أمر ذرورها .

وَظَـــلَ قرنـــك يـــا شَمـــــ س آنـــــــذاك يَـــــــذر

هذا بدء الفصل الثّالث ، ومع ذرور الشّمس عموم ضوء الصّباح ووضوح الصّور مصبوغة به بأكثر ممّا كانت عليه فِي وقت الإسفار وذلك قوله :

فكُـــلّ غُصـــن مَصـــابيح مِـــن نَـــدى يَســتدر
وَنـــور الطـــل وَاحَمـــر فِي الثَّـــرى المـــخضر
وَذابَ فِي الرَّمُـــل أو مـــا جَ فِي التَّرائـــب تَـــبر
تَرجـــل الـــرّيح مـــا انهـــا ل مِـــن نَقـــا أن تَـــذر
رَمـــلاء يَـــبرق در مِنهـــا ويُبهـــى ذر

الفصل الثّالث لوحة ذات حيويّة وحركة وآفاق من منظر السّاقية وأشجار السّط وحقول المزارع ثمّ من رمال الشّاطيء ، وقد علا ضوء الصّبح ثمَّ النّيل وفلكه ، وكأنّه الآن يراقب توتي من الشّاطيء المقابل لها بالخرطوم فتسترعي انتباهه شجرة بعينها ذات شخصية تتفرد بها من شاطئ توتي . هَذِه الأبيات الخمسة الَّتي تقدمت هي الجزء الأوّل من هَذِه اللّوحة الحيّة الشّاعرة .

شع الضّوء عَلى القطرات المتناثرات من القواديس عَلى أشجار السّنط وغيرها القريبة وعلى النّدى فوق نبت الحقول وفوق لوبياء الجروف الممتدة إِلى حيث يلقى قرار الغرين الرّمل ثمّ الرّمل ممتد إِلى المعين . ونوّار اللوبياء منه أبيض ومنه أحمر ضارب إِلى لون البنفسج ثمّ عليه هَذَا الطّلّ وكأنّه نوّار .

وقد استرعى انتباه الشّاعر أول شيء لمع الضّوء عَلى النّدى وعلى طل القطرات المتناثر ثمَّ إذا به يفطن لألوان خضرة اللوبياء ونواويرها فكأنّها قد انفتق عنها طلّ النّدى ولمع القطرات وقوله : الثّرى يدلنا عَلى أنه إنّها ينعت لوبياء الحروف ، لأنّ الجروف ما زالت نيّة من بقية ماء الفيضان الَّذي غمرها ، وفِي دارجتنا يقال للتّراب النّدي «التّرى» بقلب الثاء تاء . ثمَّ تأمل لون الطّلّ المنوّر إلى الخضرة الَّتي صارت عند أعاليها حمرة . واللّوبياء من أجمل زرع الجروف منظرًا ، واللّوبيا منها ضروب الفاصوليا ومنها هَـذَا النوع البلديّ ، وهو أجملها وأجودها غذاء ، ومن عجب أنّه يقال لَـهُ اللّوبياء العفن فِي الدّارجة وللآخر الطّيّب وهو أجمل منه وكان اعتماد النّاس عليه فِي طعامهم أشدّ .

هذا والجروف تنتهي عند الرّمل .

والرّمل إذا علا الضوء ازداد بريق ذراته ومنهن العسجديات ، والنّيل الأزرق يمرّ بأرض العسجد فبلغنا أنه فِي أعاليه ربّما غربل بعض ذلك من مائه فبيع فلا أدري ما حظ هَذَا الخبر من الصّحة .

قوله :

وَذابَ فِي الرَّمـــــل أَو مـــــا جَ فِي التَرائـــــــب تَـــــبر

فيه صفة ذرات الرمل العسجدية ، وفيه أيضًا صفة فتيات يردن النّيل فِي سذاجة زي البدواة وقد يكون لبعضهن طوق فيه مثمنات من ذهب ، أو قد تكون أبشار بعضهن زريابيّات ، وشقة من الثّوب تعلو الكتف ويبدو معها بعض التّرائب . وقد كَانَ بعض هَذَا المنظر مما يشاهد فِي قرانا فِي زمان مضى وما أشبه أن يكون التّيجانيّ جاء به ها هنا من الذّاكرة لبعض ما شاهده ، لا فِي توتي ولكن فِي بعض ما يرده البدو من شواطئ أمّ درمان وشواطئ دار الجبلين ثمَّ هَذِه الهبو من غبار الرّمل الّذي تذروه الرّياح عند الشّاطئ .

تَرجـــــل الـــــرّيح مـــــا انهـــــا ل مِـــــن نَقـــــا أَن تَـــــذر

والتّرجيل يكون للشّعر ، وذكر التّرجيل مناسب لما تقدّم من ذكر التّرائب لأنّ عذارى البادية ، الصّغار المعطرات منهنّ ، يردن حواسر الرءوس مضفورات غدائرها . ثمَّ النّقا

تكمل به الصّفة المؤنّثة السّنخ لأنّه أكثر ما يشبه الشّعراء النّقاب مآكم النّساء الحسّان . قَالَ امرؤ القيس :

كَحَقفِ النَّقا يَمشي الوَليدانِ فَوقَهُ ... بِما اِحتَسَبا مِن لينِ مَسٍّ وَتَسهالِ

وقد جعل التّيجانيّ ما تذروه الرّيح من رمل نقا كثبان الشاطئ كالشّعر المنتشر ، ما امتدّ منه وما تطاير . قوله تذر من ذرِّك الحبَّ ولك أن تقرأ : أو تذرو بتسكين الذّال لتلائم تبر قبلها ، ثمَّ يعطينا الشّاعر صورة الشّاطئ الرّملي مجملة :

رَملاء يَبرق در ... مِنها وُيبهر ذر

يبهر لأنّ لونه لون التّبر . والأبيض من قطع الرّمل الصّغار در وقد سبق قوله فِي أوّل القصيدة حيث أجمل نعت الجزيرة كلّها وقال :

يا دُرة حَفّها النّيـ ... ـل وَاِحتَواها البرّ

فهذا البرّ الَّذي احتوى جانبًا منها فحازه إِلى الشّاطئ الشّرقي كلّه كما ترى در يبرق وتبر يبهر . ثمَّ الجزء الثّاني من هَذَا الفصل الثّالث وفيه يصف حيث امتدّ بصره من الرّمل إِلى الفلك ، بعضها مراكب السّنط البلديّة الَّتي يعدى بها بين توتي وشاطئ الخرطوم وشاطئ أمّ درمان، وبعضها المراكب السّفرية القادمة من نواح أبعد ، وبعضها زوارق نزهة عاصمية ومنهنّ ذوات شراع من الضّرب القديم ، ومنهن ذوات شراع من نوع يُسار به فِي اتجاه الرّيح وعكسها ـ قَالَ رحمه الله :

وَالفلك فِي جانبيها ... كَالدَّهر ما تَستَقر
هَذا شِراع مُكسر ... وَذا شِراع مفر
يَطوي وَيَنشر وَالريـ ... ـح مِن هُناك تَمُر
وَزَورق يَتَهادى ... وَزَورَق يَستَحر
يُرسي وَيُقلع وَالشَّطّ ... هادئ مُستَقر

هذا آخر هَذَا الجزء ويجيء بعده بيت متّصل به فِي المعنى وممهد للجزء الَّذي يلي وهو

قوله :

وَفِي الضِّفاف أوزّ دكن الجَوانح كَثر

ثم يجيء الجزء الأخير من هَذَا الفصل الثّالث وهو قوله :

وَرَبّ قَنواء لِلعَصم وَالأَنوق مَقَر
أَوفى عَلى النّيل فرع مِنها وَأَشرَف جَذر
يَقلها الدَّهر عرقا ن مُستَطيل وَشبر
يَكادُ يَلفظها الشَّط وَهِيَ شَمطاء بكر
وَالنّيل يقدم مد مِنهُ وَيَجفل جزر
وَكَم تَقادم عَهد وَكَم تَصرم دهر
وَتِلكَ يَأوي إِلَيها فِي الوَقدة المُستَحر

فهذان الجزءان كالمتّصلين معًا لما ذكرنا من بيت الإوز أنّه يصل بينهما ، والجزء الأوّل فِي صفة الفلك ، وجعل آخرها وصف القارب الَّذي يجيز من شاطئ إِلى شاطئ ، وكأنه نظر إِلى شاطئ توتي وهو قاصد إليه ومترقّب مقدم القارب الَّذي يجوز به إليه ، فصور وداعته وهدوءه وملقى ما تلقى الأشجار عليه من الظّلال ، وهذه الإوز العوائم كأنّها سواكن بالقرب من ظلاله ، وكأنّ أجنحتها بعض هَذِه الأشرعة الَّتي تطوى وتنشر وترسى القوارب بها وتقلع ، غير أنّهنّ دكن لا بيض وكأن الضّحى ارتفع واقترب الزّوال ، فخفتت أصوات السّواقي ورجع الزّراع إِلى دورهم للمقيل ، فهذا مما هيأ للإوز مجال الانتفاع بهدوء الشّاطئ .

وبالشّاطئ هَذِه الشّجرة القنواء أي المرتفعة فِي احديداب . وبالغ التّيجانيّ فِي ارتفاعها وكأنها صخرة ناتئة تأوي إليها العصم من الوعول وتبيض فوقها الأنوق ، والأنوق الرّخم . وأراد بيض الأنوق بقوله الأنوق . وكلتا الكلمتين : العصم والأنوق من الغريب المحفوظ ، وفِي نحو هَذَا الاستعمال كالإشارة إِلى ما ورد فيه من محفوظ الكلام كالمثل :

طلبَ الأَبْلَقَ العَقُوقَ فَلَمّا لَمْ يَنَلْهُ أرادَ بَيْضَ الأَنُوقِ

وليس مقر الأنوق نفسه كمقر بيضه ، فعسى أن يؤخذ بعض هَذَا عَلى التّيجانيّ ولكنّه مما يحتمل . وقال سويد فِي الأعصم وهو من مشهور الشّعر :

وَدَعَتنــــــي بِرُقاهـــــا إِنَّهـــــا   تُنــزِلُ الأَعَصَـمِ مِــن رَأسِ اليَفَــع

ويجوز أن يكون التّيجانيّ رأى هَذِه الشّجرة فِي الشّاطئ المقابل ، وأحسبها حرازة لقوله: شمطاء بكر ، إذ الحراز يعروه يبس زمن الفيضان ثمَّ يأخذ من بعد فِي الاخضرار .

وقد وصفها الشّاعر وصفًا حيًّا دقيقًا ، هَذَا الفرع المشرف عَلى النّهر وهذان العرقان اللّذان يمسكانها أن تخر والنّيل تصيبها أمواجه وتنحسر عنها . عرق طويل كاد ينسل من التّربة ، وآخر أقصر منه متمكن لعلّه هو الَّذي عليه اعتمادها وهذه الشّجرة الشّمطاء القديمة البكر إذ لا ثمر عليها أو لانفرادها إنما ظلها ظل أعواد . لا ظليل ولا يقي من لهب الهجير . وصح هَذَا ، يقول الشّاعر :

وَتِلــــكَ يَــــأوي إِلَيهـــا   فِي الوَقــــدة المُســــــتَحر

ولعلّه أوى إليها ينتظر مقدّم القارب للعبور . أو رأى بعض من يريد العبور أو من طال به دأب العمل قد أوى إليها إذ هي وحدها كانت مصدر ما عسى أن يستظلّ به .

ولا يخفى ما فِي قوله : «وتلك يأوى إليها ... إلخ» من الإشعار بآخر الفصل الثّالث .

ثم كأن الشّاعر قد قَالَ مَعَ أصحاب المقيل . ثمَّ لما دلكتْ براح وجعلت وقدة الحرارة تخبو شيئًا وجعلت الأفياء تطول ، خرج الشّاعر يتنزه فِي المزارع ويرى بهجة ريفها وخصبه وعمل العاملين فيه من قريب . وبلادنا صيفها أجرد حتّى شاطيء النّيل نفسه أجرد وكلّ الشّجر أغبر إلا الحراز يخضر حين تغبر سائر الأشجار وإلا الهجليج والتّنضب والطّرفاء اللّاتي إنّما خضرتهن غبرة ويحسن أن نذكر عَلى سبيل الاستطراد أن هَذَا التّجريد وهذه التّعرية من الزّرع الَّتي يصيب بها الصّيف البلاد عندنا لعلّها مما تصح به الأجسام ، إذ استمرار السّقي بالجداول ما أكثر ما ينشأ منه استشراء شرّ البلهارسيا وهي داء قتّال .

هذا والنّاس عندنا يسمون بلاد مصر «الرّيف» . فإذا قالوا بدارجتنا «فلان مشى الرّيف» أو «شال الرّيف» فمعنى ذلك سافر إلى مصر ، إذ قد ثبت فِي أذهان فكرهم

اللّغوي أنها دار خضرة وفلاحة مستمرّة ، وهو الانطباع الّذي كانت تؤوب به قوافل سنّار ودرب الأربعين فِي الزّمان القديم . وقال الشّيخ العبيد وَدْرَيا للحكمدار عبد القادر باشا حلمي : لما جاءه يستشيره فِي أمر مناجزة الثّورة المهديّة وكان هَذَا أمرًا جادًّا حازمًا مدركًا لخطورة الموقف فقال لَهُ الشّيخ العبيد : «إن كَانَ سمعت كلام الخريف ، أي الرّجل الخرف عني نفسه لكبر سنه ، تريَّفْ قبل ما تصيَّفْ» .

قال التّيجانيّ فِي آخر فصول قصيدته وهو يصف الزرع وعمل أهل توتي فيه :

يا أُخت مصر وَتَفديك فِي المكاره مَصر
حَيا شَبابك فَيض مِن الرَخاء وَيسر

قوله يا أخت مصر يعني فِي الخضرة ، ثمَّ قد كَانَ من أعظم أماني الشّاعر أن لو تتاح لَهُ زيارة مصر والاغتراف من بحر علومها . وقد بعث بديوانه إليها ليطبع ثمَّ وقع فِي ذلك ريث أو مطل . فلم يطبع الدّيوان إلا بعد وفاته بزمان وقد كَانَ يأمل أن تراه عيناه مطبوعًا. وقد سماه «إشراقة» ، وقدم لَهُ بأولى قصائده وعنوانها «قطرات» ومنها قوله :

قَطرات مِن الصِّبا وَالشَّباب الغَضّ مُنسابة بِهِ مُنساقَه
وَرِهام مِن رُوحي الهائم الوَلهان أَمكَنَت فِي الزَّمان وَثّاقَه
ظَلَّ يَهفو إِلى السَّماء وَيَشكو لَوعَةَ الرّوح ها هُنا وَاِحتِراقَه
يَتحدرن مِن مَعابد أَيامي حَنيناً أَسمَيتُهُ إِشراقَه

ورحم الله شيخ العربيّة سيبويه إذ ذكروا أنه أنشد وهو يحتضر فِي قريب من معنى ما نحن بصدده :

أراد حياة لتبقى لَهُ فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثاً يرى أصول النّخيل فعاش الفسيل ومات الرّجل

هذا وقد وجدت تعليقًا عَلى بيته فِي إحدى النّسخ المدرسية ، أعني قوله :

«يا أخت مصر Idee Politioque» أي فكرة سياسية . وعندي أنّ هَذَا خطأ فما أراد الرّجل إلا معنى الرّيف الّذي ذكرنا ، وتفضيل ما رأى فِي ريف توتي أنّه أشدّ إيغالًا فِي

البداوة الرّيفيّة من ريف مصر . وكان جموح بداوة الطّبيعة إِلى نفسه حبيبًا فما عدا بقوله : «وتفديك فِي المكاره مصر» مجرّد الاستحسّان . وبلا شك لا يشير إِلى حوادث المظاهرة الَّتي استشهد فيها أحد أبناء توتي ، فإِنّ ذلك ما كَانَ إلا سنة ١٩٤٢م . والتّيجانيّ رهين قبره منذ سنين . ولئن كَانَ نظر بعين الغيب ، والشّعراء مما يتاح لهم الكشف أحيانًا . فإِنّ سنة ١٩٤٢م قد كانت سنة أحداث جسام أيّما جسام فِي مصر وفِي العالم أجمع . ويدلّك عَلى أن مراده الاستحسّان قوله من بعد : « حيّا شبابك فيض ... البيت» وشبابها هؤلاء الذين استضافوه وغمروه بكرمهم وصدق أريحية ريفهم . وفِي أهل توتي شهامة ومروءة من أصالة وفضل كثير .

كَـــم فِي المَـــزارع قَـــوم ... شَـــم العَـــرانين صـــعر
هبـــوا سِراعـــاً إِليهـــا ... وَلَـــيسَ مِنهـــا مَفَـــر

إذ هي دورهم وطينهم الَّذي لا يبيعونه بشيء ولا يدر عليهم ـ كأكثر طين بلادنا ـ كبير شيء .

ذيـــاك يَعـــزق فِي ... العُشـــب جاهِـــدًا مـــا يَقـــر
وَذاكَ يَعنيـــهِ حَـــرث ... وَذاكَ يَعنيـــهِ بِـــذر
وَمـــاجَ فِي الغَـــيط نـــشء ... مـــلء النَّـــواظر خـــزر

وإِنّما سمّاه غيطًا لما سبق من التّشبيه بريف مصر . وأكثر ما يملك المزارع بضعة حبال قد يبلغ الحبل الفدان أو ينقص ، وكلمة الغيط غير معروفة عندنا وإِنّما يقال الدّار والدّيار والواطئة . بتحفيف الهمزة حتّى كأن ليست موجودة ، لأنّ أكثر ما يزرع إِنّما كَانَ ما يسهل سقيه قرب النّيل أو يغمره فيضانه . ويعجبني قوله : «نشء ملء النّواظر خزر» إذ فيه صفة حركة خزاورة الولدان . وصغار البنيات وشيطنتهم وكبرياء حداثتهم مَعَ الصّحة والنّشاط ، ثمَّ تأمّل ضروب ما كَانَ مزروعًا من نبات .

هَنـــاك فـــول وَهَـــذا ... ك فِي السَـــنابل بَـــر

وقد كَانَ بسكناه أم درمان لعله لم يتح لَهُ تمييز الفول من غيره من القطّاني وتمييز البرّ

من الشّعير إلا حين زار توتي وشرح لَهُ أصحابه أو أصحاب الزّرع من ذلك ما شرحوا .

وَمـــا تَعـــــذر شَيء   وَلا تَـــــعسر أمــــــر

لأنّ أهل توتي بقربهم من الخرطوم وأمّ درمان كانوا لا يألون فِي تجربة ما عسى أن ينفق فِي السّوق من ضروب الخضر مما لم يكن لأهل البلد به عهد وله الآن من أهل العاصمة طلب .

مشى الضحى . . . .

قوله : مشى الضّحى يقوّي صحته ما قدمناه من أنّه الآن ينظر إِلى المزارع والوقت العصر ، وسيعود الضّحى وقبله الفجر بنواعيره ويتكرر جمال المنظر كما قد سبق من صفته.

مَشـــى الضُّـــحى وَلَـــهُ   بَعـــدِ فِي رُبـــاك مَجَـــر

وهذا البيت مشعر بنهاية القصيدة . وقوله مشى الضّحى كأنّه يشير به إِلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى : ١-٢] ... وقد مضى الضّحى ويومه كله وها هو ذا الدّجى قد اقترب ليسجو ثمَّ يغشى النّاس الأسرة ، ثمَّ يغشى الأسرة فجر .

صَـــحى الـــدُّجى وَتَغشـــا   ك فِي الأُسرة فَجـــــــر

وَصـــاحَ بَـــين الرُّبـــى الـــغ   ر عَبقـــــري أَغَــــــر

وهذا أول القصيدة ولا يخفى أنّ فِي قوله «مشى الضّحى ... إلخ ...» الّذي فِي آخرها أصداء من هَذَا الأوّل .

وقد اكتفينا من عرض هَذِه القصيدة بعرض بنية تصميمها وتفصيل دقائق معانيها . وعندنا أنّ من ينسب إِلى التّيجانيّ رحمه الله غموضًا فِي شعره لعلّه إنّما أُتى من تعجّل عن تأمّل معانيه . وقد ترى نقاء ألفاظه وفصاحة عربيتها وجودة تخيرها وخفاء ضروب جناسها الدّاخلي ورنّات جرسه وموسيقاه ، كقوله :

وَطـــافَ حَولَـــك رَكـــب   مَـــن الكَراكـــي أغَـــر

وَراحَ يَـــــنفض عَينيـــــه   مِـــن بَنـــي الأَيـــك حُـــر

تأمّل الكاف وتأمّل تجاوب أصداء «راح» فِي أوّل البيت عند : وراح ينفض عينية مَعَ حر فِي آخر البيت عند قوله :

من بنى الأيك حرّ .

وتأمل تجاوب الشين فِي قوله :

فَـــماج بِالأيــــك عِــــش وَقـــامَ فِي العـــشّ ديـــــر

مع هَذَا التّدرج من الأيك إِلى العشّ إِلى الدّير والثّاء والتّاء والواو مَعَ التّقسيم فِي قوله :

يَخُـــور ثـــور وَتَثغـــو شـــاة وَتَنهـــق حمـــر

والحاء والنّون والألف فِي قوله :

تَجـــاوب اللّحـــن وَالطّحـــن وَالثّغـــاء المسر

مع الجمع الَّذي جمعه بين اللّحن والطّحن والثّغاء .

ثم كأنّه يحكي صوت تكسر الجرار بقوله : إنّ الجرار وقد ضاق بالقليب الممر تكسّرت وهي تهوي فما تلاءم كسر قوله وقد ضاق بالقليب فيه نوع من حكاية الضّيق والجرار والممرّ وتكسّرت وراء القافية . ذلك يحكي صوت الكسر .

والراء الَّتي جعلها قافية يلتزم التّشديد فيها حينا ويفارقه حينا لا تخلو من صدى اصطفاق أمواج النّيل عَلى جانبي القارب الَّذي عبر به وعند الشّاطئ وحيث الشّجرة الشّمطاء البكر الَّتي يقلها الدّهر عرقان مستطيل وشبر .

وحسبنا هَذَا القدر من الإلماع إِلى جودة لفظه وحسن تقسيمه ورنة موسيقاه ، إذ لو ذهبنا نفصل لاحتجنا إِلى وقفات وتأملات تطول ولا يتسع لها مجال هَذِه الكلمة الَّتي أشدّ ما يحرص فيها عَلى الإيجاز :

والتّيجانيّ رحمه الله يعد من شعراء «الرّومنسيّة» العربيّة الحديثة ولا أدري لماذا يوصف شعر عربي «بالرومنسيّة» وهي مفهوم ومدلول ومعنى إفرنجيّ ، اللّهم إلا عَلى تقدير ضرورة أن تكون لأدب العربيّة «رومنسيّة» كما لأدب الإفرنج «رومنسيّة» . وإنما جاءت «الرومنسية» إِلى أدب الإفرنج فِي بعض ما أدى إليها من الأسباب من طريق التّأثر بآداب

العربيّة ولاسيما فلسفة التّصوف ومغامرات حكايات ألف ليلة وليلة . وقد ذكر كلوردج ما كَانَ من شغفه بها شغفًا شديدًا وهو صبي حتّى ساء ذلك أباه فانتزع كتابها منه وأتلفه خوفًا عليه أن يشغله ذلك عن حب التّحصيل .

وربّ خطأ شاع فسير عليه . فإن وصفنا التّيجانيّ عَلى هَذَا الوجه «بالرّومنسية» فهل ذلك يكون صوابًا من جهة نعت الجانب الوجداني المنفصل الذّاتي المزاج فِي شعره مَعَ نَفَسِ التّصوف ، وهو عنده أصيل بحكم نشأته ، والكلف بالجمال والحب للطّبيعة وطول التّأمل لها . وهو بعد القائل فِي قصيدة المقدّمة يصف شعره ونفسه الشّاعرة وموقع قطرات روح الإلهام الَّتي جعلها عنوانًا لقصيدته منها :

إن تَـردَت فِي غـائر مِـن أمانيـه ... وَنَـدت مِـن الهَـوى أعراقَـه
وَاسـتَقَلت بِأصـغَريه فَكَـم ... قَـومن أَضـعافه وَانهَضـنَ سـاقَه
شاخِصـاً مـا يَـزال يَعـزف مـا شـاء ... عَـلى مزهـر النَّـدى أَشـواقه
كُلَّـما لَـج فِي الـذُّهول أطبـاه المـز ... هـر الرَّطـب فِي يَديـه فَشـاقَه
بَعـض أندائِـهِ فيـوض مِـن النّـو ... ر وَنَبـع مِـن قُـوة خلاقـه
لَفَهـا فِي الصِـبا وَأَضـفى علَيهـا ... عَبقـري المَطـارف الرَّياقـه
فَهِـيَ دفـق مِـن عـالم كُلّـهُ قَلـب ... خَفـوق وَلَوعـة دَفاقـه
عـالم الحُسـن وَالجَـمال وَدُنيـا ... الحُـبّ وَالقَلـب وَجـدَهُ وَاشـتِياقَه
يَتَحـدَرن مِـن مفـاجع أيـا ... مـي وَمَهـوى مَـدامِعي الرَّقراقـه

ولعلّه أن يعد من عناصر «رومنسيّة» التّيجانيّ ـ إن تك ثمَّ «رومنسيّة» ـ فتنته بجمال الحضارة الجديدة وهو ابن أصالة البداوة ، وتلميذ المدارس الدّينيّة فِي نشأته ودراسته وميرات آبائه . ومظهر الخرطوم ذو النّعمة الإفرنجيّة فِي أزياء فتيات ، لعله مما فتنه . وهو القائل فِي صفة الخرطوم :

مَدينـة السّـحر مـراح العَجـب ... وَمغتـدى أعينـه السّـاحِرَه
تَنـام فيهـا حجـرات الـذَّهَب ... عَـلى رِيـاض نَضرة زاهِـرَه

وفي حسّان الخرطوم من النّصارى :

آمَنــــت بِالحُســــن بَـــردًا وبِالصَّـــــبابة نـــــارا
وَبِالكَنيســـــة عقـــــدًا مـــنضرًا مـــن عَــــذَارَى
وَبِالمَســـيحِ وَمَـــن طـــافَ حَولَـــــهُ وَاســــتَجارا
إِيــمانَ مَـــن يَعبَــد الحُســـن فِي عُيـــون النَّصـــارى

وكأنّ هَذِه الأبيات لا تخلو من بعض محاولة خفة الرّوح .

ولعلَّه أن يعد من عناصر «رومنسيّته» أيضًا ولَعَه بالإشارة إِلى المعتقدات الشّعبيّة الَّتي عهد منها فِي صباه كقوله فِي قصيدة لَهُ ذات عشرة أبيات عنوانها «تعويذة» .

عــوذوا الحُســن بِــالرُّقى أَو خُــذوني أَنــا تَعويـــذة لِكعبـــة روحـــي
قَربوهـــا مُجـــامراً أَنـــا وَحـــدي عـــوذ لِلجَـــمال مِـــن كُـــل روح
أَحرِقـــوني عَـــلى يَديـــهِ وَشَـــيّدوا هَيكَـل الحُـب مِـن فُـؤادي الـذَّبيح
وَاعصروا قَلبـــي المُفـــزع للحُســـ ـن أَمانـــاً وَعـــوذوه بِنـــوح

فمن التّشبيهات هنا ما انتزعه من صميم الحياة «الشّعبية» عندنا . الضّريح الَّذي عليه كالهيكل وعند طرفيه رايات تناط بها الأعلاق والنّذر وربّما كَانَ ثَمَّ عطر وبخور . وتعويذة العين باللّبن والمجامر ، وقراءة : «والسّماء ذات البروج» بعد زجر الرّوحاني الخبيث الَّذي اجتلبته العين بـ :

يـــا عـــين يـــا عنيـــه يـــا كـــافرة يـــا نصرانيّـــة

وكان أكثر أهل الشّاطئ نصرانيّين والإسلام بالبادية فنسبوا العين إِلى أهل الدّين المخالف وبقى ذلك دأبهم حتّى بعد زوال النّصرانية من البلاد ، ولم يكن جنوب السّودان جزءًا منها إلا منذ أواخر القرن الماضي الميلاديّ :

دبيتـــــك بديَّـــــة دبيَّـــــة النبـــــي زكريـــــا

اخرجي ...

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ إلى آخر السورة

يـــــا النّبـــــي نـــــوح   يـــــا قـــــارئ اللـــــوح

فهذا قوله : وعوذوه بنوح .

وفي قوله : «واعصروا قلبي المفزّع» شيء مما أشار إليه «ماريو براز» في كتابه عن احتضار الرّومنسيّة أن الرومنسية كَانَ فيها فرط شغف بالحسن المُتَغَوِّل ، كما في منظومة كيتس الّتي عنوانها الحسناء بلا رحمة la Belle Hame Sans Merci وتأمّل قوله بعد :

وَتَعـــالوا خُـــذوا النَّعـــيم لِحَديـــ   ـــه الوَضيئين مِـن دَوامي جُروحي

وَاسـتَمدوا إِلَيـهِ أَنفـاسي الوَلـــ   ـــهى سَلامًا إِن كانَ غَير صَحيح

هُـوَ قَلبـي قُـربي الجَـمال إِذا كـا   ن فـؤاد عَـلى الهَـوى بِشـحيح

وقوله : إذا كَانَ فؤاد بشحيح فيه ما لا يخفى من درس الألفيّة وشواهدها نحو : «ولكنني من حبها بعميد» و «وألا ليت ذا العيش اللّذيذ بدائم» .

شيء يفارق به التّيجانيّ كل المنسوبين إلى «الرّومنسيّة» من شعرائنا كل المفارقة وهو تمكنه من العربيّة ويسر فصاحة أساليبها عَلى مجاري قلمه وخلجات شاعريته . وقد نبهنا من قبل إلى نقائه وجودة لفظه ومعانيه وشيء آخر من صميم المعنى والتّصميم وآفاق التّعبير يختلف به عن سائر الرّومنسيّين العرب وهو دقته في الوصف وتفصيله وتعمّقه وغرفه من واقع الحياة ولاسيما الجانب البدوي منها . وهو في هَذَا الوحي من أساليبه قوى الشّبه بشعراء «الرّومنسية» الإفرنج مثل شيلي في الريح الغربية ، وكيتس في العندليب ونعت الخريف . وهذا بعدُ باب يحتاج إلى تفصيل وتفريع لا تسمح به فرصة هَذَا البحث بل هَذِه الكلمة التّقديمية لا شيء غير ذلك .

والتّيجانيّ ذو محافظة عَلى روح القصيدة ، عالم بسرّ وحدتها في موسيقاها ومبدئها وخروجها ونهايتها ، وقد رأيت كيف خروجه من فصل إلى فصل ، بحيث آخر كل فصل مشعر بنهايته وممهد لما بعده . وقل من يشابهه في هَذَا الباب من شعراء «الرّومنسية»

العربيّة الحديثة . وهذه الرّائية الّتي سقناها نموذجًا منه ، وهي عندي من عيون شعره رحمه الله ، لا بل من عيون شعر العربيّة الحديث المعاصرة كله إن شاء الله . قد أفادها بحر المجتثّ ، وهو بحر موصوف بالحلاوة ، من حلاوته وصفائه وخفة نغمه ، وينتظمها انفعال وجداني قوي واحد ، وفِي صياغتها السّهلة الجزلة تجاوب وانسجام بين أنواع موسيقا اللّفظ وظلال الصّور وأضوائها ، والمعاني ، فِي وضوحها وإيحائها بما توحي به .

ثمّ فِي القصيدة ، بعد ، هَذَا الّذي كَانَ يمدحه النّقد القديم من براعة الاستهلال والمطلع ، حيث قَالَ :

يــــا دُرة حَفّهـــــا النّيـــــل وَاحتَواهـــــا الـــــبر

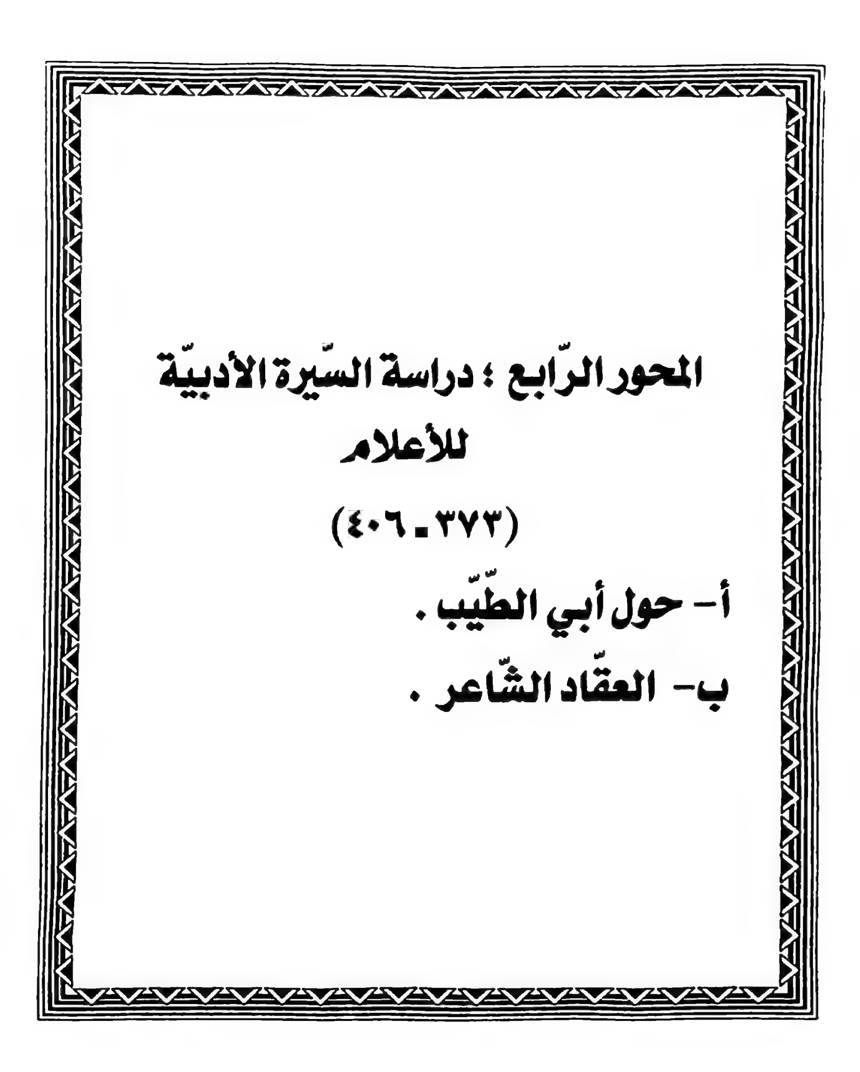
وحسن الاختتام والمقطع حيث قَالَ :

مَشــــى الضُّــــحى وَلَــــهُ بَعــــد فِي رُبــــاك مَجَــــر

رحم الله التّيجانيّ ود يوسف ود بشير . أو التّيجانيّ يوسف بشير ، كما تقول فِي لغة « الرّوتين » المعاصر . لقد كان شاعرًا فحلًا ومع ذلك لم يجد من نقاد العربيّة ما يستحقه من التّقدير ، ولم يشتهر بما هو أهل لَهُ من الاشتهار . حداثته وكونه من السّودان من بعض أسباب ذلك . والشّهرة بعدُ أرزاق ولكنّه من واجب النقد أن ينبه عَلى المحاسن وألا يألو فِي ذلك جهدًا .

نأمل أن نكون قد أصبنا من ذلك جانبا .

ولله الحمد أوّلًا وأخيرًا وصلى الله عَلى سيدنا محمّد أفضل الخلق وسيّد المرسلين وقائد الغرّ المحجلين وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا .



المحور الرّابع : دراسة السّيرة الأدبيّة للأعلام

(٣٧٣ ـ ٤٠٦)

أ- حول أبي الطّيّب .

ب- العقّاد الشّاعر .

أ ــ حول أبي الطّيّب (١)

فِي شعر أبي الطّيّب شواهد تدل عَلى أنّه هُمَّ باغتياله أو أخذ عليه الطّريق أو أريدت إليه الغوائل وما بمجراها غير مرّة كقوله :

يحمي ابن كيغلغ الطّريق ... .البيت

فقد ذكروا أنّه اعتل عن مدح ابن كيغلغ لما سأله المديح وذلك قول أبي الطّيّب «أرسلت تسألني المديح سفاهة» بحلف ألّا يمدح أحدًا إلى مدة عينها فأخذ هَذَا عليه الطّريق حتّى تنتهي تلك المدّة فاحتال أبو الطّيّب وهرب من وجهه .

وكقوله يذكر أُسْد الفراديس :

أَجارُكِ يا أُسدَ الفَراديسِ مُكرَمُ ... فَتَسكُنَ نَفسي أَم مُهانٌ فَمُسلَمُ

وَرائي وَقُدّامي عُداةٌ كَثيرَةٌ ... أُحاذِرُ مِن لِصٍّ وَمِنكِ وَمِنهُمُ

فَهَل لَكِ فِي حِلفِي عَلى ما أُريدُهُ ... فَإِنّي بِأَسبابِ المَعيشَةِ أَعلَمُ

إِذاً لَأَتاكِ الخَيرُ مِن كُلِّ وِجهَةٍ ... وَأَثرَيتِ مِمّا تَغنَمينَ وَأَغنَمُ

ولا يخفى ما فِي هَذِه الأبيات من الشّعور العميق بالوحشة مَعَ الطّموح المفرط .

وكقوله:

أَتاني وَعيدُ الأَدعِياءِ وَأَنَّهُم ... أَعَدّوا لِيَ السّودانَ فِي كَفرِ عاقِبِ

وَلَو صَدَقوا فِي جَدِّهِم لَحَذِرتُهُم ... فَهَل فِيَّ وَحدي قَولُهُم غَيرُ كاذِبِ

وأحسبه مَعَ هَذَا قد حذرهم إذ قد كَانَ مجبولا عَلى ذلك .

وكقوله :

وَمُنتَسِبٍ عِندي إِلى مَن أُحِبُّهُ ... وَلِلنُّبلِ حَولي مِن يَدَيهِ حَفيفُ

فَهَيَّجَ مِن شَوقي وَما مِن مَذَلَّةٍ ... حَنَنتُ وَلَكِنَّ الكَريمَ أَلوفُ

وَكُلُّ وِدادٍ لا يَدومُ عَلى الأَذى ... دَوامَ وِدادي لِلحُسَينِ ضَعيفُ

---

(١) المؤتمر ٤ الدّورة ٣٣ ، الجلسة ١ ، البحوث والمحاضرات ، ص ٣٤١ . (حسن) .

فَإن يَكُنِ الفِعلُ الَّذي ساءَ واحِداً ... فَأَفعالُهُ اللائي سَرَرنَ أُلوفُ
وَنَفسي لَهُ نَفسي الفِداءُ لِنَفسِهِ ... وَلَكِنَّ بَعضَ المالِكينَ عَنيفُ
فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَها يَكُ قَاتِلًا ... بِكَفَّيْهِ فَالقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

وقيل : إنّ أبا العشائر غضب عليه لأمر فأرسل غلمانا لَهُ ليقتلوه بظاهر حلب فرماه أحدهم وقال : خذها وأنا غلام أبي العشائر .

وقيل : إنّما حدث هَذَا أمام باب دار سيف الدّولة عشية يوم إنشاده :

واحَرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ ... وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ

وخبر هَذِه الأبيات يوقف عنده .

فربّما كانا خبرين رويا كأنّهما خبر واحد بروايتين ، أحدهما أنّ أبا العشائر هم بأبي الطّيّب لأسباب خاصة بينهما والآخر أنّ سيف الدّولة أو غيره هم بأبي الطّيّب عشية يوم إنشاده الميميّة .

ولا ريب أنّ أبا الطّيّب شمّ ريح الموت من تلقاء سيف الدّولة ومجلسه يوم أن أنشدها ـ قالوا رماه سيف الدّولة بدواة ولو قد تخطفته السّيوف حينئذ لجاز عنده . قالوا : ورقّ لَهُ لما أنشد :

إِن كانَ سَرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا ... فَما لِجُرحٍ إِذا أَرضاكُمُ أَلَمُ

وكشفت الصّحيفة فلم يوجد بها هَذَا البيت .

ومما يقوى حدسنا أنّ أبا الطّيّب قارب الموت فِي ذلك المجلس ما رووه من سعاية أبي الفرج السّامري فِي دمه وترخيص سيف الدّولة لَهُ فِي ذلك ثمّ ما اضطّر إليه أبو الطّيّب آخر الأمر من الاعتذار بالبائية .

أَلا ما لِسَيفِ الدَّولَةِ اليَومَ عاتِبا ... فَداهُ الوَرى أَمضى السُيوفِ مَضارِبا
أَهَذا جَزاءُ الصِدقِ إِن كُنتُ صادِقًا ... أَهَذا جَزاءُ الكِذبِ إِن كُنتُ كاذِبا
وَإِن كانَ ذَنبي كُلَّ ذَنبٍ فَإِنَّهُ ... مَحا الذَنبَ كُلَّ المَحوِ مَن جاءَ تائِبا

والأبيات الفائتة أرجح أن يقال إنّها متعلقة بخبر الميمية إذ كانّ أبا الطّيّب ينفي فيها أن

يكون أبو العشائر هو الّذي رام قتله وذلك قوله :

وَمُنتَسِبٍ عِندي إِلى مَن أُحِبُّهُ ... وَلِلنَبلِ حَولي مِن يَدَيهِ حَفيفُ

والله تعالى أعلم .

وفي البائيّة الّتي أنشدها أبو الطّيّب كافورا قوله :

وَكَم لِظَلامِ اللَيلِ عِندَكَ مِن يَدٍ ... تُخَبِّرُ أَنَّ المانَوِيَّةَ تَكذِبُ

وَقاكَ رَدى الأَعداءِ تَسري إِلَيهِمُ ... وَزارَكَ فيهِ ذو الدَلالِ المُحَجَّبُ

الأعداء هنا سيف الدّولة وبطانته بلا ريب بدليل قوله في الكلمة نفسها :

وَيَومٍ كَلَيلِ العاشِقينَ كَمَنتُهُ ... أُراقِبُ فيهِ الشَمسَ أَيّانَ تَغرُبُ

وبعد هَذَا الأبيات الرّائعة في وصف الخيل ذات النّظر إلى امرئ القيس في رائيته «سما لك شوق» . قَالَ امرؤ القيس :

على كل مقصوص الذّنابي معاود ... بريد السّري باللّيل من خيل بربرا

إذا زعته من جانبيه كليهما ... مشى الهيدبي في دفه ثمَّ فرفرا

وامرؤ القيس ههنا يمدح حصانا غير عربيّ ونظر إلى ذلك أبو الطّيّب من طرف خفي حيث قَالَ :

وما الخيلُ إلا كالصّديق قليلةٌ ... وإنْ كثرتْ في عين من لا يجربُ

إذا لم تشاهدْ غيرَ حسنِ شياتها ... وأعضائها، فالحسنُ عنك مغيبُ

ونسأل بعد من ذو الدّلال المحجب ؟ وإن يك يجوز حمل الكلام عَلى العموم أي اللّيل يقيك الأعداء ويزورك فيه الأحباء ، ويجوز أن الحبيب الّذي زار بمصر وهو غير الّتي قَالَ فيها :

وَزائِرَتي كَأَنَّ بِها حَياءً ... فَلَيسَ تَزورُ إِلّا في الظَلامِ

إلّا أنّ نفس أبي الطّيّب عنصر الصّدق أبدا أغلب عليه والسّياق يدل عَلى أنّ الزّيارة كانت بعد عروب شمس اليوم الّذي كمن فيه ، وقوله في الميمية :

وَلَو كانَ ما بي مِن حَبيبٍ مُقَنَّعٍ ... عَذَرتُ وَلَكِن مِن حَبيبٍ مُعَمَّمِ

رَمى وَاِتَّقى رَميِي وَمِن دونِ ما اتَّقى هَوىً كاسِرٌ كَفّي وَقَوسي وَأَسهُمي

يقوي هَذَا ويكون المعمم سيف الدّولة أو أبا العشائر والمقنع مجهولًا كما ينبغي ، وزعم زاعم أنّه خولة أخت سيف الدّولة باطل إذ مدح المتنبّي لها بأنها برزة ماجدة من ذوات البأس والإنعام لا يحتمل كبير تأويل :

كَأَنَّ فَعلَةَ لَم تَملَء مَواكِبُها دِيارَ بَكرٍ وَلَم تَخلَع وَلَم تَهَبِ

وهذا ليس فيه نفس من غرام ولا ينبغي لَهُ .

والانصراف بالكلية عنها فِي أخريات القصيدة إِلى خالص الحكمة والتّأمل يقوي هَذَا وذلك قوله :

تَخالَفَ النّاسُ حَتّى لا اِتِّفاقَ لَهُم إِلّا عَلى شَجَبٍ وَالخُلفُ فِي الشَّجَبِ

ولعل الحبيب المقنع هو المذكور فِي اللّامية حيث قَالَ أبو الطّيّب :

لَقيتُ بِدَربِ القُلَّةِ الفَجرُ لَقيَةً شَفَت كَمَدي وَاللَيلُ فيهِ قَتيلُ

وأجمع النّقاد عَلى أنّ هَذَا من محاسن أبي الطّيّب وآخر القصيدة بلا ريب قوله :

يَهونُ عَلَينا أَن تُصابَ جُسومُنا وَتَسلَمَ أَعراضٌ لَنا وَعُقولُ

وما بعد ذلك إضافات أريد بها إعجاب سيف الدّولة أو ترضيته أو شيء من هَذَا الضّرب ، وقد فطن إِلى فساد آخر هَذِهِ القصيدة الصّاحب كما ذكر صاحب اليتيمة وسائر القصيدة يغمره المرح والنّشوة الّتي أصاب الشّاعر عند درب القُلّة ، والله تعالى أعلم .

وفِي النّونية الّتي نظمها أبو الطّيّب عند كافور ولم ينشدها إياه مرارة ولوم لاذع لسيف الدّولة وذلك قوله :

رَأَيتُكُم لا يَصونُ العِرضَ جارُكُمُ وَلا يَدِرُّ عَلى مَرعاكُمُ اللَّبَنُ
جَزاءُ كُلِّ قَريبٍ مِنكُمُ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنكُمُ ضَغَنُ

وإنْ صحّ ما ذكروه من أنّ ابن خالويه شَجّه بمفتاحٍ في مجلس سيف الدّولة ، فهو ونحوه ممّا يفسّر هذه المرارة .

وإن صح قول ابن رشيق إنّ الهجاء بالتّلميح أوجع من الهجاء بالتّصريح فلا ريب أنّ هَذَا أوجع من كلّ ما هجابه أبو الطّيّب كافورا . وشعر أبي الطّيّب فِي كافور سمح جزل منطلق يدل عَلى حبّ كَانَ لَهُ منه وإعجاب به .

ويدلك عَلى إعجاب أبي الطيّب بكافور قوله ، وقد نبه عَلى حسنه الثّعالبيّ :

فوافَــت بِنــا إِنســانَ عَــينِ زَمانِــهِ   وَخَلَّــت بَياضــاً خَلفَهــا وَمَآقِيــا

وقوله :

يُــدَبِّرُ المُلــكَ مِــن مِصرٍ إِلى عَــدَنٍ   إِلى العِــراقِ فَــأَرضِ الــرّومِ فَــالنُّوَبِ

إِذا أَتَتهــا الرِّيــاحُ النُّكــبُ مِــن بَلَــدٍ   فَـــما تَهُــبُّ بِهـــا إِلّا بِتَرتيـــبِ

وقوله :

وَيُغنيــكَ عَــمّا يَنسُــبُ النّــاسُ أَنَّــهُ   إِلَيــكَ تَنــاهى المَكرُمــاتُ وَتُنسَــبُ

والعقدة النّسبيّة كانت عند المتنبي لبداوته لا عند كافور .

ولا شيء أكثر انطلاقًا وإسماحًا من قول أبي الطّيّب :

إِذا ســارَتِ الأَحــداجُ فَــوقَ نَباتِــهِ   تَفــاوَحَ مِســكُ الغانِيــاتِ وَرَنــدُهُ

وقوله :

وَكُــلُّ اِمــرِئٍ يــولي الجَميــلَ مُحَبَّــبٌ   وَكُــلُّ مَكــانٍ يُنبِــتُ العِــزَّ طَيِّــبُ

أَبـا المِسكِ هَـل فِي الكَـأسِ فَضـلٌ أَنالُـهُ   فَــإِنّي أُغَنّــي مُنــذُ حــينٍ وَتَشرَبُ

وفِي هَذَا العتاب نفس النّكتة المصريّة وأريحيتها كما لا يخفى .

ولا أكاد أشكّ أنّ أبا الطّيّب رضي مصر وأحبّها وما كَانَ يسعه غير هَذَا ثـمَّ إنّ نفسه البدويّة نفرت عما لذها بمصر من النّعمة وهذا قوله :

ذَرينــــي وَالفَـــلاةُ بِـــلا دَليـــلٍ   وَوَجهـــي وَالهَجـــيرَ بِـــلا لِثـــامِ

فَـــإِنّي أَســـتَريحُ بِـــذي وَهَـــذا   وَأَتعَـــبُ بِالإِناخَـــةِ وَالمُقـــامِ

ثم يقول :

يَقــولُ لِي الطَّبيـــبُ أَكَلــتَ شَــيئاً   وَداؤُكَ فِي شَرابِـــكَ وَالطَّعـــامِ

وَمـــا فِي طِبِّـــهِ أَنّي جَـــوادٌ   أَضَرَّ بِجِســـمِهِ طـــولُ الجِـــمامِ

فعلى طول الجمام والخفض والنّعمة ثار ومن أولئك نفر وقد زعم أبو العلاء عن نفسه أنه كَانَ إنسي المولد وحشي الغريزة . وقد كَانَ رحمه الله إنسي المولد إنسي الغريزة وكان

صاحبه أبو الطّيّب وحشيها وحشي المولد .

ومما يدلك عَلى إخلاص أبي الطّيّب مديح كافور ضعف اللّامية الَّتي مدح بها فاتكا

لا خيــل عنــدك تهــديها ولا مـــال

إذ ليس فيها نفس أبي الطّيّب وروحه الَّذي نعلم وإنّما هي صوغ محكم وكأنّ أبا الطّيّب رأى قبيحا به ألا يجزى فاتكا عَلى إحسانه إليه فاستأذن فِي ذلك كافورا كما ذكروا ، فأذن لَهُ:

وربّــما جــزت الإحسّــان موليــه خريــدة مــن عــذارى الحــيّ مكســال

وترك الجزاء قبيح ، وترك القبيح مجاملة أو كما قَالَ رحمه الله :

إِنّــا لَفِــي زَمَــنٍ تَــركُ القَبــيحِ بِــهِ مِــن أَكثَــرِ النّــاسِ إِحســانٌ وَإِجمــالُ

وكذلك المرثيّة الَّتي رثاه بها وأبلغ ما فيها صفة الهرمين .

والميمية الَّتي أولها :

حتــام نحــن نســاري الــنّجم فِي الظلــم

إنّما جاء فيها اسم فاتك اتفاقًا أو قل كأن رمز بخ المتنبّي لنفسه وهي من قَرِيّ

ملـــومكما يجـــل عـــن المـــلام

دفاع عن البداوة والانطلاق والحريّة الفرديّة الخالصة .

وإنّما كَانَ هجاء أبي الطّيّب كافورا ضربًا من الغضب عَلى نفسه والتّبرير لطبعه ولا يخفى أن أجود ما فِي الدّالية :

عيــد بأيــة حــال عــدت يــا عيــد

الغناء الَّذي فِي أولها . وقد كَانَ كافور قديرًا عَلى رده من أقصى حدود مصر لو قد إِلى ذلك أراد .

وأجود ما فِي المقصورة «ألا كل ماشية الخيز لى» نعت الطّريق . والسّباب الَّذي سبه كافورا ليس ببالغ جودة جيده بحال وذلك منبيء بأن لم يندفع عن سنخ شاعري حقًا كالشكوى الَّتي فِي البائية مثلا .

وقد وجد أبو الطّيّب عند عضد الدّولة من النّعمة قريبًا مما وجد عند كافور وأعفى طبعه كما قَالَ فنظم بلا تكلف ولم يتشك ولم يتعتب عند عضد الدّولة للذي صح عنده أنه بعد أن طبق صيته الآفاق قد جاوز مرتبة أن يطلب ولاية أو ضيعة .

وقد نبه الدّكتور طه حسين فِي كتابه مَعَ المتنبّي إِلى صفة نادرة من الانطلاق المحض واليسر المنفسح والخيال الجموح أفادها شعر أبي الطّيّب بفارس ومثل لها بكلمته من مشطور الرّجز «ما أجدر الأيّام واللّيالي» وقد يضاف ههنا أن ما كَانَ فِي شعر أبي الطّيّب من عنصر الشّكو المر قد آض بعد أن دخلته هَذِه الصّفة روحًا حزينًا خفِي المدخل كالّذي فِي كلمته :

يَقُولُ بِشِعبِ بَوّانٍ حِصاني ... أَعَن هَذا يُسارُ إِلى الطِّعانِ

أَبوكُم آدَمٌ سَنَّ المَعاصي ... وَعَلَّمَكُم مُفارَقَةَ الجِنانِ

فهذا فيه من التعلق بالحياة والأسى عَلى فواتها شبيه بما فِي قوله :

حتّام نحن نساري النّجم فِي الظّلم

وقوله :

وَمُرادُ النُّفوسِ أَصغَرُ مِن أَن ... نَتَعادى فيهِ وَأَن نَتَفانى

وقوله :

لَيتَ الحَوادِثَ باعَتني الَّذي أَخَذَت ... مِنّي بِحِلمي الَّذي أَعطَت وَتَجريبي

وفيه أيضًا استسلام للمأساة إذ مفارقة الجنان كتاب كَانَ عَلى ابن آدم لا يستطيع عنه مصرفًا . والحقّ أنّ صفة الانطلاق المحض هَذِه مَعَ اليسر وفيض الخيال أفادها المتنبّي قبل فارس بمصر وشعب بوان عَلى روعته لا يخلو من أن يكون كنى به عنها وقد لاحقه منها خيال إِلى النوبنذجان مَعَ الخيال الدّمشقيّ اليلنجوجي ما رفعت به النّيران ندى الدّخان :

سَبائِكُ كافورٍ وَعِقيانُهُ الَّذي ... بِصُمِّ القَنا لا بِالأَصابِعِ نَقدُهُ

نَجُرُّ القَنا الخَطِّيَّ حَولَ قِبابِهِ ... وَتَردي بِنا قُبُّ الرِّباطِ وَجُردُهُ

وَنَمتَحِنُ النُّشّابَ فِي كُلِّ وابِلٍ ... دَوِيُّ القِسِيِّ الفارِسِيَّةِ رَعدُهُ

وَأتعَبُ خَلقِ اللهِ مَن زادَ هَمُّهُ وَقَصَّرَ عَمّا تَشتَهي النَّفسُ وُجدُهُ
يَرى جِسمَهُ يُكسى شُفوفاً تَرُبُّهُ فَيَختارُ أَن يُكسى دُروعاً تَهُدُّهُ

وهذا كقوله :

وعلمكم مفارقة الجنان

وليس كقوله آنفًا عند سيف الدّولة :

ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

لأنّه كما ترى يروم ههنا قيد الإحسّان فلا يستطيع إليه سبيلا وهناك قد وجده فنفر منه.

قال الثّعالبيّ فِي اليتيمة : « لما أنجحت سفرته وربحت تجارته بحضرة عضد الدّولة ووصل إليه أكثر من مئتي ألف درهم ، استأذنه فِي المسير منها ليقضي حوائج فِي نفسه ثمّ يعود إليها فأذن لَهُ ، وأمر بأن تخلع عله الخلع الخاصة» إلى أن قَالَ : «فلما فارق أعمال فارس حسب أنّ السّلامة تستمر به كاستمرارها فِي مملكة عضد الدّولة ولم يقبل ما أشير به عليه من الاحتياط باستصحاب الخفراء والمبذرقين ، فجرى ما هو مشهور من خروج سرية من الأعراب عليه ومحاربتهم إياه وتكشف الوقعة عن قتله وابنه محسد ونفر من غلمانه وفاز الأعراب بأمواله وذلك فِي سنة أربع وخمسين وثلاث مائة » .ا . هـ .

ونقف عند قول الثّعالبيّ : «فجرى ما هو مشهور .. إلخ» ومع شهرته لا ندري عمّن تلّقاه راووه . فمنهم قائل إنّ فاتكا الّذي عرض لأبي الطّيّب فِي جماعة من الأعراب فعل ذلك غضبًا من بائيته الّتي هجا بها ضبة ـ قَالَ العكبري : « وقال يهجو ضبّة بن يزيد العينيّ وصرح بتسميته فيها لأنّه كَانَ لا يفهم التّعريض ، كَانَ جاهلا ، وهذه القصيدة من أردأ شعر المتنبّي وكأنّ العكبريّ قد غفل أن من مذهب البداوة فِي الإفحاش بعض هَذَا وما يقاربه كالّذي كَانَ يقع عند الفرزدق وجرير مثلًا .

ومن قائل إن أبا الطّيّب فر وذكره غلامه قوله :

الخيل واللّيل والبيداء تعرفني

فثبت فقتل أو قَالَ للغلام قتلتني أو شيئًا من هَذَا المعنى . وإن صح هَذَا الخبر فهو أشبه بما اعتاده أبو الطّيّب من الاستعداد للخاربين والإفلات منهم ولعلّه نجا من هَذَا الّذي ذكروا أن اسمه فاتك ثمَّ أصيب من بعد ، فكلّهم مجمعون أنه قد قتل بدير العاقول ، وهو بسواد بغداد ، ولا يعقل أن يكون اعتراض الأعراب لأبي الطّيّب قريبًا من بغداد . وأرجح من ذلك أن يكون الأعراب قد لقوه بعيدًا عنها ، ولما أفلت بعد قتال ما ، أمن إِلَى النّجاة وحسب أنّ السّلامة تستمر به من بعد عَلَى حد تعبير الثّعالبي . ولكنّ الذين أغروا به الأعراب ليقتلوه يبدو أنّهم أيضًا قد أوكلوا به آخرين يراقبون مقدمه عند دير العاقول أو قل خارج بغداد غير جد بعيد منها . فلمّا رأوه قادمًا مطمئنًا قد نجا رموه بسهم وانتهبوا ماله .

ولا يستبعد أن يكون سيف الدّولة قد كَانَ من وراء جميع ذلك التّدبير . فقد ذكروا أنّه كَانَ يغضبه أن يطول سكوت المتنبّي عن مدحه . قَالَ العكبريّ فِي تقديم الميميّة :

واحـــر قلبـــاه ممـــن قلبـــه شـــبم

وأنشدها فِي محفل من العرب وكان سيف الدّولة إذا تأخر مدحه شق عليه وأحضر من لا خير منه وتقدم إليه بالتّعرض لَهُ فِي مجلسه بما لا يحب وأكثر عليه مرة بعد مرّة » ا.هـ .

كلام العكبريّ ـ فكيف إذا انصرف عنه بالكلّيّة ومدح سواه ـ وقد رأينا كيف حذره أبو الطّيّب وفر منه فرارًا لا هوادة فيه ، وذلك قوله :

وَلله سَـــيري مــــا أَقَـــلَّ تَإِيَّـــةً عَشِـــيَّةَ شَرقِـــيَّ الحَـــدالَي وَغُـــرَّبُ
عَشِـــيَّةَ أَحفـــى النـــاسِ بي مَـــن جَفَوتُـــهُ وَأَهـــدى الطَّـــريقَينِ الَّتـــي أَتَجَنَّـــبُ

وقد أهدى إليه وهو بالكوفة وشكره أبو الطّيّب باللامية الّتي مطلعها :

مـــا لنـــا كلنـــا جويـــا يـــا رســـول

وهي عَلَى جودتها لا يخفى ما فِي جملتها من تكرار المعاني والنّغمات اللّاتي فِي السّيفيات من غير التّوتر والانفعال الّذي فِي السّيفيات ـ البعد الزّماني والمكانيّ والنّفسي عن سيف الدّولة كل ذلك واضح الطّابع فيها .

وَمَعــي أَيــنَما سَــلَكتُ كَــأَنّي ... كُــلُّ وَجــهٍ لَــهُ بِــوَجهي كَفيــلُ
فَــرَسٌ ســابِقٌ وَرُمــحٌ طَويــلٌ ... وَدِلاصٌ زُغــفٌ وَسَــيفٌ صَــقيلُ
وَسِــوى الــرّومِ خَلــفَ ظَهــرِكَ رومٌ ... فَعَــلى أَيِّ جانِبَيــكَ تَميــلُ
مِــن عَبيــدي إِن عِشــتَ لي أَلــفُ كــافو ... رِ وَلي مِــن نَــداكَ ريــفٌ وَنيــلُ

وهيهات وإنّما هَذا اعتذار وتنصل وهو بعد القائل :

قَواصِــدَ كــافورٍ تَــوارِكَ غَــيرِهِ ... وَمَــن قَصَــدَ البَحــرَ اِسـتَقَلَّ السَّــواقِيا
فَجــاءَت بِنــا إِنســانَ عَــينِ زَمانِــهِ ... وَخَلَّــت بَياضــاً خَلفَهــا وَمَآقِيــا

والأبيات الّتي في أوائل نسيب هَذِه اللّامية ، وذلك قوله :

مالَنــا كُلُّنــا جَــوٍ يــا رَســولُ ... أَنــا أَهــوى وَقَلبُــكَ المَتبــولُ
كُلَّــما عــادَ مَــن بَعَثــتُ إِلَيهــا ... غــارَ مِنّــي وَخــانَ فــيما يَقــولُ
أَفسَــدَت بَينَنــا الأَمانــاتِ عَينــا ... هــا وَخانَــت قُلــوبَهُنَّ العُقــولُ
صَــحِبَتني عَــلى الفَــلاةِ فَتــاةٌ ... عــادَةُ اللَّــونِ عِنــدَها التَّبــديلُ
مِثلُهــا أَنــتِ لَــوَّحَتني وَأَســقَم ... تِ وَزادَت أَبهــاكُما العُطبــولُ

تنظر إلى «ليالي بعد الظّاعنين شكول» وكأنّ المعاني الّتي يتغنى بها ههنا أصداء من المعاني الّتي تغنى بها هناك ولعلّ رسولها ههنا الشّمس كما قَالَ ثمَّ :

وَيَومًــا كَــأَنَّ الحُســنَ فيــهِ عَلامَــةٌ ... بَعَثــتِ بِهــا وَالشَّــمسُ مِنــكِ رَسـولُ

والشّمس ههنا غيرى لأنّ المحبوبة أبهى منها . وغير خاف أنّ روح المرح ههنا كأنّما هو أيضًا صدى من روح المرح الّذي أشاعه لقاؤه المحبوبة إذ لقيها بدرب القلّة هناك ومن بعض شواهده لما أخذ في صفة الغزاة :

رَمــى الــدَّربَ بِــالجُردِ الجِيــادِ إِلى العِــدا ... وَمــا عَلِمــوا أَنَّ السِّــهامَ خُيــولُ
شَــوائِلَ تَشــوالَ العَقــارِبِ بِالقَنــا ... لَهــا مَــرَحٌ مِــن تَحتِــهِ وَصَــهيلُ

وقد نبّه الدّكتور طه إلى بعض هَذا في حديثه عن هَذِه القصيدة الرّائعة في كتابه مَعَ المتنبّي .

هذا ، قالوا وكتب إليه سيف الدّولة من بعد يستدعيه فكان جواب أبي الطّيّب أن قَالَ :

فَهِمــتُ الكِتــابَ أَبَــرَّ الكُتُــب فَســمعًا لِأَمــرِ أَمــيرِ العَــرَب

ولم يسمع شيئًا .

وَمــا لاقَنــي بَلَــدٌ بَعــدَكُم وَلا اعتَضــتُ مِــن رَبِّ نُعــماي رَب

وَمَــن رَكِــبَ الثَّــورَ بَعــدَ الجَــوادِ أَنكَــرَ أَظلافَــهُ وَالغَبَــب

وَمــا قِســتُ كُــلَّ مُلــوكِ الــبِلادِ فَــدَع ذِكــرَ بَعــضٍ بِمَــن فِي حَلَــب

ولكنه ذهب بعد يقيس ولقي عضد الدّولة وقال فيه:

وَقَــد رَأَيــتُ المُلــوكَ قاطِبَــةً وَسِرتُ حَتّــى رَأَيــتُ مَولاهــا

أَبــا شُــجاعٍ بِفــارِسٍ عَضُــدَ الــ دَولَــةِ فَنّــاخُسرو شَهَنشــاها

أَســامِيًا لَم تَــزِدهُ مَعرِفَــةً وَإِنَّــما لَــذَّةً ذَكَرناهــا

وقد ذكروا أنّ سيف الدّولة تعجب أن كَانَ أبو الطّيّب قد جعله في جملة رعايا عضد الدّولة لما سمع قوله : «وسرت حتى رأيت مولاها» [اليتيمة] .

وفي هَذِه القصيدة ذكر أبو الطّيّب الشّأم وحن إليه وذكر شامية لعلها هي أيضًا صدى من صاحبة درب القلّة ، وذلك قوله :

شــامِيَّةٌ طالَمــا خَلَــوتُ بِهــا تُبــصِرُ فِي نــاظِري مُحَيّاهــا

فَقَبَّلَــت نــاظِري تُغــالِطُني وَإِنَّــما قَبَّلَــت بِــهِ فاهــا

مــا نَفَضَــت فِي يَــدي غَــدائِرُها جَعَلَتــهُ فِي المُــدامِ أَفواهــا

فِي بَلَــدٍ تُضرَبُ الحِجــالُ بِــهِ عَــلى حِســانٍ وَلَســنَ أَشــباها

لَقينَنــا وَالحُمــولُ ســائِرَةٌ وَهُــنَّ دُرٌّ فَــذُبنَ أَمواهــا

وهذا قريب من قوله «لها بشر الدّر الّذي قلدت به » .

كُــلَّ مَهــاةٍ كَــأَنَّ مُقلَتَهــا تَقــولُ إِيّــاكُمُ وَإِيّاهــا

فــيهِنَّ مَــن تَقطُــرُ السُّــيوفُ دَمــاً إِذا لِســانُ المُحِــبِّ سَــمّاها

أُحِــبُّ حِمصــاً إِلى خُنــاصِرَةٍ وَكُــلُّ نَفــسٍ تُحِــبُّ مَحياهــا

حَيثُ اِلتَقى خَدُّها وَتُفّاحُ لُبـ ... نانَ وَثَغري عَلى حُمَيّاها

وَصِفتُ فيها مَصيفَ بادِيَةٍ ... شَتَوتُ بِالصَّحصَحانِ مَشتاها

إِن أَعشَبَت رَوضَةٌ رَعيناها ... أَو ذُكِرَت حِلَّةٌ غَزوناها

أَو عَرَضَت عانَةٌ مُقَزَّعَةٌ ... صِدنا بِأُشرى الجِيادِ أولاها

أَو عَبَرَت هَجمَةٌ بِنا تُرِكَت ... تَكوسُ بَينَ الشُّروبِ عَقراها

وَالخَيلُ مَطرودَةٌ وَطارِدَةٌ ... تَجُرُّ طولى القَنا وَقُصراها

ومع هَذَا فضل عضد الدّولة ، وذلك قوله الَّذي مر آنفًا :

وَقَد رَأَيتُ المُلوكَ قاطِبَةً ... وَسِرتُ حَتّى رَأَيتُ مَولاها

أَبا شُجاعٍ بِفارِسٍ عَضُدَ ال ... دَولَةِ فَنّاخُسرو شَهَنشاها

أَسامِيًا لَم تَزِدهُ مَعرِفَةً ... وَإِنَّما لَذَّةً ذَكَرناها

وما أحسب أنّ سيف الدّولة وقد بلغه هَذَا وعلق عليه بقوله :

ترى هل نحن فِي الجملة إن صح ما رووه قد غفر لأبي الطّيّب فقد كَانَ ربّ نعماه .

ولا شك قياسًا عَلى الَّذي ذكروا من غضبه عليه حين تأخّر مدحه عنه ، أن يكون رأى أنّه قد خانه بالصّيرورة إِلى كافور فعضد الدّولة .

وقد كَانَ رفض أبي الطّيّب الاستجابة إِلى دعوته آخر الأمر هو القاضية ، وما كَانَ ليعسر من بعد عَلى أعداء أبي الطّيّب بحلب أن يتّصلوا بأعدائه فِي بغداد وتتم المؤامرة وقديمًا قد قَالَ :

إِذا تَرَحَّلتَ عَن قَومٍ وَقَد قَدَروا ... أَنّ لا تُفارِقَهُم فَالرّاحِلونَ هُمُ

لَئِن تَرَكنَ ضُمَيراً عَن مَيامِنِنا ... لَيَحدُثَنَّ لِمَن وَدَّعتُهُم نَدَمُ

أو «لسيف الدّولة النّدم» كما روى بعضهم ـ فهل كَانَ ذلك النّدم قبل دير العاقول أو بعده ـ الله أعلم أي ذلك كَانَ .

التّعقيبات

الدّكتور مصطفى جواد رئيس الجلسة :

أشكر الأستاذ الجليل الدّكتور عبد الله الطّيّب عَلى بحثه المزوّق الجميل والمرصّع بمحاسن أشعار المتنبّي . فنحن نجد فِي بحثه هَذَا التفاتات رائعة مَعَ بعض الظّنون فِي مسألة المؤامرة عَلى قتل المتنبّي . فالمؤامرة عَلى قتله رحمه الله قد تناثرت عليها أحداث وأسباب من جملتها أنّ سيف الدّولة حينما غزا بلاد الرّوم بعض الغزوات خاب فيها خيبة كبيرة ، بحيث قتل من جيوش المسلمين مقتلة عظيمة . فلمّا بلغ الخبر إِلى بغداد ، وكانت الخلافة يومئذ بيد الأعاجم من بني بويه ، حرّكوا الخليفة عليه : فكتب إليه كتابًا شديد اللّهجة ينعي عليه التّفريط والتّغرير بجيش المسلمين مَعَ قدرته عَلى محاربة الرّوم . فلذا هجا المتنبّي معز الدّولة البويهي لأنّه ووزيره الحسن بن محمّد المعروف بالمهلبيّ كانا من المحرضين عليه لدى سيف الدّولة . وهذا ابتداء العداوة بين المتنبّي وبين خصومه .

ثم قضية هجاء المتنبّي لضبّة بن محمّد العينيّ ، نسبة إِلى عين النّمر الَّتي كانت قرب شقافة ، وهذه القرية معروفة إِلى الآن . ويعتبر هَذَا هجاء ثابتًا ومفحشًا . وكان ضبّة من بني أسد ، وكان فاتك الَّذي تعرض للمتنبّي فِي الطّريق إِلى بغداد أسديًا أيضًا وله قرابة شديدة بضبّة . وكلّكم تعلمون أنّ العربيّ إذا تعرض أحد بالهجاء لحرمه ، ثار ثورة لا تقاوم . فكان تقصيرًا من المتنبّي أن يهجو أمّ ضبّة ، وكان عليه أن يكتفِي بهجاء ضبّة فقط . لذلك كَانَ فاتك محرضًا عليه من جهة معز الدّولة ، ومن جهة وزيره الحسن بن محمّد المهلبيّ ، ومن جهة الخليفة أيضًا .

أمّا قتل المتنبّي فله أيضًا سبب آخر ، وهو أنّه كَانَ مغترًا مَعَ أن الأمن كَانَ مفقودًا فِي العراق يومئذ .

فلما مر المتنبّي بجبل . وهي مدينة عَلى دجلة وآثارها فِي قرب مدينة الكوفة الحالية خرج فِي استقباله رئيس جبل ، وقال لَهُ ما معناه : إنّك تمر بطريق يقطع فيه اللّصوص ،

فأرسل معك جماعة حتى يوصلوك إِلى المأمن ، فقال المتنبّي ما معناه : كيف استصحب معي جماعة وهذا الجراز فِي عنقي . لذلك خرج عليه فاتك بالضّبط والتّحقيق بين جبل الَّتي كانت قرب الكويت الحالية وبين بغداد ، فقتله وطمع فيما معه من الدّراهم ، وهي الجائزة الَّتي ذكرها الدّكتور المحاضر ومقدارها مئتا ألف درهم . وكان معه من السّجاجيد الفارسية قدرًا كبيرًا حتّى إنّه حينما أصابها المطر فرشها فِي الصّحراء فكانت كأنّها رياض زاهية . لذلك قتل المتنبّي وطمع فِي ماله وانتقم منه فِي نفس الوقت .

أعود إِلى اسم ورد فِي محاضرة الأستاذ وهو ما يقول عنه «أبو الفرج السّامريّ» وهو السّامريّ نسبة إِلى سامراء وهي مدينة عراقية مشهورة فِي شماليّ بغداد ومن المدن المحترمة. وبعد هَذَا كله أكرر شكري الجزيل عَلى هَذِه الطّرائف والنّفائس الَّتي أتحفنا بها حقًّا الأستاذ المحاضر .

الدكتور محمّد كامل حسين : بودي أن أتساءل : هل كَانَ مدح المتنبّي فِي كافور مدحًا مخلصًا ؟ وفِي اعتقادي أنّ المتنبّي كَانَ يتهكم من أوّل يوم كتب فيه عن كافور وأنه عندما بدأ مدحه قد أثقل فِي الجهد عَلى نفسه لكي يجد شيئًا يقوله فِي كافور وأنّه كَانَ متعبًا تعبًا شديدًا إِلى أن وصل إِلى قوله :

فَجاءَت بِنا إِنسانَ عَينِ زَمانِهِ وَخَلَّت بَياضاً خَلفَها وَمَآقِيا

إنّ فِي هَذَا البيت تعسّفًا واضحًا ، فقد عصر الشّاعر ذهنه لكي يجد شيئًا يقوله ويفضل به السّواد عَلى البياض . ثمّ بحث فِي مدحه لكي يصل إِلى هَذَا المركز ، فوجد فقط كلمة يقولها فِي البيت :

إِذا مَنَعَت مِنكَ السِّياسَةُ نَفسَها فَقِف وَقفَةً قُدّامَهُ تَتَعَلَّمِ

أي إذا أتعبتك السّياسة فقف أمام كافور كي تتعلم .

فهو قد اعترف لكافور بالسّياسة لأنّها هي الشّيء الوحيد الَّذي استطاع المتنبّي أن يتصوّره فِي سمو كافور . والمتنبّي رجل من أهل الفن والأدب والفكر . ولا يتصوّر أنّ مثل كافور هَذَا يمكن أن يكون شيئًا ذا شأن مطلقًا . ثمّ غلب عليه طبعه فِي التّهكم عَلى

هَذَا الجاهل العبد الأسود الَّذي وصل إِلى رياسة الدّولة ، فقال عنه فِي صراحة :

تَفضَحُ الشَّمسَ كُلَّما ذَرَّتِ الشَّمـ ... سُ بِشَمسٍ مُنيرَةٍ سَوداءِ

فما هَذِه الشّمس المنيرة السّوداء ؟ هَذَا غير معقول . إن هَذَا منتهى التّهكم ولا يستطيع أن يقول هَذَا إلا رجل مثل المتنبّي .

ثمّ إنّه بعد ذلك أخذ يسبه صراحة وقال فيه أكثر مما قيل فِي أي إنسان . فالمتنبي حين قدم إِلى مصر أراد أن يمدح هَذَا الرّجل ، ثمَّ لما رآه جزع واستطاع أن يجد شيئًا يقوله عن سواد العين وإنسانها ثمَّ لم يجد شيئًا غير السّياسة ، فذكرها لَهُ ، ثمَّ تهكم عليه صراحة بالشّمس المنيرة السّوداء ، وأخيرًا سبه سبًّا نعرفه جيّدًا .

ثم إنّ غضب المتنبّي عَلى كافور قد امتد عَلى مصر نفسها . وفِي أول دخوله إليها وجد النّساء يخرجن من الحمام فتنات فقال فيهن :

وَلا بَرَزنَ مِنَ الحَمّامِ ماثِلَةً ... أَوراكُهُنَّ صَقيلاتِ العَراقيبِ

وهذه العادة كانت موجودة عندنا ، فالسيدة تمسك بحجر وتحك كعبها حتى يصير أحمر كالدّم .

وقد قَالَ المتنبّي بيته الرّائع الَّذي ليس فِي ديوانه ما يباريه :

حُسنُ الحَضارَةِ مَجلوبٌ بِتَطرِيَةٍ ... وَفِي البَداوَةِ حُسنٌ غَيرُ مَجلوبِ

ففِي البيت فلسفة وحكمة وفهم حقيقي للبداوة والحضارة ، وهو عندي أروع ما قَالَ المتنبّي . ثمَّ امتد غضبه عَلى مصر فقال فيها : أروع أشعاره مثال ذلك قصيدته التي يقول فيها :

أَلا كُلُّ ماشِيَةِ الخَيزَلى ... فِدا كُلُّ ماشِيَةِ الهَيذَبى

وليس لها مثيل من حيث التّهكم وصدق الوقائع وموسيقية الشّعر وأنغامه . فقد حركت مصر قلبه هو ولم يكن يمدح ولكنّه كَانَ يتهكم . وقد أصبح شاعرًا حقيقيًّا فِي مصر .

فالمتنبي قد رأى أولا : النّساء الجميلات فِي مصر وهام بهن .

ثانيًا : عقب ذلك غضب غضبًا شديدًا عَلى المصريّين .

ثالثًا : احتقر كافور احتقارًا شديدًا وساخرًا .

وهذه الصفات الثلاث قد جعلت منه شاعرًا حقيقيًا ، وليس مجرد شاعر صياغة أو مدح أو أدب .

إنّني أنفِي النّظرية القائلة بأنّ مدح المتنبّي فِي كافور كَانَ مدحًا خالصًا .

الدكتور سليم النّعيميّ :

لِي تعليق آخر ، وهو أنّ الشّاعر كَانَ رجلًا طموحًا ، وقد نشأ فِي وقت تفرقت فيه الدّولة ويستطيع كلّ شخص أن يستقل بمدينة أو ولاية ويصبح أميرًا . وكان المتنبّي يطمع لمثل هَذِه الإمارة . واعتقادي أنّ دعوى المتنبّي بالنّبوة فِي شبابه كانت جزءًا من هَذَا الطّموح ، ثمّ إنّ غضبه من سيف الدّولة سببه أساسًا أنّه لم يهيئ لَهُ شيئًا مما يطمح إليه . وقد ذهب إِلى كافور ليس حبًّا فيه ، ولكن ليهيئ لنفسه طموحها . وأتفق مَعَ الزّميل الدّكتور محمّد كامل حسين فِي أنّ المتنبّي كَانَ يصعب عليه أن يمدح كافورًا بصدق وإخلاص بل إنّه كَانَ دائمًا يسخر منه ، حتى إنّ قوله :

وَللهِ سِرٌّ فِي عُلاكَ وَإِنَّما ... كَلامُ العِدا ضَربٌ مِنَ الهَذَيانِ

يدلّ عَلى عدم اقتناع بأنّ كافورًا يصل لمثل هَذِه المنزلة ، فهو يفسرها بحكمة الله الّتي لا تخضع لتفسير أو تعليل .

فلمّا يئس منه هجاه . فقد قصد المتنبّي كافورًا أساسًا لكي يصل إِلى إمارة .

الدكتور محمّد كامل حسين :

لِي كلمة أود أن أضيفها . وهو أنّ قول المتنبّي :

وَللهِ سِرٌّ فِي عُلاكَ وَإِنَّما ... كَلامُ العِدا ضَربٌ مِنَ الهَذَيانِ

قول لا يستطيع أن يقوله أمام سيف الدّولة لأنّه يفهم كلام العرب ولكنّ قوله هَذَا أمام كافور يدل عَلى أنّ كافورا لا يفهم ما يقوله الشّاعر .

الدكتور عبد الله الطّيّب :

أشكر سيادة الرّئيس إِلى تنبيهي لضبط كلمة «السّامريّ» . ثمّ أعود لتهكم الشّاعر

وسخريته من كافور . وقبل مناقشة هَذَا الرّأي ينبغي علينا أن نسلم أولًا أنّ أبا الطّيّب كَانَ شاعرًا مجدًّا ومخلصًا صادقًا فيها يقول فإذا سلمنا بهذا كلّه فإنا بلا شكّ واجدون أنّ من جيد قصائده :

أُغالِبُ فيكَ الشَّوقَ وَالشَّوقُ أَغلَبُ   وَأَعجَبُ مِن ذا الهَجرِ وَالوَصلُ أَعجَبُ

مُنىً كُنَّ لي أَنَّ البَياضَ خِضابُ   فَيَخفى بِتَبيِيضِ القُرونِ شَبابُ

أَوَدُّ مِنَ الأَيّامِ مالا تَوَدُّهُ   وَأَشكو إِلَيها بَينَنا وَهيَ جُندُهُ

وقصائد أخرى متّفق عَلى أنّها من أحسن أشعاره وبها كلّ الصّفات الَّتي توجد فِي سائر الشّعر الجيد ، وهي صفة نادرة عند كافّة الشّعراء المجيدين ، فإن كَانَ المتنبّي قد قَالَ هَذَا الشّعر متهكما أمام كافور فهو عجب من العجب . وينبغي أنّ يكون ممثلًا من الدّرجة الأولى . وأنا أرجّح أن الشّاعر لم يكن ممثلًا لأنّ الذين كتبوا عنه خبرونا أنّه كَانَ مرّ الشّكيمة لا يداري فِي كلامه . ولهذا ينبغي أن نحكم أنّه كَانَ فِي قوله هَذِه القصائد صادقًا مخلصًا . وقولي هَذَا يعتمد أساسًا عَلى قاعدتين :

أولًا : أنّ الشّاعر كَانَ مرّ الشّكيمة ، ولم يكذب فِي قوله ما استطاع .

ثانيًا : أنّه إذا ادعى الكذب أو أراده أو حتّى حاوله ، لظهر ذلك عَلى كلامه ، لأنّه حاول الكذب فِي مدح ابن العميد :

جاءَ نَيروزُنا وَأَنتَ مُرادُه   وَوَرَت بِالَّذي أَرادَ زِنادُه

فاضطرب كلامه ولم يكن جيدًا .

وكذلك قصيدته فِي مدح «دلير بن لشكوروز» بعد نضجه تمامًا ورغم ذلك فقد اضطّرب غاية الاضطّراب .

فأبو الطّيّب مدح كافورًا وصدق فِي مدحه . فأمّا كونه يبدو لنا متهكّما فِي مدحه ، فيرجع ذلك أساسًا إِلى نظرة خلفية ، لأنّنا قرأنا هجاءه لكافور وكان مرًّا فيه وكان صادقًا أيضًا . فأردنا أن نقرأ هَذَا الهجاء فِي المدح وهذا ليس بصواب .

أمّا قصيدته :

وَلله سِرٌّ فِي عُلاكَ وَإِنَّما   كَلامُ العِدا ضَربٌ مِنَ الهَذَيانِ

فلم يشأ أن ينشدها أمام كافور فهي مما كتبه ولم ينشده .

كذلك الحال فِي قصيدته :

بـم التّعلـل ؟ لا أهـل ولا وطـن ولا نـديم ولا كـأس ولا سـكن

لم يجرؤ أن ينشدها لكافور لأنّه كَانَ يخشاه .

وكان كافور من أقوى الولاة الذين تولوا مصر فِي ذلك الزّمان . وكان الفاطميّون يخشونه ولم يدخلوا مصر إلا بعد أن هلك وأنا لست بصدد الدّفاع عن كافور ، وإنّما أدافع عن أبي الطّيّب فأنا لا أرى أنّه كذب فِي المدح وعلى الأقل فِي قصائده الجيدة . والذين يدعون أنه تهكم ملزمون أن يثبتوا لنا هَذَا فِي هَذِه القصائد وليس فِي سواها ، ومتى لم يستطيعوا ذلك فالحجّة قائمة أنّه كَانَ صادقًا فِي مدحه ، ويترتب عَلى ذلك سائر ما قلته فِي البحث .

أخيرًا مسألة نهاية أبي الطّيّب ، وكل ما قيل الآن قد حدث . فكان المتنبّي لَهُ أعداء فِي بغداد كالمهلّب وغيره وأنه قد يكون كيد لَهُ ، وخبر ضبّة مشهور ، ولو صحّ أن قصيدة نسبت إليه كذبا لكانت هَذِه القصيدة ولكنّ الرّوايات متفقة تمامًا عَلى أنه قائلها . والّذي أود أن أوضحه هو أنّ القصيدة لم تكن لتسبب قتله ، لأنّ هَذَا النوع من الهجاء الفاحش موجودة بكثرة فِي شعر ذلك الزّمان ، ولا أدري لماذا ينتقي أبو الطّيّب بالذات لكي يقتل عَلى ما يقوله من هجاء دون سواه من الشّعراء الآخرين . فينبغي علينا أن نبحث عن سبب آخر .

وأنا لا أقول إنّ سيف الدّولة أغرى عليه من قتله ، ولكنّي أرجّح أن يكون هو فأبو الطّيّب لم ينل بسوء فِي مجلس من المجالس إلا ما نيل به فِي مجلسه مَعَ سيف الدّولة .

وأحسب أنّ هَذَا كافيًا للإجابة عن بعض ما يقال فِي قتله .

الدّكتور سليم النّعيميّ : حقيقة إنّ شعر المتنبّي فِي مدح كافور من أروع الشّعر . ولكنّ الموضوع ليس جودة القصيدة فقط ، وإنّما الّذي يهمنا هو صدق العاطفة فِي التّعبير عما يود قوله . وهذا نستنتجه إذا قارناه بمدحه لسيف الدّولة . فمدح المتنبّي لسيف الدّولة به

عاطفة صداقة وحب ومودة ، وكل هَذَا موجود بجلاء فِي قصائده . وكل هَذِه الأشياء لا توجد فِي قصائده فِي مدح كافور . فهو كَانَ يتصيّد دائمًا الصّفات البعيدة كالشمس السّوداء وغيرها لكي يمدح بها كافور . فمدح المتنبّي لكافور مبعثه المصلحة والطّموح الّذي يرنو إليه ، لا الحب والوفاء والإخلاص فيما يقول .

الأستاذ زكي المهندس :

كنت مَعَ المرحوم الشّيخ عبد العزيز البشريّ فِي ليلة من اللّيالي وهو مشهور بالفكاهة وقد حدث بيني وبينه رحمه الله حديث انتهى إِلى ذكر المتنبّي مَعَ كافور وعلاقته بسيف الدّولة . فقال البشري : ثلاثة لا ينتهي الكلام فيهم :

العفاريت . والثّعابين . والمتنبي . وقد صدق المتنبّي حين قَالَ :

أَنامُ مِلءَ جُفوني عَن شَوارِدِها وَيَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها وَيَختَصِمُ

الدّكتور عبد الرّزاق محيي الدّين :

يبدو لي أنّ الرّبط بين الوزير المهلبيّ وبين المتنبّي جد بعيد لأنّ بين توليه الوزارة وقتل المتنبّي نحو عشرين عامًا . أمّا وصف المتنبّي بالصّدق أو التّهكم فِي قوله فيرجعنا فِي الواقع إِلى معنى الصّدق فِي شعر الشّعراء . فالمتنبي كَانَ صادقًا فِي كل ما قَالَ . أمّا أن يجيء شاعر من الشّام ليتهكم عَلى رجل ككافور فِي بلد هو غريب فيها فِي قالب مدح فهذا شيء غير ممكن إطلاقًا . فالمتنبّي كَانَ صادقًا مَعَ نفسه إِلى حد ما يوم مدح سيف الدّولة . وبنفس الرّوح الّتي مدح بها سيف الدّولة مدح كافورًا . وحين هجاه كَانَ أيضًا مخلصًا ، لأنّه كَانَ يقع تحت تأثيرات تحتم عليه ذلك .

ولو رجعنا إِلى شعرائنا المعاصرين فسنجد أمثلة كثيرة للمتنبّي يمدحون اليوم ويهجون غدًا ، وهم صادقون مَعَ أنفسهم فِي كل حالة من تلك الحالات . ولا يصح أنّ نصفهم بالصّدق الصّادق ولا بالكذب الكاذب ، وإنّما هم بين هَذَا وذاك .

الدّكتور مصطفى جواد :

أعتقد أنّ الرّجوع إِلى التّاريخ أولى لنعرف متى قتل المتنبّي ومتى توفي المهلبيّ . فقد بنى

الـوزير المهلّبيّ قصر معز الدّولـة سـنة ٣٥٠هـ وكـان حيًّا ومتمكنًـا . وتـوفي المتنبّي عـام ٣٥٤هـ .

الدّكتور عبد الله الطّيّب : أغناني أستاذنا رئيس المجمع العلميّ العراقيّ عن كثير مما كنت أهم به . وهو أنّ الشّاعر لا يمكن أن يجيد وهو كاذب ، اللّهم إلا أن يجيء شعره مصقولًا أنيقًا فاترًا فاقدًا للعاطفة والرّوح .

والأبيات الّتي استشهد بها :

تَفضَحُ الشَّمسَ كُلَّما ذَرَّتِ الشَمـ ـسُ بِشَمسٍ مُنيرَةٍ سَوداءِ

إلى آخره ليست من أجود ما قَالَ المتنبّي فِي مدح كافور ، وهناك أبيات كثيرة أظنّها من جيد ما قاله المتنبّي فِي مدح كافور .

إِذا أَتَتها الرِّياحُ النُكبُ مِن بَلَدٍ فَما تَهُبُّ بِها إِلّا بِتَرتيبِ

وليس فِي هَذَا شيء من صفة لوم لكافور ، أو أنّ كافورًا فحل أو غير فحل ... إلخ . إنّما هناك صفات مدح كالّتي مدح بها سيف الدّولة ، إلا أنّي والحقّ يقال : ألاحظ أنّ فِي مدحه لسيف الدّولة توترًا ، وهو ينبئ عن قلق نفسي . فهو صادق وعاطفي ولكنّه توتر بعض الشّيء . وهذا التّوتر لا يكاد يخلو من قصيدة من قصائده .

أمَّا قصائده فِي مدح كافور ففيها انطلاق وسماحة وعدم تكلّف .

وقصائده فِي مدح عضد الدّولة أقلّ توترًا إن صحّ هَذَا التّعبير .

هذه ألوان ثلاثة من ألوان الصّدق . ولاشكّ أنّ هَذِه الضّروب الثّلاثة من أروع ما قَالَ فلا ينبغي أن ننسب إليه الكذب لأنّه لا يليق بقدره كشاعر ولا يليق بقدر الشّعر العربيّ .

الدّكتور سليم النّعيميّ :

نحن لا نقول إنّ المتنبّي كَانَ يكذب عَلى نفسه ، ولكنّا نقول : إنّ العاطفة الّتي كانت تبعثه عَلى مدح كافور ليست عاطفة صدق وحب . أمَّا مَعَ سيف الدّولة فنشعر أنّه كَانَ

يمدح زميلًا لَهُ من سن واحدة وجيل واحد ، وكانا يشتركان معًا فِي الغزوات فِي وقت واحد . فكانت بينهما رابطة عاطفية تجعل فِي شعره إخلاصًا فِي التّعبير عما يقول . أمَّا مدحه كافور فهو كمدح غيره من الشّعراء المدّاحين ، يقصد الشّخص لينال من ماله أو جاهه . فهو يتصيّد الصّفات الَّتي يسبغها عليه . فهي ليست عاطفة حبّ أو صداقة وإنّما هي مجرد مصلحة . وكان كافور يعجبه أن يبرر سواده فبرر لَهُ المتنبّي هَذَا السّواد .

ب ـ العقّاد الشّاعر [١]

سـلام الإلـه وريحانـه ورحمتـه وسـماء درر

على شيخ العروبة الرّاحل وأديبها وشاعرها عبّاس محمود العقّاد . فقد كانت وفاته كما قَالَ الشّريف :

جَبَلٌ هَـوى لَـو خَـرَّ فِي البَحـرِ اغتَـدى مِـن وَقعِـهِ مُتَتـابعَ الإزبـادِ

وليس من حقّ هَذِه الكلمة أنّ أسميها مدحًا فإنّما هي بين ذكرى وتأبين أو كما قَالَ لبيد:

إلى الحَـولِ ثُـمَ اسـمُ السَّـلامِ عَلَـيكُما وَمَـن يَبـكِ حَـولاً كـامِلاً فَقَـد اعتَـذَر

وقد كَانَ أول عهدي به رحمه الله قبل أن ألقاه فأراه كلمة قرأتها فِي ملحق للجهاد عام خمس وثلاثين هوجم بها أقبلت عليها بشغف صبيّ ثمّ صدرت عنها مفعم القلب عليه بعطف صبيّ ، ولأوشك أن أشاء كلّما تذكرت ذلك العطف استشعرته . وعسى هَذَا أن يكون بعض ما جعلني أقبل عَلى شعر العقّاد أكثر من إقبالي عَلى نثره . بل لقد خيّل إِلى غير مرة أنّ أكثر ما نثر العقّاد رحمه الله مسودّات قصائد ضخام كانت تعتمل فِي نفسه .

والعقّاد شديد الشّبه بشوقي فِي هَذَا الباب ، إذ نثر شوقي دون شعره بلا ريب ولقد أفادت العقّاد طول ممارسة النّثر دربة به ، وقوة أسر فيه . ولكن غبر الشّاعر الّذي فِي أعماقه مهيمنًا عَلى النّاثر فكان من هَذِه الجهة نثره دون شعره فيما يخيّل إلي ، والله أعلم .

ثمّ كَانَ العقّاد بعد يشبه شوقيًا فِي أمر آخر وهو أنّه كأنّه بقية من الوثبة البيانية الّتي كَانَ وثبها الباروديّ واستمرار لها .

ولقد كانت ديباجة شوقي من حيث حاق الجزالة والرّصانة لا تبلغ مبلغ الباروديّ فِي جياده ولكنّه كَانَ أكثر ضروب شعر . واعتمد ألوانا من أساليب الإفرنج كقصائده

---

(١) المؤتمر ؛ الدّورة ٣١، الجلسة ٦ ، البحوث والمحاضرات ، ص ١٥٧ . (حسن) .

الطّوال الّتي رام أن يحاكي بها الملحمات نحو «همت الفلك» «يا أخت الأندلس» ، «السّينية» «وملوك العرب» وهلمّ جرّا . ونحو مسرحياته الّتي جسر فيها عَلى الأوزان فخلط بينها ونوع فِي القوافِي ما شاء ولم يخل فِي جميع هَذَا من نظر إِلى بعض ما فِي مذاهب الإفرنج من حرّيّة . وقد كَانَ أقوى أثر الأدب الإفرنجيّ عليه من طريق الفرنسيّة كما لا يخفى .

وقد كانت ديباجة العقّاد دون ديباجة شوقي فِي الكثير الغالب . ولكنّه كَانَ أوضح مأخذًا من المنهج الإفرنجيّ فِي الشّعر . ولقد كتب هو ودافع عن طريقته فِي بعض مقالاته الأوليات الّتي نشرت مجموعة فِي الساعات والفصول . من ذلك ما ذكره رحمه الله من غلبة روح التعاطف والعطف عَلى طريقة الشّاعر الإفرنجيّ حتى يكون كلامه كله وحدة متماسكة مصمتة ، بخلاف الشّاعر العربيّ الّذي تغلب عَلى مذهبه طفرة البيت واختلاف الأغراض فِي القصيدة الواحدة .

والحقّ ، أن الشّعر العربيّ قوى أمر الوحدة فِي القصيدة ولكنّ الوحدة عنده موسيقيّة السّنخ عاطفيته روحيّته . ولذلك فهي لا تبدو ظاهرة فيه ظهورها فِي أشعار الفرنجة إذ هي فيها فكريّة السّنخ شديدة الشّبه بما يقع فِي المقالة المحكمة والخطبة وموضوع الإنشاء وهلمّ جرّا . وهذا تمثيل وتقريب كما ترى . ثمّ هي بعد ـ أي الوحدة فِي القصيدة العربيّة ـ خفية المدخل إِلى النّفس ومن هَذِه الجهة قد تخفى عن بعض النّاقدين . عَلى أنّ العرب قد عرفوها ودلوا عَلى مكانها من أشعارهم حيث قالوا فلان لشعره قران وليس لشعر فلان قران وفلان يقول البيت وأخاه وفلان يقول البيت وابن عمه .

وَشِعرٍ كَبَعرِ الكَبشِ فَرَّقَ بَينَهُ لِسانُ دَعِيٍّ فِي القَريضِ بَخيلِ

وقد أشار إِلى بعض هَذَا أو جميعه ابن قتيبة فِي مقدمته والجاحظ فِي البيان والتّبيين .

ولعلّ القصيدة العربيّة تشبه من حيث سنخها الموسيقي وطريقة تأليفها موسيقا الفرنجة دون شعرهم . إذ فيها لا تفتأ تتجاوب أصداء نغمة بعينها أو أنغام بأعيانها من حين إِلى حين كالّذي يقع فِي القطعة من التّأليف الموسيقي الغربيّ كالسّمفونية وكالسّوناتة

مثلًا . وتجد النّغم أحيانًا يشط ويبعد عمّا كَانَ عليه آنفًا ثمَّ يرجعه لمع من صدى كَانَ خفيًّا من قبل ويجعل الآن يرتفع ويزيد . وليس ههنا موضع تفصيل هَذَا الباب . عَلى أن مما يحسن الاستشهاد به مختصرًا معلقة امريء القيس إذ استهلها الشّاعر بأن وقف واستوقف واختتمها بسيل جارف ذهب للحسرة بهذا الَّذي وقف عنده فأثار شجاه فلم يدع من توضح فالمرأة رسما .

وَتَيماءَ لَم يَترُك بِها جِذعَ نَخلَةٍ وَلا أُطُماً إِلّا مَشيداً بِجَندَلِ

ولم يبق إلا سبير مثل كبير أناس ورأس المجيمر كفلكة المغزل بين السّيل والغثاء ، وآذان الوحش الغرقى .

بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

وذكريات الشّاعر من قبل كانت ماتني تطرد يدعو بعضها بعضًا وتتجاوب أصداؤها عَلى ظاهر ما بينهن من تباعد وافتراق .

تُضيءُ الظَّلامَ بِالعِشاءِ كَأَنَّها مَنارَةُ مُمسى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ

إِلى مِثلِها يَرنو الحَليمُ صَبابَةً إِذا ما اسبَكَرَّت بَينَ دِرعٍ وَمِجوَلِ

وهذا يجيب صدى قوله آنفًا : فجئت وقد نضت لنوم ثيابها وبيضه خدر الأبيات كما يجيب صيرورته من بعد إِلى ليل دامس كموج البحر تضيء فيه نجوم لواغب والثّريا بينهن كأثناء الوشاح المفصل وجعل المنجرد قيد الأوابد الهيكل بإزاء النّاقة والغبيط فِي أوّل القصيدة وأحسب إِلى هَذَا المعنى أشار الحاذق أبو العلاء :

أَينَ اِمرُؤُ القَيسِ وَالعَذارى إِذ مالَ مِن تَحتِهِ الغَبيطُ

لَهُ كُمَيتانِ ذاتُ كَأسٍ تُزبِدُ وَالسّابِحُ الرَّبيطُ

وجعل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء ... إلخ بإزاء العذارى يرتمين بلحمها وشحم ... إلخ ، وجعل قوله :

مكـرٍّ مفـرٍّ مـدبر مقبـلٍ معـاً كجلمودِ صخرٍ حطّه السّيلُ من علِ

كانه يمهد لصفة السّيل من بعد الَّذي يكب عَلى الأذقان دوح الكنهبل . ولا أحسب

خفى عنك تجاوب النّغمة فِي التّنبيه بمصابيح الرّاهب حيث شبّه بهنّ الفتاة الَّتي تضيء الظّلام بالعشاء ، ظلام ليل دنياه الَّذي أرخى عليه سدول الهموم وحيث شبه بهن البرق والبرق رمز الذّكرى ورمز الحنين ورمز الأمل .

أَصاحِ تَرى بَرقاً أُريكَ وَميضَهُ كَلَمعِ اليَدَينِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضيءُ سَناهُ أَو مَصابيحَ راهِبٍ أَهانَ السَّليطَ فِي الذُّبالِ المُفَتَّلِ

هذا

وقد عمد العقّاد فِي إظهار ما كَانَ يذهب إليه من أمر وحدة القصيدة وتعاطفها إِلى المزاوجة بين أسلوبين أحدهما عربي ليكون هو الأصل والآخر مستفاد من قراءته فِي الأدب الإفرنجيّ ليكون بمنزلة التّوليد . فأمّا الأسلوب العربيّ فطريقة ابن الروميّ فِي البسط والتعليل والتفصيل وأمّا الأسلوب المولد فطريقة فكرية فِي التّعبير عن العواطف تنظر نظرًا شديدًا إِلى شكسبير وعصره وإلى الميتافيزيقيّين من أمثال جون دون وأندرومارفيل بشكل خاص وقد تنظر إِلى ورد زورث فِي طبيعياته والي شلي والي سائر الرومانتكين . وفِي ديوان العقّاد الأول أمثلة واضحة الدّلالة عَلى هَذَا ونحوه نذكر منها عَلى سبيل المثال :

كأنني تاجر بالشط مرتقب موج الخضم وفلكي فيه غرقان

فهذا من تاجر البندقية . وقوله :

بقية لك أتلوها وأنشدها هذي القصائد لي فيهن سلوان

فهذا ينظر إِلى قول الشّاعر الإنجليزي :

So long as men read and eyes can see .
So long lives this gives life to thee .

وقوله :

أيذوي الصّبا فينا لأن منعما من النّاس بسام الثّغر غرير

يشبه

Shall I wasting in despair .

Die because a womon is fair .

وأحسب أنّ الّذي اجتال العقّاد إلى محاكاة ابن الروميّ وجعل أسلوبه إطارًا لما كَانَ يهمّ به من تجديد وتوليد (كما قد جعل شوقي التّاريخ إطارًا لوحدة القصيدة المولدة عنده) هو ابن رشيق حيث هم بتفضيل ابن الروميّ عَلى أبي تمّام في باب الغوص عَلى المعاني من كتابه العمدة . وكأنّ العقّاد في فورة حماس الغيرة عَلى العربيّة ليكون في أشعارها من عمق الفكر وتساوقه مثل ما في أشعار الفرنجة (ونقاد الفرنجة كانوا يزعمون أنّ العربيّة ذات لفظ مدو ومعان ضحلة أو لامعان) تمسك بهذا القول من مقالة ابن رشيق وكان في الظّاهر من استهلال أبي تمّام بالأطلال :

طَلَلَ الجَميعِ لَقَد عَفَوتَ حَميدا
عَلى مِثلِها مِن أَربُعٍ وَمَلاعِبِ
سَقى عَهدَ الحِمى سَبَلُ العِهادِ
أَرامَةُ كُنتِ مَأَلَفَ كُلِّ ريمِ
ديمَةٌ سَمحَةُ القِيادِ سَكوبُ

واتباعه مذاهب الأوائل ما يوحي بأنه لن يكون الضّالة المنشودة الّتي يقاتل بها العربيّ دعاوي الغربيّين . وعسى أن يكون الضّالة الرّوميّ . ودفاع العقّاد عن ابن الرّوميّ ومذهبه فيه معروف .

وأكاد أزعم أنّ العقّاد قد كَانَ شبهه أكبر بأبي تمّام منه بابن الرّوميّ وأن ليته جعله هو الأصل الّذي يحذو عليه دون ابن الرّوميّ ، وإذن لسلم شعره من كثير من التّطويل ومن خشونة اللّفظ اللّذين كَانَ ابن الرّوميّ قدومة فيهما وقد كَانَ ابن الرّوميّ ضعيف اللّفظ في الكثير الغالب والي هَذَا منه أشار أبو العلاء حيث قَالَ :

لَو نَطَقَ الدَّهرُ هَجا أَهلَهُ ... كَأَنَّهُ الرّومِيُّ أَو دِعبِلُ
وَهوَ لَعَمري شاعِرٌ مُغرِزٌ ... بِالفِعلِ لَكِن لَفظُهُ مُجبِلُ

والّذي يجعلني أزعم أن شبه العقّاد بأبي تمام أكبر من شبهه بابن الرومي أمران في

طبيعة العقّاد، أمر أصيل عنده وآخر اقتبسه من مذاهب الشّعر الأفرنجي وصادف هوى عنده. أمّا الأمر الأصيل عنده فحب التّدريس وحسبك شاهدًا قوله:

غريـــرة تســـأل مـــا الحـــب
بنيتـــي هَـــذَا هـــو الحـــب
مســـألة أســـهلها صـــعب
لا النّـــاس تـــدريها ولا الكتـــب
حســبك منهـــا لـــو شـــفت حســب
إشـــارة دق لهـــا القلـــب
فهمتـــه، كـــلا ولا عتـــب

والتّدريس عند أبي تمّام كثير وحسبك أنه صاحب الحماستين وديوان القبائل ونقائض جرير والأخطل. وتأمل قوله:

أزريـــن بِـــالمُردِ الغَطـــارِفِ بُـــدَّنا ... غيـــداً أَلِفـــنَهُمُ لِـــداناً غيـــدا
أذكَرتَنـــا المَلِـــكَ المُضَـــلَّلَ فِي الهَـــوى ... وَالأَعشَـــيَينِ وَجَـــرولًا وَلَبيـــدا

يعني اذكرننا نحو: وجئت وقد نضت لنوم ثيابها، ومهفهفة بيضاء غير مفاضة، وودع هريرة إنّ الرّكب مرتحل، وينطقن معروفًا وهن نواعم وهلمّ جرّا..

هذا والأمر الثّاني الَّذي يشبه فيه العقّاد أبا تمّام هو ما أخذ من مذاهب الفرنجة من طلب تشقيق المعاني ودخل فِي هَذَا نظره إِلى طريقة الميتافيزيقيّين من طلب الاستعلاء عَلى محض العواطف بالافتتان فِي معارض فكرية أو ما يسميه نقاد الإنجليز Far- fetched conceits ونظره إِلى شكسبير فِي محاولة قهر كبرياء المحبوب بكبرياء الفن So long lives this and this gives life to thee.

تضـــن بشيء لســـت تعلـــم قـــدره ... ونعلـــم مـــا نســـخو بـــه ونعـــير
نجـــود بحبـــات القلـــوب وبـــالنهي ... ولـــيس لنـــا مـــن النّـــائلين شـــكور

وقد كَانَ أبو تمّام رحمه الله مما يستعلي عَلى العواطف ويضبطها ويكبحها ويخضعها للفن

إخضاعًا كما قد كَانَ مما يغوص عَلَى المعاني غوصًا لا يبلغ مبلغه أحد . وتأمل قوله :

ومُسْمِعَةٍ يحارُ السّمعُ فيها ... ولم تصممه، لا يُصمم صَداها

مرت أوتارها فشفت وشاقت ... فلو يستطيع حاسدها فداها

فما خلت الخدود كسبن شوقًا ... لقلبي مثلما كسبت يداها

ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَتْ كبدي فلم أَجْهَلْ شَجاها

وموضع الاستشهاد قوله :

فما خلت الخدود كسبن شوقًا ... لقلبي مثلما كسبت يداها

ألا ترى أن أبا تمّام قد أعجبه جمال هَذِه القينة .. بآية ما ذكر خديها ولكن جمال فيها دون سواه هو الَّذي ملك عليه لبه وهذا قوله فما خلت الخدود ، ودقة الغوص عَلى المعنى ههنا لا تخفى .

ومن هَذِه الجهة يفارق أبو تمّام شكسبير والميتافيزيقيين والعقّاد جميعًا ويرتفع ارتفاعًا لا يبلغه أحد إذ هو ينسى نفسه وفنه ويدلك عَلى موضع المتاع الفكريّ الفني وحده غير مشوب بأيّما طابع ما من ذاتية تتعلق به هو ، والله أعلم . وتأمّل أيضًا قوله :

لَقَد أَطرَقَ الرَّبعُ المُحيلُ لِفَقدِهِم ... وَبَينِهِم إِطراقَ ثَكلانَ فاقِدِ

وَأَبقَوا لِضَيفِ الحُزنِ مِنّيَ بَعدَهُم ... قِرىً مِن جَوىً سارٍ وَطَيفٍ مُعاوِدِ

وَفي الكِلَّةِ الوَردِيَّةِ اللَّونِ جُؤذُرٌ ... مِنَ الإِنسِ يَمشي في رِقاقِ المَجاسِدِ

رَماني بِخُلفٍ بَعدَ أَن عاشَ حِقبَةً ... لَهُ رَسَفانٌ في قُيودِ المَواعِدِ

أي سأزورك سأنيلك وهي لا تنوي شيئًا من ذلك إنما هي مواعيد عرقوب ثمَّ هي بعد ذات حياء وورع فهذه المواعيد الَّتي وعدتها كاذبة قيدتها أو كأنها قيدتها فكلما لقيته لقيته بمطل جديد وكل مطل جديد كأنما هو قيد جديد .

غَدَت مُغتَدى الغَضبى وَأَوصَت خَيالَها ... بِحَرّانَ نِضوِ العيسِ نِضوِ الخَرائِدِ

وَقالَت نِكاحُ الحُبِّ يُفسِدُ شَكلَهُ ... وَكَم نَكَحوا حُبّاً وَلَيسَ بِفاسِدِ

سَأَلوي بِهَذا القَلبِ مِن لَوعَةِ الهَوى ... إِلى ثَغَبٍ مِن نُطفَةِ اليَأسِ بارِدِ

ولا أحسب خفِي عنك كيف خلص الشّاعر إلى الطّريقة الّتي حررت بها نفسها من قيود المواعد والرّسفان فيهن ، غدت غاضبة ثمَّ رمته بكلمة الهجر . لم تنكر حبه بل أكدته ولكن زعمت متفلسفة أن الوصال يفسد الحب .

ولذلك فلمّا بدّ من الهجران فلم يجد المسكين بدًّا من أن يأوي إلى اليأس ليكون لَهُ اليأس عزاء ، ليروي غلة صداه بنطفة باردة من مشرب اليأس .. وهذا كما نرى معنى غاية الدّقة غاية الأصالة .

قال العقَّاد رحمه الله :

هاتها واذكر حبيب النّفس يا خير ثقاتي

وليست ثقات ههنا بزائدة من زوائد القوافِي ولكنها معنى متعمد مقصود عَلى طريقة أبي تمام .. أي أنت عندي ثقة فأنا لا أتحرج منك . عَلى أن فِي قول العقَّاد «يا خير ثقاتي» نوعًا من السّذاجة ويسر النّفس لا يقع مثله عند أبي تمام لا لأن أبا تمّام غير يسير النّفس ولكن لأنه لا يظهر بمظهر من عسر وبون وبين كما كَانَ يفعل العقَّاد فِي ديوانه الأوّل قويًّا أبيًا بقوة الشّباب والفكر المجدد وتحديها وإبائها . ثمَّ «مثل يا خير ثقاتي» تخترق هَذَا السّياج من الإباء والقوّة لأنّها من خلق نفسه الكريمة الرّقيقة الطيّبة . وموضع السّذاجة فيها أنها لقطة عالم نسي أنه عالم يتطّلف إلى نديم لابدّ أنّها ستروعه .. خبرنا العدول ، خبرنا الثّقات .

ودع التّلميح واجهر باسمه دون تقاة
أترى نحرم حتى ذكره فِي الخلوات

وسذاجة جميع هَذَا لا تخفى ولعل العقَّاد فِي نحو هَذَا أشبه بابن الرّوميّ منه بأبي تمّام .

غير أنّي أمتع النّفس بحظ الحدقات

وهكذا كما نرى من أبي تمّام بلا أدنى ريب . امتاع النّفس بحظ الحدقات كأنّما ينظر من طرف خفِي إلى «كسبت يداها» وجانب التّعمق ومحاولة إعلاء كلمة الفكر فوق العواطف فِي كل هَذَا لا يخفى .

وقال العقّاد رحمه الله :

يـا مـن أصـون جمالـه وكأنّـه — خصم عَلى تلك المحاسن يحقد
لا شيء أوجع لامرئ من أن يرى — حملًا يطيب مَعَ الذّئاب ويرغد
أخشى عليك من البعيد — وأنت لا تخشى من الدّاني الَّذي لا يبعد
وأحوط حسنك بالتّمائم والرّقى — وتظل تنثر عقدها وتبدد
وتبيت ريان الجفون من الكرى — والنّار حولك والدّخان الأسود
لم تتبع نصحي وملت مَعَ الهوى — جهلًا وغرك أنّ غصنك أملد
والغصن تسقط إذ يميل ثماره — ويزل عنه الزّهر إذ يتأود
إن كنت تمنعك الطّراءة والصّبا — شر التقصف فالتّجرد أنكد
أولى بحسنك أن يضيئك حسنه — من أن يحفّك منه غيم أربد

وهذه الأبيات فِي جملتها ميتافيزيقية الطّابع روميّته . إلّا أنّ جوهرها من جوهر أبي تمّام فيها جد الفكر إزاء الغرض العاطفِيّ كما هو معلوم من طريقة أبي تمّام . وفيها بعد أسلوب قريب مما رأيت فِي داليّة ثعب نطفة اليأس البارد الَّتي قدمنا الاستشهاد بها آنفًا والغرض متشابه إذ هو أن الشّاعر الَّذي عند نفسه عزيز عند المحبوب وهو يظن أنّ من حقه عليه أن يكرمه :

وأحوط حسنك بالتّمائم والرقى — وتظل تنثر عقدها وتبدد

وفِي قول العقّاد :

أولى بحسنك أن يضيئك حسنه — من أن يحفّك منه غيم أربد

شبه عظيم بقول أبي تمّام يهجو الأفشين :

كَم نِعمَةٍ للهِ كانَت عِندَهُ — فَكَأَنَّها فِي غُربَةٍ وَإِسارِ
كُسِيَت سَبائِبَ لومِهِ فَتَضاءَلَت — كَتَضاؤُلِ الحَسناءِ فِي الأَطمارِ

فقد جعل العقّاد للحسن غيما أربد لما غلب سوء أصحاب السّوء عَلى جمال صاحبه وهذا مقارب لمقالة أبي تمّام أن النعمة لما كسيت سبائب اللؤم تضاءلت :

وقد جعلت شخصية العقّاد الرّقيقة المعدن تنجاب عنها حجب الفكر والميتافيزيقية والرّومية شيئًا فشيئًا فِي الدّواوين الَّتي تلت الدّيوان الأوّل . وكأنّه قد كَانَ رحمه الله كلما تقدمت به السّن أحس شدة الحاجة إِلى العشير والأنيس فجعل ذلك يخضد من شوكة كبريائه الفنيّة ويبرز من حقيقة ليّنه وإنسانيّته وعاطفيته ويسر ضريبته .

كلّما قلت لي الرّبيع جميل ... قلت حقًّا وزاد عندي جمالًا
عجبا لي بل العجيبة عندي ... صور الكون كم يسعن كمالا
خلتاني قد وعيتهن عيانا ... وتتبعت من وعوها خيالا
شاعرًا عاشقًا وقارئ كتب ... قرأ الكتب دارسًا فأطالا
فإذا نظرة بلحظك تبدي ... صورًا ما طرقن عندي بالا

.. أين هَذَا الاعتراف من قوله آنفًا :

يا من أصون جماله وكأنّه ... خصم عَلى تلك المحاسن يحقد

ومن قوله إذ كَانَ وهو فِي فورة شباب الفن يمتن عَلى الجميل بأن شعره سيخلّد جماله «نجود بحبات القلوب وبالنّهي» أو كما قَالَ أبو تمّام :

مِن أَجلِ ذَلِكَ كانَتِ العَرَبُ الأُلى ... يَدعونَ هَذا سُؤدُداً مَحدودا
وَتَنِدُّ عِندَهُمُ العُلى إِلّا عُلىً ... جُعِلَت لَها مُرَرُ القَصيدِ قُيودا

ولعلّ من أدلّ كلمات العقّاد رحمه الله عَلى رقته الأصيلة ورغبته إِلى أنس العشير وعمق شعوره بالوحدة والوحشة المحزنة كلمته المسمطة الَّتي عنوانها ساعي البريد وفيها يقول :

هل ثمَّ من جديد ... يا ساعي البريد
لو لم يكن خطابي ... فِي ذلك الوطاب
لم تطو كل باب ... يا ساعي البريد
ما ذلك التّنسيق ... والجمع والتّفريق
والقفز والتّعويق ... يا ساعي البريد
كسوتك الصّفراء ... والخطوة العرجاء

يـــمشي بهـــا الرّجـــــاء يـــا محنـــــة الجليـــــد

لا أحســـــب السّـــاعات فِي حـــــــــاضر وآت

إلا عَـــــلى الميقـــــات ميقاتـــــك الوئيـــــد

فِي شرفتـــــي أبتكـــــر غـــــيرك لا أنتظـــــر

وإن ســـــعى لي القمـــــر يـــا ســـاعي البريـــــد

ألا ترى ههنا مأساة واعترافًا صريحًا بالوحشة . ولكأنّ العقّاد أراد أن ينصرف عن هَـذَا بشيء من التّفصيل والرّواية عند قوله :

يـــا طائفًـــا بالـــدّور كالقـــــدر المقـــــدور

كأنّه أراد أن ينصرف إِلى الفكاهة أو شيء كالفكاهة تبعث السّاعي نفسه .

وليس كحرارة غناء العباقرة الأفذاذ حين يرومون وجدان العشير فلا يجدونه آخر الأمر .

كـــن أبـــدًا مريـــدي بـــــالخبر السّـــعيد

وبابتســـــام العيـــــد يـــا ســـاعي البريـــد

أليس من المأساة المحزنة حقًّا أن يكون ذلك القلب العامر الكبير قد احتاج فِي وحشته الضّاربة بأطناب إِلى أن يلتمس العزاء عند مقام ساعي البريد .

إن فِي شعر العقّاد الأخير أمثلة من نحو هَـذَا كثيرة مفصحة بما جعل يكشفه ذلك الرّجل العزيز القويّ الشّكيمة من جراحات نفسه حين غلب عليه الشّعر وضعف السّن ورشادها .

وليس عليه فِي الوحشة من بأس فإنّها ثمن العبقريّة والنّبوغ .

وليس كحرارة غناء العباقرة الأفذاذ حين يرومون وجدان العشير فلا يجدونه من حرارة ولا كحسرة ذلك من حسرة .

رحمه الله رحمة واسعة وأغدق عليه شآبيب غفرانه فِي جنة رضوانه .

إنّه سميع قريب مجيب .

المحور الخامس : النّقد الأدبيّ القديم

(٤٠٧-٤٥٤)

أ- مع أبي تمّام النّاقد .

ب- نقد الشّعر عند صاحب المثل السّائر .

أ ـــ مَعَ أبي تمّام النّاقد [1]

كان أبو تمّام عالمًا بالشّعر نقّادة لَهُ ، مشهورًا بـذلك ، مشهودًا لَـهُ فيه بـالتّمكن وصحة الذّوق . حتى الآمدي المتحامل عليه ، بلا ريب ، شهد لَهُ بذلك . قَالَ أُستاذ الجيل الشّيخ محيي الدّين عبد الحميد ، أُستاذ جيلنا وأجيال مـن قبـل ومـن بعـد ، رحمه الله وأسكنه دار النّعيم المقيم ، فِي مقدّمة تحقيقه لكتاب الموازنة : «وقد كانـت النِّيـة عَلى أن أنشر ـ مَعَ هَـذِه الكلمة ـ بحثًا ضافيًا أتعرّض فيه لتأْريخ فَنِّ النّقد الأَدَبِيِّ ، ثمَّ أرسم لك طريقـة أبي القاسـم الآمديّ فِي كتابه ، وأذكر لك ما تجمَّع لَدَيَّ من الملاحظات عليه بَعْدَ أن صَحِبْتُه أمـدًا لـيس بالقصيرِ ، وأُحَدِّثك ، عَلى الأخصِّ ، عن تحامله عَلى أبي تمّام وإغضائِه الإِغضاءَ البالغ عـن البحتريّ » . ا . هـ .

وتحامُلُ الآمديّ عَلى أبي تمّام معروف . وليس بأَبْعَدَ فِي بابه من تحامل ابن وكيع عَلى أبي الطّيّب . والنّفاقُ كالنَّفاقِ حظوظٌ ومن تأمّل وجد أنّ أجودَ ما عنـد الآمـديّ مـن قضـايا النّقد فَمِن ناقد آخَرَ أَقْعَدَ منه فِي العلم والنّقـد والشّعر أَخَذَهُ أَخْذًا ذرِيعًا مـن غـير كبـير إشعار سَبْقِه وفضـله فِي ذلـك . أعنـي صـاحِبَ الوَسـاطة أبـا الحسـن عَـلِي بـن العزيـز الجرجانيّ.من عجب أمر علم النّقد فِي عصرنا هَذَا أَنَّ علماءَه لا يـذكرون مـا كَـانَ للشّعراءِ الأوّلين من مكان مكين فيه إلّا قليلًا ، خَبَرَ النّابغة مَعَ حسّان بن ثابت وخبر امرئ القيس مَعَ صاحبته أُمّ جندب وربّما ذكروا حديث الفرزدق مَعَ غَيْلانَ والكُمَيْت ونقد طرفة لخاله أو للمسيّب . وأشياءُ كَأَنْ تُسْتَطْرَفُ وتُسْتَظْرَفُ من هَـذَا القبيـل . هَـذَا مَـعَ أنّ النّقـد علـم قديم وعن العرب أُخِذَ مَعَ الشّعر الَّذي قد كَـانَ هـو عِلْـمَ العرب الَّـذي لم يكـن لهـم علـمٌ أوثق عندهم منه ، يدلّك عَلى ذلك أنّه كَانَ لَهُ رواة موكلون بجمعه ، وقلّ شاعرٌ منهم لم يكن لَهُ رَاوٍ . وذَكَرَ صاحِبُ الأغاني فِي ترجمة الأَحْوَصِ أنّ رُوَاة الفرزدق وجرير كانوا

---

(١) المجلة ، جـ ٥٨ ، ص ٢٥٤. (حسن) .

يراجعونها فِي أشعارهما حتى يثقّفوها . وذكروا فِي أخبار علقمة أنّه وفد عَلى قريش ببائيته:

طحا بك قَلْبٌ فِي الحسانِ طَرُوبُ

عامًا ثُمَّ بميميّته :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

عامًا آخر فسمّوهما بِمْطى الدّهر ، وأنّ لبيدًا وفد بشعره عَلى قريش أيّام أُوليّات الإسلام وكانت لَهُ قصة تجري مجرى النّقد مَعَ أحد كبار المهاجرين من بَعْد الأوّلين . وعن رواة العرب وقدماءِ علمائهم بالشّعر أُخِذَ كثيرٌ ممّا صار عَلى أَلْسُن النّقاد وأقلامهم من بَعْد، وكان من الاصطلاحات كقولهم كَلامٌ فحل وجَزْلٌ وله ماءٌ ويَغْرفُ من بَحْر وينْحتُ من صَخر وشاعِرٌ مُفلق وشُوَيعر . وطَلَبت قريش من مَطْرُود الخزاعي أن يجيئها بشِعْرٍ أفحل ممّا جاءَ به فاستمهلهم ثمّ جاء بالتّائيّة الّتي يقول فيها :

يا عين فَابْكِي أَبا الشَّعْثِ الشَّجِيَّاتِ ... يَنْدُبْنَهُ حُسَّرًا مِثْلَ البَلِيَّاتِ

فرضوها ، فهذا يدلّ عَلى أنّ قولهم شعر فحل كانت لَهُ دلالة بيِّنَة يعرفونها . واجتمعت كفار قريش إِلى الوليد بن المغيرة أن يقيم لهم رأْيًا فِي القرءان يصدرون عنه حين يجيء الموسم . وهو فيما ذكر المفسرون المقصود بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر : ١٨-٢٥] هَذِه الآيات من سورة المدّثر لا تصف ناقدًا ساذجًا ، بل ناقدًا متمكنًا بعيد الغور . وفِي القرءان من حكايات نقد كفّار قريش وهم من صميم الجاهليّة وَجدَ لهم ما يصلح أن تكتب فيه الرّسائل العلميّة الضافية. وهذا باب واسع .

ومن قديم ما رووا من نقد الشّعراءِ ، وقولهم فِي الشّعر بيت زهير ، وقد ينسب إِلى حسّان :

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قائِلُهُ ... بَيتٌ يُقالَ إِذا أَنْشَدتَهُ صَدَقا

وعندي أنّ المراد بالصّدق هنا ما يكون لَهُ من قوة التّأثير ، لأنّ الشّعر حين يُؤثّر ينشرح لَهُ الصّدر ، وتُؤنس النّفس مُوَافَقَة هواها أو الارتفاع به إلى شَرَفٍ من الأمر .

ومن قديم ما رووا قول حسّان :

تَغَنَّ فِي كُلِّ شِعرٍ أَنتَ قائِلُهُ ... إِنَّ الغِناءَ لِهَذا الشِّعرَ مِضمارُ

وهذا نصّ في أن الشّعر والموسيقا صنوان وقال سيبويه في باب وجوه القوافي في الإنشاد : «لأنّ الشّعرَ وُضِعَ للغِناءِ ، والتَّرَنُّم» . وقال الفارابي في أُخريات كتاب الموسيقا الكبير : إنّ الشّعر رئيس الهيئة الموسيقيّة . وسمعنا من بعض أهل العلوم الحديثة فيما يذاع من أقوالهم أنّ الجانب الأيسر من الدِّماغ يُدَبِّر اللّغة ، وأنّ الأيسر يُدَبِّر الموسيقا ويُدَبِّر الشّعر .

فانتماء الشّعر إلى الموسيقا أقوى من انتمائه إلى اللّغة كما ترى ، فأقام «البنْيويّ» قضايا نقده للشّعر عَلى شفا جُرُف هار . وأحسن أصحاب المعجمات والموسوعات إذ نَصُّوا عَلى الوزن في كُلِّ تعريفٍ للشّعر . وأحسنت العرب إذ قالت : هو الكلام الموزون المُقفّى ، إذ القافِيَةُ وزن ولها أوزان وقد فصّل ذلك وبيَّنه الخليل بن أحمد ونقله عنه أبو الحسن في كتاب القوافي ووهم قدامة حيث عدل عن جَعْلِ ائتلافاته ستّة ، زاعمًا أنّ تأليف ثلاثة الأُمور ـ أي اللّفظ والوزن والمعنى ـ قد انتظم ائتلاف القافية أيضًا «إذ كانتْ لا تَعدو أنَّها لَفْظَةٌ كسَائِرِ لَفْظِ البَيْتِ المُؤتَلِف مَعَ غَيْرِه» . ولكنّه قد استدرك بعض هَذَا الوهم في قوله : «إلّا أنّي نظرت فوجدتها من جهة ما أنّها تدلُّ عَلى معنى ، لذلك المعنى الَّذي تدلُّ عليه ائتلاف مَعَ سائر البيت ، فأمّا مَعَ غير فلا » فصارت ائتلافاته أربعة . فأدخله ذلك في حيِّز ما عابه أبو تمّام في هجائه ليوسف السرَّاج حيث قَالَ :

فَلَو نُبِشَ المَقابِرُ عَن زُهَيرٍ ... لَصَرَّحَ بِالعَويلِ وَبِالنَّحيبِ

مَتى كانَت قَوافيهِ عِيالاً ... عَلى تَفسيرِ بُقراطِ الطَّبيبِ

وَكَيفَ وَلَم يَزَل لِلشِّعرِ ماءٌ ... يَرُفُّ عَلَيهِ رَيحانُ القُلوبِ

وقد استشهد بهذه الأبيات صاحب الوَسَاطة وعلّق عليها بقوله : «فَخَبِّرْني هَل تعرف

شِعْرًا أَحْوَج إِلى تَفْسِير بقراط ، وتأويل أرسطوليس ، من قوله :

جَهمِيَّـــــةُ الأَوصـــــافِ إِلّا أَنّهُــــم ‍ ‍ قَــــد لَقَّبوهـــــا جَــــوهَرَ الأَشـــياءِ

وقوله :

يَــومٌ أَفــاضَ جَــوًى أَغــاضَ تَعَزِّيــاً ‍ ‍ خــاضَ الهَــوى بَحــرَي حِجاهُ المُزبِـدِ

إلى آخر ما قاله .

(انظر : ص ٢٠-٢١ من الطّبعة الثّالثة للوساطة ، دار عيسى البابيّ الحلبيّ) .

وقد ترى أنّ أبا تمّام لم يذكر أرسطو وإنّما ذكر بقراط فَقَوَّلَهُ الجرجانيّ ما لم يَقُل وحاسبه بما تَوَهَّمَه أراده ، وما أراد إلا بقراط يدُلُّكَ عَلى ذلك نَعْتُه لَهُ بالطّبيب . ولسنا نَعْلَمُ حقًّا ما أثار أبا تمّام علي يُوسف السرّاج حتى هجاه ، ولكنَّ ظاهِرَ قول أبي تمّام يُنبِئ عن أنَّ هَذَا تعرَّض لَهُ بنقد أو طَنْ واستعان فِي ذلك بعبارات مِمَّا يقع فِي تفسير طِبٍّ بقراط ولا يَحْسُن عنده أن تقع فِي نقْدِ الأدب وتذوق الشّعر . وإن صحَّ هَذَا من تَصَوُّرِنا ، فإنّ قُدَامةَ لا يكون سابقًا كلَّ السّبق فِي الَّذي ذهب إليه من تأليف عناصِر أربعة فِي ائتلافاته الأربعة ، وكأَنَّ هَذَا مذهب قد ذهب إليه أمثال يوسف السرّاج من قَبل ، وعابه أبو تمّام ، أن تدخل العناصر الأربعة والأمزجة الأربعة فِي تذوُّق الشّعر الَّذي إنّما هو رونق وديباجة وماءُ بيان يَرِفُّ عليه رَيْحَانُ القلوب» . وعناصِرُ طبٍّ بقراط الأربعة هي الماءُ والتّراب ، والهواءُ والنّار ، والأمزجة الأربعة من ائتلاف هَذِه الأربعة ، وهي الدّم والبلغم والصّفراء والسّوداء . وتوكَّأ الآمدي عَلى الجرجانيّ فنسب أبا تمّام إِلى أن يكون حكيمًا ، أو فيلسوفًا فِي الباب الَّذي جعله فيما نَجِدُ فِي أُخريات الموازنة المطبوع عن فضل البحتريّ .

ثم أقدم عَلى أن يجعل لِنَفْسِهِ قَدَمًا فِي علوم اليونان والهند والفرس ، فَذَكَرَ فيما ذكره «أنَّ كُلَّ مُحْدَث مصنوع مُحتاج إِلى أربعة أشياء ، عِلَّة هَيْولانيّة وهي الأصل وعلّة صوريّة وعلَّة فاعلة وعلة تماميّة » . ا.هـ .

ثم فسر العلّة الهيولانيّة فقال : «فَأَمَّا الهَيُوليّ فإنّهم يعنون الطّينة الَّتي يَبْتَدعها الباريّ تبارك وتعالى ويخترعها ليصوِّر ما شاءَ تصويرَهُ من رَجُل أو فرس أو جَمَل أو غيرها من

الحيوان ، أو بُرَّة أَو كَرْمة أو نخلة أو سِدْرَة أو غيرها من سائر أنواع النّبات » . ا.هـ .

قلت : فقد جعل أصحاب الهيولي يتشهدون بشهادة الإسلام وهم بعد غير خارجين عمّا ذكره أبو الطيّب حيث قَالَ :

فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤذي القُلوبَ بِها ... مِن دينُهُ الدَّهرُ وَالتَّعطيلُ وَالقِدَمُ

ولو كَانَ قول القائلين بالهَيُولِيّ أنّها الطِّينة الَّتي يبتدعها ويخترعها الباري ما كَانَ أبو حامد ليحتاج إِلى قول ما قاله فِي تهافت الفلاسفة ، إذ هي عندهم كما لا يخفى قديمة قدم الخالق ، سَبْقُه لها سَبْقُ العلّة للمعلول وما هو من هَذَا المجرى .

والأبيات الثّلاثة الَّتي ذكرنا من قطعة كلُّهَا ممَّا يدخل فِي صميم علوم النّقد . قَالَ أبو تمّام (طبعة الوهبيّة سنة ١٢٩٢هـ ، ص ١٧٨) :

أَيوسُفُ جِئتَ بِالعَجَبِ العَجيبِ ... تَرَكتَ النّاسَ فِي شَكٍّ مُريبِ
سَمِعتُ بِكُلِّ داهِيَةٍ نَآدٍ ... وَلَم أَسمَع بِسَرّاجٍ أَديبِ
أَما لَو أَنَّ جَهلَكَ كانَ عِلماً ... إِذَن لَنَفَذتَ فِي عِلمِ الغُيوبِ
فَما لَكَ بِالغَريبِ يَدٌ وَلَكِن ... تَعاطيكَ الغَريبَ مِنَ الغَريبِ
فَلَو نُبِشَ المَقابِرُ عَن زُهَيرٍ ... لَصَرَّحَ بِالعَويلِ وَبِالنَّحيبِ
مَتى كانَت قَوافيهِ عِيالاً ... عَلى تَفسيرِ بُقراطِ الطَّبيبِ
فَكَيفَ وَلَم يَزَل لِلشِّعرِ ماءٌ ... يَرِفُّ عَلَيهِ رَيحانُ القُلوبِ
أَرى ظُلميكَ إِنصافًا وَعَدلًا ... وَذَنبي فيكَ تَكفيرُ الذُّنوبِ

هل ظُلْمُه لهُ هو قوله : «ولَمْ أَسْمَعْ بسَرَّاجٍ أدِيب » ؟

وقد عابه بالجهل ، فالعلم عنده مما ينبغي أن يتصف به الشّاعر ، وهكذا كَانَ يرى العرب ، للذي رووه من وقل عمر رضي الله عنه فما كَانَ ليقوله لو كَانَ قول العرب مخالفًا لَهُ . وقد يُؤتَى بعض أهل الدّرس للشّعر من قول ابن قتيبة فِي مقدمة كتابه عن الشّعر والشّعراء ؛ حيث يقول بعد أن أورد أبيات الخليل العينيّة الَّتي أولها :

إِنَّ الخَليطَ تَصَدَّع ... فَطِر بِدائِكَ أَو قَع

«وهذا شعر بينُ التّكلف رديء الصّنْعَة وكذلك أشعار العلماء وإنّما عني عُلَماءَ بأعيانهم، ذكر منهم الأصمعيَّ وابن المقفع ، والخليل . وما عدا أن اقتفى أثَر الجَاحظ فِي أَخْذِ ما أخَذ عَلى بعض علماءِ زمانه فِي أَمْرِ تذوق الشّعر . ولم يَخْلُ من جَوْرٍ عَلى الخليل إذ هو أَشْهَرُ من عَلَم فقال : يُقَدِّمُ أبياته العينيّة »كقول الخليل بن أحمد العروضيّ» ينسبه كما ترى إِلى العروض ليخرجه من جَوْدَةِ طَبْعِ الشّعر والأبيات الّتي عاب ذَاتُ رنين وإيقاع ، فكأنَّه لم ير هَذَا إلا قد نشأ من علم الخليل بالعروض . ثُمَّ لم تكن لَهُ حجّة فِي عَيْبها إلا قوله: «لو لم يكنْ فِي هَذَا الشّعر إلا أمّ البنين وبَوْزَع لكفاه ولا أَدْرِي لِمَ عاب «أمَّ البنين» وهو اسم كَانَ فيما كَانَ لامرأة من سيّدات عقائِل قريش ، مدحها الشّعراء ورُوَيت فِي حبّها الأساطير ، وما أحسب أنّ «بَوْزع» جاءَ بها جرير عَلَمًا ، ولكنّه جاءَ بها لقَبًا يُخَاطِبُ به هَذِه الّتي هَزِئت به ، ومن تأَمّل ذلك وَجَد أَنَّه حَسَنٌ غاية الحسن ـ إذ البزيع هو الحدث الخفيف، وهذه شابَّة زعمت لجرير أنّه قد مضى شبابه وأنّ لا غَزَل عنده ، وأنّه إنّما هو كشيخ يدِبُّ عَلى العصا .

وَتَقولُ بَوزَعُ قَد دَبَبتَ عَلى العَصا هَلّا هَزِئتِ بِغَيرِنا يا بَوزَعُ

«يا خبيثة» .

وقد كَانَ جرير من أعلم الشّعراء باختيار الكلم .

وقد أنصف الخليلَ ابنُ المعتز إذ قد استحسن شعره . وكأنّ المعريّ قصد إِلى معارضة ابن قتيبة فجاءَ بالأبيات العينيّة فِي غفرانه وجعلها مما يطرب لَهُ أهل الجنّة وترقص عليه الحُور الحسّان ، إلا أن نَسب هَذَا إِلى خفيّ زندقةٍ عند المعريّ ، أنّه كما جعل نَعِيمَ الجنّة يَسْلُب من بها الرِّوايةَ والحِفْظَ كذلك جعله يسلبهم تذوُّقَ الشّعر .

هذا وقول أبي تمّام :

فَما لَكَ بِالغَريبِ يَدٌ وَلَكِن تَعاطيكَ الغَريبَ مِنَ الغَريبِ

يُوقَف عنده . وقد عيب عَلى أبي تمّام فيما عيب عليه وَلَعُه بالغريب .

وقد كَانَ الغريب مما يُسْتَحْسَنُ مَجِيء شَيْءٍ منه فِي كلام البلغاء .

يشهد لذلك مثلًا خَبَرُ أبي الأسود الدُّؤَلي مَعَ الفتى الَّذي زعم أنّ أمّه حَظِيَتْ وَبَظِيَتْ يتفاصح بها . وزعم ابن الأثير في المثل السّائر أنّ بعض الغريب مما يحسن مجيئه في الشّعر لا النّثر وعاب عَلى ابن نباتة الخطيب قوله «اقمطر» أو «اقمطرت» وإنّما بني ابن نباتة عَلى ألفاظ القرءان ، ولو لم يكن للعرب بالغريب عناية وله دلالة معنوية خاصّة عندهم ما كَانَ العجاج ورؤبة ليجدا ما وجدا من المكانة عند سادات قريش . ولا يقدح في ذلك أنّ بعض الغريب ، حين يُتكلَّفُ ، معيب . فالعيب في التّكلف أصلا .

وقد كَانَ أبو تمّام قويَّ الطَّبع ، ذوّاقة ، واسع الرّواية والحفظ . فكان يضع الغريب مواضعه إلا ما ندر ، ولكل صارم نَبْوة ولكل جواد كبوة . ثمّ عسى أن يكون ما يَعُدُّهُ زيد من النّاس غريبًا أن يكون من المألوف عند عمرو . وقد نَبَّه الجاحظ إلى بعض هَذَا حيث ذكر أن الوحشيَّ من الكلام قد يفهمه الوحشي من النّاس . وما يخلو إنسان من أن يكون وحشيًّا بعض الأحيان . ولغة الغضب ينبغي لها أن تكون غير لغة الرّضا ، ووَصْفُ السَّفَرِ في الصّحارى غَيْرُ وصف مشاهدة البساتين .

قال أبو تمّام :

عَلى كُلِّ رَوّادِ المَلاطِ تَهَدَّمَت ... عَريكَتُهُ العَلياءُ وَانضَمَّ حالِبُه

فَكَم جِذعِ وادٍ جَبَّ ذِروَةَ غارِبٍ ... وَبِالأَمسِ كانَت أَتمَكَتهُ مَذانِبُه

فهذا في وصف السير ، وقال :

رَقَّت حَواشي الدَّهرُ فَهيَ تَمَرمَرُ ... وَغَدا الثَّرى في حَليِهِ يَتَكَسَّرُ

دُنيا مَعاشٌ لِلوَرى حَتّى إِذا ... جُلِيَ الرَّبيعُ فَإِنَّما هِيَ مَنظَرُ

فهذا في صفة رياض الرّبيع .

وقوله في الأبيات البائية «فلو نبش المقابر عن زهير» فيه إشارة جلية إلى قول المهلهل :

فَلَو نُبِشَ المَقابِرُ عَن كُلَيبٍ ... فَيَعلَمَ بِالذَّنائِبِ أَيُّ زيرِ

واراه خصّ زهيرًا وتجويده وتعتيق القصيدة حتى ينصرم عنها حَوْل . ومع هَذَا لم يَسْلم من أَخْذِ بعضهم عليه قوله في دالية لَهُ «ولا يَجَقَلَّد» يرونها من الغريب . وإنّما كَانَ هَذَا وزنًا

عندهم يجري مجرى المبالغة كقولهم «سِيدٌ عَمَلس» «وَعَمَرَّد» و «عَقَنْقَل» و«حَفَيْدد» قَالَ سيبويه فِي عقنقل : «وإنّما عَقَنْقَل من التَّعْقِيل» فهذا فيه نحو مما ذكرنا من معنى قصد المبالغة.

وقول أبي تمّام فِي الأبيات البائيّة :

فَكَيْفَ وَلَمْ يَزَلْ لِلشِّعْرِ مَاءٌ ... يَرُفُّ عَلَيْهِ رَيحَانُ القُلُوبِ

رواية الدّيوان «فكيف» وفِي الوَسَاطةِ «وكيف» وهما متقاربان .

وقد ترى مدح أبو تمّام للشّعر بأن لَهُ ماء يرفُّ عليه ريحان القلوب .

وهذا النّحو من المدح للشّعر ، وخاصة شعره هو الَّذي يثقفه ويفد به عَلى السّادة لينال الجوائز ، كثير عند أبي تمّام . من ذلك قوله (الدّيوان ص ٤١) :

إِلَيكَ بَعَثْتُ أَبْكارَ المَعَاني ... يَلِيهَا سَائِقٌ عَجِلٌ وَحَادي

جعلها أبكارًا كما جعلها قِلاصًا لها سائق وحاد ، لطرافَتِها ولِسَيْرُورَتِها ولما جَعَلَ نَفْسَهُ، وإن لم يَفِدْ ، كالوافدِ بها :

جَوائِرَ عَنْ ذُنَابى القَومِ حَيرى ... هَوادِيَ لِلجَماجِمِ وَالهَوادي

شِدادَ الأَسرِ سالِمَةَ النَّواحي ... مِنَ الإِقْواءِ فيها وَالسِّنادِ

وشِدَّةُ الأَسْرِ من محاسن ما تُوصَفُ به أساليب الشّعر . والعبارة قديمة ورد مثلها فِي الكتاب العزيز وإنّما خاطبهم ، بما لهم به عَهد ، قَالَ تعالى : ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان : ٢٨] وقد وُصِفَ زُهَير بشِدَّة الأَسْر وقيل فِي لبيد أنّه أشدُّ أسْرًا منه ، وفِي الشّماخ أنه أشدُّ أسْرًا من لبيد فدخل الشّماخُ بزيادَةِ شدَّة الأسرِ فِي الجساوَةِ وخالَط لَبيدٌ الخُشُونة ، وقيل فِي أسلوبة كَطَيْلسان طَبَرِيّ» يعنون أنه قويٌّ خَشِن .

ولو أنصف من وصفوا أبا تمّام بتوعير اللّفظ لوصفوه بما وَصَفَ به نفسه من شدَّةِ الأسر فهو كما قدمنا يُعدُّ من المحاسن . قَالَ النّابغة يصف بعض أعدائه الوشاة :

أَتاكَ بِقَولٍ هَلهَلِ النَّسجِ كاذِبٍ ... وَلَم يَأتِ بِالحَقِّ الَّذي هُوَ ناصِعُ

ولم يكن الإقواءُ مما يُعاب كلَّ العيب عند القدماء . وأحسب أن عديَّ بن الرّقاع عناه

بما سمّاه مَيلا في قوله .

وَقَصِيدَةٍ قَدْ بِتُّ أَجمَعُ شَمْلَها حَتّى أُقَوِّمَ مَيلَها وَسِنادَها

ولعل السِّناد لم يكن يَراه القدماءُ عيبًا أوّل الأمر . وقد اعتذر أبو العلاء فيه عن عمرو ابن كلثوم حيث قَالَ :

كَأَنَّ مُتُونَهُنَّ مُتُونُ غُدرٍ تُصَفِّقُها الرِّياحُ إِذا جَرَينا

وهذا ليس بأَبْعَدَ عِنْدي من :

إِذا عَضَّ الثِّقافُ بِها اِشمَأَزَّت وَوَلَّتهُم عَشَوزَنَةً زَبونا

ومن أمال الفتحة من راء جرينا لمكان الياء دنا بها كُلَّ الدّنو من الكسر المشبع الحمض.

ونرجع إلى أبيات أبي تمّام :

يُذَلِّلُها بِذِكرِكَ قَرنُ فِكرٍ إِذا حَزَنَت فَتَسلَسُ في القِيادِ

لَها في الهاجِسِ القَدحُ المُعَلّى وَفي نَظمِ القَوافي وَالعِمادِ

مُنَزَّهَةٌ عَنِ السَّرَقِ المُوَرّى مُكَرَّمَةً عَنِ المَعنى المُعادِ

قوله لها في الهاجس أي تخلص من قلبه إلى قلب سامعها فتفوز بقبوله ورضاه ثمَّ لها الفوز في أسلوب نظم القوافي ولها الفوز في نهج الشّعر وعماده ـ فترى هنا أن حبيبًا أعطى شعره من خصال الجودة ما ذكره الجاحظ ، يرويه عن الأوائل أنّ الكلام إذا خرج من القلب خلص إلى القلب ، وإن كَانَ من اللّسان لم يتجاوز الآذان . وافتخر بسلامة القوافي وصحتها وخلوها من التّكلف ، إذ لا يكون لها في الهاجس القَدْحُ المُعَلّى إلا وهي كذلك . ثمَّ ادّعى أن لها القدح المعلى في عماد الشّعر . وزعم الآمديّ أنّه فارق عمود الشّعر المعروف . وتوسط المعري فزعم أنّه لم يخرج عن الأصل العربيّ ولكنّه أغرب في الاستعارة وهذا مضمون ما جاء في حديث الغفران عَلى لسان عنترة .

وأمَّا قوله «منزّهة عن السَّرق المورّى» فهو تقوية لما بدأ به من الافتخار بأبكار المعاني . وأنكر عليه الآمديّ ذلك مدعيًا أنّ ما خفِي من سرقاته أكثر مما قام منها قَالَ : «فإنّه ما من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه واطّلع عليه » .

وبعض هَذَا من كلام الآمديّ تحامُلٌ ، وبَعْضُه من نوع سطحية فِي النّقد ، إذ كثرة اطلاع حبيب ومعرفته بشعر القدماء ، ذلك مما أعانه عَلى الإبداع والاختراع ـ تأمل مثلا قوله :

حَتّى إذا مَخَضَ اللهُ السِّنينَ لَها مَخْضَ البَخيلَةِ كانَت زُبدَةَ الحِقَبِ

فهذا أصله مولد من قصة بخيلة حميد بن ثور الَّتي يقول فيها :

جُلُبّانَةٌ وَرهاءُ تَخصي حمارَها بِفي مَن بَغى خَيرًا إِليها الجَلامِدُ

وفيها صفة المخض والزّبد . ومثلا قوله :

بِأَنَّكَ لَمّا استخذل النّصر وَاكتَسى أَهابِيَّ تَسْفي فِي وُجوهِ التَّجارِبِ
تَجَلَّلتَهُ بِالرَّأيِ حَتّى أَرَيتَهُ بِهِ مِلءَ عَينَيهِ مَكانَ العَواقِبِ

فهذا مولد من قول غيلان :

وَتَيهاءَ تُودي بَينَ أَرجائِها الصَّبا عَلَيها مِنَ الظَّلماءِ جُلٌّ وَخَندَقُ
غَلَلتُ المَهارى بَينَها كُلَّ لَيلَةٍ وَبَينَ الدُّجى حَتّى أَراها تَمَزَّقُ

فأصل فكرة حبيب من ههنا .

وقوله :

يُذَلِّلُها بِذِكرِكَ قَرنُ فِكرٍ إِذا حَرَنَت فَتَسلَسُ فِي القِيادِ

فيه تنبيه عَلى ما يقع من تعثر وحران وسلاسة وإسماح فِي النّظم ، ومع ذلك فيه كالإشارة إِلى طريقة حبيب نفسه فِي التّأليف ، وذلك أنّه يترنم حين تحرن مُهرَةُ القَصِيد الَّتي هو رائضها حتى تسلس . وربّما أُرِنت فأوشكت أن تجتاز فِي الحِران إِلى الجماح ـ قَالَ يذكر بعض ذلك :

تَغايَرَ الشِّعرُ فيهِ إِذ سَهِرتُ لَهُ حَتّى ظَنَنتُ قَوافيهِ سَتَقتَتِلُ

قال ابن رشيق فِي العمدة (طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣هـ ـ ١-٢٠٩/ ٢١٠) :

«وكان أبو تمّام يُكْرِه نفسه عَلى العمل حتى يَظْهَر ذلك فِي شعره . حكى ذلك عنه بعض أصحابه قَالَ : استأذنت عليه وكان لا يستتِرْ عنّي فأَذِن لي ، فَدَخلْتُ فإذا هُوَ فِي بَيت

مصهرج قد غُسِلَ بالماء يتقلب يمينًا وشمالًا ، فقلت : لقد بلغ بك الحرُّ مبلغًا شديدًا ، قَالَ: لا ولكن غيره ، ومكث كذلك ساعة ثمَّ قام كأنما أُطْلِقَ من عقَال ، فقال الآن وردت ، ثمَّ استمدَّ وكَتَب شيئًا لا أعرفه ثمَّ قَالَ : أتدري ما كنت فيه منذ الآن ؟ قلت كلّا ، قَالَ قول أبي نواس :

كالــدَّهر فيــه شراســة وليــان

أردت مَعْنَاهُ فشَمَسَ عليَّ حتى أمْكَنَ اللهُ منه فصنعت :

شَرَستَ بَل لِنتَ بَل قانَيتَ ذاكَ بِذا فَأَنتَ لا شَكَّ فيكَ السَّهلُ وَالجَبَلُ

ولعمري لو سكت هَذَا الحاكي لَنَمَّ هَذَا البيت بما كَانَ داخل البيت ، لأنَّ الكُلْفَة فيه ظاهرة ، والتعمُّلَ بيّنٌ ، عَلى أن مثل حكاية أبي تمّام وأشدَّ منها قد وقعت لمن لا يتهم وهو جرير ، صنع الفرزدق شعرًا يقول فيه :

فَإِنّي أَنا المَوتُ الَّذي هُوَ ذاهِبٌ بِنَفسِكَ فَانظُر كَيفَ أَنتَ مُحاوِلُه

وحلف بالطّلاق أنّ جريرًا لا يغلبه فيه ، فكان جرير يتمرَّغ فِي الرّمضاء ويقول أنا أبو حزرة حتى قَالَ :

أَنا الدَّهرُ يُفني المَوتَ وَالدَّهرُ خالِدٌ فَجِئني بِمِثلِ الدَّهرِ شَيئاً يُطاوِلُه

وكان أبو تمّام ينصب القافية للبيت لِيُعَلِّقَ الأعجازَ بالصّدور ، وذلك هو التَّصْدِير فِي الشّعر ، ولا يَأْتِي به كثيرًا إلا شاعِرٌ متصنع كحبيب ونظرائِه . والصّواب ألا يصنع الشّاعر بَيْتًا لا يعرف قافيته ، غير أني لا أجد ذلك فِي طبعي جملة ولا أقدر عليه ... إلخ» .

رحم الله ابن رشيق فقد بلغ به العُجْبُ بشعره أن يَقْرِنَ نَفْسَه فِي ذلك إِلى أمثال حبيب . ورحم الله حبيبًا إذ يقول :

وَيُسيءُ بِالإِحسانِ ظَنّاً لا كَمَن هُوَ بِابنِهِ وَبِشِعرِهِ مَفتونُ

الَّذي ذكره صَاحِبُ أبي تمّام الَّذي روى خَبَره ابْنُ رشيق إنْ صحت الرّواية ، من التّقلب يمينًا وشمالًا ، إنّما هو حال مُتَرَنِّم . وكذلك الَّذي وقع لجرير . وقد أحسن ابن رشيق إذ نبَّهنا إليه . غير أنّه جمح به الظّنُّ إذ زعم أنّ أبا تمّام كَانَ ينصب القَافِيَةَ للبيت .

الشّاهد الَّذي سبق وبنى عليه هَذَا القول يدُلّ عَلى خلاف ذلك ، إذ هو صريح فِي أنّ أبا تمّام تعمد قول أبي نواس :

كالدهر فيه شراسة وليان

وجاء فِي أول البيت بقوله «شرست بل لنت» وحرنت عليه بقية البيت فذلّلها بما ترنم به من ذكر الممدوح حتى أسلست ، وليس فِي «شرست بل لنت» من لامٍ كما ترى ، وإنّما أراد أبو تمّام الإشارة إِلى قول أبي نوّاس ثمَّ بناء معنًى عليه .

وروى بعض أصحاب أبي الطّيّب أنّه كَانَ يترنم ، فإن حَرَن به الكلام عاد فترَنَّم من أوّل القصيدة إِلى حيث تَعَسَّر عليه المُضِيُّ فيها ولم يزل يفعل هكذا حتى يسمح لَهُ سائرها .

والقافية وَزْنٌ مَعَ الوزن . والشّاعر مِمَّا تنثال عليه القوافِي المتقاربة المعنى والرّويُّ واحد، فيحتاج إِلى أن يسعفه صِدْق الملكة باختيار المناسب منها ، وهذا ما يدل عليه قول حبيب :

تَغَايَرَ الشِعرُ فيهِ إذ سَهِرتُ لَهُ ... حَتّى ظَنَنتُ قَوافيهِ سَتَقتَتِلُ

وقول ابن رشيق «والصّواب ألّا يصنع الشّاعر بيْتًا لا يعرف قافيته» كأنّه يعتذر به عمّا رَمَى به حبيبًا من نصب القوافِي للأبيات ، وما كل تصدير لَهُ لو تأملته ممَّا يلزم أن يكون قد سبقه نصب قافية لَهُ ـ مثلا :

مَتى أَنتَ عَن ذُهلِيَّةِ الحَيِّ ذاهِلُ ... وَقَلبُكَ مِنها مُدَّةَ الدَهرِ آهِلُ

تُطِلُّ الطُلولُ الدَمعَ فِي كُلِّ مَوقِفٍ ... وَتَمثُلُ بِالصَبرِ الدِيارُ المَواثِلُ

دَوارِسُ لَم يَجفُ الرَبيعُ رُبوعَها ... وَلا مَرَّ فِي أَغفالِها وَهوَ غافِلُ

هذا ، ومما مدح به حبيبٌ شعره قوله :

خُذها اِبنَةَ الفِكرِ المُهَذَّبِ فِي الدُجى ... وَاللَيلُ أَسوَدُ رُقعَةِ الجِلبابِ

بِكراً تُوَرَّثُ فِي الحَياةِ وَتَنثَني ... فِي السِلمِ وَهيَ كَثيرَةُ الأَسلابِ

ويزيدها مرّ اللّيالي جدّةً ... وتقادم الأيّام حُسن شبابِ

هَهنا نفس المعنى الَّذي مرَّ فِي قوله «يذللها بذكر قرن فكر» من الرّبط بين ملكة الشّاعر وطَبْعه وبين عمل الفكر وتهذيبه ، وقد زعم الشّاعر النّاقد الانجليزيّ صموئل تيلور

كلردج (م. سنة ١٧٧٢ ت. ١٨٣٤م) .

أن الفكر يكبح من جماح هَيَجان عاطفة الشّاعر بحملها عَلى نغم الأوزان ، كما يسخر الهيجان المستكِن فِي نغم الأوزان بتسخيره لتحمل اللّغة الملائمة للعاطفة . وأحسِب أنّ أصل كلام كلردج هَذَا من قول ملتون فِي فردوسه المفقود (م١٦٠٨م) (ت١٦٧٤م) :

Themfeed on thoughts that voluntane move Harmonious numbers ... ...

أي فَاقْتَتْ من الأفكار الّتي عن طواعية تحرك النّغمات المنسجمة ـ وإنّما عنى ملتون بالأفكار ما كَانَ ملءَ فؤاده من الأفكار الدينيّة وكان كلردج يتعمق فِي مسائل الدّين عَلى مَا كَانَ يعتَريه من هَوَسٍ وانحرافِ مزاج .

معاني الشّاعر وأفكارُه أمرٌ لا يَنْفَصِم عن موسيقاه وإيقاعه . وقد وهمَ جماعة من نقادنا المعاصرين فاتهموا القصيدة القديمة بالتّفكك وأنّها تقوم عَلى وحدة البيت وأنّها لا تعرف ما سماه أرسطو «الوحدة العضويّة» .

قال ابن رشيق فِي باب النّسيب : «وقال الحاتميّ من حكم النّسيب الّذي يفتتح به الشّاعر كلامه أن يكون ممزوجًا بما بعده من مدح أوْ ذَمّ متصلًا به ، غير منفصل منه ، فإنّ القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فِي اتصال بعض أعضائه ببعض ، فهذا كما ترى نَصٌّ فِي الوحدة العضويّة . وقال أبو تمّام فِي أُخريات بائيّته البسيطية فِي مدح ابن الزيّات الوزير :

خُذها مُغَرَّبَةً فِي الأَرضِ آنِسَةً ... بِكُلِّ فَهمٍ غَريبٍ حينَ تَغتَرِبُ

ههنا تصدير وتجنيس ، ومن تأمل لا أحسبه واجدًا أن نصب القافية للبيت ههنا كَانَ مدعاة للتّصدير أكثر من أن يكون التّجنيس هو الّذي سبق القافية ودعا إليها :

مِن كُلِّ قافِيَةٍ فيها إِذا اِجتُنِيَت ... مِن كُلِّ ما يَجتَنيهِ المُدنَفُ الوَصِبُ

قوله اجتنيت مما عسى أن ينبئ أنها لم تسبق ولكن ما سبقها هو الّذي جاء بها واجتناها، والمدنف الوصب عاشقها هو الشّاعر نفسه :

الجِدُّ وَالهَزلُ فِي تَوشيعِ لُحمَتِها ... وَالنُبلُ وَالسُخفُ وَالأَشجانُ وَالطَرَبُ

لا يُستَقى مِن جَفيرِ الكُتبِ رَونَقُها ... وَلَم تَزَل تَستَقي مِن بَحرِها الكُتُبُ

حَسيبَةٌ فِي صَميمِ المَدحِ مَنصِبُها إذ أكثَرُ الشِّعرِ مُلقىً مالَهُ حَسَبُ

فقد ذكر كثرة ما تشتمل عليه وتنوعه فِي قوله «الجد والهزل البيت» ثمَّ أعطاها صِفةَ الإبداع والابتكار، وأنّه بريء مما يُتّهم به من سرقة أشعار الماضين. وهو عين المعنى الَّذي فِي قوله «مُنَزَّهة عن السّرق المُورّى». ثمَّ أعطاها صِفة تُنبِئ عن أنّها كلّ واحد، مُحكَمٌ شديد الأسر:

حَسيبَةٌ فِي صَميمِ المَدحِ مَنصِبُها إذ أكثَرُ الشِّعرِ مُلقىً مالَهُ حَسَبُ

فلم يكتف بأن يجعل صورة وحدتها كصورة للإنسان فِي اتّصال الأعضاء بعضها ببعض كما ذكر الحاتميّ وابْن رشيق من بَعْدِ زمانه هو، ولكنّهُ جعلها كصورة الإنسان ذِي الحسب لتُنَاسِبَ قَدْرَ الممدوح الَّذي صِيغَتْ لَهُ والشّاعر الَّذي قالها ولا ينبني لأقدارِ قصائده أن تنحطَّ إِلى ما كانت عليه أقْدار دهماءِ القصائد وحَشْوها أو كما قَالَ فِي لاميّته:

مَتى أَنتَ عَن ذُهلِيَّةِ الحَيِّ ذاهِلُ

وهي فِي ابن الزيّات:

أَرى الحَشوَ وَالدَّهماءَ أَضحَوا كَأَنَّهُم شُعوبٌ تَلاقَت دونَنا وَقَبائِلُ

ولو قد كانت وَحدَة القصيدة فِي الموضوع ما كَانَ يَصِحُّ أن يزعم لها أنّها حَسِيبة فِي صميم المدح مَعَ جَمعها بين الجدّ والهزل وغير ذلك من الضروب الَّتي ذكرها. إنّما وحدة القصيدة وحدة تأليف هو موسيقي السِّنِحَ، تتجاوب فيه الأصداء ويُخَلَّصُ من نَغَم إِلى نغم وتجتمع أصوات معًا وتفترِق فِي كلِّيَّة نظام إِيقاعٍ وانْسجام واحد.

يقول أبو تمّام فِي الدّالية الَّتي أولها:

أَرَأَيتَ أَيَّ سَوالِفٍ وَخُدودِ عَنَّت لَنا بَينَ اللِّوى فَزَرودِ

وقد اعتذر فيها إِلى أحمد بن أبي دؤاد وتشفع بخالد بن يزيد بن مزيد فأصلح من أمره معه:

خُذها مُثَقَّفَةَ القَوافي رَبُّها لِسَوابِغِ النَّعماءِ غَيرُ كَنودِ
حَذّاءَ تَملأُ كُلَّ أُذنٍ حِكمَةً وَبَلاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَريدِ

كَالطَّعنَــةِ الــنَّجلاءِ مِــن يَــدِ ثــائِرٍ بِأَخيــهِ أَو كَالضَّربَــةِ الأُخــدودِ
كَالــدُرِّ وَالمَرجــانِ أُلِّــفَ نَظمُــهُ بِالشَــذرِ فِي عُنُــقِ الفَتــاةِ الــرودِ
كَشَــقيقَةِ الــبُردِ المُنمــنَمِ وَشــيُهُ فِي أَرضِ مَهــرَةَ أَو بِــلادِ تَزيــدِ
يُعطـي بِهـا الـبُشرى الكَـريمُ وَيَحتَبـي بِردائِهــا فِي المَحفَــلِ المَشــهودِ
بُشرى الغَنِــيِّ أَبي البَنــاتِ تَتابَعَــت بُشَراؤُهُ بِالفــارِسِ المَولــودِ
كَرُقــى الأَســاوِدِ وَالأَراقِــمِ طالَمــا نَزَعَــت حُمــاتَ سَــخائِمٍ وَحُقــودِ

قوله «خذها مثقّفة القوافي البيت» كقوله «خُذْها ابنة الفكر المهذّب» غير أنه ههنا علّل تثقيفه لَهُ بحرصه عَلى الشكر وألّا ينسّب إِلى كُفْرِ النّعم، وهي بما تمّ لها من تثقيف وتهذيب مُفْعمَةٌ بهذا الشّكر وهذه البراءَة من أن يكون لسوابغ النّعماءِ كنودًا.

حذاء، أي محكمة سيّارة فِي الآفاق بالغة الجودة، وأصل الحذ الخفة والسّرعة ـ ومع هَذِه الخفة والسّرعة ليست هي بالفارغة. ألم يشبه هو الشّعر بمطر السّحاب حيث قَالَ:

وَلَو كـانَ يَفنى الشِعرُ أَفناهُ ما قَرَت حِياضُكَ مِنهُ فِي العُصورِ الذَواهِبِ
وَلَكِنَّـهُ صَـوبُ العُقـولِ إِذا اِنجَلَـت سَحائِبُ مِنـهُ أُعقِبَـت بِسَحائِبِ

والخفّة فِي السّحاب دليل عَلى أنّه جهام وعلى ذلك قول أبي الطّيّب:

وَمِـنَ الخَـيرِ بُـطءُ سَـيبِكَ عَنّـي أَسرَعُ السُحبِ فِي المَسيرِ الجَهامُ

ولكنّ قصيدة أبي تمّام هَذِه الحذاء ليس سحابها بجهام ولكنّه خالٌ ريّان مُفْعَمٌ يملأ كُلّ أُذنٍ حكمة وبلاغةً ثمَّ مَعَ هذين رنينُ الإنشادِ ونَشْوةُ التّرنم وحَماسَةُ الانفعال به وخُلوصُ تأثير غنائِه إِلى أعماق القلوبِ. وأبو تمّام أدق فهمًا للغناء والموسيقا وأصح تذوّقًا لهما ـ وما إِلى الموازنة حقًّا أُريد ـ من ابن الرّوميّ إذ يقول فِي وحيد:

تتغنّــى كأنّهـا لا تُغَنّـي مـن سـكونِ الأوصـالِ وهـي تُجيدِ
لا تَراهـا هنـاك تَجْحَـظُ عـينٌ لـك منهـا ولا يَـدِرُّ وريـدُ

فاحتاج إِلى تذكيرنا أنّها تجيد بعد أن زعم «كأنّها لا تُغَنى» وجعل عدم جحوظ العين وأن يدر الوريد تفسيرًا لذلك وتأكيدًا لهدو الأوصال. وكلُّ هَذَا خَبَرٌ عن منظرِ أداءِ المغنيّة

الَّتي فتنته ، وما زاد عَلى «وهي تجيد» فِي صفة غنائها وذلك غير حيّ الدّلالة عَلى جودة أداء الغناء نَفْسه وبراعته وقوة تأثيره كحيوية دلالته عَلى منظر الجارية الهادي الوديع ، وقد علم ابن الرّوميّ أن كلَّ مندفع بغناء أو إنشاد يدرُّ وريده ولعله لم يخْلُ من خَفِيٍّ إشارة إِلى قول أبي تمّام «وتُدِرُّ كلَّ وريدِ» إذ كَانَ بشعره عالمًا ، ولكنه بالغ فيما زعمه أن لا يدرَّ لها وريد ثمَّ توهم صحة مبالغته وجعل لها دليلًا أو كدليل ما قدم ذكره حيث قَالَ : «لا تراها هناك تجحظ عين» وما أقبح جحوظ العين عن الغناء . وليس نَفْيَ القُبْحِ بمثبت الحُسْن ضَرُورَةً . وأُتِيَ ابن الرّوميّ من مذهب العرب فِي نحو قولهم : «لا سقط ولا واني» « لا عاجِزٌ ولا وَكِلٌ» إذ النّفِي ههنا قائم مقام إثبات نقيضه .

حارة بنت ساعة انتقامها ، لذلك عدل عن «بأبيه» وهي أتمّ فِي الإشارة ، إِلى «بأخيه» وهي أجود فِي العبارة ، ثمَّ خاؤُها أدنى إِلى الانسجام مَعَ خاء الأُخدود .

والضّربة الأُخدود من سنخ الطّعنة النّجلاء وبعد هَذَا العُنْفِ ذي الحركة المتحدة من الثائر وطعنته أو ضربته ، عمد أبو تمّام إِلى صورة الحسناء ذات العقد . صورة وداعة لا عُنف ، من تفاصيل مختلفات مؤتلفات . العقد الَّذي يزين عُنقَ الحسناء هو نفسه مُؤلَّف من نظام وحبات مختلفات الأنواع : در ومرجان وشذر . الحيويّة والوداعة معًا مكتسبات من جمال الحسناءِ الفاتن ووداعَتِهَا .

صورة الحسناء ذات العقد قديمة فِي التّعبير عن البهجة والفتنة والرّشاقة والجمال منذ عهد تصاوير الأُمم القديمة إِلى متجرّدة النّابغة والمرار وبدوية أبي الطّيّب الَّتي :

لَهَا بَشَرُ الدُّرِّ الَّذي قُلِّدَت بِهِ وَلَمْ أَرَ بَدراً قَبلَهَا قُلِّدَ الشُّهبا

إِلى عهدنا هَذَا الحاضر الحديث .

ليس لشقيقة البرد من عنصر الحياة ما لوداعة الحسناءُ الفاتنة وما لعنف الثّائر وطعنته النّجلاءِ الهائلة . ولكنّها ذات تأليف وانسجام وحيوية جمال مستمدة من حيويّة عِتْق المهارة والصّناعة وما استكنَّ فِي ذلك من روح البيان السّاحر والتّعبير البديع والوحدة الرّائعة .

وكما العقْدُ زينة الحسناءِ ، هَذِه الشّقيقة من البُرْد المنمنم يزدَان بها السّيد الكريم ذو المهابة والوقارِ فِي المحفل المشهود .

هذه الصُّور المختلفات المؤتلفات هنَّ شيءٌ واحد وصِفةٌ لشيءٍ واحدٍ هو هَذِه الدّاليّة الَّتي أولها :

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوالِفٍ وَخُدودِ ... عَنَّت لَنا بَينَ اللِّوى فَزَرودِ

وآخرها هَذَا التّشبيهُ لها بُرقَى الأساودِ والأراقمِ الذين اشْتَفَتْ منهم وشَفَت :

كَرُقى الأَساوِدِ وَالأَراقِمِ طالَمَا ... نَزَعَت حُماتَ سَخائِمٍ وَحُقودِ

الأساوِدُ والأراقِمُ هم الوشاةُ وحُماتُهُمْ نَفَثوا من سُموم أكاذيبهم وتُهَمِهم قول أبي تمّام : «وتُدِرُّ كُلَّ وريد» صَريح الإشعار قويه بطرب الإنشاد والغناء ، ولا غَروَ وهو القائل :

ومسمعة يحار السّمع فيها ... ولم تُصْمِمْه لا يُصْمَمْ صداها

مَرَتْ أوتارها فشفت وشاقت ... ولو يستطيع حاسدها فداها

فما خِلْتُ الخدود كَسَبْن شَوقًا ... لِقَلْبي مثلما كَسَبَت يداها

ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَتْ كبدي فلم أجهل شجاها

كان أبو تمّام قد رأى كما قد سمع ، شاهِد ذلك قوله : «فما خِلْتُ الخدود كسبن شوقًا» ولكنه أراد هنا أنّ يُعَبِّر ويبين عما ورى كبده وشجاه من صنيع يدى المسمعة وأوتارها وصوت تَغَنِّيها : وهذا شأو يقصر عنه جُهد ابن الرّوميّ عَلى ما كَانَ لَهُ من بعد الغَوْص .

ثم تأمّل هَذِه الصّفات المتتابعات بعد قوله «حذاء البيت» «كالطّعنة النّجلاءِ من يد ثائر بأخيه» .

«أو كالضّربة الأُخدود» ، «كالدّر والمرجان ... إلخ» .

«كشقيقة البرد ... إلخ» .

القصيدة الحذَّاء المالئة الأسماع ، المدِرة للوريد وَحدَة واحِدة ، لا اضطّراب فيها ولا تفرّق .

الطّعنة النّجلاءُ شيء واحد ، وهي طاعنها كالشّيءِ الواحد ، وهو وأخوه القتيل الّذي

هو ثائر به كالشّيء الواحد وكأنّ مشهد القتال كَانَ واحدًا والثّائر قد أخذ بدم المثئور بـه فِي مقام واحد . لا ريب أنّ أبا تمّام قد تأثر بقول قيس ابن الخطيم أخى الأنصار :

طَعَنتُ ابنَ عَبدِ القَيسِ طَعنَةَ ثائِرٍ ... لَها نَفَذٌ لَولا الشُعاعُ أَضاءَها

مَلَكتُ بِها كَفّي فَأَنهَرتُ فَتقَها ... يَرى قائِماً مِن خَلفِها ما وَراءَها

كما أراد الإشارة الأدبيّة إليه . غير أنّ قيسًا كَانَ ثائرًا بأبيه وكان فِي ذلك تراخ من الزّمان والعمل احتاج فيه إِلى المساعدة والاستعانة كما ذكر . ونَجلاءُ حبيب ومكْرهم فملئُوا صَدْر السّيد الكريم ذي المهابةِ والوَقارِ بالسّخائِم والحُقود . السّيد هو أحْمَدُ بن أبي دؤاد .

والبُشرى هي تأثِيرُ هَذِه القصيدة الّتي هي رُقَى تَسلُّ السَّخائم وطَعْنَة تنالَ الثّأر أو ضرْبة فتك جَسِيم والّتي هي مَعَ ذلك زينةٌ وفتنة وبَهْجَة ووداعَةٌ وهَيْبَة وكرمٌ ووقار .

هِيَ بُشْرى للسيّدِ الكريم أعادَتْ إليه أَرْيَحِيّته وذَهَبت بسوداءِ الغضب أجمع .

وهي بُشْرَى للشّاعر . هو كالْغني أبي البَنَاتِ ، بناته قصائده :

مِن كُلِّ خَودٍ دَعاها البَينُ فَابتَكَرَت ... بِكراً وَلَكِن غَدا هِجرانُها نَصَفا

مع أنَّ هَذَا فِي سياق نسيب الفائية فِي صنعة حسناءِ النّسيب ، معنى القصيدة فيه ، للمتأمّل ، وَهُوَ الّذي سوّغَ لهُ أن يقول فِي آخر النّسيب عند التّخلص منه :

يُجاهِدُ الشَّوقَ طَوراً ثُمَّ يَجذِبُهُ ... جِهادُهُ لِلقَوافي في أَبي دُلَفا

مجاهد القوافِي شَوْقٌ لهن وحُبّ وغرام وكأنَّ الفارسَ المولود رَمْزٌ لهذا الفارس الشّيباني الّذي شفَع لأبي تمّام عند ابن أبي دؤاد وأعانه عَلى أن تكون داليّتُهُ هَذِه طَعْنَةً نجلاءَ وضَرْبة أُخْدُودا ، كما قد أعانَ قَيْسَ بن الخَطيم صاحِبه الّذي ذَكَر أنه «أدى نِعْمةً وأفاءَها» .

أيُّ وَحْدَة عُضْويةٍ أشدّ تماسكًا وإحكامًا من وَحْدة كلمة حبيب هَذِه المُسْتَمرة من لَدُنْ سَاعةِ صياغتها وتَثْقيفها إِلى حين إنشادها الّذي نَالَ الثّار وجاءَ بالبُشرى ورقى من حُماتِ السّخائم ، ثمّ هَذَا الخُلودُ الّذي جعَلَها شَقِيقَة وَشى مُنَمْنَم يَحْتَبِي بها السيّدُ الكريم عَلى وَجه الدّهر ولَوْحة حاليةِ حَسْناء باقِيَةِ البَهْجة عَلى مدى الأيام واللّيالي . ومنشأ الوحدة

من نَفسِ القافية وأجْزَاء العَرُوض وأنْغَامِ الإيقاع وزَخْرَفَة البديع وتجاوُب أصداءِ البيان ذي الحكمة والبلاغة والغناءِ الَّذي يدر لَهُ الوريد - كل ذلك وراءَ تصميم أشكاله اللّغويّة جَسَدٌ رُوحَانيٌّ نوراني من تَصْميم الشّعر المُوسيقي السِّنْخ والجَوْهَر - الشّعر الَّذي هو رئيس الهيئة الموسيقيّة كما قَالَ أبو نَصْرٍ فِي دفاع شيلي عن الشّعر الَّذي كتبه أو نشره سنة ١٨٢١م (توفِي شيلي سنة ١٧٩٢م عن ثلاثين عامًا) . نَجِدُ أوصافًا وتشبيهات متلاحقات شدَّما تذكرنا فِي اندفاعها وتتابُعها وفحوى معانيها بداليّة أبي تمّام هَذِه خاصّة وبأشياء أُخرى من شعره عَلَى وجه العموم . نذكر من ذلك مثلًا قوله :

Poetry is the sword of lightning , ever unsheathed , which sonsumes the scabbard hat twonld cantain it .

الشّعر سيف البارق أبدًا مسلول ويأكل الغمد الَّذي يحتويه :

Poetry thus makes immortal all that is best and most beautiful in the world ... bearing sweet news of kindred joy to those with whom their sisters abide- abide, because there is no portal of expression from the carevns of the spirit which they inhabit into the universe of things .

هكذا يخلد بالشّعر كل ما هو أحسن ما فِي الدّنيا وأجمله ... إذ إنّه يحمل بشرى أفراح تشبهه إِلى هؤلاء المقيمة معهم أخواتهم ... مقيمات معهم إذ لا يجدن فيبنَّ به مخرجا من كهوف الروح الَّتي فيها يَسْكُنَّ إِلى دنيا مجال الأشياء .

Poetry is the record of the best and the happiest moments of the happiest and best minds .

الشّعر سجل أسعد أوقات أسعد العقول وخيارها .

Poetry turns all things to loveliness.

الشّعر يحَوِّل كل الأشياء إِلى لطافة .

Its secret alchemy turns to potable gold the poisonous waters which flow from death throaugh life .

بِرٌّ كيميائه يحيل سوائل الذّعاف الَّتي تسري فِي الحياة من حوض الموت إِلى عسجد مشروب .

Poetry strengthens the faculty which is the organ of the

moral nature of man in the same manner as exercise strengthens a limb .

الشّعر يقوي الملكة الَّتي هي حاسة الطّبيعة الأخلاقيّة من الإنسان كما يقوي التّمرين عضوًا من الجسد .

Poetry is indeed some thing divine . It is at once the centre and the circumfer ence of knowledge .

«الشّعر حقًّا أمرٌ قدسي ، هو معًا مركز دائرة المعرفة ومحيطها رسالة شيلي Shelly فِي الدّفاع عن الشّعر أو كما سماها A Defence of poetry ذات نَفس وطول وإنّما هَذِه منها أمثال ونماذج . تأمّل شبه قوله : «الشّعر يقوي الحاسة الأخلاقيّة» أو كما مرّ بك من التّرجمة أو التّقريب ، أليس يشبه قول حبيب ، وهو من قصيدة ميمية فِي ابن أبي دؤاد :

وَلَـولا خِـلالٌ سَـنَّها الشِّـعرُ مـا دَرى ... بُغـاةُ النَّـدى مِـن أَيـنَ تُـؤتى المَكـارِمُ

وشِلي ممَّا يسمى الشّعر مُشَرِّعًا ، وسنّها الشّعر أي جعلها سنة وشرعًا . وهذا كقوله فِي داليّته الَّتي مدح بها خالد بن يزيد الشّيبانيّ الَّذي شفع لَهُ عند أحمد بن أبي دؤاد :

مِـن أَجـلِ ذَلِـكَ كانَـتِ العَـرَبُ الأُلى ... يَـدعونَ هَـذا سُـؤدُداً مَحـدودًا

وَتَنَـدُّ عِنـدَهُمُ العُـلى إِلّا عُـلىً ... جُعِلَـت لَهـا مُـرَرُ القَصـيدِ قُيـودًا

وقولُ شلي فِي الشّعر إنه حقًّا أمر قدسيّ Some thing divine .

مثل قول حبيب :

وَكَيـفَ وَلَم يَـزَل لِلشِّـعرِ مـاءٌ ... يَـرُفُّ عَلَيـهِ رَيحـانُ القُلـوبِ

وتشبيه حبيب لقصيدته بالطّعنة النَّجلاءِ والضّربة الاخدود قريب منه سيف البرق الَّذي عند «شلي» وحَمْلُ بُشْرَى الأفراح إِلى المقيمةِ معهم الأخَواتُ الحبائسُ فِي كهوف الروح يُشْبه :

بُشرى الغَنِيِّ أَبي البَنـاتِ تَتابَعَـت ... بُشَراؤُهُ بِالفـارِسِ المَولـودِ

وقد يكون هَذَا توارد خواطر أو وجد شيلي سبيلًا إِلى شيء تُرجِمَ باللّاتينية من شعر حبيب فأخذ » منه . وكيمياء الشّعر الَّتي تحول السّم إِلى عسجد مشروب فيها مشابه من

قول حبيب :

كَرُقى الأَساوِدِ وَالأَراقِمِ طالَما ... نَزَعَت حُماتَ سَخائِمٍ وَحُقودِ

وزعم شلي أنّ الشّعر مركز دائرة المعرفة ومحيطها ، قريب الدّلالة من قول حبيب «ولكنّه صوب العقول» ومن قوله «وتملأ كلّ أذن حكمة وبلاغة» ـ وزعمه أنّ الشّعر يحول الأشياءَ إلى لطافة وجمال ، ألا تحس مشابه لَهُ في حسناءِ حبيب وشذره ومرجانه وشقيقة برده المنمنم في أرض مهرة أو بلاد تزيد » .

غير أنّ الشّعر الّذي أطراه «شلي» بما أطراه هو شِعْر الشّعر ، ومثله الأعلى الّذي لا يبلغ مَبْلَغه جَهْد أقصى ما يبذله ذو الملكة من التّعبير كما زعم . وما كذلك صنع حبيب . الشّعر الّذي ذكره حين عمّم ما عنى به إلا الجيد ممّا يستطيعه المجيد المُفلِق : هَذَا هو صوب العقول » «هذا هو مِرَرُ القصيد الّتي تقيد العلي » ـ لا ما يهذي به المُسْتَشْعِرُون . وإلى ذلك أشار بقوله . « إذ أكثر الشّعر مُلْقًى ما لَهُ حسب» .

وقال يخاطب ابن أبي دؤاد :

فَما بالُ وَجْهِ الشِّعرِ أسود قاتِما ... وأَنْفُ العُلَى في عُطْلِهِ الشِّعرِ رَاغِم

تَدارَكْهُ إِنَّ المَكرُماتِ أَصابِعٌ ... وَإِنَّ حُلى الأَشعارِ فيها خَواتِمُ

إِذا أَنتَ لَم تَحفَظهُ لَم يَكُ بِدعَةً ... وَلا عَجَباً أَن ضَيَّعَتهُ الأَعاجِمُ

وَلَولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعرُ ما دَرى ... بُغاةُ النَّدى مِن أَينَ تُؤتى المَكارِمُ

ومتى خصّص أبو تمّام فإنما يعني شعره هو لا يخالجه في ذلك شك :

خُذها فَمازالَت عَلى إِستِقلالِها ... مَشغولَةً بِمُثَقِّفٍ وَمُقَوِّمِ

زَهراءَ أَحلى في الفُؤادِ مِنَ المُنى ... وَأَلَذَّ مِن ريقِ الأَحِبَّةِ في الفَمِ

هذا يقوله في أخريات إحدى ميمياته . عَلى استقلالها ينظر به إلى قول أهل النّسيب «أجمعت فاستقلت» إذ بعد أن أنشأها قد انفصمت عنه وبانت . ولكنّه يتعهدها بالتّثقيف وهي مشغوفة بذلك .

ويقول في آخر نونيّته الّتي مدح بها أمير المؤمنين الواثق :

جاءَتكَ مِن نَظمِ اللِّسانِ قِلادَةٌ   سِمطانِ فيها اللُؤلُؤُ المَكنونُ

قوله سمطان يشير به إلى ما نعتت به قريش قصيدتي علقمة بن عَبَدة أنّهما سمطا الدّهر:

حُذِيَت حِذاءَ الحَضرَمِيَّةِ أُرهِفَت   وَأَجادَها التَّخصيرُ وَالتَّلسينُ

ولم يخل هنا من الإشارة إلى قول أبي نوّاس « ركبنا الحضرميّ المُلَسّناه » :

إِنسِيَّةٌ وَحشِيَّةٌ كَثُرَت بِها   حَرَكاتُ أَهلِ الأَرضِ وَهيَ سَكونُ

يَنبوعُها خَضِلٌ وَحَليُ قَريضِها   حَليُ الهَدِيِّ وَنَسجُها مَوضونُ

أَمّا المَعاني فَهيَ أَبكارٌ إِذا   نُصَّت وَلَكِنَّ القَوافِيَ عونُ

أي قبل أن تنصّ هي مطروحة في الطّريق أو مستكنة في الصّدور أسرار وكلاذ ينك قاله أبو عثمان الجاحظ . حلى الهدى أي العروس .

أَمّا المَعاني فَهيَ أَبكارٌ إِذا   نُصَّت وَلَكِنَّ القَوافِيَ عونُ

أَحذاكَها صَنَعُ اللِّسانِ يَمُدُّهُ   خَفَرٌ إِذا نَضَبَ الكَلامُ مَعينُ

وَيُسيءُ بِالإِحسانِ ظَنّاً لا كَمَن   هُوَ بِابنِهِ وَبِشِعرِهِ مَفتونُ

ولأبي تمّام مذهب في الإشارات هو من صميم النّقد لما يُضَمِّنُه إياه من معنى الاستجادة والتّعجب ، كقوله :

أَيا وَيلَ الشَّجِيِّ مِنَ الخَلِيِّ   وَبالي الرَّبعِ مِن إِحدى بَلِيِّ

فإحدى بلى إشارة إلى ميمية النّابغة ـ الجيدة الّتي فيها يقول :

إِحدى بَلِيٍّ وَما هامَ الفُؤادُ بِها   إِلّا السَّفاهَ وَإِلّا ذِكرَةً حُلُما

وقوله :

فَاشمَعَلّوا يُلَجلِجونَ دَؤوبًا   مُضَغًا لِلكَلالِ فيها أَنيضُ

يشير إلى همزيّة زهير الّتي فيها يقول :

تُلَجلِجُ مُضغَةً فيها أَنيضٌ   أَصَلَّت فَهيَ تَحتَ الكَشحِ داءُ

وهي من جياده :

وهذا باب عند أبي تمّام واسع ، لو أفرد لَهُ كتاب كَانَ به حقًّا جديرًا .

وممّا يوقف عنده من معاني النّقد ، شِعْرُهُ فِي أهل الكتابة من سادات زمانه . ومقاله فِي ابن الزّيّات إذ وصف قلمه معروف من إحسانه :

لَكَ القَلَمُ الأَعلى الَّذي بِشَباتِهِ ... تُصابُ مِنَ الأَمرِ الكُلى وَالمَفاصِلُ
لُعابُ الأَفاعي القاتِلاتِ لُعابُهُ ... وَأَريُ الجَنى اِشتارَتهُ أَيدٍ عَواسِلُ
لَهُ ريقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقعَها ... بِآثارِهِ فِي الشَّرقِ وَالغَربِ وابِلُ
فَصيحٌ إِذا اِستَنطَقتَهُ وَهوَ راكِبٌ ... وَأَعجَمُ إِن خاطَبتَهُ وَهوَ راجِلُ
إِذا ما امتَطى الخَمسَ اللِّطافَ وَأُفرِغَت ... عَلَيهِ شِعابُ الفِكرِ وَهيَ حَوافِلُ
أَطاعَتهُ أَطرافُ القَنا وَتَقَوَّضَت ... لِنَجواهُ تَقويضَ الخِيامِ الجَحافِلُ
إِذا اِستَغزَرَ الذِّهنَ الذَّكِيَّ وَأَقبَلَت ... أَعاليهِ فِي القِرطاسِ وَهيَ أَسافِلُ
وَقَد رَفَدَتهُ الخِنصَرانِ وَشَدَّدَت ... ثَلاثَ نَواحيهِ الثَّلاثُ الأَنامِلُ
رَأَيتَ جَليلاً شَأنُهُ وَهوَ مُرهَفٌ ... ضَنىً وَسَميناً خَطبُهُ وَهوَ ناحِلُ

حظ ابن الزّيّات من جميع هَذَا أنّ لَهُ القلم الأعلى ، ثمَّ سائر الوصف حظٌّ للقلم وحده أولا ثمّ لذهن ذكيّ يَرْفُده ويُعْمِله ويَسْتَجِيبُه ، وقد يكون هَذَا القلم الموصوف إن عوّلنا عَلى ظاهر الوصف أيَّ قلم ، عَلى ما فيه من روح المثالية ، وكذلك الذّهن ذو الشّعاب الحوافل أي الممتلئة بالمعاني كما يكون الضّرع حافلًا باللّبن . وما أجدر أن يكون القلم الموصوف والذّهن الموصوف كلاهما قلم أبي تمّام وذهنه ـ من أدل شيء ، عَلى ذلك هَذَا الذّهن الحافل المنصرف إِلى التّأليف والتّثقيف ـ «الفكر المهذب فِي الدّجى» الَّذي يمده «جَفْر إذا نضب الكلام معين» الَّذي تنصب منه فِي شباة القلم «الطّعنة النّجلاء» ومن مُرْهَفِه الضَّربة الأُخدود .

ثم سُمٌّ كسم الأفاعي وتُصَاغُ منه بناتُ الفكر .

نَزَعَت حُماتَ سَخائِمٍ وَحُقودِ ... كَرُقى الأَساوِدِ وَالأَراقِمِ طالَما

وكما لعابه كسم الأفاعي ، هو أيضًا :

أَلَذُّ مِن ريقِ الأَحِبَّةِ فِي الفَمِ

ما أشبه ما صنع حبيب مَعَ ابن الزّيّات ههنا بما صنع أبو الطّيّب مَعَ بدر بن عمار والأسد من بعد . كاد أبو الطّيّب يهمل بدر بن عمار كل الإهمال وعوَّل عَلى نعت الأسد وكأنّما توهمه رمزًا لنفسه أو مثالا ، ألم يلتمس الخلف من أُسْدِ الفراديس ؟ وكاد أبو تمّام ينصرف كل الانصراف فِي نعته عن بلاغة ابن الزّيّات إِلى مدح القلم ووَصْفِه والفكر الَّذي يستمد منه وقد جعله أشبه بفكر نفسه أكثر من فكر ابن الزّيّات ، فقد كَانَ هَذَا أميل إِلى أن يكونَ صَاحبِ ديباجه سهلة منه صاحِبَ عَوصْ .

لم يكن ابن الزّيّات ـ عَلى الأرجح ـ إِلى حبيب بحبيب ، وله فيه أبيات تنم عن ذلك وكأنّما نظر فيها إِلى مصرعه أوردها التّبريزيّ فِي معرض شرحه للاميته «متى أنت عن ذهلية الحي» الَّتي منها هَذِه الأبيات :

أبـا جعفـرٍ إن كُنْـتُ أَصْبَحْتُ شَـاعِرًا ... أُسَــاهِل فِي بَيْعِــي لَــهُ مــن أُبايعُــه

فَقَـد كُنْـتَ قَـبْلِي شَـاعِرًا تـاجرًا بِـهِ ... تُسَـاهِلُ مــن عَـادَتْ عَلَيْهَـا مَنَافِعـه

فصِرْتَ وَزِيــراً والــوَزارة مَكْــرَعٌ ... يَغَـصُّ بــهِ بَعْــدَ اللَّــذَاذةِ كارِعُــه

وكَـم مِـن وَزِيـرٍ قَـد رَأَيْنـا مُسَـلَّطًا ... فَعَـادَتْ وَقَـدْ سُـدَّتِ عَلَيْـهِ مَطَالِعُـه

وللهِ قَــوْسٌ لا تَطِـيشُ سِــهَامها ... وللهِ سَــيْفٌ لَـيْس تَنْبُــو مقَاطِعُــه

وازن بين هَذَا من قوله وبين قوله فِي آل وهب :

كُــلُّ شِــعبٍ كُنـتُم بِــهِ آلَ وَهــبِ ... فَهــوَ شِــعبي وَشِــعبُ كُــلِّ أَديــبِ

كُــلَّ يَــومٍ تُزَخرِفــونَ فِنــائي ... بِحِبــاءٍ فَــردٍ وَبِــرٍّ غَريــبِ

إِنَّ قَلبــي لَكُــم لَكالكَبِــدِ الحَــر ... رى وَقَلبــي لِغَــيرِكُم كَــالقُلوبِ

وقال فِي الحسن بن وهب وكان لَهُ محبًّا يذكر بيانه وبلاغته :

ثَبــتُ البَيــانِ إِذا تَلَعْــثَم قائِــلٌ ... أَضــحى شِــكالاً لِلِّســانِ المُطلَــقِ

لَم يَتَّبِــع شَــنِعَ اللُّغــاتِ وَلا مَشــى ... رَســفَ المُقَيَّــدِ فِي حُــدودِ المَنطِــقِ

فِي هَــذِهِ خِبــثُ الكَــلامِ وَهَــذِهِ ... كَالســورِ مَضروبــاً لَــهُ وَالخَنــدَقِ

يَجنــي جَنــاةَ النَّحــلِ مِــن أَعــلى الرُّبــا ... زَهَــراً وَيَشرَعُ فِي الغَــديرِ المُتــأَقِ

أُنُـفُ البَلاغَـةِ لا كَمَـن هُـوَ حـائِرٌ مُتَلَـدِّدٌ فِي المَرتَـعِ المُتَعَـرَّقِ
عَـيرٌ تَفَـرَّقُ إن حَـداها غَـيرُهُ وَمَتـى يَسُـقها وادِعـاً تَستَوسِـقِ
تَنشَـقُّ فِي ظُلَـمِ المَعـاني إن دَجَـت مِنـهُ تَباشـيرُ الكَـلامِ المُشرِقِ

الأُسلوب الموصوف فِي هَذِه الأبيات ليس بالعام لو تأملته الَّذي يصدق مثله عَلى كل بليغ . ليس كأسلوب أبي تمّام ولا مذهبُ صاحبه كمذهبه . كانت فِي أبي تمّام حلسة إذا تكلم ، والحسن بن وهب ثبت البيان لا يتلعثم . كَانَ أبو تمّام ممّا يعجبه الغريب واتهمه خصومه باستعمال شنع اللّغات ، وبتعمق المعاني ، وكان يعلم من نفسه ذلك ولوثوقه بمقدرته فيه يعده من الحسنات ويفخر فيقول :

يُـذَلِّلُها بِـذِكرِكَ قَـرنُ فِكـرٍ إذا حَرَنَـتْ فَتَسـلَسُ فِي القِيـادِ

ولم يكن لصحّة ذوقه ودقّة نقدّه يجهل الجيد الَّذي عَلى غير طريقته ومذهبه ، وقد نبّه عَلى هَذَا المرزوقيّ فِي مقدمة شرحه للحماسة . وحتى الآمدي لم يضن بشيءٍ من قبيله حين قدّم لموازنته بذكره علم أبي تمّام ومعرفته بالشّعر . ثُم الحسن بن وهب يجني من زهر ويشرع فِي غدير ملآن . وهو غزير المدد مشرق العبارة . لقد حرص أبو تمّام عَلى أن يصيب صفة بلاغة الحسن وجودة ذوقه وبيانه . والحسن ممن وصفه الجاحظ برقة الشّعر وعذوبته ومعرفة الجيد منه فِي معرض حديثه عن حِذق الكُتّاب وبصرهم بالشّر بالنّسبة إِلى اللّغويين والأخباريّين .

وتأمّل بَعْدُ هَذِهِ الأبياتَ وتَفصيل قضايا النّقد ، حاق النّقد ، الَّذي فيها : أنَّ الشّنعَ من اللُّغَات يخبث به أُسلُوب الكلام .

إنَّ استعمالَ المَنْطق يقيّد صاحِبهُ ويُوقِعُه فِي التّكلُّفِ ويُضِيّق عليه مجالَ التّعبير كأن سُورًا مَضْرُوبًا عليه وخندقًا .

وقوله «أنفُ البلاغة» أفادَ به الدّلالة عَلى رَوْنَقِ دِيبَاجَتِه وبَهْجَتها كما أفاد به معنى قُوَّة الملكةِ وغزارةِ المادة .

لا رَيْبَ أنَّ أبا عُبادَة نظر إِلى هَذِه الأبيات القافية فِي أبياته الَّتي مَدَح بها ابْن الزّيّات

فقال :

لَتَفَنَّنْتَ فِي الكِتابَةِ حَتّى ... عَطَّلَ النّاسُ فَنَّ عَبدِ الحَميدِ
فِي نِظامٍ مِنَ البَلاغَةِ ما ... شَكَّ إمرُؤٌ أَنَّهُ نِظامُ فَريدِ
وَبَديعٍ كَأَنَّهُ الزَّهرُ الضّا ... حِكُ فِي رَونَقِ الرَّبيعِ الجَديدِ
وَمَعانٍ لَو ضَمَّنَتها القَوافِي ... هَجَّنَت شِعرَ جَروَلٍ وَلَبيدِ
حُزنَ مُستَعمَلَ الكَلامِ اختِياراً ... وَتَجَنَّبنَ ظُلمَةَ التَّعقيدِ
وَرَكِبنَ اللَّفظَ القَريبَ فَأَدرَك ... نَ بِهِ غايَةَ المُرادِ البَعيدِ
مُشْرِقٌ فِي جَوانِبِ السَّمعِ ما يُخْـ ... ـلِقُهُ عَودُهُ عَلى المُستَعيدِ

وقد استعار أبو عبادة بَعض ألفاظ حبيب كما قد أخذ أخذًا من معانيه ، ههنا ظُلم المعاني صارت : ظلمة التّعقيد «وزَهَر الرُّبا صار الزَّهر الضّاحك» و«أنف البلاغة» صارت نظامًا من البلاغة كأنّه نظامُ فريد ، والفريد هنا تدل عَلى العقد كما تدر عَلى التّفرُّد والأنفُ متفرد والرّوضة الأُنف الّتي لم ترع .

وقد أخذ أبو عبادة من حبيب حدود المنطق » فبنى عليها قوله الشّهير :

كَلَّفتُمونا حُدودَ مَنطِقِكُم ... فِي الشِّعرِ يُلغى عَن صِدقِهِ كَذِبُه

ولم يكن ذو القروح يحفل بالمَنطقِ ما نَوْعُه وما سَببُه :

وَالشِّعرُ لَمحٌ تَكفِي إشارَتُهُ ... وَلَيسَ بِالهَذرِ طُوِّلَت خُطَبُه

ونظر إلى هَذَا ابن المعتز فقال :

إنّ ذا الشِّعْرَ فِيه ضِيقُ مَجالٍ ... لَيْسَ كُلّ الكَلام مَا شَاءَ قَالا
يُكْتَفَى فِيهِ بالإشَارة واللمْـ ... ـحِ ويَحتالُ قَائِلُوهُ احْتِيالا

فقصّر عن مدى حبيب وأبي عُبَادة معًا ، إذ جعل إشارة الشّعر ولمحة سَبَبُهَا ضِيقُ مَجالِه واحْتياله . أين هَذَا من قول أبي عبادة «تكفِي إشارته» . قول ابن المعتز : «يُكْتَفى فيه بالإشارة» لا يفيد معنى الكفاية الّذي جاء به البحتريّ ولكن يفيد أن الشّاعر ـ وينبغي أن يكون من ضعاف الشّعراء ومتوسطيهم فِي هَذِه الحال ـ لا يستطيع أن يبلغ غاية مقاصده

فيكتفى بالإشارة واللّمح ويحتال احتيالًا .

أمَّا حبيب فقد أنصف نفسه وأنصف الشّعر إذ قَالَ :

أَحـــذاكَها صَـــنَعُ الضّـــمير يَمُـــدُّهُ جَعفـــرٌ إذا نَضَـــبَ الكَـــلامُ مَعـــينُ

وبعد فحسبنا هَذَا القدر مما يجده القارئ المتعجّل من معاني النّقد وألفاظه وعباراته فِي شعر حبيب ، وقلَّت قصيدة لَهُ مطوّلة لا يتحدّث فيها عن شعره خاصّة ويتغنّى بها يحاول من وجوه الإبداع والجودة فيه ، وقلّ من هَذَا الحذي يخص به شعره ما لا يتناول قضايا عامة من قضايا البلاغة والبيان . ولا عجب فقد كَانَ الشّعراء منذ زمان الجاهليّة هم حكمة الشّعر ورواته ونقاده ومؤرخوه . هل زاد محمّد بن سلام شيئًا حقَّ كثير عَلى ما أورده الفرزدق فِي لاميّته إذ قَالَ :

وَهَــبَ القَصــائِدَ لي النَّوابِــغَ إِذ مَضَــوا وَأَبــو يَزيــدَ وَذو القُــروحِ وَجَــروَلُ

الأبيات . ألم يُخبِّرنا فِيها بأوَّليَّة مُهَلهل ومَقْتَل طَرَفة وفحولة عَلْقَمة . أَمْ لم يَذْكر فيها الانْتحال فيها ذَكَر من قضايا الشِّعْر . وهذا بَعْدُ بَابٌ واسعٌ والحمد لله فِي الختام كما فِي البدايةِ ، وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدنا محمّد وَعَلَى آلِه وَصَحْبِهِ وَسلّم تَسْلِيمًا .

ب ـــ نقد الشّعر عند صاحب المثل السّائر [١]

سأحاول فِي هَذِه الكلمة القصيرة أن أعرض أهمّ ما تناوله صاحب المثل السّائر من القضايا المتعلّقة بنقد الشّعر :

أوّل هَذِه القضايا ، ضرورة معرفة النّحو والصّرف واللّغة . وهذه القضيّة جليّة لا تحتاج إِلى كبير تفصيل .

ثانيًا : مسألة العمق الشّعري الَّذي لا يتوصل إليه بشرح المعاني ومعرفة وجوه الإعراب ، ولكن لابدّ مَعَ ذلك من التّغلغل إِلى ما اشتمل عليه الشّعر من أسرار الفصاحة والبلاغة . قَالَ فِي أوائل مقدّمته : ومن ها هنا غلط مفسرو الأشعار فِي اقتصارهم عَلى شرح المعاني وما فيها من الكلمات اللغوية وتبين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة ا.هـ . ص٤ من المثل السّائر ، طبع بولاق سنة ١٢٨٣هـ .

أحسب أنّ ابن الأثير أراد بقوله : « غلط مفسّرو الأشعار » أنّ هَذَا هو الغالب عَلى أساليبهم ، ولا يخفى أنّ مفسّري الأشعار قد كَانَ مما يهمهم أمر الفصاحة والبلاغة كما كَانَ يهمهم أمر النّحو واللّغة . وقد كَانَ اختلافهم فِي تفسير الألفاظ وظواهر المعاني فِي كثير من الأحوال فرعًا من تناولهم لجوانب الفصاحة والبلاغة ، من ذلك مثلًا ما أخذوه عَلى امرئ القيس حيث قَالَ :

إذا ما الثُرَيّا فِي السَّماءِ تَعَرَّضَت ... تَعَرُّضَ أَثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ

فقالوا : إنّ الثّريّا لا تتعرض . وأورد أبو العبّاس المبرّد هَذَا البيت فِي باب التّشبيه يستشهد به عَلى حسنه .

---

(١) ألقي البحث في الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر الدّورة الثّامنة والأربعين ، في ١٠ من جمادى الأولى ١٤٠٢هـ الموافق ٦ من مارس ١٩٨٢م .
وانظر ؛ مجلّة مجمع اللّغة العربيّة ، جـ ٤٩ ، ص ١٥٦ . (حسن) .

والَّذي يوقف عنده من كلام ابن الأثير فطنته إِلى أنّ ظاهر المعنى واللّفظ فِي الأشعار إنّما يمثل جانبا من كلمها ودلالتها . وأسرار الفصاحة والبلاغة هي الَّتي يكمن فيها جوهر الدّلالة الشّعرية . عَلى أنّ ابن الأثير قد نبّه فِي أوّل شروعه فِي المقدّمة أنّ أسرار الفصاحة والبلاغة نفسها مدارها عَلى الذّوق السّليم . وأنّ بيان مواضع الفصاحة والبلاغة مما يستعين به الذّوق السّليم ويعين عَلى تنميته . قَالَ : «واعلم أيّها النّاظر فِي كتابي أنّ مدار علم البيان عَلى حاكم الذّوق السّليم الَّذي هو أنفع من ذوق التّعليم ، وهذا الكتاب ـ وإن كَانَ فيما يلقيه إليك أستاذًا وإذا سألت عمّا ينتفع به فِي فنه قيل لك هَذَا ـ فإنّ الدّربة والإدمان أجدى عليك نفعًا ، وأهدى بصرًا وسمعًا ، وهما يريانك الخبر عيانًا ، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا ، وكل جارحة منك قَلْبًا ولسانًا ، فخذ من هَذَا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلي فيما مهدته لك من هَذِه الطّريق إلا كمن طبع سيفًا ووضعه فِي يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبًا ، فإنّ حمل النّصال ، غير مباشرة القتال .

وإنّما يبلغ الإنسان غايته ... ما كل ماشية بالرحل شملال

(ص٣ من المثل السّائر) .

ثالثًا : مسألة الابتداع والسّرقة والأخذ فِي الشّعر . ومع أنّ النّقاد الأوّلين قد فصلوا فِي هَذَا الباب كلّ التّفصيل ، يوشك ابن الأثير أن يكون قد انفرد من بينهم بالفطنة إِلى فرق ما يكون ابتداعًا حقًّا وما يكون سرقة وما يكون من باب توارد الخواطر أو الأخذ المألوف.

وقد تعرّض ابن الأثير فِي أول كتابه لضرورة معرفة كلام العرب القدماء والاطلاع عَلى أخبار أيامهم ووقائعهم ونبه عَلى أهمية الاطلاع عَلى الأشعار لأنّ ذلك يعين عَلى الابتكار . قَالَ : (ص١٨) وأمّا النّوع الرّابع وهو الاطلاع عَلى كلام المتقدّمين من المنظوم والمنثور فإنّ فِي ذلك فوائد جمّة لأنّه يعلم منه أغراض النّاس ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فِي ذلك ، فإنّ هَذِه الأشياء مما تشحذ

القريحة ، وتذكى الفطنة ، وإذا كَانَ صاحب هَذِهِ الصّناعة عارفًا بها تصير المعاني الَّتي ذكرت وتعب فِي استخراجها كالشّيء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضًا فإنّه إذا كَانَ مطلعًا عَلى المعاني المسبوق إليها قد ينقدح لَهُ من بينها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن المعلوم أنّ خواطر النّاس وإن كانت متفاوتة فِي الجودة والرّداءة فإنّ بعضها لا يكون عاليًا عَلى بعض أو منحطًّا عنه إلا بشيء يسير ، وكثيرًا ما تتساوى القرائح والأفكار فِي الإتيان بالمعاني ، حتى إن بعض النّاس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ ثمَّ يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللّفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول وهذا الَّذي يسميه أرباب هَذِهِ الصّناعة وقوع الحافر عَلى الحافر . ا.هـ .

هنا يكاد ابن الأثير يلتقى مَعَ بعض مدارسنا المعاصرة فِي أنّ اتساع الثّقافة وبروز ذلك فِي صناعة الشّعر مما يعين عَلى جعل المعاني أعمق ، بالَّذي نضيفه إليها من عنصر الرّمز المأخوذ من ضروب الإشارة ، والاقتباس . وتأمل قول ابن الأثير «فإنّ فِي ذلك فوائد جمّة» ثمَّ عدد من هَذِهِ الفوائد فقال : «لأنّه يعلم أغراض النّاس ونتائج أفكارهم ومقاصد كلّ فريق منهم وإلى أين ترامت صنعته من ذلك فإنّ هَذِهِ الأشياء مما تشحذ القريحة ... إِلى آخر ما قاله » ، فمعرفة المقاصد الَّتي يشحذ بها الذّهن داخلة فِي صميم الرّمز . وقد تعلم خبر المعرّيّ إذ ذكروا أنّه دافع فِي مجلس الشّريف ـ وكان هَذَا قد طعن فِي المتنبّي ـ عن المتنبّي باستحسّان لاميته : «لك يا منازل فِي القلوب منازل» ففطن الشّريف إِلى أنّه عنى قوله :

وَإِذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِن ناقِصٍ فَهِيَ الشَّهادَةُ لي بِأَنِّيَ كامِلُ

فأمر بسحبه وإخراجه من مجلسه فيما زعموا فانظر كيف صارت كلمات الغزل :

لَكِ يا مَنازِلُ فِي القُلوبِ مَنازِلُ أَقفَرتِ أَنتِ وَهُنَّ مِنكِ أَواهِلُ

فمع الفطنة والتّأمل رمزًا للطّعن والتّجريح والنّقص والكمال .

وكأن هَذَا الجانب من بروز سعة الاطلاع والنّظر فِي كلام الأوّلين والرّمز به هو الَّذي جعل ابن الأثير يقدم أبا تمام . عَلى أن ابن الأثير رحمه الله كَانَ ذا لباقة وحسن تأتّ فِي طريقة عرض ما يعرضه عَلى قارئيه ، فقد استهل مقدمة كلامه بمدح الآمديّ مدحًا يظنّ به أنّه سيتبع

مذهبه اتباعًا . وتقديمه أبا تمّام خلاف صريح كما ترى . ثمَّ مَعَ تقديمه أبا تمّام تنضح أسطاره بتفصيل أبي الطّيّب والميل ميلًا شديدًا إليه ، وربّما صرّح بذلك تصريحًا فِي أكثر من موضع .

على أنّ ظاهر كلام ابن الأثير هَذَا ، وهو فِي مقدمته الَّتي بين فيها أصول مذهبه ، ربّما استنتجنا منه أنّه ينكر السّرقة وهي مما ألح عليه نقاد العرب إلحاحًا ، وعن قدمائهم أخذوه، وقد فطن ابن الأثير إِلى هَذَا الجانب ، ففصل الحديث وأتقنه فِي الباب الَّذي جعله للسّرقات وقد وعد فِي مقدّمته به حيث قَالَ : «وسيأتي لذلك باب مفرد فِي آخر كتابنا هَذَا إن شاء الله تعالى» . ا. هـ . ص ١٨ .

قال : (ص ٤٦٦-٤٦٨) «واعلم أنّ الفائدة من هَذَا النّوع (يعني السّرقات الشّعرية ومعرفتها) أنّك تعلم أين تضع يدك فِي أخذ المعاني إذ لا يستغنى الآخر عن الاستعارة من الأوّل . لكن لا ينبغي لك أن تعجل فِي سبك اللّفظ عَلى المعنى المسروق فتنادي عَلى نفسك بالسّرقة ، فكثيرًا ما رأينا من عجل فِي ذلك فعثر ، وتعالى فيه البديهة فعقر ، والأصل المعتمد عليه فِي هَذَا الباب التّورية والاختفاء ، بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب وأظرف من عنقاء مغرب فِي الإغراب . وقد ذهب طائفة من العلماء إِلى أنّه ليس لقائل أن يقول : إنّ لأحد من المتأخّرين معنى مبتدعًا ، فإنّ أوّل الشّعر القديم منذ نطق باللّغة العربيّة ، وإنّه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طرق مرارًا ، وهذا القول وإن دخل فِي حيز الإمكان إلا أنّه لا يلتفت إليه لأنّ الشّعر من الأمور المتناقلة ، والَّذي نقلته الأخبار وتواردت عليه أنّ العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعنّ لها من الحاجات ، ولم يزل الحال عَلى هَذِه الصّورة إِلى عهد امرئ القيس وهو قبل الإسلام بمئة سنة زائدًا فناقصًا ، فقصَّد القصائد ، وهو أوّل من قصد ، ولو لم يكن لَهُ معنى اختص به سوى أنّه أوّل من قصد القصائد لكان فِي ذلك كفاية وأي فضيلة أكبر من هَذِه الفضيلة . ثمَّ تتابع المقصدون واختير من القصائد تلك السّبع الَّتي علقت عَلى البيت[1] ، وانفتح للشّعراء هَذَا الباب فِي التّقصيد وكثرت المعاني المقولة بسببه ، ولم يزل

---

(١) التّحقيق أنّها لَمْ تعلّق على البيت ، وإلّا كانتْ قد وُجدت به يوم فتح مكة . وأصل التّعليق من ابن عبد ربّه الأندلسي ، ولو كان التعليق حاصلًا لذكره المشارقة ، من أمثال المبرّد والجاحظ . (حسن) .

الأمر ينمي ويزيد ويؤتي بالمعاني الغريبة واستمرّ ذلك إِلى عهد الدّولة العباسيّة وما بعدها إِلى الدّولة الحمدانيّة ، فعظم الشّعر وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه وكان ختامه عَلى الثّلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمّام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحتريّ وأبو الطّيّب المتنبي ، فإِذا قيل : إن المعاني المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته ، والصّحيح أنّ باب الابتداع للمعاني مفتوح إِلى يوم القيامة ، ومن الَّذي يحجر عَلى الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية لَهُ ، إلا أنّ من المعاني ما يتساوى الشّعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأوّل قبل آخر ، لأنّ الخواطر تأتي به من غير حاجة إِلى اتباع الآخر الأوّل كقولهم فِي الغزل :

عفت الدّيار وما عفت آثارهن من القلوب

وكقولهم : «إنّ الطّيف يجود بما يبخل به صاحبه ، وإنّ الواشي لو علم بمزار الطّيف لساءه» وكقولهم فِي المديح : إنّ عطاءه كالبحر وكالسّحاب وإنّه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ، وأنّه يجود ابتداء من غير مسألة وأشباه ذلك ، وكقولهم فِي المراثي : إن هَذَا الرزء أوسل حادث ، وإنّه استوى فيه الأباعد والأقارب ، وإنّ الذّاهب لم يكن واحدًا وإنّما كَانَ قبيلة ، وإنّ بعد هَذَا الذّاهب لا يعد للمنية ذنب . وأشباه ذلك ، وكذلك يجري الأمر فِي غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوي فِي إيرادها ، ومثل ذلك لا يطلق عَلى الآخر فيه اسم السّرقة من الأوّل ، وإنما يطلق اسم السّرقة فِي معنى مخصوص كقول أبي تمّام :

لا تُنكِروا ضَربي لَهُ مِن دونِهِ مَثَلاً شَرودًا فِي النَّدى وَالباسِ
فَاللهُ قَد ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنورِهِ مَثَلاً مِنَ المِشكاةِ وَالنِّبراسِ

فإن هنا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمّام ، وكان لابتداعه سبب ، والحكاية فيه مشهورة، وهي أنّه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السّينية الَّتي مطلعها «ما فِي وقوفك ساعة من باس» انتهى إِلى قوله :

إِقدامَ عَمرٍو فِي سَماحَةِ حاتِمٍ فِي حِلمِ أَحنَفَ فِي ذَكاءِ إِياسِ

فقال الحكيم الكنديّ : أي فخر فِي تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطرق

أبو تمّام ثمَّ أنشد هذين البيتين معتذرًا عن تشبيه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنّه ابتدعه ، فمن أتى من بعد بهذا المعنى أو بجزء منه فإنّه يكون سارقًا لَهُ ، وكذلك ورد قول أبي الطّيّب المتنبّي فِي عضد الدّولة وولديه :

وأنت الشّمس تَبْهَر كلّ عين	فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يُحْيَا	بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الأعادي	ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه	لَهُ ياءَيْ حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبي الطّيّب . وهو الَّذي ابتدعه ، أي أنّ زيادة أولاد عدوّك كزيادة التّصغير فإنّها زيادة نقص ، وما ينبغي أن يقال : إن ابن الرّوميّ ابتدع هَذَا المعنى الَّذي هو :

يشكي المحبّ وتلفى الدّهر شاكية	كالقوس تصمي الرّمايا وهي مرنان

فإنّ علماء البيان يزعمون أنّ هَذَا المعنى مبتدع لابن الرّوميّ، وليس كذلك، ولكنه مأخوذ من المثل المضروب، وهو قولهم: يلدغ ويسي، ويضرب ذلك لمن يبتدئ بالأذى ثمَّ يشكو، وإنما مثل ابن الرّوميّ قد ابتدع معاني آخر غير ما ذكرته، وليس الغرض أن يؤتى عَلى جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعاني المبتدعة، بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره.

والَّذي عندي فِي السّرقات أنّه متى أورد الآخر شيئا من ألفاظ الأوّل فِي معنى من المعاني ، ولو لفظة واحدة فإنّ ذلك من أدل الدّليل عَلى سرقته. ا.هـ .

أكثر الأمثلة الَّتي ضربها ابن الأثير لما يتساوى فيه الشّعراء من المعاني غير جيدة ، إذ هي مأخوذة من أشعار وأقاويل مأثورة بأعيانها كقول النّابغة :

فما الفُراتُ إِذا جاشَتْ غَوارِبُهُ	تَرْمِي أَواذِيُّهُ العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ
يَوْمًا بأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نافِلَةٍ	ولا يَحُولُ عَطاءُ اليومِ دُونَ غَدِ

وكقول الآخر يرثي قيس بن عاصم المنقري :

عليك سلام الله قيس بن عاصمٍ	ورحمته ما شاء أن يترحما

وما كَانَ قيسٌ هلكه هلك واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تهدما

غير أنّ الغرض الّذي رمى إليه واضح ، وهو أن من المعاني ما يكثر دورانه فلا يصير به سابق أحق من لاحق ، وتمثيله بقولهم فِي المديح «إنّ عطاءه كالبحر وكالسّحاب» أدخل فِي باب المتبذل والمنقول منه فِي هَذَا الباب . والبيت الّذي يمثل به أوّل الأمر :

عفت الدّيار وما عفت آثارهن من القلوب

أدلّ عَلَى مراده ، وكان أجدر به لو تحرّى لَهُ نظائر ، وجل من لا يزل . هَذَا وقد نبّه عَلَى أمور من الأهمية بمكان كبير ، منها : أنّ الشّكل موضع يقع فيه الابتداع ، وقد زعم أن امرأ القيس لو لم يكن لَهُ إلّا أنّه قصَّد القصيد ففتح بذلك لمن بعده بابا لكان ذلك لَهُ كافيًا فِي فضيلة السّبق . وقد يؤخذ عَلَى ابن الأثير نسبة اختراع شكل القصيدة إِلى امرئ القيس والمشهور أنّ السّابق فِي هَذَا المضمار هو المهلهل ، وامرؤ القيس جوّد هلهلةَ خاله وأحكمها. ولعلّ ابن الأثير عنى هَذَا . وليس بخارج مما قدمناه من أنّه إحسّان وإبداع فِي باب الشّكل .

ومنها الظّرافة البلاغيّة كتعليل أبي تمّام الّذي ساقه مثلًا ، وكتشبيه أبي الطّيّب للزّيادة النّاقصة بياءي «أنيسيان» فِي التّصغير ، وليس قول ابن الرّوميّ :

يشكي المحبّ ويلقى الدّهر شاكيه كالقوس تصمى الرّمايا وهي مرنان

ببعيد من مداهما فِي باب الظّرافة البلاغية والّذي أنكره عليه ابن الأثير مردود لأنّ المعنى الّذي قصد إليه ابن الرّوميّ هو الّذي فِي عجز بيته لا فِي صدره ، ومحل البراعة والظّرافة البلاغية فيه أنّ العيون ، وهي الّتي تقتل بالعشق ، يشبهها الشّعراء بالسّهام ، وقديمًا وصف الشّعراء القوس بأنّها إذا رمى بها الرّامي أرنت كأنّها ثكلى ، قَالَ الشماخ :

إذا أنبَضَ الرّامونَ عَنها تَرَنَّمَت تَرَنُّمَ ثَكلى أَوجَعَتها الجَنائِزُ

فأقل ما ينعت به ابن الرّوميّ أنّه كشف هَذَا المعنى ، وذلك لَهُ فِي باب البيان فضل بلا ريب . والخلاصة من كلام ابن الأثير ، وهي الّتي عليها المعوّل أنّه بعد أن جعل الشّكل مما يتناوله الاختراع ، جعل الصّياغة ـ إذ الظّرافة البلاغيّة إنّما هي داخلة فِي حيّز تفاصيل

الصّياغة ـ مما يتناوله الاختراع ثمَّ نبه عَلى أن السّرقة إنّما تقع فِي الصّياغات وبهذا يكون وفّى الجواب عن مسألة إنكار السّرقة الَّتي عسى أن تستنتج من أوائل كلامه .

وقد فصل الحديث فِي السّرقة وبوبه . وقد ضمن أوّل بحثه فِي موضوع الابتداع وصفًا عامًا للسّرقة أنها مواراة خفية ، أخفى من سفاد الغراب كما زعم ، ولعل هَذَا التّشبيه أن يقع من أذواقنا موقعًا نابيًا الآن ، ولا يخفى أنّه أخذ نعت السّرقة بالتّورية من أبيات أبي تمّام فِي داليّته الوافريّة يمدح أحمد بن أبي دؤاد ، وهي مما يدخل فِي صميم النّقد :

إِلَيكَ بَعَثتُ أَبكارَ المَعاني ... يَليها سائِقٌ عَجِلٌ وَحادي

جَوائِرَ عَن ذُنابى القَومِ حَيرى ... هَوادِيَ لِلجَماجِمِ وَالهَوادي

شِدادَ الأَسرِ سالِمَةَ النَّواحي ... مِنَ الإِقواءِ فيها وَالسِّنادِ

مُنَزَّهَةٌ عَنِ السَّرَقِ المُوَرّى ... مُكَرَّمَةٌ عَنِ المَعنى المُعادِ

لَها فِي الهاجِسِ القَدحُ المُعَلّى ... وَفِي نَظمِ القَوافِي وَالعِمادِ

والعماد ، أي عماد الشّعر ، إن جعلته مفردًا وإن جعلته جمعًا فهو جمع لعمود الشّعر فمن أبي تمّام أخذ الآمدي هَذِه العبارة المنسوبة إليه وهي أقدم منه ومن أبي تمّام عَلى الأرجح فِي ما حكى الجاحظ عن خالد بن صفوان أنه قَالَ : «عمود الجمال» يعني الصّفات الَّتي بها يتم الجمال ويكمل . والله تعالى أعلم .

وقد ترى أنه ختم كلمته عن الاختراع برأيه أن السّرقات إنّما تقع فِي مجاله وهو مجال الصّياغات ، ثمَّ أخذ فِي تبيّن السّرقات فجعلها خمسة أقسام ؛ النّسخ ، والسّلخ ، والمسخ ، وأخذ المعنى مَعَ الزيادة عليه ، وعكس المعنى إِلى ضدّه . وقد جاء ابن الأثير فِي هَذَا الباب الأخير الَّذي عقده للسّرقات بأشياء تعد من روائعه حقًا ، مثل حديثه عن الشّعراء الثلاثة: أبي تمّام والبحتريّ وأبي الطّيّب ، فقال عن أبي تمّام : «أمّا أبو تمّام فإنّه ربّ معان وصيقل ألباب وأذهان ، فمن حفظ شعر الرّجل وكشف عن غامضه وراض فكره براشضه أطاعته أعنّة الكلام وكان قوله فِي البلاغة ما قالت حذام» (ص ٤٧٠) ، وقال عن أبي الطّيّب : « أراد أن يسلك مسلك أبي تمّام، فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشّعر من

قياده ما أعطاه ، لكنّه حظي فِي شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع فِي وصف مواقف القتال ؛ وعلى الحقيقة فإنّه خاتم الشّعراء، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء » وآخر كلامه هنا ينقض أوّله ، وكأنّه كَانَ أميل إِلى تقديم أبي الطّيّب عَلى أبي تمّام ثمَّ مَعَ ذلك مضطّربًا فيه مترددًا (ص٤٧٠-٤٧١) ، وقال عن البحتريّ : « وأمّا أبو عبادة البحتريّ ؛ فإنّه أحسن من سبك اللّفظ عَلى المعنى، المراد أن يشعر فغنّى، ولقد حاز طرفي الرّقة والجزالة عَلى الإطلاق، فبينا يكون فِي شظف نجد حتى يتشبث بريف العراق » (ص٤٧٠) وكأنّ قول ابن الأثير : «أراد أن يشعر فغنّى» تمكين منه للبحتريّ فِي الشّاعرية بدليل قوله : «وسئل أبو الطّيّب عنه وعن أبي تمّام وعن نفسه فقال : «أنا وأبو تمّام حكيمان والشّاعر البحتريّ » . ولعمري إنّه أنصف فِي حكمه ، وأعرب بقوله هَذَا عن متانة علمه ، فإنّ أبا عبادة أتى فِي شعره بالمعنى المقدود من الصّخرة الصّماء فِي اللّفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بذلك بعد المرام ، مَعَ قربه إِلى الأفهام ، وما أقول : إلّا أنّه أتى فِي معانيه بأخلاط الغالية ورقى فِي ديباجة لفظه إِلى الدّرجة العالية » . ا.هـ. ص (٤٧٠-٤٧١) والغناء قوي العلاقة بالشّعر ، وفِي كتاب سيبويه أنّ الشّعر إنّما وضع للغناء والتّرنم ، عَلى أنّه لا يستبعد ، إن صحت هَذِه الرّواية من أبي الطّيّب ، أن يكون قد قصد إِلى تفضيل نفسه وحبيب عَلى أبي عبادة لاقتران الشّعر بالحكمة وفِي الحديث : « **إن من الشّعر لحكمة** » ، وعسى أن تكون هَذِه الرّواية مما افتعل عَلى أبي الطّيّب لتثبيت تهمة دعوى النّبوّة عليه ، للمعروف من اقتران الحكمة بالنّبوّة ، قَالَ تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٤] وقال تعالى فِي خبر المسيح عليه السلام : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة : ١١٠] ، وقال تعالى فِي خبر سيّدنا يحيى عليه السلام : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ١٢] وفِي خبر لقمان : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] .

ونظر ابن الأثير فِي قوله : فأدرك بذلك بعد المرام مَعَ قربه إِلى الأفهام ، إِلى قول البحتريّ فِي ابن الزّيّات :

لتَفَنَّنْتُ فِي الكتابةِ حتَّى عطَّلَ النَّاسُ فنَّ عبدِ الحميدِ
من معانٍ لو ضَمَّنتها القوافِي هجَّنتْ شعرَ جَرْوَلٍ ولبيدِ
حُزنَ مُستعملَ الكلام اختياراً وتجنَّبنَ ظُلمةَ التَّعقيدِ
وركبْنَ اللَّفظَ القريبَ فأدركْـ ـنَ بهِ غايةَ المُرادِ البعيدِ

وأبيات البحتريّ هَذِه هي أيضًا مما يدخل فِي صميم النّقد . وللشّعراء سبق ودقة فِي أبواب كثيرة من النّقد مما ينبغي أن يتنبه إليه الباحثون فِي هَذَا الباب ، هَذَا ويؤخذ عَلى ابن الأثير فِي معالجته للسّرقات أنّه أغفل المبدأ الَّذي بنى عليه كينونتها وأجاب به عَلى مفكري وجودها بحجة أنّ المعاني متساوية مشتركة فلم يسلم لَهُ إلا باب قسمته الأوّل وهو النّسخ وقد أدخل بعضه فيها وسمه باسم وقع الحافر عَلى الحافر (ص٤٧٢) واستشهد بقول امرئ القيس :

وُقوفًا بِها صَحبي عَلَيَّ مَطِيَّهُم يَقولونَ لا تَهلِك أَسىً وَتَجَمَّلِ

وقول طرفة :

وُقوفًا بِها صَحبي عَلَيَّ مَطيَّهُم يَقولونَ لا تَهلِك أَسىً وَتَجَلَّدِ

ويجوز أن يكون قول امرئ القيس قد اشتهر وسار فما أراد طرفة إلا تضمينه وتحسين صناعته بذلك التّضمين ،ويجوز أن يكون قولهم :

وقوفًا بها صحبي ...

مما صار من طريقة كلامهم ، يأخذ به شاعرهم ، ويغير من لفظه بحسب ما يتطلبه وزنه ورويه ، ويكون عَلى هَذَا غير داخل حقًا فِي الَّذي سماه هو النّسخ ، لأنّ هَذَا من السّرقات ، وقد فرض فِي السّرقات الخفاء والتّورية ، ولعلّه لو كَانَ قد جعل ما استشهد به من حديث أبي نوّاس فِي باب النّسخ لكان ذلك أصوب ، وهو قوله (ص٤٧٣) : «ومما كنت أستحسنه من شعر أبي نوّاس قوله من قصيدته الَّتي أولها :

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراء :

دارتْ عَلى فِتيةٍ ذلّ الزّمان لهم فما يصيبهم إلاّ بما شاءوا

وهذا من عالي الشّعر ثمَّ وقفت فِي كتاب الأغاني لأبي الفرج عَلى هَذَا البيت فِي أصوات معبد وهو :

لهفي عَلى فتية ذل الزمان لهم   فما أصابهم إلّا بما شاءوا »

ا.هـ .

على أنّه يجوز أن يكون أبو نواس قد أراد التضمين ، وهو من أسلوبه وكان واسع الحفظ ، ولعل ابن الأثير قد أراد نحوًا من هَذَا المعنى حيث علق عَلى ما تقدم بعد البيت الَّذي هو من أصوات معبد بقوله : «وما أعلم كيف هَذَا » ولا ريب يجري مجرى التّضمين لا النّسخ قول أبي تمّام :

مَحاسِنُ أَصنافِ المُغَنّينَ جَمَّةٌ   وَما قَصَباتُ السَّبقِ إِلّا لِمَعبَدِ

لأنّ هَذَا كَانَ قولا سائرًا .

وقد وقع ابن الأثير فِي الَّذي نبه عَلى تجنب الأخذ به ، حيث تتبع تشابه المعاني وبنى عليه سائر الأصناف الَّتي جعلها للسّرقات ، ولو قد كَانَ عوَّل عَلى الصّياغة لكان مذهبه أسلم ، والعجب لَهُ كيف غفل عن هَذَا ، ولا ريب أنه كَانَ يعلم أنّ البحتريّ اتهم أبا نوّاس فِي بيته :

وَلَمْ أَدرِ مَن هُم غَيرَ ماشَهِدَت بِهِ   بِشَرقِيِّ ساباطَ الدِّيارُ البَسابِسُ

بالأخذ من الهذلي فِي قوله :

وَلَمْ أَدرِ مَن أَلقى عَلَيهِ رِداءَهُ   وَلكِنَّهُ قَد سُلَّ مِن ماجِدٍ مَحضِ

لأنّ حذو الكلام واحد .

وعلى هَذَا يقاس أخذ أبي نوّاس من الأعشى حيث قَالَ :

وداوني بالّتي كانت هي الدّاء

فإنّه ولدها من : وكأس تداويت منها بها .

والتّشابه هاهنا فِي الصّياغة أدلّ من كلّ شيء . عَلى أنّ ابن الأثير ، فِي تتبعه لتشابه المعاني ، قد وفق إِلى موازنات رفيعة داخلة حقًّا فِي حيز ما قدمه من أصل الصّياغة

والشّكل والخفاء والتّورية، ولعل أجود ذلك جميعه الموازنة الَّتي عقدها بين صفة البحتريّ لأسد الفتح بن خاقان وصفة أبي الطّيّب لأسد بدر بن عمّار ، وقد خلص فيها إِلى تفضيل أبي الطّيّب ، ولو قد سار عَلى مذهبه فِي النّقد لفضل البحتريّ لالتزامه بنعت المبارزة ، إذ أبو الطّيّب اهتم بالأسد ولا ريب أنّ أبا الطّيّب أشعر عشرًا هاهنا وإن كَانَ البحتريّ أصفى ديباجة ومن عجب الأمر أنّ ابن الأثير قد فضل أبا الطّيّب أيضًا عَلى أبي تمّام فِي الموازنة الَّتي عقدها بين رثاء هَـذَا لولدين صغيرين ورثاء ذاك لطفل صغير . قَالَ : (ص٤٨٧) «وأبو تمّام وإن كَانَ أشعر عندي من أبي الطّيّب فإنّ أبا الطّيّب أشعر منه فِي هَذَا الموضع» ، وليس فِي هَذِه المقالة لأبي تمّام وناصريه عزاء ؛ إذ قد أعطى الجائزة لأبي الطّيّب كما ترى . وكأنّ ابن الأثير ما فضل جريرًا وصاحبيه عَلى شعراء الجاهليّة إلا ليخلص إِلى الَّذي خلص إليه من تفضيل الثّلاثة الذين جعلهم لات الشّعر وعزاه ومناته عليهم ، ثمَّ يجعل أبا الطّيّب خاتم الشّعراء أجمعين ، وما أكثر المواضع الَّتي قطع بتقديمه فيها عَلى غيره بلا تردد ، كقوله مثلًا (ص٣١١) : «وسأذكر الموضع الَّذي حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض وهي من محاسن ما يؤتى به فِي معنى الوداع ولم يأت لغيره ، مثلها ... إلخ» . وقال بعد أن أثنى عَلى أبي الطّيّب الثّناء الحسن فِي تخلّصه: (ص٤٢٠) والشّعراء متفوتون فِي هَـذَا الباب وقد يقصر عنه الشّاعر المفلق المشهور بالإجادة فِي إيراد الألفاظ واختيار المعاني كالبحتري فإن مكانه فِي الشّعر لا يجهل ، وشعره هو السهل الممتنع الَّذي تراه كالشّمس قريبًا ضوؤها بعيدًا مكانها وكالقناة لينا مسها خشنًا سنانها ، وهو عَلى الحقيقة قينة الشّعراء فِي الإطراب ، وعنقاؤهم فِي الإغراب ، ومع هَـذَا لم يوفق فِي التّخلص من الغزل إِلى المديح ... إلخ» .

وكأنه قد كَانَ من معاصري ابن الأثير الذين كَانَ يعبأ بهم عصبة فيهم عن أبي الطّيّب انحراف وبهم ميل إِلى تقديم صاحبيه عليه الأوّل فالثّاني ، وكان هو عَلى خلاف رأيهم فِي القول بتقديم أبي الطّيّب وهذا جليّ من كثرة استشهاده بشعره وإطرائه لَـهُ ، فأسر هَـذَا القول وأظهر أنه عَلى مذهبهم مداراة لهم أو مجاملة كقوله قبل أن يقطع بتفضيل أبي الطّيّب

فِي رثائه الطفل الصّغير عَلى أبي تمّام وقد مهد بأنّه يرى ذلك (ص٤٨٧) : «أكبر هَذَا القول جماعة من المقلّدين الذين يقفون مَعَ شبهة الزّمان وقدمه لامع فضيلة القول وتقدّمه» . وكأنّه يوهم بهذا أن أصحاب هَذِه المقالة غير الذين هم موضع مجاملته ومداراته ، فتأمّل . هَذَا ومما يؤخذ عَلى ابن الأثير أيضًا تنبيه عَلى ضرورة الحفظ ، لأنّ ذلك يعين عَلى جودة النّقد وتمييز مواضع الاختلاس والسّرق وما إِلى ذلك ، ثمَّ هو قد حث بعد ذلك عَلى الاقتصار عَلى الشّعراء الثّلاثة ومن بعد عَلى ثلاثة العهد الأمويّ وقلل من شأن فحول الجاهليّة ـ ويوشك القارئ لَهُ أن يخلص إِلى أنه لم يكن حقًّا عظيم المحصول من معرفة شعر القدماء ، ولولا ما نعلم من أنّ طريقة الدّرس ومنهجه عَلى ذلك الزّمان كانت تأخذ الطالب بمعرفة الأصول كمفضليّات الضّبيّ وحماسة الطّائيّ ، ودواوين الأوّلين ، لكنّا صَغَوْنَا إِلى القول بهذا الرّأي ، ولعلّ الفتنة بأبي الطّيّب هي الَّتي دفعته إِلى ما قطع به من تفضيل جرير وأصحابه عَلى امرئ القيس وأصحابه ، ثمَّ تفضيل ثلاثة العصر العبّاسيّ عليهم جميعًا ، والله تعالى أعلم .

هذا والمسألة الرّابعة الَّتي اهتم بها ابن الأثير وهي من كبريات مسائل نقد الشّعر مسألة لغة الشّعر والنّظم فِي مقابلة لغة النّثر . وقد تعرض ابن الأثير لهذا الباب فِي معرض حديثه عن الوحشيّ من الكلام . وقد فتح باب الحديث بزعم منه جازم أنّ من الألفاظ قباحًا يعرف قبحها بالضّرورة وحسانًا كذلك . ولاشكّ أنّ ابن الأثير قد صدر فِي رأيه هَذَا عن طبيعة الضّعف واللين الَّتي كانت غلبة عَلى عصره . وقد توفِي رحمه الله سنة ٦٣٧هـ أي قبل نحو من عشرين سنة من سقوط بغداد فِي أيدي التّتار وقد ذكر المؤرّخون أن جيش الخلافة كَانَ أفره خيلًا وأثقل دروعًا وأكثر سلاحًا من جيش هولاكو ، ومع ذلك لم يثبت هؤلاء المدججون إلا قليلًا أمام رماة التّتار الحقاف العدة والعتاد .

وقد أنكر عَلى «تأبّط شرًّا» قوله ، وهو من أبيات ديوان الحماسة :

يَظَلُّ بِمَوماةٍ وَيُمسي بِغَيرِها جَحيشاً وَيَعروري ظُهورَ المَهالِكِ

قال (ص٩٨) : « فإنّ لفظة «جحيش» من الألفاظ المنكرة القبيحة، ويا لله العجب:

أليس أنّها بمعنى فريد، وفريد لفظة حسنة رائقة، ولو وضعت فِي هَذَا البيت موضع جحيش لما اختل شيء من وزنه ، فتأبّط شرًّا ملوم من وجهين فِي هَذَا الموضع: أحدهما: أنه استعمل القبيح، والآخر: أنّه كانت لَهُ مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها » . ا.هـ. وهذا من أخطاء ابن الأثير الَّتي مردها إِلى ما سبقت الإشارة إليه من غلبة نوع من الانحلال واللّين عَلى طبائع أهل عصره وأذواقهم . ولو قد وضعنا كلمة فريد هاهنا موضع جحيش لنبت كل النبوّ . وذلك أنّ فِي قوله : «جحيشًا» حيوية وتصويرًا ، إذ قد نظر فِي اختياره هَذِه الكلمة إِلى المعهود فِي الأشعار وفِي البيئة الجاهليّة البدويّة ؛ من نعت الحمار الوحشي بالحذر والغيرة والانفراد منصلتًا بأتنه فِي القفار ، يتقدمها يربأ أمامها المراقب ، أو يتعقبها وهو يسوقها السّوق المفرط الشّديد . وقد نعت رؤبة الحمار الوحشي فِي أرجوزته القافية :

وقــاتم الأعــماق خــاوي المخــترق

ولما أراد مدح أبي مسلم صاحب الدّولة ببعض الرّجز ، أعرض عن ذلك وطلب منه أن ينشده القافية ، فلما صار فيها إِلى قوله :

إِذَا تَــتَلَّاهُنَّ صَلْصــالَ الصَّــعَقْ

مُعْتَــزِمُ التَّجْلِــيحِ مَــلّاخُ النَّــزَقْ

يرمــي الجلاميــد بجلمــود مــدق

قال لَهُ أبو مسلم : «أنا ذلك الجلمود المدقّ» .

ومما يقوي معنى الحيويّة الَّذي فِي قوله :

جحيشًــا ويعــروري ظهــور المهالــك

أن الشّاعر احتفظ بمعنى الحمار الوحشيّ فِي سائر البيت ، فجعل المهالك بمنزلة الرّواحل ، وجعل جحيشة هَذَا يعروريها أي يركب عليها عريا بلا سروج ، وجعل لها ظهورًا كما ترى ، وقد نقل صورته من الجحش الوحشيّ النفور المنفرد الكثير التّلفت ، إِلى الباسل البئيس الَّذي يثب عَلى ظهور المهالك بمنزلة الأتن الَّتي يحدوها الحمار الوحشيّ ،

ويقدر عليها وهو يتتلاها «يرمي الجلاميد بجلمود مدقّ» . وقوله : «يظل بموماة ويمسي بغيرها» مأخوذ أخذًا من صورة وحوش الصّحراء .

وقد كَانَ أبو تمّام ناقدًا نافذ البصر فِي الشّعر لا يتقيد فِي تمييز جيده من رديئه بما كَانَ هو عليه من مذهب النّظم . وقد اختار أبيات تأبط شرًّا هَذِه واحتفظ بجحيشها ولم يغيّره إِلى فريد . وليس الأمر هاهنا إصابة ظاهر رنّة الوزن ، ولكن أن يصيب الشّاعر جوهر المعنى فِي الصّورة والحيويّة والإيقاع جميعًا .

ثم بعد أن ذكر كلمات تجري عنده مجرى «جحيش» فِي القبح قَالَ : (ص٩٩) «والعرب إذن لا تلام عَلى استعمال الغريب الحسن من الألفاظ ، وإنّما تلام عَلى الغريب القبيح . وأمَّا الحضري فإنّه يلام عَلى استعمال القسمين معًا وهو فِي أحدهما أشد ملامة من الآخر ، عَلى أنّ هَذَا الموضع يحتاج إِلى قيد آخر ، وذلك شيء استخرجته أنا دون غيري» ... كَانَ رحمه الله كثير التّزكية لنفسه ، وقد جرّ هَذَا عليه كثرة الاستشهاد فِي باب النّثر بأمثلة من إنشائه لو خلا كتابه منها كَانَ أفضل لَهُ ... قَالَ : وذلك شيء استخرجته أنا دون غيري فإنّي وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فِي الشّعر ولا يسوغ فِي الخطب والمكاتبات وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إِلى ما أوردته من الأمثلة . إِلى آخر ما قاله .

فقد جعل هاهنا للشّعر طبيعة قبول أو طبيعة استعداد وتهيؤ لقبول الغريب الَّذي سماه حسنًا دون النثر . ومما مثل به فِي هَذَا الباب لفظ شرنبثة فِي قول الفرزدق :

شَرَنبَثَةٌ شَمطاءُ مَن يَرَ ما بِها ... تُشِبهُ وَلَو بَينَ الخُماسِيِّ وَالطِفلِ

وقول البحتريّ «مشمخرة» فِي السّينية :

مشمخرًا تعلو لَهُ شرفات ... رفعت فِي رؤوس رضوى وقدس

قال (ص٩٩) : «فإنّ لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها فِي الخطب والمكاتبات ولا بأس بها هاهنا فِي الشّعر وقد ورت فِي خطب الشّيخ الخطيب ابن نباتة كقوله فِي خطبة يذكر أهوال القيامة فقال : اقمطر وبالها واشمخر نكاها فما طابت ولا ساغت» ... ولا يخفى أنّ هَذَا من ابن الأثير اقتيال بلا حجة ، إذ لا يخفى أنّ قول ابن نباتة «اقمطر» أخذه من قوله

تعالى : ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٠] واشمخر ملائمة لا قمطر فِي الجرس وصورة هول المعنى .

هذا وإنّما رتب ابن الأثير قضية الفصل بين أساليب الشّعر والنّثر ، وإن كَانَ قد جاء بذلك متقدّمًا عَلى أصل جاء به من بعد حيث فرق بين حال الألفاظ وهي مفردة وحالها وهي مركبة وذلك قوله : (ص١١٤) «وأمّا إذا صارت مركبة فإنّ لتركيبها حكمًا آخر ، وذاك أنّه يحدث عنه فِي فوائد التّأليفات والامتزاجات ما يخيل للسّامع أنّ هَذِه الألفاظ ليست تلك الّتي كانت مفردة» ولعمري لو كَانَ ابن الأثير تمسّك بهذا الأصل وأضرب عما افترضه من القبح الأصيل والحسن الأصيل فِي الكلمات لكان أجود وأصح . وعليه يستقيم ما صور به ألفاظ أبي تمّام (ص١٠٦) «كأنّها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطّراد» وألفاظ البحتريّ حيث قَالَ (ص١٠٦) «وترى ألفاظ البحتريّ كأنّها نساء حسّان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي» إذ هي إنّما استفادت هَذِه الصّور فِي خياله من أساليب تأليفها ، وأحسب أن ابن الأثير قد أخذ تمثيله هاهنا من بعض ما جاء به ابن رشيق فِي هَذَا الباب ، عَلى تقدير التّسليم أن كتاب العمدة كَانَ معروفًا بالمشرق ، وليس ذلك ببعيد ، لقوة ما كَانَ يصله الحجُّ وبُعْد هِمَمِ العلماء فِي تحصيل الإجازات والأسانيد بين أطراف بلاد الإسلام .

وقد فرّع ابن الأثير من قضيته الّتي قَالَ بها من قبح الألفاظ وحسنها ثمَّ أثر التّراكيب وضروب التّأليف عَلى ذلك ، فصلًا فِي السّجع . وكان يميل إليه ويرى أنه عَلى درجات نظام الكلام المنثور . وقد اشترط فيه شروطًا كاد يقترب به فيها من الشّعر ، إذ ألزم صاحب السّجع أن يجتنب البرد والغثاثة وعرف البرد والغثاثة «أن صاحبها يصرف نظره إِلى السّجع نفسه من غير نظر إِلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ولا إِلى تركيبها وما يشترط لَهُ من الحسن وهو فِي الذرى يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابًا من الكرسف أو ينظم عقدًا من الخزف الملون» ، ثمَّ إنّه اشترط مَعَ هَذَا مراعاة المعنى وهذا يستفاد ضمنًا من سابقة اشتراطه ألا يصرف النّظر إِلى السّجع من غير

نظر إلى مفردات الألفاظ ... إلخ (راجع ١١٦-١١٧) .

وقد احتجّ ابن الأثير لتفضيل السّجع بأسلوب القرءان ، وغفل عن أنّ أسلوب القرءان ليس بزخرفة من نقش أثواب كرسف أو نظم عقد من خزف ملون ، ولكنّه شديد الأسر ، فحل الإيقاع ، وقد أنكر ابن الباقلاني أنّه سجع أو من المسجوع جملة واحدة .

هذا والمسألة الخامسة ، وستختم بها هَذِه الكلمة الموجزة إن شاء الله تعالى ، من أهم المسائل ، ولاسيما قضية مضمونها بالنّسبة إلى نقدنا المعاصر وضروب أشعارنا المعاصرة وشتى المشكلات المتّصلة أو المتعلقة بها ، وهي مسألة الإطالة في الشّعر . قَالَ ، وهو في آخر كتابه (ص٥٠٣) : «إنّ الشّاعر إذا أراد أن يشرح أمورًا متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج إلى إطالة ، بأن ينظم مئتي بيت أو ثلاثمئة أو أكثر من ذلك ، فإنّه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرضي ، والكاتب لا يؤتى من ذلك ، بل يطيل في الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر ، وتكون مشتملة عَلى ثلاثمئة سطر أو أربعمئة أو خمسمئة وهو مجيد في ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لأنّنا رأيناه وسمعناه وقلناه ، وعلى هَذَا فإنّي وجدت العجم يفضلون العرب في هَذِه النّكتة المشار إليها ، فإنّ شاعرهم يذكر كتابًا مصنفًا من أوله إلى آخره شعرًا وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مَعَ ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل «الفردوسيّ» في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشّعر يشتمل عَلى تاريخ الفرس وهو قرءان القوم وقد أجمع فصحاؤهم عَلى أنّه ليس في لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد في اللّغة العربيّة عَلى اتّساعها وتشعب فنونها وعلى أنّ لغة العجم بالنّسبة إليها كقطرة من بحر » . ا.هـ .

القضية الّتي شرع بها وهي أنّ الإطالة يكون معها الإسفاف قائمة مسلّم بها في جميع أودية البيان ، النّظم والنّثر والخطب والمشافهات والرّسائل وهلمّ جرّا . والفرق بين الشّعر وغير الشّعر خاصة في هَذَا الباب فرق درجة «كمّ» ودرجة «كَيْفٍ» . وأحسب أنّ ابن الأثير تأثر ههنا بمقدمة المرزوقيّ لشرحه كتاب «الحماسة» فقد تعرض فيها لفضل الكاتب

عَلى الشّاعر . وقطع ابن الأثير بأنّ الكاتب مما تتأتّى لَهُ الجودة مَعَ الإطالة ، وتزكيته نفسه فِي مضمار ذلك ، غير مسلّم به ، وكان أصوب لو نبه عَلى ضيق مجال الشّعر العربيّ عَلى النّحو الَّذي نبه به ابن المعتز حيث قَالَ :

إنّ ذا الشّعر فيه ضيق مجال — ليس كلّ الكلام ما شاء قالا

يكتفى فيه بالإشارة والوحـ — ـي ويحتال قائلوه احتيالا

وقد قَالَ البحتريّ :

والشّعر لمح تكفي إشارته — وليس بالنثر طولت خطبه

وكون الشّعر لمحًا ، فرق «كيف» بينه وبين النّثر ، وكونه صناعة ذات أوزان وقواف وإيقاع يحدث فرقًا فِي «الكم» .

وتبقى بعد مسألة أسلوب العرب وأسلوب العجم فِي هَذَا الباب . وسجع العربيّة لو وقع فِي لغة من لغات العجم لعدَّ شعرًا فها هنا اختلاف بين العربيّة وغيرها فِي نفس صناعة الشّعر يجب لفت النّظر إليه . ومن العجب أن ابن الأثير شبه «شاه نامه» فِي باب الفصاحة عند الفرس بالقرءان فِي باب الفصاحة عند العرب[1] ، وهو يعلم أنّ القرءان فِي العربيّة ليس بشعر ، وليس المُبْعِد لَهُ عن الشّعر أنّه ليس بموزون مقفى فحسب . ولكن يبعده عن الشّعر فِي المكان الأوّل أنّه لا تفاوت فيه ولا اختلاف وأنّ النّاسخ والمنسوخ فيه مرتبان عَلى التّدرّج فِي التّشريع والتّخفيف وفِي الشّعر التّفاوت والاختلاف ؛ لأنّه يصدر عن انفعالات قلوب البشر ، وقلوب البشر تتقلب ، يغضب الشّاعر فيهجو وينشرح صدره فيمدح وقس عَلى ذلك ، قَالَ تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٤] .

ومع أنّ صناعة العجم شِعْرَهم تمكنهم من الإطالة فيه ، لا يسلم مَعَ ذلك شاعرهم من الهبوط والإسفاف فِي مواضع ، حتى إنّما تسند إليه الفصاحة والتّبريز من أجل مواضع الإجادة الَّتي يصيبها ، فيكون نعت منظومته كلّها بالجودة وبالفصاحة من باب التّغليب

---

(١) هذا تشبيهٌ فاسدٌ ، إذ أنّ المشبّه والمشبّه به لا بدّ أن يكون بينهما مشتركٌ يسمّى وجه الشّبه ، ولا وجه هنا للشّبه بين شاهنامة والقرءان الكريم ؛ فهي من سقطات ابن الأثير . (حسن) .

وإطلاق الجزء عَلى الكلّ . وهذا المعنى قد فطن لَهُ الناقد الإنجليزيّ «كلردج» ، وعلله فِي فصل لَهُ مشهور متداول من كتابه «بيوغرافيا ليتراريا[1] أي التّرجمة الأدبيّة» وهو كتاب متعدد الموضوعات فيه مذكرات واستطراد بعد استطراد ، وخوض فِي أنواع من الأقاويل تكون أحيانًا غير مرتبطات ببعض ونظرات فِي النّقد ثاقبة . وقد كَانَ ممن يقول بأنّ للشّعر لغة غير لغة النّثر ، واحتج بأنّ لغة الكتابة فِي النّثر غير لغة المحادثة ، وذلك لما يقع فيها من أناة الصّنعة ، وهذا عنصر أقوى فِي الشّعر والفصل المشهور الَّذي تعرض فيها لمسألة ما يعتري النّظم بالضّرورة من عنصر اللاّشعر هو الرّابع عشر فِي أوّل المجلّد الثّاني من طبعة لندن (١٩٠٧م) لكتابه المشار إليه آنفًا ، وقد فرق فيه بين المنظومة والشّعر بحجة أنّ الشّعر إبداع مصدره فِي الخيال ، والإبداع نادر بالضّرورة والمنظومة لا يمكن أن تكون كلها إبداعًا . والحجة الَّتي لجأ إليها «كلردج» فلسفيّة دينيّة السنخ يمكن رد أصولها إِلى كلام أبي بكر بن الباقلاّنيّ فِي إعجاز القرءان . وإذا صرفنا النّظر عن الجانب الدّينيّ اللاّهوتي فِي كلام «كلردج» (راجع كتابه ، المجلّد ١ ص ٢٠٢) فإنّ خلاصته أنّ المنظومات الطّوال يدخلها الضّعف واللاّشعر . وعلى هَذَا تسقط الحجّة الَّتي تنظر إِلى مطولات النّظم الأعجمي بنوع من الافتتان .

ورحم الله نصر الله بن الأثير . فإنّ أقل ما يثنى عليه به فِي كتابه «المثل السائر» سلاسة أسلوبه ووضوح الفكرة عنده . وقد كَانَ مثله الأعلى فِي صناعات النّثر والنّظم أن يكون الشّعر ساخنًا ولهذا نجد ميله إِلى المتنبّي ظاهرًا ، وأن يكون النّثر مسيطرًا فيه المعنى عَلى اللّفظ مَعَ العناية بهذا وحسن اختياره ، وطريقة سجعه وتدفقه فِي شتّى أبواب كتابه تشهد بالتزامه بهذا المثل الأعلى الَّذي ارتضاه وأمّا تزكيته نفسه فلعلّ الرّجل قد كان لَهُ خصوم يعارضهم ، والله أعلم ، هَذَا وعسى أن نكون وفيناه فِي هَذِه الكلمة الموجزة بعض حقّه . ونختم بما ختم به رحمه الله كتابه من الصّلاة عَلى النّبيّ وعلى آله وصحبه ، والتّسليم تسليمًا كثيرًا ، والحمد لله سبحانه وتعالى فِي المبدأ والختام .

---

(١) طُبع كتاب Biographai literana سنة ١٨١٧م ، ثمّ طُبع سنة ١٩٠٧م ، والفصول النّقديّة الهامّة المفيدة الّتي يُرْجَع إليها فيه هي ١٣ و ١٤ و ١٨ . وتكثر الإشارة إلى هذه الفصول في كتب النّقّاد الإنجليز . ونقول على طريقة بن الأثير : قد رجعنا إليها وإلى كثيرٍ ممّا كتبوا والله المستعان .

المحور السّادس : النّقد الأدبيّ الحديث

(٤٥٥-٥٠٣)

* حتامَ نحن مع الفتنة بإليوت ؟

حتّامَ نحن مَعَ الفتنة بإليوت[1] ؟

تمهيد :

«توماس ستيرنز إليوت Thomas sterns Eliot ». ولد سنة ١٨٨٨م وتوفي سنة ١٩٦٥م . نشأ بسنت لويس مسوري من الولايات المتّحدة بأمريكا الشّمالية وتلقّى تعليمه الجامعيّ بين سنة ١٩٠٦م و١٩١٥م فِي هارفارد بأمريكا والسّوربون بباريس وأكسفورد بانجلترا واستقرّ بانجلترا بعد سنة م ١٩١٥ وتجنّس الجنسيّة البريطانيّة ويذكر مترجموه أنّه كَانَ من أسرة عريقة الأصل من السّلالات البريطانيّة القديمة ذات جاه وثراء . وكان هو مَعَ أدبه فِي انجلترا من رجال الأعمال النّاجحين فِي ميدان النّشر . وكان مرموق المكان بين أدباء عصره من جانبي المحيط الأطلسيّ ، قريبًا فِي المنزلة عندهم مما كَانَ عليه أديبا الأمة العربيّة الأستاذ العقّاد والدّكتور طه حسين رحمهما الله . اشتهر أوّل أمره بعد نشره منظومته (الأرض المقفرة The Waste Land فِي سنة ١٥٢٢م . ويقال : إنّ الّذي نُشر حينئذ كَانَ شيئًا مختصرًا ، اختصره منها ـ وهي طويلة جدًّا ـ صاحبه وأستاذه الرّوحيّ «إزرا باوند Ezra Pound » وعندي أنّ مثل هَذَا القول ، صحّ أو لم يصح ، مما لا ينبغي أن يُعَوَّل عليه. وإليوت أعظم بها شهرة بين أدباء الغرب المتعلّقين به منه بغيرها ، ولكنّه فِي فرنسا مثلًا أعظم شهرة بمسرحيته (مَقْتَل فِي الكنيسة Mured in the cathedral) وللنّاس فِي ما يعشقون مذاهب .

الفتنة باليوت والأرض المقفرة وحتام نحن مَعَ ذلك ؟

الفتنة بإليوت بين أدباء العرب المعاصرين كبيرة جدًّا . وينسب إليه تفوق وإبداع وابتكار. وممّا ينسب إليه في باب الابتكار مذهبه في الإشارات والاقتباس. وهذا المذهب قديم في اللّغة الإنجليزيّة وأقدم في اللّغة العربيّة أفتن فيه من الجاهليّين ، عَلى سبيل المثال زهير

(١) المجلّة ، جـ ٤٨ ، ص ٤٩ . (حسن) .

ونابغة بني ذبيان ، ودع الفرزدق وجريرًا وذا الرّمة وأبا نوّاس وشيخ المذهب في المحدثين أبا تمّام وتلاميذه من لدن أبي العلاء إلى الحريريّ . ومن جون ملتون الشّاعر الإنجليزيّ الكبير المشهور ، استفاد هو طريقة مذهبه في الإشارات والاقتباس فتأمّل هَذِه الالتواءة ، وكأنما كَانَ أسلوب أمثالها لَهُ ديدنا وطبيعة ، والله تعالى أعلم بسرائر غيابات النّفوس.

يدعو الدّاعون إلى الاقتداء بأسلوب إليوت والتّمذهب بمذهبه ويبغون بذلك النّهوض بالشّعر العربيّ الحديث وبثّ روح جديد فيه أو هكذا يقولون . وفى هَذِه القضيّة نظر. هَذَا أقل ما يقال. ولو قلنا أنّها قضية دعوى من الضّلال البعيد والانحراف السّمج ما غلونا. وإليك بعض البيان ...

أولًا : لفت نظري أنّ تعليقات «إليوت» التى جعلها في ذيل منظومته المسمّاة : the wast land «الأرض المقفرة » خالية من الإشارة إلى العرب وما يمتّ إلى العرب وما العرب يمتون إليه« القرءان مثلًا والإسلام» مَعَ أنّ هَذِه التّعليقات ذات حظّ وافر من الحرص عَلى إظهار المعرفة العريضة والإطلاع الواسع وبعض الغلوّ في ذلك حتّى أنّها لتوشك أن تشمل أكثر أمم الأرض ولغتها وآدابها الحاضرة والغابرة.

ثانيًا : لفت نظري أنّ «إليوت» قد ضمّن منظومته «الأرض المقفرة» (راجع : the wast land and other poems طبعة لندن في السّنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و١٩٧٥م) في الأسطر ١٠٠-١٠٣ ص ٣٠ إشارة إلى شيء من شعر «وليم وردزورث» الرّومانتكي الإنجليزيّ الكبير وفى السّطر ٢٦٣-٢٦٥ من ص ٣٧ إشارة إلى شيء من شعر «والتر دي لامير» walter de la mare من شعراء صدر هَذَا القرن الشّديديّ التّأثر بالرّومانتيكة . ولم يذكر في تعليقاته شيئا يدلّ عَلى هاتين الإشارتين. وقد يبدو لأوّل وهلة أنّ سبب هَذَا السّكوت هو شهرة الشّعر المشار إليه. ولكنّنا نجد أنّ «إليوت» يشير إلى بيت مشهور تكرر في منظومته من شعر «سبنسر» spencer (راجع ٢٣ و ٣٤ ص ١٧٦ و١٨٣) وآخر مشهور جدًّا من شعر «أندرومارفل» Andrew marvel (راجع ص ٣٤ س١٩٦) وأشياء معروفة من التّوراة والإنجيل وغير ذلك . إذن ينبغى أن نبحث

عن سبب آخر لسكوت «إليوت» عن البيان غير شهرة ما أشار إليه عَلى نحو ما هو معروف من مذهبه.

ثالثًا: لفت نظري أنّ ذكر العرب الذي قد أضرب عنه «إليوت» كلّ الإضراب لَهُ ورود واضح في أصل الإشارتين اللّتين تضمنت معانيها وألفاظها الأسطار التى أشرنا إليها من قبل في منظومته- الإشارة الوردزوثيّة ، نسبة إلى «وليم وردزورث» ، في الأسطر ١٠٠-١٠٣ ، والإشارة الدّيلميريّة ، نسبة إلى «والتر دي لامير» ، في الأسطر ٢٦٣-٢٦٥

(أ) الإشارة التى وردت من «إليوت» في س ١٠٠-١٠٣ من ص ٣٠ إلى شيء من شعر وليم وردزورث هى قوله:

Yet there the nightingale filled all the desert with inviolable voice and still she cried, and still the world pursues jug jug, to dirty ears-...

ترجمة تقريبيّة :

ولكن هناك البلبل

ملأ كل الصّحراء بصوت لا يطمث ولا يغتصب

واستمرّ يصيح وتستمر الدنيا تطارد

زقزقة صفيره إلى الآذان القذرة

هذا والذى أشار إليه «إليوت» من شعر وليم وردزورث هو قول هَذَا في منظومته The Solitary Reaper ، أي الحاصدة المتوحدة :

O listen for the vale profound
Is overflowing with the sound
No Nightingal did everchant
More welcome notes to weary bands
Of travelers in some shady haunt
Among Arabian Sands

وضعنا خطًّا تحت الكلمة الدّالة عَلى العرب من نظم وردزورث لمجرّد التّنبيه عَلى موضوعها وترجمة هَذَا النّظم التّقريبيّة كما يلى:

ألا فاسمع فإن الوادى العميق

يفيض مفعمًا بالصوت

وما غنى أبدًا بلبل

نغمات أطيب لجماعات مضناة

من المسافرين في ظل مكان ما

بين الرّمال العربية ....

أخذ «إليوت» معنى فيض الوادى وافعامة بالصوت من قول وليم وردزورث حيث قَالَ (راجع السّطر الثانى من كلامه الّذي مر) :

Overflowing with the sound

أي : يفيض مفعما بالصّوت فجاء بقوله في السطر ١٠٠:

Filled all the desert

أي ملأ كل الصّحراء كما مرّ بك في التّرجمة ، وتتمة السّطر في نعت البلبل بأنّ صوته الّذي ملأ الصّحراء لا يستطيع أحد لَهُ اغتصأبا وطمثا inviolable ، وأصل هَذَا المعنى ماخوذ من حاصدة «ووردزوورث» المتوحّدة ، شبه «إليوت» صوت بلبله بالعذراء الحاصدة المتوحّدة التى أفعم صوتها الوادي العميق وفضله وردزورث عَلى صوت كل بلبل، ونقل عذرية الحاصدة التى لا تنال لتوحدها وبداوتها إلى الصّوت نفسه فزعم لَهُ عذريّة سرمديّة لا يستطاع نيلها بغصب وطمث ، لا يطمثها أحد لا إنس ولا جانّ كحور الجنّة . وأزعم أنّ «إليوت» لا يخلو أن يكون نظر في قوله : inviolable إلى المعنى القرءاني – قَالَ تعالى في سورة الرحمن في وصف الحور العين : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرّحمن : ٥٦]، وذلك أنّ ترجمات القرآن في اللّغة الإنجليزية وغيرها من لغات أوربا كثيرة والاطلاع عليها واسع.

هذا وإليوت في السّطر ٩٩ من منظومته يذكر تغيير صورة فيلوميل Philomel في

نوع من تكلّف وإقحام:

The change of Philomel...

وهو يريد بذلك أن يوقع في وهمنا أنّه يشير إلى خبر Philomel فيلوميا الأسطوريّ وخلاصته (وقد أشار إليه في التّعليقات ص ٤٦) أن ملكًا تزوج أخت فيلوميلا (أو فيلوميل) ثمَّ شغف بها هي حبًّا وغصبها نفسها ثمَّ قطع لسانها لكي لا تكلم أحدًا بذلك فاحتالت عَلى بثّ خبرها بتطريز طرّزته... وتنتهي الأسطورة بمسخ الغاصب والمرأتين طيرًا ، وصيرورة فيلوميلا (فيلوميل) بلبلا لتتغنى كالتّعويض لها عن لسانها الّذى قطع . وما أشبه كلمة بلبل بفيلوميل لسهولة تحوّل الفاء والميم باء ويجوز أنّ أصل اللّفظين واحد قديم موغل في القدم. وهل لذلك صلة ببابل وهى من أمّهات الحضارة؟ ومن خطأ اليونان أو غيرهم في هَذِه الأسطورة نسبة الغناء إلى أنثى البلبل لأنّ الصّادح في الحقيقة هو الذّكر. والدّليل القاطع عَلى أنّ أصل معنى «إليوت» أخذه من حاصدة «وردزورث» المتوحّدة محاكاته الواضحة لصياغة «وردزورث».. استبدل «إليوت» قول «وردزورث» «الرّمال العربيّة» Arabia sands ، بقوله هو : «كلّ الصّحراء» All the desert وما قوله كلّ الصّحراء إلا كما لو قَالَ رمال العرب أو الرّمال العربيّة أو الصّحراء العربيّة . واستبدل «إليوت» قول «وردزورث» «لجماعات مضناة» to weary bands بقوله هو : «للآذان أو إلى الآذان القذرة» وشبه الصّياغة ودليل الأخذ في النّص الإنجليزيّ واضح جدًّا. ولاحظ مَعَ هَذَا أنّ «إليوت» حذف اللّفظ الدّال عَلى العرب حين استبدل قول «وردزورث» : «بين الرمال العربيّة» بقوله هو : «كل الصحراء» .

وردزوث : Among Arabian Sands

إليوت : Filled all the desert

وقوله «إليوت» . ... Jug jug to dirty ears

أي : زقزقة صفير البلبل إلى الآذان القذرة .

إنّما جاء فيه بحكاية الصّوت «زق زق» ؛ ليوهم بأنّه يشير إلى شكسبير ومعاصريه

لكثرة ورود هذه الحكاية في أشعارهم ويصرف الأذهان عن محاكاته في أشعارهم ويصرف الأذهان عن محاكاته «لوردزورث» كما بيّنّا من قبل .

ولا يخفى أن ثمّ رابطة قويّة بين طي «إليوت» لذكر العرب وطيه لذكر وردزورث وأن هَذَا الأمر قد كَانَ منه عن عمد لا مجرد مصادفة واتفاق (ب) : الإشارة الديلميرية نسبة إلى والتر دي لامير.قال «إليوت» في منظومته السّطر ٢٦٣-٢٦٥ ص ٣٠ :

Where fishmen lounge at noon, where the walls magnus martr hold
Inexplicable splendours of lonian and gold.

التّرجمة التقريبية :

حيث يستريح صائدو الحوت في نصف النّهار حيث جدران (كنيسة) ماغنس الشهيد تحوى ما يعجز الشرح من روعة الأبيض اليونانيّ والذهبيّ.

الكلمة inexplicable في هَذَا النّص ومعناها ما يعجز الشّرح والتفسير تشبه في روح الفكرة والصناعة كلمته التى تقدمت في أخذه من وردزورث وهي inviolable أي لا يتطاع اغتصابه. وفكرة الأبيض اليونانىّ والذّهبيّ فيها مشابه من فكرة إقحامه «فيلوميل» من قبل من حيث الإيهام بالرّجوع إلى الأصول القديمة الكلاسيكيّة وصرف النّظر عن موضع الأخذ القريب.

وكذلك ذكر كنيسة ماغنس الشهيد وتعميته بذكر المعمارى رن Wren في ص ٤٨ وهو «السّير كرستوفر رن» Sir Christopher wren يشبه إقحامه « زق زق» ليصرف النّظر عن أخذه عن دي لامير ويوهم بإشارة بدل ذلك إلى هَذَا المعمارى وعصره الرّفيع في تاريخ الحضارة والفن والأدب.

عنى «إليوت» بالأبيض اليونانىّ والذّهب من قوله المتقدم نقوش الفسيفساء التى في سقف الكنيسة من الدّاخل وأصلها يونانى . وقول «إليوت» Magnus martyr أي

ماغنس الشّهيد عنى به كنيسة القديس ماغنس saint magnus ، وذلك اسم كنيسة مما صممه المعماري المهندس السّير كرستوفررن ، ومعنى مارت «Marty»التى أقحمها «إليوت» هو الشهيد ، وصف وصف به القديس ماغنس المسماة باسمه الكنيسة ، (راجع A History of Architecture ، أي تاريخ العمارة لمؤلفه السّير بانستر فلتشر طبع مدينة لندن سنة ١٩٤٨ م ص ٨١١-٨١٥) .

السّير كريستوفررن Sir Christophet Wren (١٦٣١-١٧٢٣م) من كبار رجال الفكر والعلم والهندسة والعمارة فِي بريطانيا فِي القرن السّابع عشر الميلادي، وثيق الصّلة بملكهاشارلس الثّاني، أعاد تصميم عدد كبير من كنائس مدينة لندن بعد حريقها الكبير فِي سنة ١٦٦٦م ومما أعاد تصميمه كاتدرائية القدّيس بولس المعروفة Saint Paul`s ونقوش سقفها الدّاخلية البيض المذهبات تعد من الرّوائع وقد حاكى بها كريستوفر رن طريقة مايكل أنجلو الفنان العظيم في تصميمه كنيسة القديس بطرس بروما وقد حاكى كرستوفررن فن النّهضة فِي سائر ما صممه ولا يستبعد أن يكون «إليوت» ضمن قوله (ماغنس مار تر Magnus Martyr) عَلى شرحه المتكلف لَهُ فِي ص ٤٨ فِي التّعليقات، معنى كاتدرائية القدّيس بولس تشبيها لها بكنيسة القدّيس بطرس فِي روما إذ لا يخفى أن بطرس الحواري هو شهيد المسيحيّة العظيم (ماغنس مار تر) وهذا معنى جانبي تجيء ظلاله من طريق تداعى المعاني والأوّل مَعَ الشّرح هو الظّاهر ولكنّي أحسب أنّ هَذَا هو المقصود وهو الأصل.

أضرب «إليوت» عن ذكر دي لامير وأخفاه .

وقول والتر دي لامير الّذي أشار إليه هو أوّل كلمته Arabia أي الجزيرة العربيّة، هَذَا هو العنوان (انظر ص ١٥٥ من مختارات الشّعر الإنجليزيّ المسماة Selection from modern Poets لصانعها ج. س. سكوير J.C.Squire طبع لندن – مارتن سكر Martin Secker سنه ١٩٢١) قَالَ والتر دي لامير فِي أوّل منظومته:

Far are the shades of Arabia

Where the princes ride at noon

هذان أوّل سطرين وقد نظر إلى هذين السّطرين وإلى ما بعدهما «إليوت» نظرا شديدًا فِي الأسطار الّتي ذكر فيها فيلوميل والّتي قبلها (راجع من أوّل الفصل الّذي عنوانه لعبة الشّطرنج حيث يبدأ بشيء كمحاكاة وصف شكسبير لسفينة كيلوباترا فِي السّطر ٩٩) وليس هنا موضع تفصيل ذلك.

وترجمة سطري دي لامير عَلى وجه التّقريب:

هيهات ظلال جزيرة العرب

حيث يركب الأمراء فِي نصف النّهار

استبدل «إليوت» عبارة دي لامير the shades of Arabia (ظلال جزيرة العرب) بعبارته هو the walls /of Magnus martyr ... (جدران كنيسة ماغنس الشّهيد) .

حذف «إليوت» اللّفظ الدّال على العرب وهو جزيرة العرب Arabia واستبدله بكنيسة ماغنس الشّهيد وجعل الجدران فِي مكان الظلال الّتي فِي عبارة والتردي لامير... ولا يخفى أنّ الجدران وثيقة الصّلة بالظّلال. والفرار عن جزيرة العرب Arabia إن يك بعضة صادرًا عن تعصّب دينيّ أو عنصريّ أو عقابيل شعور صليبيّ مما يدعو إلى التماس ملجأ عن الكنيسة ؛ إذ لا يخفى أنّ ظلال جزيرة العرب لا تخلو من معنى ظلال سيوف محمّد وصلاح الدين والإسلام والجهاد.

وقد كَانَ والتر دي لامير (١٨٧٣-١٩٥٦م) معاصرًا لإليوت ، أسن منه شيئًا.. وقد وصفه تاريخ كمبريدج الصّغير لآداب اللّغة الإنجليزيّة بالأصالة والملكة ذات الطّبع الجذّاب – (انظر ص ٨٤٧-٨٤٨ من كتاب The Concise Cambridge History of English Literature لمؤلفة جورج سامبسون George Sampson طبعة ١٩٧٥ م) ، وقد كَانَ ذا روح رومانتيكى . وطوى «إليوت» ذكره طيًّا مَعَ إنّ شاهد محاكاته لَهُ واضح فِي الصّياغة والتّركيب كما طوى ذكر العرب والجزيرة

العربية.

واستبدل «إليوت» لفظ الأمراء The Princes الوارد في بيت دي لامير بقوله the fishmen أي: صائدو الحوت وقول دي لامير) ride يركب) بقوله: Lounge واحتفظ بلفظ نصف النّهار at noon وهو وحده كاف في النّميمة بالمحاكاة.. وكرر «إليوت» لفظ where (حيث) الوارد في بيت دي لامير:

Where the prince ride art noon

(حيث يركب الأمراء في نصف النّهار) يترنم به كما ترى.

لا يخفى أن ثمَّ رابطة قوية بين طي «إليوت» لذكر دي لامير وجزيرته العربيّة كما بين طيّه لذكر وردزورث ورماله العربيّة.

بعض هَذَا مرجعه كما قدمنا منذ حين إلى الشّعور الصّليبيّ الموروث والتّعصب الدّينيّ والتّعصب العنصريّ، وبعضه مرده إلى الزّهو والغرور والاعتداد بالانتماء إلى حضارة اليونان والرّومان وأوربا والسّوربون وهارفارد وأكسفورد والاستنكاف عن أن ينسب إلى الرّومانتيكيّة لا دعائه الانتساب إلى الكلاسيكيّة مَعَ أنّه غارق إلى أذنيه في الرّومانتيكيّة مدين لشاعرها وردزورث السّابق لَهُ في الأوان ولشاعرها والتردي لامير المعاصر لَهُ في الزّمان، وبعضه مرده إلى شخصيّته وبيئته كنشأته في أمريكيا وتحوّله إلى الجنسيّة البريطانيّة وتقلّب أهوائه في السّياسة والدّين، وأكثره مرده إلى طموح جامح طلب بملكه محدودة المدى إن يساوى ملتون وشكسبير ويحل كمثل محلها في عصره، معتمدًا في ذلك عَلى الكدّ والمكر والدّهاء كالّذي رأيت من كتمانه محاكاته لوردزورث ودي لامير وتغطية ذلك بضباب من الكلاسيكيّة والتّعليقات الأكاديميّة. وككتمانه أمر دَيْنِه لهما وإضرابه عن ذكرهما في النّص والتّعليقات. كذلك كتم أمر دَيْنِه للعربيّة وأضرب عن ذكره والإشارة إليه كل الإضراب.

ووجدت في كتاب برنارد برغونزي عن ت. س. «إليوت» في طبعته البريطانيّة الثّانية سنة ١٩٧٢ ص ١٤٣، راجع الكتاب واسمه بالإنجليزية:

T.S.Eliot by Bernard Begonzi

أشطارا هجاه بها أحد نقاده ونصّها كما يلي:

How UN pleasant to meet Mr. Eliot!
With his features of clerical cut,
And his brow so grim
And his mouth so prim
And his conversation, son nicely
Restricted to what precisely
And If and Perhaps and but.

وترجمتها عَلى وجه التّقريب:

ما أسمج لقاء المستر إليوت

بسمت تقاطيعه الإكليروسى

وبحاجبيه جدّ الكالح

وبفمه جدّ المتنطّس

وبمحادثته حقّ الحريصة عَلى أن

تتقيد بأمثال : ماذا تقول عَلى وجه التّحديد ، وأمثال : إذا كَانَ ويجوز ولكن.

ومع ما في هَذِه الأشطار من سخرية ومرارة فإنّ الصّورة الّتي تطالع القارئ منها غير بعيدة الصّفة والملامح جدًّا مما يطالع قارئ شعر «إليوت» من أثناء أسطاره وتعليقاته قبل أن يطلع عليها. وفِي الّذي قدّمنا ما عسى أن يشهد بصحّة ما نقوله فِي هَذَا الصّدد.

قال الشّاعر الجاهليّ أحد أصحاب المعلّقات، لبيد بن ربيعة العامريّ :

عفت الدّيار محلها ومقامها بمنى تأبد غولها ورجامها

وضعنا خطًّا تحت (عفت الديار) إذ لفتنا قوة الشّبه بين هَذَا التّعبير وبين عنوان «إليوت» لمنظومته The Waste Land أي الأرض الّتي جعلت عافية فأقوت وأقفرت وعفت وعفتها السّنون :

وغيّر الأيّام واللّيالي..

كما قَالَ ذو الرّمة.

فِي قاموس الدّكتور صمويل جونسون أنّ معنى Waste الصّفة المشتقّة من الفعل أولًا : يدلّ عَلى تعفية المكان وجعله قفرًا . وثانيًا ك يدل عَلى الخلوّ مثل خلوّ الصّحراء والبريّة الَّتي لا ديار فيها. وكلا المعنيين متضمن فِي عنوان «إليوت» The Waste Land أي الأرض الَّتي أقفرت أو الأرض المقفرة أو قل : عفت الدّيار.

ولإليوت بعد هَذَا العنوان عنوان ثان لفصله الأوّل هو:

The Burial of the Dead

أي: دفن الموتي.

هذا أيضًا لفت نظري عَلى بُعد فِي ذلك .

شعراء العرب تبدأ فِي باب الأطلال بذكر تعفية الدّيار ثمَّ تذكر أنّ الرّياح دفنتها بما أهالته عليها من غبار ثمَّ جاءت رياح أخرى فأزالت هَذَا الغبار فبدت معالم الدّار ظاهرة فيعرفها الشّاعر بعد تأمّل ، قَالَ امرؤ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يَعْف رسمها ... لما نسجتها من جنوبٍ وشَمْأل

وقال ذو الرّمة : وبائيته مما ترجمه الإفرنج ونشروه وحققوه :

من دمنة كشفت عنها الصّبا سفعًا ... كما تنشر بعد الطيّة الكتب

وقال لبيد بعد قوله: (عفت الدّيار) الَّذي معناه كمعنى عنوان اليوت The Waste Land

فمدافع الرّيان عري رسمها ... خلقًا كما ضمن الوحي سلامها

أي كانت مدفونة فَعرّتها الرّياح فَعرّتها السّيول فأظهرتها، وذلك قولة:

وجلا السّيول عن الطّلول كأنّها ... زبر تجدّ متونها أقلامها

وبعد تعفية الدّيار ودفن الرّياح لها ثمَّ كشفها لها من بعد وتعريتها لرسومها حتى بدت كالنّقش القديم عَلى حجارة آثار الأمم الماضية، بعد هَذَا يقول لبيد :

رزقت مرابيع النّجوم وصابها ... ودق الرّواعد جودها فرهامها

فعــلا فــروع الأبهقــان وأطفلــت ... بــالجلهتين ظباؤهـــا ونعامهـــا
والعـــين ســاكنة عَــلى أطلائهـــا ... عـــوذا تأجّـــل بالفضـــاء بهامهـــا
وجــلا السّـيول عــن الطّلــول كأنّهــا ... زبـــر تجـــد متونهـــا أقلامهـــا

وموضع استشهادنا هو البيت الأوّل الدّال عَلى أنّ مدافع الرّيان الّتي دفنتها الرّياح، وهذا المعنى متضمّن معروف، قد عريت فبدت ملمسًا عليها الآثار كالنّقوش، إما عرتها رياح معاكسة للتي دفنتها وإمّا عرتها السّيول.

وربّ قائل : أنّ المعاني مشتركة والعواطف الإنسانية الّتي تلابس المعاني متقاربة، وخواطر البشر كثيرًا، ما تتفق، ولذلك قديمًا ما قيل : قد يقع الخاطر عَلى الخاطر كما يقع الحافر عَلى الحافر، ويرد عَلى مثل هَذَا القائل بأنّ الصّياغات والأشكال البيانيّة والرّنّات المعبّرة المؤثرة هي الّتي يتفوق بها الشّعراء والكتّاب والخطباء ويتميزون عن غيرهم ، وهي الّتي يقع فيها التّقليد والأخذ والتّوليد والنّظر والإغارة والاختلاس. ولقد فطن إلى ذلك نقّاد العرب القدماء وخصصوا لَهُ الأبواب فِي تصانيفهم. ومما تعمقوا فِي الفطنة إليه والتّنبيه عليه أنّ الأخذ يكون فِي نوع الصّياغة كما يكون فِي المعاني. من ذلك مثلا ما ذكروه عن أبي عبادة البحتريّ أنّه سأل النّوبختيّ عن بيت أبي نوّاس :

ولم أدر مَــنْ هــم غــير مــا شــهدت بــه ... بشَرْقـــيّ ســـاباط الـــدّيار البســـابِسُ

وهو آخر أبياته السّينيّة الجميلة التى أولها:

ودارِ نـــدامي عطلوهـــا وأدْلجُـــوا ... بهـــا أثـــرٌ مـــنهم جديـــد ودارِسُ

أتدري من أين أخذ أبونوّاس قوله ؟ قَالَ النّوبختى . فقلت : لا . قَالَ من قول أبي خراش :

ولم أدْرِ مـــن ألْقَـــى عليـــه رداءَهُ ... ولكنّـــه قـــد سُـــلَّ عـــن ماجـــدٍ محـــضِ

قلت لَهُ : والمعنى مختلف ؟ قَالَ : أمّا ترى حذو الكلام واحداً؟ وأبو خراش من شعراء هذيل والبيت من قطعة يذكر فيها أبو خراش مقتل أخيه عروة ونجاة ابنه خراش ويمدح

رجلًا ألقى عَلى خراش رداءه ليجيره حتى نجا ، فلم يعرف هَـذَا الرّجـل فهذا مـراده مـن قوله : « ولم أدر من ألقى عليه رداءه » وفطن البحتريّ إلى أنّ أبا نوّاس حذا كلامه عَلى نهج كلام أبي خراش مَعَ اختلاف المعنى والموضوع . وقد كَانَ البحتريّ ناقدًا ثاقب النّظر (راجع الذّخيرة لابن بسّام ، دار الكتب مصر ١٩٣٩م القسم الأوّل ، المجلد الأوّل ص ٥٩-٦٠) .

ومن أمثلة حذو الكلام عَلى الكلام مَعَ شدة مراعاة الصّياغة عَلى تقارب المعاني قـول المعريّ يصف نار القرى:

حمراء ساطعة الذّوائب في الدّجي ترمي بكلّ شرارة كطراف

والطّراف : ضرب من بيوت البادية .

حذا المعريّ كلامه عَلى الآية : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات : ٣٢] وقد نبّه إلى هَذَا الزمخشرى في تفسير هَذِه الآية في الكشّاف.

ومن أمثلة الحذو بمراعاة الصّياغة مَعَ تباعد المعاني قول المتنبي:

فيا شوق ما أبقى ويا لي من النّوى ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى

وهو في نسيب قصيدته (فدينـاك مـن ربـع وإن زدتنـا كربـا) حـذاه عـل مـنهج لـيلى الأخيليّة في رثائها توبة بن الحمير حيث قالت :

فيا تَوْب للهيجا ويا توب للنّدى ويا تَوْبَ للمستنبح المُتَنَوِّر

اهتم أبو الطّيّب كما ترى بمحاكاة الإيقاع . (راجع التماسة عناوين الشّعراء ص ١٢٢).

وإنّما استطردنا هَـذَا الاستطراد للتنبيه عَلى أنّ الأخذ لا يقع في المعاني وحدها وأنّ التشابه والتّوافق وتوارد الخواطر في المعانى جائز ، أمّا الصّياغات وأشكال الأداء فأمرها مختلف ، ومتى وجدنا تشابها فيها وجب علينا أن نرجح أخذ المتأخّر في الزّمان عن المتقدّم وأن نجزم بذلك متى ما وجدنا ما يدل عَلى الصّلات والوسائط التى يكون بها الأخذ

وربّ حدس كترجيح وترجيح كجزم، والله تعالى أعلم.

ونحن إذا ذكرنا لبيدًا والأبيات الأوّليات من معلقته نريد التبيه عَلى حذو إليوت عَلى شكل القصيدة العربيّة بوجه عام وعلى أوّل معلقة لبيد بوجه خاص وكذلك حذاء عَلى نماذج من معلقة امرئ القيس- عَلى أنّه لا ينبغي أن ننسى غموض إليوت والتواءات أسلوبه ولا شيئيته ذات السّطح المتعمّق.

سياق معاني لبيد هكذا:

(١) تعفية الدّيار

The Waste Land

(٢) اندفان الرّسوم ثمَّ تعريتها حتى وضحت معالمها

The Burial of the Dead

(٣) هطول أمطار الرّبيع وما نشأ عنها من زيادة التّعفية

April is the cruelest month

جعلنا في مقابلة سياق لبيد بعض عناوين «إليوت» وابتداءاته. سياق وتأليف «إليوت» ينتهي بعد عنوانَيْه The Waste Land (الأرض المقفرة، الأرض التى عفت، عفت الدّيار) The Burial of the Dead (أي دفن الموتى وقد تقدّم كلامنا عنه)، بذكره الرّبيع وأمطاره كالذى صنعه لبيد في قوله:

رزقت مرابيع النّجوم وصابها ودق الرّواعد جودها فرهامها

قال «إليوت» بعد العنوانَيْن اللّذين يشبهان طريقة بدء قدمائنا بعفاء الدّيار واندفانها (انظر منظومته من السّطر ١ إلى ٨ ص ٢٧):

April is the cruelest month breeding
Lilacs out of the dead land , mixing
Memory and desire , stirring
Dull roots with spring rain.
Winter kept us warm, covering earth in forgeful snow, feeding
A little life with dried tubers. Summer surprised us....

نلفت النّظر أوّل شيء إلى لزوم «إليوت» في خمسة من أسطاره هَذِه نظامًا ذا شبه

بالقافية العربيّة وهو الصّيغة الصّرفيّة (انق) ing وقد جاء بسجعة تامة في breeding بريدنق - القاف مقاربة للكاف كنطقها في دارجتنا ودارجة كثير من البلاد العربيّة (فيدنق) feeding وكالتامة في stirring (ستيرنق) وفى covering (كفرنق) وترجمة كلام «إليوت» الّذى مر كما يلى عَلى وجه التّقريب :

أبريل أقسى الشّهور ، منبتًا .

زهرة ليلى من الأرض الميتة ، مازجًا .

الذّكرى بالشّهوة ، مثيرًا .

الجذور الفاترة بمطر الرّبيع .

كان الشّتاء قد حفظنا فِي دفء ، مغطيًا .

الأرض في الجليد النّاسي ، مطعمًا .

حياة قليلة بانابيش جافة .

فاجأنا الصّيف...

قول «إليوت» : أبريل أقسى الشّهور ... إلخ بعد تعفية الأرض The Waste Land وبعد دفن الموتى The Burial of the Dead يشبه قول لبيد :

رُزِقَــتْ مَرَابيــعَ النّجــوم وصــابها وَدَقُ الرواعــد جَوْدهــا فرهامهــا

الجود بفتح الجيم وسكون الواو : المطر الغزير والرّهام بكسر الرّاء وهاء مفتوحة بعدها ألفٌ ثمَّ ميم : جمع رهمة بكسر الرّاء وسكون الهاء ، وميم مفتوحة بعدها علامة التّأنيث التّاء المتحرّكة وهي الأمطار الخفاف اللّطيفة .

ترجمة هَذَا البيت كما ترجمه المستشرق الإنجليزيّ السّير وليم جونز:

The rainy constellations of spring have made their hills green and luxuriant
The drops from thunder clouds have drenched them with profuse as well as gentle showers.

مجمل معنى كلام لبيد أن أمطار نجوم الرّبيع هطلت عَلى هَذَا المكان المقفر فزادته

توحيشا لتعفيتها كلّ أثر ولخلوّه من الأحبّة ولحلول النّعام والبقر الوحشيّة وما أشبه فيه بعد عهدهم. هَذِه قساوة لا تخفى.

مع هَذَا علينا أن نتذكر أنّ السّير وليم جونز جاء في ترجمته بكلمة showers ومعناها رش المطر وهموله في قوله :

Profuse , as well as gentle showers

ليدل بذلك عَلى معنى المطر الغزير (الجَوْدُ) والأمطار الخفاف اللطاف(الرّهام) أو كما قَالَ لبيد : «وَدْقُ الرَّواعِدِ جَوْدُها فَرِهَامُها» .

قول وليم جونز هنا « showers » ينبغى أن يوقف عنده لأنّ هَذِه الكلمة كثيرًا ما ترتبط في الذّهن بالقول الإنجليزيّ المعروف الجاري مجرى المثل :

March winds, April showers,Bring fourth May flowers.

أي رياح مارس وأمطار أبريل .

تخرج بهن أزهار مايو .

(لا يخفى أنّ مارس هو آذار وأبريل نيسان ومايو آيار فمن شاء أن يضع ذلك مكان ما وضعناه فله أن يفعل) .

وأبريل بحبوحة أشهر الرّبيع فذكره يدل عليه. واستشهدنا بترجمة وليم جونز لنشير إلى أنّه لو صحّ أنّ «إليوت» اطلع عليها فإنّه يكون بنى قوله : « أبريل أقسى الشّهور» عَلى كلمة showers الواردة فيها. وقد سبق التّبيه منا عَلى أنّه قوله : « أبريل أُقسى الشّهور» بعد عنوانيه الدّالين عَلى العفاء والاندفان شبيه في سياق بسياق لبيد:

(١) عفت الدّيار محلها فمقامها.......

(٢) جلا السّيول عن الطّلول....

(٣) رزقت مرابيع النّجوم ...

ولا يقف الأمر عن هَذَا كما سيجيء من بعد إن شاء الله.

هنا نتساءل : هل أطلع «إليوت» حقًّا عَلى ترجمة السّير وليم جونز للمعلّقات ؟

كان السّير وليم جونز Sir William Jones (١٧٤٦-١٧٩٤م) من قدماء الاستشراق وجهابذته تعلّم في هافار وإكسفورد (التى قصدها «إليوت» وتعلم بها) وأتقن اللّغات الكلاسيكيّة (أي اليونانيّة القديمة واللاتينيّة) مَعَ الفرنسية ولغات أوربيّة معاصرة أخرى ، ودرس العربيّة والفارسيّة وكتب ملخصًا في نحوها وبعد درسه القضاء واشتغاله بالقانون عين قاضيًا بالمحكمة العليا بفورت وليم (كلكتا) بالهند وتعمّق في درس السّنسكريتيّة (لغة الهند القديمة) وكتب رسالة عن الشّعر الشّرقى باللّغة الفرنسيّة
Traite sur la poesie orientaie
طبعت أوّل مرّة بلندن سنة ١٧٧١ م وأعيد طبعها وأعاد كتابتها بلغته الإنجليزيّة أيضًا أشاد فيها بمكان الشّعر العربيّ ونبّه عَلى موضع معلقة لبيد وامرئ القيس ، واستشهد في ما استشهد بقول أبي تمّام :

إنّ القوافِي والمساعي لم تزل   مثل النّظام إذا أصاب فريدًا
هي جوهر نثر فإن ألفته   بالنظم صار قلائدًا وعقودًا

مترجما للبيتين من دون ذكر نصّهما العربيّ . وله مختارات من أشعار العرب والفرس وأمم الشّرق من ضمنه لاميّة المعريّ:

أعن وخد القلاص كشفت حالًا   ومن عند الظّلام طلبت مالًا

أوردها نموذجًا لشعر المدح الّذي أستشهد عَلى أهميته ببيتي أبي تمّام المتقدّمين. وكان أبو تمّام من أوائل من عرفه المستشرقون وطبعت حماسته في ألمانيا سنه ١٧٤٨ وترجمت باللّاتينيّة وقد تأثر جوتة الشّاعر الألماني في ترجمته للّامية المنسوة إلى تأبط شرًّا :

إنّ بالشّعب الّذى دون سلع   لقتيلًا دمه ما يطل

بترجمة فريتاغ اللّاتينيّة في ما زعمه المستشرق الإنجليزيّ السّير شارلس ليال. (انظر ترجمته لها وتعليقه ص ٥٠ من مختاراته المترجمه من الشّعر العربيّ القديم :
Translations Ancient Arabian Poetry
تأليف شارلس جيمس ليال Charles James Lyall الموظف ببنغال طبع لندن

١٨٨٥م) .

وترجمة السّير شارلس ليال هَذِه ذكر هو نفسه أنّه صنعها متأثرا بترجمةٍ ألمانيّةٍ للحماسة.

وقد ترجم السّير وليم جونز المعلّقات السّبع ترجمة حسنة ناصعة الأسلوب وجعل لكلّ معلّقة مقدّمة موجزة وافية تحدث فيها عن الوزن وما يقابله من أوزان الإنجليزيّة وعن طريقة أسلوب الشّاعر ومعانيه وتشبيهاته ومجازه وعناصر الوحدة في نظمه وأردف ذلك بكتابة بالحرف اللّاتينى بحسب النّطق لكلّ معلقة مبالغة منه في التّقريب. وقد تأثّر به واقتدى ليال في كتابه المشار إليه آنفا ونيكلسون في ترجماته الَّتي ضمنها تاريخه للأدب العربيّ . ولم يترجم ليال من المعلّقات غير آخر لامية امرئ القيس وغير ميمة زهير وكأنّه اكتفى في هَذَا المجال بعمل السّير وليم جونز لجودته. وترجمة السّير وليم جونز للمعلّقات في ٤٦ صفحة نشرت وطبعت بلندن سنه ١٧٧٢م وسنة ١٧٨٣م ومرات بعد ذلك وتوجد من ذلك نسخ في مكتبة المتحف البريطانيّ رأيتها ومن قبل اعتمدت عَلى نسخة صورت لى منها نسخة من رسالته عن الشّعر الشّرقي المشار إليها آنفًا ولا ريب في وجود نسخ من مؤلفاته بأكسفورد وسوى ذلك من خزانات الجياد ، وترجمة السّير وليم جونز المستشرق في الجزء الثّالث عشر من الموسوعة البريطانيّة ومكان اسمه في الفهارس عامر بما له من تصانيف ومن أهم تأليفه ترجمته للسّكونتالة وهي من مسرحيّات اللّغة الهنديّة القديمة وترجع الموسوعة البريطانيّة (ج١٣ ص ٢٤٤ طبعة ١٩٤٧ م) أن مؤلفها كالداسة Kalidasa من أدباء الهند القديمة عاش فِي المائة الميلاديّة الثالثة . وللسّير وليم جونز كتاب فِي الموازنة بين تشريع الملكية الخاصة عند المسلمين وعند الهندوس وغير ذلك مما هو أدخل في حدود فلسفة القانون وعلوم الاجتماع.

إذا تذكرتَ أيها القارئ الكريم أنّ «إليوت» كَانَ عَلى جوينب من الاستشراق إذ قد درس لغة الهند القديمة سنتين بهارفارد وفلسفة الهند مدى سنة وهو يعد للدّكتوراه ، ثمَّ عدل عن ذلك لما وجد فيه من العسر وقد قَالَ إن دراسته هَذِه ، معترفا بها أصاب فيها من

مشقة ، تركته في حيرة مستنيرة enlighted my stification (راجع كتاب برغونزي ص ٢٣) ومع ذلك كَانَ يزعم أنّه كَانَ يتذوق الشّعر السّنسكريتيّ وقد ترك في نفسه أثرًا عظيمًا. إذا تذكرت هَذَا وأضفت إليه صحبته لازرا باوند وتأثره به وكان هَذَا ذا ولع صادق فيه أو كاذب بلغة الصين وآدابها. وإذا أضفت أيضا أن «إليوت» اتّصل بجامعة التّصوريرين imagists– وكانوا يدعون إلى محاكاة أشعار الشّرق وأساليب أغاني العهد القديم العبرانيّة ، وزدت عَلى هَذَا أن «إليوت» نفسه قد ذكر أنّه كَانَ قرأ في صباه رباعيّات الخيام المترجمة وأعجب بها . (أحسب أن «إليوت» ذكر أن ذلك كَانَ منه في زمان الصّبا أنفة منه أن ينسب إلى الرّومانتيكيّة وهو صاحب كلاسيكية في زعمه وواقعية جادة ، ونذكر عَلى سبيل الاستطراد في هَذَا الصّدد مقال برتراند رسل Bartrand Russel في كتابه History of Western Philosophy تاريخ الفلسفة الغربيّة طبعة ١٩٧٤ ص ٦٥٤ حيث قَالَ عن الرومانتكيّين الألمان أنهم كانوا شبابًا في أوجّ شبابهم كَانَ أجود تعبيرهم عن الرّوح الرّومانتكيكيّ ، أما الذين لم يسعدهم الحظّ منهم بالموت في الشّباب كما قَالَ فقد طاحت فرديتهم إذ طغت عليها فغطتها الكثلكة بما تتطلبه من خضوع وتسليم. فهل كَانَ تراجع «إليوت» من مذهب أسرته وإبائه البيوريتانيّ– والبيوريتانيّة طرف من المذهب البروتستانتي– إلى محافظة الكثلكة الإنجليزية من دافع رومانتكي يا تري؟) – هَذَا وإذا تذكرت مَعَ ما تقدم أن «إليوت» أديب مثقف ناقد قارئ وذو دعوى في ذلك طويلة عريضة ، ألا ترجح معي حينئذ ألا يكون قد خفى عنه مكان السّير وليم جونز المستشرق في معرفته باللّغات الشّرقيّة والصّينيّة والسّنسكريتيّة وآدابها وفلسفة الهند القديمة مما زعم أنّه أُثر فيه وإن يك قد وجد فيه عسرًا وانصرف عن مواصلة درسه متحيرًا مستنيرًا كما زعم ، ولعل السّكونتالة مَعَ ترجمة وليم جونز كانت من مقرر الدّرس، وقد كانت رسالته الفرنسيّة وأختها الإنجليزيّة عن الشّعر الشّرقيّ معروفتين عند المستشرقين وقد ذكرنا أنّه نبه عَلى المعلّقات وعلى امرئ القيس ولبيد وقد دافع عن شعر

العـرب وقطـع بـأنّ الإفـرنج الأوائـل إنّـما أخـذوا القـوافي عـن عـرب الأنـدلس. أضف إلى هَذَا أن «إليوت» كَانَ معجبًا بالبريطانيّين وإمبراطوريتهم معتزا بـذلك ، وقـد ترك بلاده التى كانت تعد من بلاد الرّمز إلى الحريّة لثورتها عَلى الاستعمار في سنة ١٧٨١م ولاعلانها حقـوق الإنسـان ، وتجنس بالجنسيّة البريطانيّة وببريطانيّة أقام وإلى كنيستها الأنجلوكثوليكيّة انتمى.

ونذكر من باب الاستطراد أنّ «إليوت» كَانَ شديد الإعجاب بالشّاعر المعاصر لزمان شكسبير جون دون John Donne وكان غامض العبارة كثير الإشارة ملتوي عقد الأسلوب واسع الاطلاع عالما بالكوميديا الآلهية لدانتى في نصّها الأصيل من أسرة متطرفة في الكثلكة نشأ كاثوليكيا ثمَّ تحول إلى كنيسة إنجلترا الأنجلوكثوليكيّة وأخلص في خدمة الملك واتّهمه بعض نقاده بأنّه كَانَ في نفسه منطويًا عَلى شعور بالخيانة لعقيدته وتراث أسرته فذلك جر عليه كثيرًا مما أخذ به من عقد الأسلوب. وحمد النّقاد لجون دون أنّه قارب برنة نغمة الشّعرى رنات نبرات الكلام الّذي يدور في حديث النّاس. هَذَا الشّيء بالشّيء يذكر، فتأمل.

ونعود إلى ما كنا فيه فنقول لابدّ أن يكون «إليوت» قد اطلع عَلى مؤلفات السّير وليم جونز في شعراء فارس والصّين والهند وضروب تصانيفه في هَذَا الباب الشّرقيّ الفضّيّ الّذى كَانَ فيه من أعمدة أستاذية شارلس لامان وجيمز وورد Charles Lamman and James Wood أستاذى السّنسكريتيّة والفلسفة الهنديّة بهارفارد بلا ريب. وهل تظن أيّها القارئ الكريم أنّه إذا دعا واجب الدّرس «إليوت» الطّالب المعد للدّكتوراه أن يتحير ويستنير بشعر السّنسكريتيه – وهو أمر أقر بمعرفته وأدعي تذوّقه وسكونتالة جزء منه ومعرفة ترجمتها متممة لتذوقه– هل تظن أنّه إذا اطلع عَلى ذلك وعلى ما ترجم من أدب الفرس وكان إليه مائلا ولوليم جونز فيه من العمل ما قد قدمنا ذكره مَعَ اختياراته من شعراء الشرق ومن بينهم حافظ الشيرازى..... هل تظنّ أنّه إذا فعل ذلك سيتجاهل

كتاب وليم جونز الخفيف اللّطيف الوافي الّذي ترجم فيه المعلّقات ؟ هَـذَا مَـعَ العلـم بـأنّ السّـير ولـيم جـونز قـد نبـه في رسـالتيه الفرنسـيّة والإنجليزيّـة عـن مكـان شـعر المعلّقـات الرّفيع ؟

إنّ مكتبات الأقسام الشّرقيّة في جامعات أوربا كثيرًا ما تكـون في موضـع واحـد ، وكـثيرًا مـا تقـع بـين طلبـة لغـات الشّرق الـذين يختلفـون إليهـا ضروب مـن التّعـارف وتبـادل الآراء ويكونون أشبه بقبيلة فكريّة واحدة ، فيشتاق من يقرأ الهنديّة مثلا أن يقـرأ لمسـتشرق مشـهور كتب في آداب الفارسيّة أو التركيّة أو العربيّة مثلا أو كتب في باب من أبـواب الأدب المحـض ذى الطّـابع الشّرقـيّ القـويّ كالسّـير شـارلس دواتي Sir Charles Doughty في كتابه Arabia Deserta (أي الصّحراء العربيّة) ، ورديـارد كبلـنج Rudyard Kipling في قصته Kim (كِمْ) وغيرهـا وأشـعارها وكـان «إليـوت» بـه معجبـا وقـد عـاصره ولعلـه لقيـه وكان يقال لَـهُ شـاعر الإمبراطوريـه الكبـير ووصـفه «إليـوت» بأنّـه كَـانَ مـن كتـاب التّراتيـل الدّينيّة العظام فيما ذكره روبسون (ص ١٧) agreat human writer . وكان للمدرسـة الهنديّة البريطانيّة في المكتبة الشّرقيّة مكان مرموق وقـد قـدمنا ذكـر السّـير ولـيم جـونز وكـان فيها بمنزلة المؤسس وممن كَانَ ينتمى إليها من كبار المستشرقين السّير شارلس ليـال صـاحب ترجمة المختـارات التـى مـن ذكرهـا ومـن بينهـا شيء مـن المعلّقـات (زهـير وامـرى القـيس) وصاحب ترجمة المفضليّات والشّرح والتّعليق الـوافِي (إكسفورد ١٩١٨م) وراجـع للمزيـد في هَذَا الصّدد تاريخ كمبردج الصّغير لـلأدب الإنجليـزيّ الّـذي مـر ذكـره في الفصـل الّـذي جعله للأدب الهنديّ الإنجليزيّ من ص ٧٣٤ إلى ص ٧٤٤. وقد نشر مكـارتني عَـلى زمـان «إليوت» شعر ذي الرّمّة ، ولعلّه لقيه ، وقد تُرْجِمَتْ بائيّـة ذي الرّمّـة مـن قبـل . وقـد ترجمـت المعلّقات بالفرنسيّة وبانت سعاد وتُرْجِم بالألمانيّة شعرٌ عربيٌّ كثيرٌ وكـان «إليـوت» بالفرنسـيّة والألمانيّة وغيرها عالمًا وقد درس بألمانيا كما درس بباريس.

إذا صح مـا قـدّمناه مـن تعـارف أسرة مـن يعرفـون اللّغـات الشّرقيّـة وتقـارب أسـباب

قبيلتهم فكيف يكون الأمر إذا كَانَ أحد هؤلاء أديبا شاعرًا طموحًا موسوعيًّا ذا مقدرة ودهاء مثل «إليوت» وأصاب ضالة ناردة في موسوعيّ نارد مثل وليم جونز الّذي لّما وصل إلى الهند كَانَ مستشرقًا ناضجًا وزاد فيها نضجًا وفتح الطّريق لمن بعده؟

على أنّ الاستشراق في زمان «إليوت» في هَذَا القرن الميلاديّ العشرين إلى قريب من اواسطه قد صارت تغلب عليه سمة التّخصّص مكان الموسوعيّة فإذا أخذ «إليوت» مثلا من الأدب العربيّ وهو غير معروف بأنّه درس لغة العرب وآدابها ولكن معروف بأنّ درسه إنّما كَانَ للغة الهند القديمة، فمن سيفطن إلى أنّه أخذ من الأدب العربيّ القديم ثمَّ يتهمه بناء عَلى ذلك بالسّرقة من أدب العرب؟

بعيد جدًّا أن يتنبه أحد إلى أنّ السّير وليم جونز صاحب ترجمة السّكونتالة أو الشّاكونتالة Shakuntala (تاريخ كمبردج ٧٣٥) والمختارات من أشعار فارس والهند والصّين هو أيضا قد كَانَ طريقًا سريًّا خفيًّا سلكه «إليوت» إلى النّظر أو الأخذ أو الاختلاس أو السّرقة من أسلوب المعلّقات وشكل صياغتها ومعانيها وكتمان ذلك وإخفائه كلّ الإخفاء وحذفه كل الحذف كما قد حذف كلمة (العربيّة Arabian) وإشارته إلى وليم وردزورث وكلمة (جزيرة العرب Arabia) وإشارته إلى - والتردي لامير . نعود بعد هَذِه الفذلكة إلى ما كنا فيه من تتبع أسطار منظومة إليوت.

أوّل ما ذكره «إليوت» من شواهد قساوة أبريل لنباته زهرة ليلى وهي الَّتي يقال لها فِي الإنجليزيّة (ليلاك lilac) ونقل برغونزي (ص٥) أن الليلاك كَانَ كثيرًا في سياجات هارفاد النّباتيّة كأنه يشرح بذلك وروده في شعره. وذكر «إليوت» هَذِه الزّهرة الشّرقيّة الإسلاميّة المعدن في سياقه الَّذي يقرنها فيه بالذّكرى والجنس عجب : راجع قوله :

..., breeding
lilacs out of the dead land, mixing
memory and desire,...

والتّرجمة : منبتًا

زهرة ليلى من الأرض الميتة ، مازجًا الذّكرى بالشّهوة .

إذ قد كَانَ أشبه بأساليب لغته وحضارته لو قد ذكر الورد وكان من ضروب نواوير أوربا وبريطانيا وأمريكا- أم ليت شعري هل فر من رومانتيكيّة الورد وما بمجراه؟

فِي معجم أكسفورد فِي تخريج كلمة (ليلاكLilac) إنّ أصلها من (ليلك) العربيّة ولا وجود لهذا اللّفظ (ليلاك أو ليلك) فِي العربيّة اسمًا لهذه الزّهرة ، وأصل هَذَا التّخريج من المستشرق ر. دوزى R.Dozy (راجع المجلد الثّاني ص ٥٦٢ من معجمه طبعة باريس ولندن ١٩٧٢ واسم المعجم يدل عَلَى أنّه تكملة وملحق للمعاجم العربيّة :

Supplement aux Dictionairs Arabes.

ظن دوزي أنّ النّيلج بكسر النون هو الليلاك lilac مَعَ أنّه كَانَ يعلم أنّ النّيلج هو النّيلة الزّرقاء. وذكر الفيروز أبادي (النّيل) بلا تاء فِي آخرها فِي مادة (وسم) فِي تفسير لفظ الوسمة بفتح الواو وكسر السّين أو سكونها ميم مفتوحة فهاء التّأنيث قَالَ الفيروز أبادي : ورق النّيل أو نبات يخضب بورقه وأحسب أنّ الشّكّ جاء الفيروزابادي من أنّ لفظ العظلم الوارد فِي شعر عنترة يستخرج منه صبغ أسود أو النّيلة وقيل : هو صبغ أحمر وبيت عنترة هو قوله في معلّقته :

عهدي به مد النّهار كأنما   صبغ البنان ورأسه بالعظلم

وذكر الفيروزابادي (النيلج) بكسر النون فِي مادة (نلته) وذكر طريقة استخراج (النيلج) بمعنى (النيلة) من العظلم. جاء هنا بالنيلة مقرونة بالتاء المتحركة علامة التانيث وفِي شرحه لكلمة (الوسمة) ذكر النيل مثل اسم نهر النيل بلا تاء التأنيث. وكلمة (النيلج) بكسر النون غير عربية الأصل ولكن معربة مثل فالوذج ولزينج وهلمّ جرّا ومعنى النّيلج كما تقدم النّبات الّذي تستخرج منه النّيلة الزرقاء.

واضطرب شرّاح بيت عنترة واكتفِي السّير وليم جونز برسم لفظ العظلم نفسه بالحرف اللّاتيني من دون ترجمة لَهُ ، هكذا (idhlim) والرّاجح عندي أنّ عنترة أراد الزّرقة لا الحمرة يكني بذلك عن الموت وذهاب حمرة دم الحياة. وقد نقل عن الأزهريّ أنّه اختضب بالعظلم يسود به شعره فهذا يقوى ما ذكره الفيروزابادي وعليه تفسير التّبريزيّ فِي شرحه أنّ العظلم هو الوسمة ولم يزد عَلَى ذلك. عنى عنترة أنّ عهده به ، وقد قتله، وقد

صار لون رأسه كله ، والوجه من الرّأس، ولن أصابعه أزرق هامد أبعد أن كَانَ كل ذلك مشرقًا ناضرًا بالحياة. ولا يخلو عنترة فِي قوله هَذَا من بعض التعريض الساخر المر، كأن يقال مثلاً: « صار المسكين أسود مثلي أنا العبد بعد أن كَانَ حرًّا أبيض » : قَالَ تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : ٢٠] ، والله تعالى اعلم.

ليس (النّيلج) بكسر النّون هو الليلاك lilac هو زهرة ليلى الفارسيّة وقد يقال لَهُ فِي عربيّة اليوم زهر البنفسج وليس كله بنفسجيًا ولكن منه ذو اللّون البنفسجيّ وذو اللّون الأبيض. وفِي معجم أكسفورد ومعجم وبستر أنّ الشّبه المتوهم بين اللّون الأرزق واللّون البنفسجيّ هو مما جعل اسم « ليلاك» lilac يطلق عَلى الزّهرة المسماة باسمه اشتقاقًا من كلمة (النّيلج الدّالة عَلى اللّون الأزرق وهذا أصله من دوزي وهو بعيد وليس بشيء. وفِي معجم لاروس الفرنسيّ أنّ أصل " اللّيلاك " من بلاد الشّرق الأوسط وأنّه يزرع من أجل نواويره البيض والبنفسجيّات وذكر لاروس أنّه من أسرة olecees (أولياسيه) الّتي منها الياسمين والزّيتون.

ويظهر أن هَذِه الكلمة الفرنسيّة olecees (أولياسيه) نفسها قد حرفت من الفارسيّة (جل ياس) تنطقها كالجيم المصريّة بين الكاف والقاف وتكتب بالكاف المعقودة (كل ياس) . على أن أصل olecees لاتيني في مدلولها العام .

و(جل ياس) أصلها من (جل ليلى) أو (كل ليلى) أي وردة ليلى أو زهرة ليلى ثمّ شبهوها بالياسمين فقالوا : (جل ياس) أو (كلّ ياس) بالكاف المعقودة كما ذكرنا من قبل.

ونبئت أن (جل) بالجيم التى كالكاف معناها بالفارسيّة الورد وهي أصل الجلّ بفتح الجيم وضمها الواردة فِي شعر الأعشى:

وشاهدنا الجلّ والياسمون والمسمعات بقصابها

قال الفيروزابادي :- (وبالضّمّ ويفتح الياسمين والورد أبيضه وأحمره وأصفره) ومن

(جل ياس) أخذت كلمة oleacees الفرنسيّة ومنها أخذت الكلمة الدّالة عَلى هَذَا الزّهر فِي الفرنسيّة الآن وهي : ليلا بكسر اللازم بعدها ياء فلام ألف (Lilas) راجع لاروس الكبير طبعه ١٩١٥م المجلّد ٤ ص ٣٠٥٣ والمجلّد ٥ ص ٣٧٦٠. وراجع أيضًا المعجم الفارسيّ المتوسط لمحمّد معين طبعة طهران ١٩٧٥ ص ٥٢٤٣ فِي المجلد الرّابع وقد اطلعت عليه واستعنت بمن يعرف الفارسيّة ومنه أفدت ما تقدّم وذكر كلمة (ليلك) وهي ذات مدلول مختلف فِي المجلّد ٣ فِي ص ٣٦٧٠.

وقد ذكر لين Lane في معجمه العربيّ الإنجليزيّ أنّ الجلّ من أصل فارسيّ وأصاب (طبعة بيروت المصورة ١٩٨٠م ٢ص ٤٣٧) والعجب لبادجر Badger فِي معجمه العربيّ الإنجليزيّ تصوير بيروت ١٩٨٠م ص ٥٧٦) إذ ترجم : (ليلاك (lilac بـ (لعلى) وهى لفظ لا وجود له.

هذا ،

وبعد أن انتهى إليوت من نعت قساوة إبريل منبتًا زهرة ليلى ، مازجًا الذّكرى بالشّهوة، انتقل إلى ذكر الصّيف وذلك قوله:

Summer surprised us…

ومعناها : فاجأنا الصّيف ...

تأمّل شدة الشّبه بين قول لبيد:

رزقت مرابيع النّجوم ... (البيت)

فعلا فروع الأيهقان ... (البيت)

وبين قول إليوت جاء الرّبيع منبتًا زهرة ليلى ... إلخ . تأمّل الشّبه فِي السّياق والصّياغة بين قول لبيد (فعلا فروع الأيهقان بعد ذكره مطر الرّبيع وبين قول إليوت منبتًا زهرة ليلى (اللّيلاك) بعد نعته مطر الرّبيع الّذي أبريل رمز له.. منبتًا زهرة ليلى.. أي فعلت أغصان (اللّيلاك) كما علت فروع أيهقان لبيد. الأيهقان عربي و «الليلك» فارسيّ . محاكاة نهج لبيد الّذي أطلع عليه فِي ترجمة وليم جونز لا تخفى.

فعـــلا فـــروع الأيهقـــان وأطفلـــت بـــالجلهتين ظباؤهـــا ونعامهـــا

جاءت الظّباء والنّعام في مكان الحبيبة والظّبية تشبه بها الحبيبة. ههنا مجال للذّكريات واتصال معنى ولادة الظّباء أطفالها وأفراخ النّعام بالشّهوة غير خافٍ ، ومن هنا أخذ إليوت مزجه الذّكرى بالشّهوة. ثمَّ انتقل من بعد إلى ذكر الصّيف وذلك قوله :

Summer surprised us.......

ومعناها : فاجأنا الصّيف ...

ثم انتقل بعد مفاجأة الصّيف لَهُ إلى ذكر (محبوبة) التجأ معها من مفاجأة مطر الصّيف إلى بناء ذي صف من أعمدة ثمَّ خرجا إلى ضوء الشّمس ثمَّ إلى الحديقة.

ولبيد بن ربيعة العامريّ صاحب المعلّقة يخرج من نعت القفر إلى مرابيع النّجوم أو كما قَالَ السّير وليم جونز فِي ترجمته :

...profuse, as well as gentle showers

ثم يخرج من ذلك إلى إنبات الأيهقان، وهو من نبات البادية قيل هو الجرجير البريّ، الّذي علت فروعه ، ثمَّ إلى الوحش الّذي خلف الأحباب عَلى الدّيار وجعل بحيوية الرّبيع يطفل ويفرخ. ثمَّ يتذكر لبيد الحبيبة ويقسو عليها وعلى نفسه حين يعتلج فِي صدره أمر انصرام عهودها وتبدد زمان وصلها:

بـلِ مـا تـذكر مـن نـوار وقـد نـأت وتقطعـــت أســـبابها ورمامهـــا

يقول السّير وليم جونز في مقدمته لقصيدة لبيد : إنّ أبياتها الخمسة عشر الأولى من روائع التّصوير، يعذل الشّاعر فِي آخرها نفسه عَلى هواه الضّائع سدى عند امرأة لا تستجيب ، فيدعوه ذلك إلى أن يفر من الهوى إلى الرّاحلة ، ثـمَّ يعود إلى ذكر محبوبته نوار بعد نعت الرّحلة برجوع فيه نوع من قلّة الاهتمام بدلًا لها. هَذَا ملخص كلام السّير وليم جونز في مقدمته. ا. هـ.

ليت شعري هل مجرد توافق خواطر شبه:

١- قول «إليوت» فِي عنوانه The Waste Land يقول لبيد (عفت الدّيار ...إلخ).

٢- وقول «إليوت» فِي عنوانه The Burial of the Dead بطريقة الشّعراء العرب ومنهم لبيد بان الدّيار تندفن وتكشف آثارها الرّياح والسّيول (عرى رسمها) و (جلا السّيول عن الطّلول).

٣- وذكر «إليوت» أمطار إبريل وقساوته وشبه ذلك بقول لبيد (رزقت مرابيع النّجوم ...إلخ).

٤- وقول «إليوت» بإنبات زهور ليلى Lilacs وخلط الذّكريات بالشّهوات وشبه ذلك كما قدمنا بقول لبيد : «فعلا فروع الأيهقان إلخ».

٥- وانصراف «إليوت» عن مطر الرّبيع إلى مطر الصّيف حيث قَالَ : «فاجأنا الصّيف»- هل هَذَا أيضًا مجرّد توافق خواطر؟

٦- وتذكر إليوت للحبيبة بعد إذ ساقاها القهوة وتقطعت أسبابها ورمامها.. راجع الأسطر ٨-٩-١٠-١١+١٢).. هل هَذَا أيضًا مجرد توافق خواطر؟

وقد ركب لبيد ناقته بعد تصرم أسباب نوار وشبهها بحمار وحشيّ وذكر الصّيف وحره...

.... وتهيجت ريح المصايف سمومها وسهامها

أي : أعاصيرها وسمائمها.

٧- أم هل مجرّد توافق خواطر قول «إليوت» فِي س ٢٣ ص ٢٧.

And the dead tree gives no shelter

أي : والشّجرة الميتة لا تعطي مأوى.

مع شدة شبهه بقول لبيد فِي وصفه للبقر الوحشيّة الّتي أصابت السّباع ولدها. وأحاطت بها المخاوف بعد ترددها تبحث عنه وتناديه بنوح وبغام ، ولفتها بين الرّمال ليلة ذات برق ومطر وأهوال :

تجتاف أصلًا قالصًا متنبذًا بعجوب أنقاء يميل هيامها

أي : تلتمس بقرنيها جوف أصل شجرة قديم فِي قعر كثبان من الرّمل منهالة ، وترجمة

وليم جونز:

She shelters herself under the root of a tree

٨- أم ليت شعري- بعد الَّذي لم نشك فيه من كتمان «إليوت» مصادر أخذه من العربيّة – هل مجرد توافق خواطر ذكر إليوت لمفاجأة الصيف:

Summer surprised us...

وأن الشّتاء أدفأنا

Winter Kept us warm ....

يمدح بذلك الشّتاء ؟

هل أطلع إليوت عَلى ترجمة ما لبعض شعر أبي تمّام ، فقد عاش فِي زمان كَانَ فيه الاستشراق العربيّ بين أكسفورد وكمبردج ولندن وباريس وألمانيا ضاربًا بجران وكان لأبي تمّام صاحب الحماسة فِي ذلك مكان مرموق- قَالَ عنه ليال فِي مقدمة اختياراته:

..... I....and was himself a distinguished poet

أي وكان هو نفسه شاعرًا ممتازًا

هل أطلع إليوت عَلى ترجمة لقصيدة أبي تمام فِي وصف الربيع الَّتي أولها:

رقت وجوه الدّهر فهي تمرمر وغدا الثّرى فِي حليه يتكسر؟

وفيها قوله:

جاءت مقدمة المصيف حميدة

أو فاجأنا الصيف summer surprise us

ويد الشّتاء جديدة لا تنكر Winter kept us warm

شكرا للشّتاء...

لولا الَّذي صاغ الشّتاء بكفه قاسي المصيف هشائما لا تثمر

شكرًا للشّتاء- ولأبي تمّام الَّذي مدح الشّتاء خلافًا للشّعراء الذين كانوا يذمونه كقول الآخر:

إذا غبر آفاق الّسماء... إلخ

تأثر إليوت بالمعلقات

لقد أفاد إليوت من الشّعر العربيّ إما من قراءة تراجم لَهُ وإما من مشافهة معاصرين لَهُ عارفين به.

وقد أفاد من إطلاعه عَلى ترجمة السّير وليم جونز لا لمعلقة لبيد وحدها ولكن لسائر المعلّقات، خذ مثلًا الأسطر ١٩-٢٤ من ص ٢٧ وهي أولي صفحات المنظومة فِي الطّبعة الَّتي رجعنا إليها:

What are the roots that clutch.
What branches grow
Out of this stony rabbish?
Son of man,
You cannot say, or guess.
For you know only
A heap of broken images,
Where the sun beats,
And the dead tree gives no
Shelter, the cricket no relief,
And the dry stone no sound of water...

التّرجمة عَلى وجه التّقريب :

ما الجذور الَّتي تمسك ؟ ما الأغصان الَّتي تنمو
من هَذِه القمامة الحجريّة ؟ يا بن آدم
إنك لا تستطيع أن تقول بيقين أو ظن لأنّك إنّما تعلم
كومة من ظلال متكسرة ، حيث الشّمس تصك
وحيث الشّجرة الميّتة لا تعطي مأوى ، ولا الصرصور راحة
ولا الحجر اليابس صوت ماء....

أحالنا إليوت عَلى سِفر حزقيل أوّل الإصحاح الثّاني بالنّسبة إلى سطره (الثّاني أعلاه) ٢٠ ليؤكد أنّ مراده من قوله (Son of man : أي يا ابن آدم أو يأيّها الإنسان) هو معناها الَّذي فِي العهد القديم لا معنى «ابن الإنسان» الَّذي عند النّصارى . ولا شيء

يمنع ملابسة هَذَا المعني المسيحيّ لكلامه هو لأنّه هو مسيحيّ الدّيانة لن يخلو منه بحال من القصد إليه وليس تأكيده الَّذي زعم بملزم استبعاده أحدًا.

وهذه الإحالة لما هو ظاهر من عدم الحاجة إليها لا تخلو من تعمية ما وتضليل. وكاد السّارق يقول خذوني مرات . ذلك بأنّه فِي سفر حزقيل فِي الإصحاح نفسه بعد رقم (١) الَّذي فيه son of man ورد في رقم ٢، ٣، ٤ ذكر تمرد بني إسرائيل وقسوة قلوبهم ، وهذا وارد فِي قول «إليوت» متضامنا لمعناه فِي :

And the dry stone no sound of water

أي : « ولا الحجر اليابس صوت ماء » أبو القلوب قاسية كهذا الحجر اليابس.

لكنّ هَذَا التّشبيه وهذه العبارة نفسها لم ترد بهذا اللّفظ وهذا البيان التّصويريّ في سِفر حزقيل الَّذي أحالنا عليه تعمية وتضليلًا فيما نرجح ، إذ لا ريب أنّه أخذها من القرءان — وتراجمه كثيرات — لأنّها بعينها واردة فِي خبر تمرد بني إسرائيل : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾ [البقرة :٧٤] . ولكن هل يعقل في «إليوت» الكتوم لذكر وردزورث ودي لامير وظلال جزيرة العرب The Shades of Arabia وما أشبه أن يخطئ فيحيلنا عَلى القرءان؟ أليس ذكره سِفر حزقيل في إحالاته ههنا شبيهًا فِي طريقة الاستبدال بما صنعه من جعل جدران كنيسة ماغنس مارتر فِي مكان ظلال جزيرة العرب؟

وبالنّسبة إلى الأسطر ١٩-٢٤ (انظر ما تقدم) أحالنا «إليوت» فِي تعلقيقاته عَلى السّطر ٢٣ وهو الخامس فِي ما ذكرنا لننظر في سفر (الجامعة) من العهد القديم وهو الَّذي يقال لَهُ (الواعظ) أو The Preacher بالانجليزية وأيضا يقال لَهُ Ecckesiastes رقم ٥ من الإصحاح ١٢ من أجل توضيح مراده من الكلمة Cricket أي الصّرصور الواردة فِي النّص المتقدم . وكلمة cricket أي الصّرصور غير واردة فِي نص سفر الجامعة ابن داود والذى أحالنا عليه ولكن وردت كلمة grass-hopper أي الجندب وإنّما أحالنا «إليوت» عَلى سفر الجامعة تعمية وتضليلًا .

وقد وجدت من نقّاد «إليوت» البروفسور روبسون يقول بمثل ما نقول به من عمده إلى التّعمية في تعليقاته إذ ذكر بمعرض حديثه عن الأرض المقفرة في كتابه عن الأدب الإنجليزيّ الحديث، وسبقت الإشارة إليه فِي ص ١١٢، إن «إليوت» أضاف تعليقات أحيانا هي غامضة غموض الأسطار الَّتي يراد بها شرحها:

.. Later Eliot added notes sometimes as cryptic as they purport to elucidate...

ومن تعليقات «إليوت» المضللة، والشّيء بالشّيء يذكر، نورد ذلك عَلى سبيل المثال، أحالته بالنّسبة إلى سطره رقم ٦٣ عَلى جحيم دانتي وإنّما خطف خطفا من مسرحيّة ماكبيث لشكسبير من قول مشهور وهو مقال امرأة ماكبيث فِي الفصل الخامس فِي حديث هذيانها: «من كَانَ يظن أنّ هَذَا الرّجل العجوز دمه كثير هكذا؟» ويجوز أن يكون شكسبير رمق دانتي وأخذ من هناك وأنّ «إليوت» نظر إلى دانتي كما نظر إلى شكسبير إلّا أنّه حذا عَلى صياغة هَذَا ونحو ما يجرى هَذَا المجرى هو ما سماه أبو تمّام السّرق (بفتح السّين والراء) المورى بضمّ الميم وفتح الواو وراء مشددة مفتوحة بعدها ألف لينة — قَالَ يمدح شعره:

إليك بعثت أبكار القوافي	يليها سائق عجل وحادي
شداد الأسر سالمة النّواحي	من الأقواء فيها والسّناد
منزهة عن السرق المورى	مكرمة عن المعني المعاد

الأقواء والسّناد من عيوب القافية كما لا يخفى

وقد أحكم نقاد العرب باب السّرقات إحكامًا وأبوابًا غيره من النّقد كثيرات.

هذا والصّرصور cricket شيء غير الجندب grass-hopper وظاهر مراد «إليوت» في احالته عَلى سفر «الجامعة» أن يشعر القارئ مثلًا بأنه استبدل كلمة grass-hopper أي الجندب بكلمة cricket أي صرصور لداع دقيق من دواعي البيان والصّناعة الشّعرية. هنا مكان التّعمية والتّضليل والغموض. وليس بين النّص الوارد فِي

سفر الجامعة والّذي وردت فيه كلمة الجندب grass-hopper أدنى صلة معنوية بكلام «إليوت» فِي الأسطر ٢٢-٢٣:

...where the sun beats
And the dead tree gives no shelter, the cricket no relief

أي... حيث تَصُكُّ الشّمس.

وحيث الشّجرة الميتة لا تعطي مأوى، ولا الصّرصور راحة، ونصّ كلام الجامعة الّذي ورد فيه ذكر الجندب كما يلي (دار الكتاب المقدّس، العهد القديم).

وأيضًا يخافون من العالي، وفِي الطّريق أهوال، واللّوز يزهر، والجندب يستثقل، والشّهوة تبطل، لأنّ الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدي والنّادبون يطوفون فِي السّوق. ا. هـ.

Also when they shall be afraid of that which is high, and fears shall be in the way, and the almond tree shall flourish, and the grass-hopper shall be in the burden, and desire shall fail: beacuase man goeth of his long home, and the mourners go about the streets. (Ecclesiastes Chapter, ٥-١٢)

مجمل المعني أنّه فِي زمن اكتساء شجرة اللّوز بأزهاره البيض الحسّان وهو زمن الرّبيع حين تزداد الحيوية والنّشاط وتدب فِي النّفوس، فِي هَذَا الزّمن حين يقترب الموت من الإنسان تذهب لاقترابه كل حيويّة وكل روح ونشاط حتى أنّ الجندب الصّغير الجسم الخفيف الوزن ليستثقل المرء وزنه ثمَّ يحمل المرء إلى القبر ويطوف نادبوه ينوحون. اليوت لا يشير إلى الحيّز الّذي يستثقل فيه الإنسان وزن حشرة صغيرة لأنّ الموت الّذي اقترب منه يجعل كلّ شيء ثقيلا، فلماذا يحيلنا عَلى سفر الجامعة ابن داود؟ نعم، الصّناعة الشّعرية — صناعة « السّرق الموري» ، ورحم الله أبا تمّام — هي الّتي دفعت «إليوت» إلى استعمال cricket أي الصّرصور مكان grass-hopper أي الجندب في نصّ الكتاب المقدس في العهد القديم فذلك أدعي لَهُ لأن يذكرها لا أن يتفاداها، ولكن لأنّ الجندب فِي شعر العرب ومن هناك أخذها. الجندب حشرة نهارية والصّرصور حشرة ليليّة تاوي إلى مواقد البيوت ذوات المواقد (فِي أوربا مثلًا) نهارا لظلامها ودفئها ولا تنفك تصرصر

ولا تكف ... gives no relief .

وكلا الجندب والصّرصور حشرة مصوتة وثابة Jumping, Chirping كما يقول المعجم الإنجليزيّ ، ومراد «إليوت» واضح وهو استمرار الصّرصور يصيح بلا انقطاع .

والضّرورة الشّعرية الّتي دعته إلى ذكر الصّرصور مكان الجندب cricket) مكان grass- hopper) هو أنّه ذكر الشّمس وحراراتها وذلك قوله where the sun beat أي حيث الشّمس تصك .

وليس الصّرصور cricket بأخي الشّمس ولا موقده الّذي يأوى إليه نهارًا وهو مظلم دافِي ، بوهج الشّمس الملتهب الّذي تتكسر منه أكوام الظّلال.

أخذ «إليوت» فكرة الصّرصور لا من سفر الجامعة ابن داود ولكن من جندب أشعار العرب. حشرة سفر الجامعة ابن داود خفيفة الوزن وثابتة بين أزهار اللّوز، لا مزعجة صاخبة في حر الهجير حيث تصك الشّمس وتتكسر الظّلال. قَالَ كعب بن زهير فِي بانت سعاد وهي مما ترجم:

وقال للقوم حاديهم وقد جعلت   ورق الجنادب يركضن الحصى قيلوا

جعلت الجنادب تركض الحصى بحثًا عن الظّل ، عندئذ قَالَ الحادي للرّكب الآن وجب المقيل.

وقال ذو الرّمّة ، ونشر ديوانه بكمبردج سنة ١٩١٩م وترجمت بائيته من قبل ، ولعل «إليوت» أن يكون قد لقى مكارتني الّذي حقق الدّيوان ، وقد نبّه شارلس ليال عَلى منزلة ذي الرّمّة فِي ذيل ص xxxlll من مقدمة مختاراته قائلا :

Dhu- r-rummah was the last really great representative of desert song...

أي كَانَ ذو الرّمّة حقًّا آخر شعراء الصّحراء العظام – أو آخر ممثل لعظام المتغنين بالصّحراء قلت وفِي هَذَا نظر وأبو عمرو بن العلاء عندنا أصح بصرًا بالشّعر من شارلس ليال عَلى حسن اجتهاده ورأيه فِي ذى الرّمّة معروف إذ جعله شاعرًا من المحدثين وهو في

الحقيقة لهم رائد ، وما نشك أن «إليوت» أطلع عَلى ترجمة ليال في اختياراته ومقدمتها وأفاد من ذلك في معرفة طريقة نظم الشّعر العربيّ ، فِي زمان كَانَ فيه شعراء أوربا والإنجليز خاصة يريدون التّجديد ويطلبونه من طريق الأخذ عن أمم الشّرق أشد طلب. وقد ذكرنا من قبل أن شارلس ليال نشر اختياراته سنه ١٨٨٥م وكان موظفًا بالهند ومن قبل سبق لَهُ نشر بعضها في مجلة بنغال ثمَّ إنه فس سنة ١٩١٨م نشر ترجمته للمفضليّات مَعَ تعليقاته النّاضجة النّفيسة وقد حقق شرح ابن الأنباريّ للمفضليات كما هو معروف . وسنعرض إن شاء الله من بعد لما نرى أنّ «إليوت» أخذ من ليال في المقدمة التى ذكرناها. قال ذو الرّمّة يصف الجندب :

معروريًا رمض الرضراض يركضة ... والشّمش حيرى لها بالجو تدويم

البيت مشهور وقيل فيه أنّه أكثر رمضًا من رمال يبرين لتكراره الرّاء والضّاد وهذا يسمى الآن الجناس الدّاخلى وهو فن فِي العربيّة قديم . وبيت ذي الرّمّة هَذَا يحتوي عَلى معني ظلال «إليوت» المتكسّرة وشمسه الّتي تصك :

Where the Sun beats

والشّمس حيرى لها بالجو تدويم

وتأمل (رمض الرّضراض) مَعَ قوله (يركضه) لأنّ الجندب يطلب المأوى فِي بقية الظّل المتكسر فِي رمض الرّضراض.

وأخذ ذو الرّمّة من كعب بن زهير قوله : «يركضه» لأنّها من قول كعب:

.... وقد جعلت ... ورق الجنادب يركضن الحصى

ومن كليهما أفاد من أفاد

.......for you know only

هذا وفي قول «إليوت» :

A heap of broken images

أي : إنّما تعلم – كومة من ظلال متكسّرة....

فيه نوع من السّخرية بأساليب الشّعراء إذ كلمة image كما تدل عَلى الظّل تدلُّ أيضًا عَلى الصّورة البيانيّة من تشبيه واستعارة وما أشبه وفيه صدىً من وردزورث ودي لامير كليهما وتأثر بمقدّمة وليم جونز لمعلقة لبيد حيث ذكر أوصافه وتشبيهاته وزعم أنّها مثل التّشبيهات الطّويلة الَّتي ترد فِي الشّعر الكلاسيكي (أي اليونانيّ واللّاتينيّ).

هذا ، وزيادة عَلى ما تقدّم ، واعتماد عَلى ما هو نازل عندنا منزلة الدّليل القاطع من قوة الملابسات الَّتي تشهد باطلاع «إليوت» عَلى عمل السّير وليم جونز ، وطريقته في الإخفاء والكتمان نرجح أنّ «إليوت» أطلع عَلى كثير مما ترجم من أدب العرب وعلى ما كتبه كبارالمستشرقين بالإنجليزيّة ، عَلى أقل تقدير وعلى ما كتبه السّير شارلس ليال مما يدل عَلى فهم عميق لطريقة الوحدة والانسجام عند شعراء العرب القدماء مثلا تعليقه عَلى بائية سلامة بن جندل ولاميّة بشامة بن الغدير وعينية سويد بن أبي كاهل وطويلتي علقمة بن عبدة ، ومما يحسن ذكره ههنا أن بعض من كتبوا عن شعراء المفضليّات من فضلائنا أخذوا عنه ولم يشيروا إليه ومنهم من تابعه أخذًا غير معترف فِي الخطأ وفِي الصّواب وهذا باب ربّما اتيح لنا بعض تفصيله فِي موضع غير هَذَا مما يناسبه. وإنّما دعا إليه أنّ الشّيء بالشّيء يذكر ، وكما يقول سيبويه ، ربَّ شيء كهذا.

ولا شك أن «إليوت» قد اطلع عَلى شيء من مقدمة ليال لمختاراته (طبعة ١٨٨٥م) إذ كَانَ ذا استشراق ومن عصبة نجباء الحكومة البريطانيّة بالهند إحدى مراكز البحر الشّرقيّ الكبرى وقد وصف ليال القصيدة العربيّة القديمة بأنّ شكلها لا يمكن أن يوصف بما عليه أوصاف الأشكال فِي شعر أوروبا وأنّه عسى أن يكون أُرب الأمور به شبهًا ما كَانَ اليونان يسمونه بالقطعة الوصفيّة أو الإخبارية iayll وأنّها تعرض علينا صورًا متتابعة ماخوذة اخذا مباشرة من التّجارب والواقع مصوعة بمهارة وأحكام يربط بينها عنصر من الوحدة الَّتي لا تبدو وثيقة واضحة ولكن تخضع لروح من الشّاعر يهيمن عليها بكشف ما يشتمل عليه ضمير شيئًا بعد شيء (راجع ص xvlll) .

مما أخذه «إليوت» من المعلّقات سوى الّذي ألمعنا إليه من محاكاة لبيد أنّه حاكى طريقة النّظم فيها ونظر في ذلك نظرًا شديدًا إلى المعلقة الأولى ، الّتي ينبغي أن يكون حين بدأ بالقراءة قد بدأ بها.

عول «إليوت» في نظم أرضه القفر عَلى اتباع طريقة صياغة امرئ القيس حيث بنى تآليف لاميته المعلقة عَلى وحدة مستمدة من الرّبط العاطفي الإيقاعيّ وتداعى المعاني المنبعثة من حل عقد خيط الذّكريات (أو كشف ما اشتمل عليه ضميره شيئًا بعد شيء أو كما قَالَ شارلس ليال The Poet's unfolding of himself ص xvlll) من حل عقد خيط الذّكريات عقدة بعد عقدة ، من الوقوف والاستيقاف إلى ذكر أمّ الرّباب وأمّ الحويرث- دارة جلجل- نحر النّاقة - خدرة عنيزة- حديث الحب- حديث الجمال - اللّيل- الصّعلكة - الفروسية والصّيد وزمان الشّباب- ذكريات الطفولة - المطر والسيل وانمحى كلّ شيء إلا منظر ثبير وصوت الطّير - والسّباع الغرقيّ - كلّ ذلك في تجاوب مذهل من الإيقاع والصّور وضروب الموسيقى الظّاهرة والباطنة.

من حيث لا يحتسب يدلّنا «إليوت» عَلى أخذه من معلقة امرئ القيس في السّطرين ٧ و ٨ من أرضه البلاقع أي المقفرة وقد مرا أوّل كلامنا ، واخترنا لفظ الأنابيش في ترجمتنا لقوله tubers لأنّه الأصل الّذي ترجح أنّه أخذ منه قوله:

....feeding
A little life with dried tubers

أي :

.... مطعـــما حيـــاة قليلـــة بأنـــابيش جافـــة

ونشير ههنا إلى قول امرئ القيس في المعلّقة:

كـــأن السّـــباع فيـــه غرقـــى عشـــية بأرجائـــه القصـــوى أنـــابيش عنصـــل

العنصل بضم العين وسكون النّون وضم الصّاد هو البصل البريّ والأنابيش ما ينبشه الصّبيان من عروق ونحو ذلك . التّبريزيّ : " الأنابيش جماعات من العنصل يجمعها

الصّبيان ويقال الأنابيش العنصل والعنصل بصل بري .ا.هـ (راجع شرح التّبريزيّ للمعلّقات العشر وطبعاته كثيرة). وترجمة السّير وليم جونز:

The beasts of the wood drowned in the floods of the night, float like the roots of wild onions.

وراجع ترجمة ليال لهذا البيت فِي ص ١٠٤ حيث قَالَ :

Like earth ostained roots of squills.

الاصطلاح الإنجليزيّ لما ينمو من البنات كالبصل ينتفخ أصله الملامس بجذوره للتّراب ولما ينمو كالبطاطس بانتفاخ جزء السّاق الملامس للتّراب هو tuber واستعمل «إليوت» اللّفظ الدّال عَلى النّوع الثّاني فيبدو أولًا أنّ هَذَا بعيد من أن يكون مأخوذًا من عبارة السّير وليم جونز).

The roots of the wild onions

أي عروق البصل البريّ) التى ترجم بها (أنابيش عنصل) . وترجمة ليال غير بعيدة من هَذَا . وأخذ «إليوت» قوله المتقدم من (أنابيش عنصل) هذه. وقد أبت فكرة صورة الجثث الَّتي غرقت وبدت أطرافها من مثوارب وآذان وأذناب كأطراف أنابيش العنصل أن تفارق «إليوت» فنمت بنفسها فِي اسطاره ٧٠-٧٢ من ص ٢٩ وذلك قوله:

You who were with me in the ships at Mylae
That crops you planted last year in your garden,
Has begun to sprout?

أي:

يا أنت الَّذي كنت معي فِي سفينات ما يلبس

تلك الجنازة الَّتي غرستها العام الماضي فِي حديقتك

هل بدأت تخرج شطئها؟

عنى «إليوت» بما يلبس هنا المكتشف الدّنماركيّ ما يليس لدوج Mylius Ludwig الَّذي غامر باكتشافه سواحل جرنلدة فِي أوائل هَـذَا القرن الميلادي ، ومات سنة ١٩٠٧ بعد مغامرة أخيرة سنة ١٩٠٦ وكانت هي من أسباب هلاكه .

استعمل «إليوت» صيغة المضاف إليه اللاتينية (مايلاي) من (مايليس) . وهل خفِي عنك أيها القارئ الكريم عنصر تداعي المعاني الشّديدة بالنّظرة إلى بيت امرئ القيس ههنا؟

امرئ القيس : غرقى جنائز سباع غرقى فِي العشيّة تشبه مناظرها فِي الأرجاء القصوى أطراف البصل البرى التى ينبشها الصّبيان أو خرجوا لينبشوها.

إليوت : سفائن مايليس (At Mylae) معها البحر ومخاطره . جنازة مغروسة فِي حديقة في العام الماضي. هل نبتت وأخرجت شطئها مثل النّبات؟

هذه المشابهة فِي نهج الصّياغة هل هي مجرد توافق خواطر مَعَ بيت امرئ القيس، كما مطر أبريل وعلو أغضان (اللّيلك) مجرد توافق خواطر مَعَ مرابيع النّجوم وعلت فروع الأيهقان؟

وهل فكرة dried tubers (أي : الأصول النباتيّة الجافة أو العروق الجافّة) مجرّد توافق خواطر مَعَ أنابيش العنصل ؟العنصل هو (bulb) بحسب الاصطلاح الآخر المقابل له (tuber) - أليس تحويل(bulb) إلى (tuber) فيه لون من أسلوب تحويل grass-hopper إلى (cricket) وما مر بك من قبل من أمثلة «السَّرَقِ المُورَّى»؟

قولنا عن امريء القيس آنفًا : إنه تذكر الصّبا وتذكر الطّفولة نشير به إلى قوله:

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل

وإلى قوله :

كميت يزل اللّبد عن حال متنه كما زلت الصّفواء بالمتنزل

وليس ههنا موضع التفصيل وقد كَانَ امرؤ القيس صاحب ذكريات وتذكر لَهُ أبيات لطيفة يصف بها زحلوقة الأطفال أولها:

لمن زحلوقة زُلّ لها العينان تُنهل

لاحظ أنّ تذكر الزّحلوقة هنا أبكاه كما بكى من ذكرى الأحباب والمنازل.

وإلى قوله :

دريـــر كخـــذروف الوليـــدَ أَمَـــرَّه   تتـــابع كفَّيْـــه بخـــيْطٍ مُوَصَّـــل

هذا ،

ومثـل أبي تمّـام إذ فاجأتـه «مقدّمـة المصـيف حميـدة » نجـد «إليـوت» فاجأتـه مقدّمـة المصيف- ولكن غير حميدة (إبريل أقسى الشّهور). ومثل امرئ القيس خلص «إليـوت» الَّذي هو امرؤ الأرض القفر من البدء بذكر الأطلال(عفت الدّيار كما تقدّم) إلى حل العقد من خيط الذّكريات- المقهى في أوّل المنظومة (السّطر ١١) إلى النّعت المنظور فيه إلى سفينة كليوباترا بعين ، (س ٧٧ ص ٢٩) :

The chair she sat in, like a burnished throne,
Glowed on marble....

أي: الكرسي الَّذي جلست عليه كَانَ يتوهج من فوق بلاط الرّخام كأنّه عرش مجلو...

(راجع نعت أنوباربس لسفينة كيلوباترة عند شكسبير)ومنظور أيضًا فيه بنفس (العين)

أو بعين أخرى تحت الحاجب الكالح إلى قول امرئ القيس:

إذا قامتـــا تضـــوع المســـك مـــنهما   نسـيم الصّـبا جـاءت بريـا القرنفـل

راجع من قوله س ٨٤ :

The glitter of her jewels rose...

أي : قام بريق جواهرها.....

إلى ....

Her strange synthetic perfumes

أي : عطورها المصنوعة الغريّبة (س ٨٧ ص ٣٠) .

وقال وليم جونز فِي ترجمة هَذَا البيت:

When those two damsels departed, musk was diffuse from their robes, as the eastern gab sheds the scent of clove- gilly flowers...

لاحظ استعمال «إليوت» profusion في س ٧٥ وكذلك proured فِي مقابلة

diffused التي عند وليم جونز وsheds ....

وتأمل ذلك أيّها القارئ الكريم .

الفصل الّذي فيه هَذَا النّعت جعل «إليوت» عنوانا لَهُ " لعبة الشّطرنج A Game of Chess وهو الفصل الثّاني من الأرض المقفرة والعنوان مأخوذ من اختيارات وليم جونز إذ عنوان إحدى القصائد الهنديّة الّتي اختارها هناك هو هَذَا ، فتأمّل !!... راجع الحديث ، راجع قولنا قبل إلى النّعت المنظور فيه.. إلخ والآن.. إلى لقاء الكويتبة فِي الفصل الثّالث الّذي عنوانه ترتيلة النّار . أو كما قَالَ :

A Fire Sermon

ونلفت نظرك ههنا إلى ما ذكر عن «إليوت» أنّه وصف رديارد كبلن شاعر الإمبراطوريّة الّذي نشأ فِي الهند بأنّه كَانَ من عظام أصحاب التّراتيل..

لقى إليوت فِي منظومته الكويتبة فِي الفصل المذكور عَلى مائدة فاترة ووصال من نوع ما يقع فِي سأم المدن المعاصرة ... شيء ممسوخ من وليمة عذارى دارة جلجل ودخول الخدر عنيزة : (وقد ترجم ذلك السّير وليم جونز ترجمة حسنة حية :

Woe to thee than wilt compel me to travel on foot ...

تقول لك الويلات إنّك مرجلي

من هنا أخذ إليوت عبارته (ص ٣٢)

....caresses
which still unreproved , if undesired

وتأمّل بعد أسطاره من ٢٣٥ إلى ٢٤٨ فِي حديث عنيزته هو:

The time is now propitious as he guesses
The meal ended, she is bored and tired,
Endeavours to engage her in caresses
Which still unreproved, if undesired

التّرجمة التّقريبيّة:

الوقت الآن موات كما يظن .

انتهت الوجبة وهي متعبة وسئمت .

يحاول أن يشركها معه فِي ملامسات.

استمرت بلا مؤاخذة أن لا بلاء اشتهاء.

كذلك من قبل ظن امرؤ القيس الوقت مواتيًا بعد عقر النّاقة وانتهاء الوليمة وارتماء العذارى- يطبخن- بلحم مطيته (يخطئ من يحسب أنّهنّ كن يترامين بقطع اللّحم كالغولات وكأن اللّحم كرات لعب) وبشحم كهداب الدّمسق المفتل الَّذي هو حريرهن وبياض أبشارهنّ فدخل الخدر خدر عنيزة ليشركها معه فِي ملامسات ومداعبات فزجرته بقولها " لك الويلات إنّك مرجلي ، ومع زجرها لَهُ مال بهما الغبيط معًا :

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا . عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

ولكنه لا ينزل :

فقلت لها سيرى وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

كلام امرئ القيس فيه شيطنة وأريحية وحرارة عاطفة وصدق فني مباشر مَعَ الزّمان والبيان النّاصع. كلام إيوت مصقول كخشب النّجار الماهر ولكنه ناشف لا عاطفة فيه ولا حرارة ولكنّ مرارة برود تعال فكري وشيء من سخرية. غطاء كثيف يخفِي حقيقة السّرية ولو كانت فيه أريحيّة من عواطف البيان أو الصّدق الشّعري لهتكته.

فِي كلام «إليوت» روح سآمة كسآمة اللّيل والبعير الَّذي شبه به امرؤ القيس الليل لما تمطي بصلبه وأردف أعجازًا وناء بكلكل، وكسآمة الحبلى الَّذي ذكرها امرؤ القيس فزعم أنّه ألهاها عن طفلها ذي التّمائم المحوّل.

إذا ما بكى من تحتها انصرفت له بشق وتحتي شقّها لم يحوّل

وقد استفحش النّقاد هَذَا من مقال امرئ القيس وعذلوه عليه وعابوه وأبى الشّعراء من بعد إلّا أن يحاكوه فيه ويسرفوا كالذى صنعه سحيم عبد بني الحسحاس فِي يائيته « عميرة ودع أن تجهزت غاديًا » وفيها :

توســـدني كفًّـــا وتثنــــي بمعصـــمٍ عـــلى وتحنـــو رجلهـــا مـــن ورائيـــا

وفيها وجدان وغرام وفتك وكالذى صنعه بشار فِي الرّائيتين ، المقيدة الَّتي يقول فيها:

أمتــــي بــــدد هَـــذَا لعبــــي ووشـــاحي حلـــه حتـــى انتثـــر

والمطلقة الَّتي يقول فيها:

قـــولي لهـــا بقـــة لهـــا ظفـــر إن كَـــانَ فِي البـــق مالـــه ظفـــر

وفِي كلتيهما تهتك وزندقة ومجون

وهـل نظـر بعـض شـعرائنا المعـاصرين إلى عنيـزة امـرئ القيـس وإلى دعـوى الـتّحضر والتّقدم بالنّظر إلى عنيزة وجبة طعـام أرض «إليـوت» المقفـرة اليبـاب الخـراب؟ هَـذَا بـاب يكتفِي فيه بمجرد الإشارة واللّمح.

ويبقى وزن إليوت. ومداره كما يـذكر نقـاده عَـلى محاكـاة نـبرات الكـلام المـألوف وعـلى الجنـاس الـدّاخلى وعـلى سـجعات القـوافِي وهـذا أمـر خـالف فيـه أصـحاب الشّـعر الحـر الفرنسيّين ومن مال إلى مذاهبهم وقد تأثر فيما ذكروا بازرا باوند وقد سبقه في مذاهـب مـن التّظلم جرارد مانلي هوبكنز (١٨٤٤-١٨٨٩م)

Garard Manley Hopkins

ورجع «إليـوت» في مـا يـذكر إلى نـماذج مـن الشّـعر الإنجليـزيّ القـديم الَّـذي يقـال لَـهُ المتوسّـط مثـل منظومـة ولـيم لانجلانـد (ولا يكـادون يستشـهدون إلا بهـا) التـى أسـماها بطـرس الحـراث William Lang Land (ولـد سـنة ١٣٠٢م وتـوفِي ١٤٠٠م) — بطـرس الحـراث Piers Ploughaman وعنـدي أن الجنـاس الحـرفِيّ أو الـدّاخلي لـيس بأصيل فِي اللّغة الإنجليزية عَلى اتصاله بأوائلها ولكنّه أخذت أصوله من البـديع العـربيّ إذ هو قد كَانَ النّموذج الأدبيّ البرّاق المحتذى في القرن الحادي عشر والثّاني عشر الميلاديّ فما بعدهما وقد كانت أمة العربيّة آنئذ هي أمة المدنيّة الكبرى المرموقة في ذلك الزّمـان- تحـاكى أساليب حياتها وآدابها كـما نفعـل الآن بتقليـد الإفـرنج . ذكـر صـاحب الـذّخيرة نقـلًا عـن المؤرخ أبِي مروان ابن حيان فِي صفة ريموند صاحب برشلونة (ص ١٥٥ القسم ١ جـ١) :

«فإذا هو جالس عَلى مرتبته عليه ثياب من ثياب المسلمين». ا.هـ .

أمر آخر ينبه إليه مما عسى أن يكون «إليوت» قد أخذه أيضًا من أساليب العربيّة ، هو مذهبه فِي غرابة التّشبيه. ويوقف كثيرًا عن قوله في إحدى منظوماته:

Let us go then, you and I when the evening is spread out against sky like a patient etherized upon atable.

أي :

دعنا إذن نذهب أنت وأنا .

عندما يكون اللّيل قد مدد بإزاء السّماء .

مثل مريض بنج عَلى منضدة (العمليّات) .

ووصفه برغونزي بالجمال والغرابة (ص١٥) .

والحقّ أنّ تشبيه «إليوت» ههنا جار عَلى ما يسميه البديعيون بالتّشبيه المقلوب، المريض ساعة الغيبوبة والامتداد عَلى المنضّدة هو المشّبه بغروب الشّمس إذ كمفاجأة غشيان الظّلام الأفق تكون مفاجأة غيبوبة المريض بالبنج .

من أمثلة التّشبيه المقلوب المعروفة :

وبدا الصّباح كَأنَّ غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

وما الأمر إلا أن وجه الخليفة المشرق بغرة الانشراح للمدح قد صار جسم مريض ممدًا عَلى منضدة عملية . وغرة الصّباح الباهرة صارت غروبًا ... هل أخذ «إليوت» من ههنا أم هو توارد خواطر؟ لعلّه توارد خواطر ولكنه بلا ريب تشبيه مقلوب. صناعة وبديع مصقول متكلف ولا أكثر ولا أقل .

أشهد أنّ أوّل ما دعا إلى الشّك في أصالة «إليوت» في منظومته The Waste Land (الأرض المقفرة) ما قدمته من ارتياب النّفس من تعليقات ومن حذف اسم العرب وأسماء من أشاروا إليهم ومن غلبة البرود والتنطس عَلى أسلوبه ومذهبه ومن الفتنة المفرطة به ولا سيما من ليست لغتهم بلغته وفي لغته عَلى أهل لغته هو الإنجليزيّة

عسر شـديد . حتـى المعجبـون بـه ذكـروا ذلـك. مـثلًا قَـالَ انتـوني بـيرغس Anthony Burgess فِي كتابه من الأدب الإنجليزيّ طبعة ١٩٨٠م وهـو مـن المعجبـين بـإليوت أن منظومته (The Waste Land الأرض المقفرة) فيها عسر ومشقة عَلى القـارئ وذكـر من بين أسباب ذلك كثر الإشارات والاقتباسات والأخذ من أدب أوربـا والهنـد وتـداخل الصّور إلى آخر ما قال.

ومع أنّ تاريخ كمبردج للأدي الإنجليـزيّ يعـد «إليـوت» مـن ثلاثـة العـصر في الشّـعر الإنجليزيّ الكبار، مَعَ هَذَا عاب عليه كثرة أخـذه مـن دون إشـارة إلى موضـوع الأخـذ أو علامات تدل عليه وقال : إنه كَانَ يلزمه بيان ما أخذ وما استعار. وألمع تاريخ كمـبردج إلى أنّه إن يك المراد من هَذَا الحنين إلى المـاضى هـو التّعبـير عـن الضّـجر عـن العـصر بأسـلوب أدبيّ، فإنّ ذلك غير خارج عن نطاق الأساليب التّقليديّة ، ونصّ عبارة تاريخ كمبردج هـو كما يلي وما قدمناه فحواها ومخلصها (ص٨٥٣) :

But we may doubt whether the disgust with the realities of the modern world, and the nostalgia for the past, not in its own kind of disgusing reality but as abstracted in literature and art, is anthing more than a traditional literary device.

كلمـة صـدق تقـال للمفتـونين بـإليوت : إنّ كتمانـه وسرقتـه ودينـه للمعلقـات وشـعر العرب من طريق مستشرقي الهند وفرنسا وألمانيا وهارفارد وجامعتي أكسفورد وكمـبردج ومن يكون لاقاة فيهما وفِي غيرهما وشافهه، ينبغي أن يكون ذلـك موضـع زرايـة بـه ونفـور عنه لا فرط إعجاب به وإقبال عليه.

أسأل الله أن تكون الموضوعيّة النّقدية لنا رائدًا ودليلًا في مـا نقدمـه مـن حـدس مرتـب عَلى مشابه قوية وملابسات دليلها قاطع. وقـد اكتفيـت في أكثـر مـا قـدمت بالصّـدر الأوّل الأكبر من منظومة الأرض القفرة خشية الإطالة ؛ إذ ليس هَذَا مجالهـا وإنّـما مـرادي التّنبيه. ولقد أقبلت عَلى كتابة هَذِه الكلمة الموجزة في بابها، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، بعد مناقشة مادتها الأولى وجملـة معناهـا مَـعَ زمـلاء فضـلاء وطلبـة أذكيـاء وأسـاتذة علـماء

وغيرهم من المعارف والأصدقاء. فمنهم من نبه عَلى مالم أكن لَهُ متنبهًا ومنهم من أعان عَلى تيسير المراجع أو دلّ عليها ومنهم من ساهم بالرأي وبالكلمة المفيدة — ومن ذلك مثلًا أن عنوان إليوت (لعبة الشطرنج) Agame of Chess لا يخلو من نفس امرئ القيس إذا كَانَ يلعب النّرد لما جاءه خبر مقتل أبيه ومن ذلك مثلًا قول إليوت :

Let us go then, you and I

فيه شبه بصياغة الأمر فِي نحو:

قفا نبك من ذكرى...

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدّار...

خليلى عوجا من صدور الرّواحل...

قفى قبل التّفرق يا ظغينا ...

ونحو هَذَا كثير. ونحو هَذَا القول محتمل. إلا أنني أرجح أن يكون «إليوت» اقتدى بطريقة شكسبير ومعاصرية ، نحو قول شكسبير في مسرحية ريتشارد الثّاني الملك عَلى لسانه :

Of comfort let no man speak

أي لا يتحدثن عن الرّاحة . وفيها :

Let us set upon the ground

أي لنجلس عَلى الأرض. ويعجبني منها قوله (راجع التهاسة عزاء ص ٤٤):

Let's talk of graves and worms and epitaphs
Make dust our paper and with rainy eyes
Write sorrow on the bosom of the earth

وترجمته التّقريبيّة (التهاسة عزاء ٤٤) .

هلموا عن الأجداث والدّود والرّثا ... حديثكمو ثمَّ اجعلوا التّرب قرطاسًا

ومن أعين تهمي بكالغيث سطروا ... على ثدي هذى الأرض للحزن أنفاسًا

وشبه كلام شكسبير بقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، في نمط الصّيياغة غير بعيد.

وقال درايتون Drayton من معاصري شكسبير :

Since there is no help, let us kiss and part

وأقرب ما يترجم به هَذَا شطر بيت المثقّب العبديّ :

(أفــاطم قبــل بينــك مَتّعينـــي)

وليس بجد بعيد من : فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

توارد الخواطر كثير في المعاني الإنسانيّة ، ولكن روح التّعبير هنا عربي المعدن وكان الأخذ في زمان النّهضة الأوربيّة عن معارف العرب و آدابهم أمرًا شائعًا .

وأخذ «إليوت» عن شعراء الإنجليزيّة خاصة قد كفانا مئونته نقاده ، حتّى بيرغس الموالي لَهُ لم يغمض فيه وتاريخ كمبردج للأدب الإنجليزيّ الَّذي سبق أن أحلنا عليه من قبل قد بكّت «إليوت» كما مر عَلى الأخذ بلا اعتراف وتعليق ونعى عليه استعمال التّضمين والاقتباس بطريقة آلية صارت من بعد مجرد حيلة أسلوبيّة عند مقلدين الكثيرين أو كما قَالَ (ص ٨٥٣):

...A mere trick of fashion in his numerous imitators

هذا ، ومنهم- أي ممن ناقشت- من حث حثًا عَلى تدوين ما بدا خشية أن يؤخذ من المشافهة فأسبق إلى نشره ولا يشار إلى المصدر. وهذا قبيح. ولكن ليس السّبق إلى النّشر هو الغرض. ولكن الغرض هو التّبيه عَلى كتمان «إليوت» تقليده لطريقة العرب في صياغة القصيد- وقد عرف العرب التّضمين والإشارة وغرائب من البديع مَعَ الّذي سبق توضيحه من مذهبهم في الوصف وتداعي المعاني عَلى النّحو الَّذي بين جانبا منه ليال في مقدمته القيمة. ليعي بعضنا صياغة القصيد الَّذي لو أقبلنا عَلى درسه لاغنتنا روائعه أسلوبًا تقليديًّا.. ويسمون إبداعًا تقليد «إليوت» الّذي يقلده ، فتأمّل.

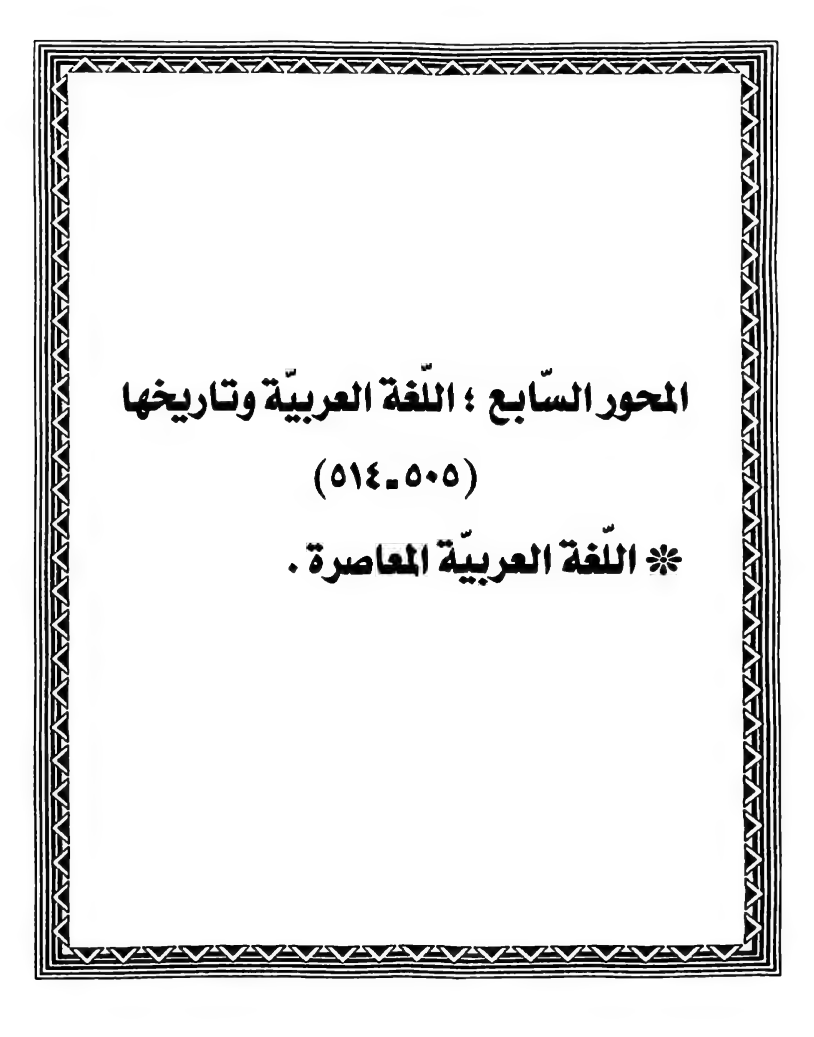
الآراء الّتى بثثت بطرف منها ههنا قديمة عند كاتب هَـذِه الأسطر ألمع إلى بعضها فِي حديثه عن أبي الطّيّب الَّذي ألقاه فِي المهرجان الَّذي أقيم لَـهُ ببغداد فِي تشرين الثّاني سنة ١٩٧٧م وطبعت فِي سفر بعنوان الطّبيعة عند المتنبّي. وقد جاء فيها ذكر أخذ الشّاعر إندرو مارفيل فِي منظومته البستان The Garden من:

(معـاني الشّـعب طيبًـا فِي المغـاني)

وأخذ وليم بليك فِي منظومته عن النّمر من أسد أبي الطّيّب الَّذي ما قوبلت عيناه..

مـــا قوبلـــت عينـــاه إلا ظنتـــا تحـت الـدّجى نـار الفريـق حلـولا

وهـذا بـاب يتّسـع فيـه القـول ومجـال البحـث . ولله الحمـد في المبـدأ والختـام وعلى رسول الله الصّلاة والسّلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين.



المحور السّابع : اللّغة العربيّة وتاريخها

(٥٠٥-٥١٤)

* اللّغة العربيّة المعاصرة .

اللّغة العربيّة المعاصرة [(١)]

حسنًا صنع المجمع إذ طلب من أعضائه أن يجعلوا ما يتقدّمون به من كلمات وبحوث لمؤتمر هَذَا العام فِي إطار اللّغة العربيّة المعاصرة ؛ إذ فِي ذلك حثّ لهم عَلى مواجهة واقع بياننا فِي الوقت الحاضر ، فنقصد إن شاء الله بجدٍّ إلى حل مشاكله .

قولنا : اللّغة العربيّة المعاصرة كأنّه مأخوذ من الإنجليزيّة Modern English ومن الفرنسيّة Le Francai courant وهي عبارة قويّة الدّلالة عَلى معنى الدّوران فِي الاستعمال والسّيرورة . والعبارة الإنجليزيّة Modern English فيها معنى تضمّن الإشارة إلى تطوّر قد سبق حتى صارت اللّغة إلى ما هي عليه الآن . ولا يخفى أنّ اللّغة الإنجليزية قد تغيرت تغيرًا جوهريًّا (وقريبًا من ذلك فعلت أكثر لغات أوربّا المعاصرة) منذ نشأتها الأولى فِي الإنجليزيّتين القديمة والمتوسّطة (Old English , Middle English) ، لا بل منذ طور نضجها الحديث فِي القرن السّادس عشر وهو قرن شكسبير . مثلا أهمل ضمير المخاطب المفرد Thon-Thee-Thy-Thine وحلت مكانه You-Your-Yours وأهمل من الأفعال أمثال Dost, goeth وحتى فِي طريقة التّهجّي قد حدثت أنواع تغيير ـ مثلا الحرف Z كَانَ يرمز به للياء Y والحرف U كَانَ يرمز به للفاء المعطشة V وهلم جرا .

والعربيّة لم يحدث فيها تغيير جوهري منذ العهد الجاهليّ الَّذي وصلتنا رواية أشعاره وخطبه وأمثاله . فكأنّ قولنا : «العربيّة المعاصرة» عبارة غير دقيقة إن أردنا بها الدّلالة عَلى معنى الصّلاحية للتّعبير عن الأفكار والمعارف العصريّة . ولا أحسب أنّه تصح فِي العربيّة قسمتها إلى قديمة ومتوسّطة وحديثة أولى وحديثة ومعاصرة ، كما يقال فِي الإنجليزيّة بغرض تبيين أطوار نشأتها ونموها :

Old English, Middle English, Elizabeth an English, Modern English .

والصّواب فِي قسمة العربيّة إن أردنا محض تبيين أطوار نشأتها وتغيرها من حيث

---

(١) المؤتمر ، الدّورة ٤٣ ، الجلسة ٣ ، محاضر الجلسات ، ص ٢٢٥. (حسن) .

السّنخ والجوهر أن نقول هي بابان لاغير ، العربيّة الفصيحة ، والعربيّة الدّارجة . وقولنا : جاهلي ، مخضرم ، إسلاميّ ، مولد أو محدث إنّما يراد به تبيين ما يصح به الاستشهاد فِي معرض التّأكد من صحة نسبة الألفاظ إِلى العربيّة .

هذا واللّغات الدّارجة أحقّ أن توصف بقولنا : «المعاصرة» . وأقول : «اللّغات الدّارجة» لأنّها ليست بلغة واحدة دارجة ، ولكنّهن لغات كثيرات كلّ منهن مستقلة عَلى ما فيها من مشابهة غيرها فِي كثير من الألفاظ والتّراكيب . وما أشكّ أنّه لو كانت كلّ منهن قد تركت وحدها تتطور لكنّ منفصلات متباينات يقع فيهن من التّشابه ما يقع بين اللّغات المتباينات ، اللّاتي ربّما أمكن ردهن فِي المنشأ الأوّل إِلى أصل واحد .

وتأمّل أصناف آدابنا الشّعبيّة الدّارجة تجد بينها من حاق التّباين قريبًا مما نزعم ، ولابدّ لقارئها أو سامعها من غير المنتمين إِلى صُقْعها من شرحٍ لها ، أو ترجمة حتى يستطيع أن يفهمها .

والتّشابه فِي كلامنا الّذي يسهل علينا التّفاهم به مَعَ غيرنا من أبناء العروبة حين نلتقي ليس أصله من اللّغة الدّارجة ـ أو من لغة دارجة مشتركة الأصول بيننا ـ ولكنه فيما أرجح مرده إِلى اللّغة الفصيحة . وذلك أنّنا جميعًا قد تلقينا مبادئ تعليمنا بالفصيحة ـ القرءان والمطالعة والأناشيد ـ فما حصلناه من ذلك هو الّذي نستند عَلى التفاهم والتخاطب به حين نلتقي . ومن أجل ذلك فإنّ التّفاهم بين المثقّفين العرب أيسر منه بين سواهم ؛ لأنّ حظ هؤلاء من الأساس الفصيح أوفر .

هذا ومن خواص اللّغات العربيّة الدّارجة ، بحكم قوة التصاقها بأفراد المجتمع أنّها ذات قابلية عظيمة للتّغير السّريع حتى فِي البلد الواحد ، وحتّى بالنّسبة إِلى نفسها فِي الزّمن الوجيز تحت تأثير العوامل الاجتماعية والسياسيّة المختلفة ما يطرأ منها وما يستمر ، كغلبة حياة المدينة ذات التّجدد عَلى حياة الرّيف وحياة الصّحراء ذواتي المحافظة ، وكتغلغل روح القوميّة وروح طلب النّهضة العصريّة فِي النّفوس . حتى الألفاظ اليوميّة قد يصيبها التّغيير من جراء أثر هَذِه العوامل . مثلا عندنا فِي السّودان قلّ من يقول الآن : «سَمِح» ؛

لأن لفظ المدينة «كويس» «كويس جدًّا» قد غلب . وقل من يقول : «مو» فِي النّفِي فقد غلبت عليها «ما» و«مش» . ويروى أنّ أبا قرويا قَالَ لابنه وهو يتعجّب إليه من سرعة ما تغير كلام النّاس عما كَانَ يعهده : «يا ولدي سمعت لي كليماتَنْ جداد موجعاتني بالحيل» فقال لَهُ ابنه : «إزاي يابه» فقال الأب : «والله يا ولدي دي واحدة منهن» .

هذا وقد جعلت اللّغة العربيّة الفصيحة تغزو اللّغة الدّارجة العاميّة وتضغط عليها ، وتنتقصها من أطرافها ويعينها جدًّا هَذَا الجانب ذو قبول التّأثر السّريع من الدّارجة فِي ما تصنع . وهذا اللّسان المتشابه الَّذي يقدر به المثقفون العرب عَلى التفاهم والتّخاطب كلّما التقوا هو فِي الحقيقة لسان فصيح آخذ إن شاء الله بطريق التّهذيب عن عمد وعن غير عمد . وبقدر ازدياد هَذَا اللّسان من الأخذ من اللّغة الفصيحة يزداد اكتسابه القدرة عَلى البيان .

قد مرّت باللّغة العربيّة مرحلتان من مراحل هَذِه النّهضة . الأولى : كانت عَلى أيدي الرواد الأولين مثل عبد الله باشا فكري ، والطهطاويّ ، والشدياق ، والباروديّ ، واليازجيّ الكبير ، ومن سبقوهم أو تلوهم ممن تأثروا بهم . وإن بعض النّقاد ليخطئون حين يصفون الباروديّ بضيق مجال القول وشدّة اقتراء طريق القدماء لا يعدو ذلك إِلى نوع توسع فكريّ أو تجديد . والَّذي صنع الباروديّ لو أنصف النّقاد جد عظيم ؛ إذ هو قد صاغ من رجعته إِلى جزالة أساليب القدماء مادة بيان مرنة عبر بها عن واقع حياته وأحداث عصره وتجاربه ، ففتح بذلك لغيره مجال التّعبير فِي غير نطاق موضوعات الدّين والتّصوف ، وفِي غير باب الزّخرف البديعيّ البعيد عن واقع تجارب الحياة ، وكانت لا تكاد تعدو هذين البابين بحال - الأوّل تفصح فيه عن الوجدان الرّوحي العميق ، والثّاني تجعله نوعًا من تسلية الخاصّة والعلماء .

وقد بلغ تأثير نهضة الباروديّ أوجه فِي أمثال المويلحيّ ، والبكريّ ، وشوقي ، ونظرائهما من الشّعراء المفلقين والكتّاب المبدعين فِي سائر أقطار العربيّة ؛ ممن رأوا إيجاد عصر ذهبيّ جديد للبيان العربيّ ، يعيدون به مجد الجاحظ وأبي الطّيّب ؛ ويضاهون به

روائع الإفرنج من فرنسيس ، وإنجليز وألمان ، وروائع سواهم من الأدب الأوربيّ الحديث .

أمّا المرحلة الثّانية فبدأت أوّل أمرها ثورة عَلى رجالات المرحلة الأولى ، ثمّ صارت من بعد فرعًا متفرعًا مما سبقوا إليه ، واستمرارًا لما بدأوه من جعل اللّغة العربيّة الفصيحة لغة الحياة ولو عَلى النّطاق المثقف الرّفيع المحدود الكم ، بعد أن كانت لغة العاطفة الدّينيّة والفكر والزّخرف اللّفظي لطائفة علماء الدّين ليس غير .

كانت الثّورة أوّل الأمر عَلى فرط جزالة البارودي وحظ شوقي من ذلك ونظرائه ومعاصريهم ، فعيبوا بتقليد القصيدة العباسيّة وأخذ عليهم البعد عن الشّعبيّة . وكان الجانب الإيجابيّ وهو ما زعمنا أنه تفريع واستمرار لما كَانَ من عمل البارودي وتلاميذه والمتأثرين به . فِي القصد إِلى تقريب اللّغة العربيّة الفصيحة من أكبر مجموعة من القارئين ، حتى يقدروا أن يشاركوا فِي فهمها والتّجاوب معها كمثل مشاركة الشّعب القارئ الأوربيّ فِي فهم كتّابه وشعرائه . كما أراد شوقي ونظراؤه صنع أدب عربي عصري يضاهون به أدب أوروبا الَّذي استحسنوه وغبطوا نماذجه ، أراد رجال مرحلة النّهضة الثّانية صنع جمهور ، قراء متجاوبين ، يشبه جمهور قراء أوروبّا النّاقد المتجاوب . فعمدوا إِلى محاولة الارتفاع بمستوى كلّ من عسى أن يقرأ من الدّارجة البحتة إِلى الفصيحة المبسّطة . وساهمت برامج المدارس فِي هَذَا المنحى من التّبسيط كما ساهم الأدباء وخصوصًا الذين ترجموا القصص الإفرنجيّة مثل روايات الجيب . ومن باب الإنصاف لهؤلاء أن يعد أوائلهم من رواد حركة التّعريب . هَذَا وقد كَانَ ما يرام من توسّع نطاق اللّغة الفصيحة من طريق التّبسيط يلزم معه بالضّرورة هبوط فِي مستويات البيان بها . ومع هَذَا ينبغي أن نذكر لرواد ترجمة الرّوايات أنّهم قد ظل بيانهم فِي جملته محتفظًا بروح عربي سلس ، وأحسب أنّهم قد انتفعوا كثيرًا من محاكاة أسلوب الدّكتور طه حسين رحمه الله تعالى .

هذا والّذي قدمته من أنّ اللّغة العربيّة الفصيحة الآن بسبيلها لأن تكون لسان الأمّة

العربيّة المشترك ، وأنّها قد جعلت تغزو الدّارجة غزوًا وتنتقصها من أطرافها هو بداية لما يصح أن نسميه المرحلة الثّالثة ـ الّتي نأمل إن حرصنا عليها وتابعناها بجد أن تصل بنا إلى الذّروة الّتي نأملها ... وهي درجتان : الدّرجة الأولى فرض الفصيحة على العاميّة فرضًا كاملًا ، وحيوية العربيّة الفصيحة الكامنة فينا عَلى ممر الأجيال ، مَعَ مرونتها الخارقة وما أتيح لها فِي عصرنا هَـٰذَا الحاضر من وسائل النّشر والتّثبيت الفعال فِي التّعليم الأوّلي النّظامي ، والصّحافة ، والإذاعة ، والسّينما ، والتّلفزيون والأجهزة الرّسميّة الّتي تتغلغل فِي صميم حياة الشّعب من أجهزة الإدارة والكسب والدفاع ـ كل ذلك كفيل بأن يمكننا من تسنم الدّرجة الأولى من الدّرجتين اللّتين ذكرتا فِي يسر ، وفِي وقت قريب ، وحسبنا شاهدًا عَلى ما نزعم فِي هَـٰذَا الصّدد أن دول أوروبا كفرنسا وإنجلترا مثلًا قد قضت بهذه الوسائل نفسها عَلى اللّهجات المحليّة فيها ، مما كَانَ فِي كثير من أقاليمها مختلفًا كلّ الاختلاف عن اللّغة الرّسميّة الوسطى الرّصينة ، قضاء كاملًا . عَلى أنّ تسنم الدّرجة الثّانية من الدّرجتين اللّتين ذكرتا وهي القمّة الشّاهقة ذات ظاهر الاستعصاء ، هو الّذي سيمكّننا حقًّا إن شاء الله مما نرومه من النّهضة بلغتنا الفصيحة إلى مستوى عصري حي ، يقوى عَلى التّجدد والابتكار والمباراة والمجاراة والتّفوق فِي شتّى أبواب البيان . وسبيل تسنم هَـٰذِه الدّرجة الثّانية أن نبدأ منذ الآن فِي أمر رفع مستوى التّعبير باللّغة الفصيحة بعد الّذي أصبناه من ملك أعنة نشرها عَلى نطاق واسع . ولعل من أعداء العربيّة من يتربص بها الدّوائر ، ويبغي باسم طلب المعاصرة أن يجعل من هَـٰذَا الّذي عم من هبوط مستوى الأساليب ، وتعثر طرق الجزالة والبيان ، ذريعة إلى التّخريب .

وما فتئت العربيّة ذات أعداء منذ قديم الزّمان ، منهم الشّعوبيّون ومنهم أولو التّعصب الدّينيّ البغيض والمذهبيّ المنحرف ومنهم المستعمرون علانية أو يدبّون الضّرّاء والجهلاء ممّن أصابوا نصف تعليم فطلبوا به قمم الطّموح . فلنحذرهم جميعًا . وقد قَالَ الله تعالى جلّ من قائل : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] .

لقد حملت العربيّة الفصيحة رسالة القرءان عهد لم يكن شيء عَلى العرب أجد منها ، وحافظت فِي ذلك مَعَ اليسر عَلى أعلى ما كَانَ يبلغ من ذروة الجزالة وشدة الأسر . وأقبل النّاس عَلى درس القرءان وأدب الجاهليّة ، الَّذي خاطب القرءان النّاس بمعايير بلاغته ، وأدب الإسلام الَّذي ازدهر بعده ، فحفظ ذلك الدّرس عَلى العربيّة نقاءها وبهاءها الحقب الطّوال ، ولعمري كما حفظ القرءان بقداسته ورونقه اللّغة العربيّة ، فقد حفظت هي بحيويتها وسر الله الَّذي أودعه فيها نصّه الخالد ذا المدى الَّذي لا يحد ، والكنوز الَّتي لا تعد .

وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وعد أكيد نأمل به أقوى الأمل أن يردَّ عَلى هَذِه اللّغة أسرها وبهاءها وارتفاع مستويات أساليبها ، حتى تستمر تحفظ رسالة حضارة العرب والإسلام والكتاب العزيز ، إِلى أن يتأذن الله سبحانه وتعالى برفع ذلك جميعًا ـ ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله .

وعلينا بعد أن ننظر إِلى الطرق الَّتي اتبعناها حتى الآن فِي تعليم اللّغة العربيّة ، وتعميمها وتبسيطها بعين النّقد وأن نعمل عَلى إصلاحها ، أولًا : فِي باب اختيار المدرّسين بحيث يمكن تشجيع التّخصص فيها تشجيعًا يجعله لا من أخريات ما يقبل عليه الطّلبة ، ولكن من أولياته كما هي الحال فِي دول أوروبا ذوات اللّغات الَّتي تحمد الآن بأنّها حية ومعاصرة ، وثانيًا : فِي باب إعداد البرامج والكتب وشتّى مواد الدّرس .

ولعلنا ألا نعود إِلى حفظ ألفية ابن مالك ، ولكن لابد من درس النّحو والصّرف وعلوم اللّسان ، ولابد من المحافظة عَلى درس القرءان .

هذه هي اللّغة العربيّة الَّتي نريدها معاصرة ، ونريد بها أن تعبّر عن نهضتنا وتطلعنا إِلى المستقبل المجيد ، بإذن الله تعالى وتوفيقه .

التّعقيبات

الدّكتور حسني سبح رئيس الجلسة : نشكر للدّكتور عبد الله الطّيّب هَذَا البحث المفيد وإذا كَانَ لأحد من حضراتكم من تعقيب عليه فليتفضل .

الدّكتور إبراهيم مدكور : أشكر الدّكتور عبد الله الطّيّب عَلى بحثه القيم ، وكعادته فإنّه يحمل سامعيه عَلى الاستماع لَهُ ، ولكنني أقف معه فِي نقطة واحدة وهي المعاصرة ، فلم يتّضح لي ما أراد ، لاسيما وأنّه أشار إِلى أدب عصريّ ، ثمَّ عاد فأشار إِلى أدب جاهليّ وإسلاميّ وعباسيّ ، وهناك قضيّة يجب أنّ نتّفق عليها وهي أن اللّغة ظاهرة اجتماعية ذات حياة ، ولابد أن تعيش فِي عصرها وتتطور بتطوره ، مَعَ احتفاظها بخصائصها المميّزة وإلا كَانَ التّطور مسخًا لها . وقد كَانَ الهدف من إنشاء المجامع اللّغويّة هو أن تسير باللّغة العربيّة مَعَ ركب الحياة ، ومتطلبات العلم والحضارة ، مَعَ الاحتفاظ لها بخصائصها الأصيلة .

الأستاذ محمّد الفاسيّ : أضم صوتي إِلى من سبقني بشكر الدكّتور عبد الله الطّيّب ، وأوضح أنّ العربيّة لم تتغير لا فِي ألفاظها ولا فِي تراكيبها وقواعدها عن لغة العصر الجاهليّ وأدبه والإسلاميّ وأدبه ، وإن كَانَ التّغيير واضحًا فِي اللغات الأجنبيّة ، فإذا جاء واحد منهم يتحدث بلغة القرن الرّابع عشر أو القرن الخامس عشر لا يفهم ، عَلى حين نفهم نحن الشّعر الجاهليّ اليوم ونحن نعيش عصر الطّائرات ، وهو يتحدث عن الإبل ، ولم يأت أحد اليوم ليقول : انصبوا الفاعل أو المبتدأ ، وكل هَذِه القواعد قديمة وثابتة إِلى اليوم، وإن كَانَ الأجانب قد طوروا فِي قواعد لغاتهم .

الدّكتور عبد الرّزاق محي الدين : يبدو أن موضوع هَذَا البحث حساس ، ويجب أن نناقش هَذَا الموضوع مناقشة منهجية موضوعية هادئة ، وفِي ضوء القوانين العامّة للّغة ، ونحاول أن نخرج بشيء إيجابي ينفع النّاس ، ولن يتأتى هَذَا إلا مَعَ رحابة صدر ، ودقة بحث .

الدّكتور أحمد عزّ الدّين عبد الله : إنّ ما جاء بالبحث يجب ألا يمر مرورًا عابرًا ، وأقترح أن يدرس بجديّة ، وتعرض نتائجه عَلى المؤتمر القادم إن شاء الله .

الدّكتور عبد الله الطّيّب : لابدّ من التّفريق بين التّطور الأدبيّ وتطوّر اللّغة ؛ فالتّطوّر الأدبيّ موجود الآن ، ولكن تطور اللّغة يجب أن ينظر إليه بحذر ، خاصّة ونحن نعيش عصر تدهور للعربيّة ، ولا مناص من مصارحة أنفسنا بهذا ، فقد أصبحت هناك أقلام تنكر النّحو والصّرف وتسخر منهما . ولتطوير اللّغة يلزمنا أن نصفّي النّحو من المشكلات الّتي يتعسّر فهمها مَعَ عدم جدواها ، وبعد أن تنتشر عربيتنا السّليمة المسهّلة ، ندع النّاس يضعون ما يشاءون من أساليب . فحسهم اللّغويّ آنذاك سيكون عربيًّا .

وما دعاني إِلى هَذَا البحث إلا إحساس بتدهور اللّغة تدهورًا شديدًا . وعلى سبيل المثال: قلّ من ينطق الذّال نطقها الصّحيح ، بل تحولت زايا ، وكذلك الثّاء والظّاء .

ولذلك يجب عَلى المؤسسات المسئولة أن تضطّلع بدورها فِي هَذَا المقام ونأمل خيرًا بعد ذلك .

الدّكتور إبراهيم مدكور : جرى العرف أن نحيل ما يتضمّنه أيّ بحث من مقترحات عَلى اللّجان المتخصّصة ، ويمكن أن تحال مقترحات الدّكتور عبد الله الطّيّب إِلى الجنة الأصول ولجنة الأدب .

(موافقة)

المحور الثّامن : الموازنات اللّغويّة .

(٥١٥-٥٥٩)

أ ــ حول العاميّ والفصيح* (١)

قال أبو العلاء المعريّ فِي إحدى كلماته الجيادِ من ديوانه «سقط الزّند» :

أُوَدّعُكُـمْ يـا أهـلَ بَغـدادَ والحَشَـا عَـلَى زَفَـراتٍ مـا يَنِـينَ مِـن اللّـذْع
ومـا الفُصَـحاءُ الصِّـيدُ والبَـدْوُ دارُهـا بأفْصَـحَ قـوْلاً مِـن إمـائِكُمُ الوُكْـع

الفصاحة جمال اللّغة ، وفِي الحواضر يكون ذلك فِي دور العلم وعند علية القوم الّذين تهيّئ لهم طبقتهم العالية سبل التّفرغ إِلى تحصيل الجمال وما يظن أنّه من درجات الكمال . وفِي البادية يكون ذلك هو الوجه فِي كلّ ضروب التّكلم والمخاطبة لخلو حياة البادية من كدح حياة الحواضر وإنّما هو المرعى والحلّ والتّرحال ودرء الغارة وقرى الضّيف والتّمدح بالمآثر .

وقد نصّ العلماءُ القدماءُ عَلى أنّ حياة الحواضر ومخالطة بلاد العجمة كلّ ذلك ممَّا يُدْخِل عَلى أسْر اللّغة اللّين واللّحن . وكان أهل حواضر العرب الكبرى فِي الجاهليّة يرسلون بنيهم إِلى البادية ليألفوا هواءَها وماءَها وتهرت أشداقهم بفصاحتها ذكروا ذلك عن قريش وعن ملوك الحيرة ووصفوا الطّائف بلين الأشعار واستثنوا المدينة إذ كَانَ أهلها مَعَ أنّهم قطّان آطام أهل قتال وفلاحة وكأنّهم فِي بادية ، وإنّما كَانَ يمثل جانب الحضارة ما كَانَ بقريتهم من يهود .

وكان أهل حجر وناحيتها بادين مَعَ كونهم أهل نخل حاضرين . وذكر التّوحيديّ فِي الإمتاع والمؤانسة أنّ العرب كانوا فِي بداوتهم حاضرين لما كَانَ يجمع بينهم من مواسم

* ألقي هذا البحث في الجلسة التّاسعة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأربعاء ١٠ من شعبان سنة ١٤١٠هـ ، الموافق ٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠م .

(١) المجلّة ، جـ ٦٦ ، ص ١٩٠ . (حسن) .

التّجارة والحج والأسواق وما كانوا يقيمونه فِي تلك المواسم من لقاءات البلاغة والبيان .

فِي عصرنا هَذَا الحاضر غلب جانبا التّحضر : بمعنى سكنى المدن والعكوف عَلى ضروب نَصبها وكدحها ، وبمعنى مخالطة العجمة الَّتي طما بحرها واستفحل أمرها .

أكثر العاميّ الَّذي فِي المدن الآن ليس بفصيح .

وكانت من الفصاحة بقية باقية بين النّساء حين كانت حضارة العصر بعيدة عنهنّ بحكم ما كن عليه من بداوة حياة الحجاب ومحافظتها وقلّة اختلاف أكثرهنّ إِلى المدارس الحديثة الآن ، الحال عَلى خلاف ذلك .

اللّغة الفصيحة والعاميّة فِي أصلها شيءٌ واحد . وكان يفرق بينهما ذوي نطق الكلام . فالنّاس حين يتكلمون تغلب عليهم أساليب من العجلة ، فربّما بتروا الكلمات أو أدخلوا بعضها عَلى بعض .

روى ابن جني فِي المحتسب أنّه سمع امرأة تلوم بناتها إذ رأتهنّ يتحدثن إِلى رجل أو رجال غربَاء فقالت : «أَفِسَّوَتِنْتُن» ؟ أي أَفِي السّوأَة أنتن ؟ ـ سهلت ونقلت وأدخلت كلامًا فِي كلام .

وفِي الحديث أنّهم كانوا يسمعون دويّ كلام وافد وفد عَلى رسول الله ﷺ ولا يتبينون ألفاظه . وبعض العرب يقولون الآن : يدوي ويهدر يعنون يتكلّم ، كما يقول بعضهم : يحكي وينطق وفِي عاميتنا ينضم ، أي ينظم وأرى أن تفسير قول أبي حيّة :

إذا هنَّ ساقَطْنَ الحديثَ كأنّه ... سقاط حَصَى المرجان من كفِّ ناظمِ

يستقيم عليه حقًا ، عَلى طريقة ما يسميه البديعيّون بالاستخدام ، أي ممّن ينظمه فيساقطه فِي سلك النّظام حبّة بعد حبّة أو من كلام متكلم كأنّ كلّ كلمة جمانة يساقطها من فمه ومع ذلك إشارة الكفّ كما قَالَ امرؤ القيس :

تَصُدُّ وَتُبدي عَن أَسيلٍ وَتَتَّقي ... بِناظِرَةٍ مِن وَحشِ وَجرَةَ مُطفِلِ

وَتَعطو بِرَخصٍ غَيرِ شَثنٍ كَأَنَّهُ ... أَساريعُ ظَبيٍ أَو مَساويكُ إِسحِلِ

وممّا يجري مجرى «أفسوتنتن» الَّذي رواه ابن جني فِي مألوف عاميّة الجعليّين من قبائلنا:

«موحجفْغَل عليك» ، أي «ما هو حاجًا غلا عليك» ، أي أنت أهلٌ لهذا وأكثر .

والشّبه بين هَذَا وبين «أفسوتنتن» إدخال الكلام بعضه فِي بعض . ما هو ، صارت مو - حاجًا غلا : التحم أولها ، بآخرها من طريق تخفيف مدّة الألف .

وقريب من هَذَا ما هو مألوف فِي سائر لهجات عاميتنا من قولهم : «أمانه ما قال» «أمانه ما هو كضاب» أو مو كضاب - أي أمّا إنه ما قَالَ . أمّا إنه ما كضاب . وما الثّانية عماد ، وهي الّتي يقال لها : الزّائدة ، كقولهم : شر أهرَّ ذا ناب . وما نُسِب إِلى تأبّط شرًّا من قوله :

خَـبَرٌ مـا نابَنـا مصـمَئِلٌّ جَـلَّ حَتّـى دَقَّ فِيـه الأَجَـلُّ

وقال تعالى ، جلّ من قائل : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص : ١١] .

وليس المراد بأمانة هنا لفظ الأمانة .

على أنّ «أمانة» كثيرًا ممّا تقع فِي مجرى الكلام العاميّ بمعنى القسم كقول الأطفال :

أمانـه عليـك تقـدد عينيـك

هذا يقولونه فِي لعبة كم فِي الخطّ ، يخط أحد الصِّغار خطًّا ويكتب فيه رقمًا أو يخفى شيئًا ويصيح :

- هي لبْلَبْ ، أي يا تُيَيْس .

كم فِي الخطّ ؟

ويخمّن الولد الآخر كم فِي الخط فيقول مثلًا :

عشرة .

ويكون المكتوب اثنين فيقول الأوّل :

- كضبا كاضب .

أي كذبا كاذب ، أي أنت كاذب كذبًا .

والمفعول المطلق كثير فِي استعمالنا العاميّ مشى مشيًا سمح أي سمحًا وجرى جَرْيًا شديد ، والآن يقول المتحضرون : جرى جري شديد وربّما لم يقولوا هَذَا واكتفوا بيعمل جوقنق ، فسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

وكانت الذّال فِي عاميتنا تصير نوعًا من الضاد ، وكان ممّا يستعمل المصدر النادر فِعَّال وتِفِعّل كأنه معدول به عن تَفَعُّل ، ومنحوٌّ به إِلى تِفِعَّال وتدخل الْفِعَّال الإمالة . والْفِعَّال فِي القرءان ، قَالَ تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ : ٢٨] ، وفِي عاميتنا نقول : هو بيكضّب كضِيب ـ الياء رمز الإمالة هنا بعد الضّاد المشدّدة . وهو يفرقن فريق أي يفرقّهم فِرَاقًا ، أي تفريقًا . وتصير ميم الجمع المذكر نونًا ، فإذا أرادوا النّسوة قالوا : يفرِّقِنْ ، كسروا ما قبل الآخر .

وما زالت عندنا نون النّسوة فِي استعمال اللّهجة القديمة الصّحيحة : يَمْشَن يمْشِن ، أي يمشين ، يَجْنْ ، يجِنْ ، فمن قَالَ : يمْشَن كأنّه أختزله من يَمْشَيْنَ كقولك : يَسْعَيْن كأنّ أصله عنده مَشَى يمشي بالفتح مَعَ أنّه إذا لم يسنده إِلى ضمير متّصل لا يقول إلّا مشى يمشي بالكسر والياء ، وجرَى يجرِي وهِنْ يَجْرِنْ .

ومن قَالَ : يَمْشِنْ ويَجِن جاءَ به عَلَى الأصل ، وما عدا أنّ قصَّر الحركة .

وما كَانَ أحد عندنا يقول : البنات حضروا أو قالوا ولكن جعل هَـٰذَا الاستعمال يفشو الآن فِي المدن الكبيرة .

وأوشك المبني للمجهول أن يهمل وكنا نقول : من فعل كذا يَضرَب ويقْتل : أي يُضْرب ويُقتَل .

وضِرب وقِتِل ، أي ضُرِب وقُتِل ، والآن يقال : ضربوه وقَتَلُوه .

وممّا كَانَ يجري مجرى المفعول المطلق نصب الأسماء وتنوينها لضربٍ من التّوكيد كقولهم : هو راجلًا طيّب ـ يختلسون كسرة الجيم حتى تكاد تكون أو تكونَ سكونًا ، وكأنّ هَذَا الضّرب من الاختلاس السّكوني كَانَ لَهُ أصل قديمًا وببعضه أخذ قراء القرءان وقد عرضت لأشياء منه فِي كلمة لي منذ زمان فِي هَذَا المؤتمر الكريم مثل : يخصِّمون فِي قراءَة أبي جعفر ، ونَبَّه ابن رشيق عَلى بيت سيبويه الشّاهد :

كأنّها بعد كلالِ الزّاجرِ ومَسْحِه مَرُّ عُقابٍ كاسِرِ

وراجل كأنّها أصل فِي رجل ، يدلّك عَلى ذلك قولهم فِي تصغيرها فِي الفصيح :

«رُوَيْجِل» وبعض العرب يقولون : «رجال» وكأنّه صيغة المبالغة من «راجل» ومنه اسم الرجّال بن عنفوة أخي بني حنيفة ويقال فِي عاميتنا : «الرّجاجيل ، جمعًا للرجال وأكثر ما تقول ذلك النّساء .

وعندي ، لعلّه كَانَ مذهبًا للعرب أن ينونوا لا يبالون أكان ذلك نصبًا أم غيره فِي باب التّنبيه والتّوكيد ، قَالَ الشّاعر :

بَدا لِيَ أَنّي لَستُ مُدرِكَ ما مَضى وَلا سابِقاً شَيئاً إِذا كانَ جائِيا

وروى عن رؤبة : خيرٍ إن شاء الله .

وقال أُمية بن عائذ :

ويأوي إِلى نسوةٍ عطلٍ وشعثاً مراضيع مثل السّعالي

فيما رووا من وجوه إنشاده .

والبداوة غالبة عَلى أهل قرانا ومعها الفصاحة وألفاظ ممّا يبحث عنه فِي المعجم تدور عَلى ألسنتهم ، كقولهم : جانا سكة عُمي ، أي نصف النّهار ، يجعلون الصّاد سينا وهذا من القلب كثير ، ونحو منه قلب الهمزة عينًا . وأكثر الجعليّين والشايقية ، والرّباطاب وغيرهم كانوا إِلى عهد قريب يقولون : الله يسعك ، وسعنلي سُعال نكير ، ويقولون : كعب ، أي ذو كأبة تصير الهمزة عينًا .

ويقولون : ناس فلان أخدتم العيمة ، أي أخذتهم ، كأنّهم أَدغموا ثمَّ حذفوا الهاءَ كإدغام نبتّ فِي نبذت وأختّ فِي أخذت والعيمة ، أي شهوة اللّبن والعطش إليه ، كالقرم، أي شهوة اللّحم ويقولون : قرمان .

ومن الكلمات الدّائرة فِي أكثر العاميّة المستعملة الآن فِي بلاد العرب : جُغْمة ، وجغيمة، وأحسبها من تحويل الدّال جيمًا كما تحول الجيم دالًا كقولهم : دحش ودحيشَ فِي جحش وجحيش ، وحلُّوف بمعنى الخنزير البرّيّ فِي أكثر العاميّات ، وليس فِي المعجم ما يدل عليها إلّا أن تكون محرفة من قلوب . وقد تصير الباءُ فاء ، ولا أدري أتصير القاف حاء وليس بأبعد من صيرورة الخاء جيمًا كما صار فِي بعض لهجات المغرب وكما فِي اللّغة

الإسبانيّة ، حيث يقال : خوزي ليوسف صارت الياءُ جيمًا ثمَّ خاء ويسمى الجزر خزو فِي المغرب .

ونقول : دابه جاي ، أي هو بسبيل أن يجيء كما يقال فِي مصر : زمانه جاي ، ودابهْ يجي فِي المغرب ، أي سيأتي قريبًا وفِي قراءَة من قرأ تزرعون سبع سنين دَأَبا أو دَأْبًا فسره الطبريّ بقول امرئ القيس :

كَـدَأبِكَ مِـن أُمِّ الحُـوَيرِثِ قَبلَهـا وَجارَتِهـا أُمِّ الرَبـابِ بِمَأسَـلِ

أي عَلى عادتكم فيما مضى .

وفسره الزّمخشريّ قَالَ بسكون الهمزة وتحريكها وهو مصدر دأب فِي العمل وهو حال من المأمورين ، أي دائبين إمّا عَلى تدأبون دأبًا وإمّا عَلى إيقاع المصدر حالًا بمعنى ذوي دأب ، وهذا الوجه شبيه بدابا المستعملة الآن فِي وجه المعنى ، والله تعالى أعلم .

ومن العاميّ الفصيح فِي أكثر لسان العرب الآن إمالة المثنّى فِي قولنا : كتابين وولدين يلزمونه هَذِه الحال رفعًا ونصبًا وجرًّا ، ففِي الرّفع تمال الألف وفِي الحالتين الأُخريين تمال الفتحة وهذا باب واسع .

ونقول : طخا ، أي سحاب متفرق مفرده طخاة وفِي القاموس طخاءة ، ونقول طخاية وهذا من باب الإبدال ، والتّسهيل فِي عاميتنا كثير ، ومن سهل الهمزة فقد يحذفها بعد التّسهيل ويزيد فِي مد ما قبلها ، وعليه قراءَة ورش فِي نحو : ثمَّ إذا شاءَ انشره ، أثبت الأُولى ومدها مكان الثانية ، وقد تحذف ، حذفًا كما روي عن أبي عمرو وقالون .

ونقول : قَنَّب ، أي قعد ورواه قطرب فِي كتاب الأزمنة وقَعد يسوّي بمعنى صار يفعل كذا وكذا ، وفِي الشّواهد النّحويّة أرهف شفرته حتى قعدت كأنّها حربة .

وأمثال حدبه وقلت وعِدّ وثَمد كثيرة . يقولون : تَمد ويقول الدّناقلة لنوع من التّمر «بتّمودَهْ» وكنت أحسبها نوبية خالصة ثمَّ بدا لي وسألت فلم تفسر لي تفسيرًا شافيًا . وزعم بعضهم أن هَذِه التّمرة يقال لها : «بتّمودَهْ» ، أي «بنت الموضة» وهذا باطلٌ ، ويقال للتّمر بلغة دنقلة بَت وبَنت فيما ذكروه ، وفِي العربيّة البتّ التّمر المتفرق وتصير الثّاء تاء

قلبًا كثيرًا فِي عاميّات كثيرة وجاء منه فِي العربيّة وقصة الخليل مَعَ الأصمعيّ فِي : الكثير الخبيث ، معروفة .

فلَمْ أشكّ أن «بتمودة» أصلها عربي أي بت ثمودة ، أي بت ثمادة ، أي ثمودة أو ثمدة أو قل نمدة كما نقول فِي عاميّتنا العربيّة . وسألت من بعد فعلمت أن ـ «بتمودة» تعد أرقى من البركاوي وهو تمر شديد الحلاوة وهما يتشابهان فِي الهيئة فيفرّق بينهما بأنّ «بتموده» ترسب فِي الماء فِي الحال .

وهذا الباب بعد واسع كما يقول صاحب الكتاب ، ووددت لو كَانَ المجال يتسع للذي يقال لَهُ أو يظن أنّه فصيح وإنّما هو لحن ، كقولهم : مدراء وهو فاسد وكقولهم أثرانا ويثرينا والفعل لازم أثري ، أي صار ذا ثراء وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ [النجم : ٤٨] فلا أدري لِـمَ يعدل الناس الآن عن هَذَا المنهج القرءاني .

والحمد لله عَلى ما قضى ، ومنا بذلك الرّضا ، وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ب ـ بين الفصحى والعامّيّة فِي وسائل الإعلام* (١)

فِي كتاب سيبويه «أيٌّ : مَن إِن يأتِه مَنْ إن يأتِنا نُعْطِه يُعْطِهِ تَأْتِ يُكْرِمْك» ا.هـ وفِي موضع آخر : « وسألت الخليل عن قولهم أَيّتهُن فلانة وأَيُّهنّ فلانة» فقال: إذا قُلْتَ أيّ فهو بمنزلة كلّ ، لأَنَّ كُلاً مذكر يقع للمذكّر والمؤنث وهو أيضًا بمنزلة بعض، فإذا قلت : أَيّتُهن فإنك أردت أن تؤنث الاسم ، كما أنّ بعض العرب فيما زعم الخليل يقول : كلّتهن منطلقة .

وفِي الباب الَّذي يلي هَذَا باب أي إذا كنت مستفهمًا بها عن نكرة «وإذا قَالَ رأيت امرأة» قلت : أَيَّة يا فتى ، فإن قَالَ : رأيت امرأتين قلت أَيَّتَيْنِ يا فتى فإن قَالَ رأيت نسوة قلت : أَيَّاتٍ يا فتى. ومضى سيبويه يحكي راويًا وذا رأْيي قال: «فإن تكلم بجميع ما ذكرنا مجرورًا جررت أيا وإن تكلم به مرفوعًا رفعت أيا لأنّك إنّما تستفهم على ما وضع المتكلم عليه كلامه » ثمَّ قَالَ : «قلت : فإذا قَالَ : رأيت عبد الله ومررت بعبد الله قَالَ : فإن الكلام: ألا تقول أيًّا ولكن تقول من عَبْدُ الله وأيٌّ عَبْدُ الله لا يكون إذا جئت بأيٍّ إلا الرّفع» . ا. هـ.

وهنا نتساءل فلم قَالَ من قبل «فإن قلت : رأيت نسوةً قُلت أَيَّاتٍ يا فتى؟ هل قوله يا فتى وَحْدَها يريد به الوصل فذلك جعل الاستفهام يُجْرَى عَلى النّصب أو هل ثَمَّ وجهٌ آخر؟

وقال سيبويه فِي باب آخر «اعلم أنّك تثني أيا وذلك قولك : رأيت رجلين فتقول مَنَيْن كما تقول أَيّينِ وأتاني رجلان تقول مَنَان وأتاني رجالٌ تقول مَنُونَ وإن قَالَ : رأيت رجالًا قلت منين كما تقول : أيين وإن قَالَ رأيت امرأة قلت مَنَه كما تقول أَيَّةً ، فإن وصل قَالَ من

---

* المجلّة ، جـ ٩١، ص ١١٥ . (حسن) .

(١) ألقي هذا البحث في الجلسة الرّابعة من مؤتمر المجمع في الدّورة السّادسة والسّتين بتاريخ ٣٠ من ذي الحجّة سنة ١٤٢٠هـ الموافق ٥ من إبريل (نيسان) سنة ٢٠٠٠م .

يا فتى للواحد والاثنين والجمع.

وبَعْدُ .. فجميع هَذَا الَّذي تقدم لا يستعمل فِي اللّغة الإعلاميّة المعاصرة ولم يستعمل فِي الَّذي بلغنا من إعلاميّات وإعلاميّين فِي عصور العربيّة الزّاهية زمان المحدثين ، هَذَا نقوله عَلى تقدير أنّ أصحاب الرّسائل والكتّاب والشّعراء كانوا بمنزلة ما نسميه الآن إعلاميّين وإعلاميّات.

هذا الَّذي جاء به سيبويه عن رأي أو رواية مأخوذة عن الفصحاء أو مقيس عَلى ما أُخِذَ منهم. وهؤلاء الفصحاء من العرب كانوا سادة أو مؤدّبين. واللّغة العالية أبدًا لغة العلية من النّاس ومن يخدمهم أو يحاكيهم، هَذَا عند العرب وعند غيرهم. وفِي تذكرة الحفاظ للذّهبي فِي ترجمة زِرّ بن حبيش: «كان زِرٌّ من أعرب النّاس. كَانَ ابن مسعود يسأله عن العربية» وابن مسعود صحابيّ جليل أقدم عهّدا ومولدًا وأجل قدرا من زر بن حبيش ومن كثير من خيار العرب ، وكان رضي الله عنه من هذيل وهي من أفصح قبائل العرب معروفة بذلك ووثيقة صلة الرّحم والدّار بقريش وقد يذكر أن أبا الأسود الدّؤليّ كَانَ ذا علم بالعربيّة، وخبره مَعَ أمير المؤمنين ومع زياد معروف.

وهلْ أَيَّاتِ الَّتي ذكرها سيبويه كلمة واحدة منصوبة أو كلمتان « أياتْ » مجزومة وقفًا ثمَّ هِنْ دالةٌ عَلى الإناث مختزلة ومُغَيَّرة من هن كما فِي عاميتنا الآن – نقول «هِنْ للنسوة و «هُنْ» للرّجال وهي فِي الفصيحة كذلك عند الجرّ كقوله تعالى : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] . والنّون والميم متقاربتان وبعض اللّغات أخوات العربيّة تجمع بالياء والميم مكان الياء والنّون.

وفِي كتاب سيبويه : «وإن قلت : رأيت امرأتين قلت مَنَتَيْن كما قلت أَيَّتيْن إلاّ أنّ النّون مجزومة» ، فلزم سيبويه فِي التّأنيث الوقف خلافًا لما فعل فِي التّذكير.

فعلى هَذَا ما زعمنا فِي «أَيَّاتِ» أنّها من أياتْ مجزومة بعدها هنْ ثمَّ أسقطت الهاء وضمَت إلى ما قبلها فنشأت من ذلك أَيَّاتِ. ونحن فِي عاميتنا نقول : إن قَالَ رأيت نسوة : إياتِ وإن قَالَ رأيت رجالا إِيّاتٌ – أي إِياتْ هُنْ أي هم .

وقال سيبويه فِي موضع آخر: « فإن قَالَ رأيت نساءً قلت : مناتْ كما قلت أيَّات إلا أنّ الواحد يخالف أيا فِي موضع الجرّ والرّفع وذلك قولك : أتاني رجل فتقول مَنُو وتقول مررت برجل فتقول مَنِى.

فِي عاميتنا فِي السّودان : إن قَالَ أتاني رجل تقول مِنُو وكَأنَّ أصل هَذِه (مَنْ هُو) ثمَّ كأن المتكلم حاول البدء بالسّكون وتخلص من صعوبته بالكسر فقال مِنُو. ولعلّ مثل هَذَا التّصرف هو أصل مِيْن المصريّة. ومِنُو فِي لهجتنا كأنّها من (مين هُو) وإذا قَالَ : رأيت امرأة قلنا : مِنِي أي (مين هي) بتقصير الإشباع وجعله كسرة بدل الياء.

الَّذي أهمّ بقوله هو : أنّ اللّغة الفصحى العالية الَّتي لا نجدها إلا فِي كتب النّحو وكتاب سيبويه وما أشبهه لعلّها كانت متداولة فقط فِي المحادثات ؛ إذ لا شاهد عليها فِي القرءان والمأثور من الخطب والحديث والأشعار. هل كانت هَذِه الأشياء الَّتي رواها سيبويه عن الخليل ويونس وأشياخه كأنّها عامية فصحاء البدو والرّؤساء رويت وقيس عليها؟

عندي أن لهجتنا العامّيّة فِي السّودان قد احتفظت بكثير من الكلام الفصيح الأصل. وأحسب أنّ مثل الَّذي فيها أو قريبًا منه يوجد فِي أكثر عامّيّات العرب مَعَ ما عراها من لحن وتغيير. والتّغيير من سنن الكون. ولن تجد لسنة الله تحويلا.

قد بين الإعلام الحديث بما لديه من مناهج بارعة ووسائل حديثة عَلى نشر بعض مظاهر الكلام المُعْرَب أو المقارب لَهُ عَلى نطاق أوسع. ولكنّه مَعَ ذلك سيدخل فِي أسلوب التّفاهم أصنافًا من اللّين واللّكنة الأعجميّة المباعدة لنا بطابعها ذي الوحدة القوميّة عن طابع أصالتنا النّابع من لغة القرءان والأسلوب الَّذي هو لغة الضّاد الفصيحة.

عسى أن يكون من الحكمة ألّا ننجرف فِي محاربة العامّيّة. ولكن نسلك مسلكًا معتدلًا كأسلافنا، ندرس اللّغة الفصيحة لنفهم القرآن والحديث والفقه وأدب العرب ونعبر ببيان ينظر إِلى أجود ما صيغ بعد ذلك من نماذج ولن تقصر الأصالة المكتنّة فِي العامّيّة أن تغذونا بما ينبعث فِي بياننا من حين إِلى حين من بلاغة وفصاحة وتجويد وتجديد.

ولن يخلو عصر من العصور الَّتي نستقبل إن شاء الله من بارودِيّ يجدّد أو شوقِيّ يحدّث.

جـ ـ بين الفصحى والدّارجة*(١)

كان لأبناء العربيّة المتحمّسين لقوميتها الحديثة مطمع أن يجعلوا اللّسان الفصيح هو المتداول فِي التّواصل اليوميّ عَلى وجه مشابه لما تم للمثقّفين ومقاربيهم فِي أوربّا وامتداداتها فِي استعمال الصّحيح من ألسنتهم فِي التّداول والتّواصل اليوميّ بالكلام . وقد كانت فِي البلاد العربيّة ، وخاصة فِي مصر والشّام نهضة طيبة وإنتاج علميّ وتعليميّ وأدبيّ نفيس .

ثمّ جعلت ترتفع أصوات تهمس بنوع انتكاس من الدّعوة إِلى استعمال الحرف اللّاتينيّ، واللّسان العامّيّ . وحاربتها الأمة العربيّة بسلاحين ، سلاح الدّعوة إِلى الوحدة الجامعة بين العرب ولا يكون ذلك أبدا بلهجات العرب المختلفة النّطق والمعادن والأساليب وإنّما يكون باللّغة الفصيحة والاقتراب كلّ الاقتراب من منهجها وأساليبها وبيانها نطقًا وكتابةً . وسلاح الدّين واللّغة العربيّة الفصيحة هي لغة الكتاب والسنة وحضارة الإسلام وعلومه.

ثمَّ نشأ لسان مشترك بين العرب من طريق وسائل التّواصل والإعلام الحديث ملفق من اللّغة الفصيحة والأساليب الدّارجة بين الطّبقات المثقّفة كرجال الدّين والتّعليم والصّحافة والقادة الخطباء السّياسيّين والشّعراء المنادين بالحريّة المندّدين بالاستعمار وبرجال الأدب والنّقد والقصّة والمسرح .

وصحبت نشأة اللّسان الفصيح المشترك التّلفيقيّ عَلى النّحو الّذي قدمناه حركة أخذ وتعريب ونزعة شبه شعوبيّة من بعض طالبي التّشبه بالإفرنج واللّحاق بهم فِي نوع من عجلة وتقليد أعمى .

وعادت مرّةً أخرى دعوة إِلى العامّيّة متمثلة فِي التزام المسلسلات المسرحيّة فِي سائر بلاد العربيّة لغة اللّسان العامّيّ ، وتخالط ذلك روح منافسة بين الألسن العامّيّة كأنّها تريد

---

* المجلّة : جـ ٨٩ ، ص ٥١ ، (حسن).

(١) ألقي هذا البحث في الجلسة السّادسة يوم الخميس ١٣ من ذي القعدة سنة ١٤١٨هـ الموافق ١٢ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٨م.

أن تضاهي سيرورة عاميّة القاهرة .

وتوجد مسلسلات فصيحة اللّسان إلا أن التّكلف فِي التّعبير الَّذي ينبغي أن يصدر بروح الطّبيعة والفطرة هو الغالب عليها . مما يقوي أو يظن أنّه يقوي أصحاب القول بأنّ اللّغة الفصيحة لا تصلح كل الصّلاحية للبيان العصريّ . ويلحق بهذا القول الشّعوبي النزعة ما ينادي به المنادون من أمر الشّعر الحرّ والقصيدة النّثريّة .

ويدعو بعض الفضلاء المربّين إِلى وضع خطّة تربويّة جادّة تهدف إِلى إحلال اللّغة الفصيحة محل العاميّة فِي المدى البعيد، معتمّدين عَلى قول بعض النّظريّات العصريّة بأنّ لتعليم اللّغات فترة فطرية المنهج كفترة الرّضاعة الَّتي تبدأ بطبع الطفل وفطرته بعد مولده. فيقال : إنّ هَذِه الفترة تنتهي بانتهاء السّنة السّادسة ويكون الدّماغ بعدها معدًّا للتّعلم فيتعلم اللّغة كما يتعلم غيرها من المعارف وفِي هَذَا عناء من التّلقي لا يبلغ فِي اليسر مبلغ الفطريّة .

وعندي أنّ اللّغة الفصيحة ينبغي أن تدرس بأسلوب يبلغنا المقصد الأوّل من درسها وهو معرفة لغة القرءان والحديث والبيان الأصيل الَّذي جاء به نعت القرءان من لدن حكيم حميد . وذلك أن نبدأ بخطّ أحرف الهجاء لنقرب النّاشئ من معرفة صورها فِي سن مبكّرة كالرّابعة مثلا ثمَّ نأخذ بتعلمه القرءان بدءا بالفاتحة للتبرّك ثمَّ اصعادًا من سورة النّاس إِلى سائر سور المفصّل ثمَّ بعد ذلك تعليم اختيارات من الشّعر تحفظ ويصاحبها النّحو ثمَّ نعلم بعد ذلك الحديث والفقه فإذا بلغ النّاشئ السّابعة كَانَ قد احتوى صدره علمًا وافيًا من آيات القرءان ومتون الشّعر ونصوص الحديث .

ثمَّ بعد السّادسة وذلك فِي سن السّابعة يسار بالنّاشئ والنّاشئة عَلى درب التّعلم الحديث عَلى أجود طرقه مَعَ الاستفادة من أساليب الإعلام والتّواصل الحديثة .

ومع هَذَا كله لابد من الحفاظ عَلى أصالة اللّغة الدّارجة فِي كل بلد عربي لما تتضمنه من روح الجزالة والبيان الأوّل . وقد فطن الأوائل إِلى أن جزالة العربيّة قد داخلها لين الحضارة فلم يستشهدوا بجيل يشار عَلى قوة تعبيرهم وتمكنهم من جوهر فصاحة اللّغة وختموا باب

الاستشهاد بابن هرمة وبالغ أبو عمرو بن العلاء فكره الاستشهاد بابن قيس الرّقيّات عَلى فضله ولم يتابعه فِي ذلك العلماء . وذكر ابن جنّيّ فِي الخصائص أنّ فصاحة العرب الأولى بقيت منها بقايا إِلى زمانه إذ مرّ بأعراب بالبادية قَالَ أحدهم وهو يخاطبه (يحير) فأصلحه صاحب لَهُ فقال (يحار) وعلّق ابن جني عَلى ذلك بوصف المتنبّي بالصّدق فيما يقول .

والخبر الَّذي ساقه ابن جني عن أبي الطّيّب عظيم الأهمية لدلالته عَلى لون مما نذهب إليه من أنّ فصاحة البداوة الأولى لن تزال إِلى يومنا هَذَا باقية منها بقايا وعلينا أن نتفطن إِلى ذلك . وعلينا أن نتنبه إِلى أنّ رسائل الإعلام والتّواصل الحديثة ربما عصفت بهذه البقيّة النّادرة الباقية ومن أوّل أوجه التّنبه أن نوقف الحملة الجائرة عليها فلا ينبغي أن نحسب أنّها شيء معاد للّسان الأوّل الفصيح ، بل شيء داعم لَهُ ومعين عَلى المحافظة عليه . ولعلّنا كلما ابتعدنا عنه نبتعد من حيث لا نشعر عن أصول الفصاحة والجزالة . ولعلّنا إن تأمّلنا بعض ما بأيدينا من كتب اللّغة والنّحو أن نفطن إِلى أنّها قد غفلت عن أشياء مازالت تحتفظ بها اللّغة الدّارجة مثلا شاف يشوف . فِي كتب اللّغة معناها : جلا ويستشهد بيت عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

وتذكر بعد اشتقاقات وكلمات كلّها يمكن أن نستنبط منها بيسر وبلا تكلف أن الاستعمال الدّائر السّائر فِي كل بلاد العربيّة الآن من أنّ شاف معناها نظر ورأى صحيح — قالوا : وذكر ذلك صاحب التّاج عن ابن الأعرابي بعث القوم شيّفة لهم أي طليعة ومن الشّواهد قول قيس بن العيزارة الهذلي :

وردنا الفضاض قبلنا شيفاننا بأرعن ينفِي الطّير عن كل موقع

وأنّ شيفان مشفعة من شاف لا يخفِي وكذلك شيفة وفِي القاموس اشتاف الرّجل إذا تطاول ونظر والبرق شام ولعمري أنّ قولنا شام كقولنا شاف فِي هَذَا المجال .

ومثال آخر كلمات تدل عَلى زمان كقولنا فِي دارجتنا دابه جا توه جا وقول أهل مصر

زمانه جايي . قَالَ تعالى فِي سورة آل عمران (١٢٥) ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ . قَالَ الطبريّ : أصل الفور ابتداء الأمر يوجد فيه ثمّ يوصل بآخر وإلى نحو من هَذَا ذهب الزّمخشريّ فِي الكشاف واستشهد بقول أبي حنيفة فِي الأمر عَلَى الفور لا عَلَى التّراخي وفسر يأتوكم من فورهم هَذَا من ساعتهم هَذِه .

وفِي سورة يوسف (٤٧) ﴿ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا ﴾ فسره الزّمخشريّ بمعنى دائبين فِي العمل وحرف الزّمخشريّ أبو عمرو وهمزته ساكنة والحرف بفتح الهمزة وسكونها والاختلاف بين البصريّين والكوفيّين فِي جواز فتح السّاكن ليس موضع النّظر الآن إذ كلاهما قراءة صحيحة والوجه ما ذهب إليه الطّبري حين جعل الدّأب هنا بمعنى العادة وكان صاحب هامش طبعته الحلبيّة ظن أنّه فسر عَلَى أنّ الهمزة ساكنة وأحسبه لم يتنبه إِلَى أنّ الطّبريّ كوفِي المذهب فِي أمر السّكون والفتح والوجه الَّذي ذهب إليه فِي التّفسير أقوى من وجه الزّمخشريّ ويدخل فِي باب الزّمنيّات الَّتي قدمنا والعامّة يقولون : دابه جا ويجي دابا أي من الآن فصاعدًا وهذا باب طويل فلا نريد أن نطيل فيه .

والَّذي يعنينا هو ما قدمناه من أن الدّارجة الأصلية فيها نفس من روح البيان الأصيل يخشى عليه من غزوة إعلاميّات العصر ودخول العجمة من طريق العبّارات الصّحفية والإعلاميّة المترجمة فيفسد ذلك ذوق النّاس فِي العربيّة ولله در السّباعي رحمه الله فِي كتابه عن الأدب الجاهليّ إذ ذكر أن من البيان ما يستطاع فِي أعماق دارجة القاهرة بين النّساء اللّاتي لا يكتبن ولا يقرأن . وقد فطن المأمور عبد القادر مختار رحمه الله ، الَّذي كَانَ مأمورًا مصريًّا بمدينة القطينة بالنّيل الأبيض بالسّودان فِي أوائل هَذَا القرن الميلاديّ فصنع مسرحيّة سماها المرّشد السّوداني ضمنها عجائب من بلاغة العامة طبعت بالخرطوم سنة ١٩٠٨م وقد نبّهت بعض المشرفين عَلَى جوانب أدبيّة ثقافيّة فِي بلدنا إِلَى مكانها وآمل أن تعاد طباعتها ، ومؤلف آخر ضمن كتابه من فصاحة اللّغة العاميّة وبيانها أمثلة نادرة

صاحب كتاب (فِي شان الله) .

وقد حفظت الأشعار الدّارجة عندنا فِي السّودان ثروة عظيمة من علوم الدّين فِي الفقه والسّيرة والتّصوّف وضمنت مدح النّبيّ ﷺ بحب عظيم ذي صدق وحرارة وفِي كثير من قصائد المدح النّبويّ يصف الشّاعر النّاقة الَّتي يقصد بها القبر الشّريف من لدن بدء تربيتها إِلى حين وصولها إِلى باب السّلام ومن سمع مثل هَذَا الشّعر لم يسارع بتهمة معلقة طرفة أنها مصنوعة .

ونسأل الله التوفيق .

د ـــ العربيّة فِي السّودان [١]

هذا عنوان كتاب قيّم ألفه أحد السّابقين إِلى ربط السّودان بهذا المجمع الكريم ، بل قل أحد اثنين هما فاتحة من كرم بعضويّة هَذَا المجمع من أبناء السّودان . وذانك الشّيخ العلّامة الفقيه محمّد نور الحسن وكيل الجامع الأزهر سابقًا والشّيخ العلّامة عبد الله عبد الرّحمن الضّرير أستاذ العربيّة بكلية غوردون سابقًا، وقد تشرفت بزمالته حينًا قصيرًا من الدّهر ولكن عرفته قبل ذلك ومن بعد ، رحمهما الله رحمة واسعة. وأحسن المرحوم الوزير يحيى الفضليّ رحمه الله إذ أعاد طبع العربيّة فِي السّودان . وأحسن جماعة من أقارب المرحوم الشّيخ محمّد نور الحسن إذ أعادوا طبع تفسير «سورة النجم» ومؤلفات أخرى .

هذا وما أريد فى هَذِه الكلمة أن أتحدّث عن هذين العالمين الجليلين ولا عن كتابيهما . ولكنى أردت أنّه لا يدخلني تجاوز عن بعض الحديث عنهما فِي طائلة عتاب جرير حيث قال:

تمـــرون الـــدّيار ولم تعوجـــوا كلامكمـــو عـــلىّ إذن حـــرام

الذى أريد أن أتناوله هنا هو إثارة موضوع دخول العربيّة فِي بلاد السّودان متى دخلت؟ وكيف دخلت؟ وقد قرأت بعض ما كتب حول هَذَا المجال لا فيه نفسه- من بعض علمائنا ومؤرخينا فِي السّودان ، مثل: الأستاذ محمّد عبد الرّحيم صاحب نفثات اليراع، وأستاذنا الجليل مكيّ شبيكة ، وتلميذه النّابه الأستاذ يوسف فضل ، والشّيخ الدّكتور الرّيح العايد الرّوس .

وما كتبه فضلاء العلماء المصريّين ومنهم من ألمّ بالسّودان أو عمل فيه، عَلى رأس هؤلاء

---

(١) ألقى هذا البحث فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الأربعاء ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٤١٩ هـ الموافق ١٠ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩ م.
المجلّة ، جـ ٨٩ ، ص ٥١. (حسن) .

الدّكتور محمّد عوض محمد ، ثمَّ الدّكتور محمّد عبد العزيز أمين عبد المجيد، والدّكتور عبد المجيد عابدين رحمهم الله جميعًا.

وقد كتب عن العربيّة واللّغة فِي السّودان غير هؤلاء عَلى رأسهم الأستاذ نعيم شقير صاحب تأريخ السّودان ، والأستاذ عبد الحليم اليازجيّ صاحب الحركة الأدبيّة فِي السّودان، والسّير هرولد ماكما يكل صاحب القبائل العربيّة فى السّودان والأستاذ هايلسون صاحب اللّغة العربيّة فِي السّودان بالإنجليزيّة ، والدّكتور عون الشّريف صاحب موسوعة القبائل السّودانية واللّغة الدّارجة فِي السّودان- هؤلاء من تحضرني أسماؤهم وغيرهم كثير ممن عسى أن أكون قرأت لهم ثمَّ ندت عنهم الذّاكرة ومن غيرهم، ومن الجيل الذى تلا زماننا عدد كبير.

وقد وجدت فى الرّوض الأنف الّذى هو شرح لسيرة ابن هشام وهو معروف متداول، أنّه زعم أنّ العربيّة كانت معروفة فِي بلاد الحبشة قبل الإسلام . وقصّة سيف بن ذى يزن تدلّ عَلى شىء من ذلك . كذلك خبر قراءة سيّدنا جعفر لسورة مريم عند النّجاشيّ من غير تراجمة يُفْهِمُون معناها وفِي الحديث أنّ التّراجمة مما يكونون حضورًا عند ملوك الأعاجم كخبر أبي سفيان مَعَ هرقل ملك الرّوم الذى فى البّخاريّ .

وفى كتاب للأستاذ يوسف فضل بعنوان تأريخ السّودان وأفريقيا فى الجزء الثّاني منه : «إنّ العربيّة قد وصلت إِلى بلدنا السّودان قبل الإسلام وأن العرب أنفسهم قد كَانَ منهم بالسّودان عدد قبل الإسلام. غير أنّ العدد الأكبر قدم من طريق مصر بسبب المعادن من ذهب وزمرّد، ثمَّ فى زمان المماليك قد وقع ضغط وظلم عَلى عرب صعيد مصر فرحلوا إِلى السّودان» . وقد عجبت من ذهاب الأستاذ بروفسور يوسف فضل هَذَا المذهب فِي أمر المماليك مَعَ سماعي من المرحوم الدّكتور حسن فتحي رحمه الله فِي بعض أحاديثه أيام عيد القاهرة الألفِيّ سنة ١٩٦٩م حديث ثناء طيب عَلى عصر المماليك. وقد سمعت من بعد ومن قبل غيره يذهبون هَذَا المذهب. وأنا خاصّة لا أنسى فِي نفسي للمماليك أنّهم أصحاب موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وأنّهم كانوا حماة الأزهر، وأنّ بردة المديح وهمزيته وما تلا

ذلك من تخميس وتسبيع وتتسيع لهاتين الدرّتين فى مدح نبيّنا المحبوب صلى الله عليه وسلم قد كَانَ أكثره فِي زمانهم فرحمهم الله وعفا عنهم أن يك بعض ما زعمه البروفسور يوسف فضل صحيحًا .

على أنّ البروفسور يوسف فضل بتفصيله وبحثه الدّقيق يذكر أن عربا كثيرين استوطنوا بلاد المريس من أرض النّوبة واستعجموا لما كثرت مصاهرتهم لهم . وشرح البروفسور يوسف فضل اسم المريس بأنّه هو الّذى أطلقه العرب عَلى إقليم النّوبة بين أسوان إِلى دنقلة أو دونها شيئًا، ولم يشرح ما أسماه المريس أهو من المرس أي الحبل ؛ إذ كَانَ البحّارة يضطّرون إِلى جرّ المراكب بالحبال فِي هَذَا الإقليم ، أم هو من المريسة؟ وهي شراب ضعيف الإسكار يصنع من الذّرة ويُمْرَس بالأيدي مثل أن يجعل فِي آنية الشّراب، وكلمة سيرقوسا الّتى تطلق عَلى الجعّة فِي أرض إسبانيا لعلّها خلط من كلمتى «شربات» وينحى بالألف نحو الواو مثل الموصوف فِي النّحو بأنه ألف التّضخيم فِي لسان أهل الحجاز ومريسة – من مرست شيئًا فِي الماء إذا وضعته فيه لينقع. عندي أنّ اشتقاقه من حبل جرّ المراكب أقوى وأشبه ، لأنّهم كانوا يجرون المراكب فِي زمن التّحاريق فِي أرض الجنادل– والمرس بالتّحريك الحبل وهى فِي عاميّتنا فصيحة. وأهل النّوبة ذوو تجربة قديمة فِي الملاحة والعمل البحريّ . وفِي كتاب تأريخ العفر أى الدّناكل للدكتور هاشم الشاميّ (أصله من الشّام ولكنّه أثيوبيّ معاصر) أنّ أوّل أساطيل البحار صنعها المصريّون وكان أولها إبحارًا عَلى عهد سحر رع فِي حوالى سنة ٢٣٠٠ ق . م ، وكان بحارته نوبيّين من جزيرة الفيلة بأسوان ، وهم الّذين دلوه عَلى معرفتهم البحر وأغروه أن يمكّنهم من أسطول يسيرون به إِلى أرض بنط .

والحديث عن أرض بنط هَذِه وأصلها قد يطول ولعلّ مزيجا من العاملين باللّسانيّات والآثار والحفريّات والتأريخ أن يكونوا أدرى من كاتب هَذِه الأسطر بالنّظر فى أمرها . وإنّما أكتفِي فى هَذَا المجال المختصر الحدس أن أشير إِلى جواز وجود صلة بينها وبين فنج وكفنجة اسم قبيلتين بالسّودان الشّماليّ وكنج كوش الذى يقال إنّه سبق سيّدنا إبراهيم

الخليل إِلى معرفة التّوحيد ويدعى الفرس أنّه سبق زرادشت وكان فيهم وزعم الأزرقيّ أنّ الفرس كانوا يحجون إِلى البيت الحرام قبل الإسلام بزمان يضعف دعواهم سبق كنج كوشهم لإبراهيم الخليل وكلمة زنج ليست ببعيدة الجرس من كلمة ماقزوا الّتى تطلق عَلى المجوس فى بلاد هوسا وزعم أحد فضلاء الباحثين عندنا بالسّودان أنّ كلمة فونج ليست بعيدة من كلمة فينيقيا وهذا باب واسع .

وفِي كتاب تأريخ أفريقية والسّودان الّذى أشرت إليه آنفا أنّ بعض العرب سكنوا بلاد المريس وصاهروا فيها واستعجموا. وفِي كتاب سبائك الذّهب فى أنساب العرب أنّ قبيلة يقال لها الحدربة (أحسبها من الحضارمة) سكنوا مَعَ البجاة واستعجموا .

وقد يرى بعض الباحثين أنّ بلاد البجاة وبلاد النّوبة غربلت العرب إِلى داخل السّودان بدليل الذى شهده ابن بطوطة فِي القرن الرّابع عشر الميلادي من وجود بعض الكواهلة مَعَ إبلهم أو ماشيتهم بمراعي سواكن وقد صار الكواهلة من بعد إِلى أرض كردفان والنّيل الأبيض. وقد قدم الرّشايدة فِي القرن التّاسع عشر الميلادى من المشرق من طريق البحر الأحمر فأقاموا بشرق السّودان ثمَّ تسربوا إِلى داخليته وهم يتكلمون عربية مشرقية اللّهجة كأنها من شرقي نجد أو العراق. مَعَ هَذَا عندى أن تمكن العربيّة من وسط السّودان دون أطرافه مَعَ عجمة هَذِه الأطراف وتمكن العجمة منها حتى لقد تؤثر عَلى الوافدين العرب حين يؤثرون الإقامة فيها، كأنّه منبئ أنّه ينبغي أن يكون للعربيّة أصل قديم أصيل فِي الوسط. ويقوى هَذَا الحدث أنّ العربيّة الّتي فِي وسط السّودان، عَلى وجود تشابه مابينها وبين عربية الحجاز والأردن وصعيد مصر وبعض اليمن الشّمالِيّ ، مختلفة فِي جوهرها ، كثيرة المادة ، لاتزال تحتفظ بصيغة المبني للمجهول ونون النّسوة وضروب من التّكسير والمصادر مثل فِعّال وتِفعّال ، الأوّل : نحو كِضّاب بإمالة الألف وقلب الذّال ضادًا كما يحدث كثيرًا فِي لهجة السّودان وهى كِذّاب التى فِي سورة «عم» وتِفِرق بكسر التّاء وكسر الرّاء المشدّدة صيغة من التّفراق الّتي نسبها المعرّيّ إِلى تأبط شرًّا فِي طيف ابنة الحرّ، إذ كنا نواصلها ثَمَّ .

واتباع نون النّسوة الفعل الماضي بدون تسكين آخره ذكره سيبويه فى إلحاقها بنحو ردّ فِي قولهم ردّن – وهو مطرد عام عن كل فعل ماض عندنا نقول ردَّنْ وقالَنْ .

ومن صيغ المبني للمجهول فِعِل كقِتِل وضِرِب ، وأمَّا الموسوعة اللّغويّة فواسعة وفيها الاستعمال النّادر.

وذكر غير واحد من مؤرّخي اليونان أنّ العرب كانوا بشرق النّيل من عند مصر إِلى أرض علوة وذلك شرقيّ الخرطوم . من هؤلاء استرابو، وذكر هيرودوتس مشاركتهم لدارا الأوّل فِي حرب ماراثون ، والرّاجح أنّ غرب النّيل كَانَ يحكمه النّوبة أو الكوشيّون الّذين يقال لهم : العنج عندنا بالسّودان ويسميهم التّأريخ بمروى القديمة. وقد خبرني المرحوم الدّكتور أمير مصطفى عالم الآثار المصريّ أنّ عنج معناها حاكم. وهل عنخ تحريف عنج؟ وهل فنج بعيد من ذلك أو قريب ؟ الله أعلم .

والغالب عَلى الظّن أنّ العرب استوطنوا أرض شرق النّيل بدليل وجود آبار بها غاية فى العمق – ففى ناحية شرق شندى فِي منطقة المصوّرات بئر نحو ستين باعًا منحوتة من رأسها إِلى مكان الماء فى الحجر وهى وحدها موضع الماء ذى المدد وكلّ ماحولها حتى ما احتفره الإنجليز وركبوا عليه الطلمبات لا يستمر سحب الماء منه طويلًا. وفى ناحية الثّميد بالبطانة إِلى جهة الشّرق نحو نهر أتبرا بئر مبدؤها نحو من ثلاثين باعًا، ثمَّ الحفر اتجاهًا أفقيًّا نحو باعين أو ثلاثة، ثمَّ ينحدر عموديًّا حتى يصل الماء بعد نحو سبعين أو ثمانين باعًا – أكثر من مئة متر. هَذَا الحفر للآبار عربيّ النّسخ. وما يزال الأعراب أهل البادية إِلى يومنا هَذَا هم أعرف النّاس بحفرها وهم القنّاؤون مثل هدهد سيّدنا سليمان عليه السلام .

وسمعت من أهل الأخبار الموثوق بهم عندنا أنّ إحدى القبائل طغت عَلى قبيلة أخرى بأرض البطانة وكادت تستأصلها. وكان لهذه القبيلة المغلوبة علم عند كبيرها فخبر زعيم القبيلة الغالبة بأمر مرض يعروه كَانَ يكتمه يقال إنّه كَانَ نوعًا من الصّرع الموسميّ. وأعلمه أنّه يقدر عَلى مداواته كما قد قدر عَلى حدسه من غير أن يخبره به أحد. ولما داواه،

وكان اشترط عليه إذا داواه أن يكافئه بها يطلبه منه، سأله أن يسمح لَهُ أن يحتفر بئرًا حيث يقف به حماره . فاحتفر بئرًا وجاءت شراذم من بقايا قبيلته فالتفوا حولها، وجاءت القبيلة الغالبة تبغي منعهم فشكاهم إِلى رئيسهم ، فقال لهم رئيسهم: إنّي أذنت لَهُ أن يحتفر بئرًا حتّى فِي يافوخ رؤوسكم، قالوا : وجعل الشّيخ البصير اللّبيب بين حين وآخر عَلى بعد زمن بين كل حينين يحتفر بئرًا حيث يقف به حماره ، ياله من حمار فطين، وما مر جيل حتّى تكاثرت القبيلة الَّتي كادت تستأصل حتى صارت هى أكثر القبائل عدًّا ومددا بأرض البطانة .

هذا ، ويقال : إنّ سبب غلبة العرب عَلى الوسط آخر الأمر نشأت من المصاهرة. وعرف من كانوا هم أهل الدّولة بغرب النّيل من جعل وراثة السّلطة والملك لأولاد البنات. خلافًا للعرب الّذين كانوا عند كثير منهم الأخذ بقول القائل :

بنونـــا بنـــو أبنائنـــا وبناتنـــا ... بنـــوهن أبنـــاء الرّجـــال الأباعـــد

ولله الحمد أولاً وأخيرًا .

وله العلم كله وهو القائل فِي كتابه العزيز : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦].

وصلى الله عَلى سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما

هـ ـ من تجارب تعليم العربيّة فِي أفريقيّة[١]

كان من أوّل همّي حينما كلّفت الإشراف عَلى كرسيّ اللّغة العربيّة بجامعة الخرطوم سنة ١٩٥٦م أن أنشئ قسمًا خاصًّا بتعليم اللّغة العربيّة للجنوبيّين من قطرنا ، يمكنهم من نيل الإجازة الجامعيّة فيها ثمّ التّخصص من بعد . وقد وجدت الفكرة ضروبًا من قبول ومعارضة . أمَّا القبول فلأنّ الدّافع القوميّ الوطنيّ كَانَ يدعو إِلى أن تكون لغة البلاد واحدة ، فكان أن تبادر الجامعة بعمل نافع فِي هَذَا المجال ممّا يعين عَلى الاستجابة لهذا الدّافع القوميّ الوطنيّ . وأمّا المعارضة فلأن كثيرًا من الأساتذة كانوا يكرهون أن تنزل الجامعة بمستواها الرّفيع إِلى تعليم المبتدئين ، وكان من هؤلاء أجانب ما خلوا من بعض التّعصّب عَلى العربيّة واشتمام ريح هبوب عاصفة إسلاميّة من تلقائها .

وكان ممّا صحّح العزم عندي عَلى المضي فِي ما هممت به والدّفاع الشّديد عنه تجربتان سابقتان . التّجربة الأُولى كانت فِي معهد الدّراسات الشّرقيّة والإفريقيّة بلندن حيث شهدت أساليب الاستشراق فِي تعليم العربيّة لمن لم يسبق لأكثرهم عهد بها قبل الالتحاق بالجامعة ، أساليب دراسة مكثفة تعتمد عَلى التّحصيل الجاد المتتابع الدّءوب . وقد عملت محاضرًا عام ١٩٥٠م بالمعهد وشاركت فِي تدريس طلبة الإجازة الجامعيّة كما شاركت فِي تدريس المنهج المبسّط الَّذي كَانَ يتاح لفئة من الدّبلوماسيّين ورجال الحربيّة البريطانيّين الذين كَانَ يراد منهم أن يعملوا فِي الشّرق الأوسط . وقد نقل هَذَا المنهج المبسط بأسره من بعد إِلى لبنان وعرف باسم «منهج شملان» وهي البلدة اللّبنانيّة الَّتي أقيم بها معهد ذلك المنهج . وكان فِي النّادي الملكي المصريّ بلندن معهد صغير لتدريس مبادئ العربيّة بذل فيه جهد حسن ، فكانت بعض قطعه المبسّطة المطبوعة ممّا استعين به أو قيس عليه فِي بعض ما أعدّه منهج شملان .

---

(١) المجلّة ، جـ ٧١، ص ٥. (حسن) .

والتّجربة الثّانية كانت فِي معهد التّربيّة ببخت الرّضا بالسّودان . وهذا معهد إقليم لتدريب مدرّسي المدارس الأوليّة والوسطى وإعداد مناهجهما فِي بلدة الدّويم الواقعة عَلى الشّاطئ الأيسر من النّيل الأبيض عَلى بعد نحو من مائتي كيلو متر جنوبيّ الخرطوم . وقد كانت انتقلت للعمل به فِي سنة ١٩٥١م وعهد إليّ فيه الإشراف عَلى مناهج العربيّة للمدارس الوسطى فِي بلادنا وتدريب المدرّسين لهذا الغرض .

أذكر بهذه المناسبة أنّ منهج اللّغة العربيّة للإقليم الشّمالِيّ فِي بلدنا واحد ، إذ اللّغة العربيّة فيه هي لغة الحضارة والدّين والنّشاط الاجتماعي والتّجاري والإداري جميعه . وما زال الأمر منذ الدّهر القديم الّذي لا نعلم مبدأه . حقًّا أنّ الإقليم الأوسط من بلادنا لا يعرف لغة غير العربيّة ، وأن الأقاليم المحيطة به جميعها لها لغات غير العربيّة ولكنّ الأطراف الشّماليّة والشّرقيّة والغربيّة من بلادنا جميعها مسلمة ، دخل الإسلام بعضها فِي المئة الأولى من الهجرة ، فكان أبناؤها يتعلّمون العربيّة من طريق المشافهة للمداولات اليوميّة فِي البيع والشّراء ونحو ذلك من ضروب النّشاط الاجتماعي ويتعلمون الكتابة والنّحو والإنشاء فِي المدارس وكانوا فِي الماضي يتلقّون ذلك فِي خلاوي القرءان . فكان لهؤلاء لغتان : العربيّة بنوعيها الدّارج والفصيح ، ولغتهم المحليّة الّتي يجعلونها لسانًا خاصًّا بينهم وربما نسيها بعضهم أو تناساها .

أمر الجنوب كَانَ مختلفًا . فقد كَانَ فِي جملته معزولًا عن الإقليم الشّماليّ عزلًا تامًّا إِلى زمان قريب . بعض هَذَا العزل كَانَ منشؤه وعورة المسالك إليه ممّا جعل تاريخ بلادنا القديم لا تتجاوز حدود توسعه الخطّ الثّاني عشر من خطوط العرض الشّمالية ، وأكثر هَذَا العزل فِي هَذَا القرن كَانَ مردّه إِلى سياسة مقصودة متعمّدة من جانب الاستعمار اختطها حاكم السّودان العام السّير لي ستاك (Sir Lee Stack) سنة ١٩٢٢م عرفت فيما بعد بسياسة الإقليم المغلق (Closed District) وقد استمرت هَذِه السّياسة معمولًا بها إِلى أن جعل الضّغط الوطنيّ القوميّ يشتد فِي سنوات الأربعين والخمسين . وكان التّعليم فِي الجنوب طوال أيّام أمدّها موكولًا إِلى الجمعيّات التّبشيريّة المسيحيّة . وقد قسّم الإقليم

الجنوبيّ إِلى مقاطعات جعل لكلٍّ جمعية من هَذِه الجمعيّات جزء مقسوم من أجل درء التّنافس بينها . وقد كَانَ الإِسلام مصدودًا أن يكون لَهُ أدنى نصيب فِي مثل هَذَا التّقسيم . وكانت الجمعيّات التّبشيرية قد اخترعت للغات الجنوب الكثيرة المختلفة حروفًا لتدرس بها ترجمات من الإنجيل . وكانت الحروف موضوعة عَلى نظام الحرف اللّاتينيّ . وكان يراد للغة الإنجليزيّة أن تكون هي اللّغة المشتركة بين المثقّفين من أهل الجنوب وألا يكون للعربيّة ، وهي مفتاح الإسلام بالجنوب مكان .

وكان نوع من العربيّة ذو عجمة إفريقيّة المعدن فِي الألفاظ والتّراكيب قد نفذ إِلى أعماق غابات الجنوب فاستعملته قبائله المختلفات اللّغات للتّفاهم فِي اللّقاءات الَّتي كانت تفرضها عليها ظروف التّجارة والمصاهرة والصّلح بعد الحروب القبليّة وغير ذلك من أصناف وجوه نشاط حياة المجتمعات البشريّة . ولم يكن فِي وسع الإنجليزيّة أن تنفِي هَذَا اللّسان العربيّ الأفريقي المشترك بين القبائل أو تحل محله لأنّها إنّما كانت لغة المثقّفين وحدهم ، وكان أكثر أهل الجنوب عن الثّقافة العصريّة الَّتي جاء بها الاستعمار بمعزل بعيد .

تقرر فِي أوائل سنوات الخمسين فرض تعليم اللّغة العربيّة عَلى جميع مدارس الجنوب ، استجابة للضّغط السّياسي القوميّ الوطنيّ . ولكن كانت تحول دون تنفيذ القرار عقبات كثيرة ، بعضها راجع إِلى قلة من أعد للقيام بهذه المهمّة من المدرّسين ، وبعضها راجع إِلى محاربة خفيّة وظاهرة لهذا القرار من جانب هيئات التّبشير .

فِي سنة ١٩٥٢م كُلِّفت كتابة تقرير عن تعليم العربيّة للجنوبيّين وقد زرت الجنوب من أجل هَذَا الغرض واطّلعت عَلى بعض عمل التّدريس فِي جوبا ولوكا وياي ومريدي ومندري ورمبيك ، وهذه الأخيرة كانت مدرسة البنين الثّانويّة الوحيدة فِي الجنوب . وكتبت تقريرًا اقترحت فيه أن يكون تعليم اللّغة العربيّة عَلى مراحل تكون أوائلها محليّة الطّابع ، بسيطة المستوى ، ويستمر أمد ذلك نحوًا من خمسة عشر عامًا ، وفِي المرحلة الأخيرة يجلس طالب الفصل النّهائيّ فِي المدرسة الثّانوية الجنوبية لنفس الامتحان الَّذي

يجلس لَهُ مواطنه فِي الشّمال .

واقترحت مَعَ ذلك أن توفد أعداد من معلّمي المدارس بالجنوب ليدرّبوا فِي بخت الرّضا تدريبًا يؤهلهم للنّهوض بأمر العربيّة شيئًا فشيئًا فِي إقليمهم . وقد لقى التّقرير قبولًا من المسؤولين . وبُعث أوّل فوج صغير من المعلّمين الجنوبيّين للتّدريب فِي بخت الرّضا فِي سنة ١٩٥٣م وكان وعد البداية فِي هَذَا العمل وعدًا حسنًا . غير أنّه صحبت بداية الحكم الذّاتي الأوّلى بداية الاضّطرابات الدّمويّة فِي الجنوب . ثمَّ ما كاد الأمر يستقر حينًا من بعد حتّى يتبعه اضطّراب . فوقفت هَذِه البداية الحسنة ، غير أنّ تقدّم العربيّة وانتشارها لم يقف بالرّغم من هَذِه الاضطّرابات.

وأعود بك بعد إِلى ما كنت قدّمته من أمر استفادتي من تجربتَيْ لندن وبخت الرّضا حين عمدت إِلى إنشاء قسم خاصّ لتعليم الجنوبيّين العربيّة وتمكينهم من نيل إجازة جامعيّة فيها بجامعة الخرطوم . وقد ذكرت أنّ الفكرة واجهتها أوّل الأمر معارضة ولكنّها أجازتها مجالس الجامعة آخر الأمر . ووضعت لها منهجًا ينظر فِي جملته نظرًا شديدًا إِلى المنهج المتبع فِي معهد الدّراسات الشّرقيّة والإفريقيّة بلندن وكان ممّا دعا إِلى هَذَا النظر :

أولًا : ما كَانَ من صلة قويّة بين جامعة الخرطوم النّاشئة وجامعة لندن . ذلك بأنّ جامعة الخرطوم استقلّت فِي يولية سنة ١٩٥٦م . وكانت قبل استقلالها تعرف باسم كلّيّة الخرطوم الجامعيّة وكانت من سنة ١٩٥١م تابعة لجامعة لندن عَلى النّحو الَّذي كَانَ معمولًا به فِي كثير من جامعات إفريقيّة مثل إبادان بنيجريا ومكريري فِي شرق إفريقيّة .

وثانيًا : الحاجة إِلى الاستفادة من تجربة الاستشراق العلميّة فِي هَذَا المجال من حيث طرق تدرجها ومؤلفاتها اللّاحقة بهذا التّدرج والمستويات الَّتي تبلغ بواسطته .

ومما استفدته من تجربة الاستشراق الاستعانة بالتّرجمة . وبعض العاملين فِي مجال تعليم اللّغات الآن ربّما نفروا من استعمال التّرجمة فِي التّعليم . وأحسب هَذَا وهما . ذلك بأنّ المشافهة هي بلا شك أجود وسائل تعليم الكلام وهي الَّتي يتعلم بها الأطفال اللّغة من الوالدين والمحيط الَّذي حولهم . ولكنّ المشافهة الطّبيعية تعسر محاكاتها فِي ظروف التّعليم

النّظاميّ المعتمد . ثمَّ لابد من بداية يبدأ بها هي ، لمن تأمل ، فِي حكم التّرجمة . الصّور الَّتي يستعان بها مثلًا ما هي إلا ضرب من التّرجمة . ثمَّ لعل التّرجمة أن تكون أقرب إِلى طبيعة الأمور من الصّور . فِي التّرجمة مأخذ لابد من الإشارة إليه وقد تنبه لَهُ الجاحظ من قبل . وهي أنّ اللّغات فِي ذات نفسها لها حيويّة ويغير بعضها عَلى بعض . فاستعمال الإنجليزيّة مثلًا فِي تعليم العربيّة لَهُ بعض التّأثير السّلبيّ بلا ريب . ولكن لابد من بداية عَلى أيّة حال كما قدّمنا . ويمكن الاستغناء عن التّرجمة بعد تجاوز المبدئيّات الأولى . وعيب طريقة الاستشراق أنّها لا تتخلى عن التّرجمة ـ وذلك أنّها قد بنيت من أساسها عَلى اعتبار اللّغة العربيّة لغة غير حيّة . فالأرب المقصود لدى الاستشراق هو إعادة إحياء مادتها للاستفادة بها من طريق التّرجمة . هَذَا العيب المستمرّ فِي طريقة الاستشراق قد روعي فِي طريقتنا تجنبه وذلك من طريق تزويد الطّالب بمختارات نصوص جيدة معاصرة تشهد بحيويّة اللّغة وأنّها عصريّة مستعملة ـ هَذَا مَعَ العناية بالنّصوص القديمة المأثورة الَّتي هي نماذج فِي جودة البيان والفصاحة مَعَ الدّلالة الحضاريّة الرّاسخة ، مأخوذة من القرءان والحديث وشعر العرب الأولين ومأثورات أمثالهم .

ثم مَعَ النّصوص رأينا ضرورة العناية بتعليم الإنشاء وهذا مهمل فِي منهج الاستشراق لما قدمنا من افتراضه أنّ العربيّة لغة ميتة وأنّ غاية ما يبغيه منها فهم المعاني وترجمتها إِلى لغته الحيّة لا غير . عَلى أنّ بعض الاستشراق قد أدركه التّنبه بآخرةٍ إِلى أنّ اللّغة العربيّة كما هي لسان حضارة قديمة عريقة إنسانيّة الشّمول ، هي أيضًا اللّسان الحيّ المعاصر المعبّر عن واقع المسلمين والشّعوب العربيّة .

هذا ، وقد كَانَ الإقبال عَلى القسم الخاص بادئ الرّأي ضئيلًا وكاد يدعو ذلك إِلى استيئاس وكأنّما قد قوطع مقاطعة سياسيّة صارمة إذ لم يلتحق به غير طالب جنوبيّ واحد (هو الأستاذ أروب يور) وطالبة وافدة من زنجبار (هي الأستاذة زينب برهان) . وقد صبرا عَلى سنوات الدّرس الأربع وثابرا ونجحا ، وصارا قدوة حسنة ، عَلى بطء فِي ذلك ، لطلبة من الجنوب التحقوا بالقسم من بعدهما وبرز بعضهم فِي درس العربيّة تبريزًا

مشجّعًا. وقد ازداد الإقبال عَلى القسم من بعد ، وقصده طلبة من خارج السّودان ، جاءوا أول الأمر من نيجيريا الشّماليّة ، ثمَّ من نيجيريا الجنوبيّة ثمَّ من الأقطار المجاورة كأرتريا والصّومال ثمَّ من شتّى أقطار العالم منتسبين وملتحقين من أوروبا وآسيا وأمريكا . ودعت الحاجة إِلى وضع دروس محدودة المدى للمنتسبين وإقامة صلات علميّة من أجل هَذَا الغرض مَعَ جامعات من نيجيريا وغيرها . كما أضيف إِلى المنهج القديم منهج للدّراسة العالية ينتهي بامتحان كتابي منصوص فيه عَلى تقديم أطروحة بالعربيّة ، وكانت جزءًا لا يتجزأ من الامتحان . وممّن جلس لهذا الامتحان ونال شهادة الأستاذيّة به من جامعة الخرطوم (M.A.) البروفيسور محمّد ثاني زهر الدّين الَّذي هو الآن رئيس قسم الدّراسات الإسلاميّة بجامعة بايرو بمدينة كنو بنيجيريا ومن أبرز رجالاتها والبروفيسور أبو بكر بلارابي رئيس قسم اللّغة العربيّة بها.

وقد اقْتُبِسَتْ فكرة إنشاء معهد اللّغة العربيّة لغير النّاطقين بها التّابع لهيئة «السْكُو» الَّذي بمدينة الخرطوم من فكرة قسمنا الخاص بجامعة الخرطوم الَّذي قد تقدم ذكره . وكان الوزير الَّذي قام بالخطوة العملية فِي هَذَا الباب الدكتور محمّد خير عثمان وزير التّربية فِي جمهوريّة السّودان الدّيمقراطيّة سنة ١٩٧٣م وهو نفسه من خريجي بخت الرضا وجامعة الخرطوم . وقد كوّن لجنة خماسية تولى هو رئاستها وقامت بزيارة لمصر ولبنان وسورية والعراق والكويت والبحرين وقطر ودولة الإمارات والمملكة العربيّة السعوديّة لإطلاع المسئولين عَلى فكرة المعهد والتماس المعونة منهم . وقد وجد كلّ ذلك قبولًا وتشجيعًا . وكنت أنا والأستاذ أروب يور أول خريج جنوبيّ من القسم الخاص عضوين فِي هَذِه اللّجنة ومستشارين . وقد نشأ المعهد من بعد ، غير أنّه انحرف به شيئًا عن منهاج الوصايا الَّتي تقدمنا بها إذ داخلته روح من التّدويل والسّياسة المنافسة لجامعة الخرطوم . ولقد كَانَ ينبغي أن يُجعل المعهد منذ بدايته تابعًا لجامعة الخرطوم ومكملًا لعمل القسم الخاص . وأحسب أنّ المسئولين الآن قد أخذوا ينتبهون إِلى ضرورة تصحيح هَذَا الخطأ ، إذ لا تكفِي سعة النّفقة المدوَّلة والرّعاية السّياسيّة لهذا المعهد أن تجعله ذا تأهيل علميّ

مقبولًا حقًّا ، ولابد فِي ذلك من ربط عمل المعهد بالرّقابة الجامعيّة الشاملة وبالمستويات الجامعيّة ذوات التّأهيل المعروف المقبول .

ولقد أنشأت هيئة اليونسكو من قبل معهدًا عاليًا لتدريب المعلمين بمدينة أمّ درمان عَلى نهج دبلوماسيّ كأنّه قد كَانَ النّموذج والقدوة من بعد لمعهد اللّغة العربيّة لغير النّاطقين بها . غير أنّ وزارة التّربية بالسّودان تداركت من قبل أن يقع ما وقع من بعد فِي أمر المعهد من الخطأ الأكاديميّ ، بسعيها الحثيث إذ جعلت معهد المعلمين ذا انتماء إِلى جامعة الخرطوم ، ثمَّ قد استوعب فيها سنة ١٩٧٤م باسم كلية التربية .

آمل أن يقع مثل هَذَا الإجراء بالنسبة لمعهد اللّغة العربيّة .

هذا ، وفِي سنة ١٩٥٨م أقيمت ندوة بجامعة إبادان بالولاية الجنوبيّة الغربيّة من نيجيريا عن الثقافة العربيّة والإسلامية . وكانت نيجيريا آنئذ تحت الحكم البريطانّي . وكانت إبادان هي الكلّيّة الجامعيّة ثمَّ من بعد هي الجامعة الوحيدة فِي نيجيريا كلّها ، فكان المؤتمر المنعقد بها لهذا الغرض ذا أهميّة بالغة .

لم تكن اللّغة العربيّة مقررة فِي التّعليم النّظاميّ فِي الإقليمين الجنوبيّين من نيجيريا . وكانت الثّقافة المسيحيّة غالبة عليهما غير أنّه كَانَ فِي إقليم شعب اليوربا الغربي نسبة عالية من المسلمين . أمَّا الشّمال فكان إقليمًا مسلمًا ذا إمارات إسلاميّة قديمة وتاريخ عريق وصلات واشجة مَعَ شمال إفريقية المسلم ومصر وبلاد المشرق . وكانت فيه مدارس إسلاميّة قرءانيّة قديمة وعلماء أجلة لهم تآليف حسّان ، ومن هؤلاء لا تزال توجد بقيّة صالحة مثل وزير سكتو المُعَلّم جنيد وقد سمعت منه أبياتًا نظمها فِي رحلة ارتحلها إِلى مدينة الخرطوم مَعَ السّردونة أحمد بلو رئيس وزراء الإقليم الشّماليّ الشّهيد رحمه الله تعالى ، قَالَ فيها :

يــا مــنْ يُصَــعّدُ أنفاسًــا بأنفــاس	شَـوْقًا لخرطـومَ ذاتِ الــوردِ والآسِ
صَـبْرًا قلـيلًا فإنـا سَـوف تحملنــا	رعّــادةٌ فِي الهــوا ملمومــةُ الــرأسِ
طيّـــارة تتبـــارى فِي تجاوزهـــا	شُـهب السـماءِ الَّتـي ترمـي بأقبـاسِ

تعطى الـدُّخانَ وتَنهى عـن تعامِلنـا بِـهِ عليْهَـا وهَـذَا خلـفُ مقيـاسِ

ومنهم الشّيخ ناصر كبارة بمدينة كنو ، وله مجلس يحضره تلاميذه بأيديهم الصحف والألواح فيسألونه فِي الأدب والنحو وعلوم التفسير والدين فيجيب ويكتب من شاء ما شاء ، ويقرأون فيشرح الصعب ويصحح الخطأ وقد حضرت مجلسه وسمعته يشرح لسائل سأله عن بيت الشواهد وهو لجرير الشّاعر :

وَالتَغلِبِيّـونَ بِـئسَ الفَحـلُ فَحلُهُـمُ فَحـلاً وَأُمُّهُـمُ زَلّاءُ مِنطيـقُ

هذا ، وقد أنشئت سنة ١٩٣٤م فِي مدينة كنو مدرسة لتعليم العربيّة والعلوم الإسلاميّة عَلى نهج حديث ، واستُقْدِم لإنشائها أساتذة ومشايخ من السّودان فقاموا بما عُهِدَ إليهم من ذلك خير قيام وتخرج عَلى أيديهم جيل من رجالٍ كفاة . وقد بُعِثَ بعض هؤلاء سنة ١٩٥٤م إلى معهد التّربية ببخت الرّضا لينالوا مزيدًا من التّدريب فِي طرق التّدريس ومناهجه . من هؤلاء من صاروا من بعد قادة فكر ورجال دولة مرموقين فِي بلدهم . من هؤلاء مثلًا الشّيخ أبو بكر محمود قميّ الَّذي كَانَ قاضي قضاة الإقليم الشّماليّ كله أيّام الرّئيس السّردونة أحمد بلو رحمه الله ثمَّ قد ترجم معاني القرءان ترجمة حسنة إلى لغة هوسّا وقد منح جائزة الملك فيصل العالميّة منذ ثلاثة أعوام لما بذله من جهد عظيم فِي العمل الدّينيّ والدّعوة الإسلاميّة . ومنهم قاضي القضاة الآن بولاية كنو الدّكتور حسن إبراهيم غوررزو[١] . وله تأليف جيد عن الشّيخ عبد الكريم المغيلي المغربيّ وتأثيره عَلى سلطنة كنو فِي الزّمان القديم أطلعني عليه وينبغي أن ينشر . ومنهم الدّكتور شيخو أحمد سعيد غلدنثي ، سفير دولة نيجيريا الآن بالمملكة العربيّة السّعوديّة وكان رئيسًا لجامعة سكتو وتولى إنشاءها وثلاثتهم كَانَ لهم أعظم الأثر فِي النّهوض بكلية عبد الله بايرو وتأسيسها وهي الَّتي صارت الآن جامعة بايرو بمدينة كنو .

وقد مهد المؤتمر الَّذي أقيم بجامعة إبادان سنة ١٩٥٨م لقيام شعبة العربيّة بجامعة

(١) توفيّ رحمه الله منذ أسابيع هذا العام وكان قاضي القضاة بمدينة كنو .

إبادان سنة ١٩٦٧م ثمَّ اتْلأبَّ بَعْدَ ذلك إنشاءُ أقسام للغة العربيّة بالجامعات الجديدة الَّتي نشأت فِي أقطار نيجيريا وكان ممّا مهّد به ذلك المؤتمر أنّه نبه عَلى وجود مجهودٍ كبير تطوُّعيٍّ جهاديّ كَانَ يقوم به بعض المشايخ المسلمين فِي إبادان ولاغوس مكافحين مناضلين فِي سبيل الإسلام ولغة القرءان بالرّغم ممّا كَانَ يواجههم من تعصب الإرساليات ومعاكسات الحكم الأجنبيّ وصنائعه الموالين لَهُ . كَانَ من هؤلاء المعلم خرشيّ الثّاني رحمه الله تعالى . ولم أدر أذلك لقب كَانَ لَهُ أو اسم سمّي به ، وكلا الوجهين جائز ، وخرشيّ الأوّل ، الَّذي سمّي هو أو لقّب باسمه ، شارح مختصر خليل ، كتاب الفقه المالكيّ الجامع، المقدّم بين متون الفقه المالكي عَلى كل متن . كانت لخرشي الثّاني رحمه الله مدرسة فِي ناحية سوق إبادان يقصدها الصّغار فيعلمهم القرءان ومبادئ العربيّة . وكان يعينه بعض الشّبان من المدرّسين النظاميّين بمدارس الحكومة فِي غير علوم العربيّة يتطوعون بدروس إضافيّة فِي ما بعد أوقات الدّروس النّظاميّة . ثمَّ لما قبلت الحكومة أن تدخل علوم الدّين ولكن بغير اللّغة العربيّة كَانَ القائمون بهذه الدّروس يتعاونون مَعَ المعلم خرشيّ الثّاني رحمه الله كل التّعاون .

وكان بناحية لاغوس للحاج آدم عبد الله الإلوري نشاط عظيم . وقد أثمر مجهوده المخلص المتواصل ومجهود المعلم خرشي الثّاني رحمه الله وفضلاء آخرين من مسلمي بلاد «يوروبا» وعلماء «إلورين» المدينة المسلمة فِي أقصى جنوب الإقليم الشّماليّ قريبة الجوار من منطقة إبادان ، فأُقرَّ آخر الأمر إدخال ذَرْءٍ من العربيّة مَعَ علوم الدّين فِي مدارس الإقليم الجنوبيّ الغربيّ . وبعد قيام المؤتمر الثّاني بإبادان سنة ١٩٦٤م تمهد الطّريق إِلى إنشاء نواة قسم للّغة العربيّة فِي جامعة إبادان ثمَّ تم إنشاء هَذَا من بعد كما قد تقدم من ذِكْرِ ذلك .

وقد حضرت هَذَا المؤتمر الثّاني وشاركت فيه مَعَ زملاء لي حضروا هَذِه المرّة من كلّيّة اللّغة العربيّة والعلوم الإسلاميّة الَّتي تم إنشاؤها بمدينة كنو وكانت فِي مبدأ أمرها جزءًا من الجامعة الشّماليّة الجديدة الَّتي أنشئت باسم جامعة أحمد بلوِ Ahmadu Bello University بمدينة زاريا الواقعة عَلى بعد مائتي كيلو متر جنوبيّ مدينة كنو .

مدينة زاريا قديمة التاريخ كانت تعرف باسم زَكْزَكْ وقد يقال زَوْزَوْ والنّسبة إليها زكزكى ، ويذكر أنّها كانت أولى ولايات بلاد هوسا السّبع القديمات اهتمامًا بطلب العلوم. وفيها مسجد عتيق ، بديع العمارة مَعَ أنّ بناءَه من اللَّبِنِ وخشب الدّوم ، فيه عقود محكمات الصّنع ، شديدات الشّبه بعقود الجامع الكبير بدمشق ، كأنّما جعله بناة هَذَا المسجد نموذجًا ، وعلماء العمارة المعاصرون قد صنفوا هَذَا المسجد فِي مؤلفاتهم ونبهوا عَلَى حسنة وإتقانه . وفِي كتاب إنفاق الميسور ، للسّلطان المؤرخ العالم الشّاعر ، السّلطان محمّد بلو بن شيخو عثمان بن فودي صاحب الجهاد المعروف ما يشهد بكثرة الكتب الَّتي كانت تدرس فِي «زكزك» ـ الاسم الحديث هو زاريا كما تقدّم ذكره عَلَى أنّ النّسبة إليها ما زالت تحتفظ فِي لسان هوسا باللّفظ القديم فيقال هو زكزكي أي من زاريا .

وقد فطن الاستعمار والتّبشير لمكان مدينة زاريا فِي التّعليم الإسلاميّ العربيّ . فأنشأ قرية إرساليّة بالقرب منها صارت خلية لأقلية مسيحيّة نالت ثقافة غربية وشغل بعض رجالها مناصب هامّة مثل الدّكتور «إسايا أودو» الَّذي تولى رئاسة جامعة أحمد بلو سنة ١٩٦٦م ثمَّ صار من بعد فِي حكومة شيخو شقرى وزيرًا للخارجيّة ومثل يعقوبو قاوان الَّذي تولى رئاسة حكومة نيجيريا من سنة ١٩٦٧م إِلى سنة ١٩٧٤م .

كان الرّئيس أحمد بلو السّرْدَوْنَة[1] رحمه الله يريد أن تنشأ كلية جامعيّة هوساويّة إسلاميّة تحمل اسمه فِي مدينة كنو ، المدينة الإسلاميّة الكبرى فِي غرب إفريقيّة عَلى وجه الإطلاق ، وتكون من بعد هي الجامعة العصريّة الَّتي يتثقّف فيها أبناء قومه ويضطلعون بمسئوليّات عصرهم الحديث . كَانَ رحمه الله يريد أن يخرج قومه من حال تخلفهم الرّيفِيّ الرّعويّ البسيط حتى لا يغلبهم عَلَى السّيادة فِي قطرهم أبناء الجنوب المسيحيّ الذين نالوا حظًّا من تعليم الغرب وتقدمه الماديّ عَلَى أيدي الاستعمار والتّبشير .

واحتجزت للكلّيّة الجامعيّة المزمع إنشاؤها مساحة تبلغ ثلاثمائة وخمسين فدانًا فِي موقع رحب قابلٍ لمزيد من التّوسع بالجانب الجنوبيّ خارج سور مدينة كنو . ووضع الحجر

(١) السّرْدَوْنَة : لقب كأنه تحريف من سر الدّولة وكان من ألقاب الإمارة في بلاد هوسا .

الأساسيّ فِي حفل عظيم . ثمَّ إنّه ما لبث أن دبّ خلاف سياسيّ حاد بين السّردونة رحمه الله وبين الأمير السّنوسيّ أمير كانوا السّابق وانتهى الخلاف آخر الأمر باستقالة الأمير السّنوسي ، ويُذكر أنّه قبل استقالته أوّل ما دبّ الخلاف بينه وبين السّردونة، وبعث بأناس اقتلعوا حجر الأساس ووقف سير العمل الَّذي كَانَ تقرر بدؤه من قبل ببناء الكليّة حيث اختير لها الموقع .

ووجد التّدبير الاستعماريّ التّبشيريّ فرصته المناسبة . فاقترح تحويل إقامة الجامعة من كنو إِلى ضاحية بالقرب من زاريا كانت قد أنشئت فيها مدارس للفنون وبعض الصّنائع والأعمال الهندسيّة . وكان جل الطلبة فِي هَذِه المدارس من المسيحيّين . وكانت فِي زاريا نفسها مدرسة للإدارة فجعلت هَذِه المدارس جميعًا نواة للجامعة الجديدة وسميت باسم أحمد بلو وترك الموقع الأوّل وأهملت الفكرة الأولى شيئًا ما غير أنّ الحكمة السّياسيّة اقتضت ألا يكون هَذَا الإهمال كاملًا ونهائيًّا . فأُوثِرَ ـ من أجل استرضاء أهل كنو وأميرها الجديد أدو بايرو وهو أخو الأمير السّابق ، وسائر الرّأي العام فِي بلاد هوسا ـ أن تقوم كلية للدراسات العربيّة والإسلاميّة تحمل اسم الأمير عبد الله بايرو رحمه الله ، والد الأميرين السّابق والحاضر وهو الَّذي أنشئت فِي زمانه وبتدبيره مدرسة العلوم العربيّة فِي كنو سنة ١٩٣٤م كما تقدّم ذكره .

على أنّه لم يكن واضحًا ما المراد من إنشاء هَذِه الكليّة ، إذ مستوى التّحصيل فِي مدرسة العلوم العربيّة كَانَ ، وما يزال إِلى يومنا هَذَا ، حقًّا رفيعًا ، وقد تمكن عدد من خريجيها بناء عَلى ما حصلوه فيها من نيل الشّهادات العالية فِي الخارج ، من أوربا ومن مصر مثلًا . فلماذا لم تُرَفَّع هي إِلى مستوى جامعي كما رُفعت الكليّات الَّتي سبقت إنشاء جامعة أحمد بلو بزاريا عَلى سبيل المثال .

تسائلت فِي نفسي بهذا السّؤال لما عرض عليَّ مدير جامعة أحمد بلو ، بروفيسور نورمان الإسكندر «فيما بعد سير نورمان ... إلخ» وظيفة عميد كلّيّة عبد الله بايرو لأتولى إنشاءها . وما كَانَ خافيًا عليَّ أن ترشيحي قد كَانَ من قبل النّيجيريّين الشّماليّين أنفسهم إذ كانت لي

بهم صلات فِي ميدان التّعليم واشجة واشترطت أن أزور الموقع قبل قبول العمل فيه . وعلمت من السّيد الوزير آنئذ الحاج عيسى كيتا وممن اتصلوا بي واتصلت بهم من القائمين بتعليم العربيّة فِي بلاد هوسا عَلى رأسهم الحاج حسين آدم الَّذي كَانَ مفتش العربيّة بالوزارة والأستاذان شيخو أحمد سعيد غلدنشي وحسن إبراهيم غورزو وهذان كانا عَلى رأس مدرسة العلوم العربيّة بكنو ـ أنّهم إنّما يريدون إنشاء جامعة هوساويّة إسلاميّة حقًّا ، وأنّ الجامعة الَّتي فِي زاريا كأنّما الغالب عليها الآن طابع غير إسلامي . وأنّهم لا يريدون الكليّة الجديدة أن تكون امتدادًا لمدرسة العلوم العربيّة أو شيئًا منافسًا لها، وإنّما يريدونها لتكون مؤسسة تهيئ المسلمين دون غيرهم فِي هَذِه الفترة للتّأهيل الجامعي حتّى يستطيع المسلمون بنيجيريا أن يلحقوا بغير المسلمين ومن دون أن يزاحمهم هؤلاء بمستويات التّقدم العصريّ المنشودة .

وقد أدركت منذ البداية أن إدارة جامعة أحمد بلو لم تكن جادّة حقًّا فِي أن تجعل من كلية عبد الله بايرو أكثر من ظاهرة اسميّة فرعيّة . وممّا أكثر من ظاهرة اسميّة فرعيّة . وممّا أكد ذلك عندي عدول البروفيسور نورمان الإسكندر عن الموقع القديم الواسع واختياره موقعًا صغيرًا كانت فيه مؤسّسات ومساكن ومخازن تحتاج إزالتها إِلى إجراءات قضائيّة وتقدير تعويضات وما أشبه ، وكلّ ذلك كَانَ لابد معه من مرور زمن ربّما امتد إِلى عدّة سنوات . وقيل فِي تبرير هَذَا التّغيير أنه متّفق مَعَ الخطّة المعماريّة الكبيرة الَّتي كانت تعد لتطوير مدينة كنو فِي مدى خمسين عامًا . ولكأنَّ الأرَب الخفيَّ المخبوء ما كَانَ إلا تأجيل إنشاء كلّيّة عبد الله بايرو . وكانت قد استعير لها مقر مؤقت فِي جانب من فندق مطار كنو. فتنقل بعد ذلك من موضع مؤقت إِلى آخر مؤقت حتى إذا طال تأجيل الإنشاء طولًا مؤسفًا جيء بالحلّ العمليّ الحاسم وهو نقل الكلّيّة كلها إِلى منطقة الجامعة بزاريا لتكون فيها قسمًا صغيرًا للدّراسات العربيّة والإسلاميّة ، متحفىَّ الصّبغة جانبيًّا «مُهَمَّشًا» فِي كيان جامعة علمانيّة جديدة كبيرة مشربة فِي جملتها بالرّوح الأوربيّ الماديّ التّقدميّ المسيحيّ المَعْدِن التبشيريّ النَّزْعَة . وتبقى بعد ذلك مدرسة العلوم العربيّة بكنو كما كانت تسد

بعض الحاجة إِلى أن يدعو داعي التّطور العصريّ آخر المطاف إِلى نوع من الاستغناء عنها أو التّجميد لها والتّخميد لجذوتها .

ما كَانَ نحو هَذَا التّدبير الخفِي المخبوء كله منبعثًا من مكر سيئ متعمّد مقصود كما كَانَ منبعثًا أكثره من الجهل كلّ الجهل من جانب القائمين بإدارة جامعة زاريا وزملائهم فِي التّدريس الّذين قدموا معهم من إبادان أو استقدموا من وراء البحار بحقيقة حضارة الإسلام وحيويّة اللّغة العربيّة وعمق تغلغل حبّها فِي نفوس أهل نيجيريا المسلمين . إنّما كانت تجربة أولئك القائمين بإدارة جامعة زاريا وزملائهم تجربة استعماريّة مسيحيّة عنصريّة تبشيريّة إقليميّة المذهب الجامعيّ الإداري «الأكاديمي» ، لم تنْعَتِق فِي طبيعة إقليميتها من أصول نشأتها فِي مجمَّع إبادان الجامعيّ ذي الوضع الممتاز الأفرنجيّ التّصميم الغربيّ الرّفاهية وسط الكيان الإفريقيّ البائس الصّارخ البؤس المحيط به .

من عجائب هَذِه الطّبيعة الإقليميّة أني لما قدمت إِلى الموضع المؤقت الّذي اختير لكلّيّة بايرو فِي فندق مطار كنو وجدت أنّ جميع الموظفين الصّغار فيه إِلى المحاسب والكاتب وأنّ جميع العمال المهرة وغير المهرة من الطّبّاخ إِلى الغسّال والكنّاس قد جيء بهم من أقصى قرى الجنوب بنيجيريا بناحية مصب نهر النّيجر وشطآن خليج بيافرا . ومدينة كنو نفسها كثيرة السّكان عظيمة العمران فيها من المدرّبين عَلى صغيرات الوظائف المكتبيّة ومن العمال ذوي المهارة وغيرهم عدد عظيم قريب المنازل قليل التّكاليف مسلمون أشبه بروح المؤسّسة الإسلاميّة الجديدة من هَذَا الجلب المسيحيّ الغريب الدّيار .

كان القائمون بإدارة جامعة زاريا بقبولهم فكرة إنشاء كلّيّة عبد الله بايرو للعلوم العربيّة والدّراسات الإسلاميّة إنّما أرادوا فقط أن ينصاعوا أوّل الأمر للسّردونة إذ لم يعجبه فِي تدبيره السّياسيّ أن يُعْدَل عن فكرة إنشاء هَذِه الكلّيّة بمدينة كنو كلّ العدول ، ثمّ يكسبوا الزّمن من بعد .

ما كنت لأساير سياسة هَذَا الأرب المخبوءِ عَلى أيّما وجه من الوجوه . فكانت الحكمة تقتضي ألا أقبل الانتداب من جامعة الخرطوم لهذا المنصب الّذي عُرِضَ عليّ ، وكدت

أمضي عَلى هَذَا الرّأي ، ولكنّي عداني عنه ، عَلى حزمه وصوابه ، الالتماس الصّادق الملح من إخواني الهَوْسَا ممثالين فِي الزّملاء الّذين ذكرتهم وآخرين من العلية والرّؤساء فِي كنو وكدونا وسكتو . فصح عزمي آخر الأمر عَلى أن أُقْدِم عَلى تتميم العمل الَّذي بدأه من قبل مواطني من الأساتذة والمشايخ السّودانيّين فِي مدرسة العلوم العربيّة .

ولقد حرصت عَلى كسب الثّقة من جانب مدرسة العلوم العربيّة منذ البداية فالتمست انتداب ناظرها ثمَّ وكيله الَّذي صار ناظرًا لها بعده ليقوما بدور قيادي فِي عمل الكلّيّة الجديدة الأكاديميّ والإداري وهما الأستاذ شيخو أحمد سعيد غلدنشي والأستاذ حسن إبراهيم غورزو . كما حرصت عَلى أن يدخل فِي صميم تكوين مجلس الكلّيّة الَّذي يتولى الإشراف عَلى إدارتها وإعداد مناهجها عدد من خريجي مدرسة العلوم العربيّة الّذين صارت لهم مناصب عالية فِي المجالين التّعليميّ والدّينيّ فدخل فِي المجلس مفتش العربيّة الأستاذ حسين آدم ورئيس القضاة ونائبه الأستاذان أبو بكر محمود قميّ وخضر بنجي ومع هؤلاء ممثلون آخرون من مدرسة العلوم العربيّة نفسها من القائمين بالتّدريس فيها .

وقد بدأ العمل بإعداد خطة التدبير العلمي وكانت القوة العددية الإسلامية فِي المجلس كفيلة بإجازة أهم الخطوات الأوّليّات فِي هَذَا الصّدد . وكان جليًّا منذ أوّل الشّروع فِي إجراءات التّدبير العلميّ أنّ قلّة الطّلبة المسجّلين للإجازة الجامعيّة فِي الآداب (B.A.) مَعَ ضعف أكثرهم فِي مادة اللّغة العربيّة إذ جاءوا من المدارس الثّانويّة الجديدة القليلة فِي الإقليم الشّماليّ الأفرنجيّة المناهج والمدرّسين ، نقص يجب تلافيه حتى تستطيع الكلية أن تنهض بواجبها الثّقافِيّ المؤمّل لها حقّ النّهوض ويكون فِي ذلك استمرار وتكميل صحيح لعمل مدرسة العلوم العربيّة .

كان الأستاذ حسين آدم وهو مفتش بوزارة التّربية فِي الإقليم الشّماليّ قد قام من قبل بإحصائيّة لطلبة المدارس القرءانية والمعاهد الدّينية فكانوا أكثر من ربع مليون . أقر المجلس أن يعقد امتحان لاختيار نخبة من هَذَا العدد ، نُهيّئهُم فِي مدى عامين بدراسة مكثّفة ليجلسوا لامتحان خاص معادل فِي جملته لمستوى القبول فِي كلّيّة الآداب وكلّيّات

العلوم الإنسانيّة بالجامعة . وكانت إجازة مجلس الأساتذة الكبير بالجامعة نفسها لهذا القرار فِي المرحلة البدائيّة الأولى قبل أن تظهر المعارضة المخبوءة لنا عن أنيابها الحداد . فحمدنا الله عَلى ذلك وكانت خطوة هامة ونصرًا فِي البداية عظيمًا . وكان فيما أجيز من هَذَا القرار أنّ الّذين يصلون إِلى مستوى من التّحصيل حسن فِي هَذَا الدّراسة المكثّفة ولكنّه دون معادلة القبول فِي كلّيّة الآداب وكلّيّات العلوم الإنسانيّة ، يعد لهم برنامج تدريب مهنيّ فِي تعليم العربيّة فيزاد من هَذَا الوجه عدد المدرّسين ذوي المستوى الجيد الصّالحين للعمل فِي المدارس الثّانويّة .

بدأ العمل بالفعل فِي تهيئة هَذِه المدرسة الإعداديّة المعتمدة عَلى اجتذاب طلبتها من مدارس القرءان والمعاهد الدّينيّة وكان من ضمن البرنامج المكثف دروس فِي اللّغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة وفِي التّاريخ والجغرافيا . وكانت تلك أوّل مرة (فِي سنة ١٩٦٤م) تدخل فيها الفرنسيّة فِي برنامج جامعيّ بنيجيريا . وكنت أفدت من تجربتي بجامعة الخرطوم أنّ دخول الفرنسيّة فِي منهج التّدريس يحد من شهوة تفرد الإنجليزيّة بدعوى التّقدّم ويعطى العربيّة مجالًا . وكما قدمت فإنّ التّغاير والتّنافس بين اللّغات حقيقة لا ريب فيها . فدخول الفرنسيّة فِي المجال الّذي تكون فيه الإنجليزيّة متفرّدة بالقوّة ينفع العربيّة كما أنّ دخول الإنجليزيّة فِي المجال الّذي تكون فيه الفرنسيّة متفرّدة بالقوّة ينفع العربيّة أيضًا . وإنّما اللّغات تعبير عن نفوس البشر . وقديمًا قَالَ الشّاعر :

إِنَّما أَنفُسُ الأَنيسِ سِباعٌ ... يَتَفارَسنَ جَهرَةً وَاِغتِيالا

مَن أَطاقَ اِلتِماسَ شَيءٍ غِلاباً ... وَاِغتِصاباً لَم يَلتَمِسهُ سُؤالا

كُلُّ غادٍ لِحاجَةٍ يَتَمَنّى ... أَن يَكونَ الغَضَنفَرَ الرِئبالا

أقبل طلبة المدرسة الإعداديّة الّذين اخترناهم بعد الامتحان ، من المدارس الدّينيّة ، بإقبال شديد عَلى الدّروس المكثّفة واجتاز أكثرهم امتحان القبول الجامعيّ نفسه فِي ظرف عام واحد . فآذن ذلك بنهاية المدرسة الإعدادية مَعَ كونه قد كَانَ لما أمّلناه من طلبة المدارس القرءانيّة والمعاهد الدّينيّة نجاحًا باهرًا . ولقد تعددت فرص التّعليم الجامعيّ من

بعد فِي داخل نيجيريا وخارجها لطلبة المدارس الدّينيّة ، فكأنّ ذلك قد أغنى عن الاستمرار فِي برنامج المدرسة الإعداديّة .

على أنني ما زلت أعتقد ضرورة الاستفادة من التّعليم القديم وربطه بمجاري التّعليم الجامعيّ الحديث ؛ ذلك لأنّ التّعليم القديم لَهُ أساليب من دقة التّحصيل وجودته لا تُبْلَغُ إلا من طريقه هو ، فالمحافظة عليه وعليها واجبة . والانتفاع بها لكيما تكون دعمًا وجذورًا لتعليمنا الحديث هو أيضًا واجب . وإلا فإننا سنبني من تعليمنا الحديث صروحًا عَلى أساس من رمل هائر . ولقد حرصت فِي جامعة الخرطوم أن أجد سبيلًا لخريجي المعهد العلميّ الدّينيّ ليلتحقوا بكلّيّة الآداب وأصبت فِي ذلك معارضة شديدة . وقد أمكن آخر الأمر أخذ أعداد منهم فِي الدّراسة العالية فكان لبعض ذلك نفع ونجاح لا ريب فيه . أحد اللّذين التحقوا بالدّراسة العالية بجامعة الخرطوم الدّكتور حسن الفاتح قريب الله الَّذي صار من بعد مديرًا للجامعة الإسلاميّة بأمّ درمان . ومنهم الأستاذ الدّكتور بابكر البدويّ دشين الَّذي هو الآن أستاذ مرموق بجامعة المدينة .

ولما فتحت الحكومة المصريّة بالتماس قويّ من السّردونة أحمد بلو رئيس وزراء نيجيريا الشّماليّة وزعيم حزبها الحاكم ، رحمه الله تعالى ، مكتبًا ثقافيًّا بمدينة كنو وأوفدت ثلاثة من المشايخ الأزهريّين عَلى رأسهم الشّيخ محمّد الرّاويّ ، من أجل الوعظ والتّنوير ، رأيت لزامًا أن نسارع بالانتفاع بهم فِي الكلّيّة وليقع فِي نفوس طلبتها الجامعيّين منذ البداية معنى الرّبط بين منهجهم العصريّ الحديث وجذور حضارتهم الَّتي يمثلها علم الأزهر وفضله ممثلًا فِي الشّيخ محمّد الرّاويّ وزملائه . ولقد عمدت إِلى نوع شبيه بهذه التّجربة فِي جامعة الخرطوم من بعد ، إذ عهدنا بدروس القراءات والتّجويد إِلى شيخ متخصص فيها من علماء القراءات هو الشّيخ محمّد سالم محيسن ، فكان لذلك من التّأثير العميق الحميد معنى عظيم .

لا أشك أنّ مزيدًا من التّوفر عَلى الرّبط بين دراستنا الجامعيّة العصريّة وأساليب علومنا القرءانيّة الدّينيّة القديمة سيكون عظيم المنفعة . هاديًا إِلى التّحرر من التّبعيّة الفكريّة . ولا

أغلو إن حسبت أنّه ينبغي أن يدرج فِي برامج الدّراسات العالية طلب تحصيل الأسانيد فِي الحديث وغيره من العلوم من مظانّها القليلة الباقية عند بعض المشايخ الأجلّة فِي شتى أقطار الإسلام ، وأن يكون هَذَا التّحصيل نفسه بحسب مقدار جودته كافيًا لنيل شهادات الدّراسات العالية من أستاذيّة صغرى (M.A.) أو كبرى (Ph.D.) . وهذا بعد باب لا يتسع المجال لتحليله وتفصيله هاهنا .

من أوائل ما برز من أنياب المعارضة لنشأة كلّيّة عبد الله بايرو محاولات فجّة لإغلاقها. بدأت بعرض فرصٍ للرّحلة والدّراسة فِي الخارج لأحد الطّلبة فلم يقبلها وقبل راشدًا نصيحتنا لَهُ بذلك . ثمَّ تلت محاولة لنقل الطّلبة كلهم ليدرسوا فِي مؤسّسات وراء البحار لمدّة عام فأبى مجلس الكلّيّة ذلك كلّ الإباء . ثمَّ جيء بهديّة ضخمة من الكتب لتكون أساسًا لمكتبة الطّلبة ، كلّها تبشيريّة الرّوح خالية كلّ الخلوّ من معاني الإسلام ومن بينها معجم فسرت فيه كلمة العذراء بأنّها أم الإله المتجسّد . فما كَانَ دون رفضها وردها من سبيل .

ثم دخلت أنا وزملائي فِي معركة مصير للكلّيّة شديدة النّضال لم تخل من عنف وليس هاهنا موضع تفصيل ذلك . وقد كتب لكلّيّة عبد الله بايرو بحمد الله النّصر وبتوفيق منه جلّ جلاله عظيم . وكانت إعادة الكلّيّة لموقعها الأوّل ذي المساحة الرّحبة الواسعة العتيدة للعمل فِي أسرع وقت فاتحة هَذَا النّصر ورمزه الواضح . وفِي أوّل يولية سنة ١٩٦٦م أقيم حفل بداية بناء أولي عمارات الكلّيّة الَّتي خطت لتؤوي أولي مكاتبها وقاعاتها ثمَّ تكون من بعد مركزًا لخزانة كتبها . ودعاني المهندسون لأضع أوّل خلطة من الأساس . وتلى الكتاب العزيز للتبرّك . وكان قلم السّردونة رحمه الله الأخضر قد جرى يأمر بالعودة إِلى الموقع القديم فِي أخريات سنة ١٩٦٥م واغتيل شهيدًا رحمه الله فِي الانقلاب الَّذي وقع فِي ١٥ من يناير سنة ١٩٦٦م بعد أسابيع قليلة من الأمر الَّذي أمر به. ووقعت من بعد ذلك بمدّة قصيرة محاولة لنقل الكلّيّة إِلى زاريا وكَانْ خُيّلَ لبعضهم أن هَذَا ممكن ميسور بعد أن خلا الإقليم الشّمالِيّ من شخصيّة السّردونة القويّة وسلطانه

النّافذ ولكنّها محاولة أُحبطت وكان لاتحاد طلبة كلّيّة عبد الله بايرو فِي إحباطها نصيب وافر . كَانَ رئيس اتحاد الطلبة آنئذ داندتي عبد القادر الَّذي هو الآن البروفيسور داندتي عبد القادر ورئيس جامعة بايررو .

دعاني البروفيسور داندتي وجامعة بايرو «وعدد من أساتذتها كانوا تلاميذ لي» إِلى كنو لأشهد حفل التّخريج وليمنحوني شهادة الدّكتوراه الفخريّة وكان ذلك فِي ١٣ من شهر فبراير سنة ١٩٨٨م . سرّني حين شهدت الحشد الضّخم من الخريجين والخريّجات فقد صارت كلّيّة عبد الله بايرو الآن جامعة كبيرة مكتملة الكلّيّات من علمية وإنسانيّة ومهنيّة متنوعة ضروب الدّراسة ، وقد اتسعت كلّيّة الآداب نفسها وكثرت أقسامها وارتفعت مستويات الدّراسة والتّحصيل فيها ـ وقد جاوز عدد الطّلبة فِي الجامعة عشرة آلاف ـ هكذا تطورت كلّيّة عبد الله بايرو بعد تلك البداية المتعثّرة ، وما زالت محتفظة بطابع أساسها الأوّل الَّذي قام عَلى العربيّة وعلوم الإسلام ، وما زالت صلتها واشجة بمدرسة العلوم العربيّة ورصيفاتها اللّاتي أنشئن عَلى غرارها فِي مدن بلاد هوسا ، من طريق كلّيّة التّربية والدّراسات العالية فِي اللّغات والشّريعة والقانون .

لقيت الأستاذ حسين آدم الَّذي كَانَ من مؤسّسي كلّيّة عبد الله بايرو فِي سنوات السّتين حينها كَانَ هو مفتشًا للّغة العربيّة وحينها كانت الكلّيّة ضِغْثًا مُخشيًّا عليه أن يتبدّد . جاء ليشهد تخريج ابنة لَهُ من كلّيّة الطّب .

كان تشريفًا لي أن كُلِّفْتُ إلقاء خطبة قبول شهادة الدّكتوراه الفخريّة أصالة عن نفسي ونيابة عن الزّعيم الإفريقيّ نلسون مانديلا الَّذي ناب عنه مندوب من حركة التّحرير الَّتي كَانَ يقودها . أمَّا هو نفسه فقد كَانَ آنئذ فِي غيابات السّجن بجنوب إفريقيّة . وهو الآن ، كما لا يخفى قد خلص من ظلماته ليتألق فِي آفاق التّحرر من سيطرة العدوان العنصريّ البغيض .

من المناسب هنا أن أشير إِلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ

بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] وإلى الحديث الشّريف: «لا فضل لعربيٍّ عَلى أعجميٍّ إلا بالتّقوى» ليس فِي علوم الأمم كلّها ولا فِي حكمتها ولا فِي مأثور أقوال فلاسفتها ما يضارع النّصوص الواضحة المدلول النّاصعة البيان فِي معاني العدالة والمساواة . الحمد لله عَلى ما هدانا إليه من الصّراط المستقيم .

من بعدُ مررت عليَّ تجارب فِي تعليم العربيّة وحضارة الإسلام لم تخرج فِي جملتها عن نطاق ما قدمته فِي أغراضها ومناهجها . من ذلك مثلًا المركز الإسلاميّ الإفريقيّ بالخرطوم . ومن ذلك مثلًا أنه وصلتني دعوة كريمة من مجموعة طيبة من مواطنيَّ ممن كانوا طلبة لي من قبْلُ لأشارك فِي مؤتمر أقيم بمناسبة المولد النّبويّ فِي مقاطعة «أورانج ستيت» (Orange State) بأمريكا ، فكان من خير ما شهدته مجهود جماعة من المسلمين هناك يحفظون أبناءهم الصّغار كتاب الله حفظًا متقنًا فسمعت منهم من كانت سنه تسعًا ومن كانت سنة إحدى عشرة ومن كانت سنة ثلاث عشرة يقرأون عن ظهر قلب قراءة تجويد وإتقان . وكان من أعجب ما شهدته مدرسة صغيرة يشرف عليها أستاذ من سودان أمريكا درس العربيّة فأتقنها ، عظيم الإخلاص متوقّد الذّكاء ، عنده صغار من بنين وبنات كلهم دون العاشرة يقرأون العربيّة والنّحو . فحضرت درسًا كَانَ يلقيه عليهم أستاذ نيجيري يرباوي «أي من ناحية إقليم إبادان وما حولها» فِي النّحو أداره حول الحديث الشّريف : « لا تسبوا الدّهر فإنّني أنا الدّهر بيدي اللّيل والنّهار» فكان يشرح لهم أنّ اللّيل والنّهار مبتدأ مؤخر ومعطوف عليه وأنّ الجار والمجرور خبرٌ مقدم وهم ينصتون ويفهمون ، لم أشك فِي ذلك . ذكرني صنيعه صنيع المعلّم خرشي الثّاني رحمه الله إذ رأيته قبل نحوٍ من ربع قرن وتلاميذه الصّغار ، كلهم دون العاشرة يتلون بترنيم : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ١] .

صدق الله جل من قائل إذ يقول : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

أهم الدّوافع الَّتي تدفع إِلى تعلم العربيّة ثلاثة ، أولها الدّافع الدّينيّ إيجابًا وسلبًا ، نعني بالدّافع السّلبيّ ما تراد به محاربة الإسلام من وراء دراسة لغته وحضارته ، أمَّا الإيجابيّ فهو الَّذي يدفع سائر المسلمين من عرب وغيرهم إِلى تعلم القرءان والحديث وعلوم اللّسان . وثانيها : الدّافع القوميّ ، عند العرب المسلمين خاصّة ، كأنّما هو فرع من الدّافع الدّينيّ الإيجابيّ . هكذا كَانَ الشّأن إِلى زمان قريب ، غير أنّه فِي هَذِه الأيّام يريد قوم باسم الحداثة أن يفصلوا بين جانبي الأدب والدّين فصلًا ، يعرضون به عن الدّين إعراضًا ، وهذا اتجاه خاطئ كما سنبين من بعد إن شاء الله تعالى . وغير المسلمين من العرب يدفعهم إِلى تعلّم العربيّة الإلف والدّافع القوميّ كما لا يخفى ، وثالثها الدّافع الإنسانيّ ويلحق به اللّون الرومنسيّ الَّذي دفع كثيرًا من الأوربيّين والأمريكيّين إِلى تعلم العربيّة ، عَلى أنّ هَذَا كَانَ ربّما خالطه نوع سالب ، تبشيريّ الطّبيعة أو استعماريها .

وقد كَانَ المستشرقون طوال القرن التّاسع عشر ، ولا تزال من مذهبهم بقية باقية ، يتعلمون العربيّة ليحاربوا بها الإسلام ، وربّما تكلّفوا الرّحلة فِي بلاد المسلمين وفِي جزيرة العرب من أجل هَذَا الغرض . وقد خلف الاستشراق القديم استشراق حديث بعضه لا يخلو من تعاطف ومودة وكثيرٌ منه فيه نظر . وأنفع شيء للمسلمين فِي هَذَا المضمار أن يكونوا أبدًا مُتَيَقِّظين .

وللعربيّة جوانب أربعة : قديم وحديث وفصيح ودارج «أو عاميّ» . القديم أساس وفِي أساليب تعليمه القديمة دقة وبركة لما فيها من المشافهة الَّتي تصحح النّطق والإملاء الَّذي تصح به الكتابة ويُجَوَّد فيه الخطّ والحفظ الَّذي يربّي الذّوق ويقوّي ملكة اللّغة ، والإسناد الَّذي يوثق الأصول ويشحذ شفرة النّقد والتّواضع للشّيوخ الَّذي تُعمّق به روح التّعلم وفِي البدء بالقرءان البركة .

وفِي العالم الإسلاميّ الآن ازدواجيّة غرسها الاستعمار بمكايده وزادها تغلغلًا شعور المثقّفين بالنّقص إزاء تفوّق العالم الغربيّ المسيحيّ فِي الصّناعات والمهارة الحربيّة والعلوم العصريّة والتّمرّد الاقتصاديّ . وقد نشأ من هَذِه الازدواجيّة صنفان من التّعليم ، تعليم علمانيّ هو الَّذي تقوم عليه أكثر الجامعات ، وتعليم دينيّ أخذ هو نفسه يتّجه فِي الأيّام

الأخيرة اتجاهًا مُشْرَبًا بالعلمانيّة . وقد آن لنا أن نسعى بجد للتّخلّص من هَذِه الازدواجيّة وذلك بأن نستوعب جيل المشايخ وطريقة درسهم القديمة فِي جامعاتنا ومدارسنا الحديثة وقد مرّت الإشارة إِلى بعض ما مر بنا من مبادئ التّجربة وحمدناه فِي هَذَا الصّدد .

كانت العربيّة لسان الحضارة فِي العالم الإسلاميّ كله ، وأقطاره متعددة الأقاليم مختلفة ضروب التّجارب البشريّة وأنواع النّبات والحيوان والطّبيعة فِي التّربة والمعادن والمناخ وغير ذلك ـ وقد صنف المسلمون فيها من أولي العلم والحذق والدّراية كثيرًا بالعربيّة كلٌّ فِي باب حذقه ودرايته وعلمه ، هَذَا عدا ما صنّف فِي الفقه والأدب وعلوم الدّين من تفسير وحديث وعقيدة وأصول . فدرس العربيّة وإتقان علوم لسانها القديمة هو الوسيلة الّتي لا يوجد غيرها إِلى تحصيل ما فِي ودائع هَذِه الكنوز لنستفيد به الآن فِي شئون دنيانا وسبل الاستعداد للعمل الصّالح لآخرتنا . لذلك صَرْف النّظر عن القديم باسم الحداثة خطأ بالغ ، ومن عجب الأمر أنّ الإفرنج قد تنبهوا إِلى ما فِي مخطوطات كتب المسلمين العربيّة فِي شتّى أقطارهم من كنوز . فتراهم يفدون الآن إِلى بلاد غرب إفريقية مثلًا ليحصلوا عَلى ما كتبه علماؤها فِي نباتاتها وصنوف حيوانها وتربتها وعاداتها مَعَ ما كتبوه من الدّين واجتهدوا فيه من مسائل الفقه . فمن ذلك ما ينتفعون به فِي تدبير التّجارب العلميّة ومنه ما ينتفعون به فِي الدّروس الاجتماعيّة والعلوم الإنسانيّة ، ونحن ياللأسف باسم الحداثة عن جميع ذلك غافلون .

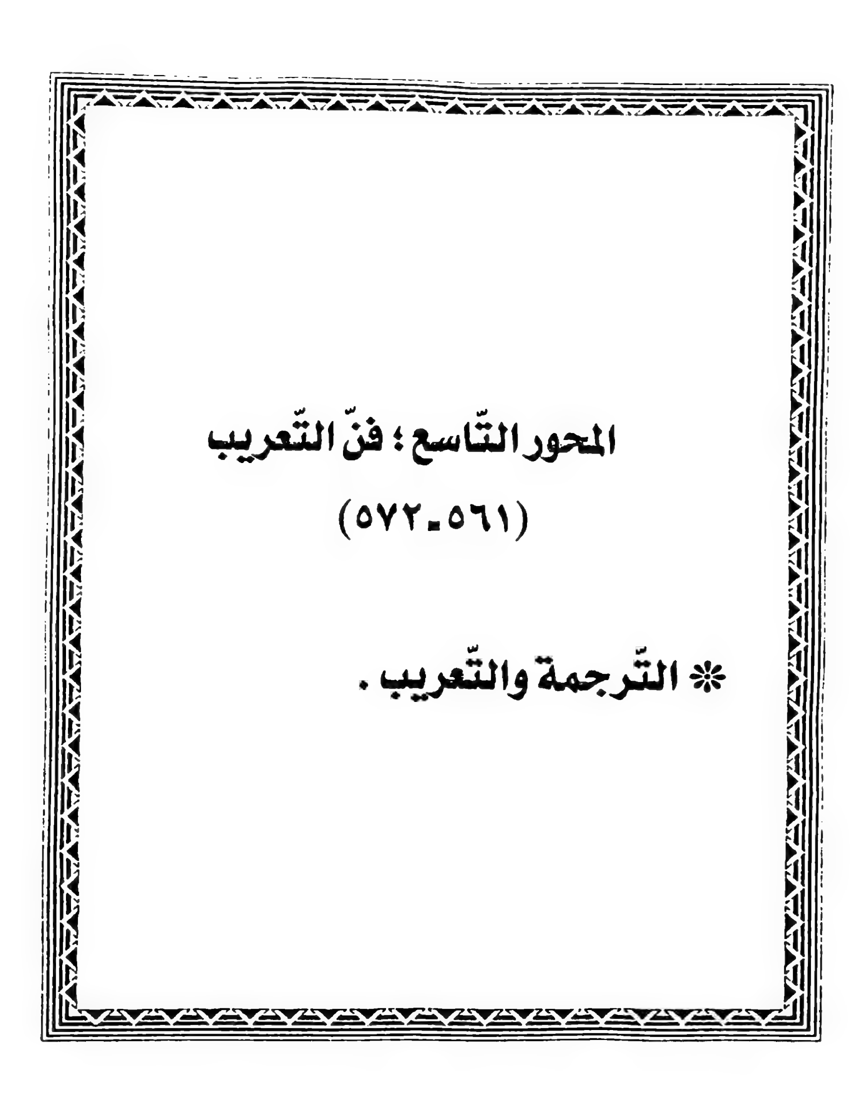
والحداثة تتمثل فِي لغة الإعلام والصّحافة كما تتمثل فِي لغة الكلام المشتركة بين المثقّفين فِي بلاد العرب . والدّارجة شيء غير الحداثة . لأنّ اللّغات الدّارجة مَعَ قوة صلتها بالأصل الفصيح تختلف بين الأقطار العربيّة المختلفة ولابد لمن يقيم فِي قطر عربيّ من معرفة لسانه الدّارج من أجل الكلام والمعاملة اليوميّة . وليست محاولة محو الألسن الدّارجة ليحل اللّسان الإعلاميّ محلها برأي صائب . أولًا لما فِي ذلك من العسر المداني الاستحالة وثانيها لأنّ الألسن الدّارجة كل منها محتفظ بمادة من أصالة العربيّة القديمة هي مما يعين عَلى تذوّق الأصول القديمة وفهمها . مثلًا كلمة «السّليط» بمعنى الزّيت وهي فِي شعر امرئ القيس تعتبر من الغريب وهذا اللّفظ مألوف دائر فِي لسان اليمن .

وصيغة المبني للمجهول ما زالت تستعمل فِي دارجتنا فِي السّودان . وإنّ الاطلاع الجيد عَلى القديم فِي أصوله ومراجعه ومعاجمه مما يعين عَلى كشف ضروب من الاستعمال والتّراكيب الَّتي فِي اللّغة الدّارجة فِي أقطار العربيّة . وهذا أمر لا تخفى أهميته .

هذا وفِي لغة الإعلام والصّحافة المعاصرة ركاكة وهجنة مما جره الجهل بالنّحو والجراءة عَلى استمراء الجهل به بنوع من شعوبيّة جديدة لا تخلو من مناوأة للإسلام نفسه، والتّقليد الأعمى للمستويات الدّنيا من صحافة الغرب . عَلى أن هَذِه الهجنة والرّكاكة ممّا تستطاع إزالته قريبًا إن شاء الله . والإعلام والصّحافة عَلى ركاكتهما وهجنتهما ، أو قل عَلى ما فِي كثير منهما من هجنة وركاكة ، لابد لطالب العربيّة من معرفتهما والاهتمام بهما لأنّهما طريقا الإخبار والتّواصل بأحوال العالم العربيّ والإسلاميّ المعاصر . ولا ريب أنّ الحرص عَلى معرفتهما والاهتمام بهما من جانب طلاب العربيّة الجادّين فِي تحصيلها ممّا يعين عَلى رفع مستوى الإعلام والصّحافة ورفع الهجنة والرّكاكة عنهما إن شاء الله تعالى .

وفِي الحداثة المعاصرة بَعْدُ اتجاهات جادة يبلغ بعضها مبلغ التّجويد الرّفيع كما فِي أدب مصطفى صادق الرّافعي والزّيات والمازنيّ والعقّاد وطه حسين وعبد الوهّاب عزّام والمنفلوطيّ وعدد من رجال الجيل الماضي القريب ، ومن الجيل المعاصر من نيلت بعملهم فِي باب القصص جائزة نوبل وجائزة الملك فيصل العالميّة فنحو هَذَا مما تنبغي معرفته ودرسه .

ومن النّقص الَّذي يحسن منذ الآن الدّأبُ عَلى تلافيه أمر الكتب الملائمة للمبتدئين صغارًا وكبارًا ولاسيما المسلمين منهم ، وهذا باب واسع يحتاج إِلى إفراد ورقة خاصّة به . وأكتفِي ها هنا الآن بالتّنبيه عَلى ضرورة القيام بإحصاء وحصر لما قد سبق نشره فِي هَذَا الباب ممّا نَفِدَتْ طبعاته وما لم تَنْفَدْ ، فعسى مثل هَذَا الحصر أن يعين عَلى فتح باب إِلى حل هَذِه المشكلة وتلافِي هَذَا النّقص . ونسأل الله العون والتّوفيق إنّه قريب سميع مجيب وله الحمدُ أولًا وآخرًا سبحانه وتعالى وصلى الله عَلى سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا .



المحور التّاسع : فنّ التّعريب
(٥٦١-٥٧٢)

* التّرجمة والتّعريب .

التّرجمة والتّعريب (١)

للتعريب مواقع كثيرة من الأهمية ، أذكر منها أربعة.

أولا - الموقع القومى - وذلك أن اللغات عنوان للأمم والقوميات ولشخصية الفرد والمجموعة،وقد ذكر الجاحظ أن اللغات بينها تغاور كما بين الناس وقال أبو الطيب:

إنـــما أنفـــس الأَنيـــس ســـباع يتفارســــــن جهـــــرة واغتيــــالا

مــــن أطـــاق الــــتماس شيء غلابـــا واغتصــــابا لم يلتمســــــه ســــؤالا

وقد تغلب لغةٌ لغةً كما يغلب أناس أناسا، ومن غلب سلب ، ومن عزّ بزّ ، وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : ٣٤] . وإذا غلبت أمة أمة عمدت إِلى أن تغلب لغتها أيضًا وإِلى أن تصير اللّغة الأخرى صاغرة لها ذليلة ثمَّ تموت أو كأنْ قد .

فالحرص عَلى العربيّة والتّعريب واجب لدرء هَذِه المذلة . وقد غزتنا اللغات الإفرنجية ولاسيما اللّغة الإنجليزية، حتى قد أوشك أن يغزو حرف هجائها حرف هجائنا . وحتى صرنا نستعير منها ما يفسد به لساننا ولا يزيده، كقول بعضهم: " بنشر " لإصلاح العجلات وسد خرومها، وكقولهم:"استراتيجية" وقد تغنى عنها كلمة - خطة - وتخطيط ومعناهما واضح .

وقد رأيت عَلى أحد إعلانات شركة للأسفار (بالفلاين كاربت إِلى بيت الله الحرام) وما أخذت (فلاين كاربت) إلا من ألف ليلة حيث ذكرت بساط الريح،فتأمل. قَالَ رسول الله ﷺ : « **أقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم** » . واعلم أيها القارئ والسامع الكريم أن منها فتنة المسيح الدجال . وهو هَذَا العصر الذى نعيش فيه، فبالله نعوذ وبه نلوذ، ولا

---

(١) ألقى هذا البحث فى الجلسة السابعة من جلسات مؤتمر الدورة الثالثة والستين يوم الخميس ١١ من ذى القعدة سنة ١٤١٧ هـ الموافق ٢٠ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٧م .
المجلّة ، جـ ٨٤، ص ٩٤. (حسن) .

تلوِيَنَّكَ أصلحك الله صفاته المذكورة الحسية عن الأخذ بهذا المعنى الرمزى ، فهو إن شاء الله لا يخلو من أن يكون لَهُ وجه من الصواب والله أعلم.

ثانيًا : الموقع التعليمى وهو ثلاثة أبواب . باب التعليم الأولي ، ولا ينبغى أن نَعدو مذهب القدماء فى البداية بالقرآن . وقد تناول بعض هَذَا الباب ابن خلدون فى المقدمة تناولاً حسنًا ، فنبه عَلى أن البداية بالقرآن فيها بركة، وفيها تعويذ للناشئة من مس الشيطان. ثمَّ يضاف إِلى هَذَا أن فيها إشعارًا بأن الناشىء قد بدأ يجاوز درجة الطفولة إِلى درجة أعلى منها تقربه من النضج رجلا أو امرأة ، وذلك أن الصغير يشاهد الكبار يُصَلُّون ويسمعهم يُؤَذِّنون ، ويصله ترتيل القرآن من وسائل الإعلام، إن لم يُغَلِّبْ أهلُ داره عليها المسلسلات الأجنبية الفظيعة، وهى شر نسأل الله درأه وأن يصرف عنا عِبْئَه!

وكان أكثر الأولين يأخذون الصغار بالحفظ من سورة الناس إِلى البقرة والفاتحة ويضربونهم عَلى ذلك ، ثمَّ يأخذون بتعليمهم العربيّة والفقه .

ونحن الآن قد جعلنا نؤثر طريقة البدء بالتهجى غير المرتبط بالقرآن نحو ألف أرنب، با بط، ونحو (الجمل جمل حمد) (الولد دخل) عَلى النحو الذى فى بعض كتيبات أطفالنا الآن . وطريقة القدماء لو تأملنا أجود .

وليس أَرَبِى المفاضلة بين أسلوب الأوائل والمعاصرين وإنما التماس السبيل إِلى ما هو أجْدَى. وإقحام الفصحى عَلى الصغار أنها لغتهم- وهم يسمعون فى منازلهم اللسان العامى الشائع لا الفصيح المعرب- يوقع فى أعماقهم نوعًا من النفور والازدواجية النفسية الموفية عَلى شفًا من النفاق . البداية بالقرآن أصوب لأنهم يعلمون أنه كتاب الله وأن لغته لغة المسجد لا لغة المنزل . وإتباعُ البداية بالقرآن دَرْسَ النحو سُلوكٌ به إِلى جِدِّ الدرس ، وفيه تَنْبيهٌ عَلى أن اللّغة الفصحى لا تُتَنَاوَلُ قَطفًا دانيا يسيرا ولكن لابد فى تحصيلها من مجهود .

ولقد صنع الأقدمون مختصرًا جيدًا هو الأجرومية وشرحوها شرحًا واضحًا وطريقة الأجرومية وشروحها فيهما تعويل عَلى الحفظ، والحفظ فى مادة النحو أمر لا مَفَرَّ منه ، ومن خير ما كُتِبَ للناشئة فى النحو مختصرًا وافيًا كتاب قواعد اللّغة العربيّة لحفنى ناصف وأصحابه رحمهم الله، وكتب الدروس النّحويّة الممهدة لَهُ . وعندي أن هؤلاء أجود من كُتاب النحو الواضح ، لأن جانب الالتزام بخطوات "هربارت " الخمس أحدث تطويلاً فيه عناء عَلى المدرس والتلميذ معا ، وكتب العربيّة المحبوبة السودانية ونحوها مما كتب لتبسيط النحو والتخلص من كتب ابن مالك وابن هشام ومذهبها عند الشراح والمحشين باطل يجب طرحه .

ولابد فى المرحلة الثانوية من درسٍ كابن عقيل والتوضيح ومغنى اللبيب وذَرْءٍ من العروض والمعانى والبيان والبديع، وينبغى أن تكون قد سبقت ذلك فى المرحلتين الابتدائية والوسطى اختيارات جياد من الشّعر والنثر ككتاب أدبيات اللّغة العربيّة وكالمنتخب فى أدب العرب، وكجمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت . ولابد فى المرحلة الثانوية من درس عدد من مقامات الحريرى والبديع، وباب من الحماسة عَلى الأقل، وجميع المعلقات العشر، وعدد حسن من قصائد المفضليات الطوال .

ثمَّ يصحب هَذَا منذ البدء أخذ التلاميذ بالتطبيق والإنشاء، حتى إذا صاروا إِلى المرحلة الثانوية أُخذوا بكتابة المقالات والبحث والنظر فى القاموس واللسان والصحاح، وجعل بيد كل منهم تلميذًا أو تلميذة معجم ينظر فيه ويستعين به .

وخير الوجوه ليتعلم التلاميذ لغة العلم أن يُؤخذوا بكتابة المقالات لا بحفظ مذكرات الأستاذ . وجميع هَذَا يمكن تخصيص عام كامل لَهُ فى أواخر المرحلة الثانوية، كما يصنع البريطانيون فى المرحلة التى يسمونها الصف السادس، وهى تهيىء الطالب تهيئة حسنة للأخذ بأسباب التلقى الجامعى الواعى الرشيد . ومما يجب أن يدخل فى باب البحث فى

هَذَا الطور تعويد الطلاب بنين وبنات عَلى أساليب القدماء العلمية فى المتون والشروح ، ولا تخفى ضرورة تزويدهم بمعرفة مادة كافية وافية من علوم الدين من فقه وتوحيد وحديث . وعلينا أن نيسر شروحًا قريبة المأتى لبعض أمهات الكتب فى هَذَا المجال مثل الموطأ والمختصر، وجوهرة التوحيد، وتهافت الفلاسفة، ومقدمة ابن خلدون، وإحياء علوم الدين،ورسالة القشيرى،وهلم جرّا.

هَذَا وعندما يصير الطالب إِلى الجامعة ينبغى أن يكون قد أتقن درس اللّغة الإنجليزية عَلى الأقل، وينبغى أن يكون قد عُوِّدَ فى درسها عَلى قراءة الكتب العلمية فى مختلف أبواب العلوم . ومن شر ضروب التصنيف للطلاب عندنا قسمتهم إِلى طريقين علمى وأدبى. وفى الكثير الغالب أن ينخرط الأذكياء النجباء فى الطريق العلمى، ويترك المتوسطون ومن دونهم للطريق الأدبى ويكون من هؤلاء من بَعْدُ المدرسون، أضعفهم مدرسو العلوم الاجتماعية والآداب وخاصة آداب اللّغة العربية، ولا يمكن أن ينهض تعريب الأمة وبيانها من بعدُ عَلى مثل هَذَا الأساس الضعيف وإنك لا تجنى من الشوك العنب !

ولا علاج لهذا الداء إلا أن تعمل الدول المعربة عَلى إكرام المعلم، كما قد تعمل عَلى إكرام الطبيب ودرجات المهنيين التى تليه كالمهندسين والبياطرة والصيادلة.

قال الشّاعر :

إن المعلـــم والطبيـــب كلاهمـــا لا ينصـــحان إذا همـــا لم يُكْرمَـــا

فكيف يخفى عَلى أُولى الألباب أنهم حين يكرمون الطبيب ولا يكرمون المعلم لن يجدوا من المعلم نصحا، وتنهار من أجل هَذَا الجانب الضعيف جميع الجوانب التعليمية بما فيها جانب إعداد المهندس والطبيب .

عندى أنه يجب أن يكون تصنيف الطلبة للجامعة مرتبًا عَلى طريق واحد يؤخذ فيه الطلبة بإتقان العربيّة والإنجليزية والرياضيات الدنيا والعليا، وصنوف من العلوم النظرية

والجغرافيا والتاريخ والفقه والحديث والخط والرسم، وتبنى الشهادة المدرسية فى أدنى درجاتها عَلى تحصيل جيِّد فى ست مواد عَلى الأقل ثنتان وَجُوبِيَّتَان : إنشاء اللّغة العربيّة ونحوها وإنشاء لغة أخرى كالإنجليزية ونحوها ، ثمَّ إذا اختار طالب العربيّة مثلا علينا تجنب تكرار الكتب والمواد التى مر به درسها أو درس مشابه لها فى المراحل السابقة ، وفى تعليم العربيّة الآن منذ البداية الأولى إلى درجة التعليم العالى والإجازة الكبرى تكرار مرهق ، خال من الإتقان والدراية والأصالة حقا . وعندى أقل مما ينبغى أن يؤخذ به طالب العربيّة فى الجامعة أن يكون قد حفظ القرآن وعرف تجويده ورسمه، وأن يكون قد قرأ الكتاب، ومفصل الزمخشرى، وشرح الرضى للكافية والشافية ، وتعمق العروض، واطلع عَلى جمهرة ابن دريد وتهذيب الأزهرى وقرأ كامل المبرد وكتب الحديث،وهذا باب واسع يلزم فيه حضور محاضرات يُعدها أساتذة علماء تكون لها متابعة من معيدين محبين للعربية عارفين بها أقوياء فيها ، وينبغى أن يكون لجميع هؤلاء وظائف من المال والجاه جيدة عالية، وأن يكون لهم فى المجتمع مكان ومنزلة مرموقة .

وإذا اختار طالب غير العربيّة لزم أن يكون عَلى اتصال بالعربيّة وثقافتها فى باب اختصاصه، إذا كَانَ طبيبا مثلاً ألزم بالاطلاع عَلى أمهات كتب طب العرب مما كتب ابن سينا والرازى وابن زهر مثلا، ومما كتبه مصنِّفو كتب العلاج والأقرابازين، فإن ذلك يُعوده عَلى باب من التحصيل ربما وجده من بعدُ نافعا. ولقد شهدت أناسا من أوربا يحرصون عَلى اقتناء مخطوطات عربية فى غرب إفريقية تتناول أصنافا من العلاج بالأعشاب والعروق، وهؤلاء يعكفون عَلى درس لغتها الَّتي بالنسبة للمثقف المتوسط من أبنائنا كالطلاسم المغلقات بجد وصبر عظيم ، وما أحسب اهتمام الغرب هَذِه الأيام بغابات إفريقية المطرية إلا قد انبعث فِي أصله من تجارب من هَذَا الفرع الذى قدمتُ ذكره.

وإذا كَانَ متخصصا فى الهندسة مثلا ألزم بالاطلاع عَلى مصنفات القدماء فى هَذَا المجال، كخطط المقريزى وكمنظومات ابن ماجد وابن الياسمين وهلمّ جرّا . وعندى أن من باب ضياع الزمن إضافة ساعات وجوبية فى علوم العربيّة لطلاب الهندسة والصيدلة يحضرونها كارهين ويكون أساتذتها المكلفون بها أشد كراهية لها، ولا يجدون من الطلبة ما يشجعهم عَلى الإقبال عليها ولا يكون لديهم من التحصيل والعلم ما يدفع الطلبة إِلى شهود الساعات التى هم مكلفون بها لتثقيفهم . وكأن هَذَا الآن مذهب عام فى أكثر جامعات بلاد العرب تدفع إليه دوافع قومية، وحظُّه من حاق العلم وأساليب التثقيف حق ضئيل!

ثالثًا : موقع لغة التدريس فى الجامعة. ويوشك الإجماع أن يكون قائمًا عَلى ضرورة التعريب، أى تعليم الطلبة بالعربية، وقد أخذت بلاد بهذا الوجه بإلزام سياسى، ويذكر أن العلوم العصرية كانت تُعَلَّمُ فى مصر مثلاً بالعربيّة حتى ألزم كرومر الناس بدرسها بالإنكليزية . وهذا داخل فى ما قدمناه أولاً من باب منح الأمم ولغاتها .

وقد خطت العلوم العصرية خطا واسعة من التقدم، وكل يوم يوشك أن يطرأ أمر تقنى أو علمى جديد . وقد وضع مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة معجمًا كبيرًا وافيًا لمصطلحات العلوم الحديثة ، ويضيف إليها فى مؤتمره كل عام قدرًا عظيما، وقد اقتدت به مجامع وهيئات للتعريب كثيرة فى بلاد العربيّة .

ولكن أمرين هامين لا يزال مغفولاً عنهما فى مجمعنا هَذَا وفى سائر مجامع العربية. الأول إيجاد معجمات لرموز عربية لا تعتمد كل الاعتماد عَلى الرموز المستعملة عند الإفرنج، وقد يقال إن الرموز نفسها فى العلوم الحديثة لغة – وعالمية العلم تقتضى توحيد رموزه. وفى هَذَا نظر ، لأن القومية والكيان القومى يدخلان كلاهما فى هَذَا الباب ، ولا أحسب أن أهل الصين أو اليابان لا يعدون رموز الأوربيين والأمريكانيين فى علومهم ،

بل قد نعلم أن اليابانيين مثلا لم يكونوا يضعون عَلى أصناف ما يصدرونه من بضائع غير اللّغة الإنكليزية وربما شفعوها بشيء من الفرنسية أو الألمانية . أمَّا الآن فهم يضعون الحرف اليابانى أولا ويشفعونه بترجمة له، وكأنهم يقولون للمشترى قد آن لك أن تتعلم لغتنا. ونحن نقرأ بعدُ فى كتاب الله ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .
ومن الأخطاء الشائعة أن أمم المسلمين دخلها تأخر وجُمُود بعد القرن السّادس الهجرى - والحق أن عكس ذلك قد حدث، فقد دخلت أمم المغول والتتار فى الإسلام عن طواعية، وأسسوا ملكا عظيما فى الهند وفى بلاد ما وراء النهر، وبنى فى زمان تيمورلنك الاسطرلاب العظيم، وكان للمسلمين سبق لا ريب فيه فى ميادين النظريات العلمية والصناعة والملاحة أخذ أوائلها عنهم الأوربيون فى نشأتهم الفتية، ثمَّ اتلأب بهم طريق النهضة العلمية الحديثة بعد ديكارت فتفوقوا عَلى أمم الإسلام. وقد اتسعت رقعة الإسلام حتى وصلت إِلى بلاد جاوة والصين والماصين، ويوشك هؤلاء مسلمين وغيرهم أن يتفوقوا عَلى أوربا فى تقنياتها الحديثة و«لَبِّثْ قليلا ينزل الهيجا جَمَل ».

ولعل دور إفريقية وفيها كانت أوائل الحضارة ليس ببعيد أن يعود من جديد والله تعالى أعلم - هَذَا إن لم تقم الساعة من قبل، وقد نعلم أنها كلمح البصر أو أقرب .

والأمر الثانى المغفول عنه هو الترجمة. ولعلنا إن نظرنا إِلى أوائل نهضة المسلمين أن نهتم كمثل اهتمامهم بالترجمة، وقد نعلم أنهم قد أقبلوا عليها منذ بدايات بصيص النهضة إليهم قبل انبثاق شمس الإسلام بنبوة نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم، فقد تقدم دعوة التوحيد ظهور نبيٍّ بنى عبس الذى ضيعه قومه وقُس بن ساعدة وزيد بن نُفيل، وبعض الحنفاء فى قريش وغيرها، ثمَّ كبار الشّعراء. ذكر صاحب كتاب الزينة أن أبا عمرو بن العلاء زعم أنهم قد كانوا فى العرب بمنزلة أنبياء بنى إسرائيل فى بنى إسرائيل، وقد عرف بعض العرب الفارسية كعدىٍّ بن زيد وابنه، وطلب بعضهم العلم عند سُريان

جندى سابور كالحارث بن كَلدَة وابنه النَّضْر، وأخطأ لكليرك إذ نسب إِلى النبى قتل النضر بن الحارث هذا، وإنما كَانَ المقتول النضر بن الحارث القرشى أخا قتيلة بنت الحارث المذكورة فى السيرة والحماسة، وهذا خطأ يجب التنبيه عليه .

وقد حثَّ النبى ﷺ زيد بن ثابت عَلى تعلم العبرية، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يعرف العبرية، وحرص خالد بن يزيد عَلى ترجمة علوم يونان وكان لَهُ قدم فى الكيمياء، وكان خُبيب بن عبد الله بن الزبير كأنه ذو اتجاه متشابه، وكلاهما كَانَ ابن خليفة. وقد حرص العباسيون عَلى تشجيع التّرجمة حتى انتقل إليهم علم يونان كله، لا بل لعل أدبهم قد ترجموه. وفى كتاب البهبيتى الذى فى تأريخ الأدب العربى إِلى القرن الثّالث[1] زعم أن العرب قد عرفوا أوزان الشّعر اليونانى ، وقد ترجموا قول أفلاطون بوزن يونانى حيث قَالَ :

يـــا نـــار أدنـــى مـــن أفلاطـــون

فـــإن بـــه إليـــك حاجـــة مـــا

وهذا مما ذكره القفطى فى ترجمته لَهُ فى تأريخ الحكماء .

وعلى التّرجمة عوّل الأوربيون فى أوائل أخذهم بأسباب النهضة، فترجموا كتب الموسيقا، ولعلنا إن نقبنا عَلى مخطوطات الترجمات الأولى فى هَذَا الباب أن نعثر عَلى غرائب من المعلومات يكشف لنا أمر قِدَم حضارتنا فى هَذَا الباب، ولا شك أنهم قد ترجموا شعر العرب من قدمائهم ومحدثيهم. وفى أوائل القرن السّابع عشر ترجم أربينوس الهولندى شعر أبى الطّيّب إِلى اللاتينية،و ذكر جون أُوبرى فى ترجماته القصار أن بعض البريطانيين ترجم الكتاب المقدس إِلى العربيّة ليؤثر بذلك عَلى المسلمين مبشرًا فيهم بالمسيحية. وهذا باب واسع ليس مجال الخوض فيه بَلْهَ التفصيل فى هَذَا الموضع، وإنما مرادنا فقط أن ننبه عَلى أهمية ترجمة الكتب الأمهات فى مختلف العلوم ليكون ذلك فاتحة إِلى تهيئة أسباب

(١) كتاب الأستاذ / محمد نجيب البهبيتي اسمه : تاريخ الشّعر العربي حتّى نهاية القرن الثّالث الهجري . (حسن) .

النهضة العلمية الحديثة من طريق لغتنا .

وترجمة الكتب الأمهات تحتاج إلى نفقة تقوم بها الدول، وهذا الباب كالمُعْرَضِ عنه، وأمر التّرجمة موكول لمجهود الأفراد وهذا محدود المدى، وأكثر ما يقع فى باب الروايات والأدبيات وبعض علمائنا يُقْدِمُ عَلى التأليف ولكن هَذَا ليس لَهُ من قوة التأثير كما يكون لترجمةٍ من كتاب أُمٍّ فى بابه معلوم يترجم وتُعاود ترجمته من حين إلى حين،ليضاف إلى ذلك ما يجدُّ من كشف .

ونحن فى مجمعنا فى الخرطوم قد آثرنا أن نقدم الترجمة، وأمر متابعتها تقوم به الهيئة العليا للتعريب ونحن نتعاون معها وهى بدورها تتعاون مَعَ المجامع فى الباب الذى هي مُقدمة عليه، وقد أوصلنا إليها عمل مجمع القاهرة فى ألفاظ الأحياء وغيرها .

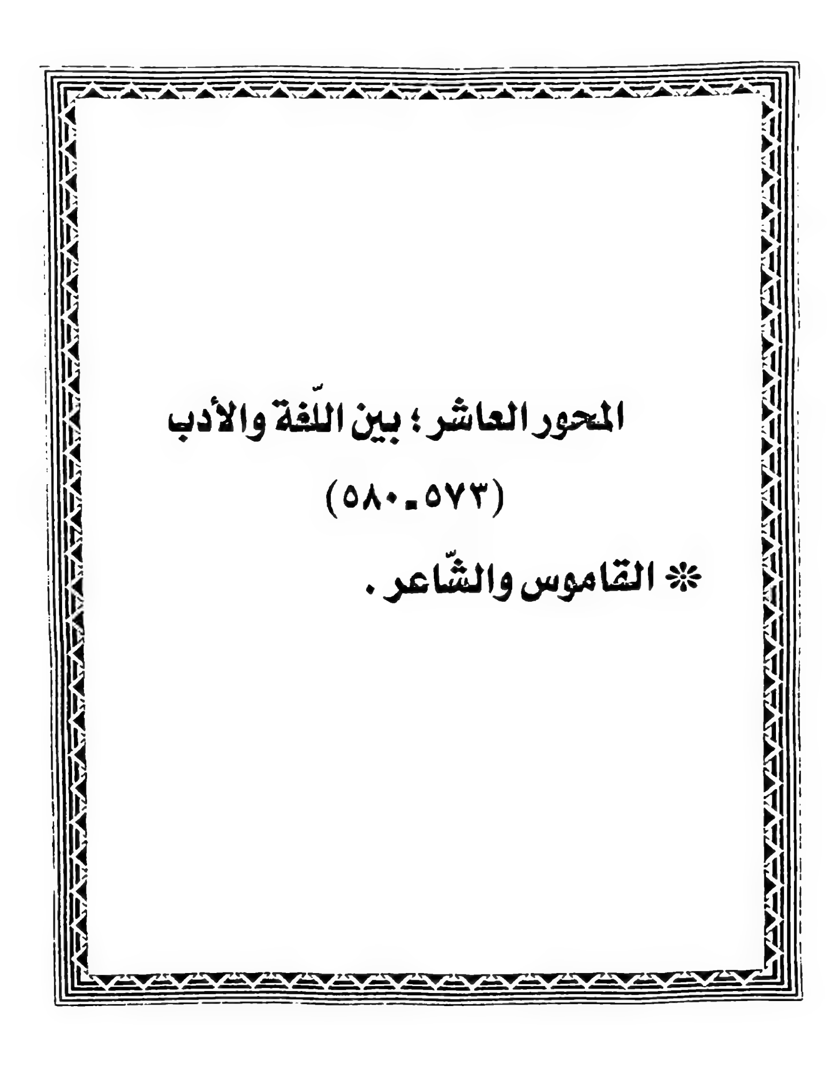
ومن الكتب التى نحن مقدمون عَلى ترجمتها الآن كتاب الزراعة فى السودان الذى أعده الدكتور توتهيل وزملاؤه وطبع طبعتين سنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٤٩م . وأمامنا غيره عدد من الكتب الأمهات التى كُتِبَتْ عن السودان أيام الحكم الثنائى، ومن أهمها كتاب حيوانات السودان ونباته، وكتاب طيور السودان وحيتان النيل والبحر الأحمر، ومجموعة مجلة السودان SUDAN NOTESAND RECORDS فى وقائع مدونات فى مادة غزيرة.

رابعًا : أعنى رابع المواقع الأربعة التى قدمتُ نيتى عَلى ذكرها فى أول هَذِه الكلمة - الجانب الإعلامى ، وهذا خطير للغاية ، فى جميع أبوابه، فى الإذاعة والصحافة والتلفزة ، ولا ريب أن عددًا من الإعلاميين أُولو قَدَمٍ فى صِحَّة العربيّة والحفاظ عَلى حسن أساليبها، ولكن الغالب الآن نوع من الأسلوب المتساهل فى تراكيب جمل العربيّة المُقْدِمِ أحيانًا كثيرة فيها عَلى أخطاء بعضها عن جهل وبعضها عن تعمد . وقد كَانَ للصحافة فى مصر حرص شديد عَلى الأسلوب النقى السليم . ولكن معظم الصحف العربيّة الآن قد ساغ لها نوع

من ضروب الاستعمال التى لا تستحسنها العربيّة الصحيحة - كاستعمال فيما مكان بينما وكتكرار كلما، وكسبق الواو لاسم الموصول وهو إنما يوصف به ما قبله كقولهم: « سفير كذا من الدول والذى قَالَ » ، والحديث عن شخص واحد لا عن شخصين، وتعداد الأخطاء الشائعة مما يضيق عنه المجال ويضيق به الصدر .

وللإعلام دور مهم فى التعليم لو يقوم به ، وفى كثير من مؤسسات الإعلام جَوْرٌ عَلى الأدباء لاحق بما سمَّاه القدماء حِرْفة الأدب . وذلك أن كثيرًا من مؤسسات الإعلام تضن عَلى الأدباء بما يستحقون، وتتعالى عليهم وتعاملهم معاملة المتسوِّلة، وتعدو عَلى حقوقهم.

ودور النشر فيها للأديب العربى ظلم مجحف، وهذا باب يخرجنا من البحث إلى الشكوى. والله المستعان وله الحمد أولاً وأخيرا، وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .



المحور العاشر : بين اللّغة والأدب

(٥٧٣-٥٨٠)

* القاموس والشّاعر .

القاموس والشّاعر (١)

أجود ترتيب للمعجم العربيّ عندي هو الَّذي عليه الصحاح والمحيط واللسان والمصباح ... هلم جرا .

والترتيب الَّذي عليه النهاية والفائق والأساس حسن ، ولكن فيه نصف المزية الَّتي للنوع الأول وهو شديد الملاءمة لما خصص لَهُ من فنون البحث اللغوي ، إذ إنما كَانَ مقصورًا فِي النهاية والفائق وما أشبههم عَلى غريب الحديث والأساس كأنه مقدمة للكشاف وحاشية عَلى الفائق ولم يكن المراد منه استيعاب أكثر ما فِي لغة العرب وإنما كَانَ المراد منه تقريب أكثر أساليب بيانها الرائع دورانا فِي الشّعر والنثر والحديث والقرءان .

والترتيب الَّذي عليه التهذيب والجمهرة فيه عسر لما يتطلبه من معرفة دقيقة بالصرف والتجويد والمخارج . وكتاب العين للخليل أو الليث بن المظفر من هَذَا المجرى ، مَعَ أنه هو أول المعاجم ، إن لم يكن كتاب أبي عمرو الشيباني أسبق منه ، وهذا من مجرى ما تقدم ذكره من معجمات البلاغة والحديث .

وفِي عصرنا هَذَا إيثار لطريقة الفائق ومعجمات الحديث ، هَذَا عَلى تحسين الظن بعصرنا أنه اقتدى بهؤلاء . والراجح ، بل كأنه هو الَّذي لا ريب فيه ، أن المنجد وما أشبهه إنما أريد بها محاكاة معجمات اللغات الإفرنجية .

ومن أقدم معجمات اللغات الإفرنجية معجم صمويل جونسون ، ويجعله بعض الباحثين أول معجم وضع فِي اللّغة الإنجليزية ، مضربين عن آخر سبقه لاعتبارهم إياه ضعيفًا أو هزيلًا أو ناقصًا ، ومعجم جونسون كأنما قد حذى فِي طريقة تأليفه عَلى الصحاح ، حيث يستشهد عَلى كل كلمة تنص من النظم أو النثر المجود ، ذي شبه شديد

---

(١) ألقى هذا البحث فى الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر يوم السبت ٢٥ من شوال سنة ١٤١٣ هـ الموافق ١٧ من أبريل سنة ١٩٩٣م .
المجلّة ، جـ ٧٦ ، ص ١٣٠ . (حسن) .

بطريقة صحاح الجوهري ، وقد كَانَ نظر أدباء أوروبا فِي القرن الثّامن عشر الميلادي إِلى روائع أدب العربيّة وتأليفها كثيرًا وشديدًا .

أمَّا قولي سابقًا إن ترتيب الصحاح عندي أجود من غيره فحجتي عَلى ذلك أنه اعتمد عَلى أصلين عريقين فِي العربيّة ـ حرفها المجرد ، وحرفها الإيقاعي الأساسي . أمَّا حرفها المجرد فهو أثبت ما يثبت من كلماتها وعليه مدارها أحادية كانت أو ثنائية أو ثلاثية ، وكأن الثلاثة فِي العربيّة أصل . قَالَ سيبويه فِي باب عدة ما يكون عليه الكلم : «وأمَّا ماجاء عَلى ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام فِي كل شيء من الأسماء والأفعال وغيرها ، مزيدًا فيه وغير مزيد فيه ، وذلك كأنه هو الأول ثمَّ تمكن فِي الكلام . ا.هـ » . وقال الفارابي فِي كتاب الموسيقى الكبير (ص١٠٩١) .

«والأقاويل ذوات الأجزاء منها ما نهايات أجزائها أشياء واحدة بأعيانها ومنها ما ليست نهايات أجزائها واحدة بأعيانها . ومتى كانت الأقاويل ذوات الأجزاء تتناهى أجزاؤها إِلى أشياء واحدة بأعيانها ، فإن كانت غير موزونة ، فهي تسمى عند العرب أقاويل مسجوعة ، ومتى كانت موزونة سميت أقاويل ذوات قوافٍ ، فإنهم يسمون الأشياء الواحدة الَّتي تتكرر فِي نهايات الأقاويل الموزونة قوافِي . والقوافِي ربّما كانت حروفًا وربما كانت أسبابًا وربما كانت أوتادًا ، وأشعار العرب فِي القديم والحديث فكلها ذوات قوافٍ إلّا الشاذ فيها وأمَّا سائر أشعار الأمم الذين سمعنا أشعارهم فجلها غير ذوات قوافٍ ، وخاصة القديمة منها ، وأمَّا المحدثة منها فهم يرومون بها أن يحتذوا فِي نهاياتها حذو العرب . ا.هـ» .

قول الفارابي هَذَا فيه دلالة عَلى أن القافية وما يجري مجراها ممّا تضبط به . نهايات إيقاع أجزاء الكلام ؛ ذلك أيضًا من أصول بيان اللّغة العربيّة وبنية أنواع إيقاعها لا يخفى إذن أن ترتيب العين والتهذيب والجمهرة عَلى صحة ما التزم فيهن وفِي أمثالهن فيه أضراب عن بنية هذين الأصلين المهمين جدًّا ـ المجرد الثلاثي فما دونه ، وأواخر الكلم اللاتِي يدور عليهن إيقاع الأسجاع والفواصل والقوافِي .

وترتيب المنجد وما إليه ، ليست فيه بركة غريب الحديث ولا أن العدد محدود معلوم فِي جملته ، وفيه بعد قبح التقليد وصحافيّة اليُسْر وعواميّته أو عاميته .

هذا ، وزوائد ما يلحق بالكلمات الأصول فِي العربيّة ليست مما يشكل عَلى طالب النظر فِي المعجم إذ أكثرهن من علامات التثنية والجمع والنسب ، أو من الصيغ المألوفات الكثيرات الورود فِي ، الكلام كصيغة فعلان فِي الجمع والصفات والألفين الممدودة والمقصورة وهذا واضح .

وما يخلو معجم من أن تعترض ضروب ترتيبه أشياء من هَذَا النوع . وفِي المعجم الإنجليزي ربّما ذكر بعد الكلمة ملحقات مما ينتهي بـ (أبل) أو (أنس) أو (أيت) ... وهلم جرا .

هذا وصلة الشّاعر بالمعجم العربيّ سوى ما قدمنا من هذين الأصلين قويّة جدًّا .. إذ كما أن القافية تطلب من أجل إكمال إيقاع نهايات الأبيات ونهايات التصريع وأصناف التقسيم والترصيع الملائمات لرنة القافية ؛ كقول الهذلي :

يحمي الصِحابَ إذا كانَ الضِرابُ وَيَكـ ـفِي القائِلينَ إِذا ما كُبِّلَ العاني

وقول الخنساء :

حَمّالُ أَلوِيَةٍ ، شَهّادُ أَندِيَةٍ جواب أَودِيَةٍ ، لِلجَيشِ جَرّارُ

وقول أبي الطّيّب :

فَنَحنُ فِي جَذَلٍ وَالرومُ فِي وَجَلٍ وَالبَرُّ فِي شُغُلٍ وَالبَحرُ فِي خَجَلِ

وقول حبيب :

تَدبيرُ مُعتَصِمٍ بِاللهِ مُنتَقِمٍ للهِ مُرتَقِبٍ فِي اللهِ مُرتَغِبِ

كذلك تطلب من أجل إتمام المعنى ، مَعَ تمام المواءمة لذلك والاستقامة لتركيب الكلام وسلاسته . وكذلك تطلب غرائب الألفاظ فِي القوافِي وفِي حشو البيت من أجل التحسين ومن أجل إظهار الاقتدار وإرهاب الخصوم .

نجد هَذَا عند قدماء الشّعراء ؛ مثل : امرىء القيس ، إذ فِي شعره قافية الصّاد والضّاد

وفِي شعر هذيل وكان يكثر فيه الغريب الصّاد والطّاء والزّاي .

وركب رؤبة بن العجاج الشّين وأطال فِي كلمة .

عـــاذِلَ قَـــدْ أُطِعْـــتُ بِـــالتَّرْقِيشِ إِلَيَّ سِرّاً فَـــــاطْرُقِي وَمِـــــيشِي

فَـــالخُشْرُ قَـــوْلُ الكَـــذِبِ المَنْجُـــوشِ إِنَّـــــكِ إِلَّا تَقْصِـــــدِي تَطِـــــيشِي

وركب الزّاي فأطال فِي كلمته :

يَـــا أَيُّهَـــا الجاهِـــلُ ذُو التَنَـــزّي لا تُوعِـــــدَنِّي حَيَّـــــةٌ بِـــــالنكْزِ

ولا امْـــرُءٌ ذُو جَـــدَلٍ مِلَـــزِّ دَعْنِـــي فَقَـــدْ يُقْـــرِعُ للأَضَـــزِّ

وركب الضّاد والطّاء والغين ، وهي من أشرس ما يُرْكَب :

قَـــدْ عَجِبَـــتْ لَبّاسَـــةُ المُصَـــبَّغِ أَنْ لاَحَ شَـــيْبُ الشَـــعَرِ المُثَمَّـــغِ

وَعَـــضَّ عَـــض الأَدْرَدِ المُنْغِـــغِ بَعْـــدَ أَفَـــانِينِ الشَـــبابِ الـــبُرْزُغِ

وسمى قدامة ما ركبه محمّد بن علقمة التميمي فِي كلمته :

أفـــرخ أخـــا كلـــب وأفـــرخ أفـــرح

توحيشًا .

وأحسب أن لصلة الشّعر بشيطان الشّعر ، صلةً قوية بطلب الغريب والبديع وضروب الافتنان اللفظي ـ إذ البيان كله فيه ما يسحر ، وفِي الحديث : «إن من البيان لسحرًا ...» والسحر ما حسن وحلّ منه وما خبث وحرم منه كلا ذينك قوي الصلة بالغيبيات وأجواء الطلاسم . وعلى شدة حرص ابن الأثير عَلى السلاسة والصفاء والرونق الحضاري ، حتى لقد جعل شعراء الجاهلية والعالمية معًا ماهم إلا قد كانوا تمهيدًا لحبيب والوليد وأبي الطّيّب وشبّه هؤلاء بالغرانيق الثلاثة العلى الّتي كَانَ يعبدها الجاهليون ويلبون لها ، مَعَ ما أبطله الإسلام من أمرها كل الإبطال : قَالَ إنهم هم لات الشّعر وعزاه ومناته الذين انتهت إليهم حسناته ومستحسناته ـ وعلى شدة حرص ابن الأثير هَذِه أجاز أن يجئ الغريب فِي الشّعر ويكون موقعه حسنًا .

وأنكر المعري سحر أصحاب النجوم فِي قوله :

لَــو كــانَ لي أَمــرٌ يُطــاوَعُ لَم يَشِـــن ... ظَهــرَ الطَريــقِ يَــدَ الحَيــاةِ مُــنَجِّمُ
وَقَفَــت بِــهِ الوَرهــاءُ وَهــيَ كَأَنَّهــا ... عِنــدَ الوُقــوفِ عَــلى عَــرينٍ تَهجُــمُ
وَيَقـولُ مـا اِسـمُكِ وَاِسـمُ أُمِّـكِ إِنَّني ... بِــالظَنِّ عَــمّا فِي الغُيــوبِ مُــتَرجِمُ
يــولي بِــأَنَّ الجِــنَّ تَطــرُقُ بَيتَــهُ ... وَلَــهُ يَــدينُ فَصــيحُها وَالأَعجَــمُ

ومع ذلك ألح عَلى متابعة زخرف القول ، الَّذي إنما هو من عمل سحر شياطين الشّعر، فركب لزوم ما لا يلزم فِي القوافِي وفِي حشو الأبيات ولم يكتف بالتزام الحروف التسعة والعشرين ، فالتزم أصناف الحركات والردف والتشديد وهاءات السكت وغيرها.

واستهوى عمله أصنافًا من الشّعراء قبله وبعده ـ وصنع حازمْ القرطاجني اليونانيّ مزاجِ الأدب والنقد مقصورته . وافتن أصحاب المقصورات والوتريات والعشرينيات من مداح الرسول ﷺ .

ثم جاء عصرنا الحديث .

ومهد للنهضة المبدعون من شعراء شنقيط والصحراء ، كصاحب الميميّة الَّتي جارى بها حميدًا ولصاحب الشمقمقية الغريبة العجيبة .

وتلا هؤلاء شعراء النهضة أنفسهم وركب البارودي الطّاء ، ولزم مذهبًا من الجزالة أعيا نظيره الفحولة المتقدمين من المحدثين من لدن الأبيوردي والصفِي الحلي إِلى ابن الأبار وابن زمرك وفِي بردة شوقي وغيرها غريب كثير .

وبلغني أنه ـ رحمه الله ـ كَانَ ربّما جمع الكلمات الَّتي تصلح قوافِي لما كَانَ مقبلًا عليه أو يريد أن يقبل عليه من نظم . وسمعت الدكتور طه حسين ـ رحمه الله يقول : إنّما كَانَ هَذَا منه ترويضًا للنغم ، وليس من باب استكراه العمل وتكلف الصنعة . وما يغلب عَلى طريقة شوقي من التماس الترنم ، كأنه يصحح هَذَا الرأي .

وقال هارون عبود ، فِي كتابه : مجددون ومحبوسون ، فِي بعض ما قَالَ ، ينصح به الأديب : إن القاموس إلهك أو آله فاعبده» .

وههنا جراءة من القول ـ ولكن مراده من معنى المبالغة واضح .

وقد جاء الآن مذهب أصحاب شعر التفعيلة . وأحسب أن هؤلاء سيحتاجون إِلى غير قاموس العربيّة ، وقد قدمنا قول الفارابي فِي الموزون ، وفِي نهايات الأجزاء ، وهو ينقض ما هم إليه ذاهبون وبه آخذون ، ولعلهم أن يذهبوا فِي النحو مذاهب لم تعرفها العرب ولا يقرها ذوق لغتهم ، كجمع مدير عَلى مدراء واستعمال «فيما» مكان «بينما» والإسراف فِي اتباع بعض الأفعال المتعدية بحروف الجر من غير ما كبير حاجة إِلى ذلك ، كقولهم : تعرف عَلى ـ وقال صاحب الصحاح : تعرف الشيء أي طلبه حتى عرفه أو شيئًا من هَذَا المعنى :

وقال الكميت :

وإلاّ فَقُولُـــوا غَيرَهـــا تَتَعَرفُـــوا نَوَاصِـيهَا تَـردِي بِنَـا وهـيَ شُـزَّبُ

وقال الآخر[1] :

وقـالوا تعرفهـا المنـازل مـن منـىً

ولم أجد فيما اطلعت عليه أن طه والرافعي والعقّاد ، همت عَلى قبورهم شآبيب الرحمة ، قد عدّى أحدهم تعرف أو التعرف بعلى ، والحمد لله والصلاة والسلام عَلى سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) علمت من الشيخ الجليل عضو المجمع من السعودية الأستاذ حمد الجاسر أن قائل هذا البيت هو مزاحم العقيلي من قصيره طويله .

المحور الحادي عشر : التّحقيق الصّوتيّ والصّرفيّ والنّحويّ

(٥٨١ـ٦٠٨)

أ ـ إدغام الرّاء في اللّام بين القرّاء والنّحاة

ب ـ التقاء السّاكنين .

جـ ـ مع ابن التّلاميد وصرف عمر .

أ ــ إدغام الرّاء فِي اللام بين القرّاء والنّحاة [(١)]

سيبويه : والرّاءُ لا تُدْغَمُ فِي اللام ولا فِي النُّون لأنها مكررة وهي تفَشَّى إذا كَانَ مَعَها غَيْرُها فكرِهوا أن يُجْحِفُوا بها فَتُدْغَم مَعَ مَا لَيْسَ يَتَفَشَّى فِي الفَم ولا يُكَرَّر ، ويُقَوِّي هَذَا أن الطَّاءَ وَهيَ مُطْبَقَةٌ لا تُجْعَلُ مَعَ التاءِ تاءً خَالِصَةً لأنّها أَفْضَلُ منها بالإطْبَاقِ ، فهذِه أَجْدَرُ أنْ لا تُدْغَمَ إِذْ كَانَت مُكَرّرة ؛ وذَلِكَ قولك أجْبِرْ لبطة واخْتَرْ نَقلا . وقد تدغَم هَذِه اللام والنُّون مَعَ الراءِ لأنك لا تخلّ بِهما كما كُنْتَ مُخِلًّا بها لَو أَدْغَمتها فيهما ولتقاربهن ، وذلك هرَّأيت ومَرَّايت .

الزمخشري : (فِي الكشاف) :

وَمُدْغِم الرّاءِ فِي اللامِ لاحِنٌ مُخْطِئٌ خَطأً فَاحِشًا وراويه عن أبي عمرٍو مُخْطِئٌ مرّتين لأنه يَلْحَن ويَنْسُب إِلى أَعْلَم الناس بالعربيّة ما يؤذِن بِجهْلٍ عظيم والسَّبَب فِي نحو هَذِه الروايات قِلَّة ضَبْطِ الرواة والسَّبَبُ فِي قلة الضبط قِلَّة الدراية ولا يُضْبط نَحْو هَذَا إلا أهل النحو[(٢)] .

المقتضب :

وتُدْغَم اللام ، والنُّون فِي الراءِ ، ولا تُدْغمُ الرَّاءُ فِي واحدةٍ منها ، لأن فيها تكرارًا فيذْهَبُ ذلك التكرير .

تعليق :

يروي سيبويه فيما بَعْد أن العَرَبَ قد أَخْلَصت جَعْلَ الطّاءِ تاءً سماعًا فهذا يَنْقض عليه بَعْضَ حجته ههنا :

---

(١) المؤتمر ، الدّورة ٤٠ ، الجلسة ٢ ، محاضر الجلسات ، ص ٢٣٧. (حسن) .

(٢) قلت فما جدوى الرواية وهي مصدر من مصادر النحو عظيم ، إن جعلت قواعده التالية ضابطًا لسلفها المتقدم ؟

«ومما أخلصت فيه الطّاءِ تاءً سماعًا من العرب قَوْلهم : حتُّهم ، يريدون حطتُّهم» .

القـــــراء

النشر :

الراءُ السّاكنة عند اللام نحو ﴿ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ [الصف: ١٢] ، ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور : ٤٨] ، ﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ ﴾ [الكهف : ١٦]. ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِى ﴾ [لقمان : ١٤] فأدغم الراءَ فِي اللام فِي ذلك أبو عمرو من رواية السوسي واختلف عنه من رواية الدوري. فرواه عنه بالإدغام أبو عبد الله بن شُرَيح فِي كافِيه وأبو العزّ فِي إرشاده وكفايته وأبو العلاءِ فِي غايته وصاحبُ المستنير وصاحبُ المُبْهج والكفاية فِي القراءات الست ورواه بالإظهار أبو محمّد مكي فِي تبْصرته وابن بُلَيْمة فِي تَلْخيصه وأطلق الخلافَ عن الدُّوري صاحب التيسير والشاطبي والمهدوي وأبو الحسن بن غلبون، وانفردَ بالخلاف عن السُّوسي ، (قلت) : والخلاف مفرع عَلى الإدغام الكبير ، فمن أدغم الإدغام الكبير لأبي عمرو لم يختلف فِي إدغام هَذَا بل أدغمه وجهًا واحدًا ومن روى الإظهار اختَلفَ[١] عنه فِي هَذَا الباب عن الدوري . فمنهم من روى إدغامه . ومنهم من روى إظهاره والأكثرون عَلى الإدغام والوجهان صحيحان عن أبي عمرو . وبالإدغام قرأ الداني عَلى أبي القاسم عبد العزيز بن جعفر عن قراءته بذلك عَلى أبي طاهر عن ابن مجاهد[٢] ، وهي الطريق المسندة فِي التيسير ، قَالَ الداني فِي جامعه : وقد بلغني عن ابن مجاهد أنه رجع عن الإدغام إِلى الإظهار اختيارًا واستحسانًا ومتابعة لمذهب الخليل وسيبويه قبل موته بست سنين (قلت) : إن صح ذلك عن ابن مجاهد فإنما هو فِي وجه إظهار الكبير[٣] . أمَّا فِي

---

(١) أي روى الخلاف عن الدوري وقال به .

(٢) هو أحمد بن موسى أبو بكر ، توفي سنة ٣٢٤هـ .

(٣) أي في الوجه الذي يروي الإظهار في الكبير عن الدوري عن أبي عمر ودون الإدغام وعليه الشاطبي.

وجه إدغامه فلا لأنه إذا أدغم الراءَ المتحركة فِي اللام فإدغامها ساكنة أولى وأحرى والله أعلم.

سراج القارئ: أخبر أن الراءَ المجزومة تدغم فِي اللام للمشار إليه بالطا فِي قوله: طال وهو الدوري بخلاف عنه أي للدوري الإظهار والإدغام وأن المشار إليه بالياء فِي قوله: يذبلا وهو السوسي يدغم الرّاء فِي اللام بلا خلاف ومثل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] ونظيره: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ [لقمان: ١٤]، و﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الصف: ١٢] ونحوه.

رأي السيوطي فِي الإتقان فِي علوم القرءان: الحلبي ج١/ ٩٥:

الإدغام حروف قربت مخارجها وهي سبعة عشر حرفًا اختلف فيها أحدها الباء عند الفاء ... إلى قوله: الخامس الراء الساكنة عند اللام نحو ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الصف: ١٢]، و﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨]. ا.هـ.

البحر المحيط: لأبي حيان: ٢/ ٣٦١-٣٦٥:

قال الزمخشري وقد ذكر قراءَة الجزم: (فإنك قلت) كيف يقرأُ الجازم (قلت): يظهر الراءَ ويدغم الباء ومدغم الراء فِي اللام لاحن مخطئ خطأً فاحشًا وراويه عن أبي عمرو مخطئٌ مرتين لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس العربيّة ما يؤذن بجهل عظيم والسبب فِي نحو هَذِه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب فِي قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هَذَا إلا أهل النحو ـ انتهى كلامه. وذلك عَلى عادته فِي الطعن عَلى القراءِ وأمَّا ما ذكر أن مدغم الراءِ فِي اللام لاحن مُخْطِئٌ خطأً فاحشًا إلى آخره فهذه مسألة اختلف فيها النحويون فذهب الخليل وسيبويه وأصحابه إلى أنه لا يجوز إدغام الراءِ فِي اللام من أجل التكرير الَّذي فيها ولا فِي النون. قَالَ أبو سعيد ولا نعلم أحدًا خالفه إلا يعقوب الحضرمي وإلاما روى عن أبي عمرو أنه كَانَ يدغم الراءَ فِي اللام متحركة متحركًا ما قبلها نحو: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن﴾ [آل عمران: ١٢٩] ﴿ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا﴾ [الحج: ٥] و﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] فإن سكن ما قبل الراءِ أدغمها فِي اللام فِي موضع الضم والكسر، نحو الأنهارُ لَهُمْ

والنار ليَجْزِي فإن انفتحت وكان ما قبلها حَرْفَ مَدٍّ ولين أو غَيْرَه لم يُدْغم نحو من ﴿ مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ ﴾ [يوسف : ٢١] و﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣] و﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : ٢٩] ﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ ﴾ [فاطر : ٣٠] ﴿ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ [النحل : ٨] فإن سكنت الراءُ أدغمها فِي اللام بلا خلاف عنه إلا ما روى أحمد بن جُبير بلا خلاف عنه عن اليزيديّ عنه أنه أظهرها وذلك إذا قرأ بإظهار المثلين والمُتقاربين المُتحرّكين لاغيرُ . عَلى أن المعمول فِي مذهبه بالوجهين جميعًا عَلى الإدغام[1] نحو ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ [الصف: ١٢] انتهى . وأجاز ذلك الكسائي والفراء وحكياه سماعًا ووافقهما عَلى سماعه رواية وإجازة أبو جعفر الرؤاسي وهو إمام من أئمة اللّغة العربيّة من الكوفيين وقد وافقهم أبو عمرو عَلى الإدغام رواية وإجازة كما ذكرناه ، وتابعه يعقوب كما ذكرناه وذلك من رواية الوليد بن حسّان والإدغام وجه من القياس ذكرناه فِي كتاب التكميل لشرح التسهيل من تأليفنا ، وقد اعتمد بعض أصحابنا عَلى أن ما روي عن القراءِ من الإدغام الَّذي منعه البصريون يكون ذلك إخفاء لا إدغامًا وذلك لا يجوز أن يعتقد فِي القراءِ من الإدغام أنهم غلطوا وما ضبطوا ولا فرقوا بين الإخفاءِ والإدغامِ ، وعقد هَذَا الرَّجُل ـ أي الزمخشري ـ بابًا قَالَ : هَذَا الباب يذكر فيه ما أدغمت القراءُ مما ذَكَر أنه لا يجوز إدغامه وهذا لا ينبغي فإن لسان العرب ليس محصورًا فيما نقله البصريون فقط والقراءات لا تجيء عَلى ما علمه البصريون ونقلوه بل القراءِ من الكوفيين يكادون يكونون مثل قراءِ البصرة وقد اتفق عَلى نقل إدغام الراءِ فِي اللام كبير البصريين ورأسهم أبو عمرو بن العلاءِ ويعقوب الحضرمي وكبراءُ أهل الكوفة الرؤاسي والكسائي والفراءِ وأجازوه ورووه عن العرب فوجب قبوله والرجوع فيه إِلى علمهم ونقلهم إذ من علم حجة عَلى من لم يعلم . وأمّا قول الزمخشري إن راوي ذلك عن أبي عمرو مخطئ مرتين فقد تبين أن ذلك صواب والَّذي روى ذلك عنه الرواة

---

(١) أي المعمول به بالوجهين جميعًا إظهار الراء وإدغامها على رواية الإدغام (إدغام المثلين أو المتقاربين مع المتحركين وغير المتحركين) .

ومنهم أبو محمّد اليزيدي وهو إمام فِي النحو إمام فِي القراءاتِ إمام فِي اللغات .

١- النسفِي فِي التفسير تابع الزمخشري ونقل عبارة الكشاف : ١-١٣٩ .

٢- ابن الحاجب فِي الشافية (مصر ٣٤٠- طبع صبيح) : وقد جاء لبعض شأْنهم واغفر لي ونخسف بهم قلت : يشير إِلى الممنوع من إدغام الضاد فِي الشين والراءِ فِي اللام والفاءِ فِي الباءِ وكل هَذَا لأبي عمرو عن القراءِ . قَالَ الرضي الاسترابادي وهو شديد الاتباع للبصريين فِي شرحه ص ٣٤١ : وحذاق أهل الأداءِ عَلى أن المراد بالإدغام فِي مثله الإخفاءِ وتعبيرهم عنه بلفظ الإدغام تجوز لأن الإخفاء قريب من الإدغام ولو كَانَ ذلك إدغامًا لالتقى ساكنان لا عَلى حده فِي نحو : لبعض شأْنهم . وأجاز الكسائي والفراء إدغام الراء فِي اللام قياسًا كراهة لتكرير اللام . ا.هـ . قلت : كَأنَّ الرضي كره نسبة الإدغام إِلى أبي عمرو وهو من شيوخ البصرة . وقد أثبت الإدغام للكوفيين كما ترى . وفِي قوله : «قياسًا» نظر ، إذ اعتماد الكوفيين أبدًا عَلى الرواية فهل طعن فِي روايتهم ؟ والتقاءُ الساكنين وارد لأبي عمرو فِي الإدغام الكبير ﴿ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج : ٤٤] مثلا (سورة تبارك) أم هل لا إدغام كبيرًا لأبي عمرو ولكن ضرب من الإخفاء عَلى مذهب البصريين فِي تأْويل ما روى من هَذَا لَهُ ؟ وتأمل قول الكسائي والفراءِ بأن فِي اللام تكريرًا كأنهما بذلك ينكران أن تنفرد الراءُ بالتكرير وحدها كما هو مذهب البصريين . وعلى هَذَا تكون الراءُ واللام أختين وقال ابن جني واللام أُخت الراءِ (١-٥٤٣) ... فهل الراءِ الكبرى يا ترى ؟

٣- الزمخشري فِي المفصل :

« والضاد لا تدغم إلا فِي مثلها كقولك اقبض ضعفها، وأمّا ما رواه أبو شعيب السوسي عن اليزيدي أن أبا عمرو كَانَ يدغمها فِي الشين فِي قوله تعالى : ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ [النور : ٦٢]. فما برئت من عيب رواية أبي شعيب. ويدغم فيها ما يدغم فِي

الشين إلا الجيم كقولك: حط ضمانك، وزد ضحكاً، وشدت ضفائرها، واحفظ ضأنك، ولم يلبث ضارباً، وهو الضاحك، واللام إن كانت المعرفة فهي لازم إدغامها في مثلها وفي الطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء والصاد والسين والزاي والشين والضاد والنون والراء . وإن كانت غيرها نحو لام هل وبل فإدغامها فيها جائز. ويتفاوت جوازه إلى حسن وهو إدغامها في الراء كقولك : هل رأيت ، وإلى قبيح وهو إدغامها في النون كقولك : هل نخرج ، وإلى وسط وهو إدغامها في البواقي . وقرئ : "هثوب الكفار" ،

وأنشد سيبويه :

فذرذا ولكن هتعين متيماً ... عَلَى ضوء برق آخر الليل ناضب

وأنشد:

تقول إذا أهلكت مالاً للذة ... فكيهة هشيء بكفيك لائق

ولا يدغم فيها إلا مثلها، والنون كقولك من لك، وإدغام الراء لحن. والراء لا تدغم إلا في مثلها كقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ [آل عمران : ٤١]. وتدغم فيها اللام والنون كقوله تعالى : ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٦] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف : ١٦٧].

٤- ابن يعيش :

واختلف النحويون في إدغام الراءِ في اللام فقال سيبويه وأصحابه : لا تدغم الراءُ في اللام ولا في النون وإن كن متقاربات لما في الراءِ من التكرير ولتكريرها تشبه بحرفين ، ولم يخالف سيبويه أحد من البصريين في ذلك إلا ما روي عن يعقوب الحضرمي أنه كَانَ يدغم الراء في اللام في قوله عز وجل : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الصف: ١٢] وحكى أبو بكر بن مجاهد عن أبي عمرو أنه كَانَ يدغم الراء في اللام ساكنة كانت الراءُ أو متحركة نحو قوله : ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ [آل عمران : ١٦] ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] وما كَانَ مثله والمتحركة قوله ﴿ سَخَّرَ لَكُم ﴾ [الحج : ٦٥]

﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود : ٧٨] وأجاز الكسائي والفراءُ إدغام الراءِ فِي اللام والحجة فِي ذلك إن الراءَ أدغمت فِي اللام صارت لاما ولفظ اللام أسهل وأخف من أن تأتي براءِ فيها تكرير وبعدها لام وفيه مقاربة للفظ الراءِ فيصير كالنطق بثلاثة أحرف من موضع واحد قَالَ أبو بكر بن مجاهد لم يقرأ بذلك أحد علمناه بعد أبي عمرو سواه فأعرفه .

٥- تعليق :

قلت أولا : يؤخذ عَلى الزمخشري نصه عَلى أبي شعيب عن اليزيدي عن أبي عمرو أفذلك لأرب أن يعيبه فقد سكت عن الدوري وهو يروي إدغام الراءِ كرواية السوسي ويروي الإظهار أيضًا ولعلك ترى أن أكبر نقد الزمخشري منصب عَلى إدغام الراءِ ولا خلف عن السوسي فيها فتضعيفه فِي الشين تضعيف لَهُ فيها كما ترى . والعجب للزمخشري ينص عَلى الراوي بأرب العيب ويسكت عنه حين يكون به ميل إليه لستر بعض ما عسى أن يكون قد أخطأ أو ضعفت روايته فيه مثال ذلك قوله : وقرئ هثوب وأنشد سيبويه فذرذا .. الخ وقال سيبويه فِي الكتاب : وقرأ أبو عمرو هثوب يريد هل ثوب فأدغم فِي الثاء وقال مزاحم العقيلي فدع ذا ولكن ... البيت ، فهل أراد أن يخفى أن هَذَا مروي عن أبي عمرو لأن أبا شعيب والدوري كليهما لم يروياه ولكن رووه لحمزة فِي ما نقل ابن مجاهد وإنما نقلوا عن أبي عمرو (هترى) فِي تبارك والحاقة . ولا أشك فِي صحة نقل سيبويه عن أبي عمرو إلا أنه غير المشهور وقد انفرد به فكتمان الزمخشري هَذَا مَعَ أن مصدره المباشر هو الكتاب يدخل عليه فيه بعض الأمت والله أعلم .

هذا وإدغام أبي عمرو الراء فِي اللام متواتر عنه صحيح الرواية وخلاف سيبويه أمر خطير ينبغي أن نعبأ به لقوة مذهب سيبويه ودقته رحمه الله . غير أنه ههنا مال إِلى القياس ميلًا ظاهرًا وفِي الَّذي نقل من السماع ما عسى أن يضعفه ألا ترى أنه جعل تكرير الراءِ بمنزلة إطباق الطاءِ وأن للراءِ عَلى اللام درجة كما للطاءِ عَلى التاءِ درجة .

وقد صح عنه سماعًا إخلاص إدغام الطاءِ تاءِ فِي حت (٢-٤١٨) وقد استضعف ما رواه عن العرب فِي بيت علقمة من إدغام التاءِ فِي الطاءِ فِي (خبط بنعمة) لكون التاءِ ضميرًا كما قَالَ فأشعرنا أن إجحافها بالطاءِ فيمن أجحف بها خير من عكسه والله أعلم . وهذا ليس بأبعد من أن تجحف باللام إن كانت هَذِه ساكنة وهي بعدها وقد ذكر الكوفِي فيها تكريرًا فالإظهار كأنه للتكرير استمرار .

ورواية الإظهار عن أبي عمرو صحيحة وهي عَلَى مذهب البصرة وليس عليه بمستغرب وهو من شيوخها ولكن تواتر الإدغام عنه وكون الإظهار خلفا من بعض الرواة عنه وسكوت سيبويه عن الإشارة إليه وهو بقراءته عالم ويروي عنه الغريب (هثوب مثلا) كل هَذَا يشعر بأن الإدغام أقوى الروايتين عنه .

وهل عني سيبويه رحمه الله بإلحاحه عَلَى مذهبه فِي الراءِ نوعًا من التعقيب عَلَى شيخه أبي عمرو أو ترجيحًا لمذهب شيخه الخليل ؟ الله تعالى أعلم .

ولا يخفى أن أبا عمرو كما كَانَ نحويًّا كَانَ قارئًا ذا أداءٍ أخذ عن ابن كثير وابن محيصن بمكة وقرائها وعن أبي جعفر بالمدينة وقرائها وعن عاصم بالكوفة وأخذه عن عاصم آنسه بمذاهب أهل الكوفة وله بكلا حمزة والكسائي فِي أدائه لقاءات ... فهذا الجانب ذو السعة من مذهب أبي عمرو فِي القراءة ينبغي أن يؤبه لَهُ ومن أجله نبهنا العلماءُ إِلَى أنه كما أن عاصمًا ونافعًا أقوى القراء سندًا ، وأبو عمرو أفصحهم قراءة ، وليس معنى ذلك ضربة لازم حمل قراءته عَلَى النحو البصري ... والله أعلم .

هجاء السفاقسي رحمه الله للزمخشري بأبيات ضعيفة

(تتميم) طعن الزمخشري فِي رواية الإبدال من جهة أنه يؤدي إِلَى الجمع بين الساكنين عَلَى غير حده ولا شاهد لَهُ وهو مطعون فِي نحره بالأدلة : منها أن هَذِه قراءة صحيحة متواترة فهي أقوى شاهد فلا تحتاج إِلَى شاهد وإلا لتسلسل ، سلمنا ذلك فقد أجاز الكوفيون الجمع بين الساكنين عَلَى غير الحد الَّذي اختاره البصريون واستدلوا عليه

ويكفِي مذهبهم فِي ذلك وبقى غير هَذَا فلا نطيل به . والحاصل أن الرجل لسوء سريرته وفساد طريقته كثير الطعن فِي القراءات المتواترات وله جراءة عظيمة عَلى خواص خلق الله تعالى رزقنا الله تعالى الأدب معهم كما يعلم ذلك من وقف عَلى الكشاف الكاشف لحاله ورافضيته واعتزاله والحواشي المؤلفة للانتقاد عليه ، ورحم الله الإمام أبا حيان القائل فيه ما هَذَا نصه :

وَلَكنَّــــهُ فيـــهِ مَجَـــالٌ لِناقِـــدٍ ... وَزَلاتُ سَـوءٍ قَـد أَخَـذنَ المَخانِقـا

فَيثبِـتُ مَوضـوعَ الأَحاديـثِ جـاهِلاً ... وَيَعـزُو إِلى المَعصـومِ مـا لَـيسَ لائِقـا

وَيَشـتِمِ أَعـلامَ الأَئِمَـةِ ضَـلَّةً ... وَلا سِـيما أَن أَولَجُـوه المَضـايِقا

يَقـوِّل فيهـا اللهَ مـا لَـيسَ قـائِلاً ... وَكـانَ مُحِبّـاً فِي الخَطابَـةِ وَامِقـا

وَيُسـهِبُ فِي المَعنـى الـوَجيز دَلالَـةً ... بِتكثـير أَلفـاظٍ تُسـمّى الشَقاشِـقا

وَيُخطـئ فِي تَركيبـهِ لكلامِـهِ ... فلَـيسَ لمـا قَـد رَكّبـوه مُوافِقـا

وَيَنسُـب إِبـداءَ المَعـاني لِنَفسِـهِ ... لِيُـوهِمَ أَغـماراً وَإِن كـانَ سـارِقا

وَيُخطـئ فِي فَهـمِ القُـرانِ لأَنَّـهُ ... يُجَـوِّزُ إِعرابـا أَبـى أَن يُطابِقـا

وَكَـم بَـينَ مَـن يُـؤتى البيـان سَـليقَةً ... وَآخـرَ عانـاهُ فَـما هُـوَ لاحِقـا

وَيَحتـال لِلأَلفـاظِ حَتّـى يُـديرَها ... لِمذهبِ سـوءٍ فيـهِ أَصـبَحَ مارِقـا

لَـئِن لَم تَدارَكـه مِـن اللهِ رَحمَـةٌ ... لَسَـوفَ يُـرى للكـافِرينَ مَرافِقـا

انتهى وليته زاد هَذِه الأبيات(١) :

ورحمــة ربي خصــها فِي كتابــه ... بتــابع حــق لا لعبــد تشــاققا

فصــار رئيســا فِي الضــلالة داعيــا ... إليهــا بــأنواع الــدعاء موافقــا

لإبلــيس فِي الــدعوى وزاد عليــه إذ ... تجـرأ فلـم يخضـع ولم يخش خالقـا

فشــبه حــزب الله بــالحمر موكفــه ... لإثبــاتهم أمــرا يقينــا محققــا

---

(١) هذه الأبيات المبدوءة ؛ ورحمة ربّي خصّها .. للسّفاقسي ؛ (حسن) .

لعقــل ونقــل وهــو رؤيــة ربنــا بـدار الرضـا طـوبى لمـن كَـانَ سـابقا
فيــا ويلــه يــوم القيامــة عنــدما يــدور بــه مــن كَــانَ بـالحق ناطقـا
ونــال مــن الله الكرامــة والهــدى بتوفيقــــه للاعتقــــاد مطابقــــا
وهــم أوليــاءُ الله فِي كــل أمــة ومــن أثبـت الرؤيـا وإن كَـانَ فاسـقا
يقولــون: يــا جبــار خــذ منــه حقنــا فقــد كَــانَ يؤذينــا وقــد كَــانَ مائقــا

ورحم الله السفاسقي فأبياته هَذِه تشكو الضعف كما ترى ورحم الله الزمخشري فقد كَانَ حبرًا . ورحم الله الخليل وأبا عمرو وسيبويه وأئمة الهداة أجمعين وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

ب ـــ التقاء السّاكنين [(١)]

هل تجيزه العربيّة ؟ قَالَ صاحب النشر (طبعة دمشق سنة ١٣٤٥هـ ٢-٣٠٣) : « واختلفوا فِي ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَـٰعُوٓاْ ﴾ [يس : ٦٧] فقرأ حمزة بتشديد الطاء يريد استطاعوا فأدغم التاء فِي الطاء وجمع بين ساكنين » ثمَّ اعتذر صاحب النشر عن هَذَا الجمع بأن مثله جائز مسموع قَالَ : «ويسوِّغه أن الساكن الثّاني لما كَانَ اللسان عنده يرتفع عنه وعن المدغم ارتفاعة واحدة صار بمنزلة حرف متحرك فكأن الساكن الأول قد وَلِيَ متحركًا ...» ا.هـ.

وقال فِي حرف سورة يس (نفسه ٢-٣٣٩) فقرأ حمزة بفتح الياء وإسكان الخاء وتخفيف الصاد وقرأ أبو جعفر كذلك إلا أنه بتشديد الصاد فيجمع بين ساكنين .

قلت : ولم يعتذر صاحب النشر عن هَذَا بشيء . وله نظائر عند أبي جعفر وغيره . فعند أبي جعفر مثلا فِي حرف النساء : ﴿ وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء : ١٥٤] بتشديد الدال مَعَ إسكان العين ومثله روى عن قالون فِي ما رواه العراقيون عنه عن نافع . وعنده أيضًا تسكين العين من نعما . قَالَ صاحب النشر (٢/ ٢٤٨) : واختلفوا فِي ﴿ نِعِمَّا ﴾ [النساء: ٥٨] هنا ـ يعني البقرة ـ والنساء فقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح النون فِي الموضعين وقرأ الباقون بكسرها وقرأ أبو جعفر بإسكان العين واختلف عن أبي عمرو وقالون وأبي بكر فروى عنهم المغاربة قاطبة خفاء كسرة العين ليس إلّا يريدون الاختلاس فرارا من الجمع بين الساكنين لصحة رواية وروده لغة ، وقد اختاره أبو عبيدة . أحد أئمة اللّغة وناهيك به وقالوا هو لغة النبي ﷺ ، فيما يروى نعما المال الصالح للرجل الصالح . وحكى النحويون الكوفيون سماعًا من العرب شهر رمضان مدغمًا إلى آخر ما قاله . ا.هـ .

قلت : وقد ترى عدول صاحب النشر ههنا عن التماس وجه تأويلٍ كالَّذي صنع من

---

(١) ألقي البحث في الجلسة الثامنة لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتاريخ ٦-٣-١٩٧٥ .
المؤتمر ، الدّورة ٤١ ، محاضر الجلسات ، ص ٣٤٣. (حسن) .

توجيه قراءة حمزة فِي حرف الكهف إِلى دعوى أن التقاء الساكنين من لغة العرب لا بل من لغة أفصحهم عليه الصلاة والسلام فِي بعض ما يروى عنه ﷺ . وأبو عمرو بصري إلا أن مادته فِي القراءة حجازية إذ قرأ عَلى ابن كثير وأبي جعفر وعنه أكثر وأوضح ما رَوَى مما التقى فيه الساكنان وعلى عاصم وهو وإن لم يرو عنه شيء من هَذَا . إلا فِي الَّذي اختلف عنه فيه من رواية شعبة كوفيٌّ يجوز الجمع بين الساكنين عند أصحابه . وفِي قراءة أبي عمرو الإدغام الكبير . ولابد فيه من التقاء الساكنين فِي المثلين نحو (ذوقوا مسّ سقر)، وفِي المتقاربين نحو ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ [النور : ٦٢] الأولى فِي (القمر) والثانية فِي (النور) . والبصريون يحملون نحو هَذَا عنه عَلى أنه من نوع الإخفاء يريدون به الاختلاس . وأمّا ما كَانَ من نحو ﴿ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك : ١٨] فِي المثلين (تبارك) ، و﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ [القلم : ٤٤] فِي المتقاربين (نون) فيقال فيه إنه مما يسوغ لا تكاء الساكن عَلى الألف والياء . وهو فِي هَذَا سائغ كما ساغ نحو أشيد وأليد فِي تصغير أشد وألد . وكما ساغ قولهم دويبة فِي تصغير دابة ، ودابة نفسه مما يلاقي فيه الحرف الساكن سكون المد قبله فيتكئ عليه . وكما رووا فِي المتقارب :

ورمنـــا القصـــاص وكـــان التقـــاص فرضـــاً وحـــتماً عَـــلى المســـلمين

وجميع قوافِي المترادف داخل فِي هَذَا المدخل مثل قول الشماخ :

لَمَّـــا رَأَتْنـــا واقِفِـــى المَطِيَّـــاتْ قامَـــتْ تَبَـــدَّى لي بأَصْـــلَتِيَّات

وقول الآخر :

مـــا لـــك لا تنـــبح يـــا كلـــب الـــدوم قـــد كنـــت نباحـــاً فـــما لـــك اليـــوم

وهذا من ضرب القوافِي يتيح الوقف عنده من ارتياح الناطق ما لا يتأتى مثله فِي الوصل .

ثم فِي اتكاء الساكن الثّاني عَلى المد قبله مثل ما تقدم ذكره مما يجعله سائغًا مقبولا ، ونحو قول عديّ بن أبي الزغباء رضي الله عنه :

أنـــــا عـــــديٌّ والسَّـــــخْلْ أمشي بهـــــا مَشْيَ الفحْـــــلْ

يمكن فيه سكون اللام اتكاء عَلى نفخ الحاء قبله . وأحسب أن ابن جني رحمه الله عرض لهذا المعنى بتفصيل فِي الخصائص . والمشكل ، وهو موضع الخلاف ، وقوع ما يشبه هَذَا فِي الوصل عَلى النحو الَّذي تقدم فِي قراءة أبي جعفر نعما ـ يخصون ـ تعدوا ـ وحمزة ﴿ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوٓاْ ﴾ [يس : ٦٧] وأنكر ابن جنى أن يحمل شيء من هَذَا فِي الفصيح الصحيح عَلى غير أنه اختلاس تمسكا بمذهب البصريين فِي دفع جواز التقاء الساكنين من ذلك تعليقه عَلى ما حكاه ابن مجاهد رضي الله عنه فِي ما نُقِل من قراءة بعضهم يَخْطّف بنصب الياء والخاء والتشديد قَالَ أبو الفتح فِي المحتسب (مصر ١٣٨٦هـ ١-٥٩) : «أصله يختطف فآثر إدغام التام فِي الطاء لأنهما من مخرج واحد ، ولأن التاء مهموسة والطاء مجهورة ، والمجهور أقوى صوتًا من المهموس ومتى كَانَ الإدغام يقوِّي الحرف المدغم حسن ذلك إِلى آخر ما قاله » .

هذا ثمَّ عقب عَلى مذهب الفراء فِي تسكين الخاء وتشديد الطاء بقوله (نفسه ١-٦١) : «هذا الَّذي يجيزه الفراء من اجتماع ساكنين فِي نحو هَذَا لا يثبته أصحابنا وإنما هو اختلاس وإخفاء فيلطف عليهم فيرون أنه إدغام وإنما هو إخفاء للحركة وإضعاف للصوت وهو كما يروى فِي قوله :

ومَسْـــحِّه مُـــرٌّ عُقَـــابٍ كـــاسر

أن الحاء مدغمة فِي الهاء ، ويا ليت شعري كيف يجوز لذي نظر أو من يخلد إِلى أدنى تفكير أن يدعي أن ههنا إدغامًا أو أن تجمع بين ساكنين وقد قابل به جزء التفعيل» ثمَّ أخذ ابن جني فِي بعض تفصيل عروضي سبق منه فِي كتابه سر صناعة الإعراب (مصر ١٩٥٤/ ١-٦٥ ، ٦٦) وذلك حيث استشهد ببيت الكتاب :

كأنهـــا بعـــد كـــلالِ الزاجِـــرِ ومَسْـــحِه مَـــرُّ عُقَـــابٍ كـــاسِرِ

قال : «فقال سيبويه كلامًا يظن به فِي ظاهره أنه أدغم الحاء فِي الهاء بعد أن قلب الهاء حاء فصار فِي ظاهر قوله ومَسْحٌ ، واستدرك أبو الحسن ذلك عليه ، وقال إن هَذَا لا يجوز إدغامه لأن السين ساكنة ولا يجمع بين ساكنين ، فهذا لعمري تعلق بظاهر لفظه ، فأمَّا

حقيقة معناه فلم يرد محض الادغام ، وإنما أراد الإخفاء ، فتجوّز بذكر الإدغام ، وليس ينبغي لمن قد نظر في هَذَا العلم أدنى نظر أن يظن سيبويه ممن يتوجه عليه هَذَا الغلط الفاحش ، حتى يخرج من خطأ الإعراب إِلى كسر الوزن ، لأن هَذَا الشّعر من مشطور الرجز وتقطيع الجزء الَّذي فيه السين والحاء : ومسْ حِهِي ، مفاعلن فالحاء بإزاء عين مفاعلن ، فهل يليق بسيبويه أن يكسر شعرا وهو ينبوع العروض وبحبوحة وزن التفعيل . ا.هـ .

قلت : ومكان الخطابة والانفعال العاطفِي والمنهج الأدبي دون حاق المنهج العلمي فِي كلام أبي الفتح ههنا لا يخفى . ولقد روى سيبويه رحمه الله ما سمع ، فليس عليه أن يكن صاحب الأصل قد كسر الوزن أن يُقيمه هو أو أن يحتمل تبعة انكساره ، هَذَا عَلى تقدير التسليم بهذا الَّذي زعمه ابن جني من أمر انكساره عند رواية الإدغام . ولقد روى سيبويه ، ماهو أبعد من هَذَا مما صحت روايته عن العرب ، فلم يؤخذ عليه فِي ذلك مخالفته المألوف من أوجه الإعراب ، كالَّذي جاء فِي ما ذكروا أنه ياء للتنبيه فِي قوله :

يـا لعنـة الله والأقـوام كلهـم والصـالحين عَـلى سـمعان مـن جـار

قال سيبويه (الكتاب ، بولاق ١-٣٢١) : «فيالغير اللعنة» قلت : ولو قد كَانَ روى بالنصب لم تكن بأحد إِلى مزعم أن الياء للتنبيه حاجة . وكقول الراجز (نفسه ١/ ٢٥٥) :

فأصـبحت بقرقـري كوانسـا فـلا تَلُمْـه أن ينـام البائسـا

وقول الآخر (وهو من أبيات الكتاب ١/ ٢٥٠) :

وَيَـأوِي إِلى نِسْـوَةٍ عُطَّـلٍ وَشُـعْثٍ مَرَاضِـيْعَ مِثْـلَ السَّـعَال

وما شئت من أبيات الشواهد .

هذا ولعمري أن أبا الحسن لقد كَانَ أعرف بسيبويه من أبي الفتح عَلى ما نعلم من فضل أبي الفتح . وأن نحمل مراد سيبويه حيث ذكر الإدغام فِي :

وَمَسْـحِه مَـرّ عُقَـابٍ كـاسر

على الإدغام لا غير هو الوجه إذ عبارة سيبويه فِي ذلك واضحة . وقد فصل فِي ذلك ووضح بما لا يدع لوجه غير ظاهر لفظه مجال تأويل وليُرْجَع فِي ذلك إِلى موضعه فِي

أخريات الجزء الثّاني من الكتاب ، حيث قَالَ (٢/ ٤١٣) فِي معرض حديثه عن العين مَعَ الهاء وتحويل العين حاء : «ومما قالت العرب تصديقًا لهذا الإدغام قول بني تميم محّم يريدون معهم ومحّهؤلاء يريدون مَعَ هؤلاء . ومما قالت العرب فِي إدغام الهاء فِي الحاء قوله :

كأنهـــا بعـــد كـــلال الزاجـــر ومســـحه مـــر عقـــاب كـــاسر

يريدون ومسحه . ا.هـ .

هذا ومِمّا يُرَدّ به عَلَى أبي الفتح فِي الَّذي زعم من انكسار الوزن أن العرب قد زادت واو الخزم فِي أبيات السيل ونحوها فقالت :

وكَـــأَنَّ ذُرى رَأسِ المُجَيمِـــرِ غُـــدوَةً مِـــنَ السَـــيلِ وَالغُثّـــاءِ فَلكَـــةُ مِغـــزَلِ

وكَـــأَنَّ السِـــباع فيـــهِ غَرقـــى عُشِـــيَّةً بِأَرجائِـــهِ القُصْـــوى أَنـــابيشُ عَنصُـــلِ

وحذفت حرفا من أوائل الأبيات كقول القطامي :

وَمَـــن تكُـــنِ الحضـــارةُ أعجَبَتـــهُ فـــأَيَّ أنـــاسِ باديـــةٍ تَرَانـــا

من أوائل الأشطار كالَّذي روى فِي معلقة امرئ القيس :

لَقَـــد أَنكَرَتنـــي بَعلَبَـــكُّ وَأَهلُهـــا وَلَابـــنُ جُـــرَيجٍ فِي قُـــرى حِمـــصَ أَنكَـــرا

وسمى الخرم . واستعمله أبو الطّيّب ، ومنزلته عند أبي الفتح قد كانت منزلته ، وذلك قوله :

لا يُحـــزِنُ اللهُ الأَمـــيرَ فَـــإِنَّني سَـــآخُذُ مِـــن حالاتِـــهِ بِنَصـــيبِ

وليس قبل هَذَا البيت آخر . ولم يقل أحد إن الخزْم والخزم عَلَى ما يكسران الوزن أنهما يكسرانه وإنما سوغتهما الرواية أنهما مما صح عن العرب يجيئون به ولا يبالون بها يحدثه فِي ظاهر مذهب التفعيلة .. ولقد رويت عن العرب أشعار كثيرة لا تكاد تستقيم كما فِي ميمية المرقش الأكبر وبائية عبيد . وقد تناول هَذِه المسألة أبو العلاء فِي رسالة الغفران فِي معراض حديث ابن القارح مَعَ الشّعراء فِي جهنم ونقده زحاف امرئ القيس حيث قَالَ :

فَأَســـقي بِـــهِ أُختـــي ضَـــعيفَةَ إِذ نَـــأَت وَإِذ بَعُـــدَ المَـــزارُ غَـــيرَ القَـــريضِ

(رواية الديوان ، المزار) فذكر أن العرب متى وضح لها وزن البيت لم تبال بما يقع فِي أواخره من اختلاف . وكأن أبا العلاء أخذ هَذَا المعنى من الَّذي ذكره أبو الحسن فِي قوافيه حيث عرض لذكر اضطراب شعر عبيد ، وقال إن العرب كانت تجعل بإزاء الشّعر المحكم من قصيد ورجز أصنافًا أخر من أشعارها غير محكمات الأوزان تسميها الرمل لا يعني رَمَل الخليل الَّذي عَلى فاعلاتن ست مرات :

وهذا باب ربما احتاج إِلى استقصاء . وربّما اتضح للباحثين بَعْدُ أن موشحات الأندلس أصلها من هَذَا المعدن العربيّ القديم لا من سواه والله أعلم .

وذكر ابن رشيق بيت الكتاب (العمدة القاهرة ، ١ ، ١٣٧) :

كأنهـــا بعـــد كـــلال الزاجـــر ومســـحه مـــر عقـــاب كـــاسر

أنه شاهد عَلى التقاء الساكنين وسلم بذلك تسليمًا .

ويبقى التنبيه ههنا عَلى أن أكثر ما وقع فيه التقاء الساكنين عَلى ما روي من مذاهب القراء ، وكما فِي بيت الكتاب حروف الحلق . وهي لمخالطتها مخرج الهمزة وهي أخت الألف مقاربة لسنخ أحرف المد والإشباع واللين وهن يسوغ معهن التقاء الساكنين شيئًا . ألا ترى أن شهر رمضان غير جد بعيد من شأر رمضان إذ تسهيل الهمزة لو كانت هَذِه فِي الأصل همزة ، من الهاء قريب ، وتحول الهمزة ألفا كثير ، فهي إذن غير جد بعيدة من شارّمضان . وقل كذلك فِي نعمّاإنها غير جد بعيدة من نئْعما ثمَّ من نِيْعما ويَخْطَّف الَّتي ذكر الفراء غير جد بعيدة من يحطف بالحاء المهملة وهذه غير بعيدة منها بالهاء ثمَّ الألف (ياطّف) ، وذلك أن حروف الحلق كلهن قريبات المخارج ولا يتمكن منهن الإدغام حاق التمكن قَالَ صاحب الكتاب (٢/ ٤١٣) : «ولم تكن حروف الحلق أصلًا فِي الإدغام» وهذا مما كرره وقرره ، قلت : وأحسب أن ذلك لمخالطة هوائية اللين ولون من نبر الهمزة لهن . والله تعالى أعلم وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وسلم تسليمًا كثيرًا .

التعقيبات

- الدكتور أحمد محمّد الحوفي : شكرًا للأستاذ الدكتور عبد الله الطّيّب عَلى هَذَا البحث وأود أن عرض هنا لأمرين :

أولهما : إنني لا أجد التقاء ساكنين فِي نطقه للآية الكريمة ﴿ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوٓاْ ﴾ [يس : ٦٧] إلا إذا مدت الألف فِي كلمة فما ، لأن السكون هنا يتضح ، وبعده سكون آخر هو سكون السين فِي كلمة﴿ ٱسْطَـٰعُوٓاْ ﴾ [الكهف : ٩٧] ولعل خيرًا من هَذَا المثال قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة : ١-٢] وقوله تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٤].

ثانيهما : أنني أسأل سيادته ، أيهما أحب إِلى نفسك التقاء الساكنين أم التخفف منه ؟

لاشك أن التخفف من التقاء الساكنين أيسر عَلى اللسان ، وأسهل عَلى الآذان ، وأكثر ملاءمة لما نصف به اللّغة العربيّة من العذوبة والسلاسة والسهولة .

- الدكتور عبد الله الطّيّب : الَّذي عليه العمل أن العرب إذا أرادوا نطق الحرف الساكن قدمت أمامه همزة وصل خفيفة ، فإذا أردت نطق كلمة (دُويبة) قلت (دويْ به) بشيء من استشعار همزة وصل قبلها ، وفِي قراءة حمزة تدغم التاء فِي الطاء فتصير الطّاء مشدَّدة بعدسين ساكنة من قبل فتنطق عَلى هَذَا (فما اسْطّاعوا) ونحاول نطقها بما حاولوا به نطق (دُوَيبة) .

- الأستاذ محمّد شوقي أمين : كلمة الأستاذ الدكتور عبد الله الطّيّب فِي مسألة التقاء الساكنين تثير فِي ذاكرتي أن هَذَا الموضوع كَانَ قد عرض فِي بحث مجمعي سابق ، وقدمت فيه بحوث للأستاذ إبراهيم مصطفى ، والأستاذ أحمد حسن الزيات ، وناقشت فيه لجنة الأصول ، وكان الموضوع لَهُ شعب شتى فأقرت اللجنة والمجمع بعد ذلك إحدى هَذِه الشعب وهي اغتفار المد عند اللبس فِي مثل (اجتمع مندوبو الأردن بمندوبي العراق) ، وبذلك زيد موضع ثالث إِلى الموضعين المعروفين فِي التقاء الساكنين وبحث الدكتور عبد

الله الطّيّب فرصة لإعادة بحث الموضوع فِي ضوء ما سبق المجمع من بحوث وما جدَّ بعد ذلك .

– الأستاذ عبد الله كنون : بناء عَلى ما قاله الأستاذ محمّد شوقي أمين ، نقف إِلى حيث قَالَ : (اجتمع مندبو الأردن بمندوبي العراق) ، القاعدة أنه إذا التقى ساكنان كما أشار إِلى ذلك القائل :

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن لينا فحذفه أحق

ألا لا نَمُد الواو أو الياء بل نختلسهما اختلاسًا إن لم نحذفهما مطلقًا .

– الدكتور إبراهيم مدكور : أرى أنه من الخير أن يحال الموضوع إِلى لجنة الأصول ليستكمل بحثه ، وقد سبق لمجمعنا أن عرض لَهُ ، ونكرر شكرنا مرة أخرى للدكتور عبد الله الطّيّب .

جـ ـ مَعَ ابن التّلاميد وصرف عمر [(١)]

كان محمّد محمود بن التّلاميد الشنقيطي المتوفى بمصر سنة ١٣٣١هـ (١٩٠٤م) عالمًا متمكنًا وأديبًا حجة ثبتًا وشاعرًا باقعة ، جمع بين طول النفس وجودة الترنم والمقدرة الفائقة عَلى النظم ، لا يعييه فيه تناول المسائل العلمية والمناقشة فيها من ذلك مثلًا دفاعه عمّا كَانَ يعتقده ويقول به من أن عمر ليس ممنوعًا من الصرف وأن القول بمنعه من الصرف مذهب أعجمي نسبه النحاة إِلى الخليل وذلك كَانَ منهم خطأٌ . قَالَ :

رددت عَلى عمرو ويحيى وغيرهم ... بصدْق وعدل لا بكذب ولا ظلم

مقالهم بالمنع والعدل مفترى ... على عُمَرٍ ذي الصرف رغمًا عَلى رغم

مضى عمرٌ بالصرف من عهد ثابت ... وعاد وكل العرب فِي الحل والحرم

به سارت الأمثال شرقًا ومغربًا ... تسافر من عم رواة إِلى عم

فيأيها الزاري فنبه تواترا ... بإيجاب حتم الصرف أينما حسم

وقد خرق الأعجام من غير علمهم ... له منعه إفكًا ورجمًا عَلى رجم

إذ افتعلوا عَلى الخليل الّذي ادعوا ... فجاءوا بخَطْم فادح أيّما خطم

كما خرقوا للعرب ذا المنع مفترى ... عنهم بلا نثر رووه ولا نظم

ولن تُقْبل الدعوى عَلى العرب مطلقًا ... بلا شاهدٍ فِي اللُّغى مُرْتَضَى حتمي

فدعواهم مُنْه وعدْلٌ مُقَدَّر ... وعن عامِرٍ محض التقوُّل بالضم

فهذي دعاوي أَرْبَعٌ مستَحِيلَةٌ ... بيِّناتٍ يرْتضِيهن ذُو الحكم

ولم يثبتوا من الدعاوي بكتبهم ... شواهد غير الإفك والغيِّ والظلم

ولكنني أثبتُّ مائَةَ شاهِدٍ ... ونيفًا بها أسطو وأعلو عَلى الخصم

ولم يدرها قبلي النحاة الأُلى مضَوْا ... بمشرقِ يوحٍ قطُّ أو مغرب النجم

(١) المجلة ، جـ ٦٠ ، ص ٣١٧ . (حسن) .

ولـو عرفـت مـنهن شـطرًا رواتهـم لهـابُوا ادعـاء المنـع خيفـة الإثـم
ففِـي سـائِر الأمثـال إثبـات ثرفـه وإبطـال منـع الصرف والعـدل بـالوقم
وقـد غفلـوا عـن كونـه جَمْـعَ عُمْـرَة لـه الصرف قبـل المنـع للعلـم الاسـم
كـذاكم لَـهُ الصرف المحتم بعـده يقينًـا ولم أجـنح لظلـم ولا هَضْـم

قال سيبويه فِي باب فُعَل فِي باب - ما ينصرف وما لا ينصرف : «اعلم أن كُل فُعَلٍ كَانَ اسمًا معروفًا فِي الكلام أو صفة فهو مصروف ، فالأسماء نحو صُرد وجُعَلٍ وثُقَب وحُفَر إذا أردت جماع الحُفْرة والثقبَة ، وأمَّا الصِّفاتُ فنحو قولك : هَذَا رَجُل حُطَمٌ . قَالَ القيسي :

قـد لفَّهَـا اللَّيْـلُ بسـوَّاقٍ حُطَـم

فإنما صرفت ما ذكرتُ لك لأنه ليس باسم يُشْبِه الفعل الَّذي فِي أَوله زيادة ، وليست فِي آخره زيادة تأنيث وليس بفعل لا نظير لَهُ فِي الأسماءِ فصار ما كَانَ منه اسمًا ولم يكن جمعًا بمنزلة حجر ونحوه وصار ما كَانَ منه جمعًا بمنزلة كِسَرٍ وإبَرٍ وأمَّا ما كَانَ صفة فصار بمنزلة قولك : هَذَا رجُلٌ عَمل إذا أردت معنى كثير العمل» . انتهى .

قلت : قول سيبويه ليس باسم يشبه الفعل الَّذي فِي أوله زيادة يعني الفعل المضارع فما أشبهه نحو يزيد وتزيد ، وتغلب وفعل الأمر فِي اضْرب واسْمع فإنك إن سميت ولدًا إثمد ، وإصبع منعته من الصرف ، وقوله زيادة تأْنيث فنحو حمزة وابن ثأداء وابن فرتني وقوله : وليس بفعل لا نظير لَهُ فِي الأسماء عنى به أمثال عَثَّر وبذَّرَ وبغَّم وشلم ، وقوله : بمنزلة حجر لأن حجرًا اسم مفرد منون ، وكذلك صُرَد لا يدخله وزن فُعَل فِي المنع إذ هو نكرة لا معرفة ، وقوله : بمنزلة كِسَر وإبر لأن هَذِه جمع كِسْرَة وإبْرَة وهي منونة وكذلك ما جاءَ عَلى فُعَل جمعًا كحُفَر وثُقَب وقوله : رَجُل عمل لأن عملًا ههنا صفة وليست اسمًا معرفة أو نكرة ، فكذلك حطم من قولك : رَجُلٌ حطم فحطم هنا صفة أصلية لا معدولة عن حاطم .

وقول ابن التّلاميد :

وقـد غفلـوا عـن كونـه جَمْـعَ عُمْـرَة لـه الصرف قبـل المنـع للعلـم الاسـم
كـذاكم لَـهُ الصرف المحـتم بعـده يقينًـا ولم أجـنح لظلـم ولا هَضْـم

إنما يصح فيها لو سميت رجلًا بحُفَر ، تريد جمع حفرة وثُقَب تريد جمع ثقبة وعُمرٍ تريد جمع عمرة وحطم تريد الصفة لا العَدْل من حافر . ولو كَانَ عمر إنما هو جمع عمرة لاحتجنا إِلى التماس وجه لما جاءَ مرويًا كثيرًا رواية صحيحة من منع عمر من الصرف . وقد احتج ابن التّلاميد لصرف عمر فيما احتج به أنه ورد مصروفًا فِي الحديث وذلك قوله من بعد فِي هَذِه الميمية :

ففِي مسلم ثمَّ البخاري صرفه تكرَّر جهرًا فِي الصحاح بلا كتم ، وتكراره مصروفًا فيهما أكثر كنص الرواية عن فلان عن عبد الله بن عُمَر كالمشهور من الإسناد عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر ، وكالحديث الَّذي فيه أنا وأبو بكر وعمر . فلم يمنعوا عمر من الصرف ههنا . هَذَا ما ألجأ الخليل بن أحمد إِلى التماس وجه غير أن يكون عُمر جمعًا لعمرة ، وما كَانَ جمعًا لا يخرجه ذلك عن الصرف فِي معرفة ولا فكرة كصُغَر جمع الصُّغْرى.

وقول ابن التّلاميد :

إذ افتعلـــــوا عَـــــلى الخليـــــل

يوقف عنده شيئًا إذ سيبويه صريح قوله واضح كل الوضوح فِي أن هَذَا قول الخليل أخذًا عنه مشافهة لا افتراء .

قال سيبويه : وأمَّا عُمَر وزُفَر فإنما منعهم من صرفها وأشباههما أنهما ليسا لشيءٍ ممَّا ذكرنا وإنما هما يخرجان عن البناءِ الَّذي هو أولى بهما وهو بناؤهما فِي الأصل فلما خالفا بناءَهما فِي الأصل تركوا صرفهما وذلك نحو عامر وزافر ولا يجيءُ عمر محدودًا عن البناءِ الَّذي هو أولى به ـ إلا وذلك البناء معرفة كذلك جرى فِي هَذَا الكلام فإن قلت : عُمَرٌ آخر

صرفته لأنه نكرة فتحوَّل عن موضع عامر معرفة وإن حَقَّرْته صرفته لأن فعيلًا لا يقع فِي كلامهم محدودًا عن فويعل وأشباهه كما يقع فُعَلٌ نكرة محدودًا عن عامرٍ فصار تحقيره كتحقير عَمْرو كما صارت نكرته كصردٍ وهذا قول الخليل .

فهذا صريح فِي نسبة هَذَا التأويل والتخريج إِلى الخليل وأن ينسب سيبويه ههنا إِلى الافتراء أمرٌ غير مستقيم ، وقد شهد لَهُ يونس والماضون الأكابر بالصدق فيما روي عن أشياخه وعن العرب . وقد ردّ الأعلم بشيءٍ من هَذَا المعنى عَلى من تعقبوا سيبويه فِي شاهديه :

مُعَاوِيَ أَنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ ... فَلَسْنَا بِالجِبَالِ وَلا الحَدِيدَا

أَدِيرُوهَا بَنِي حَرْبٍ عَلَيْكُم ... وَلا تَرْمُوا بِهَا الغَرَضَ البَعِيدَا

فقالوا إن البيت من قصيدة مجرورة معروفة ـ قَالَ الأعلم وسيبويه ـ غير متهم رحمه الله فيما نقله رواية عن العرب ويوقف أيضًا عند قوله :

وقد خرق الأعجام من غير علمهم ... له منعه إفكًا ورجمًا عَلى رجم

من أراد بقوله الأعجام ؟ هل أراد بذلك سيبويه وسعيد بن مسعدة ، وأبا الخطاب وأبا عبيدة والكسائي ومن كانوا عَلى زمانهم من علماءِ العربيّة عن ممن كانوا عربًا بالولاءِ ؟ فنسبه هؤلاءِ إِلى العجمة خطأٌ وعصبية منكرة ولا يشك المنصف أنهم كانوا أعلم الناس بالعربيّة وأدراهم بدقائقها بعد جيل علماءِ فصحائها الأولين من فحول خطباءِ العرب وشعرائهم وما النسب بجاعل العربيّ فصيحة إن لم يكن لَهُ بالفصاحة علم . وفِي الصحيح ما يدل عَلى أن العرب كانت تعلم أبناءَها الفصاحة تعليمًا .

وكأن ابن التّلاميد قد تنبه إِلى أن نسبة سيبويه وابن مسعدة ومن كَانَ عَلى زمانهما من علماءِ موالي العرب خطأً فتنصل ممّا قدمه من ذكر العجمة والإفك من بعد فِي قوله :

مضى سيبويه الفحل لم يشعرن به ... ولم يشعر النحو أخفشه المنمى

أي الّذي أنمى علمه إلينا . وقوله : لم يشعرن به أي بالعلم والبيان الّذي جاءَ به ابن

التّلاميد فِي إثبات الصرف لعمر وقُثَم وزفر وجشم وما أشبه . وممّا كأنه اعتذر به عن قوله الأعجام قوله :

فهـذي البراهـين المبينـة أبطلـت دعـاوتي عَـذْلِ العـادِلين إلى الهضـم
فمـذ ألـف عـام ثـمَّ قـرنين بعـده بهـا ركبـوا البهـدان أيـنما ركـم
فبينـت إفـك القـائلين بعدلـه وزحزحـت عنه سـادة العـرب والعجـم

وسادة العرب قد زحزهم هنا حيث أنكر نسبة العدل إلى الخليل فشمل ذلك أبا عمرو وأبا الأسود ويحيى بن يعمر ، وضرباءِ هؤلاءِ من أشياخ العربيّة العرب .

وسادة العجم الذين شملهم اتهامه الأول حيث زعم أنهم افتروا عَلَى الخليل وزحزحهم ههنا بمدحه الصريح لهم ، وأن كل ما وقعوا فيه أنهم لم يصلهم علم ما وصله هو من البراهين ، وهم بعد من فحل وتحرير وقارئ وفارس للنصب والجزم والرفع والضم ، كما قَالَ :

مضى سـيبويه الفحـل لم يشـعرن بـه ولم يشـعر النحـو أخفشـه المنمـى
ولم يشـعر القـارئ الكسـائي علـيهم ولم يشـعر الفـراءُ ولا الجرمـي
ولا ثعلـب ولا المـبرد قرنـه ! ولا الفـارسي فـارس النصـب والجـزم
ولم يشـعر ابـن الحاجـب النـدب حبرهم ولم يشـعر ابـن مالـك للرفـع والضـم

إلى أن يقول :

ولا شـيخنا البحـر الخضـم جـد قونـا ولا شـيخه أبـوه ذو العلـم والحكـم

فهؤلاء كلهم لم يشعروا وشعر هو فصار ما لم يشعروا به ، إفكًا وافتراءً ودعاوى . وصار هو بتنبيهه عَلَى هَذَا الإفك وهذا الافتراءِ وهذه الدعاوي أول مرشد ، وذلك قوله عطف عَلَى ولم يشعر ولم يشعر ولم يشعر الَّتي تقدمت :

ولا غـيرهم مـن كـل أروع جهبـذ علـيم بعلـم النحـو ذي أدب صـتم
وكنـت بحمـد الله أول مرشـد إليـه أقـود الفـاني بـاللجم والخطـم

فلم ينقادوا لَهُ ولا ينبغي لهم أن يغتابوا ذلك . إذ الحجج الَّتي أدلى بها مدارها كله عَلى إنكار ما قَالَ به النحاة من أن ما صرفت فيه أمثال عُمَر وثعل ضرورة ولا يعنون بالضرورة هنا الاضطرار ولكن يعنون أن ذلك رخصة للشعراء . قَالَ سيبويه : «اعلم أنه يجوز فِي الشّعر ما لا يجوز فِي الكلام من صرف ما لا ينصرف يشبهونه بما ينصرف من الأسماءِ لأنها أسماءُ كما أنها أسماء» .

قلت : وقد يقع هَذَا فِي غير الشّعر كقراءَة نافع ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان : ٤] وليست ههنا ضرورة ولكنه مذهب من مذاهب بيان العرب وفصاحتهم .

قول امرئ القيس :

رب رام مـــن بنـــي ثُعَـــلِ ... مُـــتْلِج كَفَّيـــه فِي قـــتره

أخذ فيه برخصة الشّعر الَّتي ذكرها من بعد سيبويه ، حيث صرف ثعل وفِي البيت التالي قوله :

عـــارض زوراءَ مـــن شـــم ... غـــير بانـــاة عَـــلى وتـــره

فقد زعموا أنه أراد بقوله : (باناة) بائنة ـ أي القوس فيها بعد عن الوتر . وزعموا أن هَذِه لغة طييء ، فأَخذ امرئ القيس بها فيه ما ترى من رخصة ترخص بها لنفسه .

فجعل صرف ثعل كالَّذي صنع ببائنة من قلت وتغيير وإن كانت باناة صفة للرامي نفسه وهذا تفسير ذكر عن ـ أبي الخطاب فهذا أغرب كأنهم قالوا : بائنة عَلى سبيل وجه من وجوه المبالغة كما تقول رجل باقعة وراوية ثمَّ قلبوا وغيروا .

وليس أمر العدل شيئًا افتراه النحويون ولكنه سماع سمعوه من العرب أنهم عدلوا عن تسمية عامر فسموا وذلك أن عامرًا كَانَ من أعلامهم كثيرًا ، وكذلك ما كَانَ من صيغة اشتقاقه كعَمرو وعمارة وعمّار ومَعْمر ويعمر وعمير وعَمْرة ، وعميرة وأصل ذلك من معنى الحياة ثمَّ تفرعت منه معاني العبادة والعمارة وهلم جرّا . والعمرة أُخت الحج عبادة

وجمعها عَلى عُمَر كما ذكر ابن التّلاميد غير أن استعمال هَذَا اللفظ قليل فأشبه أن يكون علم الشخص المفرد مأخوذًا ممّا يشابهه كما تقول : محمّد وأحمد ومحمود وحماد ، وحمدان وحمد . وكما يقع فِي أسماءِ الأعلام من ألوان الترخيم والتحبيب والتصغير . وعلى هَذَا فالَّذي ذهب إليه القدماء من أن عمر معدول عن عامر هو الصواب ـ والله تعالى أعلم .

ومن إغراب ابن التّلاميد وتناقضه عدا ما تقدم من ذمه الأعجام ثمَّ حسن ثنائه عَلى من سماهم سادتهم ، استشهاده عَلى تقوية مذهبه بورود اسم عمر فِي الحديث مصروف ثمَّ أخذهم عَلى المحدثين منعه من الصرف حيث منعوه وزعمه أن ذلك لحن وهو أكثر وأدل عَلى صحة حجة خصمه ـ وذلك قوله :

وداموا عَلى لحن الحديث سفاهة	وتحريفه الممنوع فِي النطق والرقم

أي نطقًا وكتابة .

ونحو هَذَا كما ترى مراء ومكابرة .

ويمكن الاعتذار لابن التّلاميد بأنه إنّما أورد هَذَا عَلى مذهب الشّعراءِ فِي الفخر .

وممّا هو طريف معجب فِي هَذِه الأبيات الميميّة قوله بعد ما افتخر به يرثي نفسه عَلى طريقة مالك بن الريب فِي اليائية حيث قَالَ :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد	سوى السّيف والرمح الرّدينيّ باكيا

قال رحمه الله :

فهل من بواك لي بذا الشرق إذ أمت	وبالغرب خالاتي به وبه أُمي
تذكرت من يبكي علي فلم أجد	سوى كتب تختار بعدي أو علمي
وغير الفتى المفني محمّد عبده الصديق	الصدوق الصادق الود والكلم
سيبكيني المفني إذا اعتاص مشكل	تمنع كالأروى عَلى طودها العصم
فعصم العلوم كنت أنزلها لَهُ	إذا اعتاصت رواها عَلى كل ذي فهم

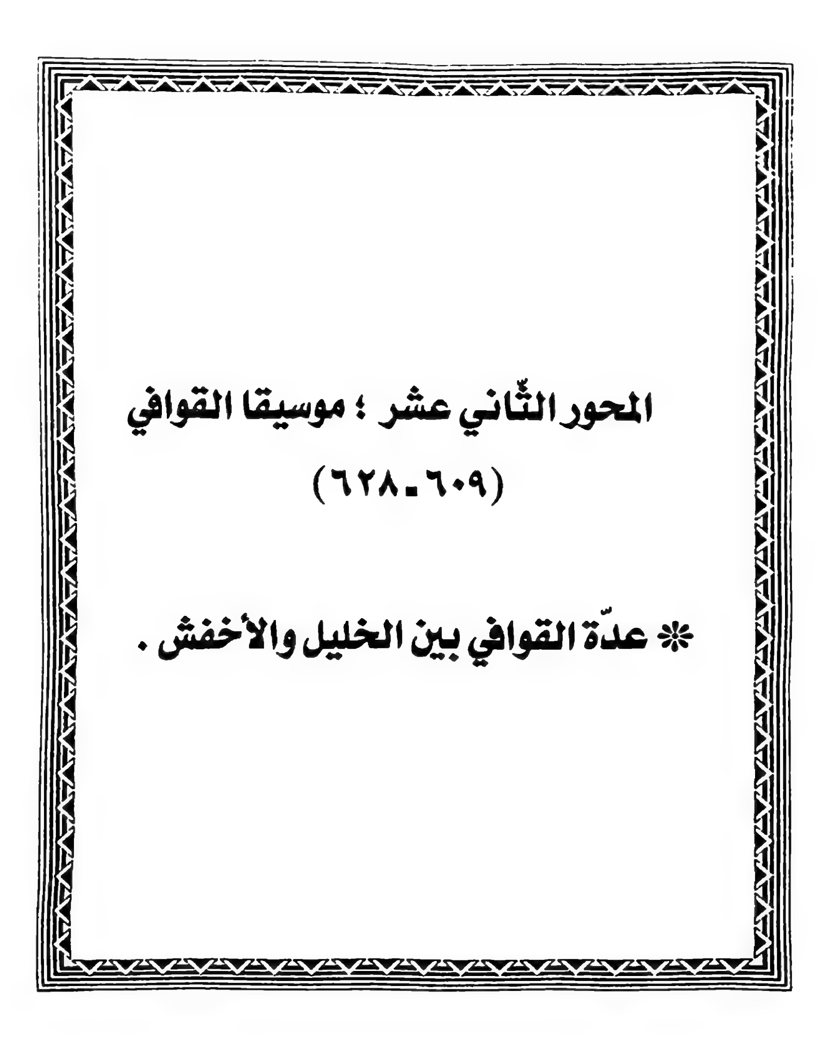
وهذا من مدحه المفتي ثمَّ رجوعه فِي هَذَا المدح بما ذكر من امتنان وفخر شديد الشبه

عندي بما روي عن الفرزدق حيث قَالَ :

أبنـــي غدانـــة إننـــي حــــرَّرتكم ووهبـــتكم لعطيـــة بـــن جعـــال

فـــوهبتكم لأحقكـــم بقـــديمكم قـــدما وأفعلـــه لكـــل نـــوال

لـــولا عطيـــة لاجتـــدعت أُنـــوفكم مـــن بـــين ألأَم آنـــف وســـبال



المحور الثّاني عشر : موسيقا القوافي

(٦٠٩ـ٦٢٨)

* عدّة القوافي بين الخليل والأخفش .

عدّة القوافِي بين الخليل والأخفش* (١)

المراد هنا هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط توفِي سنة ٢١٥هـ ، قَالَ ابن جني فِي الخصائص فِي باب النقلة وصدقهم وثقة الرواة (طبعة دار الكتب تحقيق النجار ، ٣-٣٠٩ والنّص المشار إليه بعد فِي ٣١١) وقال لنا أبو علي رحمه الله : يكاد يُعْرفُ صدق أبِي الحسن ضرورةً وذلك أنه كَانَ مَعَ الخليل فِي بلد واحد فلم يَحْكِ عنه حرفًا واحدًا .ا.هـ. فهذا يدل عَلى أن الأخفش لم يقرأ عَلى الخليل وفِي كلام محقق كتاب القوافِي (دمشق ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م) ما يدل عَلى أن الأخفش قرأ عَلى الخليل مصدره كتاب طبقات النحويين للزبيدي زعم فيه أن أبا الحسن الأخفش صحب أول أمره الخليل . وإن صح هَذَا الخبر فَيُوقَفُ عند «أول أمره» . وقول أبي علي الفارسي (يكاد) ينفِي الضرورة وحدها كما لا يخفى وفِي حرص الأخفش عَلى تناول علم الخليل من رواته وتلاميذه ما ينبيءُ عن شيءٍ لا أحسب أن الصدق الَّذي ذكره أبو علي أجود لفظ ينطبق عليه . وأصحه ولا ريب أن الأخفش لا يحكى عن الخليل وأقرب ما يقترب به إِلى ذلك أن يقول (زعم) و (كان الخليل يقول) و (قد كَانَ الخليل يجيز هَذَا) . وجاءَ فِي كتابه (ص٦٣) : «وزعموا أن الخليل كَانَ يجعل ما كَانَ لفظه واحدًا واختلف معناه إيطاء وهذا ينكر وقد قَالَ هو بخلافه لأنه قد جوز إِلى آخر ما قاله » ... ألا ترى أن هَذَا الاستدلال لا يستند عَلى سماع مباشر ، وجاءَ فِي حديثه عن عدة القوافِي (ص٩) «وقد ذكر الخليل فِي الجملة ثلاثين قافية ولم يذكر فِي التفسير إلا تسعًا وعشرين فلا أدري أيها منه كَانَ الغلط إلا أنهم قد رووا هَذَا هكذا وقد ذكروا ما أخبرتك به .ا.هـ.

---

* المجلّة ، جـ ٤٧ ، ص ١٣٧ . (حسن) .

(١) ألقي البحث في الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والأربعين (السبت غرة جمادى الأولى ١٤٠١هـ ، الموافق ٧ من مارس ١٩٨١م) .

قلت : وابن جني عظيم الإعجاب بالأخفش . وليس بُمعْجِب حقًّا مذهبُ الأخفش فِي الاتكاءِ عَلى ابتكار الخليل والتكسب منه وتعقبه بالعيب . وفِي خبره مَعَ المازني والجرمي حيث خافاه أن يدعي كتاب سيبويه لنفسه فحملاه عَلى إظهاره ما ينضح ببعض هذاالمعنى، والله أعلم بخفايا الأمور .

ونعرض الآن لما روى الأخفش من قوافِي الخليل الثلاثين وتفسيرها الناقص واحدة عن عدتها فيما زعم . قَالَ فِي باب عدة القوافِي طبع دمشق وتحقيق الدكتور عزت حسن (وعزة بالتاءِ المربوطة فِي العنوان وطريقة النطق تقتضي فتحها كما فِي المصحف كيلا يختلط مَعَ عدم الضبط بعزة بفتح العين ، ولكن هكذا يؤثر الأستاذ المحقق كتابة اسمه وله وجه يجيزه ، والأسماءُ لا تؤخذ بقياس كما قَالَ الأخفش إذ زعم أن القافية اسم أطلقته العرب عَلى آخر كلمة فِي البيت يرد بهذا عَلى من قَالَ إنها حرف أو نحو ذلك)[1] .

قال (ص٨) : «باب عدة القوافِي وهي ثلاثون قافية يجمعها خمسة أسماءٍ متكاوس متراكب متدارك متواتر مترادف ا.هـ» ويدل عَلى أن هَذِه الأسماءِ من وضع الخليل ، قول الأخفش قبل البدءِ فِي باب عدة القوافِي : «وقد وضع الخليل أسماء من الأفعال للقوافِي منها فَيْعَل وفاعل وقال وقيل فجعل كل واحد من ذا قافية » . ا.هـ. قلت : وليت الأخفش لم يكتف بقوله منها وليته ذكرها جميعها إلا أن ذلك يباين أربه . وفيعل وفاعل اللتان ذكرهما المتدارك كما فِي بيت المعلقة :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

منزل كفيعل وكما فِي بيت النابغة :

وإن خلت أن المنتأى عنه واسع

واسع كفاعل .

---

(١) التاء المرسومة غير مربوطة في القرءان يقف عليها أبو عمرو والكسائي بالهاء الساكنة والباقون بتاء ساكنة كما في ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

و(فال) كنار فِي بيت النابغة :

أم ضـــوء نُعـــم بـــدا لي أم ســـنا نـــار

(وفيل) مثل (فين) من فينا فِي بيت عمرو بن كلثوم :

أبينـــا أن نقـــر الـــذل فينـــا

وكلا (فال وفيل) يمثلان المتواتر .

ولوددت لو قد وقع إلينا كتاب أبي الفتح «المعرب» فِي شرح قوافِي أبي الحسن وقد ذكره مرات فِي الخصائص ونبه إِلى أشياء ذكرها فِي الخصائص وفاتته فيه .

ويلفت النظر أن أجناس القوافِي الَّتي سماها الأخفش ، أسماؤها خمسة وهذا كعدد الدوائر فِي العروض ، وأحسب أن الخليل اعتمد هَذَا العدد لأن أصابع اليد خمسة وأوتار العود أربعة وأمر القوافِي والشّعر كله إيقاع ، والأجزاءُ الَّتي ذكر الخليل عشرة ، والشّعر كما قَالَ سيبويه وضع «للغناءِ والترنم» وزاد الأخفش عليهما الحداءَ وإنما الحداءُ من الغناء.

المتكاوس :

قال التبريزي : «إنما سمّى المتكاوس لاضطرابه» وقد سمّى المتكاوس والأسماء الَّتي معه حدودًا .

قال أبو الحسن «فللمتكاوس واحدة وهي كل قافية توالت فيها أربع متحركات بين ساكنين وذلك فعلتن أربعة أحرف متحركة بين نونها ونون الجزءِ الَّذي قبلها . » قلت : ومثال المتكاوس : قد جبر الدين الإله فجبر .

الشاهد : هفجبر - المتحركات هن (هـ ف ج ب) والروى (راء ساكنة) وقبل الهاءِ (لا) من الإله ، سكون قبله حرف متحرك (لا) .

قلت : تعريف الخليل للقافية الَّذي رواه الأخفش أدق مما وصف به المتكاوس ها هنا قَالَ : «القافية عند الخليل ما بين آخر حرف من البيت إِلى أول ساكن يليه مَعَ المتحرك الَّذي قبل الساكن» ا.هـ .

قال التبريزي : «والقافية اختلفوا فيها فقال الخليل : هي من آخر البيت إِلى أول ساكن

يليه مَعَ المتحرك الَّذي قبل الساكن » . وقال الأخفش : «هي آخر كلمة فِي البيت أجمع» وإنما سميت قافية لأنها تقفو الكلام أي تجيءُ فِي آخره ومنهم من يسمى البيت قافية ومنهم من يسمي القصيدة قافية ومنهم من يجعل حرف الرويَّ هو القافية والجيد المعروف من هَذِه الوجوه قول الخليل والأخفش ، قوله :

مكــــرٍّ مفــــرٍّ مـــــدبر مقبـــلٍ معـــاً كجلمـودِ صـخرٍ حطّه السيلُ مـن علِ

القافية فِي هَذَا البيت عند الخليل (من عل ي) وعند الأخفش (عل ي) وحده فقس عَلى هَذَا جميعه » .ا.هـ .

وعن الفارسي فِي ما رواه ابن جني فِي الخصائص أنه أنكر أن يكون الأخفش لَهُ مذهب واحد ولكن لَهُ مذاهب . وأنكر الأخفش أن تكون القافية حرفًا أو حرف الروى واحتج بحجج منها أن العرب لم تكن تعرف الحروف ، وفِي باب القوافِي من كتاب سيبويه وعن الأخفش أخذ الناس ما يدل عَلى أن حروف الروى قواف فهل كَانَ يريد أن يتعقب هَذَا القول فِي هَذَا الوضع ، وفِي الكتاب أن أسماءَ حروف الهجاءِ عن العرب أُخذت ، وأنها سمتها العرب كما سمت السيف قب والضحك طيخ وما أشبه من أسماءِ الأصوات . ويَنْصُر هَذَا القول الشّعر والقرءان . وتوسط المعري فِي مقدمة لزوم ما لا يلزم فأثبت معرفة الحروف لمن كَانَ يكتب عن العرب واستبعد أن يعرفها البدو الذين لا يعرفون الكتابة .

هذا ونلاحظ فِي تعريف الخليل أنه لا يسمى أول ساكن يلِي آخر البيت (لا آخر حرف فِي البيت كما سنبين فِي ما بعد إن شاء الله تعالى) نونا ساكنة للجزءِ الَّذي قبل القافية كما صنع الأخفش . ذلك بأَن تعريف الخليل للقافية ـ والصواب نَقْلُ التبريزي للقافية ـ فيه كيانٌ نَغَميٌّ مستقل ، نِسْبَتُه إِلى أجزاءِ البحر بقَبْلِيَّة وبَعْدِيَّة يُخفى هَذَا من حقيقته ، أنه غير وزن البحر ، ينسجم معه ويناغمه ويكتمل به وزن الشّعر فِي ما يكتمل به . وقول الأخفش : «بين نونها ونون الجزءِ الَّذي قبلها» يجعل القافية طرفًا من الوزن وكأنه ينظر إِلى قوله هو فِي أنها آخر كلمة فِي البيت وعلى هَذَا ينبغي أن تكون جزءًا أو طرفًا من جزءٍ وهذا

غير دقيق فِي إدراك إيقاعها .

هذا والمتكاوس مما يدل عَلَى اضطرابه أن شاعرًا لو أراد مد ما يقابل فاءَ (فعلتن) أو عينها فخرج بقافيته من المتكاوس وجاءَ بها مَعَ قافية من المتكاوس لجاز ، مثلًا : «قد جبر الدين إلهي فجبر» .

فهذا من المتراكب : قد جبر الدين الإله قد جبر . فهذا من المتدارك .

والثلاثة قد يجئن فِي قصيدة واحدة معًا .

هذا وكان الوجه أن يقول أبو الحسن : «فالمتكاوس منها واحدة وهو » إذ الحديث عن المتكاوس ولكنه قَالَ «وهي» إذ ليست فيه إلا قافية واحدة فحمل القول عليها فساغ ذلك، وقد لزم التذكير فِي الباقيات وهو قوله عند كل واحدة منها «وذلك كل قول فيه » إِلى آخر ما قَالَ .

هذا وتعريف الخليل يُدْخِلُ فِي مدلول القافية حرف الروى وغيره من وصل وخروج وتأسيس وردف وما أشبه لقوله : «إن القافية من آخر البيت إِلى أول ساكن يليه مَعَ المتحرك الَّذي قبل الساكن » عَلى أن الَّذي فِي قوافِي أبي الحسن طبع دمشق ص ٦ كما تقدم ذكره عند الخليل «ما بين آخر حرف من البيت إِلى أول ساكن يليه مَعَ المتحرك الَّذي قبل الساكن » .ا.هـ. وعندي أن هَذِه الرواية غير صحيحة ، ذلك بأن حرف الروى هو الراءُ الساكنة فِي بيت العجاج :

قد جبر الدين الإله فجبر

وبه استشهد الأخفش عَلى قافية المتكاوس وعلى هَذِه الرواية الَّتي فِي الكتاب تسقط الراءُ فلا تكون جزءًا من القافية لأن القافية هي الَّتي بين آخر حرف فِي البيت والساكن الَّذي يليه إلخ . وهذا كما ترى لا يستقيم . ويستقيم أن نقول بين آخر البيت والساكن الَّذي يليه مَعَ المتحرك الَّذي قبل الساكن فتدخل الراءُ فِي التعريف . ولعل الخطأ من النساخ ، والله أعلم . وتعريف الخليل بناه عَلى تحليل القافية من حيث يمكن البدءُ بتحليلها وهو آخر البيت أيًا كَانَ ذلك الآخر .

وتظهر فائدة نص الخليل عَلى المتحرك الَّذي قبل الساكن فِي القوافِي الَّتي يتوالى فيها ساكنان مثل «الكذابانْ» «يا كلب الدَّوْمْ» «أنا عديٌّ والسَّحْلْ» بسكون الحاءِ واللام . ذلك لأن البدءَ بالساكن ليس بعربي فتكون الحركة فراشا للساكنيْن بعدها ، فإن كَانَ أحدهما مدًّا أو لينًا أعان مَطْلُه الطبعي عَلى أن يكون للساكنين مُتَّكئا وَسَنَدًا وإن لم يكن كما فِي و «السَّحْلْ» كَانَ الفتح الناشيءُ من الحركة مَعَ الحرف الَّذي يليها مُتَّكَئًا ومُسْتَندًا .

وتظهر أيضًا فائدة ذكر المُتَحَرِّك الَّذي قبل الساكن فِي نحو :

«زوراءُ تنفر عن حياض الديلم» الدال المفتوح يَتَبَيَّنُ به أن الياءَ الساكنة بعده صحيحة المعدن مَعَ كونها حرفًا لينا فِي السِّنْخِ ، فلا يجري هَذَا مجرى ما فيه التأْسيس . ومثل «السيف أصدق أنباءً من الكتب» . ومثل «الحق أبلج والسيوف عواري» المتحرك دل عَلى أن اللين الَّذي من جنسه بعده ألف وفِي :

(أهذا دينه أبدًا وديني) .

أنه ياءٌ وفِي :

«حتى تقول الهامة اسقوني»

أنه واو ، وفِي القوافِي الَّتي يكون حرف الروى فيها متحركًا واحدًا بين ساكنين لابد لنا من معرفة حركة الحرف المتحرك الَّذي قبل الساكن التالي لآخر البيت ، ذلك بأن حركته بمنزلة الموجه للنغم فِي مبدأ القافية .

المتراكب :

قال أبو الحسن : «وللمتراكب أربع وذلك كل قافية توالت فيها ثلاثة أحرف متحركة بين ساكنين وهي مُفَاعلَتُنْ مفْتَعِلُن فَعِلُنْ لأن فِي فعلن نونًا ساكنة وآخر الجزءِ الَّذي قبله نون ساكنة ، وفَعِلْ إذا كَانَ يعتمد عَلى حرف متحرك نحو (فَعُولُ فَعِلْ) ، اللام الآخرة ساكنة واللام فِي فعول متحركة . ا.هـ.» .

١- مثال مفاعلتن :

(على لُبَدى) فِي قول النابغة :

أخنـى عليهـا الَّـذي أخْنـى عَـلى لُبَـدِي

و : (ولا وعل و) في قول أبي الطّيّب :

ومضـــيت منهزمـــا ولا وعلـــو

القافية (لا لبدى) ولكن العين متصلة (بلا) كاتصال الميم (بفا) في : (مفا) و (لبدى) محتاجة إلى (لا) وهذه لابد لها من العين .

و(وَعِلُو) محتاجة إلى (لا) قبلها . وحرف العطف وثيق الارتباط بـ(لا) .

٢- مثال مفتعلن :

(تنسلكو) من قول زهير :

فاقــدر بــذرعك وانظـر أيــن تنســلكو

(تنسلكو) هي القافية تبدأ بالناءِ المتحركة وتنتهي بواو «كو» . ولعل قائلًا أن يقول : فلم فرقت نون الوتد (نَتَنْ) فقلت (تنسلكو) ولم تقل (نَتَ نْسِلِكُو ـ مفاعَلَتَنْ) كما قلت (على لبدى ـ مفاعلتن) ؟ والجواب أن الحالتين لا سواءَ لأن (مفاعلتن) مقياس لا يصح أن تفرق ميمه من سائر الوتد (وتنسلكو) كلمة قائمة بنفسها وقافية تامة من عند أولها إلى آخرها ، و(مفتعلن) هي وحدة توازنها بوزن مستقل . وهذا الوزن ينسجم ويناغم وزن الوتد (نتن) وهو (علن) من (أين تن) وهي (فاعلن) الجزءِ العروضي البسيطي الثّالث في شطر البيت الثّاني كما لا يخفى فههنا تداخل بين (فاعلن) العروضية و(مفتعلن) القافوية ومثال آخر (مطَّلحَا) من قول الآخر :

ألا هل هاجك الأَظْعَانُ إذ جاوزن مُطَّلحا

٣- مثال فعلن :

(فقدي) من قول النابغة :

إلى حمامتنـــا أو نصـــفه فقـــدي

وهاهنا مساوقة من القافية لوزن العروض ومطابقة لجزءِ منها وهو (فَقَدِي) الجزء

(فعلن) لأن القافية (هُوَ فَقدى) وهو جزءٌ من الكلمة (نصْفَهُ و) وهذه تعادل الجزءَ (فاعلن) .

مثال آخر قول أبي الطّيّب (تَفَلُو) من :

... قـــوم غرقْـــتَ وإنـــما تَفَلُـــو

القافية (ما تفلو) ولكن (ما) لا تفصل عن وتدها (نما) فهنا اضطرك الوتد إلى إضافة (الميم المتحركة) إلى (فَاعَلَتُنْ) لتصير (/فَاعَلَتُنْ) وذلك عَلى القافية فيه زيادة .

٤- مثال (فعل) ساكنة اللام المعتمدة عَلى (فعول) المتحركة اللام :

(تجيبَ صَمَمْ) فِي قول المرقش :

هـــل بالـــديار أن تجيـــب صَـــمَمْ

القافية : (جيبَ صَمَمْ) .

وذكْرُ التاءِ من أجل الوتد .

ومثال آخر : (بنانِ عَنَمْ) .

القافية : (نَان عَنمْ) .

وذلك فِي قوله :

الـــنَّشرُ مســـكٌ والوجـــوهُ دَنـــا نـــيرٌ وأَطـــرافُ البنـــان عَـــنَمْ

المتدارك :

قال أبو الحسن : «وللمتدارك ست قواف وذلك كل قافية توالي فيها حرفان متحركان بين ساكنين وهي مُتَفَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُن مَفَاعِلُنْ فَاعلنْ وفَعِلْ إذا اعتمد عَلى حرف ساكن نحو (فَعُولُنْ فَعِلْ) اللام من (فَعلْ) ساكنة والنون من (فعولن) ساكنة و(فل) إذا اعتمد عَلى حرف متحرك نحو (فَعُول فَلْ) اللام من فَلْ ساكنة والواو من (فعول) ساكنة . وكان الخليل لا يجيز سقوط نون فعولن بعدها فل ويقول لأن الحذف قد أخل به فلا يحتمل ما قبله الزحاف ولا أراه إلا محتملًا لأنه لم يكن معاقبًا لَهُ . وقد ذكر الخليل فِي الجملة ثلاثين قافية ولم يذكر فِي التفسير إلا تسعًا وعشرين قافية ، فلا أدري أيهما كَانَ منه الغلط إلا أنهم

قد رووا هَذَا هكذا وقد ذكروا ما أخبرتك به » .

١- مثال متفاعلين : (يَتَوَرَّعى) من قوله الحادرة :

قســمًا لقــد انضـــجت لم يَتـــورَّعى

والقافية (وَرْرَعى) الساكن التالي آخر البيت راءٌ قبلها واو متحركة ولا يمكن فصل الياءِ والتاءِ الَّتي بعدها وقبل الواو لمكان الفاصلة الصغرى ، «متفا» بالنسبة للقافية وهي سبب ثقيل بعده خفيف بالنسبة للوزن لا للكلمة نفسها «يتورعى» الَّتي منها القافية فتأمل.

مثال آخر : (تَتَرَفَّعى) فِي نفس القصيدة : «وأن تزجر به تترفع» .

مثال ثالث : «مُتَبَسَّمي» من قول عنترة : «طوع العناق لذيذة المتبسمي» .

٢- مستفعلن : (مُسْتَسْلمي) من قول عنترة : «لا مُمْعن هربا ولا مستسلمي» القافية : «تسْلمي» وجيءَ (بمُسْ) قبلها لأنه أول الكلمة الَّذي به بدأ أصل القافية ليدل أن هَذَا النوع يقع فِي هَذَا الضرب وهو المتدارك .

وأمثلته بعد كثيرة مثل (مستعجلي) فِي قول حسّان :

رقـص القلـوص براكـب مسـتعجل ي

٣- مفاعلن : مثالها (تكلَّمي) فِي قول عنترة : «يا دار عبلة بالجواءِ تكلَّمي» القافية : (كَلَّمي) وأمثلة هَذَا كثيرة .

مثال آخر : (حواسدو) من قول أبي الطّيّب : (عواذل ذات الخال فيَّ حواسدو » .

مثال ثالث : (بمَعْلَمِ ي) من قوله : «غَيْثٌ قليلُ الدّ = الدّمن منْ ليس بمعلمي» .

مثال رابع : سلامُها : من قوله : «كما ضَمِنَ الْوَحيَّ سِلامُها » .

وهاهنا تداخل بين وزن القافية (لامها) والجزءِ «يَسِلامُها» .

٤- فاعلن ؛ مثالها : (ذامُها) من قول لبيد : (ترجي نوافلها ويُخْشى ذامها) والقافية (ذامها) .

مثال آخر : (شاكري) من :

يأيهـــا الســـائل عـــن ديننـــا نحـــن عَـــلى ديـــن أبي شـــاكري

و(نائلو) و(فاعلو) من قول المعري :

ألا فِي سـبيلِ المَجْـدِ مـا أنـا فاعـل عَفـافٌ وإقْـدامٌ وحَـزْمٌ ونـائِلو

٥- فعل ساكن لآخر المعتمد عَلى فعولن مثل : (يُراخي الأَجَلْ) فِي قوله :

ضـعيف النكايـة أعـداءه يخـال الفـرار يراخـي الأجـل

القافية (خِلْ أجلْ) .

ونصوا عَلى فَعَلْ لتَبْيين نَوْعِ الوزن النَّغَمي من نغم الكلمات الَّذي يكون حيزا لما ينتهي بفَعلْ ساكن الآخر من ضرب قوافِي المتدارك .

مثال آخر : (أبرَّ الكُتُبْ) من قول أبي الطّيّب : (فَهِمْتُ الكتابَ أبرَّ الكُتُب) .

٦- فَلْ ساكن الآخر المعتمد عَلى (فعول) متحرك اللام قبله واو ساكنة هكذا (فَعُولُ فَلْ) .

وأخذ الأخفش هَذَا الوزن عَلى الخليل لأنه ظن أنه يمنعه من المتقارب بحسب نظامه فِي علم العروض فنقصت عَلى ذلك قوافيه من العدة الَّتي ذكرها وهي ثلاثون . وقد أُتِيَ الأخفش من خَلطه بين الأوزان العروضية والقافوية ، فهذا الوزن «فعُولُ فَلْ» وزن القافية لا الوزن العروضي ومثاله : (نُ عَنْتَرَهْ) نون متحركة وعين مفتوحة ونون ساكنة وتاءٌ مفتوحة وراءٌ مفتوحة بعدها هاءٌ ساكنة (نُعنْتَ) = (فعول) متحرك الآخر و (ره) = (فلْ) من قوله : (أنا الهجين عَنْتَرَهْ) وهذا ليس من المتقارب كما ترى .

ومثال آخر (أحمره) من قوله : (أسوده وأحمره) .

وعلى هَذَا لا يكون الخليل نقص من عدته شيئًا والله أعلم .

المتواتر :

يقول أبو الحسن : «وللمتواتر سبع وذلك كل قافية فيها حرف متحرك بين حرفين ساكنين وهي مفاعيلن فاعلاتن فَعِلاتُنْ مَفْعُولن وفَعُولن فَعْلُن وفَلْ إذا اعتمد عَلى حرف ساكن نحو فَعُولُن فَل » .

١- مثال : مَفاعيلُنْ : قول حسّان : جِسْمُ البغال وأحلام العصافيري القافية : (فيرِي) وموازن مفاعليه (عصافير) .

مثال آخر : (سنا ناري) من قول النابغة :

(أم ضوءِ نُعْمٍ بدالي أم سنا ناري) أجودُ وأصح أن تجعل هَذَا من «فُعْلُنْ» لأن قوله (ناري) يوازنها وهو القافية .

مثال ثالث : (وَإقرانو) من قول الآخر :

بضَرْبٍ فيه تَفْجيعٌ وتوجيعُ وإقْرَانُ والقافية : (رانو) .

٢- مثال فاعلاتن : (مُضْمئِلُّو) فِي قول الحماسي :

«خَبَرٌ ما نابنا مُضْمَئِلٌّ و» القافية (إلْ لُو) .

مثال آخر : (بالذليلي) فِي قول زيد الخيل :

يـــا بَنـــي الصَّـــيداءِ رُدُّوا فَـــرَسي إنَّـــما يُفْعَـــلُ هَـــذَا بالـــذَّليلْ

والقافية «لِيلِي» ولك أن تجعل هَذَا من (فعولن) (ذَلِيلي) ولكن اتصال هَذِه الكلمة بأل والذال لأن (أل) شمسية يجعل ما ذهبنا إليه أقرب ، ويدنو منه :

عَلَّمُـــوه مـــثلما علمتـــه دلـــجَ الليـــلِ وإبطـــاءَ القتيـــل ي

غير أن (أل) هنا قمرية فـ (قتيلي) أشبه أن نجعلها من (فعولن) وستأتي .

وكل قافية مطلقة عَلى وزن (فاعلاتن) مثل (خالياتي) فِي بيت التبريزي .

أَضْـحت الـدار قفـارا موحشـاتي عافيـاتٍ دارسـاتٍ خاليـاتِي

وأمثال (مُضْمَئِلٌّ و) (مُشْمَعِلُّو) فِي المديد والرمل مما يمكن أن يُتَمثَّل به ها هنا .

وإذا قيدت أمثال (خالياتْ) صار وزنها «فاعِلَاتْ» بالسكون فدخلت فِي المترادف كما سيجيءُ وإذا قيدت (مشمعل) خففت ودخلت فِي المتدارك فصارت إلى «فَاعِلُنْ» .

٣- فَعِلاتن لَفرُورُو من قول عمرو بن معد يكرب :

ولقـــد أجمـــع رجـــليَّ بهـــا حـــذر المـــوت وإني لفـــرورو

ومثال آخر (سروب ي) في بيت قيس بن الخطيم و(قريبي) :

أَنَّى سَرَبتِ وَكُنتِ غَيرَ سَروبِ   وَتُقَرِّبُ الأَحلامُ غَيرَ قَريبِ ي

وهذا أجود من أن يجعل (فعولن) وذلك لمكان الحرف المتحرك وأنه أعلق بالفاصلة الصغرى (فعلا) من فعلاتن فتأمله :

ومثال آخر : (فحواها) من :

وإذا رايةُ مجد رُفعت   نَهض الصَّلتُ إليها (فحَواها)

وقال شوقي :

شيَّعُوا الشمس ومالو بضُحاها

(بضحاها) = (فَعلاتُنْ)

وقال : قم سليمان بساط الريح قاما .

(ريح قاما) = (فاعلاتن) .

٤- مفعولن (منقوبو) .

قال عبيد :

يَضغو وَمِخلَبُها فِي دَفِّهِ   لا بُدَّ حَيزومُهُ مَنقوبُ

القافية : (قوبو)

مثال آخر : مخضوبي : قَالَ أبو الطَّيِّب :

وَمِن هَوى كُلِّ مَن لَيسَت مُمَوَّهَةً   تَرَكتُ لَونَ مَشيبي غَيرَ مَخضوبِ

وثالث (يغري بي) فِي قوله :

وأنثنى وبياض الصبح (يغري بي)

ولك أن تجعل هَذَا شاهدا عَلَى (فل) معتمدة عَلَى الساكن قبلها .

وأجود وأوضح أن تجعلها من هَذَا الباب .

٥- فعولن : وهذا كثير (شُكُولو) فِي :

ليـــاليَّ بعـــد الظـــاعنين شُـــكُولو

«وسخينا» فِي :

إذا مـــا المـــاءُ خالَطَهـــا ســـخينا

٦- فَعْلُنْ : مثالها : (جَبْرُو) فِي قول الآخر :

عُـــوجِي عـــليَّ فسَـــلِّمي (جَـــبْرُو)

و «دَهْرِي» فِي قول الآخر :

أَقْـــوَيْنَ مُـــذْ حِجَـــجٍ ومُـــذْ (دَهْـــرِي)

و«دُونِي» من قول ذي الأصبع :

فخـــالني دُونـــه أَو خلتُـــه (دونِي)

٧- فَلْ إذا اعتمدت عَلى ساكن قبلها مثلا فَعُولُنْ فَلْ .

مثلا (بَهْ) من قول الآخر :

زبيريّـــةٌ مـــن بنـــات الَّـــذي أحـــلَّ الحـــرامَ مـــن الكعبَـــهْ

(من الكع) فعولن (به) = (فل)

وهذا الَّذي منع الخليل من حذف نون (فعولن) منه . ومثال آخر : (بَهْ) من :

خَلـــيليَّ عُوجـــا عَـــلى رســـمِ دارٍ خلَـــتْ مـــن سُـــليمى ومـــن ميَّـــه

المترادف :

قال أبو الحسن : «وللمترادف أثنتا عشرة ، وذلك كل قافية اجتمع فِي آخرها ساكنان وهي : متفاعلان مُسْتَفْعلان مُفْتعلان مفاعلان فَعِلَتان فاعِلَيّان فَعِلَيّان مَفْعُولان فَاعلان فعلان مفاعيلْ فَعُولْ» .

١- متفاعلان : القافية كما لا يخفى تعادل (لان) فقط من هَذَا المذكور وإنما ذِكْرُهُ للدلالة عَلى نوع النغم الَّذي يكون للقافية حَيِّزًا ، وقد مر بك من أوزان القوافِي (متفاعلن) (ومستفعلن) إلخ فمتفاعلان بسكون النون قبلها ألف ما يجيءُ من المترادف

من ضرب وزنها وهلم جرا . ولو قلت :

إنّي رأيـــت لـــدى الحـــد يقـــة نســـوةً مُتبَرِّجـــاتْ

كانت (متبرجاتْ) هَذِه الَّذي يتمثل به «لمتفاعلانْ» .

قال سعد بن مالك : «إلا الفتى الصَّبار فِي النَّجدَات والفرسُ الْوَقَاحْ» .

لو وقفت بالسكون ولم تجعل الروى مطلقًا إذ أول القصيدة :

يـــا بُـــؤسَ للحـــرب الَّتـــي وضـــعتْ أراهـــطَ فاســـتراحوا

وحتى مثل هَذَا يجوز الوقف عليه بالسكون .

(فَرَسُلْوَقَاحْ) = متفاعلانْ .

وقالت القرشية وهو مقيد : أَبُنَيَّ لا تَظلم بمكَّة لا الصغيرَ ولا الْكَبيرْ .

(وَلَلْكبيرْ) = متفاعلانْ .

القافية : (بيرْ) وكون (بير) معرفة ومتصلة نغمًا بما قبلها يجعل كون (ولا الكبير) من (متفاعلان) أولى من أن نجعلها (فعول) ومثله ليزيد ابن الحكم والقافية مقيدة من المترادف .

وَاعـــرِف لِجـــارِكَ حَقَّـــهُ وَالحَـــقُّ يَعرِفُـــهُ الكَـــريمُ

(رِفُهُ لْكَرِيمْ) = متفاعلان .

٢- مستفعلان : كقول يزيد بن الحكم :

يـــا بَـــدرُ وَالأَمثـــالُ يَضرِبُهـــا لِـــذي اللُّـــبِّ الحَكـــيمُ

دُم لِلخَليـــلِ بِـــوُدِّهِ مـــا خَـــيرُ وُدٍّ لا يَـــدومُ

الشاهد الجيد فِي البيت الأول :

(لُبِّ لْحَكِيمْ) = مستفعلان .

وفِي البيت الثَّاني (دِنْ لَا يدُومْ) بزنة (مستفعلان) إلا أنه أجود أن يجعل هَذَا من أمثلة (فعول) إذ القافية (دوم) والياءُ تتم بها الكلمة مستقلة عمّا قبلها (يَدُومْ) .

٣- مفتعلان : مثاله : (عَهْدُ قَدِيمْ) وزنها (مفتعلان) وهي فِي بيت المرقش الأصغر :

لابْنَـــةِ عَجْـــلانَ بـــالجَوِّ رُسُـــومْ لم يَتَعَفَّـــيْنَ والعَهْـــدُ قَـــدِيمْ

وكذلك (جَوِّرُسُومْ) .

ولقائل أن يوقل إن هَذَا من (فعول) لاستقلال : رسوم وقديم .

أي (فعول الساكنة اللام) ويجاب عن هَذَا بأن آخر البيت وآخر التصريع فِي الصدر والعجز كليهما فاصلة صغرى نهايتها موصولة عَلى نحو ما يسميه الموسيقيون السبب المتوالى .

وربما كَانَ أجود فِي الاستشهاد قوله :

لم أغْـتَمِض طُولَهـا حَتَّـى انْقَضَـتْ أكلؤُهـــا بَعْـــدَما نـــامَ السَّـــلِيمْ

لأن (أل) شمسية والسين متصلة بما قبلها فهما «نا مَسْـ (سَليمْ) » = مُفْتَعلانْ .

٤- مفاعلان : نحو (ولا أريم) من قول المرقش :

بـــادُوا وأَصْـــبَحْتُ مِـــنْ بَعْـــدِهِمُ أَحْسَـــبُنِي خالِـــداً ولا أَرِيـــمْ

وظاهر هَذَا أن يُجْعَلَ من باب (فعول) ساكن اللام ، ولكنَّ جَعْلهُ منها لا يُبيِّن حقيقة ندرته كما ها هنا .

ومثال آخر (إلى نعيم) من قوله :

بَيْنـــا أَخُـــو نِعْمَـــةٍ إذْ ذَهَبَـــتْ وحُوِّلَـــتْ شِـــقْوَةٌ إلى نَعِـــيمْ

(إلى نعيم) = مُفَاعلانْ

٥- فَعِلَتانْ وهو امتداد الفاصلة الكبرى (فعلتن) ليصير آخرها مثل السبب المتوالي :

وهذه نادرة جدًّا ولو قَالَ المرقش : (لمَ تلوم) مكان قيم تلوم فِي بيته :

فَعَمْـــرَكَ اللهَ هَـــلْ تَـــدْرِي إذا مـــا لُمْتَنـــي فِي حُبِّهـــا فِـــيمَ تَلُـــومْ

لكانت منها : (لِـمَ تلُومْ) = فَعِلَتانْ .

وفِي كتاب التبريزي شيءٌ يشبه هَذَا الوزن وهو :

هـــذا مَقـــامي، قريبـــاً مِـــن أخـــي كـــلُّ امـــرىءٍ قـــائمٌ مـــعَ أخِيـــهْ

(مع أخيه) فعلتان

٦- فاعِلَيْيَان = فاءٌ متحركة بعدها ألف وعين متحركة بعدها لام متحركة وياءٌ ساكنة تليها ياءٌ متحركة فألف فنون ساكنة وفِي هامش القوافِي (طبعة دمشق ١٩٧٠م ص٩) أن الأصل هكذا وقد غيرها التحقيق إِلى (فاعليان) وهو خطأ لأنه مكرر فِي وزن (مفعولان) ولا تتم به عدة قوافِي المترادق .

مثال فَاعلَيْيَانْ : (فِلْمَطِيَّاتْ) قَالَ الشماخ :

لَمَّـــا رَأَتْنَـــا وَاقِفِـــي المَطِيَّـــاتْ قَامَـــتْ تَبَـــدَّى لِي بِأَصْـــلَتِيَّاتْ

أصلتيات : أيضًا تساوي : (فَاعِلِيَّانْ) وهذا الوزن غير نادر ندرة ما سبق . ومنه : (لَبْنَ عَفَّانْ)

فِي قول أصحاب الفتنة : «إن عليا قتل ابْنَ عفَّانْ» :

٧- فَعِلَيْيَانْ : بتحريك الفاءِ والعين واللام بعدهن ياءٌ ساكنة تليها متحركة فألف ساكنة وهو كالوزن السابق بإسقاط الألف الَّتِي بعد الفاءُ وهو خبن بالنسبة للعروض وهذا للتوضيح إذ هَذَا الوزن تمثيل للقافية كما تقدم .

وهذا منه المسبغ المخبون الَّذي ذكره لتبريزي :

واضـــحات فارســـيات وأُدم عربيـــات

الشاهد عربيات = (فعلْيَانْ)

وقول ابنة أبي مسافع :

ومـــا ليـــث غريـــف ذو أظـــافير وإقـــدام

(رَوَ إقدامْ) يمكن أن يجعل منه ولكن (مفاعيل) به أولى وقد يسوغه أن أظافير متحرك وليس بكبير شيءٍ إذ هو جزءٌ قائم بنفسه دخله الكف .

٨- مفعولان مثاله (عبد الدار) من قول هند :

وَيْهَـــابني بنـــي عبـــد الـــدارْ

واتصال الدار بما قبلها يجعل هَذَا أولى بها من (مفعولْ) و(كذابان) من قوله :

إن ثقيفَــا مــنهم الكــذابان

٩- فاعلان مثاله : (ترجمان) من قول عوف بن محلم والقافية مقيدة :

إنَّ الثمانــين وبُلِّغْتُهــا قــد أحوجــت سـمعي إلى ترجُمـانْ

مثال آخر : (هِشَّلِيلْ) من قوله :

وَيلُمِّــهِ مِســعَرَ حَــربٍ إذا أُلقِــيَ فيهــا وعليــهِ الشَّــليلْ

١٠- (فَعِلانْ) بتحريك الفاءِ والعين واللام يلتقي مَعَ (فَعلَتانْ) لمساواته (عِلَتان) غير أن موضع الفاءِ المتحركة من الفاصلة الكبرى الممتدة يجعل الأمثلة الَّتي تقدمت أولى بها الموضع الَّذي ذكرت فيه ، ومن هَذَا الوزن قافية بَيْتٍ فِي ميمية المرقش مما لم يروه ابن الأنباري :

أَمِــنْ دِيــارٍ تَعَفَّــى رَسْــمُها عيْنيــكَ مِــنْ دَمْعِهــا بِسَــجُومْ

قوله بسجوم = فعلان

على أن هَذَا البيت فيه اضطراب ربما كَانَ أصله من النساخ والمعنى مستقيم .

ومثال أجود : (وَطعان) من بيت ذكره التبريزي وهو :

أي شــخص كأَبــان عنــد ضرب وَطِعَــانْ

ومثال آخر : (وتقوم) من قوله :

أَحسَــنُ النــاسِ جَميعــاً حــينَ تَمْشي وَتَقــومُ

إذا قيدنا الوزن ولكنه فِي الأصل مطلق ويجوز تقييده . وقبله :

إنَّــما الــذَلفاءُ هَمّــي فَليَــدَعني مَــن يَلــومُ

١١- مفاعِيلْ : مثل (وإقدام) (م أقران) – (بدان)

من قول أبي مسافع :

ومــا ليــثُ غريــفٍ ذو أظــافير وإقــدامْ

كحبــيٍّ إذْ تلاقــوا، و وجــوهُ القــومِ أقــرانْ

وأنـــتَ الطـــاعنُ الـــنَّجلا ءَ، منهـــا مزبـــدٌ آنْ

وقـــد ترحـــلُ بالرَّكـــبِ ومـــا تخنِـــي لخُـــلَّانْ

ولا يخفى أن قولها (لخُلْ لانْ) مفاعيل

١٢ - فعول بسكون اللام مثل : (ذَلُولْ) من قوله :

ومـــا ظهـــري لبـــاغي الضـــيم بـــالظهر الـــذَّلُولْ

إذا وقفت بالسكون .

و(عِراقْ) فِي قوله :

أَيَّـــام سَـــلْمى لا يَـــرى مثلَهـــا ال راءون فِي شـــامٍ ولا فِي عِـــراقْ

و(حَسيسْ) فِي قوله :

مكَّـــة أقـــوت مـــن بنـــي الـــدَّردبيس فـــما لجنِّـــيٍّ بهـــا مـــن حســـيس

وبهذا تكون قد اكتملت بحمد الله أوجه التمثيل للأوزان والصيغ الثلاثين الَّتي روى الأخفش عن رواته عن الخليل ، للمتوكاوس واحدة وللمتراكب أربع ، وللمتدارك ست وللمتواتر سبع وللمترادف اثنتا عشرة ، فعدة ذلك ثلاثون ، وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

المحور الثّالث عشر : الثّقافة العامّة
(٦٢٩ـ٦٥٠)

أ – بعض الأعلام الجغرافيّة المشهورة

ب – خواطر عن أسماء بعض الأماكن في بلدنا .

أ – بعض الأعلام الجغرافيّة المشهورة* (١)

من هَذِه الأعلام الحبشة :

١- فِي كتاب المسعودي مروج الذهب أنّ بلاد الحبشة حارة يابسة وأن مبدأها من أرض الجنادل جنوب أسوان .

وهذا الوصف يصدق عَلى بلدنا السودان .

وفِي كتاب هيرودتس (the Hiorories) المترجم عنه إِلى الإنجليزية أن مبدأ إثيوبيا من عند جزيرة الفيل بأسوان وأن عاصمة إثيوبيا مروى .

ومروى المعروفة بهذا الاسم عند الشلال الرّابع من نهر النيل فِي الشاطئ الأيسر منه . بإزاء كريمة الَّتي هي إحدى نهايات الخطوط الحديدية السودانية وبالقرب منها جبل البركل وفِي ناحية آثار قديمة ، ولكن هيرودتس لم يعن مروى هَذِه ، وإنما عنى المكان الَّذي يعرف باسم البجراوية بالقرب من بلدة كبوشية شمالي مدينة شندي عَلى الشاطئ الأيمن من النيل ، وفِي البجراوية آثار قديمة ، من معابد ومصانع وبالقرب منها عدد كبير من الأهرام أقرب إِلى حجم هرم الجيزة الأصفر وهي من حجر الرمل وبناؤها محكم وهي حادة الانخراط يقال إنها أكبر مجموعة من الأهرام فِي العالم ذكر ذلك صاحب «الممر النوبي» The Nubian Corrido نقلًا فيما أحسب عن سير دوجلاس نيوبلد فِي رسائله وهذا قد كَانَ السكرتير الإداري فِي السودان فِي السنوات ما بين أواخر الثلاثين إِلى أواسط الأربعين .

---

* المجلّة ، جـ٨٠ ، ص ١٨١ . (حسن) .

(١) ألقي البحث في الجلسة الحادية عشر من مؤتمر المجمع بتاريخ ٥ من ذي القعدة ١٤١٥هـ ، الموافق ٥ من إبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥م .

وكان أحد أساتذة الآثار الوافدين علينا ممتحنين خارجيين بجامعة الخرطوم يذكر أن اسم البجراوية أقرب أن يكون هو الاسم الصحيح من اسم مروى ، وهذا ترجيح استحساني لا تقوم به حجة ، ولعل اسم مروى المعاصرة هو أيضًا اسم قديم استعير من اسم البلد الَّتي هي أقدم منه والله أعلم .

ويزعم عزانا الحبشي ملك أكسيوم أنه غزا البجراوية أي مروى القديمة وأحرق ما كَانَ بها من مزارع القطن .

ولا يخفى أن هَذَا غير القطن الَّذي أدخل زراعته الحكمدار ممتاز باشا فِي أرض توكر فِي القرن الماضي .

وفِي الموسوعة البريطانية أن القطن قد يكون أول من زرعه السبئيون ، فإن كَانَ ملك أكسيوم من السبئيين فقد ترى أنه قد وجد منه مزارع فِي أرض النيل بناحية البجراوية فأهلها أولى بأن ينسب إليهم أول التوسع فِي زراعة القطن .

٢– هَذَا ، وفِي كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني فِي طيبة القطرية ـ أن الحبشة الوسطى مبدؤها من عيذاب جنوب مصر ونهايتها باضع وهي شمال مصوع ولا يخفى أن هَذَا هو ساحل السودان ، وقد أعاد طبعه الشّيخ حمد الجاسر عالم الجزيرة وعضو المجمع جزاه الله خيرًا .

٣– وفِي سيرة ابن هشام فِي خبر رؤيا ربيعة بن نصر أن أحد الكاهنين قَالَ ، أقسم برب الحرتين من حنش ليملكن أرضكم الحبش ، والآخر قَالَ أقسم بما بين الحرتين من إنسان ليملكن أرضكم السودان .

فالحبش والسودان كأنهما مترادفان .

والحبشة وإثيوبيا كأنهما مترادفتان .

ويقال إن معنى إثيوبيا بلاد السودان . ويذكر بعض علماء الآثار أنه يجوز أن يكون من معاني إثيوبيا (بلاد الطيب) .

ويوجد اسم ثيبا أو طيبا فِي بلاد السودان وفِي مصر وفِي بلاد اليونان ، فكأنه يدل عَلى البلاد الَّتي يجلب منها أو إليها الطّيّب .

وفِي السودان أخشاب طيب كثيرة ـ منها الشاف وهو ضرب من الطلاح والكليت والهبيل وأصناف أخرى ، وعادة الدخان معروفة فِي السودان وهو نوع من الحمام الساخن يكون أحيانًا علاجًا من الرطوبة وأكثر ما تستعمله النساء لتجميل البشرة . وفِي أشعار العرب ذكر نيران توقدها النساء .

قال الشماخ :

رَأَيتُ وَقَد أَتى نَجرانُ دوني ... وَحالَت دونَ أَرحُلِها السديرُ

لِلَيلى بِالبُوَيِّرة ضَوءَ نارٍ ... تَلوحُ كَأَنَّهُ الشِعرى العَبورُ

وفِي المعلقات أنها توقد بالعود ،

قال اليشكري :

أوقدتها بشخصين بعود كما يلوح الضياء

وقال العبادي :

يا سُلَيمَى أوقدي ناراً ... إنّ مَنْ تهوينَ قد حارا

رُبَّ نارٍ بِتُّ أرمُقُها ... تقضم الهِنْديّ والغارا

وَبها ظبيٌ يُؤَجِّجُها ... عاقِدٌ بالخصر زِنارا

وقال كثير :

وَما رَوضَةٌ بِالحَزنِ بَاكرها النَّدَى ... يَمُجُّ النَدى جَثجاثُها وَعَرارُها

بِأَطيَبَ مِن أَردانِ عَزَّةَ مَوهِناً ... إِذَا أوقِدَت بِالمَندَلِ الرَطبِ نارُها

وقد تكون تلك النّار توقد بأخشابٍ دون الصندل والمندل فِي الطّيب فيجعلها الشّعراء صندلا ومندلا عَلى سبيل التزيد والمبالغة كمزعمهم أنهم أبدًا عَلى ظهر ناقة أو بعير وقد لا يكون

مركب الشّاعر إلا قدميه أو حمارًا ، وقلما يذكر الحمار فِي الشّعر مُفْتَخرًا به مَعَ أنه قد كَانَ من أكثر مراكب العرب . قَالَ تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ [البقرة : ٢٥٩]. وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان : ١٩] .

٤– ومما يدل عَلَى أن الدخان كَانَ معروفًا من عادات الطّيّب عند العرب قول الآخر وهو فِي ديوان الحماسة :

آليت لا أدفن قتلاكم فدخنوا المرء وسرباله

٥– وفِي سيرة ابن هشام وهو أيضًا فِي الحديث الشريف مروى عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن النجاشي حاربه نجاشي آخر وكان بينهما عرض النيل وأن سيدنا الزبير ابن العوام نفخت لَهُ قربة فعام ثُمَّ عاد وأخبر سيدنا جعفرًا وأصحابه أن نجاشيهم قد انتصر عَلَى خصمه . وهذا الجبر يدل عَلَى أن الحبشة الَّتي أمها الصحابة فيها نيل يعام ، وحبشة أكسيوم أنهارها سريعة الجريان رهيبة لا يقدم أحد عَلَى السباحة فيها وهي تمر بأيّ جارف ، ومنطقة أديس أبابا لم تدخل فِي ملك الدولة الإثيوبية الحديثة إلّا فِي أيام منليك أو قبله بقليل .

٦– لا يزال المزورون بالمدينة يعرفون أهل السودان باسم الحبش وعلى ذلك الكتاب الموسوم باسم الطراز المنقوش فِي محاسن الحبوش . ويحسبنا هَذَا القدر عن العلم الجغرافِي (الحبشة) .

أدوليس :

فرضة عَلَى البحر فِي ناحية ما بين مصوع وحلايب فِي الزمان القديم ونجدها فِي الخرائط القديمة أحيانًا أقرب إِلَى موضع مصوع وأحيانًا أقرب إِلَى موضع سواكن ، وهي من فرضات الفراعنة القدماء .

قال الشّاعر وهو طرفة بن العبد :

عَدَوْلِيَّـةٍ أو مِـنْ سَـفِينِ ابـنِ يـامِنٍ يَجُـورُ بهـا المَـلاّحُ طَـوْراً وَيَهْتَـدي

وعند الشراح أن العدولية هي السفنيّة العظيمة . وبذلك فسروا هَذَا الحرف فِي شعر أبي دؤاد .

وعندي أن عدولية هنا منسوبة إِلى عدولة وهي أدوليس بالنطق العجمي من طريق البطالسة أو نحوهم من الروم أو الإفرنج .

وهذا الحدس مما يرجحه قول «ابن يامن» فدل عَلى أنها سفن تمخر فِي البحر متاجرة ببضائع ابن يامن هَذَا وملاحيه ، وابن بلا ريب «بنيامين» فهو تاجر يهودي . وهذا الاسم عينه ذكره امرؤ القيس حيث قَالَ يذكر تمرًا وبساتين بناحية المشقر :

حَمَتْـهُ بَنـو الرَبـداءِ مِـن آلِ يـامِنٍ بِأَسـيافِهَا حَتّـى أَقَـرَّ وَأَوقَـرا

فذكر آل يامن كما ترى . وقوله بنو الربداء يوقف عنده ـ قَالَ الآخر :

أَسَـدٌ عَـلَيَّ وَفِي الحُـروبِ نَعامَـةٌ رَبـداءُ تنفـر مِـن صَـفيرِ الصـافِرِ

ولون الربدة يضرب إِلى السواد .

قالوا وكان بنو عامر يغلب عليهم لون السواد ومنهم أربد الَّذي أصابته الصاعقة وهو أخو لبيد الشّاعر لأمه ، فهل كَانَ هَذَا لقباله ؟

وإن كَانَ بنو يامن الذين ذكرهم طرفة وامرؤ القيس يهودا سودا فهل هم من الفلاشة أي اليهود السود ؟

ويقال إن هؤلاء من نسل سيدنا موسى لأن سيدنا موسى كانت لَهُ زوجة إثيوبية كما فِي سفر السدد من التوراة ، فهل أخطأ الشاعران فنسبا بني موسى عليه السلام إِلى بنيامين عليه السلام ؟ والله أعلم .

علوة :

ذكرت الدكتورة الأديبة العالمة[1] فِي تحقيقها لرسالة الغفران عند قول المعري فِي سِينيَّتِه

---

(١) المعنيّة بذلك هي الأستاذة الدّكتورة عائشة عبد الرحمن ، المشهورة ببنت الشاطئ . (حسن) .

الَّتي أوردها عَلى لسان الجن :

تحملنا فِي الجنح خيلٌ لها أجنحةٌ، ليست كخيل الأنيس

تقطع من علوة فِي ليلها إلى قرى شاسٍ بسيرٍ هميس

أنها لم تجد علوة فِي المراجع .

وهذا عجب ، فعلوة اسم معروف فِي تأريخ الحبشة القديم أنها اسم للإقليم الَّذي عاصمته «سوبا» أو «سبا» كما ينطقها بعضهم ، وقد انقسمت دولة البجراوية القديمة إِلى طائفتين إحداهما عاصمتها دنقلة العجوز شمالي الشلال الرّابع وتسمى «المقرة» ويختلفون فِي نطقها فيقال المَقَرَّة والمُقْرَة وعندي أن الوجه الثّاني أرجح لأن كلمة المُقر مستعملة إِلى الآن ويُعْنى بها مكان تجمع الماء وهو حق الزراعة ، وأحسب أن جزيرة مقرات اشتقاق معناها من هَذَا . لأن الماء حولها كالحوض ، وأصل الكلمة عربي أو مشترك بين البجراوي القديم والكوشي والعربيّ ، وقال امرؤ القيس .

فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُها لِما نَسَجَتها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ

وقال أبو تمام :

وَلَو كانَ يَفنى الشِعرُ أَفناهُ ما قَرَت حِياضُكَ مِنهُ فِي العُصورِ الذَواهِبِ

هذا والطائفة الأخرى عاصمتها سوبا وهي مملكة علوة ولعلها سميت بهذا لوقوعها فِي أعالٍ من حوض النيل وأحسب المعري يشير إِلى شيء من هَذَا فِي قوله :

وما قامَ فِي عُليا زُغاوَة مُنذِرٌ فما بالُ سُحْمٍ يَنتَجينَ إِلى بُقْع

وهو بهذا ينكر أن يكون قد قام فِي الحبشة نبيٌّ ، ردًّا بذلك عَلى من قَالَ بنبوة لقمان الحكيم وقد قيل إنه حبشي وزعم بعض المفكرين أنه كَانَ عبدًا لداود عليه السلام واحتج ابن كثير بأن العبودية تمنع أن يكون نبيًّا وغفل عن أن يوسف عليه السلام وهو نبي ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف : ١٢] والله أعلم .

سوبا – سبا :

موضع بالسودان بالقرب من الخرطوم – هل لَهُ صلة بسبأ الأقدمين ، إن يك ذلك فلعل هَذِه الكتابة الَّتي أعيت قراءتها علماء الآثار عَلى برابي أهل البجراوية .

وملوكهم القدماء من أصل سابق للسبئية ومنه اشتق الخط المسماري .

وفِي الكتاب المقدس «شيبا» وفِي ناحية البركل موضع يقال لَهُ «شيبا» ومن أسماء الكتاب المقدس «بت شيبا» وهي الَّتي يزعمون أنه رآها نبي الله داود ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٤] كما فِي سورة «ص» لا كما يزعمون من أنه تابع فيها هواه فهو نبي معصوم وهذا عندنا من التحريف الفاسد كما لا يخفى . وهل وقع خلط عند رواة الكتاب المقدس بين «بت شيبا» هَذِه وبين بلقيس فهي بنت سبأ ؟ وهل وقع خلط عندهم بين سليمان وداود فجعلوا بزعمهم أن سليمان عليه السلام ابن «بت شيبا» وما كانت إلا زوجته إن استفيد هَذَا المعنى من قولها : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ [النمل : ٤٤] ومن الَّذي يذكره المفسرون من أمر شعر ساقيها واستعمالها النورة لإزالته ـ الله أعلم .

وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

ب – خواطر عن أسماء بعض الأماكن فِي بلدنا [(١)]

فيما يلى طائفة من أسماء البلاد والأمكنة فى بلدنا أوجزت الحديث عن كل منها :

حلفا ويقال أيضا وادى حلفا:

هَذِه البلدة فى أقصى شمال السودان. الاسم عربى مأخوذ من اسم الحلفاء أو الحلفا (مقصورة) والحلفاء نوع من الكلأ معروف . وعيب عَلى عتبة بن ربيعة سيد بني عبد شمس فى ملأ من قريش أنه ردّ عَلى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه حين قَالَ فى يوم بدر (أنا أسد الله) بقوله (أنا أسد الحلفاء) . وإنّما أراد عتبة أن يصرّ عَلى كفره ويقول لحمزة أنا أسد وكفى ، أنا أسد مخوف كهذه الأسود المفترسة المتربصة فى الحلفاء . فالعبارة لمن تأمّلها ليست ضعيفة حقًا من حيث اللّغة والبيان ، ولكنها عبارة كافر مصرّ عَلى كفره ، ليس إلاّ . وكأنه يقول لحمزة دعني من قولك أنا أسد الله وهلم للقتال .

هَذَا ومدينة حلفا القديمة قد غمرها النيل بعد اكتمال بناء السد العالى . وقد كانت فُرْضة تبحر منها الباخرة النيلية الجميلة إِلى أسوان فى واد جميل تشرف غابات النخيل عَلى النيل من ضفتيه . وكان بإزاء مدينة حلفا عَلى الشاطئ الأيسر أثر فرعونى قديم فى موضع يسمّى (بوهين) . والأثر حصن ضخم من اللبن أحسب أن بناءه كَانَ فى عهد الدولة الحديثة عَلى زمان رمسيس أو بعده بقليل . وأحسب أن " شوقى " رحمه الله لم يصب حقا حيث قَالَ :

وتــاج مـــن فرائـــده ابـــن ســـيتى ومـــن خرزاتـــه خـــوفو ومينـــا

فإنّه قد يكون ابن سيتي فريدا ، ولكن لا يمكن أن يقال عن " خوفو " باني الهرم الأكبر ولا عن " مينا " مؤسس دولة مصر القديمة إنّهما خرزتان بالنسبة إليه . بل هو وإن

(١) المجلة ، جـ ٨٣ ، ص ٩ . (حسن) .

يك من الفرائد ليس فى تاج مصر القديم بالنسبة إليهما إلاّ خرزة عَلى ما كَانَ من اتساع فتوحه . فمعاوية بن أبى سفيان مثلا ليس بخرزة فى تاج الملك الأموى بالنسبة إلى الوليد ابن عبد الملك .

وقد زرت حصن (بوهين) فى سنة ١٩٦٠م . ثمّ إنى زرت من بعدُ فى سنة ١٩٦١م مدينة القيروان ورأيت مسجدها وبعض آثارها القديمة . وقلت من كلمة نظمتها ونشرت من بعد فى ديوان لى :

وفى القـــيروان الطلـــول النواطـــــق أطـــلال بـــوهين لا تنطـــق

فأخذ أحد مواطنىّ الفضلاء علىّ وقال يلومنى بكلمات فرنسية وكان يحسنها ولا أحسنها : لماذا الموازنة ؟ قلت لَهُ بالعربيّة إن الشّعر قل أن يحسن صاحبه تفسيره ونقده ، ومن أجل ذلك قَالَ أبو الطّيّب وهو سيد الشّعراء :

أَنَــامُ مِــلءَ جُفُــونى عَــنْ شَــوَارِدِها وَيَسْــهَرُ الخَلْــقُ جَرَاهَــا وَيَخْتَصِــمُ

ولا أريد أن أشبه نفسى بأبى الطّيّب وإنما أريد أن أحتمى به . ولا ريب أن أطلال " بوهين " الآن لا تنطق لأن الماء غامرها. وقد تعلم- أصلحك الله - أن الطلول مهما تكن ظاهرة غير مغمورة فإنها لا تنطق ولذلك قَالَ لبيد :

فوقفــت أســألها وكيــف ســؤالنا صــمّا خوالــد مــا يبــين كلامهــا

أم تنطق ؟

أليس عنترة يقول :

أعيــاك رســم الــدار لم يــتكلم حتّــى تكلــم كالأصــمّ الأعجــم

دنقلا أو دمقلة أو دنقلة : (أى دنقلة القديمة ويقال لها العجوز) الميم والنون حرفان متقاربان وكثيرا ما يقع بينهما الإبدال وفى القاموس المحيط للفيروز أبادى أن دنقلة عاصمة بلاد النوبة وأنّ سيدنا بلالا أصله من ناحيتها . ولعله أخذ هَذَا من الجاحظ إذ

ذكر فى البيان أو الحيوان أن أصل سيدنا بلال من النوبة والصحيح أن سيدنا بلالا كَانَ من أهل مكّة وُلِدَ بها هو وأبوه واسمه بلال بن رباح وابن حمامة وهذه أسماء عربية ، وقد أشار إليها أبو العلاء المعرّى فى لزوميته :

أياديك عدت من أياديك صيحة بعثت بها ميت الكرى وهو نائم

هتفت فقال الناس أوس بن معير أو ابن رباح بالمحلّة قائم

ونعم أذين المعشر ابن حمامة إذا سجعت للذاكرين الحمائم

ولم أجد عند من يعرف لغة النوبة تفسيرا لاسم دنقلة . ويذكر أنها كانت فى الدهر القديم بلاد خيل . ويقال إن ملوك نينوى فى الزمان القديم كانت تعجبهم الخيل التى تجلب من دنقلة يباهون بها لقوّتها . وبلغنى أنّه فى دنقلا إلى الآن خيل جياد ، فلا يعلم أهى من خيلهم القديمة أم هى مما جاء به المماليك فى هربهم من محمّد عَلى باشا ، إن يك نجا منهم عدد فهرب ، فقد سمعت من ينكر قصة وثوب محمّد مراد بفرسه من القلعة يزعم أنّها خرافة . وفى صعيد مصر وفى السودان ممن ينتسب إليه أناس ، فتأمل .

والذى شاهدناه وعرفناه أن الحمير المجلوبة من دنقلة من جياد الحمير ، فارهة عالية ، تزيّن بالقصّ المزخرفة، حتى كأنّها لو بسطت ما عليها من جلد وشعر فافترشته لكان كما تكون الزُّربِيَّة الجميلة.

وياليت شعرى هل كانت (خيل بربرا) التى وصفها امرؤ القيس حميرا من هَذَا النوع الدنقلاوى الفاره ؟ قَالَ :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

فقلت لَهُ لا تبك عينك إنّما نحاول ملكا أو نموت ونعذرا

عَلَى كل مقصوص الذنابى معاود بريد السّرى بالليل من خيل بربرا

إذا زعته من جانبيه كليهما مشى الهيدبى فى دفّه ثمّ فرفرا

والعرب قلما تذكر الحمير (الأهلية) فى شعرها ، عَلى أن جلّ اعتمادها فى حواضرها

وفى اليمن والأحساء ومكّة ويثرب كَانَ عليهن . قَالَ الراجز يذكر بعض عمل الحُجَّاج ودفعهم من عرفة إِلى مزدلفة :

نحـــن دَفَعْنـــا عـــن أبي ســـيَّارَهْ   حتّـــى أجـــاز ســـالما حمـــاره

وقال النميرى حين سأله الحجّاج عن الأبيات التائية التى يذكر فيها زينب الثقفية :

ولما رأت ركـــب النمـــيرى أعرضـــت   وكـــن مـــن أن يلقينـــه حـــذرات

إنه ما كَانَ إلا عَلى حمار مَعَ صاحب لَهُ فذلك ركبه .

وقال الفرزدق :

ألا لعـــن الإلـــه بنـــى كليـــب   ذوى الحمـــرات والعمـــد القصـــار

وفى كتاب الله العزيز : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل : ٨] .

وفى تأريخ اليعقوبى أن الخيل العربيّة أصلها من خيول الجن ، عشرة منها عبرت البحر وخرجت من ساحل جدّة ، ثمَّ صارت من بعد إِلى أجياد أو إِلى حيث ألّفها جدّ العرب إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام . وللأستاذ الزميل العلامّة الشّيخ حمد الجاسر مقدّمة حسنة فى هَذَا الباب فى كتابه النفيس عن أنساب الخيل القديمة وقد أهدى إلىّ نسخة منه فى صحب زرنا منزله الكريم فى الرياض ، جزاه الله خير الجزاء .

وفى ابن الكلبى " أن خيل العرب التى أصلها من الجن طارت هاربة من سليمان لما طفق مسحا بالسوق والأعناق فصارت إِلى حرّة بنى سُليم . فهل كَانَ العُبَيْد من نسلها ؟ أعنى العبيد الذى قَالَ فيه العباس بن مرداس السلمى رضى الله عنه لمّا تألّف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقرع بن حابس وعيينة ابن حصن فأعطاه دونهم وكان هو وقومه قد أبلوا بلاء حسنًا يوم حنين :

أتجعـــل نهبـــى ونهـــب العبيـــ   ـــد بـــين عيـــينة والأقـــرع

ومـــا كَـــانَ حصـــن ولا حـــابس   يفـــوقان مـــرداس فى مجمـــع

وما كنت دون امرئ منها ومن تضع اليوم لا يرفع

والخيل التى ذكرها اليعقوبى ليست من خيل سليمان . وما أحسبها انبثقت من البحر ، أو قذف بها من أعماقه وكانت بسحرها العفريتى ساكنة فيها ، بل الراجح عندى إن صح خبرها - (وهو إن شاء الله صحيح أو أحسبه صحيحًا) أنها عبرت البحر عَلى سفينة جاءت من الساحل الغربى . ولعلها إنما كانت بضاعة جلبت من دنقلة القديمة العجوز عَلى النحو الذى كَانَ يُعْهد عَلى دهر ملوك نينوى الأولين وقد كَانَ منهم من غزا يثرب فى المائة الثامنة قبل الميلاد، وذلك زمان مقارب أو معاصر لزمان الأسرة الخامسة والعشرين من الأسر الفرعونية ، ويقال إن من أسباب مسير "بعنخى " أول فراعنة تلك الأسرة إِلى طيبة ما سمعه من أن ولاة طيبة لا يحسنون القيام عَلى الخيل وكان هو لها محبّا وعلى صونها غيورًا .

وأهلنا الجعليون وهم عرب ينتسبون إِلى سيد العباس بن عبد المطلب يقولون حين يتحدثون عن "دنقلة" (ضنقلة) بالضاد لا الدال . وأكثر ما تكون الضاد فى لسان الجعليين منقلبة عن الذال . من ذلك قولهم " الضّهب" أى "الذّهب" . ومنه قولهم ضهب يضهب أى ضلّ الطريق ، كأنّ الأصل فيه ذهب به يذهب به عَلى غير هدى . وصيغة "فِعِل" بالكسر فى فُعِل المبنى للمفعول مما ذكره سيبويه فى الكتاب .

ونقول فى عاميتنا ضِرِبْ أى ضُرِبَ وسِرِق أى سُرِقَ والمضارع يَضْرَبْ أى يُضْرَب ويَسْرَق أى يُسْرَق . وفى الأمثال عندنا : ال يَسْأَل ما بيَضْهَب ، وقد ينطقونها : ال يسعل ما بيضهب أيْ الذى يسأل لا يضلّ الطريق .

وقالت قينة الجعليين المغنية فى أغانى الدّلُّوكة (والدّلوكة طبل رنّان يستعمل فى الأعراس وأحسب اسمه من اسم ملكة فرعونية قديمة يقال لها دلّوكة) .

يوم الشوف بيشوف الشوف
ما حضر قسمة الخوف

ضـــــكر الفيــــــل النــــــاجع
قلبــــه أصـــــم خــــاتى الضِّـــلّ

أى يوم ينبغى أن يتبين المرء الأمور ببصر وبصيرة فإنه يفعل ذلك ، إنّه يشوف الأمور أى يراها بجلاء .

ولما قسّم الخوف بين الناس لم يحضر هو قسمته ولم يكن لَهُ منه نصيب . وهو كالفيل الذكر الذى فارق القطيع وانتجع الأجمات البعيدات فى صرامته وشجاعته وقلبه أصم مجتمع قد أخطأه كل ذلّ . ويقال إن فحل الفيلة إذا فارق القطيع فإنه يكون شديد التوحيش شجاعًا لا يطاق .

ونلاحظ هنا انقلاب الضاد عن الذال فى ضكر وضل أى ذكر وذلّ .

والأبيات من شعر قينة بطحانية والبطاحين فرع من بدو الجعليين .

وقال شاعر من الجمع وهم بدو آخرون من الجعليين :

عقيلــــة البكـــــار (أى الأبكـــــار)   لابســـــة الضّهـــــب تـــــلالّ

أى لابسة قرطا من الذّهب . تلالّ بتشديد اللام الأولى أى قرط كبير ، اشتقاقه من التليل وسمى تلالّا لأنه يظهر جمال التليل أى العنق . قَالَ أبو الطّيّب يصف الفرس العائم وهذا لعلّه من نسل خيل اليعقوبى البحرية :

تـــراه كـــأن المـــاء مـــرّ بجســـم   وأقبـــل رأس وحـــــده وتليـــــل

ويقال عند الجعليين ضنب فى ذنب وجضل فى جذل أى جذل الحطب وجضام فى الجذام والعياذ بالله منه ، وهلم جرا .

ونقول بعد: هل " ضنقلة " أصلها ذنقلة بالذال " ؟ وهذه مختصرة من قولهم "ذو أنقلة" ثمَّ سقطت الألف فصارت ذنقلة - وهذا كأنّه علم شبيه بصيغ بعض الأعلام اليمنية كقولهم ذو يزن وذو ظليم ، وذو كلاع ، وذو رعين ، وذو نواس ، وذو شناتر وهل

المعنى ذو النقلة أى الانتقال السفر أو ذو أنقلا -ذقلا- أى ذو الحافر ؟ وكأن اللفظ اللاتينى ungla بمعنى حافر مأخوذ من أصل كنعانى والكنعانية أخت العربيّة كما قَالَ صاحب القاموس المحيط . ويكون عَلى هَذَا معنى ذنقلة أى بلد الحافر أى بلد الخيل .

وهل أصل الخيل العراب من خيل ضنقلة - ذنقلة - دمقلة ؟ وهى كما قدمنا دنقلة القديمة العجوز لا الحديثة التى إنما هى حاضرة عصرية ؟

وهل جاء منها حصان عمرو بن معد يكرب الزبيدى الذى عابه الأمير الباهلى بأنّه هجين فقال عمرو : هجين عرف هجينا مثله ؟

مقرات

اسم جزيرة عن منحنى النيل فى ناحية أبى حمد إِلى شلال الحماب بعد أن اجتاز وادى الحمار ، متّجها جنوبا كأنه يريد أن يعود إِلى الأقاليم الاستوائية التى منها نبع فرعه الكبير المسمّى البحر الأبيض أو النيل الأبيض ، ولكنه بعد أن يصل قرية الدبّة يتّجه شمالا نحو شلال دنقلة أو كرمة التى تقع شمالى دنقلة الحديثة . من عجيب أمر شلالات النيل أنّها تعد عدا معكوسا لأن بواخر محمّد عَلى باشا بدأت سيرها من الشمال إِلى الجنوب معاكسة لسير تيار النيل ، فقيل لشلال أسوان الشّلال الأول وهكذا إِلى آخر شلالات النيل شمالى الخرطوم واسمه السّبلوقة أو السبلوقة بالقاف التى كالكاف ، وحرّفت بآخره إِلى كاف خالصة تحت تأثير النطق الإفرنجى . وقد سمعنا بعضهم يقول : (أنا ماشى كارتوم) أى إِلى الخرطوم يتفرنج بذلك . وسبلوقة أصلها من السّبل أى المطر ومن كسر السّين فكأنّه بدأ بها شبه ساكنة كعادة البداوة فى خطف الكلام ثمّ تخلص من السكون إِلى الكسر . وأحسب أن ابن جنّى قد أشار إِلى شىء من نحو هَذَا فى الخصائص . وأمّا (أوق) و (أيق) فللنسبة فى استعمال أهل النيل فى بلادنا . وعلّها نوبية وأقرب عندى أنها من نوع عربى الأصل ، وذلك أن أوق وأيق بالقاف وآنج كلها قريبة من ياء النسبة العربيّة . وقد تصير هَذِه جيها كما فى : البرنج أى البرنى فى قول الآخر :

خـــالى عويـــف وأبـــو علـــج المطعـــمان اللحـــم بالعشـــج

وبالغـــــداة فلـــــق الــــبرنج

وقد تقلب الياء جيما عَلى أية حال فى نسب وغيره كما فى قول الآخر :

رب العبــاد إن قبلــت حجــتج فــلا يــزال شــاحج يأتيــك بــج

وفى بدونا من يقول اليمل فى الجمل . وقد تقلب الجيم دالا كما فى الدحش أى الجحش.

وكأنهم قالوا سبلى فى الفصيح ثمَّ صاروا بها إلى سبلج سبلق سبلوق . والله أعلم وشلاّل السبلوقة هو الشّلال السّادس فى العدّ المعكوس ولشلالات النيل الستة أسماء ذكرنا منها شلال أسوان ، وهو الأول كما قدمنا وله بقية شمالى السّد العالى . والشلال الثانى جنوبى وادى حلفا الغريقة كأنما كَانَ من بعض أرجائها فى بلاد النوبة السفلى فى موضع يقال به " جمى " وباسمه كَانَ يسمّى الشلال . ولعلها كلمة نوبية الأصل ، ولعلها لا تخلو من نفس أصل عربى كأنه من اليم ، ويقال للماء فى الرمل الجمّام من جم الماء يجم ، وكان النيل تتقسمه صخور الشلال ورماله أيام التحاريق ، وهو الآن جميعه فى بحيرة السدّ تتلاطم فوق صخيراته الغريقة فى أعماقه أمواج عيلم جديد .

ومقرات التى جرّت إلى هَذَا الاستطراد لعل أصلها عربى وتكون عَلى هَذَا أختا للتى فى معلقة امرئ القيس حيث قَالَ :

فتوضـــح فـــالمقراة لم يعـــف رســـمها لمـــا نســـجتها مـــن جنـــوب وشَـــمْأل

وإنما سميت المقرات فى بيت امرئ القيس لاجتماع ماء الغيوث فيها. وقال الأعشى:

شــتّان مـــا يـــومى عَـــلى كورهـــا ويـــوم حيّـــان أخـــى جـــابر

أظـــل فى تيهـــاء مســـجورة وأنـــت بـــين القـــرون والعـــاصر

والقرو الحوض . وقد نأنس ههنا بقول حبيب :

ولـو كَـانَ يفنـى الشّـعر أفنـاه مـاقرت حياضـك منـه فى العصـور الـذّواهب
ولكنـه صـوب العقـول إذا انجلـت سـحائب منـه أعقبـت بسـحائب

وخبّرني مواطن من أهل مقرات أن معنى مقرات الحوض وذلك لأن النيل فى جانبها أو بعض جوانبها كحوض لما يحيط بها من الجنادل وما يتخللها منها . فالكلمة عَلى هَذَا عربية . وكثيرا ما تتحول الضمة إِلى كسرة أو العكس أو يلتقيان كقولنا فى العامية طُوال وكُبار وصُغار أى طِوال وكِبار وصِغار . وقد تعلم أيها القارئ الكريم أنهما قد تلتقيان فى الفصيح . وذكروا أن أبا الطّيّب كَانَ ينشد :

تريـدين لِقيـان المعـالى رخيصـة ولابـد دون الشـهد مـن ابـر النحـل

بكسر اللام من لقيان وقالوا إن ضمها أفصح أو هو المحفوظ . وقد كَانَ أبو الطّيّب من حفظة اللّغة ، وذكر أنه كَانَ يحفظ جمهرة ابن دريد عن ظهر قلب . ومن حفظ حجة عَلى من لم يحفظ .

الأُبَيِّض

بضم الهمزة وفتح الباء وكسر الياء المشدّدة تصغير الأبيض ، هكذا نُطْق المثقفين وكتب الجغرافية وما أشبه لها الآن . والنطق العامى الصحيح بهمزة موصولة ولام مكسورة كأنّها مشدّدة هكذا أَلِبيِّض .

الأبيّض كبرى مدن غرب السودان القريب ويقال لَهُ كردفان وأشهر عند الجعليين إِلى زمان قريب كردفال باللام وكان سفرهم إليها كثيرا من أجل التجارة والجلب ويقال للتاجر جلاّبى وللتجّار جلاّبة ثمّ صار يطلق هَذَا عَلى أهل النيل عند أهل غرب السودان. وكانوا إنما يرون منهم التجار ، ويعجبهم منظرهم وثيابهم . ويتوهّمون عندهم الغنى . وقالت مغنية " الدلوكة " :

شـدّوا لَـهُ فـوق ال يتـاتي منـاى ليـك تـاجر مـو زيّـاتي

أى عاصر لزيت السمسم . ال يتاتى أى البعير الجيد . يتاتى أى يخطو كالصغير الذى يعلّم المشى بعد أن كَانَ يحبو خطوة خطوة . ويقال لهذا النوع من تعليم الطفل المشى بعد الحبو بعاميتنا (التاتاى) أى التأتاء، والتأتأة فى الكلام معروفة . وقال مادح الرسول صلى الله عليه وسلم الحاج الماحى يذكر أمله أن يفوز فى الآخرة بحورية من الحور العين :

ألاعـــب فيهـــا بالتاتـــاى

وهي من قصيدة لَهُ مطلعها :

قوافـــل درّجـــن بيجـــاي طالبـــات الرســـول ملجـــاي

وديوانه رحمه الله تعالى مطبوع ومشروح .

والأعلام لا تعلل كما ذكر الخليل . ومع هَذَا لن يبرح الناس يطلبون لها التعليل ووجوه التأويل ، وتلك لهم شنشنة . وسمعت أن الأبيض أو قل ألبيّض سميت بذلك لأنها كانت أرض زراعة فى الخريف - أى موسم المطر - وكان لأحدهم حمار أبيض مربوط هناك ، فكان الناس يشيرون إِلى موضع عريشهم أو اجتماعهم أو مخيمهم أو تايتهم بالقرب من آريّه كقولهم عند ألبيّض أى عند الحمار الأبيض بالتصغير كما ذكرنا آنفا من طريقة نطقهم ، ثمَّ صار ذلك قرية ومدينة ، وقال المهاجرون لحرب جراب الفول الباشا الذى كَانَ يحكمها ثائرين عليه مَعَ المهدى :

الســـيد ايـــاه الســـيد المهـــدى أل فى الأبـــيض (البـــيض)

ثم نطق الإعلاميون العصريون كما قدمنا بالهمزة مضمومة وبالباء مفتوحة وضبط كذلك فى الخرائط .

الأبواب

يقال إن هَذَا هو الاسم التأريخى للمنطقة الواقعة جنوب نهر أتبرا إِلى شندى. ويرى بعضهم أنها تشير إِلى الطرابيل أى الأهرام بناحية البجراوية وهى نحو من ستة وأربعين

هرما وإلى القصور التى بناحية المصورات والنقعة شرقى النيل بين شندى وود بان النقا.

ولم أجد تفسيرا شافيا ، والمؤرخون يذكرون أن اسم الأبواب هكذا وجدوه وهو الاسم التأريخى لبلد الجعليين . وعندى أنه قد يكون هَذَا الاسم محرّفا من " أرباب " وهى كلمة تطلق عَلى سيد القوم وشيخ القبيلة . وأحسبها خليط من أصل عربى وأصل بجاوى . أمَّا الأصل العربى فهو رب وأمَّا الأصل البجاوى فهو (آب) وهى أداة جمع ونسبة . فبنو نافع يقال لهم نافعاب وبنو حسن حسناب . وهذا كقول العرب المغيرات فى بنى المغيرة والتويتات فى بنى تويت وكلاهما من قريش . وأرباب الجعليين أى سيدهم وملكهم والأرابيب الذين معه عسى أن يكونوا هم المرادين بهذا اللفظ ووقع فيه ما وقع فصير به إلى الأبواب ولا معنى لها إلاّ أن يكون معنيا بها القصور وهو بعيد وليس بالموضع قصور وإنّما أهرام وخرائب وكلمة الطرابيل المستعملة أقوى دلالة عليها .

الأضيّة

اسم بلدة تقع غربى الأبيض فى الطريق إلى الفاشر والكلمة عربية الأصل تصغير أضاة أى بحيرة ونطقها ألضيّة بهمزة وصل ولام مكسورة وضم الهمزة إعلامى حديث .

النّهود

بلدة أخرى فى الطريق إلى الفاشر عاصمة دارفور – والنّهود مرادفة فى المعنى من حيث هى لفظ عربى لقولهم النهوض – أى ينهد أو ينهض منها إلى النجعة والسفر . قَالَ أبو تمام:

لم يغـــز قومـــا ولم ينهـــد إلى بلـــد　　　إلا تقدمـــه جـــيش مـــن الرعـــب

أراد بلم ينهد لم ينهض وليست الدّال هنا منقلبة عن الضّاد ولكن نهد لغة فى نهض.

الحصيحيصة

وينطقونها الآن الحصاحيصة ولا أدرى من بدأ هَذَا النطق الذى لا معنى له. وفيها محطة للسكة الحديدية . فعلّ أحد الكتبة خيل إليه أن الإمالة بعد الصاد منقلبة عن ألف .

والكلمة مصغرة من حصحاصة أى حصاة. هَذَا وجه ، ووجه آخر بمعنى تمحص وتحقق وتدفق فى الأمر ونقول فى العامية فلان حصحاص وحصيحيص بالتصغير .

وردّ ذلك إِلى " حصحص الحق " ليس ببعيد. والحصيحيصة الآن مدينة كبيرة فيها تجارة ومال وهي فى منطقة غنية بالزراعة فى أرض الجزيرة عَلى الشاطئ الأيسر من النيل الأزرق عَلى بعد نحو أربعين ومئة كيلو متر من الخرطوم وفيها مصنع نسيج. وبالشاطئ الشرقى بالقرب منها غير بعيد مزرعة الجنيد ومصنع لقصب السكر أنشئ فى أيام الرئيس عبود رحمه الله وإِزاءها بالشاطئ الشرقى مدينة رفاعة، وأخذت اسمها من قبيلة رفاعة التى تمتد مراعيها شرقى النيل الأزرق إِلى قريب من أعاليه بعد سنار وفى أرض البطانة ، وهى الأرض الواسعة الواقعة بين الأتبراوى – أى نهر أتبرا ويقال الآن عطبرة ولا أدرى لماذا يقال ذلك – وفرعى النيل الأزرق الدندر والرهد – أمَّا الرهد فمعناها النهر ، والدندر أحسبها اسما صوتيا من صوت الأسد . قالت المغنية تمدح موسى ود جلي :

ادر يويــــة يـــوم رِكِـــبْ دَفَّـــر   طلـــع ظيتـــه شـــال بنـــات بربـــر
ولا بياكـــل المـــلاح أخـــدر   ولا بـــيشرب الخمـــر يســـكر

الادر هو الأسد وهذه حكاية صوته ويويه صوت الخائفين منه من زغاريد النساء للخوف . ظيته أى صيته . شال بنات بربر أى ذهب وارتفع من غرب البلاد حتى وصل بندر بربر فى شمالها . أخدر أى أخضر واللفظة بالدال فى الفصيح . قَالَ الشّاعر :

خدرايـــة فتخـــاء لبـــد ريشـــها   مـــن الطـــل يـــوم ذو أهاضـيب مـــاطر

ومن ذلك قولنا فى العامية " الطير الخدارى" .

وقد نظم الشّيخ بابكر بدرى رحمه الله أسماء مراكز مديرية النيل الأزرق ، وكانت عاصمتها فى أيام الحكم الثنائى – ومازالت – ودمدنى . قَالَ :

حصيحيصـــة ســـلم رفاعـــة قبلهـــا   وود مـــدنى الكرســـى مناقلهـــا الأدنـــى

سلم أى مركز المسلمية وهى قريبة من ودمدنى ورفاعة قبلها للقادم من الخرطوم والمناقل أدنى المراكز من ودمدنى .

الطين أو أبطين أى أبوطين

جزيرة بالقرب من مقرات والاسم عربى كما لا يخفى وقد وردت فى أغنية. فزعموا أن الشبان سمعوا هَذِه الأغنية ومعها ضربات الدلوكة و " سيرة " نساء عرس . و " السَّيرة " هى مسيرة من الشبان والشواب وأهل العرس وقد تكون فيها زينة من الخيل والحمير والإبل مَعَ المشاة . فخفوا ليشهدوا الفرح ويشاركوا فى سروره . وكان صوت الدفوف والدلاليك وأصوات الغناء قريبة رخيمة أخّاذة مطربة . ولكنهم لم يجدوا السيرة ولا شيئا يدلّ عليها . كانت فى الهواء . كانت حفل عرس للجن يتغنى مغنيهم هكذا :

يا الساكنين قبالة الطين (أب طين)

وقرنـــــك مرقـــــد الـــــوزين

كـــدي يـــا يـــم لـــل بتـــوق

العينـــــة ام ســـــحاب وبـــــروق

أى يا هؤلاء الساكنون بالقرب من أو بمقابلة جزيرة (أب طين) أو الطين . ما أجمل شعرك كأنّه فى طوله وغزارته العشب الناعم الذى يرقد عليه الأوز – كذلك يا أماه عجبا لهذه التى تتوق بعنق ووجه براق كالغيث الذى فيه سحاب وبروق .

هَذَا المقطع هو أول الأغنية التى أنشأها مغنى الجن وقد حرصت عَلى أن أحصل عليها كاملة وأنا فى سبيل ذلك إن شاء الله تعالى وله الحمد أولا وأخيرا وصلى الله عَلى سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم ..

المحور الرّابع عشر : إبداع الشّعر المجمعيّ

(٦٥١ ـ ٦٦٧)

أ – تحيّـةٌ لمجمـع اللّغـة العربيّـة وتهنئـةٌ بعيده الذّهبيّ .

ب – رثاء الدّكتور طه حسين .

جـ - رثاء العلاّمة محمود محمّد شاكر .

د – رثاء الدّكتور إبراهيم مدكور .

أ – تحيّةٌ لمجمع اللّغة العربيّة وتهنئةٌ بعيدة الذّهبيّ*(1)

مَضَى عَلى مجْمع الضَّا ... دِ نِصْفُ قَرنٍ فَحيُّوا

خمسون عامًا تَصرَّمْـ ... ـنَ وهْو بعْدُ صبيُّ

يَقُولُ إنِّي بَدأْتُ الْـ ... ـمَسِيرَ نِعْمَ الْمُضِيُّ

إنَّ التَّخَلُّفَ عارٌ ... إذَا الْعُقُولُ الْمَطِيُّ

خَمْسُونَ عَامًا تَصَرَّمْـ ... ـنَ سَيْرُهَا جُلْذِيُّ(2)

أَحْيَا الفصِيحَةَ فِيهَـ ... ـنَّ جُهْدُهُ الْمَرْضِي

وَقد أَطلَّ عَلى النِّيـ ... ـلِ عِيدُه الذَّهَبيُّ

وغَابَ عنه رجَالٌ ... ما الدَّمْعُ فِيهِمْ عَصِيُّ

وَلِلْمنَايَا سِهَامٌ ... تَرْمي وَنَحْنُ الرَّمِيُّ

كَانُوا نُجُومًا هُدَاةً ... إِذْ لَيْلُنَا نَابغيُّ

لَمَّا نَعَوْا لِي أَنِيسًا ... كَمْ حَزَّ ذَاكَ النَّعِيُّ

هَمَى عَلَيْهِمْ سَحَابٌ ... مِن رحمةٍ سَرْمديُّ(3)

***

بالضَّادِ تَعْتَزُّ مِصْرٌ ... وَشَعْبُهَا الْعَرَبِيُّ

ولَن يَزَالَ بِمِصْرٍ ... لِلضَّادِ حِزْبٌ وَفِيُّ

وَلِلْجُنْدِيِّ رُكْنٌ ... فِي أَرْضِ مِصْرَ قَوِيُّ

---

* ألقيت القصيدة في الجلسة الخامسة من الاحتفال بالعيد الخمسيني للمجمع.

(1) المجلة، جـ ٥٣، ص ٧٦. (حسن).

(2) الجلذِيُّ بضمّ الجيم وسكون اللّام أي: السّير الواثق المضطرد.

(3) الدّكتور إبراهيم أنيس عضو المجمع رحمه الله.

والنِّيل من جنَّةِ الْـ ـــ ـخُلْدِ ماؤُهُ الْكَوْثَرِيُّ

***

قد هيَّج الشِّعر هذَا الْـ ـــ ـلقاءُ وهو حريُّ

إذ هزَّ أعماقَ نَفْسِي ـــ مجالةُ الْفِكْرِيُّ

والشِّعرُ والْفِكْرُ صِنْوا ـــ نِ قَدْ قَضَى الطَّائِيُّ(١)

وصاحِبي من بني الجِنْ ـــ نَ مُسْلِمٌ سنِّيُّ

تَلَا بحرْفِ الْيزيد ـــ يّ ما روى الدُّوريُّ(٢)

والأَربعينَ حديثًا ـــ ومذْهبٌ مالِكِيُّ

وسالِكٌ بجُنَيْد ـــ وعقْدُهُ أَشْعريُّ

وفِي السياسةِ عِنْدِي ـــ طَرِيقُهُ مُرجِئِيُّ

وقد يُشَارِكُ فِي النَّقْـ ـــ ـدِ وهْو تَحلِيلِيُّ

ولم يغِبْ عنه فِي النَّقْـ ـــ ـدِ مذْهبٌ بِنيَيُّ(٣)

نِغْم الرَّئِيُّ وما ذُمْـ ـــ ـمَ فِي الْقَرِيضِ الرَّئِيُّ

***

قد أَحْسنَ ابن خَمِيسٍ ـــ وبهْجتُ الأَثَرِيُّ(٤)

وعاد مذْكُورَ رُوحٌ ـــ من الحماسِ فَتِيُّ

أَعانَ ذاكَ بيانٌ ـــ كأْسٌ وقَلْبٌ ذَكِيُّ

---

(١) الطّائيّ هو أبو تمّام وقال في الشّعر ولكنه صوب المقول، وقال: خذهما ابنة الفكر.

(٢) يحيى الزّبيديّ عن أبي عمرو بن العلاء أحد القرّاء السّبعة والدّوريّ أحد الرّواة عن الزّبيديّ وأهل لك. وفي الطّريقة الجنيد السّالك.

(٣) ولك أن تقول «مذهب منيويّ».

(٤) كان هذا أوّل بيت في القصيدة حركة في النّفس سماع قصيدتي عضويّ المجمع الأستاذ محمد بهجت الأثريّ والأستاذ عبد الله بن خميس ثمّ توالت الأبيات.

كما يقول ويشفي بقوله مهديّ
وما لخلّ العلائيّ نجل هارونَ سِيٌّ (١)
وكم أفاد علوماً تحقيقه العلميّ
والمجمعيّون كلٌّ بحانةٍ ألمعيّ
وآخذٌ بسبيلٍ بها يتمّ الرّقيّ
وفي ربوع المعالي لهم أثاثٌ وريّ

***

وابن خميس قوافيه جرسهنّ شجيّ
ثم المعاني الرّشيقات لفظهنّ سويّ
يشدّ لطف الحجازيّ أسره النّجديّ
رقيقه حضريٌّ وجزله بدويّ
والشّيخ من منبع الشّعر غارفٌ وغذيّ

***

وبهجةٌ أبهج القلب نسجه اليشكريّ (٢)
يمدّه النّفس الحرّ والفؤاد الجريّ
قد اطمأنّت قوافيه واتلأبّ الرّويّ
أمّا المعاني فقد شعّ نورهنّ السّنيّ
فأعجب النّاس صدقٌ فيها وقصدٌ جليّ
وحبّةٌ من مجيدٍ قصيده مرويّ
شيخٌ جهيرٌ منيرٌ موفّقٌ أريحيّ

---

(١) خل العلائيّ : إشارة إلى قول أبي العلاء في سقط الزّند (أهدى السلام إلى عبد السلام ...إلخ) والمراد الإشارة إلى اسم الأستاذ عبد السّلام هارون أمين المجمع .

(٢) اليشكريّ صاحب المعلّقة وقصيدة الأثرى همزية من الخفيف .

ومَـــا تشـــكّى الثمانيـــ	ـــنَ إذْ شَـــكَا المُـــزَنيُّ
فـــزاده اللهُ عُمـــرًا	يَـــزْدادُ وهْـــو هنِـــيُّ
مـــا انفـــكَّ يُعطِـــي العطـــاءَ الْـ	ـــكثير وهـــو السَّـــخِيُّ

***

ومِـــن أحَـــذِّ الأعَاريـــ	ـــضِ مُضَـــمَّرٌ رائِـــيُّ(١)
حيَّـــا بـــه مجمـــع الضَّـــا	دِ خَـــاطِرٌ رَافِـــديُّ
شِـــمنَا بـــه بـــارقَ الشِّعْـــ	ـــر لَاحَ منـــه حَبِـــيُّ
فَالسَّـــامَرَائِيُّ وَبـــلٌ	بـــهِ وَسَـــيلٌ أتيُّ(٢)
وفَـــوقَ حَـــزْن المعـــاني	رَوضٌ وَقَطْـــفٌ جَنِـــيُّ

***

فَقُـــل لمَـــن عنـــده الْـــوَزْ	نُ مَـــذهبٌ رَجْعِـــيُّ
دَع المُحَاكَـــاةَ واعلَـــم	أنَّ المحاكَـــاةَ عِـــيُّ
وسِـــنْخُهَا لـــو تَأمَّلْـــ	ـــت كُلُّـــهُ أجنَبِـــيُّ
إن اســـتُجيدَ لـــدى القَـــوْ	ـــومِ نَـــازريُّ
هُـــوَ الصَّـــدى ، وزْنُ ذَا الشِّعْـــ	ـــر طَيرُنَـــا المْحكِـــيُّ
الْـــوَزْنُ شَيءٌ أصِـــلٌ	وَعُمقـــهُ جِـــذْريُّ
والجَـــاحِظُ الْفَحـــلُ سَـــمَّا	هُ مُعجـــزًا يَـــا أُخَـــيُّ(٣)
لَـــيس كَشَيءٍ ســـمِعنَا	هُ قِيـــلَ تَفْعِـــيليُّ
مـــن قَبـــلُ حَاولنـــاهُ	إذ الشَّـــبَابُ غَـــويُّ
نَعُـــدُّهُ تجْدِيـــدًا	إذ الجَدِيـــدُ شَـــهيُّ
وكَـــانَ مِنَّـــا عَلَيـــهِ	تَـــوَفُّرٌ جِـــدِّيُّ

---

(١) الأحذّ : المضمر ، مجزوءٌ من بحر الكامل ، وبه جاءت قصيدة الدّكتور إبراهيم السّامِرّائي : وقافيتها راءٌ مضمومةٌ .

(٢) السّامرَائي هنا بتخفيف الرّاء ، المراد به الدّكتور إبراهيم السّامرائي ، عضو المجمع .

(٣) قال هذا الجاحظ في أوائل كتاب الحيوان .

ثُـــمَّ تَرَكْنَـــاهُ لمـــا اسْـــ ـــتَبانَ مِنْـــهُ الخَفِـــيُّ
إِذْ لم نَجِـــدْ فِيـــهِ رُوحَ الشِّـــ ـــعْر الَّـــذِي هُـــوَ حَـــيُّ
وصَـــحَّ حَقًّـــا لَـــدَيْنا فَرَاغُـــهُ الْفَنِّـــيُّ
وربَّ قَـــوْمٍ طَبَـــاهُمْ شِـــعارُهُ الْبَهْرَجِـــيُّ
إِنَّـــا رَفَضْـــنَاهُ ، إِنَّـــا أَبـــاهُ منَّـــا الأَبِيُّ

***

هـــاجَ الفُـــؤادَ خيـــالٌ وَافَى وَأَهْدَتْـــهُ مـــيُّ
حســـناءُها م فُـــؤادِي بهَـــا وشَرْخِـــي طَـــرِيُّ
إِنَّ الجزالـــةَ عِنْـــدِي هِـــيَ البيـــانُ النَّقِـــيُّ
وحبُّهـــا فِي فُـــؤادِي هـــو الهَـــوَى الْعُـــذْرِيُّ
فحيِّهـــا حِـــينَ حـــيَّ كَ وَشَـــيُّها الْعَبْقَـــرِيُّ

***

عبـــد الغَنِـــيِّ[1] وبالْفَضْـــ ـــلِ إِنَّـــهُ الغَنـــيُّ
أَشَـــادَ بِي فَجَـــزاهُ اللَّـــ ـــه الحَكِـــيم العَـــلِيُّ
خَـــيْرَ الجـــزاءِ وعنـــدي لـــه الثَّنَـــاءُ الزَّكِـــيُّ
ثُـــمَّ السَّـــلَامُ علَـــيْكم وكلكـــم بِي حَفِـــيُّ

***

(١) هو الأستاذ الشّاعر محمد عبد الغني حسن عضو المجمع وألقى كلمة عن شعراء المجمع .

ب - رثاء الدّكتور طه حسين [١]

ثوى الحبرُ طه لدى ربِّهِ … وخلّده الله في حزبِهِ
وكان لعمري عديم النّظير … ومَنْذا الَّذي كانَ من ضَرْبه !
وكان شُجاعًا وكان جريئًا … وكان ذكِيًّا وأعْظِمْ به
وأسلوبه يسحر القارئين … وَيخْلُص للمرءِ في لُبّه
شُغِفْنا به في زمان الصِّبا … وذُقْنا التّذوّق من عذبه
وقد كانَ فذًّا وجيلا بني … بما قرأ النّاس من كتبه
وكم قلَّد الناسُ أسلوبَه … ومنذا يَطُول إلى هضبه
وينساب مثل انسياباته … وينهلُّ مثل حَيا سُحْبه
وقد نال شِدّة أَسْرِ القديم … وكان الجديدُ إلى جَنْبه
ولا نَثْرَ أسلس من نثره … وسَهْلُ الكلام سوى صعبه
وبالعلم قد وَرِثَ الأنبياءَ … والفَنُّ كَانَ رحى قُطبه
وكان عَمِيقًا بإيمانه … وشاهِدُ ذلك في قَلْبه
وقد كَانَ حرًّا بتفكيره … ومتَّقدَ الحسِّ في خِصْبه
وكان الطّواغيت قد راعها … بثورته وسنا شُهْبِه
ولم يكن الزّيف من دهره … ولا مَلَقُ النَّاس من طِبّه
يشعّ عليك بإشراقه … مهيب الجلالة في قُربه
لطيف الدُّعابة حلو الحديـ … ـثِ ، وسَلْ في الخطابة عن خطبه
تدفُّقه وندى صَوْتِه … وإسماحِه وقُوى جَذْبِه
فصاحة سَحْبَان في سمته … وقسّ الإياديّ في ثوبه

(١) المجلة ، جـ ٣٥ ، ص ١٩٧ . (حسن) .

وأحيا لنا الجاحظَ العبقريَّ ... بإبداعه ومدى وثبه
ومثل المعرّيِّ لكنه ... أضاف إِلى الشرق من غربه
وراد لنا نهضةً لا نزا ... ل نسلك فيها عَلى دربه
عرفنا به الأدب الجاهليّ ... وصدق الرّواية من كِذْبه
وعلّمنا فَهْمَ نهج الجزا ... لة حتّى ثبتنا عَلى حبّه
قرأنا تصانيفه فاستَفذْنا ... بعبِّ السُّلافة من شربه
ونحن بها من تلاميذه ... وأيّ أُولي الفضل لم تَسْبِه
وقد كَانَ بَعْدُ شديد المرا ... س مُرَّ الشّكيمة فِي حربه
كذاك يكون الأديبُ الأصيـ ... ـلُ الَّذي طَلَبُ الحقّ من دأْبه
وقد زرت مصر رجاءَ اتصالٍ ... به وانتسابٍ إِلى رُحْبه
ونوَّه بي بين أهل الحجا ... أيجْزيه عنّي سوى ربّه ؟!
وعاداك قَوْمٌ بإحسانه ... إليك وراموا إِلى ثَلْبه
وقد كَانَ طه كثير الحياء ... رقيق العبارة فِي عتبه
ويُغْرِض إعراض حلم الكريـ ... ـم عمّن يريد إِلى سبّه
ويبسم حتى ضياء البصير ... ةِ تبصره العين من صوبه
وقد كَانَ ملتزما بالوفاءِ ... وحسن الثّناء عَلى صحبه
وكان حبيبًا إِلى شَعْبِه ... ويأوي الأديبُ إِلى شِعْبِه
وأحزنني الناس لّما نعوه ... إليَّ ومجدي من سيبه
يعيبونني حين أثنى عليّ ... بخير ، أفضلي من ذنبه ؟!
وإنّ دموعي هَذَا القريض ... ولست أُفَتِّرُ من سكبه
وأطربه حين أنشدته ... قريضي وهشّ إِلى ضربه
وقد قَالَ : إنّك أشعر مما ... تظنّ كثيرًا ولم أُنْبِه
وأثنى عليَّ الثناء الذي ... يموت عدوّي من غبّه

فــلا تــأسَ قلبــا عَــلى حاسِــدٍ يَعِيــبُ وذلــك مــن عَيْبــه

وحســـبك طـــه وإقبالـــه عليـــك وكـــان فتـــى عُزْبـــه

وفِي جَنَّـــةِ النّفـــر الصّالحيـــ ـــن مَضْـــجَعُ طـــه لـــدى ربّـــه

فجـــادت ثـــرى قـــبره رحمـــة وســـحّ رضـــا الله فِي تربـــه

عقيلـــةَ طـــه فـــلا تحْـــزَنِي فإنّـــكِ شـــاركتِ فِي كَسْـــبهِ

بِحُبِّـــك إِيّـــاهُ قـــد كَـــانَ طـــ ـــه مَـــعَ الفـــنِّ يـــأْمَنُ فِي سِرْبـــه

فـــذاكِ عـــزاءٌ، وكـــلُّ الـــوَرَى يَسُـــوقهمُ المَـــوْتُ فِي رَكْبِـــهِ

***

جـ - رثاء العلاّمة محمود محمّد شاكر (١)

جـاءَ بنـعـيٍ ثـمَّ عـزَّاني ... لـم يـدرِ كَـمْ أشـعلَ نـيراني

نـيران حُـزنٍ شـبّها نعْـيُهُ ... يـا صـاحِ مـا أعظـم أحـزاني

مازلـت مُـذْ مـات أخـي دمعتـي ... تُسـعِدني أبكـي لإخـواني

أبكـي لأحبـابي وأبـكي قـرا ... باتـي وأخـداني وأقـراني

أبكـي بأشـعاري وشـجوي كـما ... أبكـي بدمـعٍ لـي هتَّـان

ولُـذتُ بالصّـبر ، وذو الصّـبر قـد ... يُشـفى بتفـويضٍ وإذعـانِ

يأتيـك بالأخبـار مـن لم تـزوِّ ... ده محـبٌّ لـك أو شـاني

وقـد نعـى المذيـاعُ شـيخًا ولا ... شِبْـهَ لَـهُ مِـن انـسٍ أو جـانِ

نعـى أبـا فِـهْرٍ وزُلْـفَى وقـد ... نعلمـه مـنْ خـيرِ إنسـانِ

يـزورُه الطّـلابُ فِي منـزلٍ ... رحْـبٍ بنـورِ العلـم مُـزدانِ

مـأوى أولي الألبـاب فِي داره الـ ... جـوُد وفيهـا زادُ أذهـانِ

وأمُّ فهـرٍ كـمْ أعانـت عَـلى الـ ... بِـرِّ هـما فِي البِـرِّ صنـوانِ

أذكـر لمـا جئتُـه زائـرًا ... صـاحِبَ درديـري وحيَّانـي (٢)

كَـانَ كتـابٌ منـه قـد جـاءني ... يمـدحُ سـفِرًا لـي فأرضَـاني

---

* ألقيت هذه القصيدة في الجلسة السابعة يوم السبت ١٥ من ذي القعدة سنة ١٤١٨هـ الموافق ١٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٨ م .

(١) المجلةّ ، جـ ٨٧ ، ص ١٢٧ . (حسن) .

(٢) الأستاذ الدّرديريّ أحمد إسماعيل رحمه الله كان سفير السّودان بمصر حينا ومن قبل كان وكيلا لوزارة شئون السّودان بمصر وكان قانونيا فاضلًا من أوائل من تعلموا العلوم الجامعيّة من أبناء السّودان ، درس بجامعة ليدز في بريطانيا في بعثة للأمير عمر طوسون رحمه الله .

ووجهـــهُ أشـــرقَ فِي منـــزل — بالبشـــر فيـــه قـــد تـــلقَّاني
ســـجيَّةٌ مـــن حَســـبٍ لم يشُبْـــ — هَـــا بريـــاء أو بإدهـــانِ
قلـــتُ لِنـــاعيه ألا قـــد نعـــى — طَـــوْدًا ركيـــنًا مثـــل ثهـــلانِ
لم يتحَلْحَـــلْ حينـــما حُلْحِـــل الـــ — كَـــونُ ولـــم يخضـــعْ لطُغيـــانِ

***

عـــزيزُ نَفـــْسٍ ذو حِفـــاظٍ وذو — صَـــدْرٍ لكنـــز العلـــمِ خَـــزَّانِ
أبـــوه قـــد كَـــانَ امـــرًأ عالـــمًا — بمصـــرَ معـــروفًا وســـودانِ
أَســـَّس فينـــا معهـــدًا خـــيرَ تـــأْ — ســـيسٍ عَـــلى مذهـــبِ نُعـــمانِ
أقـــام فِي الخُرطـــومِ كليـــةً — كأنَّـــها صـــرْحُ ســـلَيْمانِ
بحـــجر الرّمـــل بَنـــوْها والآ — جـــرِّ وبالجـــصِّ وصَـــوَّانِ
فِي بلـــدٍ لم يَـــبْنِ فِي أرضـــه — مِـــن قبـــلُ غـــير الطّـــينِ مـــن بـــاني
سِـــوَى الطّرابيـــل الَّتـــي قـــرب شنـــ — دى فِي تـــلالِ بـــينَ كُثـــبانِ
ومـــرْخِ وادٍ ثَـــم آثـــار صهـــ — ـــر لحـــديدٍ عنـــد جـــزَّان (١)
قيـــل لنـــا شيَّـــدهَا معشـــرٌ — كانـــوا هنـــا غابـــرَ أزمـــانِ
وغـــيرَ قُبَّـــاتٍ بنـــاها لأشـــ — يـــاخٍ لهـــم أصنـــافُ حـــيرَانِ
قـــد أعتـــق الإســـلام أعنـــاقَنَا — مـــن أَسْـــرِ أوثان ورهبـــانِ
وجـــاءنا صـــوفيّة مكَّنـــوا الـــ — ديـــن بإيمـــانٍ وإحســـانِ
وقـــد بنـــى شـــيخُ بنـــي شـــاكرٍ — محمَّـــدٌ أمتَـــنَ بُنيـــانِ (٢)
أَعَـــدَّ للقـــاضي فيقـــضي بهـــا — لائِحـــةً أعْـــدَلَ ميـــزانِ

---

(١) المرخ : هو الشّجرة التي يستخرج منها النّار ، وكان للمرويّين معامل بناحية جبال المحميّة وغيرها لصهر الحديد .

(٢) هو والد الشّيخ محمود محمد شاكر كان أوّل قاض للقضاة بالسّودان وأسّس قسم القضاء الشّرعيّ بالكلية ووضع لائحة القضاء على المشهور من مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه .

و العــــلمُ فِي آلِ بنـــي شـــاكرٍ قـــام عَــلى أثبــتِ أركـــانِ
هـــم شـــرُفاءُ وحسَيـــنيَّة مِثلهُـــمُ لَمْ تَـــرَ عَينـــانِ
محُـــدِّثُون بأســـانيدِهم وراســـخو تأويـــل قـــرُآنِ
وقـــد تـــلا هـــارون قـــرَّاءةٌ شـــيخانِ فِي الظلـــمة نجـــمانِ
ثـــم الـــمراغِيُّ ومَـــنْ بَعـــدَهُ قضـــاةُ شـــرْعٍ أَهْـــل عـــرْفَانِ
والشـــيخُ محُيـــي الـــدين مُـــذْ جاءَنـــا مـــا فَضْـــلَهُ دَهـــري أنْســـاني
سَـــمِيُّ جـــار الله مـــن بعـــدِهم عـــالِمُ وادي النيـــلِ ذو الشـــانِ

***

بقيـــةٌ مـــن سَـــلَفٍ صـــالحٍ لـــم يـــكُ فِي الديـــنِ بوَهـــنْانِ
أنفـــاس جـــار الله فِي كتبـــهِ بالنَّفـــسِ السَّاخِـــنِ تَغْشَـــانِي
مُذاكشـــرُ حَـــبْرٌ أخـــو خِبـــرةٍ فـــردًا بهـــا ليـــس لَـــهُ ثـــاني
أتْبـــعَ تفســـيرَ أبي جعفـــرٍ تعليـــقَ تحقيـــقٍ وإتقـــانِ
لـــو أَنَّـــهُ أكملَـــه لاكْتـــفى بـــهِ إِذَنْ عـــن غيـــرِه الغـــاني
يَنْـــمِي الأحـــاديثَ إِلى أصـــلِهَا عنـــد مدينـــيٍّ وشَيبـــاني[1]
يرجـــع بالشّـــعر إِلى مَـــنْ روا ه بـــين قيســـيٍّ وقَحْطَانـــي
وكـــان بـــحَّاثًا بعيـــد المـــدى صاحـــبَ تنظيـــرٍ وبُـــرهانِ
مُشـــتمِل النَّفـــسِ عَـــلى قُـــوّةٍ كأنهـــا ثـــورةُ بُركـــانِ
ذو أســـهُمٍ مثـــل أخـــي الخضـــير يـــرميهنَّ عـــن كبـــداءَ مِـــرنانِ[2]

(١) إشارة إلى علي بن المدينيّ وأحمد بن حنبل الإمام رضي الله عنهما .

(٢) أخو الخضر هو عامر الخضريّ الرّامي يقول فيه الشّماخ :

قليـــل الـــتلاد غـــير قـــوس وأســـهم كـــأن الـــذي يرمـــي مـــن الـــوحش تـــارز

وفيه الزّائية الّتي للشّماخ وعلق عليها الشّيخ محمود رحمه الله بقوسه . العذراء والكبداء القوس . والمرنان التي لها رنة حين الرّمي عنها .

وشُهُب يقذِفُها عن سما ءِ الحقّ تُردِي كلَّ شيْطَانِ

فنسألُ الله لَهُ منزل البرّ روضات فِي جنّاتِ رضوانِ

يُجزَى جزاءَ الضِّعْفِ عن حُسْنِ ما أسدى بعفوٍ وبغفرانِ

وبركاتٍ فِي ذويه مَعَ الأجـر الَّذي من غيرِ نُقْصانِ

والحمدُ لله عَلى ما حبانَا نِعَماً كَيلاً بِرُجْحَانِ

ثُمَّ صلاةٌ لنبي الهدى المخْتَارِ من صفوةِ عدنانِ

تُتْلَى بتسليمٍ عَلى آلِهِ والصَّحْبِ مَاكرَّ الجديدانِ

***

د - رثاء الدّكتور إبراهيم مدكور [1]

نَعَتْ كبيرًا شهيرًا غيرَ مغمورِ ... رسالةٌ ضُمِّنَتْ منعًى لمدكور

مَنْ كانَ مجمعُ كلِّ الخالدين يُرَى ... مِنْ عهدِ لطفِي لَهُ ربَّان تسييرِ

وقد تولّى مقاليدَ الأمورِ بهِ ... مِنْ بعد طه أخا جد وتشميرِ

وكانَ فِي جلسةِ الأعضاءِ يرأسُها ... بذي حضورٍ وإشرافٍ وتأثيرِ

وكانَ وهو كبيرُ السّن ذا دأبٍ ... وما ونى قط فِي حزمٍ وتدبيرِ

وماتَ فِي أوّل التّسعين جاوزها أو ... كاد ما مُس فِي عقل بتغييرِ

وكلُّ نفسٍ لهذا الموتِ ذائقةٌ ... فلا يَغُرَّن شيخًا طولُ تعمير

نعى أبا المجمعِ النّاعي مآثرُهُ ... طوعُ اليراعِ فَحَبّر كل تحبير

ذي الدّارُ شيَّدَها إنجازُ مدكورِ ... منْ بعدِ لأي إعارات وتأجيرِ

حتّى كأنَّ ولاةَ الأمرِ قد غفلوا ... عنّا وحتّى عُددنا فِي الأساطيرِ

هذا كذاك اتحادًا للمجامع قد ... أرسى قواعد سعي فيه مشكور

وقد خطا عملُ التّعريب عدة ... خطواتٍ ذواتِ التزام بالمعاييرِ

من بينها مثلا توحيد مصطلح ... بين المجامع فِي متنٍ وتفسيرِ

والمعجمانِ وسيطٌ والوجيزُ معًا قد ... زيّنا صُحْبَةَ المِصبَاحِ فِي الدُّورِ

ومعجم المجمع السّفرُ الكبيرُ عسى ... يتم نقص لسان لابن منظورِ

عُيِّنْتُ عُضوًا وعُمري أربعون فقد ... شاهدتُ جيلًا من الغُرِّ المغاويرِ

أهل البصائر فِي بحثٍ ومعرفةٍ ... بكلِّ كنزٍ من الآثار مذخورِ

وكان لطفِي رئيسًا ثمَّ نائبهُ ... طه العميدُ فما يَعْيَا بتعبيرِ

---

(١) المجلة ، جـ ٨٣، ص ٢٢٢. (حسن) .

وكـانَ هَـدكَ مِـنْ شـيخ ورشّـحني ... ترشـيح ودّ وإعجـابِ وتقـدير
وذاك فضـل مـن المـولى ظفـرتُ بـه ... مـن نابـه عبقـري السّـبق محضـير
وكـانَ فِي المجمـع النّجـار فِي نفـرٍ ... مـن قـادةِ الفكـرِ أهـلِ العلـمِ والنّـورِ
مـن كـلِّ ذي قـوةٍ حفظًـا وبـادرةً ... وكـلِّ فِي الضّـادِ حـذق وتنظـير[١]
مِـن هـؤلا كـانَ عـزَّامُ وكـان لـه ... مدى من الفضل رَحْبُ غير محصور
وكـانَ تـرجَمَ إقبـالًا وحقّـقَ شـعْرَ ... ابـنِ الحُسـينِ بضـبطٍ منـهُ موفـورِ
وكـانَ عبـاسُ العقـادُ نعلمـهُ ... بحـرًا وفـارسَ منظـومٍ ومنثـورِ
وناقـدًا نافـذًا فـذًا وذا قـدمٍ ... فِي كـلّ فـنّ وتحصـيل وتفكـير
ثـم الشّـبيبي بحـاثُ أخـو قِطَـعٍ ... مـن القـريض لهـا إيقـاع مزمـور
وأحمـد حسـن الزّيـات بيـنهم ... والتّونسـيّان حسـني وابـنُ عاشـورِ
والمغـربيُّ ابـنُ كنـون وطائفـةٌ ... مـن الفحـولِ الألبّـاءِ النّحـاريرِ
فـيهم عزيـزُ أباظـا كـانَ يُنشـدُنا ... شـعرًا عزيـزًا بصـوتٍ منـه مجهـورِ
عـلى عـروضِ الفراهيـديِّ يصـنعهُ ... جـزلًا ومـا فيـه مـن بيـتٍ بمكسـورِ
ولا حداثـةُ تفعيـلِ ألمَّ بهـا ... خَـوْفَ الخَبـاثِ الحـديثين المنـاكيرِ
وقـل أمثـالهم أهـلُ البيـان همـو ... أهـلُ الفصـاحةِ قـولًا غـير ذي زورِ
فِي النّيـل والشّـام الـزّوراء والـيمن ... الخضراء والطّـود مـن لبنـان والطّـور
والشّرقِ والمغـربِ الأقصى وفِي بلـدِ ... السّـودانِ فـورٍ وفـوتٍ ثـمَّ تكـرورِ
لقـد بكيـتُ بـدمعٍ غـير مـترورِ ... علـيهم سـادتي أربـاب تنـويري
ويشـمل الله مـدكورًا بمرحمـة ... لـه وعفـوٍ لـذنبٍ منـهُ مغفـورِ
ويجعـل الخُلـدَ فِي الفـردوسِ مسـكنَهُ ... دارَ المُقامـة رزقًـا غـير محظـورِ

---

(١) هنا فَصْلُ بين المتضايفين أي كلّ ذي حذق في الضّاد. وهو فصيح .

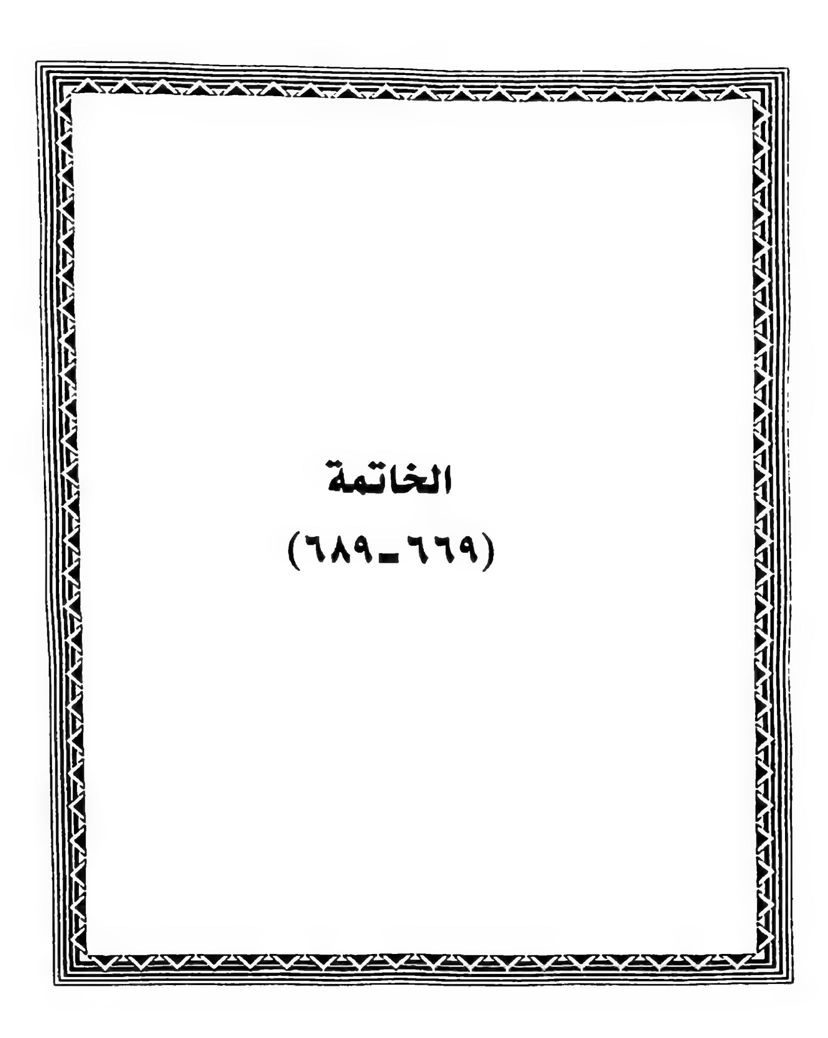
ومـــن فقــدناهم فـــالله يشـــملُهُم ... بنعمــةٍ حــين تغشــى نفخــةُ الصُّــورِ

نعــوذُ بـــالله مـــنْ شرِّ المحـــاذيرِ ... ونســـألُ الله تيســيرَ المعاســيرِ

وقلـتُ للـنَّفْسِ أَمِّـي البيـتَ واعتمـري ... وفِي المدينــة قــبرَ المصــطفى زُورِي

ثـمَّ الصَّـلاة عَـلى المُختـارِ ثـمَّ ... عــلى آلِ وصَــحْبٍ وتســليمٍ بتكريــرِ

***



الخاتمة

(٦٦٩-٦٨٩)

الخاتمـــــة

ما تقرّر في هذه الخاتمة أساسه قراءتي الشّخصيّة للبحوث المستهدَفة ، وهي قراءةٌ خاصّةٌ ، وإنّي مسؤولٌ عنها بصورةٍ شخصيّةٍ . وقد قصدتُ أنْ ألخّص فكرة الأساس لكلّ بحثٍ من بحوث شيخنا بمجمع القاهرة ، وأنْ أرَكّز إضاءةً كاشفةً على الجديد في هذه البحوث ، ممّا أعتبره إضافةً ذات شأنٍ للفكر اللّغويّ والأدبيّ في اللّغة العربيّة .

وينبغي أن أشير هنا إلى أنّ الفائدة من هذه البحوث لا تتأتّى لطالبها إلّا من قراءة البحوث نفسها وَفْق صياغة مؤلّفها ؛ فعبد الله الطّيّب ليس صاحب منهجٍ مفردٍ في البحث العلميّ ، ولكنّه صاحب منهجٍ مركّبٍ ؛ فكلُّ بحثٍ عنده له منهجه الخاصّ ، فكأنّه يحمل ثلّةً من المناهج يستخرج منها ما يشاء كيف يشاء . قد يبدأ البحث بفكرته الأساس ، وقد يبدؤه بعرض أمثلةٍ مؤيّدةٍ ، وقد يبدأُ بأمثلةٍ مناقضةٍ . وقد يستطرد في عرضه للموضوع حتّى أنّك تحسب أن موضوع الاستطراد هو الأساس ؛ وذلك كلّه من الحافظة المتوقّدة ، والعلم الرّكيز ، والثّقة البالغة بفهم القضايا المؤلِّفة لمنظومات البحوث ، والمعروضة وفق المحاور الموضوعيّة :

المحور الأول ـ فنّ الأدب .

أ ـ رمزيّة الشّوق والحنين .

الشّوق والحنين من أعمق المعاني الإنسانيّة ، وحياةُ الصّحراء أشدّ إيغالًا فيه من سائر أصناف الحياة البدويّة . ولذا جعله شعراء العرب أصلًا من أصول التّعبير . ومن رموز الشّوق والحنين ؛ رمزيّة المعاهد والدّيار ، فالدّار هي المأوى الخاصّ بالحبيبَيْن ، وأساس الرّمز للشّوق والحنين . وتأتي رمزيّة المرأة فرعًا عن رمزيّة الدّار ؛ فالدّار مأوى الحبّ الأوّل ، والحب المستقبليّ . وأقوى تصوّرات هذا الحب يتمثّل في الأمّ ، وفي الزّوجة .

ب ـ اللّون والجمال في الشّعر القديم .

قد استخدم الشّعر العربيّ القديم اللّون بشتّى ضروبه لاستهداف دلالاتٍ فنّيّةٍ تظهر وَفْق مختلف المواقف والأساليب . فقد يدلّ البياض على الضّياء والإشراق ، وقد يدلُّ على البيئة الجميلة السّعيدة الّتي يُنشر فيها النّور ، ويشاع فيها العطر . وقد يُرمَزُ بذلك لصفاء بشرة المحبوبة ، وتوهّج نفسها ، ورقّةِ طباعها ، وصِدْق شفافيّتها .

جـ ـ اللّيل والنّجوم.

في اللّيل المأوى والهدوء والسّكن ، وفيه الوحشة والرّعب والغوامض المجهولات . ومن أبرز ملازمات اللّيل : دليل السّاري ، وأمل الضّياء ، ومجمّلات الأنس والخلوة عند اللّقاء المنفرد بالأحباب .

ولعلّ خصائص اللّيل وخصائص النّجوم جعلتْ شعراء العربيّة من قديمٍ يلهجون بهما ، في ثُلّة أشعارٍ تمثّل المواقف المتعدّدة تجاههما ؛ فطرفة يُشَبّه أصحابه المنادمين ليلًا بالنّجوم للدّلالة على مكانة هؤلاء الصّحاب البيّنة الظّاهرة :

نداماي بيضٌ كالنّجوم وقينةٌ تروح علينا بين بردٍ ومجسد

د ـ الأثافي والرّماد والحمام .

الأثافي والرّماد من معالم الدّار ، والعرب قد ترحل من الدّار فتخلّف بعدها الأثافي والرّماد ؛ ولذا يأتي ذكرهما متّصلًا بالدّار ، وبصاحبة الدّار محبوبة الشّاعر . على أنّه ينبغي أن نفهم أنّ المصطلحَيْن متّصلان بصورةٍ رمزيّةٍ بالحمام والنّار ، فالنّار هي الّتي تخلّف الرّماد ، والحمام يأتي إلى آثار الدّيار أملًا أنْ يجد طعامًا في مخلّفات الرّاحلين . وهناك رمزٌ آخرُ يتّصل بالحمام ؛ فالعرب تقول للحمامة « وَرْقاء » وتعني أنّها ذات لونٍ رماديٍّ . ولعلّ مجمل ما ذكرنا يفسّر القرن في أشعارنا بين الأثافي والرّماد والحمام .

المحور الثّاني : فنّ الشّعر :

أ ـ تأمّلاتٌ في مقدّمات القصيد .

في المنهج الأساس للقصيدة العربيّة التّكنية بالصّفات ؛ يصفون المحبوبة ، وساعات

اللّقاء ، وذكريات اللّهو ، وما يجري هذا المجرى . والصّفات نماذج اتّفقوا عليها ، بعضها متعلّقٌ بمعاني الشّوق ، وبعضها متعلّقٌ بمعاني الجمال ، وبعضها متعلّقٌ بمعاني الوصل واللّهو واللّذة . والنّماج النّصّيّة في شعرنا القديم تغطّي سائر هذه الميادين وغيرها . والأمثلة المتكاثرة في أصل البحث بمنزلة التّمثيل والتّقريب كما يقول شيخنا . والدّافع لهؤلاء الشّعراء لإبداع نماذج مشتركةٍ أنّهم يلجأون إلى التّشابه في القول ؛ فإن تشابهوا أمنوا أن يُظَنُّوا بريبةٍ ؛ إذ لا يظنّ بريبةٍ من يقول ما يقوله سائر النّاس .

ب ـ بحثٌ عن طبيعة الشّعر العربيّ .

إنّ الذّوق العربيّ قد اكتفى في تعريف الشّعر بأن قال : « هو الكلام الموزون المقفّى » . وفي هذا الذّوق أنّ هذا التّعريف حدٌّ جامعٌ مانعٌ ، لا يدخل في دائرته إلّا الشّعر وَفْق تعريف العرب له ، وما عدا الشّعر خارجٌ عن هذه الدّائرة ، ولو كان مثل أشكال الشّعر الأفرنجيّ . فقد قال القاضي الفاضل :

فهذه الكتب المهداة

والسّحب المنشاة

فروعها المصنّفة ستّة أصناف

وأصلها

القرءان الكريم

وأجزاؤه المؤلّفة تسعة أصداف

وكلّها درّة اليتيم

ومع قول القاضي الفاضل لهذا الكلام المنسّق المشابه لشعر الفرنجة ؛ لم نعتمده إلّا مذهبًا من مذاهب النّثر العربيّ ؛ ذلك بأنّ الذّوق العربيّ لم يكن يرى إيقاع النّثر داخلًا في حيّز الشّعر مهما بلغ من درجات الإتقان والرّنين . والعرب بَنَتْ شعرها على عناصر أربعةٍ من النّغم . هيَ : الموازنة ، والسّجع ، والتّجنيس ، والوزن المقفّى . فثلاثة العناصر الأول

تمثّل مادّة ما قبل الشّعر ، والعنصر الرّابع هو الفاصل بين الشّعر وما قبل الشّعر ؛ بين المدخل والغرض المستهدَف .

إنّ القافية والوزن معًا هما مفتاح القصيدة ، وهما يشيعان فيها وفي موسيقاها الوحدة والارتباط . وإذا هما كذلك فإنّهما وثيقا الصّلة بالمعاني الّتي تدور في قلب الشّاعر وتنبعث من أعماق تجربته إلى محض البيان .

جـ ـ الأوصاف والكنايات في الشّعر العربيّ .

عدّ النّقّاد العرب إصابة الوصف من محاسن الشّعر ، وغير مصيب الوصف معيبٌ عندهم ، فقد عابوا قول امرئ القيس : « فللساق ألوبٌ وللسّوط درّةٌ » . والوصف أكثر ما يقع في الشّعر وسيلةٌ يعبّر به عن ألوانٍ من الانفعالات والعاطفة والوجدان . وقد وصفتْ العرب بيئتها ، ما كان منها من سهلٍ ورملٍ وقُفٍّ وجبالٍ ووديانٍ ورياضٍ وزروعٍ . وقد بلغ من إخلاص الشّعراء العرب للنّعت أنّهم اتّخذوا من الكلمة صورًا وتماثيل .

والعرب تصف الأشياء تكنّي بها عن نفسها ، وعمّا تحبّه وتحنّ إليه . وأكثر هذه الكنايات في شعر العربيّة القديم جاءتْ مع سبعة موصوفاتٍ ، هي : الثّور والبقرة ، والحمار الوحشيّ ، والظّليم ، والنّاقة ، والحصان ، والحديقة ، والحبيبة .

وأشعار ذي الرّمّة وأضرابه من الّذين عنوا بالأوصاف والكنايات ؛ لم تكن ـ عند شيخنا ـ إلّا متاحف لفظيّةً عرضوا فيها : ثيران القدماء ، وأبقارهم ، وحمرهم الوحشيّة ...

د ـ شعر المديح النّبويّ .

كان مدح الرّسول ﷺ إلى عهدٍ قريبٍ ذروة فنون أشعار العربيّة في الفصيحة والدّارجة . وقد كان معيبًا على الشّاعر المسلم الكبير ألّا يكون هذا الغرض في نتاجه الإبداعيّ . وقد عيب هذا الموقف على أبي الطّيّب ، واعتبر منقّصًا له في ميزان النّقد والتّقويم .

وقد ساءتْ غفلةٌ من دارسي الأدب العربيّ وتاريخه ؛ فأُهمل عندهم درْس شعر المديح

النّبويّ . وخطأً سمّوْا الفترة الّتي ازدهر فيها المديح ؛ من أواخر أيّام بني العبّاس إلى دول الطّوائف والممالك ، سمّوْها بعصر الانحطاط . وهي من أزهر فترات الثّقافة العربيّة شعرًا ونثرًا ودراساتٍ . فيها : ابن حجر ، والسّيوطيّ ، وابن خلدون ، وكبار شعراء المديح النّبويّ .

هـ . مَعَ المرزوقيّ في عمود الشّعر .

قضيّة عمود الشّعر عند عبد الله الطّيّب لم تكن اصطلاحًا ؛ إذْ لو كانت اصطلاحًا لكان النّقّاد أفردوا لها بابًا أو فصلًا . وفَهْمُ عمود الشّعر عند شيخنا قِوامه . ويرى المرزوقيّ أنّ سبعة أبوابٍ هي عمود الشّعر ، منها : المقاربة في التّشبيه ، والتحام أجزاء النّظم ، ومشاكلة اللّفظ والمعنى . وسبعة أبوابِ العمود عند المرزوقيّ مرجعها إلى الجاحظ وابن قتيبة وقدامة . ولا يستبعد شيخنا أن يكون حديث « كوليردج » عن الإرادة والوجدان ينظر من قريبٍ إلى كلام المرزوقيّ عن التحام أجزاء النّظم على تخيّرٍ من لذيذ الوزن . فإنّ ترجمة حماسة أبي تمام سابقة « لكوليردج » ، وأهل الاستشراق على علمٍ بها .

المحور الثّالث : دراسة النّصوص الأدبيّة :

أ . شرح ديوان أراجيز رؤبة .

رؤبة بن العجّاج بن رؤبة أحد ثلاثة الرّجّاز الّذين انتخبوا لأشعارهم أوابد اللّغة وشواردها . ورؤبة يصعب إدراك متنه اللّغويّ ، ولا تتضح مدلولات اللّغة في أرجيزه إلّا للقليل من الدّارسين . منهم في القديم : أبو عبيدة ، وأبو عمرو بن العلاء . ومنهم في الحديث : عبد الله الطّيّب ، وعلي الجندي ، وبابكر البدوي دُشين (عليهم جميعًا رحمة الله).

ولا يظنّنّ ظانٌّ أنّه بالإمكان شرح أرجيز رؤبة بالرّجوع إلى المعاجم ؛ فإنّ بيتًا واحدًا من رؤبة قد يقتضي الرّجوع إلى المعاجم وإلى ثلّة نصوصٍ من القرءان والشّعر والخطابة والكتابة . ومع ذلك لا يتأتّى شرحُ بيتٍ واحدٍ إلّا بثقافةٍ لغويّةٍ أصيلةٍ ، وحافظةٍ لغويّةٍ

حاضرةٍ حضور ثقافة وحفظ عبد الله الطّيّب[١] :

« وخفن خَلْبًا من قُصالِ الخلّابِ عَبْلِ المداويس مُنيفِ الشِّنْخابْ

أيْ خفن قصًّا وحَشًّا من معاودة هذا الفحل الخلّاب ، أيْ الشّديد الفحولة لهنّ بمداويسه . ومِدْوَس بكسر الميم وهو ما يدوس به ، والشّنخابُ الرّأس هنا . قالوا شنخوب الجبل وشنخوبته رأسه ».

ب - بسطتْ رابعة الحبل لنا .

عنوان البحث من مطلع القصيدة المعنيّة بالدّراسة :

بَسَطَتْ رَابعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الحَبْلَ منْها ما اتَّسَعْ

وهي من الرّمل والقافية المقيّدة ، وسويد بن أبي كاهل اليشكريّ تميّز بلغةٍ فصيحةٍ انتقائيّةٍ في هذا النّصّ . وعبد الله الطّيّب تميّز بشرحٍ لغويٍّ متفرّدٍ شاملٍ لذات النّصّ . وأصل هذه القصيدة في ثمانيةٍ ومائة بيتٍ ، وهي من رواية الضّبيّ في المفضّليّات . وقد شرحها عبد الله الطّيّب ضمن خُطّةٍ لغويّةٍ أدبيّةٍ نقديّةٍ ، ضمّتْ اثنَيْ عشر فصلًا . الأوّل منها في المقدّمة النّسيبيّة ، والثّاني عشر في فخر سويد الشّخصيّ التّقريريّ :

هل سويدٌ غير ليثٍ خادرٍ تئدتْ أرضٌ عليه فانتجعْ

وعبد الله الطّيّب هنا دارسٌ ومحلّلٌ ومستنتجٌ وناقدٌ ؛ فقد ردّ قول المستسرق ليال الخاصّ بأنّ هذا النّصّ يشتمل على قصيدتَيْن ، بل هي قصيدةٌ واحدةٌ . وقد ثبّتَ تسميتها باليتيمة في الإسلام ، خلافًا للأصمعيّ الّذي ذكر أنّ تسميتها باليتيمة في الجاهليّة . وشرح عبد الله الطّيّب لليتيمة تميّز عن سائر الشّروح بالتّأصيل اللّغويّ ، والموازنات الأدبيّة ، والتّحليل والتّوضيح الشّامل ؛ فالشّرح هنا لم يترك جزئيّةً لم يُجلّها . وقد تفوّق شرح عبد الله الطّيّب لليتيمة على شرح أستاذي عبد السّلام هارون والعلّامة محمود محمد شاكر ؛ ولكنّه جاء تاليًا لشرحهما ، مستفيدًا منه .

---

(١) هذا الكتاب ، ص ٢٥٣ .

جـ - القصيدة المادحة .

فنّ المديح أصلٌ أساسٌ لأغراضٍ كثيرةٍ في الشّعر العربيّ ؛ فالحكمة تتخلّله ، والرّثاء والهجاء يتفرّعان منه ، ويأتيان تبعًا له . والنّسيب ثابتٌ في افتتاحيّة المديح في الشّعر العربيّ القديم .

وشعر المديح من أجدى وسائل الدّعوة للخير والفضائل ، وضدّه الهجاء التّابع له مثبّطٌ أصلٌ عن الرّذيلة ، ومواقف الضّعف المختلفة . والشّاعر المادح مخطّطٌ ماهرٌ يستهدف بخططه المتنوّعة توريط الممدوح في خصال الخير ، وقد صدق أبو تمّام في قوله :

ولولا خلالٌ سنّها الشّعر ما درى   بغاة النّدى من أين تُؤتى المكارِمُ

ولولا زهير بن أبي سُلمى ما كان هرم بن سنان ولا الحارث بن عوف . ولولا مدح الرّسول ﷺ ما كان كعب بن زهيرٍ ولا كانت خالدته المفتتحة :

بانت سعاد فقلبي اليومَ متبولُ   متيّمٌ إثرها لم يفد مكبولُ

د - الدّرعيّات .

الدّرعيّات إحدى وثلاثون كلمةً شعريّةً ، كلّها في وصف الدّرع ، أسماها المعرّي بنفسه « الدّرعيّات » ، وألحقها بديوانه المسمّى « سقط الزّند » . وأسلوب الدّرعيّات يشتمل على مقدّماتٍ نحو العناوين للقصائد . وهي مقدّماتٌ نهج فيها المعرّي نهج أبي الطّيّب . وهذا الأسلوب للدّرعيّات يمثّل تحفةً من تحف النّظم العربيّ في ألفاظه ومعانيه . وفترة الدّرعيات مهمّةٌ للغاية في معرفة تطوّر المعرّي الفنّي .

والدّرعيات ثروةٌ لغويّةٌ تاريخيّةٌ ، ضمّتْ جميع ما ذكره واصفو الدّرع ، من لدن أوس بن حجر إلى المتنبّي . وأسلوب الدّرعيّات أقرب إلى أسلوب « سقط الزّند » منها إلى أسلوب اللّزوميّات . والموازنة بينها وبين اللّزوميّات توضّح أنّ الدّرعيّات أكثر أناقةً ، وأدخل في فنّ البديع ، وأملأ بالحرارة ، وأحكم تخيّرًا للألفاظ الجزلة .

هـ ـ وصف جزيرة توتي .

وصَفَ التّجاني يوسف بشير جزيرة توتي وصفًا متميّزًا شاملًا للبيئة بكلّ مظاهرها . وقد بني العمل الأدبيّ الشّعريّ كلّه على ضربٍ من تسلسل المعاني واضح اللّغة ، مشرق البيان .

وقصيدة وصف جزيرة توتي من بحر المجتثّ ، والقافية المتواتر :

يا درّةً حَفَّها النّيـ ـلُ واحتواها الْبَرُّ

صحا الدّجى وتغشّا كِ في الأسرّة فجرُ

والبحث يعرض بنية تصميم القصيدة ، ويفصّل دقيق معانيها ، وينفي عن لغة النّصّ الغموض ، ويقرّر في هذا الصّدد : نقاء ألفاظ التّجاني ، وفصاحة عربيّتها ، وجودة تخيّرها، وخفاء ضروب جناسها الدّاخليّ ، ورنّات جرس ألفاظها الموسيقيّة .

المحور الرّابع : دراسة السّيرة الأدبيّة للأعلام :

أ ـ حوْل أبي الطّيّب .

أبو الطّيّب المتنبيّ يمثّل أكبر وثبةٍ في الشّعر العربيّ ، تأصيلًا وتجديدًا ، وإبداعًا للنّماذج المتفرّدة . وليس بعد زهيرٍ بن أبي سُلمى المزنيّ ، في فنّ المديح ، وفنّ الحكمة غير أبي الطّيّب.

وفي أساس صفاته وسماته الشّخصيّة الطّموح الأدبيّ ، والطّموح السّياسيّ . وثاني الطّموحَيْن قاده إلى قصور عليّ بن عبد الله ؛ أمير دولة بني حمدان بحلب ، وإلى قصور كافور الإخشيدي بمصر ، وإلى قصور عضد الدّولة البويهي بفارس . وذات الطّموح أدخله في معاركَ كثيرةٍ وكبيرةٍ من منافسيه وحسّاده . وذات الطّموح هو الّذي قاده لحتفه مقتولًا .

ب ـ العقّاد الشّاعر .

عبّاس محمود العقّاد ، شيخ العروبة وأديبها وشاعرها .

والعقّاد مع شوقي يمثّلان الوثبة البيانيّة الّتي وثبها البارودي بالشّعر العربي الحديث .

فهو صاحب ديباجةٍ جزلةٍ وأداءٍ لغويٍّ فصيحٍ ، ينطلق له من رصيدٍ كبيرٍ في التّأصيل اللّغويّ والبيانيّ .

ويلاحظ عبد الله الطّيّب أنّ ديباجة العقّاد في الأداء الشّعريّ دون ديباجة شوقي ، كما أنّ ديباجة شوقي دون ديباجة البارودي ؛ صانع الوثبة الأصل . ومن أشهر ما يتّصف به العقّاد الشّاعر اتّباعه مذاهب الفرنجة في أمر مصطلح وحدة القصيدة ، خاصّةً فيما يُسمّى شعر الحوادث اليوميّة الّذي سبقه به ووردزوورث . وديوانه «عابر سبيل» شاهد الصّدق على ذلك .

المحور الخامس : النّقد الأدبيّ القديم :

أ- مَعَ أبي تمّام النّاقد .

أبو تمّام عالمٌ بالشّعر ، نقّادةٌ له ، مشهورٌ بالتّمكّن من دراسة الشّعر ونقده ، مثلما هو مشهورٌ بإبداع نماذجه الرّفيعة . وقد شهد له بذلك حتّى أعداؤه المتحاملون عليه ، مثل الآمدي . ويلاحظ شيخنا أنّ تحامل الآمدي على أبي تمّام مثل تحامل ابن وكيع على أبي الطّيّب . وقد كان أبو تمّام قويّ الطّبع ، ذوّاقةً ، واسع الرّواية والحفظ . وله نظراتٌ خاصّةٌ فيما يتّصل بخصائص الشّعر :

* فكيف ولم يزل للشّعر ماءٌ يرفّ عليه ريحان القلوبِ
* إليكَ بعثتُ أبكار المعاني يليها سائقٌ عَجِلٌ وحادي

وكثيرًا ما يرد في شعره : «خذها مثقّفة القوافي» . « خذها ابنة الفكر المهذّب » . « خذها حذّاء » والحذّاء هي المحكمة السّيّارة في الآفاق ، بالغة الجودة . والمأخوذة هنا هي القصيدة الشّعريّة على منهج أبي تمّام في الإبداع ، وعلى منهجه في التّقويم النّقديّ .

ب- نقد الشّعر عند صاحب المثل السّائر .

تناول ابن الأثير في كتابه « المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر » عددًا من القضايا المتعلّقة بنقد الشّعر ، منها : ضرورة معرفة النّحو والصّرف واللّغة . ومنها : مسألة العمق

الشّعريّ الّذي لا يتوصّل إليه بشرح المعاني ومعرفة وجوه الإعراب ؛ ولكن بالتّغلغل إلى ما اشتمل عليه النّصّ الشّعريّ من أسرار الفصاحة والبلاغة .

ومن هذه القضايا المتعلّقة بنقد الشّعر في « المثل السّائر » ؛ مسألة الإبداع والسّرقة والأخذ في الشّعر . وقد انفرد ابن الأثير في هذه المسألة ـ دون غيره من النّقاد الأوّلين ـ بالفطنة إلى الفرق بينما يكون إبداعًا حقًّا ، وما يكون سرقةً ، وما يكون من باب توارد الخواطر أو الأخذ المألوف . وابن الأثير هو الّذي تكلّم عن اتّساع الثّقافة للشّاعر ، واستخدام ضروب الإشارة والاقتباس ؛ على نحو ما تقول به مدارس النّقد الحديث عن عنصر الرّمز في عمليّة الإبداع الشّعريّ . ولابن الأثير كلامٌ قيّمٌ عن لغة الشّعر والنّظم ، في مقابل لغة النّثر ، والإطالة في الشّعر وأثرها على الإيجاب والسّلب في نقد الأعمال الأدبيّة الشّعريّة .

المحور السّادس : النّقد الأدبيّ الحديث .

*** حتّامَ نحن مَعَ الفتنة بإليوت ؟**

الفتنة بإليوت بين أدباء العرب المعاصرين كثيرةٌ ، ومنها أنّهم ينسبون إليه تفوّقًا في باب الإشارات والاقتباس . ولكنّ مذهب الإشارات والاقتباسات قديمٌ في العربيّة والإنجليزيّة . ولكنّ إليوت كتم سرقته ودَيْنَه للمعلّقات وشعر العرب . وهذا أمرٌ خفيٌّ على النّقّاد والأدباء العرب المعاصرين .

والحقيقة أنّ إليوت مقلّدٌ للطّريقة العربيّة في صناعةِ القصيد وصياغته ؛ فقد عرف العرب التّضمين والإشارة وغرائب البديع ، مع مذهبهم في الوصف وتداعي المعاني . والأمر مبسوطٌ في الأشعار العربيّة الّتي نؤكّد اطّلاع إليوت عليها .

المحور السّابع : اللّغة العربيّة وتاريخها :

*** اللّغة العربيّة المعاصرة .**

اللّغة العربيّة المعاصرة بابان ، هما : اللّغة العربيّة الفصيحة ، واللّغة العربيّة الدّارجة .

والتّقسيم إلى قديمةٍ ومتوسّطةٍ وحديثةٍ قد ينسجم مع الإنجليزيّة واللّغات الأوربيّة الأُخَر، ولكنّه لا ينسجم مع لغتنا العربيّة المعاصرة . فاللّغة العربيّة لم يحدث فيها تغييرٌ جوهريٌّ منذ العهد الجاهليّ الّذي وصلتنا رواية أشعاره وخطبه وأمثاله . وإذا كان مصطلح اللّغة العربيّة المعاصرة يدلُّ على معنى الدّوران في الاستعمال والسّيرورة ، والصّلاحيّة للتّعبير عن الأفكار والمعارف العصريّة ؛ فإنّ العربيّةَ فصيحةً ودارجةً مؤهّلةٌ لاستيعاب المعاني الّتي يستهدفها المصطلح .

والأمل معقودٌ أن يُرَدَّ على هذه اللّغة أسْرُها وبهاؤُها وارتفاع مستويات أساليبها ، حتّى تكون أداةً فاعلةً لحفظ النّصّ القرءانيّ ، وحفظ حضارة العرب والإسلام .

المحور الثّامن : الموازنات اللّغويّة :

أ ـ حول العامّيّ والفصيح .

الفصاحة جمال اللّغة وتختلف في الحواضر عن البوادي ، فلغة الحواضر فيها لينٌ ولحنٌ . على أنّ اللّغة الفصيحة والعامّيّة في أصلها شيءٌ واحدٌ ، والفرق بينهما بذوي نطق الكلام ؛ فهناك كلامٌ مبتورٌ ومتداخلٌ في بعضه ، لدرجة أنّ سامعه يقول : إنّ هذا الكلام من لغةٍ أخرى . وليس الأمر كذلك . وفي المدن يقولون كلامًا يعتقدون صحّته ، وهو فاسدٌ ولحنٌ، مثل كلمتَيْ : مدراء ، وأثرانا ومضارعه يثرينا .

ب ـ بين الفصحى والعامّيّة في وسائل الإعلام .

في القديم كان الإعلام يمثّله أصحاب الرّسائل والكتّاب والشّعراء . والآن أصبح التّخصّص العصري في الاتّصال الجماهيريّ بتعدّد أنماطه من إذاعةٍ وصحافةٍ وعلاقاتٍ ونحو ذلك . وفي الإعلام الحديث وسائل بارعةٌ ومناهج معتبرةٌ في نشر بعض مظاهر الكلام المُعْرَب أو المقارب له على نطاقٍ واسعٍ .

إنّنا ندعو الإعلام إلى تأكيد لغتنا القوميّة الدّالة على أصالتنا المرتبطة بلغة القرءان . على أنّه من الحكمة ألّا ننجرف في محاربة العاميّة ، ولكن ندرس اللّغة الفصيحة لنفهم القرءان

والحديث وأدب العرب ؛ فالأصالة المكتنّة في العاميّة تفيد دراستنا اللّغويّةَ البيانيّةَ وتغذوها بما ينبعث في بياننا من حين إلى آخر من بلاغةٍ وفصاحةٍ وتجويد وتجديد .

جـ- بين الفصحى والدّارجة .

اللّغة الفصحى مهمّةٌ ، واللّغة الدّارجة مهمّةٌ ، وهما من أصلٍ واحدٍ . الفصيحة ينبغي أن تدرس بأسلوبٍ يبلّغنا المقصد الأوّل من درسها ؛ وهو معرفة لغة القرءان والحديث والبيان العربي الأصيل في جذوره المتمثّلة في نتاج الشّعر والنّثر والخطابة ونحو ذلك ، عبر العصور . وفي قمّتها العصر الجاهليّ والشّعر الجاهليّ . ومع هذا فلا بدّ من المحافظة على أصالة اللّغة الدّارجة في كلّ بلدٍ عربيٍّ لما تتضمّنه من روح الجزالة والبيان الأوّل .

على أنّ نشأة لسانٍ مشتركٍ بين العرب من طريق وسائل التّواصل والإعلام الحديث أمرٌ كان ويكون ، وهو أمرٌ غايةٌ في الأهمّيّة ؛ وإن كان قد ظهر فيه التّلفيق الواضح بين الأساليب اللّغويّة الفصيحة والدّارجة . وهذا الاتّجاه يمثّل خطًّا وسطًا بين المتحمّسين للّغة الفصيحة ، والمتحمّسين للّغات الدّارجة والحرف اللّاتينيّ .

د- العربيّة في السّودان .

وصلتْ العربيّة للسّودان قبل الإسلام ، ووصل العرب أيضًا . غير أنّ العدد الأكبر جاء عن طريق مصر . ومنهم من جاء من طرقٍ أُخر . والغالب على الظّنّ أنّ العرب استوطنوا أرض شرق النّيل ، وصاهروا أهل المنطقة الأصليّين ، ووطّنوا اللّغة العربيّة في السّودان ، حتّى انتجتْ الأدب الغزير خاصّة الشّعر . وبسبب توطين اللّغة العربيّة في السّودان قبل الإسلام ، ثمّ بعد الإسلام ؛ كان الاهتمام السّودانيّ البالغ بالقرءان الكريم ، وكانت قراءة القرءان بعددٍ من رواياته ؛ منها : حفص ، والدّوريّ ، وورش .

هـ- من تجارب تعليم العربيّة في إفريقيّا .

هناك عددٌ من تجارب تعليم العربيّة في إفريقيّا ، أشهر هذه التّجارب بالسّودان ، ونيجيريا . ففي السُّودان صمّمتْ جامعة الخرطوم برنامجًا يمكّن الجنوبيّين النّاطقين بغير

العربيّة من نيل الإجازة الجامعيّة في تخصّص اللّغة العربيّة . وفي السّودان نشأ معهد تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها ، الّذي صار الآن باسم معهد الخرطوم الدَّوْلي للّغة العربيّة ، العامل تحت مظلّة المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم .

وفي نيجيريا نشأتْ أقسام اللّغة العربيّة بالجامعات النّيجيريّة ، وسط صراعٍ شرسٍ بين روّاد الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ، وبين المستعمرين وأتباعهم . وقد كانت أقوى محاور الصّراع في كانوا ، وأبادان ، وزاريا . حيث المشاريع الطّموحة لتدريس اللّغة العربيّة والثّقافة الإسلاميّة .

المحور التّاسع : فن التّعريب :

*** التّرجمة والتّعريب .**

للتّعريب مواقع كثيرةٌ من الأهمّيّة . وهذا البحث يُعني بتفصيلٍ لأهمّ أربعة المواقع ، وهي : الموقع القوميّ الّذي يؤكّد على كون اللّغات عنوان الأمم ، والموقع التّعليميّ ونبدؤه بتعليم القرءان حفظًا وترتيلًا ، وموقع لغة التّدريس الجامعيّ الّذي يؤكّد على ضرورة التّعريب ، وموقع الإعلام والاتّصال الجماهيريّ ، وهو موقع جدّ خطيرٍ ، فهذا الموقع هو الّذي ينقلنا نحن العرب عن طريق التّرجمة والتّعريب إلى الآخرين ، وينقل الآخرين إلينا ، وينقلنا إلى أنفسنا في وطننا العربيّ بإبداعات اللّغة العربيّة المشتركة .

المحور العاشر : بين اللّغة والأدب :

*** القاموس والشّاعر .**

صلة الشّاعر بالمعجم العربيّ قويّةٌ ، ففي المعجم المادّة اللّغويّة الّتي يحتاجها الشّاعر في إبداع أعماله . كما أنّ القافية تُطْلَبُ من أجل إكمال إيقاع نهايات الأبيات ، ونهايات التّصريع ، وأصناف التّقسيم والتّرصيع الملائمات لرنّة القافية ـ كذلك تُطْلَبُ من أجل إتمام المعنى ، مع تمام المواءمة لذلك ، والاستقامة لتركيب الكلام وسلاسته . وقد يعمد الشّاعر إلى غرائب الألفاظ في المعجم لاستخدامها في قوافيه ، وفي حَشْو أبياته . وقد يطلب هذه

الغرائب من أجل التّحسين لأشعاره ، ومن أجل إظهار المقدرات المتميّزة ؛ فإنّ ضروب الافتنان اللّفظيّ تحقّق سحر البيان المستهدَف في إبداع الشّعر . وعلى هذا فإنّ الشّاعر أكثر فائدةً من المعاجم المؤسّسة على آخر الكلمة بابًا ؛ مثل : الصّحاح للجوهريّ ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ، ولسان العرب لابن منظور .

المحور الحادي عشر ؛ التّحقيق الصّوتي والصّرفيّ والنّحويّ .

أ ـ إدغام الرّاء في اللّام بين القرّاء والنّحاة .

يرى شيخ النّحاة سيبويه أنّ الرّاء لا تُدْغَم في اللّام ؛ لأنّها حرف تكْرارٍ وتفشّي ، وإدغامها مع ما ليس يتكرّر ولا يتفشّى إجحافٌ . والزّمخشري يخطّئ هذا الإدغام ، وينفي نسبته إلى أبي عمرو بن العلاء . وفي النّشر أنّ السّوسيّ من قراءة أبي عمروٍ يدغم الرّاء في اللّام ، ويقرأ بالإدغام نحو : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾[1] و ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ ﴾[2] و ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾[3] . وذكر ابن الحاجب في الشّافية ؛ أنّ ذلك إدغامٌ ممنوعٌ . ومع هذا الموقف القويّ من سيبويه والزّمخشري وسائر رواة القرءان عدا السّوسيّ ؛ فإنّ شيخنا يقول : إنّ إدغام أبي عمروٍ الرّاء في اللّام صحيحٌ بالرّواية المحقّقة .

ب ـ التقاء السّاكنَيْن .

هناك صورٌ في فصيح اللّغة جاءت بالتقاء السّاكنَيْن ، بعضها في قراءاتٍ قرءانيّةٍ ، وبعضها في كلام العرب شعرًا ونثرًا . ففي القرءان ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾[4] ؛ قرأ أبو جعفر بتشديد الدّال مع إسكان العين . وقرأ أيضًا بتسكين العين في ﴿ نِعِمَّا ﴾[5] وفي الشّعر :

---

(١) الصّف ، الآية ١٢ .

(٢) الكهف ، الآية ١٦ .

(٣) لقمان ، الآية ١٤ .

(٤) النساء ، الآية ١٥٤ .

(٥) البقرة ٢٧١ ، والنّساء ٥٨ .

أنـــا عـــــديٌّ والسَّـــــخْلْ أمشي بهـــــا مشي الفَحْـــــلْ

وهو من شعر عديّ بن الزّغباء .

وجميع قوافي المترادف من صور التقاء السّاكنين . ومن ذلك قول الشّماخ بن ضرار الذّبياني :

لمّـــا رأتنـــا واقفـــي المطيّـــاتْ قامـــتْ تبـــدّي لي بأصـــلتيّاتْ

وفي القضيّة نقاشٌ طويلٌ مفيدٌ بين القرّاء والنّحويّين ، ولا سبيل إلى إدراك نتائج هذا النّقاش إلّا بالرجوع إلى أصل البحث ، وَفْق صِياغة شيخنا له .

جـ - مَعَ ابن التّلاميد وصرف عمر .

محمّد محمود بن التّلاميد الشّنقيطيّ ، المتوفي سنة ١٩٠٤م ؛ عالمٌ متمكّنٌ ، وأديبٌ حجّةٌ ثبتٌ . وله نظراتٌ بعيدة الغور في نحو العربيّة وآدابها . ومن تلك النّظرات قوله عن الاسم « عُمَر » أنّه مصروفٌ ، ولنا أن نقول فيه : جاء عمرٌ ، ورأيتُ عمرًا ، ومررت بعمرٍ.

ويقول ابن التّلاميد : إنّ القول بمنع « عُمَر » من الصّرف مذهبٌ أعجميٌّ نسبه النّحاة إلى الخليل خطأً :

مقـــالتُهم بـــالمنع والعـــدل مفـــترًى على عمرٍ ذي الصّرف رغمًا على رغم

وقد قال سيبويه في باب فُعَل ، ممّا ينصرف ولا ينصرف :

« اعلم أنّ كلّ فُعَلٍ كان اسمًا معروفًا في الكلام أو صفةً فهو مصروفٌ . فالأسماء نحو صُرَدٍ ، وجُعَلٍ . والصّفات نحو حُطَمٍ . تقول : هذا رجلٌ حُطَمٌ . قال القيسيّ :

قـــد لفّهـــا اللّيـــل بســـوّاقٍ حُطَـــمٍ »[1]

ولكنّ سيبويه في موطنٍ آخر يقدّر منع عُمَر وزُفَر من الصّرف . وشيخنا يقول : إنّ ما ذهب إليه القدماء من أنّ عُمَرَ معدولٌ عن عامر هو الصّواب ، وعليه فهو عنده ممنوعٌ من

---

(١) الكتاب لسيبويه ، باب فُعَل ، ممّا ينصرف ولا ينصرف .

الصّرف ، والتّطبيقات العمليّة في كتاباته تؤيّد ذلك .

المحور الثّاني عشر : موسيقا القوافي :

*** عدّة القوافي بين الخليل والأخفش .**

تعريف الخليل يُدْخِل في مدلول القافية حرف الرّويّ وغيره ، من وصلٍ وخروج وتأسيسٍ وردفٍ وما أشبه . فقد رُوِيَ عن الخليل أنّه قال : « إنّ القافية من آخر البيت إلى أوّل ساكنٍ يليه مع المتحرّك الّذي قبل السّاكن »[١]

وقد بسط عبد الله الطّيّب في هذا البحث أوجه التّمثيل للأوزان والصِّيغ الثّلاثين الّتي رواها الأخفش عن رواته عن الخليل . وهي موزّعة : للمتكاوس واحدةٌ ، وللمتراكب أربعٌ ، وللمتدارك ستٌّ ، وللمتواتر سبعٌ ، وللمترادف اثنتا عشرة .

المحور الثّالث عشر : الثّقافة العامّة :

أ ـ بعض الأعلام الجغرافيّة المشهورة .

من هذه الأعلام الحبشة ، وهو اسمٌ كان للمنطقة الّتي بها إثيوبيا والسّودان الآن . وفي مروج الذّهب للمسعودي ، وفي كتاب هيرودتس المترجم عنه إلى الإنجليزيّة ، ما يُصدّق ما ذهبنا إليه . فالمسعودي يقرّر أنّ بلاد الحبشة مبدؤها من أرض الجنادل جنوب أسوان . وهيرودتس يقول : إثيوبيا من عند جزيرة الفيل بأسوان ، وعاصمتها مروي . يعني مروي البجراويّة ، بالقرب من بلدة كيوشيّة ، شماليّ مدينة شندي .

ومن هذه الأعلام « سوبا » وهي بالقرب من العاصمة السّودانيّة الخرطوم . ولا يستبعد عبد الله الطّيّب صلات « سوبا » بمدينة « سبأ » اليمنيّة القديمة ، وبمملكتها التّاريخيّة . ويرى أنّ ملوك مروي البجراويّة القدماء من أصلٍ سابقٍ للسّبئيّة . ويرجّح اشتقاق الخطّ المسماريّ إلى أصل هؤلاء البجراويّين[٢] .

---

(١) هذا الكتاب ، ص ٦١٥ . وفيه نسب شيخنا النّصّ إلى قوافي أبي الحسن ، ص ٦٠ ، طبعة دمشق . (حسن) .

(٢) أعتقد أنّ القضيّة بحاجةٍ إلى مزيد بحثٍ من الدّارسين المتخصّصين ، بغرض استكساف حقيقة أمرها . (حسن) .

ب - خواطر عن أسماء بعض الأماكن في بلدنا .

عبد الله الطّيّب بثقافته المتّسعة يجعل من الشّيء البسيط عظيمًا ؛ فكثيرون من أهلنا في السّودان لا يعرفون من أسماء الأماكن الّتي ذكرها إلّا أنّها اسمٌ لهذا البلد أو ذاك . ولكنّ عبد الله الطّيّب يبحث أصل التّسمية اللّغويّ والاجتماعيّ . كما يبحث عن انتماء هذا الاسم للثّقافة العربيّة الإسلاميّة ، أو إلى الثّقافة النّوبيّة ، أو إلى غير ذلك .

وهذا الموضوع لا أعتقد أنّه بالإمكان تلخيصه ؛ فالمعرفة المنوطة به لا تكتسب إلّا بالرّجوع إلى أصل البحث، كما هو بصياغة عبد الله الطّيّب .

المحور الرّابع عشر : إبداع الشّعر المجمعيّ :

أ - تحيّةٌ لمجمع اللّغة العربيّة وتهنئةٌ بعيده الذّهبيّ .

هذه قصيدةٌ يائيّة طويلةٌ ، جاءتْ في واحدٍ وثمانين بيتًا ، استهلّها عبد الله الطّيّب الشّاعر:

مضى عـــلى مجمـــع الضّـــا دِ نصـــفُ قـــرنٍ فحيّـــوا

وختمها :

ثـــمّ السّـــلام علـــيكم وكلّكُـــم بي حفـــيٌّ

وفيها :

إنّ الجزالـــة عنـــدي هـــي البيـــان النّقـــيّ

ب - رثاء الدّكتور طه حسين .

هذه كلمةٌ في تسعةٍ وأربعين بيتًا ، وموضوعها رثاء عضو مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ؛ الدّكتور طه حسين .

والقصيدة في تدفّقها وانسيابها تدلُّ على علاقةٍ ودودةٍ متميّزةٍ بين عبد الله الطّيّب والمرثي .

فطه حسين هو الّذي قدّم كتاب عبد الله الطّيّب « المرشد إلى فهم أشعار العرب

وصِناعتها » للقرّاء . وقال عنه : إنّه لم يُتح لنا مثله في العصر الحديث . وقد استهلّها :

ثـــوى الحـــبر طـــه إلى ربّـــه   وخلّـــــده الله في حزبـــــه

وختمها :

فـــذاك عـــذاءٌ وكـــلّ الـــورى   يســـوقُهم المـــوت في ركبِـــهِ

وفيها :

ويَنْبِســـم حتّـــى ضـــياء البصـــير   ةِ تـــبصره العـــين مـــن صـــوبِهِ

جـ - رثاء العلّامة محمود محمّد شاكر .

هذا عملٌ أدبيٌّ متميّزٌ ومتدفّقٌ ، وقد أُبدِع في ستّةٍ وخمسين بيتًا من الشّعر العموديّ الرّصين ، وقافيتُه نونيّةٌ مكسورةٌ ؛ ليحكي الأنين ، وليحكي الكسر الّذي أصاب الشّاعر بموت المرثيّ :

جـــاء بنعـــيٍ ثـــمّ عـــزّاني   لم يـــدركَمْ أشـــعل نـــيراني

وفي هذه القصيدة وصف عبد الله الطّيّب محمود محمّد شاكر بأوصافٍ متفرّدةٍ ، هو بها قمينٌ ، ولها أهلٌ :

عزيـــزُ نفـــسٍ ذو حفـــاظٍ وذو   صـــدرٍ لكنـــز العلـــم خـــزّانِ

والمرثيُّ الممدوح مستمسكٌ باللّغة العربيّة والدّين الإسلاميّ ، مدافعٌ عنهما ؛ فإذا اعترضه خصمٌ رماه رمية عامر الخضريّ بالحزّاء ، والكبداء ، والمرنان . وإذا اقتربَ شيطانٌ من سمائه انقضّتْ عليه شهبه الرّاصدة :

ذو أســـهمٍ مثـــل أخـــي الخضـــير   يـــرميهنّ عـــن كبـــداء مرنـــانِ

وشـــهبٌ يقـــذفها عـــن ســـما   ء الحـــقّ تـــردي كـــلّ شـــيطانِ

د - رثاء الدّكتور إبراهيم مدكور .

هذه قصيدةٌ رائيّةٌ مكسورةٌ ، ولعلّها ترمز إلى مقاربة الحزن نفسيّة الشّاعر ، وتحكي الكسر النّفسيّ الّذي أصاب عبد الله الطّيّب بفقد إبراهيم مدكور ، كما أنّ الرّاء حرف

تكريرٍ ؛ فلعلّ ذلك يرمزُ إلى أنّ حزن عبد الله الطّيّب على إبراهيم مدكور متكرّر متجدّدٌ :

نَعَتْ كبيرًا شهيرًا غيرَ مغمورِ   رسالةٌ ضُمِّنتْ منعًى لمدكورِ

وفي هذه الرّائعة الرّائيّة المكسورة يشير إلى حُسْن إدارة مدكور للمجمع ، وسعيه الجادّ الحازم في ذلك :

وكان - وهو كبير السّنّ - ذا دأبٍ   وما ونى قطّ في حزمٍ وتدبيرِ

ولولا علم مدكور ودأبه وحُسن إدارته لما ثمّ إنجاز المعجم الوسيط ، والمعجم الوجيز:

والمعجمان وسيطٌ والوجيز معًا قد   زيّنا صحبة المصباح في الدّور

أهـ . الخاتمة .

مذكّرة الختام

وفيها ثلاث كلماتٍ

(٦٩١ - ٧٠٠)

الكلمة الأولى - ملاحق هذا الكتاب .

الكلمة الثانية - أربعة نماذج من آراء المجمعيّين العرب .

الكلمة الثّالثة - شكر المساعدين .

الكلمة الأولى ــ ملاحق هذا الكتاب

في خطّة هذا الكتاب عددٌ من الملاحق ، فقربي من عبد الله الطّيّب ملّكني ثلّة من المعرفة المنوّعة بشخصيّته ، وقد رأيتُ أنّ الكتاب سانحةٌ لإعلان هذه المعرفة ؛ فقد درستُ عليه ضمن طلّاب صفّ الشّرف بجامعة الخرطوم ، ثمّ حضّرتُ بإشرافه رسالتي للماجستير ، وهي الّتي تمخّض عنها كتابي « المعلّقات السّبع ؛ دراسةٌ للأساليب والصّور ..» والّذي طُبع طبعةً ثالثةً . ومن وجوه هذا القرب ، أنّني زرته بفاس ، أثناء عمله بجامعة سيدي محمّد بن عبد الله وهناك قرأتُ عليه المعلّقات ، وطائفةً من المفضّليّات . وأنّه زار الإمارات زياراتٍ متكرّرةً أثناء عملي بها محرّرًا بجريدة الاتّحاد الظّبيانيّة ، ثمّ مدرِّسًا ومحاضرًا وأستاذًا مساعدًا ، بجامعة الإمارات بالعين .

وقد كان ضمن خطّة هذه الملاحق عددٌ من الملفّات :

أ ـ في الخطاب الإنشائيّ لعبد الله الطّيّب .

ب ـ عبد الله الطّيّب يتحدّث عن سيرته الذّاتيّة .

جـ ـ استقبال أحد عشر عضوًا بمجمع اللّغة العربيّة [بينهم الدّكتور عبد الله الطّيّب] ؛ كلمةٌ ضافيةٌ للدّكتور إبراهيم مدكور .

د ـ عبد الله الطّيّب في آراء العلماء المجمعيّين العرب والمستعربين .

هـ عبد الله الطّيّب ؛ دورٌ مميّزٌ في إدارة الصّراع النّيجيريّ بين أنصار الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ، وأنصار الثّقافة الأوربيّة .

و ـ كيف كان عبد الله الطّيّب بفاس محورًا للقاء العلم العربيّ الشّرقيّ بالعلم العربيّ المغربيّ ، وكيف كان ممثّلًا لكلّ العرب في لقاء المستعربين والدّوليّين ؟

ز ـ مذكّراتي الخاصّة عن أداء عبد الله الطّيّب في صفّ الشّرف بجامعة الخرطوم ، وفي

الإشراف على الدّراسات العليا ؛ رسالتي للماجستير نموذجًا .

حـ - عبد الله الطّيّب في مجمع اللّغة العربيّة السّودانيّ بالخرطوم ؛ المؤسّسُ ، والقيادة .

ولّما جمعتُ هذه الملفّات ألْفيتُها أكبر حجمًا من الكتاب ، فعدلتُ عن ذلك لعدّة أسبابٍ:

الأوّل - إنّ موضوعات هذه الملاحق ستصرف القارئ عن الغرض الأساس للكتاب ؛ وهو بحوث عبد الله الطّيّب بمجمع القاهرة .

الثّاني - ستجعل حجم الكتاب كبيرًا بصورةٍ غير مألوفةٍ .

الثّالثُ - ستخرج الكتاب من دائرة التّصميم المنهجيّ الّذي يقتضي أنْ تكون الملاحق أقلُّ حجمًا من أصل الكتاب .

الرّابع - هذه المادة مشروعٌ لكتابٍ آخر عن شيخنا ؛ كتابٍ سيتجاوز عبد الله الطّيّب الشّخصيّة العلميّة الفذّة ، إلى عبد الله الطّيّب المدرسة المتميّزة في التّحقيق اللّغويّ ، وصِناعة الوثبة البيانيّة في العصر الحديث . وهي مدرسةٌ لها أصولها وجذورها ، ولها فروعها بهيجةً مثمرةً ، ففي فروع هذه المدرسة أخي الأستاذ الدّكتور بابكر البدوي دشين (رحمه الله) . وفيها أخي وأستاذي الحبر يوسف نور الدّائم أمدّ الله في أيّامه المباركات ؛ لتأكيد وتطوير تجربة مدرسة التّحقيق اللّغويّ والوثبة البيانيّة ، وتصنيف ذلك لخدمة حفظ القرءان ، وتنزيل فكر الإسلام لواقع المسلمين .

على هذا فإنّ هذه المادّة وغيرها ستكون (إن شاء الله) ضمن خطّة كتابي التّالي ، المقترح له اسم :

عبد الله الطّيّب

رائد مدرسة التّحقيق اللّغويّ والوثبة البيانيّة في العصر الحديث

الكلمة الثّانية ـــ أربعة نماذج من آراء المجمعيّين العرب

النّموذج الأوّل. رأي الدّكتور عبد الهادي التّازي ؛ عضو أكاديميّة المملكة المغربيّة .

جمعتني بعبد الله الطّيّب صلاتٌ جدّ قويّةٍ عندما كان عندنا في المغرب ، حيث ترك لك ذكرًا لا يبلى في بلادنا ، وأعطى من أفاويق لبانه لطلبتنا وطوالبنا ما سيظلّ اسمه معه ماثلًا أمام أبصارنا حيًّا بين ظهرانينا ...

إن لأخينا عبد الله رصيدًا بمغربكم أيّ رصيدٍ ، فكلّ منتسبٍ للحرف العربيّ ، وكل معتزٍّ بالمعرفة بفاس يتسابق للانتساب إلى ساحته ، على أنّه منفّذٌ صادقٌ للمعرفة وأنّه معينٌ صافٍ ، وقد كتب عنه تلامذته الشّيء الكثير ممّا لم يحدث بالنّسبة لكثيرٍ من الأساتذة الّذين عرفتهم السّاحة المغربيّة ، وقد أصبح اسمه متداولًا عند الطّلاب ومرجعًا لهم في أطاريحهم وفي مقالاتهم ، لأنّه كان فريدًا في عطائه ، متميّزًا في أسلوبه ، لقد ألفوا نبرة صوته حتى لكانوا يستحضرونه عند كلّ نقاشٍ ويقلّدونه عند الحديث ، وقد قدّروا تواضعه لطلبته وزملائه حتّى لكان مضرب المثل .

ولقد أمسى اسم عبد الله الطّيّب لدى المجالس العلميّة الملكيّة اسمًا مرغوبًا فيه مطلوبًا لدى سائر الّذين يحضرون تلك الدّروس من علية القوم ، علماء وباحثين ووزراء وسفراء وضبّاطًا عسكريين كانوا يتطلّعون في كلّ موسم إلى ذلك السّودانيّ العلّامة الفحل ، كلّ هؤلاء عرفوا فيه عمقه وصدقه وتفرّسه ، ولعلّه الوحيد الّذي كان يملي دروسه أمام جلالة الملك دون أن يستعين بورقةٍ أو مذكرةٍ ... إنّه بحرٌ زاخرٌ وعالمٌ حاضرٌ في كلّ مجالٍ ، ولقد سمعت بأذنيّ من جلالة الملك الحسن الثّاني (رحمه الله) الثّناء العاطر على عبد الله الطّيّب ، الّذي كان ينعته بأشرف نعوت العلماء ، وكان يستمتع باستشهاداته العربية الفريدة من قلب القواميس والمعاجم ، وكان يوصي باستبقائه في المغرب ليظلّ على صلةٍ

بالجامعات المغربيّة ، وليأخذ عنه أكبر قدرٍ من الطلبة .

لقد أخذ النّاس عنه فكرةً صادقةً وكان عندنا حجةً دامغةً في باب القول وعيون الكلام، وما نزال ، سواء أكنّا بالقاهرة أو في جولاتنا بالإسكندرية أو الأقصر أو الغردقة ما زلنا نذكر تدخلاته حتّى في أثناء هذه الأسفار من أجل تصحيح مفرد أو استذكار بيتٍ من الشّعر ، لكن ما كان يريحني في عبد الله ، ممّا لا يذكره عنه عباد الله ، أن الرّجل كان ذا أريحيّةٍ متناهيةٍ ، فهو خفيف الدّم ، يأخذ معك طريق الفكاهة والمرح والنّكتة ، حتّى لتعتقد أنّه لا يعرف غير النّكتة والمزاح ، وهو في أخبار القوم ونعوتهم ونوادرهم خزان لا ينفد ، وهكذا كنّا نقطع المسافات الطّوال برًّا وبحرًا وجوًّا لا نشعر بملل ولا ثقل .

وفي غير العلم وفي غير الثّقافة كنّا نلاحظ في الرّجل غيرته على بلاده ، بميزته على بني قومه ، فهو في باب السّياسة فارسُ الميدان ، وهو على خبرةٍ تامةٍ فيما يجري على صعيد العلاقات بين الحكام ومعجم البلدان !!

ولقد كان ما يثلج صدر البروفيسور عبد الله أنّه كان يشعر في آخر أيامه معنا في المجمع، أنّه ترك وراءه ذخائرَ لا تقدّر بثمنٍ ، رصيدًا ثمينًا جعل اسمه محبوبًا مكرّمًا ، بل وجعل له مرجعيّةً لدى أهله وذويه ممّن يمتّون إليه بآصرة ... وكان يردّد باستمرار ما يتمنّى ترديده كل مؤمنٍ بالمصير ...

مَتَى يَأْتِ هـذا المـوتُ لم تُلْـفَ حاجـةٌ ... لـنفسي إلّا قـد قضـيتُ قضـاءَها

***

النّموذج الثّاني - رأي الدّكتور محمّد المختار ولداباه ؛ رئيس جامعة شنقيط العصريّة بانواكشط ، الجمهوريّة الإسلاميّة الموريتانيّة .

الدّكتور عبد الله الطّيّب حافظ لغة العرب العرباء ؛ من ألمع من عرفت من أدباء العرب ، كان (رحمه الله) موسوعة في اللّغة والشّعر ، وهبه الله سبحانه ذاكرة فائقة ، وبديهة رائعة .

فكم كنت أستمتع بالاستماع إليه ، أثناء مداولات مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة ، وهو يسرد بصوته الجهوريّ الجميل عروضه الأدبية الرائقة ، التي ينزعها من خزانة حافظته الفذّة ، وكأنّه يقلب في صفحات فكره مباحث مادته ، وشواهد حجته .

وقد كان عطاؤه متميزًا في حجمه وجودته ، ومن أبرز ما ترك في مجال الآداب كتابه الفائق في صناعة الشّعر المسمّى « المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها » ، وهو المصنف الذي صار مرجعًا عالميًّا في استخراج عناصر الجودة في الشعر ، وبيان علاقات أوزانه وبحور القريض بمظاهر الإبداع الفني ، ولا عجب في نجاحه الباهر في هذا العمل الجليل ، إذ كان مؤلفه شاعرًا ماهرًا وناقدًا بصيرًا ، وعالمًا خبيرًا .

ولست أفتأ أذكر ما كان لي معه من محاورات أدبية ومطارحات أخوية ، منها التي قالها لما أهديته تاريخ النّحو العربيّ عوّضني بنسخة من كتابه وسجل فيها الأبيات التّالية :

إلى المختـــــار أبـــــاه المجيـــــد	أبي العلـــــم الممـــــدّح والرشـــــيد
ولـــو قلـــت المـــبرح كـــان وجهًـــا	لكلمـــة أحمـــد في ابـــن العميـــد
وفي موريتانيـــــا شـــــعرٌ كثـــيرٌ	شـــديد الأسر رنـــــان النّشـــيد
وفي مـــا اختـــاره مـــا فـــاق شـــعر الــ	ـــوسيط بكـــل قافيـــة شرود
ســـأقرأه بـــإذن الله أبغـــي	بـــه إمتـــاع ذهنـــي بالقصـــيد
جـــزاك الله خـــيرًا ثـــمّ هـــذا	كتـــابي يـــا أخـــا القـــول السّـــديد

وإني أعيد اليوم ما في بيته الأخير لأقول : جزاه الله خيرًا عن اللّغة العربيّة وعن الأمة العربيّة وعن القيم العربيّة الرّفيعة .

النّموذج الثّالث - رأي الأستاذ أحمد شفيق الخطيب ؛ عضو مجامع اللّغة العربيّة في القاهرة ، وعمّان ، ودمشق ، والقدس .

عبد الله الطّيّب أديبٌ كبيرٌ وشاعرٌ مُفَوّهٌ ولُغَويٌّ مُتعمِّقٌ ومجمعيٌّ عريقٌ .

كان لي شرفُ زمالته في مجمع اللّغة العربيّة القاهري على مدى أربعة عشر عامًا ، فعرفت فيه ، أنا كما سِواي ، المرجعَ اللّغويّ الفذّ والمناقِش الرّصين ؛ يُقدِّمُ أراءً ومناقشاتٍ في شتّى المواضيع تلقى الاحترام حتى من أهل الاختصاص .

فهو من النّوع الّذي يفرضُ وجودَه في كلّ جلسةٍ . حتّى في بعض المجالات العلميّة ، وأصبَحنا معتادين على مُداخلاته وآرائه ونقاشاته الّتي يختلِط فيها النّثر بالشّعر . حتّى في سَنواته الأخيرة ، حين يتعذّر عليه الحضور ، كُنّا نفتقِدُ وجودَه فنتَلقّى أخبارَه عن طريق الزّملاء السّودانيّين في المجمع . ثُمّ جاءَنا خبر نعيه - وأذكر أن زميلًا كان بجواري قال لي بالفارسيّة : « جاي عبد الله الطّيّب خالي » ، فقلت له : « الجاي خالي لكن الذكرى بُرِيْ* » .

عبد الله الطّيّب لا تفتقده المجامع فقط ، وبخاصةٍ مجمع الخرطوم الّذي كان للطّيّب اليد الطّولَى في تأسيسه كما لا تفتقده الكثرة من عارفيه فقط بل تفتقده الأجيالُ الّتي عرفته على المدى المديد أُستاذًا ومُرَبيًا في معاهد أجنبيّةٍ وعربيّة ، أذكرُ منها معهد اللّغات الشّرقيّة بلندن ثمّ معهد بَخْتَ الرّضا (المعهد التّربوي المتميِّز الّذي قدّمتُ عنه رسالةً خلال دراستي في الجامعة الأمريكيّة في بيروت) ، ثمّ نجده في جامعة الخرطوم أستاذًا وعميدًا .

أمثالُ عبد الله الطّيّب لا يموتون . فقط الجسَد يَغيب لكنّ الذّكرى تَبْقَى ، والمثوى جَنّاتُ النّعيم .

---

* « بري » باللّغة الفارسيّة تعني موجودٌ .

النّموذج الرّابع - رأي الدّكتور علي القاسمي ؛ الكاتب الأكاديمي العراقي ؛ المقيم بالمغرب .

كان من حسن حظّي أن أتشرّف بمعرفة العلّامة الأديب الأستاذ الدّكتور عبد الله الطّيّب عندما كان أستاذًا زائرًا في كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بفاس في المملكة المغربيّة في أواخر السّبعينيّات من القرن الماضي ، وكنتُ آنذاك خبيرًا في مكتب تنسيق التّعريب بالرّباط . وكان المرحوم الطّيّب وزوجته الفاضلة يمضيان بعض عطل نهاية الأسبوع في الرّباط فيشرِّفان منزلي . وقد تكرّمتْ السّيدة زوجته بإهدائي لوحةً زيتيةً رائعةً رسمتْها لأحد أبواب مدينة فاس القديمة ، ووقعتْها بـ Griselda, Fez ٧٩ وما زلتُ أعلّقها باعتزازٍ وفخرٍ في مكتبتي في المنزل .

وقد حظي المرحوم الدّكتور الطّيّب بمحبة علماء المغرب وعلى رأسهم المغفور له الملك الحسن الثّاني ، فكان الدّكتور الطّيّب يشارك في الدّروس الحسنيّة الّتي تنظّم كلّ شهر رمضان ، حتى بعد عودته إلى السّودان . وكنتُ أغتنم وجوده في الرّباط ، فأدعوه إلى منزلي لأستمع إليه وأتعلّم منه . وذات يومٍ اقتنيتُ نسخةً من كتابه القيّم حقًّا « المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها » الّذي قال عنه عميد الأدب العربي الدّكتور طه حسين في تقديمه له : « هذا كتاب ممتعٌ إلى أبعد غايات الإمتاع . لا أعرف أنَّ مثله أُتيح لنا في هذا العصر الحديث » . ووضعتُ نسختي من الكتاب ، بين يدي الدّكتور الطّيّب راجيًا منه أن يوقِّعها لي . فكتبَ على صفحة العنوان : « هذه النّسخة مسروقةٌ . وسأرسل لك نسخةً غير مسروقةٍ ومعها الجزء الرّابع في مجلدين إن شاء الله . عبد الله الطّيّب ١٩/ ٢/ ١٤١٢هـ » .

كان آخر لقاء لي معه ، رحمه الله ، في مؤتمر التّعريب الثّامن والتّاسع الّذي انعقد في مراكش ، ٤-٨/ ٥/ ١٩٩٨ م ، وكان من أبرز رؤساء المجامع الّذين شاركوا في المؤتمر . وفي كلمته الّتي ألقاها لفتَ الأنظار إلى ضرورة معالجة ضعف العربيّة لدى النّاشئة ، ودعا إلى الأخذ بأصول المناهج العربيّة الأصيلة كالبدء بحفظ أجزاء من القرءان الكريم ، وتعليم النّاشئة نماذج من الكلام الفصيح من الأشعار والأمثال .

الكلمة الثّالثة ـــ شكر المساعدين

فاتحة هذا الشّكر لأستاذي الدّكتور كمال محمّد بِشْر ؛ نائب رئيس مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ؛ فبدعوته الكريمة حضرتُ احتفالات المجمع بعيده الماسيّ ، وحضرتُ المؤتمر العامّ للمجمع ، في دورته الثّالثة والسّبعين . وفي ظلال دعمه المعنويّ ورعايته المكثّفة اطّلعتُ على جميع شعب قواعد المعلومات بالمجمع ، وكان ذلك المفتاح الّذي دخلتُ به إلى إعداد هذا الكتاب . وفيما قال لي وقتئذٍ : كلُّ إمكانات المجمع متاحةٌ لابني حسن بشير، وعبد الله الطّيّب يهمّنا كما يهمّكم .

وخلال المؤتمر جمعتني صلاتٌ علميّةٌ متميّزةٌ بالأخ الدّكتور عبد الهادي التّازي ؛ عضو أكاديميّة المملكة المغربيّة . وبالأخ الدّكتور محمّد المختار ولد اباه ؛ رئيس جامعة شنقيط العصريّة بموريتانيا . وقد ألْفيتُ منهما تشجيعًا عريضًا متواليًا على إنجاز ما استهدفتُ . وقال لي الزّميل عبد الهادي التّازي : هذا توجّه برٌّ ، وتوجّه البرّ لا بُدّ من إنجازه وعبد الله الطّيّب أهلٌ وأهلٌ وأهلٌ . فللأخوين الكريمَيْن بقامتَيْهما السّامقتَيْن الشّكر أجزله .

وهنا في وطننا العزيز استحقّ منّي الشّكر الخاصّ زميلي في الدّراسة الجامعيّة الأخ الأستاذ فقير ساتّي محمّد فقير ، جاري بمربّع ٧ ، امتداد شمبات ، بالخرطوم بحري ، فقد سهر معي اللّيالي الطّوال لمراجعة الطّباعة مع أصول البحوث ، كما سهر معي اللّيالي الطّوال في إعداد الفهارس الفنّيّة .

***

الفهارس الفنّيّة

(٧٠١ - ٧٦٨)

أولًا ـــ فهرس الكتب

***

ثانيًا ــ فهرس الشّعراء

اسم الشاعر	الصفحة
ابن الأبار :	٥٧٩
الأبيوردي :	٣٣٢ ، ٥٧٩
ابن الأثير :	٤٤٨
أحمد محرّم :	٢١١
ابن أحمر :	٧٩ ، ١٧٢
الأحوص :	٣٥ ، ٤٠٩
الأخطل :	٦٠ ، ٦٢ ، ١٣٣ ، ١٧٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨
إزرا باوند :	٤٥٧
الأسود بن يعفر :	٧٣
ذو الإصبع :	٦٢٣
الأعشى :	٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٧٩، ١٦١، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٣٤ ، ٢٥٧ ، ٣١٦، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٤٥٠
أعشى بكر :	١٩٣
إليوت :	٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٥، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢

اسم الشاعر	الصفحة
لسان الدّين الخطيب :	٢١٣
لقمان :	٦٣
ليلى الأخيليّة :	٤٦٩
مالك بن الرّيب :	٦٠٧
متمّم بن نويرة :	٩٤، ٩٨، ١٠٠
المتنبي :	٤٢ ، ٧٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٩٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٥٤ ، ٤٦٩ ، ٥٠٢ ، ٥٢٩
المثقّب العبدي :	١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ٥٠٢
محمّد سعيد العبّاسي :	٣٥٦
المخبّل السّعدي :	٤٦ ، ٤٧ ، ٩٤
المرّار بن منقذ :	٧٧ ، ١٨٦ ، ٤٢٤
المرتضى :	١٠٤
المرقّش الأصغر :	٦٩ ، ٧٢ ، ٦٢٥
المرقّش الأكبر :	٣٧ ، ٤١ ، ٣٤٥ ، ٥٩٧ ، ٦٢٧
مروان بن أبي حفصة :	١٦٢
مزرّد بن ضرار الذّبياني :	١١٥ ، ٣٢٤
أبو مسافع :	٦٢٧
مطرود الخزاعي :	٤١٠
أبو العلاء المعري :	١٩ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٢٢٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٩ ، ٥١٧ ، ٥٣٥ ، ٥٧٨ ، ٥٩٧ ، ٦٢٠ ، ٦٣٦ ، ٦٤٠ ، ٦٧٧

اسم الشاعر	الصفحة
ابن مقبل :	١٧٢
ابن مناذر :	١٨٩
المهلهل بن ربيعة :	٧٤ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢
مهيار الدّيلمي :	٤٠ ، ٨٣ ، ٢٠١
ابن ميّادة :	١٨٦
النّابغة الذّبياني :	١٤ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٧٦ ، ٣٢٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٤١ ، ٤٥٨ ، ٦١٣ ، ٦٢١
النّبهاني :	١٩٢ ، ١٩٥
أبو النّجم العجلي :	١٧٩ ، ٣٤٨
نزار قبّاني :	١٩١
أبو نوّاس :	١٩ ، ٨٢ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٨٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٩ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩
نكسون :	٤٧٤
الهذلي :	١٧١ ، ٤٤٦ ، ٥٧٧
هرم بن سنان :	٣٢١
والتردي لامير :	٤٥٨
ورديار دكيلنج :	٤٧٧
ابن الوردي :	٣٣٣
الوليد :	٥٧٨

***

ثالثًا ــ فهرس الأعلام غير الشّعراء

الأعلام غير الشّعراء	الصفحة
سلمى (محبوبة سويد) :	٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٧
أمّ سلمة :	٦٣٤
سليم النّعيمي :	٣٩٢ ، ٣٩٤
سليمان (عليه السّلام) :	١٦٣ ، ١٧٤ ، ٥٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٢
سليمان بن عبد الملك :	٢٣٠
سليمان بن علي :	٣٢٣
سميّة (والدة زياد) :	٥٧
سهيل بن عبد الرحمن :	٨٤
سويد بن أبي كاهل اليشكري :	٢٩٢ ، ٣٠٣
سيبويه :	٩٩ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ٢١٩ ، ٢٤٧ ، ٣٠٤ ، ٣٦٥ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤٩١ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٧٦ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٦ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٨
سيف الدّولة الحمداني :	٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤
سيف بن ذي يزن :	٥٣٣
ابن سينا :	٥٦٧
شأس :	١١٤
شارس لام :	٦٣

الأعلام غير الشّعراء	الصفحة
محمّد المختار ولد اباه :	٦٩٧ ، ٧٠٠
محمّد المسّاوي :	٢١٢
محمّد معين :	٤٨١
محمّد نور الحسن :	٢٠ ، ٥٣٢
محمود أنيس :	٣٥٢
محمود محمد شاكر :	٥ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ٢٦٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٧٦ ، ٦٨٨
ابن محيصن :	٥٩٠
مذافر بن أوس :	١٤٨
المرزوقي :	٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٧ ، ١٤٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٤٣٣ ، ٤٥٢ ، ٦٧٥
المرقّش :	٨٣
أبو مروان بن حيّان :	٤٩٨
ابن مسعود :	٥٢٥
المسعودي :	١٠ ، ٢٣ ، ٦٣١ ، ٦٨٦
مسلم (الإمام) :	٥٤ ، ٦٠٣
مسلمة بن عبد الملك :	٢٣٠ ، ٢٥٥
المسيب بن علس :	٤٠٩
مصطفى جواد :	٣٨٧ ، ٣٩٣
مصطفى صادق الرّافعي :	٥٦٩
معاوية بن أبي سفيان :	٥٧ ، ٦٠٤ ، ٦٣٩

***

رابعًا ـــ فهرس الأماكن والبلاد والقبائل

خامسًا ـــ فهرس المؤسّسات والهيئات

أ هـ . الفهارس .

والحمد لله قبلًا وبعدًا ،